

نَفْحُ الطَّيِّبِ مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِّيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التيساني

حقيقته
الدكتور إحسان عباس

المجلد الثاني

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٢

العلماء والعلماء

ابواب الخامس

في التعريف ببعض مَنْ رَحَلَ من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية
العرّار والبشام ، ومدّح جماعة من أولئك الأعلام ، ذوّي العقول
الراجحة والأحلام ، لشامة وجنة الأرض دِمَشْق الشام ، وما اقتضته
المناسبة من كلام أعيانها ، وأرباب بيانها ، ذوي السؤدد والاحتشام ،
ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلّها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجرة ،
وشاهدَ برق فضلها المبين وشام

اعلم — جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال — أنّ حَصَرَ
أهل الارتحال ، لا يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يَعْلَم ذلك على الإحاطة إلّاّ علام
الغيوب الشديد المِحال ، ولو أطلقنا عِنانَ الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء
الأعلام ، لطال الكتاب وكثر الكلام ، ولكنّا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط
من غير إطناب داع إلى الملل واختصار مؤدّ للملام ، فنقول مستمدين من واهب
العقول :

١ — منهم عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السُّلَمي^١ : وقد عرف
به القاضي عياض في المدارك وغير واحد ، ورأيت في بعض التواريخ أن تواليفه

١ قد مر التعريف به والإشارة إلى مراجع ترجمته ج ١ : ٤٦ .

بلغت ألفاً ، ومن أشهرها كتاب « الواضحة » في مذهب مالك ، كتاب كبير مفيد ، ولابن حبيب مذهب في كتب المالكية مسطور ، وهو مشهور عند علماء المشرق ، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما .

ومن نظمه يخاطب سلطان الأندلس^١ :

لا تَنْسَ لا يَنْسُكَ الرَّحْمَنُ عَاشُورَا وَاذْكُرْهُ لَا زَلَّ فِي التَّارِيخِ مَذْكُورَا
قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَشْمَلُهُ قَوْلًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْحَقَّ وَالنُّورَا
فِيمَنْ يَوْسَعُ فِي إِنْتِفَاقِ مُوسِمِهِ أَنْ لَا يَزَالَ بِذَلِكَ الْعَامِ مِيسُورَا
وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن إذ طال عهدي به ،
والله تعالى أعلم .

وقال الفتح في المطمح^٢ : الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي ،
أي شرف لأهل الأندلس ومفخر ، وأي بحر بالعلوم يزخر^٣ ، خلدت منه
الأندلس فقيها عالما ، أعاد مجاهل جهلها معلما ، وأقام فيها للعلوم سوقا^٤ نافقة ،
ونشر منها ألوية خافقة ، وجلا عن الأبواب صدأ الكسل ، وشحذها شحذ
الصَّوَارِمِ والأَسْلِ ، وتصرف في فنون العلوم ، وعرف كل معلوم ، وسمع
بالأندلس وتفقه ، حتى صار أعلم من بها وأفقه ، ولقي أنجاب مالك ،
وسلك من مناظرتهم أوعر المسالك ، حتى أجمع عليه الاتفاق ، ووقع على
تفضيله الإصفاق ، ويقال : إنه لقي مالكا آخر عمره ، وروى عنه عن سعيد

١ الأبيات في ابن عذاري ٢ : ١٦٥ وهذه روايتها :

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا واذكره لا زلت في الأخبار مذكورا

من بات في ليل عاشوراء ذا سعة يكن بعيشته في الحول محبورا

فارغب فديتك فيما فيه رغبنا خير الوري كلهم حيا ومقبورا

٢ المطمح : ٣٦ .

٣ هذه العبارة في المطمح « وأي محدث للإسلام وسحر » وهي شديدة التصحيف ولعل صوابها :

وأي محدث للإسلام وسخر .

٤ المطمح : للمعالم ، وفي نسخة : للمعارف ؛ وفي ك : أسواقا .

ابن المسيَّب أن سليمان بن داود، صلى الله عليهما وسلّم، كان يركب إلى بيت المقدس فيتغدى به، ثم يعود فيتغدى بإصطخّر، وله في الفقه كتاب «الواضحة»، ومن أحاديثه غرائب، قد تحلّت بها للزمان نخورٌ وترائب.

وقال محمد بن لبابة^١ : فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبدُ الملك ابن حبيب، وراوياً يحيى بن يحيى. وكان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلم به متبحراً، ويُرَى ينبوعه بذلك متفجراً، وتوفي بالأندلس في رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعدما جال في الأرض، وقطع طولها والعرض، وجال في أكنافها، وانتهى إلى أطرافها.

ومن شعره قوله :

قد طاحَ أمري والذي أبْتَغِي هَيِّنْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي قُدْرَتِهِ
أَلْفٌ مِنَ الْحُمْرِ وَأَقْلِيلٌ بِهَا لِعَالَمٍ أَرْبَى عَلَى بُغْيَتِهِ
زُرِّيَابٌ قَدْ أُعْطِيَهَا جَمَلَةٌ^٢ وَحِرْفَتِي أَشْرَفُ مِنْ حِرْفَتِهِ

وكتب إلى الزجالي^٣ رسالة وصلها بهذه الأبيات :

كَيْفَ يُطَبِّقُ الشَّعْرَ مَنْ أَصْبَحَتْ حَالَتُهُ الْيَوْمَ كَحَالِ الْغُرَقِ

١ هو محمد بن عمر بن لبابة أبو عبد الله القرطبي الفقيه مولى عثمان بن عبيد الله بن عثمان، كان مقدماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفتيا مشاوراً في أيام الأمير عبد الله مع بعض المشاورين ثم انفرد بالفتيا أول أيام الناصر إلا أنه لم يكن له علم بالحديث ولا ضبط لروايته (توفي سنة ٣١٤) (ابن الفريسي ٢ : ٣٦). والنقل عن ابن لبابة موجود أيضاً في ابن عذاري (٢ : ١٦٥ وابن الفريسي ٢ : ١٧٧).

٢ في أصول المطبع : زرياب قد يأخذها دفعة ؛ وقد سقط هذا البيت من المطبع المطبوع، وانظر الأبيات في الجذوة : ٢٦٥ وطبقات الزبيدي : ٢٨٣ وفيه «قد يأخذها قفلة» وإنباء الرواة .
٣ في المطبع : وكتب إلى محمد بن سعيد الترحالي، وفي طبقات الزبيدي : محمد بن سعيد الزجالي، والشعر أيضاً في طبقات الزبيدي وإنباء الرواة .

والشعرُ لا يُسْلِسُ إِلَّا عَلَى فَرَاحٍ قَلْبٍ وَاتِّسَاعِ الْخَلْقِ
 فَاقْنَعْ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنْ شَاعِرٍ يَرْضَى مِنَ الْحِظِّ بِأَذْنَى الْعَنْقِ
 فَضْلَكَ قَدْ بَانَ عَلَيْهِ كَمَا بَانَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ ضَوْءُ الشَّقَقِ
 أَمَّا ذِمَامُ الْوَدِّ مِنْي لَكُمْ فَهُوَ مِنَ الْمُحْتَمِمْ فِيمَا سَبَقَ

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من مُعْتَلَّه ، ولا يفرق بين مستقيم ومُخْتَلَّه ، وكان غرضه الإجازة ، وأكثر رواياته غير مستجاجة ، قال ابن وضاح : قال إبراهيم بن المنذر : أتى صاحبكم الأندلس - يعني عبد الملك هذا - بِغِرَارَةٍ مَمْلُوءَةٍ ، فقال لي : هذا علمك ، قلت له : نعم ، ما قرأ عليّ منه حرفاً ولا قرأته عليه . وحكي أنّه قال في دخوله المشرق وحضر مجلس بعض الأكابر فازدراه من رآه :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى جِسْمِي وَقَلْبِي وَانْظُرْ لَصَدْرِي وَمَا يَحْوِي مِنَ السِّنِّ
 قَرُبَ ذِي مَنْظَرٍ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَرُبَّ مَنْ تَزْدْرِيه الْعَيْنُ ذُو فِطْنٍ
 وَرُبَّ لَوْلُؤَةٍ فِي عَيْنٍ مَرْبَلَةٍ لَمْ يُلْقَ بِهَا إِلَّا إِلَى زَمَنِ

انتهى ما في المطمح الصغير .

قلتُ : أمّا ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مُسَلَّم ، وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين ، نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين ، حتى إن في شفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النُّقَادَ مخرجها ، مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس الذين نقلوها كَبَقِيَّ ابن مَخْلَد وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم . وأمّا ما ذكره عنه في الإجازة بما في الغرارة فذلك على مذهب مَنْ يرى الإجازة ، وهو مذهب مستفيض ، واعتراض مَنْ اعترض عليه إنّما هو بناء على القول بمنع الإجازة ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه الموفق .

٢ - ومن الراحلين من الأندلس الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي^١ راوي الموطأ عن مالك ، رضي الله تعالى عنه ، ويقال : إن أصله من برابر مَصْمُودَة^٢ . وحُكي^٣ أنه لما ارتحل إلى مالك لازمه ، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل : حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك كلهم ، ولم يخرج يحيى ، فقال له مالك : ما لك لم تخرج وليس الفيل في بلادك ؟ فقال : إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك ، وأتعلّم من هَدْيِكَ وعلمك ، ولم أكن لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك ، وقال : هذا عاقل الأندلس ، ولذلك قيل^٤ : إن يحيى هذا عاقل الأندلس^٥ ، وعيسى بن دينار فقيها ، وعبدُ الملك بن حبيب عالما ، ويقال : إن يحيى راويها ومحدثها ، وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ هـ برجب ، وقبره يُستسقى به بقُرْطُبة ، وقيل : إن وفاته في السنة التي قبلها ، والله تعالى أعلم .

وروايته الموطأ^٦ مشهورة ، حتى إن أهل المشرق الآن يُسندون الموطأ من روايته كثيراً ، مع تعدّد رواة الموطأ ، والله أعلم . وكان يحيى بن يحيى روى الموطأ بقُرْطُبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبّطون ، وسمع من يحيى بن مُضَرّ القيسبي الأندلسي ، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب في كتاب الاعتكاف ، شكّ في سماعها ، فأثبت روايته فيها عن زياد ، وذلك ممّا يدلّ على ورّعه . وسمع بمصر من الليث بن سعد ، وبمكة من سُفْيَان بن عُيَيْنَة ، وتفقه

١ قد مرّ التعريف والإشارة إلى مصادر ترجمته ، انظر ج ١ ص : ٣٣٩ .

٢ نسبه : يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس (أو وسلاس) بن شمال بن منغايا وقد ضبط ابن خلكان هذه الأسماء .

٣ النقل عن ابن خلكان ٥ : ١٩٤ .

٤ هذا هو قول محمد بن عمر بن لبابة ، انظر الترجمة السابقة .

٥ ولذلك . . . الأندلس : سقط هذا من ط ق ، واندرج كأنه من كلام مالك .

٦ ق : في الموطأ .

بالمدينين والمصريين كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقي^١ ، وسمع منهما ، وهما من أكابر أصحاب مالك ، بعد انتفاعه بمالك وملازمته له .

وانتهت إليه الرياسة بالأندلس ، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار ، وتفقّه به جماعة لا يُحْصَوْنَ عدداً ، وروى عنه خلق كثير ، وأشهر رواة الموطأ وأحسنهم رواية يحيى المذكور ، وكان - مع أمانته ودينه - مُعْظَماً عند الأمراء ، يُكْتَبَى عندهم ، عفيفاً عن الولايات منتزهاً ، جلّت رتبته عن القضاء ، وكان أعلى من القضاة قدراً عند ولاة الأمر بالأندلس لزهده في القضاء وامتناعه .

قال الحافظ ابن حزم^٢ : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة ، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولي إلا أصحابه والمتسقين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس ، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا ، فأقبلوا على ما يترجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى لم يكلّ قضاء قط ، ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم ، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم ، انتهى .

وذكرنا في غير هذا الموضع قولاً آخر في سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر ، انتهى .

وقال ابن أبي الفياض^٣ : جمع الأمير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء في

١ في ق : العتلي ؛ وسقطت من ط ؛ وقال ابن خلكان (٢ : ٣١٢) نسبة إلى العتقاء ، جماع من القبائل كانوا يقطعون الطريق على من أراد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فبُعث إليهم فأتى بهم أسرى فأعتقهم فقبل لهم : العتقاء .

٢ انظر ابن خلكان ٥ : ١٩٥ . ٣ النقل أيضاً عن ابن خلكان .

قصره ، وكان وقع على جارية يحبها في رمضان ، ثم ندم أشدّ ندم ، فسألهم عن التوبة والكفارة ، فقال يحيى : تكفّر بصوم شهرين متتابعين ، فلماً بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا ، فقال بعضهم له : لم لَمْ تُفْتِ بمذهب مالك بالتخير ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب سهّل عليه أن يظأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود .

وقال بعض المالكية : إن يحيى ورى بهذا ، ورأى أنه لم يملك شيئاً إذ هو مستغرق الذمة فلا عتق له ولا إطعام ، فلم يبق إلا الصيام ، انتهى .

ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل إلى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك ، فنشيط للرجوع إلى مالك لسمع منه المسائل التي رأى ابن القاسم يدونها ، فرحل رحلة ثانية ، فألقى مالكا عليلاً ، فأقام عنده إلى أن مات وحضر جنازته ، فعاد إلى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك ، هكذا ذكره ابن الفريسي في تاريخه^٢ ، وهو ممّا يردُّ الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين ، فقال له : لا زكاة فيها ، فقال : إنّا تدّخر عندنا ، ونذر إن وصل إلى الأندلس أن يرسل لمالك سفينة مملوءة تيناً ، فلماً وصل أرسلها فإذا مالك قد مات ، انتهى .

قال ابن الفريسي^٣ : ولما انصرف يحيى إلى الأندلس كان إمام وقته ، وواحد بلاده ، وكان ممّن اتهم بالهتج^٤ في وقعة الربض المشهورة ففرّ إلى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أماناً ، وانصرف إلى قرطبة .
وقيل^٥ : لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطي يحيى من الحظوة ، وعظم القدر ، وجلالة الذكر .

١ ق ط ج : وإنه لم ير أنه يملك .

٢ ابن الفريسي ٢ : ١٧٧ وانظر أيضاً ابن خلكان .

٣ المصدر نفسه ، وهو منقول باختصار .

٤ بالهتج : سقطت من ط .

٥ هو قول أحمد بن خالد كما نقله ابن الفريسي وابن خلكان .

وقال ابن بشكوال^١ : إن يحيى بن يحيى كان مجاب الدعوة ، وإنه أخذ في سمته وهيته ونفسه ومقعدة هيئات مالك .

ويحكى عنه أنه قال^٢ : أخذت بركاب الليث بن سعد ، فأراد غلامه أن يمنعي ، فقال : دعه ، ثم قال لي الليث : خدَمَكَ العِلْمُ ؛ فلم تزل بي الأيام حتى رأيت مالكا ، انتهى .

٣ - ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن [أبي] عيسى^٣ .

قال في المطمح^٤ : من بني يحيى بن يحيى الليثي ، وهذه ثنية علم وعقل ، وصحة ضبط ونقل ، كان عَلم الأندلس ، وعالمها النَّدُس ، ولي القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق ، وجمع فيها من الروايات والسماع كل مفرق ، وجال في آفاق ذلك الأفق ، لا يستقر في بلد ، ولا يستوطن في جلد^٥ ، ثم كَرَّ إلى الأندلس فسمت رتبته ، وتحلَّتْ بالأُماني لَبَّتْه ، وتصرف في ولايات أُحمِدَ فيها منابه ، واتصلت بسببها بالخليفة أسبابه ، وولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة ، ورياسة في الدين مُبرَمة القوى مجهودة ، والترم فيها الصرامة في تنفيذ الحقوق ، والحزامة في إقامة الحدود ، والكشف عن البينات في السر ، والصدع بالحق في الجهر ، لم يستمِله مخادع ، ولم

١ ليس هذا النقل من الصلة إذ لم يترجم فيها ليحيى وإنما هو من تاريخ ابن بشكوال كما صرح بذلك ابن خلكان (ص : ١٩٦) .

٢ ابن خلكان : ١٩٦ .

٣ ق ط ج : محمد بن عيسى ، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أيوب بن أبي عيسى القاضي عند الثعالبي (اليتيمة : ٢ : ٦٣) ومحمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي أبو عبد الله (عند ابن الفريسي : ٢ : ٦١) وهو على أية حال من بني يحيى بن يحيى الليثي ، ولي القضاء أيام الأمير عبد الرحمن بن محمد وأدرك عهد الناصر وأصبح قاضي الجماعة بقرطبة عام ٣٢٦ وكان يستعين به في السفارات ، توفي سنة ٣٣٩ . (انظر أيضاً قضاة قرطبة للخشني : ١٧٢ والمرقبة العليا : ٥٩ والجدوة : ٦٩ وبغية الملتمس رقم : ٢١٨) .

٤ مطمح الأنفس : ٤٦ .

٥ المطمح : في مظلومة جلد ؛ والمعنى واحد ، إذ المظلومة هي الأرض ، والجلد : أديمها .

يكده مخاتل ، ولَمْ يَهَبْ ذا حرمة ، ولا داهن ذا مرتبة ، ولا أغضى لأحد من أسباب السلطان^١ وأهله ، حتى تحاموا جانبه ، فلم يحسر أحد منهم عليه ، وكان له نصيب وافر من الأدب ، وحظ من البلاغة إذا نظم وإذا كتب .
ومن ملح شعره ما قاله عند أوبته عن غربته^٢ :

كأن لم يكن بيني ولم تلك فرقة^٣ إذا كان من بعد الفراق تلاق
كأن لم تورق بالعراقيين مقلتي ولم تمر كف الشوق ماء ماقي
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى وكأس سقاها في الأزاهر ساق
وله أيضاً^٤ :

ماذا أكابد من ورق مغردة^٥ على قضيب بذات الجزع مياس
ردد دن شجوا شجا قلب الخلي فهل في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرته الزمن الماضي بقربة بين الأحبة في أمن^٦ وإيناس
هم الصباية لولا همة شرفت^٧ فصيرت قلبه كالخندل القاسي

وله أخبار تدل على رقة العراق ، والتغذي بماء تلك الآفاق : فمنها أنه خرج إلى حضور جنازة بمقابر قريش ، ورجل من بني جابر^٨ كان يواخيه له منزل هناك ، فعزم عليه في الميل إليه ، وعلى أخيه فتزلا عليه ، فأحضر لهما طعاماً ، وأمر جارية له بالغناء ، فغنت :

-
- ١ ك : أرباب .
٢ انظر هذا الشعر أيضاً في الجذوة وبغية الملتبس .
٣ الشعر في الجذوة : ٧٠ .
٤ الجذوة : ويل ام ذكراي .
٥ الجذوة : هو .
٦ الجذوة : بني حدير .

طَابَتْ بِطِيبِ لِسَانِكَ الْأَقْدَاحُ وَزَهَتْ بِحُمْرَةِ خَدِّكَ التَّفَاحُ
وَإِذَا الرَّبِيعُ تَنَسَّمَتْ أَرْوَاحُهُ طَابَتْ بِطِيبِ نَسِيمِكَ الْأَرْوَاحُ^١
وَإِذَا الْحَنَادِسُ أَلْبَسَتْ ظِلْمَاءَهَا فَضِيَاءَ وَجْهِكَ فِي الدُّجَى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضي في ظهر يده ، وخرج من عنده ، قال يونس بن عبد الله^٢ :
فلقد رأيته يكبّر للصلاة على الجنائز والأبيات مكتوبة على ظهر كفه .

وكان ، رحمه الله تعالى ، في غاية اللطف ، حكى بعض أصحابه قال^٣ : ركبنا
معه في موكب حافل من وجوه الناس ، إذ عرض لنا فتى متأدّب قد خرج من
بعض الأزقة سكران يتمايل ، فلما رأى القاضي هابه وأراد الانصراف فخائنه
رجلاه ، فاستند إلى الحائط وأطرق ، فلما قرب القاضي رفع رأسه وأنشأ يقول :

أَلَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي عَمَّ عَدْلُهُ فَأَضْحَى بِهِ بَيْنَ الْأَنَامِ فَرِيدَا
قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ تِسْعِينَ مَرَّةً فَلَمْ أَرَ فِيهِ لِلشَّرَابِ حُدُودَا
فَإِنْ شَتَّ جَلَدًا لِي فَدُونُكَ مَنَكِبًا صَبُورًا عَلَى رِيبِ الزَّمَانِ جَلِيدَا
وَإِنْ شَتَّ أَنْ تَعْفُو تَكُنْ لَكَ مَنَّةٌ تَرُوحُ بِهَا فِي الْعَالَمِينَ حَمِيدَا
وَإِنْ أَنْتَ تَخْتَارُ الْحَدِيدَ فَلَنْ لِي لِسَانًا عَلَى هَجْوِ الزَّمَانِ حَدِيدَا

فلما سمع شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ، ومضى لشأنه ؛
انتهى ملخصاً من المطمح .

ورأيت بخطي في بعض مَسَوِّدَاتِي ما صورته^٤ : محمد بن عبد الله بن يحيى
ابن يحيى اللبّبي قاضي الجماعة بقُرْبَطية ، سمع عمّ أبيه عبيد الله^٥ بن يحيى ومحمد

١ ق ط ج : أدواحه . . . الأذواح .

٢ هو أبو الوليد ابن الصفار قاضي قرطبة ، وهو روي الحكاية عن أبيه وعنه ابن حزم ، كما في
الحنوة .

٣ هو كاتبه القاسم بن محمد أيام قضائه بإلبيرة ، انظر المرقبة العليا : ٦١ وفيها الشعر .

٤ هذه هي ترجمته كما أوردها ابن الفرضي ٢ : ٦١ ، مع شيء من إيجاز .

٥ ق ك : سمع من أبيه عبد الله .

ابن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ، ورحل من قرطبة سنة ٣١٢ ، ودخل مصر وحجَّ وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي وغيرهم ، وكان حافظاً معتياً بالآثار جامعاً للسُّنن ، متصرفاً في علم الإعراب ومعاني الشعر ، شاعراً مطبوعاً ؛ وشاوره القاضي أحمد بن بَقي ، واستقضاه الناصر عبد الرحمن ابن محمد علي البيرة وبجّانة ، ثم ولاّه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي طالب سنة ٣٢٦ ، وجُمعت له مع القضاء الصلاة ، وكان كثيراً ما يخرج إلى الفُجور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها ، فاعتلَّ في آخر خرجاته ومات في بعض الحصون المجاورة لطليطلة سنة ٣٣٧ ، ومولده سنة ٢٨٤ ؛ انتهى وأظن أني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ ، والله أعلم .

٤ - ومنهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقي الأندلسي^٢ ، الدمشقي وفاة ، يكنى أبا بكر : نزيل دمشق ، كان مشهوراً بالصلاح ، وانتفع به جماعة من الفقهاء ، وولد على ما قيل سنة ٥١٦ ، وتوفي سنة ٦١٦ بدمشق ، ودُفِنَ بمقابر الصوفية ، فيكون عمره على هذا مائة سنة ، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله .

٥ - ومنهم أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأُبْدِي ، الملقب في البلاد المشرقية ببرهان الدين - وأبْدَةُ ، بضم الهَمْزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها ذال معجمة ، بلد بالأندلس - سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد ، وبدمشق من الحافظ ابن طبرزد ، وأم بالصخرة ، وكان فاضلاً صالحاً شاعراً ، توفي سنة ٦٥٦ ، وأخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنه سمع هاتفاً يقول لما خربت القدس :

١ بعد أبي طالب : سقطت من ابن الفرضي .

٢ ابن الفرضي : سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة .

٣ عتيق بن أحمد بن عبد الباقي : وردت ترجمته في حواشي الذيل والتكملة (٥ : ١١٥) من تقييدات أبي القاسم التجيبي .

إِنْ يَكُنْ بِالشَّامِ قَلَّ نَصِيرِي ثُمَّ خُرْبْتُ وَاسْتَمَرَّ هُلُوكِي
فَلَقَدْ أَثْبَتَ الْغَدَاةَ خِرَابِي سَمِرَ الْعَارَ فِي حَيَاةِ الْمُلُوكِ

هكذا رأيته بخط الصفدي « في حياة » ويحتمل أن يكون « في جباه » جمع جَبْهَةٍ ، والله أعلم .

٦ - ومنهم القاضي مُنْذِرُ بن سعيد البلوطي^١ ، قاضي الجماعة بقَرْطُبَة ، وقد قدمنا جملة من أخباره في الباب الثالث والرابع من هذا القسم ، وكان لا يخاف في الله لومة لائم ، ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته في أيتام أخيه نَجْدَة^٢ ، وحدث بها جماعة من أهل العلم والرواية ، وهي أن الخليفة الناصر احتاج إلى شراء دار بقَرْطُبَة لحظيَّة من نسائه تَكْرُم عليه ، فوقع استحسانه على دار كانت لأولاد زكريا أخيه نَجْدَة ، وكانت بقرب النشارين في الرَبَض الشرقي منفصلة عن دوره ، ويتصل بها حَمَام له غلة واسعة ، وكان أولاد زكريا أخيه نَجْدَة أيتاماً في حجر القاضي ، فأرسل الخليفة من قومها له بعدد ما طابت نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز إلاّ بأمر القاضي ، إذ لم يجوز بيع الأصل إلاّ عن رأيه ومشورته ، فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار ، فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلاّ لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوَهْي الشديد ، ومنها الغبطة ، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع ، وأما الوَهْي فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت

١ قد مرت أخبار لمنذر بن سعيد في هذا الكتاب ١ : ٣٦٨ ، ٥٧٠ (وراجع ترجمته في طبقات الزبيدي : ٣١٩ والجنوة : ٣٢٦ وبنية الملتبس رقم : ١٣٥٦ وابن الفريسي ٢ : ١٤٢ والخشي : ١٧٥ والمرقة العليا : ٦٦ والمطمح : ٣٧ والروض المعطار : ١٤٠ وبنية الوعاة : ٣٩٨ وإنباه الرواة : ٣ : ٣٢٥ وأزهار الرياض ٢ : ٢٧٢ ومعجم الأدباء ١٩ : ١٧٤) .
٢ القصة في المطمح : ٤٣ .

وصيهم بالبيع ، وإلا فلا ، فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخى رغبته^١ فيها ، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام سورتها ، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ، ففعل ذلك وباع الأنقاض ، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان ، فاتصل الخبر به ، فعز عليه خرابها ، وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها ، فأحال الوصي على القاضي أنه أمره بذلك ، فأرسل عند ذلك للقاضي مُنذِر ، وقال له : أنت أمرت بنقض دار أخي نَجْدَة ؟ فقال له : نعم ، فقال : وما دعاك إلى ذلك ؟ قال : أخذت فيها بقول الله تعالى ﴿أَمَّا السَّقِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (الكهف : ٧٩) مُقَوِّمٌ لم يقدروها^٢ إلا بكذا ، وبذلك تعلق وھمك ، فقد نَضَّ^٣ في أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام فضلاً ، ونظر الله تعالى للأيتام ، فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك ، وقال : نحن أولى من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيراً .

قالوا^٤ : وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدُّعابة ، فربما ساء ظنُّ من لا يعرفه ، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضاري ، فمن ذلك ما حدث به سعيدُ ابنه قال : قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للإفطار بداره البرانية ، فإذا سائل يقول^٥ : أطعمونا من عشاكنم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة ، هذه الليلة ، ويكثر من ذلك ، فقال القاضي : إن استُجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا واحد .

١ ط : رغبته .

٢ المطيح : فمقومك لم يقدرها .

٣ نض : تحصل ، من الناض أي المال العين .

٤ المطيح : ٤٤ .

٥ المطيح : يا أهل هذه الدار الصالح أهلها .

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهني^١ أنه ركب يوماً لحيازة أرض مُحَبَّسَةٍ في رَكَبٍ من وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤي ونظراؤه ، قال : فسرنا نَقْفُوهُ وهو أماننا ، وأمامه أماناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار ، وكانت القضاة حينئذ لا تراكب ولا تماشي ، فعرض له في بعض الطريق كلاب مع مُسْتَوْحمة ، والكلاب تعلق هَنَها وتُدور حولها ، فوقف وصرف وجهه إلينا وقال : ترون يا أصحابنا ما أبرَّ الكلاب بالهن الذي تعلقه وتكرمه ، ونحن لا نفعل ذلك ؛ ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا ، وبقينا متعجبين من هَزَلِهِ .

وحضر^٢ عند الحكم المستنصر بالله يوماً في خلوة له في بستان الزهراء على بِرْكَةٍ ماء طافحة ، وسط روضة نافحة ، في يوم شديد الوَهَج ، وذلك إثر مُنْصَرَفِهِ من صلاة الجمعة ، فشكا إلى الخليفة من وَهَجِ الحرِّ الجهد ، وبث منه ما تجاوز الحد ، فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن جسمه ، ففعل ولم يُطْفِ ذلك ما به ، فقال له : الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك ، وليس مع الخليفة إلا الحاجب جعفر الخادم الصقلي أمين الخليفة الحكم ، لا رابع لهم ، فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقاراً ، وأقصر عنه إقصاراً ، فأمر الخليفة حاجبه جعفرًا بِسَبْقِهِ إلى التزول في الصهريج ليسهل عليه الأمر فيه ، فبادر جعفر لذلك ، وألقى نفسه في الصهريج ، وكان يحسن السباحة ، فجعل يجول يميناً وشمالاً فلم يسع القاضي إلا إنفاذ أمر الخليفة ، فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ، ولاذ بالقعود في دَرَجِ الصهريج ، وتدرَّج فيه بعض تدريج ، ولم ينبسط في السباحة ، وجعفر يمر مُصْعِداً ومصوباً ، فدسَّ الحكم على القاضي ، وحمله على مساجلته في العَوْم ، فهو يُعَجِّزُهُ في إخلاده إلى القعود ، ويعابثه

١ المطمح : ٤٤ .

٢ النص في المطمح : ٤٤ والمرقبة العليا : ٧٢ .

باللقاء الماء عليه ، والإشارة بالجدب إليه ، وهو لا ينبعث معه ، ولا يفارق موضعه ، إلى أن كلمه الحكم وقال له : ما لك لا تساعد الحاجب في فعله وتثقل^١ صنعه ؟ فمن أجلك نزل ، وبسبك تبدل ، فقال له : يا سيدي يا أمير المؤمنين ، الحاجب سلمه الله تعالى لا هوجل معه ، وأنا بهذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمعني من أن أجول معه مجالهُ — يعني أن الحاجب خصي لا هوجل معه ، والهوجل : الدكر — فاستفرغ الحكم ضحكاً من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر ، وخجل جعفر من قوله ، وسبه سب الأشراف ، وخرجا من الماء ، وأمرهما الخليفة بخلع ، ووصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما .

وحكي أن الخليفة الحكم قال له يوماً^٢ : لقد بلغني أنك لا تجتهد للأيتام ، وأنتك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم ، فقال : نعم ، وإن أمكنهم نيك أمهاتهم لم يعفوا عنهم ، قال : وكيف تقدم مثل هؤلاء ؟ قال : لست أجد غيرهم ولكن أحلتي على اللؤلؤي وأبي إبراهيم ومثل هؤلاء ، فإن أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن ، ثم لا تسمع إلا خيراً .

وقال القاضي منذر^٣ : أتيت وأبو جعفر ابن النحاس في مجلسه بمصر يملئ في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول :

خليلي هل بالشام عين حزينه تبكي على نجد لعلتي أعينها
قد أسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدتيها من الأرض لينها

فقلت له : يا أبا جعفر ، ماذا ، أعزك الله تعالى ، باتا يصنعان ؟ فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت له : بانت وبان قرينها ، فسكت ، وما

١ ق ط : وتثقل .

٢ المطمح : ٤٥ والمرقبة العليا : ٧٣ .

٣ طبقات الزبيدي : ٢٤٠ .

زال يستثقلني بعد ذلك ، حتى منعي كتاب العين ، وكنت ذهبت إلى الانتساخ من نسخته ، فلما قطع بي قيل لي : أين أنت عن أبي العباس ابن ولاد ؟ فقصدته ، فلقيت رجلاً كامل العلم حسن المروءة ، فسألته الكتاب ، فأخرجه إليّ ، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أبي العباس الكتاب لي ، وعاد إلى ما كنت أعرفه منه . قال : وكان أبو جعفر لثيم النفس ، شديد التقير على نفسه ، وربما وهبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم ، وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه ، ويتحامل فيها على أهل معرفته ، انتهى . وأبو جعفر هذا يقال : إن تواليفه تزيد على خمسين ، منها شرح عشرة دواوين للعرب ، و«إعزاب القرآن» ، و«معاني القرآن» ، و«شرح أبيات الكتاب» ، وغير ذلك .

رجع - وقال منذر بن سعيد : كتبت إلى أبي علي البغدادي أستعير منه كتاباً من الغريب ، وقلت :

بِحَقِّ رِيْمٍ مُهَفِّفٍ وَصُدُّغِهِ الْمُتَعَطِّفِ
إِبْعَثْ إِلَيَّ بِحُزْنٍ مِنْ الْغَرِيبِ الْمُصَنَّفِ

ففضي حاجتي ، وأجاب بقوله :

وَحَقٌّ دُرٌّ تَأَلَّفَ بِفَيْكِ أَيَّ تَأَلَّفِ
لَأُبْعَثَنَّ بِمَا قَدْ حَوَى الْغَرِيبُ الْمُصَنَّفِ
وَلَوْ بَعَثْتُ بِنَفْسِي إِلَيْكَ مَا كُنْتُ أُسْرِفُ

فرحم الله تعالى تلك الأرواح الطاهرة .

وذكر ابن أصبغ الهمداني عن منذر أنه خطب يوماً ، وأراد التواضع ، فكان من فصول خطبته أن قال ^١ : حتى متى أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا

١. انظر المرقبة العليا : ٦٩ .

أزدجر ، أدل الطريق على المستدلين ، وأبقى مُقْبِماً مع الحائرين ؟ كلاً إن هذا
لهو البلاء المبين ﴿ إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ
تَشَاءُ ﴾ (الأعراف : ١٥٥) ، اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلني بما
تكفلت لي به ، ولا تحرمني وأنا أسألك ، ولا تعذبني وأنا أستغفرك ، يا أرحم
الراحمين .

وسمع منذر بالأندلس^١ من عُبَيْد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه ، ثم رحل
حاجباً سنة ثمان وثلاثمائة فاجتمع بعده أعلام وظهرت فضائله بالمشرق ، ومن
سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابوري ، سمع عليه كتاب
المؤلف في اختلاف العلماء المسمى « بالإشراف » وروى بمصر كتاب « العين »
للخليل عن أبي العباس ابن ولّاد ، وروى عن أبي جعفر ابن النحاس . وكان
منذر متفناً في ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود
ابن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري ، فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه
ويحتج لمقالاته يأخذ به في نفسه وذويه ، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب
الإمام مالك وأصحابه ، وهو الذي عليه العمل بالأندلس ، وحمل السلطان أهل
مملكته عليه ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد العارضة حاضر
الجواب عتيده^٢ ، ثابت الحجّة ذا شارة^٣ عجيبة ومنظر جميل وخلق حميد
وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم ، وكان - مع وقاره التام -
فيه دُعابة مستلحة ، وله نوادر مستحسنة ، وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر
في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، وليث قاضياً من ذلك التاريخ
للخليفة الناصر إلى وفاته ، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفي ، رحمه الله
تعالى ، عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، فكانت ولايته لقضاء

١ فيه متابعة لابن الفرضي ٢ : ١٤٢ - ١٤٣ والزبيدي : ٢٤٠ .

٢ : ق : إشارة .

الجماعة المعبر عنها في المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاماً كاملة ، لم يُحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل بهوى ، ولا إصغاء إلى عناية ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ؛ ودُفِنَ بمقبرة قريش بالرّبط الغربي من قرطبة أعادها الله تعالى ، جوفيّ مسجد السيدة الكبرى ، بقرب داره .
وله ، رحمه الله تعالى ، تواليف مفيدة : منها كتاب «أحكام القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» وغير ذلك في الفقه والكلام في الرد على أهل المذاهب ، تغمده الله تعالى برضوانه .

وكتب بعض الأدباء إلى القاضي منذر بقوله :

مسألة جئتكَ مُستفتياً عنها ، وأنت العالمُ المستشارُ
علامَ تحمّرُ وجوهُ الطُّبّا وأوجهُ العشاقِ فيها اصفرارُ

فأجاب منذر بقوله :

احمّرَ وجهُ الطَّيِّبِ إذ لحظهُ سيفٌ على العشاقِ فيه احوِرارُ
واصفرَّ وجهُ الصَّبِّ لما نأى والشمسُ تُبقي للمغيبِ اصفرارُ

٧ - وممن رحل إلى المشرق^١ من الأندلس فشهد له بالسبق ، كل أهل المغرب والشرق ، الإمام العلامة أبو القاسم الشاطبي^٢ ، صاحب «حرز الأمان» و«العقيلة» وغيرهما .

١ إلى المشرق : سقطت من ط .

٢ أبو القاسم الشاطبي : القاسم بن فيره - بكسر الفاء وسكون الياء آخر الحروف وتشديد الراء وضما (Ferro) وهذا من لغة الطيبي من أعاجم الأندلس ومعناه الحديد . ترجمته في ابن خلكان ٣ : ٢٣٤ ومجمع الأدباء ١٦ : ٢٩٣ ونكت الهميان : ٢٢٨ وطبقات السبكي ٤ : ٢٩٧ وغاية النهاية ٢ : ٢٠ وفيه نقل ترجمته عن رحلة ابن رشيد وشذرات الذهب ٤ : ٣٠١ وبقية الوعاة : ٣٧٩ والتكملة رقم : ١٩٧٣ والذيل والتكملة ٥ : ٥٤٨ والديباج المذهب :

وهو أبو القاسم^١ ابن فيرّه بن خلف بن أحمد الرّعيني الشاطبي المقرئ ،
 الفقيه الحافظ الضرير أحد العلماء المشهورين والفضلاء المذكورين ، خطب ببليده
 شاطبة مع صغر سنّه ، ودخل الديار المصريّة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ،
 وحضر عند الحافظ السلفي وابن برّي وغيرهما ، وولد بشاطبة آخر سنة ثمان
 وثلاثين وخمسمائة ، وتوفي بالقاهرة يوم الأحد الثامن والعشرين ، وقيل :
 الثامن عشر ، من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة ، بعد العصر ، ودُفِن من
 الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم .

وحكي أن الأمير عز الدين موسك الذي كان والدُ ابن الحاجب حاجباً له
 بعث إلى الشيخ الشاطبي يدعوه إلى الحضور عنده ، فأمر الشيخ بعض أصحابه
 أن يكتب إليه :

قُلْ لِلأَمِيرِ مَقَالَةٌ مِّنْ نَّاصِحٍ فَطِنٍ نَبِيهِ
 إِنَّ الفَقِيهَ إِذَا أَتَى أَبَوَابَكُمْ لَا خَيْرَ فِيهِ

ومن نظمه ، رحمه الله تعالى :

خَالَصْتُ أَبْنَاءَ الزَّمَانِ فَلَمْ أَجِدْ مَنْ لَمْ أَرُمْ^٢ مِنْهُ أَرْثِيَادِي مَخْلَصِي
 رَدُّ الشَّبَابِ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ أَهْنًا وَأَمَكْنٌ مِنْ صَدِيقٍ مَخْلَصٍ

وكان ، رحمه الله تعالى ، قرأ بشاطبة القراءات ، وأتقنها على النفزي^٣ ، ثم
 انتقل إلى بِلَنْسِيَةِ فقرأ بها «التيسير» من حفظه على ابن هُدَيل ، وسمع الحديث منه
 ومن ابن النعمة وابن سعادة وابن عبد الرحيم وغيرهم ، وارتحل إلى المشرق
 فاستوطن القاهرة ، واشتهر اسمه وبعُدَ صيته ، وقصده الطلبة من النواحي ،

١ ق : أبو القاسم القاسم .

٢ ق : خالست . . . من لم أر .

٣ مفهوم كلام ابن عبد الملك أن قراءة الشاطبي على النفزي كانت أيضاً ببلنسية .

وكان إماماً علامة ذكياً كثير الفنون منقطع القرنين رأساً في القراءات ، حافظاً للحديث بصيراً بالعربية واسع العلم ، وقد سارت الركبانُ بقصيدته «حرز الأماني» و«عقيلة أتراب الفضائل»^١ اللتين في القراءات والرسم ، وحفظهما خلق لا يُحْصَوْنَ ، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وخذاق القراء ، ولقد أوجز وسهّل الصعب .

وممن روى عنه أبو الحسن ابن خيرة ، ووصفه من قوة الحفظ بأمر معجب ، وممن قرأ عليه بالروايات الإمام الشهير محمد بن عمر القرطبي . وتصدّر الشاطبي ، رحمه الله تعالى ، للإقراء بالمدرسة الفاضلية ، وكان موصوفاً بالزهد والعبادة والانقطاع . وقبره بالقرافة يزّار ، وترجى استجابة الدعاء عنده ، وقد زرته مراراً ، ودعوت الله بما أرجو قبوله . وترك أولاداً : منهم أبو عبد الله محمد ، عاش نحو ثمانين سنة .

وقال السبكي في حق الإمام الشاطبي : إنه كان قويّ الحافظة ، واسع المحفوظ ، كثير الفنون فقيهاً مقرئاً محدثاً نحوياً زاهداً عابداً ناسكاً يتوقد ذكاء ، قال السخاوي^٢ : أقطع أنه كان مكاشفاً ، وأنه سأل الله كتمان حاله ، ما كان أحد يعلم أي شيء هو ، انتهى .

وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين .

وقال ابن خلكان : ولقد أبدع كل الإبداع^٣ في «حرز الأماني» وهي عمدة قراء هذا الزمان في نقلهم ، فقلّ من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها ، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها . وقد روي عنه أنه كان يقول : لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه

١ ساهبا ابن عبد الملك : «عقيلة القصائد في أسنى المقاصد» .

٢ هو تلميذه علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني السخاوي .

٣ هذا نص ابن خلكان ، وفي ق ط ج : إنه أبدع في حرز . إلخ .

الله ، عزّ وجلّ ، لأنني نظمتها لله تعالى مخلصاً . وكان عالماً بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيراً ، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبرزاً فيه ، وكان إذا قرئ عليه صحيحا البخاري ومسلم والموطأ يُصحح النسخ من حفظه ، ويُملي النكت على المواضع المحتاج إليها ، وكان أوحّد في علم النحو واللغة ، عارفاً بتعبير^١ الرؤيا ، حسن المقاصد ، مخلصاً فيما يقول ويفعل ، وكان يجتنب فضُول الكلام ، ولا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه ضرورة ، ولا يجلس للقراءة إلا على طهارة في هيئة حسنة وتخشع واستكانة ، وكان يعتلّ العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوّه ، وإذا سُئل عن حاله قال : العافية ، لا يزيد على ذلك . وكان كثيراً ما ينشد هذا الغز في النعش ، وهو لأبي زكريا يحيى بن سلامة الخطيب :

أَتَعْرِفُ شَيْئاً فِي السَّمَاءِ نَظِيرُهُ إِذَا سَارَ صَاحَ النَّاسِ حَيْثُ يَسِيرُ
فَتَلْقَاهُ مَرْكُوباً وَتَلْقَاهُ رَاكِباً وَكُلُّ أَمِيرٍ يَعْتَلِيهِ أُسِيرُ
يَحْضُ عَلَى التَّقْوَى وَيُكْرَهُ قُرْبُهُ وَتَنْفَرُ مِنْهُ النَّفْسُ وَهُوَ نَذِيرُ
وَلَمْ يَسْتَرْزُ عَنْ رَغْبَةٍ فِي زِيَارَةٍ وَلَكِنْ عَلَى رَغْمِ الْمَزُورِ يَزُورُ

وكان يقال عند دخوله إلى مصر : إنّه يحفظ وقرّ بعير من العلوم ، وكان نزيل القاضي الفاضل ، ورتبه بمدرسته بالقاهرة ، وقيل : إن كنيته أبو محمد^٢ حسبما وجذ في بعض إجازاته ، رحمه الله تعالى .

٨ — ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي^٣ .

١ ط ج ودوزي : بتفسير .

٢ أكثر المصادر على أن اسمه « القاسم » وأن له كنيتين : أبو القاسم وأبو محمد ، إلا أن أبا بكر ابن مسدي ساء في معجم مشيخته « خلفاً » .

٣ أبو بكر ابن العربي : ترجمته في ابن خلكان ٣ : ٤٢٣ والصلة ٥٥٨ والمراقبة العليا : ١٠٥ =

قال ابن سعيد : هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر المغرب ^١ ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ، قاضي قضاة كورة إشبيلية ، ذكره الحنجاري في المسهب ، طبّق الآفاق بفوائده ، وملأ الشام والعراق بأوابده ، وهو إمام في الأصول والفروع وغير ذلك ^٢ . ومن شعره وقد ركب مع أحد أمراء الملتئمين ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهز عليه رُميحاً كان في يده مداعباً ، فقال ^٣ :

يَهْزُ عَلَيَّ الرُّمَحَ ظَنَنِي مُهَفِّفٌ لَعُوبٌ بِالْبَابِ الْبَرِيَّةِ عَابُثٌ
فَلَوْ أَنَّهُ رَمَحَ إِذْنًا لَاتَّقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُ رَمَحَ وَثَانٍ وَثَالِثٌ

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة في لباس خشن :

لبس الصوف لكي أنكره وَأَنَا شَاجِيَاءُ قَدْ عَبَسَا
قَلْتُ لَهُ قَدْ عَرَفْنَاكَ وَذَا جُلُّ سَوْءٍ لَا يَعِيبُ الْفَرَسَا
كُلُّ شَيْءٍ أَنْتَ فِيهِ حَسَنٌ لَا يُبَالِي حَسَنٌ مَا لَيْسَا

وزعم بعض أن الأبيات ليست له ، وإنما تمثل بها ، فالله تعالى أعلم .
وممن عرّف بابن العربي وذكره ابن الإمام في «سمط الجمان» ،

= والدياج المذهب : ٢٨١ وتذكرة الحفاظ : ١٢٩٤ وشذرات الذهب ٤ : ١٤١ (وفيات : ٥٤٦) والمطبع : ٦٢ وأزهار الرياض ٣ : ٦٢ ، ٨٦ - ٩٥ وبغية الملتئم رقم : ١٧٩ والمغرب ١ : ٢٤٩ .

١ ق : العرب ؛ وهو صواب أيضاً لأن ابن العربي «معافري» .

٢ وغير ذلك : سقطت من ط .

٣ في هذه القطعة والثنتين التاليتين يتابع المقرئ ابن سعيد في المغرب ١ : ٢٥٠ .

٤ هو تحوير البيت :

فلو كان سهماً واحداً لاتقيته البيت

٥ ط ج : شاجياً .

والشَّقْنَدِي في « الطرف » ، وكان قد صحب المهدي محمد بن تومرت
بالمشرق ^١ ، فأوصى عليه عبد المؤمن وكان مكرماً عنده ، وحكي أنه كتب
كتاباً فأشار عليه أحد من حضر أن يذُرَّ عليه نشارة ، فقال : قف ، ثم فكَّرَ
ساعة ، وقال : اكتب ^٢ :

لَا تَشْنَهُ بِمَا تَذُرُّ عَلَيْهِ فَكَفَاهُ هُوبُ هَذَا الْهَوَاءِ
فَكَانَ الَّذِي تَذُرُّ عَلَيْهِ جُدْرِيٍّ بُوْجِنَةٍ حَسَنَاءِ

ولقي أبا بكر الطَّرْطُوشِي . وما برح معظماً إلى أن تولى خطَّة القضاء ،
ووافق ذلك أن احتاج سور إشبيلية إلى بنيانٍ جهةٍ منه ، ولم يكن فيها مال متوفر ،
ففرض على الناس جلود ضحاياهم ، وكان ذلك في عيد أضحي ، فأحضروها
كارهين ، ثم اجتمعت العامة العمياء ، وثارت عليه ونهبوا داره ، وخرج إلى
قرطبة .

وكان في أحد أيام الجمع قاعداً ينتظر الصلاة ، فإذا بغلام رومي وَضِيءٌ
قد جاء يخترق الصفوف بشمعة في يده وكتاب مُعْتَق ، فقال :

وَشَمْعَةٌ تَحْمِلُهَا شَمْعَةٌ يَكَادُ يُخْفِي نَوْرُهَا نَارَهَا
لَوْلَا نَهَى نَفْسٍ نَهَتْ غِيَّهَا لَقَبَّلَتْهُ وَأَتَتْ عَارَهَا

ولما سمعهما أبو عمران الزاهد قال : إنه لم يكن يفعل ، ولكنه هزته
أريجية الأدب ولو كنت أنا لقلت :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَخَوْفُ اللَّهِ يَمْنَعُنِي وَأَنْ يَقَالَ صَبَا مُوسَى عَلَى كِبَرِهِ
إِذَا لَمْتَعْتُ لِحْظِي فِي نَوَاطِرِهِ حَتَّى أَوْقِي جَفَوْنِي الْحَقَّ مِنْ نَظَرِهِ

١ في هذا القول نظر ، وقد سئل ابن العربي بعد عودته إلى المغرب هل لقي الإمام المهدي بن تومرت ،
وكان ذلك في مجلس عبد المؤمن ، فقال : لم ألقه وإنما سمعت به (الحلل الموشية : ١٢٢ - ١٢٣) .

٢ انظر المغرب ١ : ٢٥٠ .

رجع إلى أخبار ابن العربي - فنقول : إنّه سمع بالأندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني وأبا عبد الله السرقسطي ، وببجاية أبا عبد الله الكلاعي ، وبالمهديّة أبا الحسن ابن الحداد الحولاني ، وسمع بالإسكندرية من الأنماطي ، وبمصر من أبي الحسن الحلعي وغيره ، وبدمشق غير واحد كأبي الفتح نصر المقدسي ، وبمكة أبا عبد الله الحسين الطبري وابن طلحة وابن بُنْدَار ، وقرأ الأدب على التبريزي وعمل ، رحمه الله تعالى ، على مدينة إشبيلية سوراً بالحجارة والآجر بالنورة من ماله . وكان - كما في الصلة - [مقدماً في المعارف كلها] حريصاً على أدائها ونشرها^١ ، ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها ، ويجمع إلى ذلك كلّ آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ولين الكنف ، وكثرة الاختمال وكرم النفس ، وحسن العهد وثبات الود .

وذكره ابن بَشْكُوَال في الصلة وقال فيه : الإمام الحافظ ، ختام علماء الأندلس ، رحل إلى المشرق مع أبيه مستهلاً^٢ ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، ودخل الشام والعراق وبغداد ، وسمع بها من كبار العلماء ، ثم حج في سنة تسع وثمانين ، وعاد إلى بغداد ، ثم صدر منها^٣ .

وقال ابن عساكر : خرج من دمشق راجعاً إلى مقره سنة ٤٩١ ، ولما غَرَبَ صَنَّفَ « عارضة الأحوزي » ولقي بمصر والإسكندرية جملة من العلماء ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين ، وقدم إشبيلية بعلم كثير ، وكان موصوفاً بالفضل والكمال ، وولي القضاء بإشبيلية ، ثم صُرف عنه ، ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة ، وتوفي بمغيلة بمقربة^٣ من مدينة فاس ، ودُفِنَ بفاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين

١ في أصول النفع : آدابها وسيرها ، والتصحيح عن الصلة وابن خلكان ، والضمير راجع إلى « المعارف » ، واضطرب النقل على المقرئ .

٢ النقل عن الصلة باختصار شديد .

٣ ق : بمقيلة بقرية .

وخمسمائة ؛ انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخصاً .

وما وفي ابن سعيد حافظ الإسلام أبا بكر ابن العربي حقه ، فلنعززه بما حضرنا من التعريف به ، فنقول : إنه لقي ببغداد الشاشي أبا بكر والإمام أبا حامد الطوسي الغزالي ، ونقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلاّ الباجي ، أو كلاماً هذا معناه ، وكان من أهل التفنن في العلوم ، متقدماً في المعارف كلّها ، متكّلاً على أنواعها ، حريصاً على نشرها ، وقام بأمر القضاء أحمد قيام ، مع الصرامة في الحق ، والقوّة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين ، وقد روي عنه أنه أمر بثقب أشداق زامرٍ ، ثم صُرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثّه ، وقرأ عليه الحافظ ابن بشكّوَال بإشبيلية .

وقال ابن الأبار^١ : إن الإمام الزاهد العابد أبا عبد الله ابن مجاهد الإشبيلي لازم القاضي ابن العربي نحواً من ثلاثة أشهر ، ثم تخلف عنه ، فقبل له في ذلك ، فقال : كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان ، انتهى . وذكره ابن الزبير في صلته^٢ ، وقال : إنه رحل مع أبيه أبي محمد عند انقراض الدولة العبّادية ، وسنه نحو سبعة عشر عاماً ، إلى أن قال : وقيد الحديث ، وضبط ما روى ، واتسع في الرواية ، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن ، ومات أبوه - رحمه الله تعالى - بالإسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فأنصرف حينئذ إلى إشبيلية ، فسكنها ، وشوّر فيها وسمع ، ودرّس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ والتفسير ، وصنف في غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة ، وولي القضاء مدّة أوّلها في رجب من سنة ثمان وعشرين ، فنفع الله تعالى به لصراّمته ونفوذ أحكامه ، والتزم^٣ الأمر بالمعروف والنهي عن

١ انظر أيضاً المرقبة العليا : ١٠٦ وأزهار الرياض : ٦٣ .

٢ المصدران السابقان أيضاً .

٣ ط : والتزام ..

المنكر ، حتى أُوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله ، فأحسن الصبر على ذلك كله ، ثم صُرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبشّته ، وكان فصيحاً حافظاً أديباً شاعراً كثير الملح مليح المجلس .

ثم قال : قال القاضي عياض - بعد أن وصفه بما ذكرته - : ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس فيه الكلام ، وطعنوا في حديثه ، وتوفي مُنصَرَفَه من مراکش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة إشبيلية ، فحبسوا بمراكش نحو عام ، ثم سرحوا ، فأدرسته منيته ، وروى عنه خلق كثير ، منهم القاضي عياض وأبو جعفر ابن الباذش وجماعة ، انتهى ملخصاً .

ووقع في عبارة ابن الزبير تبعاً لجماعة أنه دُفن خارج باب الحيسة بفاس ، والصواب خارج باب المحروق ، كما أشبعت الكلام على ذلك ، في «أزهار الرياض»^١ ، وقد زُرُّته مراراً ، وقبره هناك مقصود للزيارة خارج القصة ، وقد صرح بذلك بعض المتقدمين الذين حضروا وفاته ، وقال : إنه دُفن بتربة القائد مظفر خارج القصة ، وصلى عليه صاحبه أبو الحكم ابن حجاج ، رحمه الله تعالى . ومن بديع نظمه^٢ :

أَتَتْنِي تُوْنْبِي بِالْبُكَ فَأَهْلًا بِهَا وَبِتَانِيَّيْهَا
تَقُولُ وَفِي نَفْسِهَا حَسْرَةٌ : أَتَبْكِي بَعِينَ تَرَانِي بِهَا ؟
فَقُلْتُ : إِذَا اسْتَحْسَنْتُ غَيْرَكُمْ أَمَرْتُ جَفَوْنِي بِتَعْذِيبِهَا

وقال ، رحمه الله تعالى : دخل عليّ الأديبُ ابن صارة وبين يديّ نار علاها رماد ، فقلت له : قل في هذه ، فقال :

١ أزهار الرياض ٣ : ٦٥ ، ٨٧ - ٨٨ .

٢ أزهار الرياض ٣ : ٨٨ .

شَابَتْ نَوَاصِي النَّارِ بَعْدَ سَوَادِهَا وَتَسْتَرَّتْ عَنَّا بِثَوْبٍ رَمَادٍ

ثُمَّ قَالَ لِي : أَجْز ، فَقُلْتُ :

شَابَتْ كَمَا شَبِينَا وَزَالَ شَبَابُنَا فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِيعَادٍ

وقد اختلف حذّاق الأدباء في قوله : « ولكنه رمح وthan وثالث » ما هو الثاني والثالث ؟ فقليل : القدّ واللحظ ، وقيل غير ذلك .

ولما ذكر ، رحمه الله تعالى ، في كتابه « قانون التأويل » ركوبه البحر في رحلته من إفريقيا قال ^١ : وقد سبق في علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ، ويغرقتنا في هَوْلِهِ ، فخرجنا من البحر ، خروج الميت من القبر ، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سلّيم ، ونحن من السّغب ، على عطب ، ومن العُري ، في أقبح زي ، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها ^٢ ، ودسّمت الأدهان وبَرّها وجلدتها ، فاحترمناها أزرّاً ، واشتملناها ليفاً ^٣ ، تمجّنا الأبصار ، وتخذلّنا الأنصار ، فعطف أميرهم علينا فأوينا إليه فأوانا ، وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا ، وأكرم مَثَوَانَا ، وكسانا بأمر حقير ضعيف ، وفنّ من العلم طريف ، وشرحه أنا لما وقفنا على بابهِ ألفيناه يدير أعواد الشاه ^٤ ، فعِلّ السامد اللاه ، فدنوت منه في تلك الأطمار ، وسمح لي بياذقه إذ كنت من الصغر في حدّ يُسمح فيه للأغمار ، ووقفت بإزائهم ، أنظر إلى تصرفهم من ورائهم ، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خلّس البطالة ، مع غلبة الصبوة والجهالة ، فقلت للبياذقة : الأمير أعلم من

١ النص في أزهار الرياض ٣ : ٨٩ - ٩١ .

٢ المنية : الجلد أول عهده بالدباغ ، وفي ق ط ج ودوزي : هيئتها ؛ وأظنه أصوب .

٣ الأزهار : لفعاً .

٤ يريد أنه يلعب الشطرنج .

صاحبه ، فلمحوني شَزْرًا ، وعظمتُ في أعينهم بعد أن كنت نَزْرًا ، وتقدّم إلى الأمير مَنْ نَقَلَ إليه الكلام ، فاستدنانني فدنوت منه ، وسألني : هل لي بما هم فيه بَصَرٌ ؟ فقلت : لي فيه بعض نظر ، سيبدو لك ويظهر ، حرّك تلك القطعة ، ففعل وعارضه صاحبه ، فأمرته أن يحرك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تتّرى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير ، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابنُ عم الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شكّ في الوصل ربّه وفي الهجر فهو الدهر يَرْجو ويتقي

فقال : لعن الله أبا الطيّب ، أو يشكّ الربُّ ؟ فقلت له في الحال : ليس كما ظنّ صاحبك أيها الأمير ، إنّما أراد بالرب ههنا الصاحب ، يقول : ألدّ الهوى ما كان المحبُّ فيه من الوصال ، وبلوغ الغرض من الآمال ، على ريب ، فهو في وقته كلّهُ على رجاء لما يؤمله ، وثقاة لما يقطع به ، كما قال :

إذا لم يكن في الحبّ سُخْطٌ ولا رِضا فأيّن حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض ، في طرقي الإبرام والانتقاض ، ما حرّك منهم إلى جهتي داعي الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون مني ويسألونني كم سني ، ويستكشفونني غني ، فبقّرتُ لهم حديثي ، وذكرت لهم نجيثي ، وأعلمت الأمير بأن أبي معي فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة إلى مشواه ، فخلع علينا خِلْعَهُ ، وأسبل علينا أدمعه ، وجاء كل حيوان ، بأفنان الألوان .

ثم قال بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه : فانظر إلى هذا العليم الذي هو إلى الجهل أقرب ، مع تلك الصُّبابة اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذا من العطب ؟ وهذا الذكر يرشدكم إن عقلم إلى المطلب . وسرنا حتى انتهينا إلى ديار مصر . انتهى مختصراً .

والزول : العجب ، ونجيث الخبر : ما ظهر من قبيحه ، يقال : بدا نجيثُ

القوم ، إذا ظهر سرهم الذي كانوا يحقّونه ، قاهما الجوهري .
 وذكر ، رحمه الله تعالى ، في رحلته عجائب ، منها : أنّه حكى دخوله
 بدمشق بيوت بعض الأكابر أنّه رأى فيه النهر جاثياً إلى موضع جلوسهم ،
 ثم يعود من ناحية أخرى ، فلم أفهم معنى ذلك حتّى جاءت موائد الطعام في النهر
 المقبل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين يدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم
 الأواني وما معها في النهر الراجع ، فذهب بها الماء إلى ناحية الحرّيم من غير أن
 يقرب الخدم تلك الناحية ، فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب ، انتهى بمعناه .
 وقال في « قانون التأويل »^١ : ورد علينا دانشمند^٢ - يعني الغزالي -
 فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية ، معروضاً عن الدنيا ، مُقبلاً
 على الله تعالى ، فمشينا إليه ، وعرضنا أمنيّتنا عليه ، وقلت له : أنت ضالتنا
 التي كنّا ننشد ، وإمامنا الذي به نسترشد ، فلقينا لقاء المعرفة ، وشاهدنا منه
 ما كان فوق الصفة ، وتحققنا أن الذي نُقل إلينا من أن الخبر على الغائب
 فوق المشاهدة ليس على العموم ، ولو رآه عليّ بن العباس^٣ لما قال :

إذا ما مدّحتَ امرأ غائباً فلا تغلّ في مدّحه واقصِدِ
 فإنّك إنْ تغلّ تغلّ الظنو نْ فيه إلى الأمدِ الأبعدِ
 فيصغُرَ من حيثُ عظُمته لفضلِ المغيبِ على المشهدِ

وكنّت نقلت من المطمح في حقّه ما صورته^٤ : علّم الأعلام الطاهر الأثواب ،
 الباهر الأبواب^٥ ، الذي أنسى ذكاء إياس ، وترك التقليد للقياس ، وأنّج الفرع

١ أزهار الرياض : ٩١ .

٢ دانشمند : الحكيم العلامة .

٣ أي ابن الرومي .

٤ انظر المطمح : ٦٢ ونقل المقرّي هذا النص في أزهار الرياض : ٩٢ .

٥ ط ق : الباهر الأبواب .

من الأصل ، وغدا في يد الإسلام أمضى من النّصل ، سقى الله تعالى به الأندلس بعدما أجذبت من المعارف ، ومد عليها منه الظلّ الوارف ، وكساها روثق نبله ، وسقاها ريثق وبّله ، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرأ في فلّكها ، وصدرأ في مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بني عبّاد ، اصطفاه المأمون لابن أبي دؤاد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوّاه المراتب المنيفة ، فلما أقفرت حمص من ملكهم وخلّت ، وألقتهم منها وتخلّت ، رحّل به إلى المشرق ، وحلّ فيه محلّ الخائف الفریق ، فجال في أكنافه ، وأجال قِداح الرجاء في استقبال العز واستنافه ، فلم يستردّ ذاهباً ، ولم يجدّ كعتمده باذلاً له وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وما استفاد من آمال تلك الأطماع ، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيّب ما دوّح ، وفي روض الشباب زهر ما صوّح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً وإليها وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقاييسه ، فجذّ في طلبه ، واستجدّ به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حِمَامُه ، ووارته هناك رجامه ، وبقي أبو بكر متفرداً ، وللطلب متجرداً ، حتى أصبح في العلم وحيداً ، ولم تجد عنه رياسته محيداً ، فكرّ إلى الأندلس فحلّها والنفوسُ إليه متطلّعة ، ولأنبائه متسمعة ، فناهيك من حُظوة لقي ، ومن عزة سقي ، ومن رفعة سما إليها ورقي ، وحسبك من مفاخر قلّدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلّدها ، وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافاً ، وترده الأفهام نطافاً ، فمن ذلك قوله يتشوق إلى بغداد ، ويخاطب فيها أهل الوداد :

أَمِنْكَ سَرَى وَاللَّيْلُ يُخْدَعُ بِالْفَجْرِ خِيَالٌ حَبِيبٌ قَدْ حَوَى قَصَبَ الْفَخْرِ ؟
جَلَا ظَلَمَ الظُّلَمَاءَ مَشْرِقُ نَوْرِهِ وَلَمْ يَخْبِطِ الظُّلَمَاءُ بِالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ

١ يد : سقطت من ق ط ج ، ووردت في المطبع .

ولم يَرْضَ بالأَرْضِ البسيطةِ مَسْحَبًا
وَحَثَّ مَطَايَا قَدَّ مَطَاها بَعْزَةً
فصارت ثِقَالًا بِالْجَلَالَةِ فَوْقَهَا
وَجَرَّتْ عَلَى ذَيْلِ المَجْرَةِ ذَيْلُهَا
ومرَّتْ عَلَى الجَوَازِاءِ تَوْضِيعُ فَوْقَهَا
وساقتُ^١ أريجَ الخلدِ من جَنَّةِ العُلا
فما حَدَرَتْ قَيْسًا وَلَا خَيْلَ عامِرٍ
سقى اللهُ مِصرًا والعِراقَ وأهلَهَا
انتهى .

ومن تآليف الحافظ^٢ أبي بكر ابن العربي المذكور كتاب « القبس في شرح
موطأ مالك بن أنس » وكتاب « ترتيب المسالك » في شرح موطأ مالك » وكتاب
« أنوار الفجر » وكتاب « أحكام القرآن » وكتاب « عارضة الأحوذِيّ في
شرح الترمذي » - والأحوذِيّ بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو
وكسر الذال المعجمة وآخره ياء مشددة - وكتاب « مراقي الزلّف » وكتاب
« الخلافات » وكتاب « نواهي الدواهي » وكتاب « سراج المريدين » وكتاب
« المشكلين : مشكل القرآن والسنة » وكتاب « الناسخ والمنسوخ في القرآن »
وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « النيرين في الصحيحين » وكتاب « سراج
المهتدين » وكتاب « الأمد الأقصى » بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا » وكتاب
« في الكلام على مشكل حديث السُّبُحات والحجاب » ، وكتاب « العقد الأكبر
للقلب الأصغر » و « تبين الصحيح في تعيين الذبيح » و « تفصيل التفضيل بين

١ لعل الأصوب : وسافت .

٢ عد المقرئ مؤلفات ابن العربي أيضاً في أزهار الرياض ٣ : ٩٤ - ٩٥ وسقط بعض ما ذكره
في النفع .

التحميد والتهليل « ورسالة « الكافي في أن لا دليل على النافي » وكتاب « السبايعات » وكتاب « المسلسلات » وكتاب « المتوسط في معرفة صحّة الاعتقاد والرد على من خالف أهل السنّة من ذوي البدع والإلحاد » وكتاب « شرح غريب الرسالة » وكتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف » عشرون مجلداً ، وكتاب « حديث الإفك » وكتاب « شرح حديث جابر في الشفاعة » وكتاب « شرح حديث أم زرع » وكتاب « ستر العورة » وكتاب « المحصول في علم الأصول » وكتاب « أعيان الأعيان » وكتاب « ملجاة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين » وكتاب « ترتيب الرحلة » وفيه من الفوائد ما لا يوصف .

ومن فوائد القاضي أبي بكر ابن العربي رحمه الله تعالى قوله ^١ : قال علماء الحديث : ما من رجل يطلب الحديث إلاّ كان على وجهه نَضْرَةٌ ، لقول النبي ، صلّى الله عليه وسلم : « نَضَرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها — الحديث » قال : وهذا دعاء منه عليه الصلاة والسلام لحملة علمه ، ولا بدّ بفضل الله تعالى من نيل بركته ، انتهى .

وإلى هذه النَضْرَةِ أشار أبو العباس العزّفي بقوله :

أهلُ الحديث عصابةُ الحقِّ فازُوا بدَعْوَةِ سيّد الخلقِ
فوجّوهُهُمْ زَهْرٌ مُنَضَّرَةٌ لألّاؤها كنألقِ البرقِ
يا لَيْتَنِي مَعَهُمْ فيُدْرِكَنِي ما أدركوه بها من السّبِقِ

انتهى .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبي بكر ابن العربي ، رحمه الله تعالى :

فمنها قوله في تصريح المحصنات : يقال : أَحَصَنَ الرجلُ فهو مُحَصَّنٌ — بفتح العين في اسم الفاعل — وأسْهَبَ في الكلام فهو مُسْهَبٌ ، إذا أطل

البحث فيه ، وألفج فهو مُلْفَج ، إذا كان عديماً ، لا رابع لها ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

ومنها قوله : سمعت الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشي وهو ينتصر للمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر يقول : يقال في اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا - بفتح الراء - أي لا تتلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تَدُنْ من الموضوع ، وهذا الذي قاله صحيح مسموع ، انتهى .

ومنها قوله : شاهدت المائدة بطورزيتا مراراً ، وأكلت عليها ليلاً وهاراً ، وذكرت الله سبحانه وتعالى فيها سرّاً وجهاراً ، وكان ارتفاعها أشْفَ من القامة بنحو الشبر ، وكان لها درجتان قليلاً وجنوبيّاً ، وكانت صخرة صَلُوداً^١ لا تؤثر فيها المعاول ، وكان الناس يقولون : مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قردة وخنازير ، والذي عندي أنّها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء ، وكل ما حولها حجارة مثلها ، وكان ما حولها محفوظاً بقصور ، وقد نُحِتَتْ في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها ، مقطوعة فيها ، وحناياها في جوانبها ، وبيوت خدمتها قد صُوِّرَتْ من الحجر كما تُصوَّر من الطين والخشب ، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثمن درهم لم يفتحها أهل الأرض للصوفة بالأرض ، وإذا هبَّتْ الريحُ وحثَّتْ تحته التراب لم يُفْتَحْ إلا بعد صب الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب ، وينفرج مُنْفَرَجُ الباب ، وقد باربها قوم^٢ بهذه العلة ، وقد كنت أدخلو فيها كثيراً للدرس ، ولكنني كنت في كل حين أكنس حول الباب ، مخافة ممّا جرى لغيري فيها ، وقد شرحت أمرها في كتاب « ترتيب الرحلة » بأكثر من هذا ، انتهى .

ومنها قوله ، رحمه الله تعالى : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر

١ ق ط ج : صلدأ .

الفهرري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة المرفوع : « إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم » فقالوا : بل منهم ، فقال : « بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون عليه أعواناً »^١ ، وتفاوضنا كيف يكون أجر مَنْ يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال ، صلى الله عليه وسلم ، في الصحيح : « لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » ، فراجعنا القول ، وتحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ، ولا يُدانيهم فيها بشئ ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر مَنْ أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه ، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام ، صعب المرام ، لغلبة الكفار على الحق ، وفي آخر الزمان أيضاً يعود كذلك ، لوعد الصادق ، صلى الله عليه وسلم ، بفساد الزمان ، وظهور الفتن ، وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب مَنْ يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم : « لتركبن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه »^٢ وقال ، صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ »^٣ فلا بد ، والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق ، أن يرجع الإسلام إلى واحد ، كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف

١ الحديث في مجمع الزوائد ٧ : ٢٨٢

٢ رواه الحاكم في المستدرک (الراموز : ٣٤٦) .

٣ انظر مجمع الزوائد ٧ : ٢٧٧ - ٢٧٩

ما كان لمن كان متمكناً منه مُعاناً عليه بكثرة الدُّعاة إلى الله تعالى ، وذلك قوله :
« لَأَتَّكُم تَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَاناً وَهُمْ لَا يَجِدُونَ عَلَيْهِ أَعْوَاناً » حتى ينقطع ذلك
انقطاعاً باتّاً لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال ، صَلَّى الله عليه وسلّم : « لا تقوم
الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله »^١ يروى برفع الهاء ونصبها ، فالرفع
على معنى لا يبقى موحد يذكر الله ، عزّ وجلّ ، والنصب على معنى لا يبقى
أمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر يقول : أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقلُ
الموتَ ، كما قال صَلَّى الله عليه وسلّم : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجلُ بقبر
الرجل فيقول : يا ليتني كنت مكانه »^٢ انتهى .
وأشدد رحمه الله تعالى لبعض الصوفية :

امتحنَ اللهُ بذَا خَلْقِهِ ُ فالنارُ والجنةُ في قبْضَتِهِ
فَهَجَرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ

ومن فوائد ابن العربي رحمه الله تعالى أنّه قال : كنت بمجلس الوزير العادل
أبي منصور ابن جَهَّير على رتبة بيّناها في كتاب « الرحلة للترغيب في الملة »
فقرأ القارئ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ (الأحزاب : ٤٤) وكنت في
الصف الثاني من الحلقة بظهر أبي الوفاء علي بن عقيل^٣ إمام الحنبلية بمدينة السلام ،
وكان معتزلي الأصول ، فلما سمعتُ الآية قلت لصاحب لي كان يجلس على

١ مجمع الزوائد ٨ : ١٢ .

٢ صحيح مسلم ٢ : ٣٧٨ ومجمع الزوائد ٧ : ٢٨٢ .

٣ علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الأصولي الواعظ المتكلم (٤٣١ - ٥١٣) درس
على أعلام عصره ، وأخذ الكلام على بعض المعتزلة ولذلك نقم عليه الحنابلة وطلبوا أذاه فاختموا
والتجأ إلى دار السلطان ، وسمع من الغزالي والجويني وغيرهما من الأعلام ؛ قال السلفي : ما
رأت عينايا مثل الشيخ أبي الوفاء ابن عقيل ، ما كان أحد يقدر أن يتكلم معه لغزارة علمه وحسن
إيراده وبلاغة كلامه وقوة حجته ؛ وله في الفقه والأصول استنباطات جيدة ، وخلف عدداً
كبيراً من المؤلفات (انظر ذيل ابن رجب ١ : ١٤٢ - ١٦٣) .

يساري : هذه الآية دليل على رؤية الله في الآخرة : فإن العرب لا تقول « لقيت فلاناً » إلا إذا رأيته ، فصرف وجهه أبو الوفاء مُسْرِعاً إلينا ، وقال ينتصر المذهب الاعتزال في أن الله تعالى لا يَرَى في الآخرة : فقد قالَ اللهُ تعالى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ (التوبة : ٧٧) وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى في الآخرة ، وقد شرحنا وجه الآية في المشكلين ، وتقدير الآية : فأعقبهم هو نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، فيحتمل ضمير يلقونه أن يعود إلى ضمير الفاعل في (أعقبهم) المقدر بقولنا هو ، ويحتمل أن يعود إلى النفاق مجازاً على تقدير الجزاء ، انتهى .

ومنها ما نقله عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما « لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة » فإن قوماً قيل فيهم ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ (التوبة : ١٢٧) وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسي الواعظ، أخبرنا أبو الفضل الجوهري سماعاً منه : كنا في جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله تعالى ، فقال : لا يقل أحدكم انصرفوا فإن الله تعالى قال في قوم ذمهم ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ ولكن قولوا : انقلبوا رحمكم الله ، فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ ﴾ (آل عمران : ١٧٤) انتهى .

ومنها ، وقد ذكر الخلاف في شاهد يوسف ، ما صورته : فإذا قلنا إنه القميص ، فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقديم مقاله ، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال في بعض الأمور ، وقد تضيف العرب الكلام إلى الجملادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات ، ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط للوتد : لم تشقتني ؟ قال : سل من يدقني ، ما يتركني ورائي ، هذا الذي ورائي ، لكن قوله تعالى بعد ذلك ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ (يوسف : ٢٦) في

صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص ، وأما من قال إنه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فإنه يحتمل ، لكن قوله ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ يعطي اختصاصها من جهة القرابة ؛ انتهى .

ومنها قوله : إنه كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأي إمام ، يُعرف بابن عطاء ، فتكلّم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته ممّا يُنسب إليه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخلقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ، يا سيدنا ، فإذا يوسف همّ وما تمّ ، فقال : نعم ، لأن العناية من ثمّ ، فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامي في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية : إن فائدة قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (يوسف : ٢٢) أن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيّام غلبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة ؛ انتهى .

ومنها قوله : كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وكنت أشرب ماء زمزم كثيراً ، وكلّما شربته نويت به العلم والإيمان ، ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار الذي يَسَّرَه لي من العلم ، ونسيت أن أشربه للعمل ، وبإيتني شربته لحما حتى يفتح الله تعالى لي فيهما ، ولم يُقَدَّر فكان صَغَوِي^٢ للعلم أكثر منه للعمل ، وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته .

ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول : إنّما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرق والحرية لأنّه انفصل عن الأب نُطْفَةً لا قيمة له ، ولا مالية فيه ، ولا منفعة ماثلة عليه ، وإنّما اكتسب ما اكتسب بها ومنها ، فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمرّاً في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنّها ملك صاحب

١ ط : نسب .

٢ في ط ق ودوزي : صفوي ؛ ج : صفري .

الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة ، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذه من البدائع ، انتهى .

ومنها قوله : ومن نوادر أبي الفضل الجوهري ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ وغيره أنه كان يقول : إذا أمسكت علاقة الميزان بالإبهام والسبابة ، وارتفعت سائر الأصابع كان شكلها مقررّاً بقولك « الله » ، فكأنّها إشارة منه سبحانه في تيسير الوزن كذلك إلى أن الله سبحانه مطّلع عليك ، فاعدل في وزنك ، انتهى .

ومنها قوله : كان ابن الكازروني يأوي إلى المسجد الأقصى ، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى ، عليه السلام ، فيسمع من الطور ، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئاً دون قراءته ، إلّا الإصغاء إليه ، انتهى .

ومنها قوله في تفسير قوله تعالى ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَتِ ﴾ (نصت : ١٦) قيل : إنّها كانت آخر شوال ، من الأربعاء إلى الأربعاء ، والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء لأجل هذه الرواية ، حتى إنّي لقيت يوماً مع خالي الحسن بن أبي حفص رجلاً من الكتاب ، فودعنا بنية السفر ، فلما فارقنا قال لي خالي : إنك لا تراه أبداً لأنّه سافر في يوم أربعاء لا يتكرر ، وكذلك كان ، مات في سفره ، وهذا ما لا أراه ، لأن يوم الأربعاء يوم عجيب ، بما جاء في الحديث من الخلق فيه والترتيب ، فإن الحديث ثابت بأن الله تعالى خلق يوم السبت التربة ، ويوم الأحد الجبال ، ويوم الاثنين الشجر ، ويوم الثلاثاء المكروه ، ويوم الأربعاء النور ، وروي النون ، وفي غريب الحديث أنّه خلق يوم الأربعاء التّقن ، وهو كل شيء تتقن به الأشياء ، يعني المعادن من الذهب والفضّة والنحاس والحديد والرصاص ، فالיום الذي خلق فيه المكروه لا يعافه الناس ، واليوم الذي خلق فيه النور أو التّقن يعافونه ، إن هذا هو الجهل المبين . وفي المغازي أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم دعا على الأحزاب من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء بين الظّهر والعصر ، فاستجيب له ، وهي ساعة فاضلة ، فالآثار الصّحاح تدل على

فضل هذا اليوم ، فكيف يُدعى فيه التحذير والنحس بأحاديث لا أصل لها ،
وقد صور قوم أياماً من الأشهر الشمسية ادّعوا فيها الكراهية لا يحل لمسلم أن
ينظر إليها ولا يشغل بالاً بها والله حسبهم ، انتهى .

ومنها : وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الإمام دانشمند من بلاد المغرب
خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية ، فربك أعلم به ، ومع طول الصعبة
عقّلني الحياء عن سؤاله ، وبودي اليوم لو كاشفته عن حاله ، انتهى .
ومن شعر ابن العربي ممّا نسب له الشيخ أبو حيان قوله ^١ :

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ دَرَوَا أَيَّ قَلْبٍ مَلَكُوا
وَفُؤَادِي لَوْ دَرَى أَيَّ شَعْبٍ سَلَكُوا
أَتَرَاهُمْ سَلِمُوا أَمْ تَرَاهُمْ هَلَكُوا
حَارَ أَرْبَابُ الْهَوَى فِي الْهَوَى وَارْتَبَكُوا

ومن فوائده : أخبرني المهرة من السحرة بأرض بابل أنّه من كتب
آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ إليه سحرنا ، قال : هكذا قالوا ، والله تعالى
أعلم بما نقلوه .

وقال رحمه الله تعالى : حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثاً لضبط القرآن
والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة
بما يتبعها من إظهار ، وإدغام ونحوه ، وتمرت في العربية والشعر واللغة ،
ثم رحل بي أبي إلى المشرق ، ثم ذكر تمام رحلته ، رحمه الله تعالى .

٩ — ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر ابن حجاج ، الغافقي ، الإشبيلي ،
ومن نظمه بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

١ في هامش إحدى النسخ : والصواب أن الأبيات للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي ، رضي الله
عنه ، وهي في ابتداء ترجمان الأشواق له . قلت : انظر ص : ١١ من الديوان المذكور .

لم يَبْقَ لي سؤلٌ ولا مَطْلَبٌ مذ صِرْتُ جاراً لحبيب الحبيب
 لا أبتغي شيئاً سوى قُرْبهِ وها أنا منه قريبٌ قريبٌ
 مَنْ غاب عن حَضْرَةِ محبوبهِ فليستُ عن طَيْبَةِ مِمَّنْ يغيبُ
 لا تَسْأَلِ المَغْبُوطَ عن حالهِ جارٌ كريمٌ وعملٌ خصبٌ
 العيشُ والموتُ هنا طيبٌ بطيبةٌ لي كلُّ شيءٍ بطيبٌ

وممن روى عنه هذه الأبيات الأشرف بن الفاضل .

١٠ - ومنهم الشيخ الأديب الفاضلُ البارِعُ جمالُ الدين أبو عبد الله محمد
 ابن الفقيه الخطيب أبي الحسن محمد بن أبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن علي
 ابن ذي النون^١ ، الأنصاري ، المالقي ، من أشياخ أبي حيان ، لقيه ببُلْبَيْسَ
 من ديار مصر ، قال : وأشدني لشيخه أبي عبد الله^٢ الاستِحي من قصيدة :

ما للنَّسيمِ سرى^٣ الأصيلَ عليلاً أترأه يشكو لَوْعَةً وغلِيلاً
 جرَّ الذُّيُولَ على ديارِ أحبَّتي فأتى يجرُّ من السَّقامِ ذُيُولاً

وأشد ، رحمه الله تعالى ، لرضوان المخزومي :

إن كنتَ يُوسُفَ حُسْنًا وكنتُ عبدَ العزيز
 فإن يوسفَ من قبِلي كان عبدَ العزيز

وأخذ ابنُ ذي النون المذكور عن أبي عبد الله ابن صالح ، وقرأ للنسبة على
 أبي جعفر الفحام^٤ وأبي زيد القُمارِشي ، وعلى أبي جعفر السَّهيلي ، وولد ابن

١ في ط : ابن ذنون ؛ وحققها أن تكون ابن ذنون (كما في ط) ، وهو الاسم الأصلي الذي
 يكتب « ذي النون » تعريباً له .

٢ دوزي : عبد الله .

٣ ق : جرى .

٤ دوزي : المعجم ؛ ج : اللحام .

ذي النون سنة ٦١٧ بمالقة ، ومن تواليفه « نفع المسك الأذفر في مدح المنصور ابن المظفر » و « أزهار الحميلة في الآثار الحميلة » و « استطلاع البشير » و « محض اليقين وروض المتقين » .

١١ - ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي^١، المعروف بشبّطون^٢، يكنى أبا عبد الله ، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك ، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس ، وكانوا قبله يتفقّهون على مذهب الأوزاعي ، وأراده الأمير هشام على القضاء بقرطبة وعزم عليه ، فهرب ، فقال هشام : ليت الناس كلّهم كزياد حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا ، وأرسل إلى زياد فأمنه حتى رجع إلى داره .

ويحكى أنه لما أراحه للقضاء كلمه الوزراء في ذلك عن الأمير ، وعرفوه عزمه عليه ، فقال لهم : أما إن أكرهتموني على القضاء فزوجتي فلانة طالق ثلاثاً ، لئن أتاني مدّع في شيء ممّا في أيديكم لأخرجنّه عنكم ثم أجعلكم مدّعين فيه ؛ فلمّا سمعوا منه ذلك علموا صدقه ، فتكلّموا عند الأمير في معافاته .

سمع من مالك الموطأ ، ويُعرف سماعه بسماع زياد ، وسمع من معاوية ابن صالح ، وكانت ابنة معاوية تحته ، وروى يحيى بن يحيى الليثي عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل إلى مالك ، ثم رحل فأدرك مالكاً فرواه عنه إلاّ أبواباً في كتاب الاعتكاف ، شك في سماعها من مالك ، فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك .

وتوفي سنة أربع ومائتين ، وقيل : سنة ١٩٣ ، وقيل : في التي بعدها ، وقيل : سنة ١٩٩ ، والأول أولى بالقبول ، والله تعالى أعلم .

ورحل في ذلك العصر جماعة من أنظار شبّطون ، كضرغوس بن العباس

١ زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، شبطون : ترجمته في الحشني : ١٤ والمرقة العليا : ١٢ وابن الفرضي ١ : ١٨٢ والجذوة : ٢٠٣ (وبغية الملتبس رقم : ٧٥٢) .

وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج أيتام هشام ابن عبد الرحمن والد الحكم ، فلما رجعوا وصَفُّوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس ، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس ، وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون .

وهو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملًا متقنًا ، فأخذه عنه يحيى بن يحيى كما مر ، وهو إذ ذاك صَدْر في طلاب الفقه ، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيًّا ، فرحل سريعًا ، وأخذ يحيى عن زياد هذا الكتب العشرة المنسوبة إلى يحيى .

ولقي أيضاً عبد الله بن وهب صاحب مالك ، وسمع منه الموطأ^١ ، ولقي أيضاً عبد الله بن نافع المدني صاحب مالك ، وسمع منه ومن الليث بن سعد فقيه مصر ، ومن سفيان بن عيينة بمكة ، وقدم يحيى الأندلس أيام الحكم ، فانتشر به وبزياد وعيسى بن دينار علم مالك بالأندلس ، رضي الله تعالى عن الجميع .

وقد قدمنا الحديث الذي رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك ، فليراجع في الباب الثالث^٢ .

١٢ - ومنهم سوار بن طارق^٣ مولى عبد الرحمن بن معاوية ، قرطبي ، حج ودخل البصرة ، ولقي الأصمعي ونظراءه ، وانصرف إلى الأندلس ، وأدب الحكم ، ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار ، حج أيضاً ، ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما ، وأدخل الأندلس علماً كثيراً ، رحم الله

١ ق : موطأ .

٢ انظر ما تقدم ١ : ٣٤٠ - ٣٤١ .

٣ سوار بن طارق : ترجمته في طبقات الزبيدي ٢٧٩ ؛ وترجمة ابنه عبد الله في طبقات الزبيدي ٢٨٢ وكذلك حفيده محمد ، وترجم ابن الغرضي ٢ : ٢٦ لحفيده محمد هذا .

تعالى الجميع .

١٣ - ومنهم بقيّ بن مخلد^١ ، الشهير بالذكر ، صاحب التآليف التي لم يؤلّف مثلها في الإسلام ، ولقي مائتين وأربعة وثمانين شيخاً ، وكانت له خاصة من الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى ، وستأتي جملة ممّا يتعلّق ببقيّ بن مخلد في رسالة ابن حزم في الباب السابع ؛ وبقيّ على وزن عليّ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ؛ وقد عرّف ببقيّ بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب « النبراس »^٢ وغيره .

١٤ - ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف ، أبو محمد ، البيّاني^٣ - وبيّانة من أعمال قرطبة - وأصل سلفه من موالي الوليد بن عبد الملك ، وسمع المذكور بقرطبة من بقيّ بن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرّف بن قيس وأصبغ ابن خليل وابن مسرة وغير واحد ، ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك ابن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبد الأعلى^٤ سنة أربع وسبعين ومائتين ، فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز ، ودخل العراق ، فلقي من أهل الكوفة إبراهيم بن أبي العنيس قاضيها وإبراهيم بن عبد الله القصار ، وسمع ببغداد من القاضي إسماعيل^٥ وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما كعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أبي أسامة وكتب عن ابن أبي خيثمة

١ بقي بن مخلد : ترجمته في الجذوة : ١٦٧ (وبغية الملتبس : ٥٨٤) والصلة : ١١٨ وابن الفرضي ١ : ١٠٧ وتذكرة الحفاظ : ٦٢٩ .

٢ النبراس : من كتب ابن دحية الكلبي ، ولا أدري أهو المقصود هنا أو غيره .

٣ قاسم بن أصبغ : ترجمته في الجذوة : ٣١١ (وبغية الملتبس : ١٢٩٨) وابن الفرضي ١ : ٤٠٦ وتذكرة الحفاظ : ٨٥٣ .

٤ ابن الفرضي : ابن أبي عبد الأعلى .

٥ ابن الفرضي : إسماعيل بن إسحاق قاضي القضاة .

تاريخه^١ ، وسمع من ابن قتيبة كثيراً من كتبه ، وسمع من المبرّد وثعلب وابن الجهم في آخرين ، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري ومطلب بن شعيب وغيرهما ، وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر ، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير ، فمال الناس إليه في تاريخ أحمد ابن زهير وكتب ابن قتيبة ، وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الأعلى ، وكان بصيراً بالحديث والرجال ، نبلاً في النحو والعربية^٢ والشعر ، وكان يشاور في الأحكام ، وصنّف على كتاب « السنن » لأبي داود كتاباً في الحديث ، وسببه أنه لما قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد ابن أيمن ، فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما ببسبر ، فلما فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفاً في السنن على أبواب كتاب أبي داود ، وخرّجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان ، ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه وسماه « المجتبي » - بالنون - وابتدأ اختصاره في المحرم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ، وجعله باسم الحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثاً في سبعة أجزاء .

ومولده يوم الاثنين عاشر ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين ، رحمه الله تعالى .

وحكى القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ (البقرة : ٣٢) أن قاسم بن أصبغ قال : لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان ، فأخذت عن بكر بن حماد حديث مُسَدَّد ، فقرأت عليه يوماً فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أنه قدم عليه قوم من مُضَرَّ مجتابي النمار » فقال : إنما هو مجتابي الثمار ، فقلت : إنما هو مجتابي النمار ، هكذا قرأته

١ هو أحمد بن زهير نفسه ، الذي ذكره قبل قليل .

٢ ط : والفريب .

على كل من لقيته بالأندلس والعراق ، فقال لي : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ؟ أو نحو هذا ، ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك [الشيخ] لشيخ كان في المسجد ، فإن له بمثل هذا علماً ، فقمنا إليه وسألناه عن ذلك ، فقال : إنما هو مجتأبي النمار كما قلتُ ، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم ، والنمار : جمع نَمِرَة ، فقال بكز بن حماد وأخذ بأنفِهِ : رَغِمَ أنفي للحق ، وانصرف ، انتهى .

وهذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين ، رحمهما الله تعالى ورضي عنهما ، ونفعنا بهما .

١٥ - ومنهم قاسم بن ثابت ، أبو محمد ، العوفي ، السَّرْقُسْطِي^١ ، رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شُعَيْب النسائي وأحمد بن عمرو البزار ، وبمكة من عبد الله بن علي بن الجارود ومحمد بن علي الجوهري ، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه ، فأدخلا إلى الأندلس علماً كثيراً ، ويقال : إنهما أول من أدخل كتاب « العَيْن » إلى الأندلس ، وألف قاسم في شرح الحديث كتاباً سماه « الدلائل » ، بلغ فيه الغاية في الإتقان ، ومات قبل إكماله ، فأكماله أبوه ثابت بعده ، وقد روي عن أبي علي البغدادي أنه كان يقول : كتبتُ كتاب « الدلائل » ، وما أعلم أنه وضع بالأندلس مثله ، وكان قاسم عالماً بالحديث واللغة^٢ ، متقدماً في معرفة الحديث والنحو والشعر ، وكان مع ذلك ورعاً ناسكاً ، وأريد على القضاء بسَرْقُسْطَة ، فأبى ذلك ، فأراد أبوه إكراهه عليه ، فسأله أن يتركه ينظر في أمره ثلاثاً ، ويستخير الله تعالى ، فمات في هذه الثلاثة الأيام ، فيروون أنه دعا لنفسه بالموت ، وكان مجاب

١ قاسم بن ثابت ، ترجمته في الجذوة : ٣١٢ (وبنية الملتمس : ١٣٠٠) وابن الفرضي ١ : ٤٠٢ وطبقات الزبيدي : ٣٠٩ ؛ ويتابع المقرئ ما جاء عند ابن الفرضي في هذه الترجمة .

٢ ط : والفقه .

الدعوة ، توفي سنة ٣٠٢ بِسَرَقُسْطَة ، رحمه الله تعالى .

١٦ - ومنهم علم الدين أبو محمد المُرسِيّ اللُّورقي ^١ ، وهو قاسم بن أحمد ابن موفق ^٢ بن جعفر ، العلامة المقرئ الأصولي النحوي ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبي جعفر الحصار وأبي عبد الله المُرادِي وأبي عبد الله ابن نوح الغافقي ، وقدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث بن فارس ، وبدمشق على التاج زيد الكندي ، وسمع ببغداد من أبي محمد ابن الأخضر ، وأخذ العربية عن أبي البقاء ، ولقي الجزولي بالمغرب ، وسأله عن مسألة مشكلة في مقدمته ، فأجابه ، وبرع في العربية وفي علم الكلام والفلسفة ، وكان يقرئ ذلك ويحققه ، وأقرأ بدمشق ودرس ، وشرح «المفصل» في النحو في أربع مجلدات فأجاد وأفاد ، وشرح «الجزولية» و «الشاطبية» ، وكان مليح الشكل ، حسن البزة ، موطئاً الأكثاف ، قرأ عليه جماعة ، وتوفي سابع رجب سنة ٦٦١ ، وكان معمرًا مشغلاً بأنواع العلوم ، وسمّاه بعضهم أبا القاسم ، والأوّل أصح .

١٧ - ومنهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار ^٣ ، أبو محمد ، من أهل قُرْطُبَة ، وجدّه مولى الوليد بن عبد الملك ^٤ ، رحل فسمع بمصر من محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم والمزني والبرقي والحارث بن مسكين ويونس بن عبد الأعلى وإبراهيم بن المنذر وغيرهم ، ولزم ابن عبد الحكم للتفقه ، وتحقق به وبالمزني ، وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ويميل إلى مذهب

١ قاسم بن أحمد اللورقي : ترجمته في غاية النهاية ٢ : ١٥ وذيل الروضتين : ٢٢٧ .
٢ قال أبو شامة : بن (أبي) السداد ، وكان هو لا يكتب ابن أبي السداد ويحمل مكانه الموفق وكان أبو السداد كنية الموفق .
٣ قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار : ترجمته في الجذوة : ٣١٠ (وبقية الملتبس رقم : ١٢٩٣)
وابن الفرضي ١ : ٣٩٧ والمقري ينقل عن ابن الفرضي بشيء من التصرف يسير .
٤ الجذوة : مولى هشام بن عبد الملك .

الشافعي ، ولما قال له ابنه محمد بن القاسم : يا أبت أوصيني ، قال : أوصيك بكتاب الله ، فلا تنسَ حظك منه ، واقرأ منه كلَّ يوم جزءاً ، واجعل ذلك عليك واجباً ، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظ ، يعني الفقه ، فعليك برأي الشافعي ، فلنأتي رأيت أقل خطأ . قال أبو الوليد ابن الفَرَضِي : ولم يكن بالأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة . وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة : ما رأينا أفقه من قاسم بن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحلة . وقال أسلم بن عبد العزيز : سمعت عن ابن عبد الحكم أنه قال : لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد ، ولقد عاتبته في حين انصرافه إلى الأندلس ، وقلت له : أقم عندنا فلنأك تقعد ههنا رياسة ويحتاج الناس إليك ، فقال : لا بدّ من الوطن . وقال سعيد بن عثمان^١ : قال لي أحمد ابن صالح الكوفي : قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد ، فرأيت رجلاً فقيهاً .

وألّف رحمه الله تعالى كتاباً نبيلاً في الرد على ابن مُزَيْن^٢ وعبد الله بن خالد والعتيبي يدل على علمه ، وله كتاب في خبر الواحد . وكان يلي وثائق الأمير محمد طول أيامه . روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والأعناقى وابنه محمد بن قاسم في آخرين^٣ . توفي سنة ست - أو سبع ، أو ثمان - وسبعين ومائتين ، رحمه الله تعالى .

١٨ - ومنهم أبو بكر الغساني ، وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود^٤ ، من أهل المرية ، قدم إلى مصر ولقي بها أبا بكر الطرطوشي ، ثم عاد إلى بلده ،

١ هو الأعناقى .

٢ يحيى بن إبراهيم بن مزين .

٣ ابن الفرضي : في جماعة سواهم .

٤ محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود : ترجمته في الصلة : ٥٥٣ ومعجم شيوخ الصدي : ١٢٦ .

وشوور واستقضي بمُرْسِيَةِ مدة طويلة ، ثم صُرف وسكن مراکش . قال ابن بَشْكُوَال : توفي بمراكش في رجب سنة ٦٣٦ ، وقال أبو جعفر ابن الزبير : إن له « كتاب تفسير القرآن » ، وبيته بيت علم ودين .

١٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حيّون^١ ، من أهل وادي الحجارة ، قال ابن الفرضي : سمع من ابن وضاح والحشي ونظرائهما بالأندلس ، ورحل إلى المشرق ، فتردد هناك نحواً من خمس عشرة سنة ، وسمع بصنعاء ومكة وبغداد ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل : منهم عبد الله ابن أحمد ، وسمع بمصر من الحفاف^٢ النيسابوري وإبراهيم بن موسى وغيرهما ، وبالمصيصة والقيروان ، وكان إماماً في الحديث ، عالماً ، حافظاً للعلل^٣ ، بصيراً بالطرق ، ولم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه ، وهو ضابط متقن ، حسن التوجيه للحديث ، صدوق ، ولم يذهب مذهب مالك . وممن روى عنه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وأحمد بن سعيد بن حزم ، وقال خالد بن سعيد^٤ : لو كان الصدوق إنساناً^٥ لكان ابن حيّون . وكان يُزَنُّ بالشييع لشيء كان يظهر منه في حق معاوية ، رضي الله تعالى عنه ، وكان شاعراً ، وتوفي بقرطبة سنة ٣٠٥ ، ساعه الله تعالى .

٢٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن غالب ، المالقي^٦ ، قال ابن نقطة : سمع بالإسكندرية من أبي الحسن ابن المقدسي ، وكان فاضلاً ،

١ محمد بن إبراهيم بن حيون : ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٢٨ وجذوة المقتبس : ٣٩ (وبنية الملتبس : ٤٣) وتذكرة الحفاظ : ٧٨١ .

٢ دوزي وق : الحفاظ .

٣ للعلل : سقطت من ق .

٤ ابن الفرضي : خالد بن سعد .

٥ في ط : لساناً .

٦ محمد بن إبراهيم المالقي : ترجمته في التكملة : ٦٣٨ والذيل والتكملة ٦ : ٣٥ (نسخة باريس) .

رأيت بخطه إجازة بمصر لبعض المصريين في رجب سنة ٦٠٤ ، وسمع بمصر شيئاً من الخِلَعِيَّات ، قال ابن فُرْتُوْنُ الفاسي في « ذيل تاريخ الأندلس » : روى بمالقة ، ورحل إلى المشرق وحج ، ولقي أبا الحسن علي بن الفضل المقدسي ، وأخذ عنه كتاب « تحقيق الجواب عمّن أجيز له ما فاته من الكتاب » من تأليفه ، ورجع إلى الأندلس ، ثم نهض إلى مراكش فتوفي في أقصى بلاد السّوس في حدود سنة ٦٤٥ ، رحمه الله تعالى .

٢١ - ومنهم اليَقْطُوري ، وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم مصنف كتاب « إكمال الإكمال » للقاضي عياض على صحيح مسلم ، وكتب على كتاب الشهاب القراني في الأصول ، وسمع الحديث ، وقدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوثق بمكة ، ثم عاد بعد حجّه ، ومات بمراكش سنة ٧٠٧ ، وقد زرت قبره بها مراراً ، قال الحافظ المقرئ : واليقْطُوري نسبة إلى يَقْتُورَة - بياء آخر الحروف مفتوحة ، وقاف مشددة ، وراء مهملة - بلد بالأندلس ، انتهى .

٢٢ - ومنهم أبو عبد الله الأنصاري ، وهو محمد بن إبراهيم بن موسى ابن عبد السلام^١ ، ويُعرف بابن شق الليل ، من أهل طُلَيْطُلَة ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفي وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد ابن النحاس وأبا القاسم ابن مَيْسَرَة وأبا الحسن ابن بشر وغيرهم ، وسمع بطليطلة من جماعة ، وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة .

قال ابن بَشْكُوَال : وكان فقيهاً عالماً ، وإماماً متكليماً ، حافظاً للفقهِ ، والحديث ، قائماً بهما متقناً لهما ، إلا أنّ المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر

١ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام الأنصاري : ترجمته في الصلة : ٥١١ وانظر الفصل لابن حزم

بمعانيه وعلمه كان أغلب عليه ، وكان مليح الخط ، جيد الضبط ، من أهل الرواية والدراية والمشاركة في العلوم ، وكان أديباً شاعراً مجيداً لغوياً ديناً فاضلاً ، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث ، حلوا الكلام في تأليفه ، وله عناية بأصول الديانات وإظهار الكرامات ، توفي بطنكيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ ، رحمه الله تعالى .

٢٣ - ومنهم الشيخ الإمام الشهير الكبير الولي العارف بالله تعالى سيدي أبو عبد الله القرشي الهاشمي الأندلسي^١ ، شيخ السالكين ، وإمام العارفين ، وقُدوة المحققين ، قدم مصر بعدما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد ، وكان يقول : صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة : الشيخ أبي الربيع ، والشيخ أبي الحسن ابن طريف ، والشيخ أبي زيد القرطبي ، والشيخ أبي العباس الجوزي ، وسلك على يده جماعة : منهم أبو العباس القسطلاني ، فإنه أخذ عنه كلامه وجمعه في جزء . وخرج سيدي أبو عبد الله القرشي من مصر إلى بيت المقدس فأقام به إلى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذي الحجة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة ، ودُفن هنالك ، وقبره ظاهر يُقصد للزيارة زُرته أول قدّماني على بيت المقدس سنة ١٠٢٨ ، ومن كلامه : من لم يدخل في الأمور بالأدب لم يدرك مطلوبه منها ، وقوله : العاقل يأخذ ما صفا ويدع التكلف ، فإنه تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (يونس : ١٠٧) . وقال : مَنْ لم يراعِ حقوق الإخوان بترك حقوقه حُرِمَ بركة الصحبة ، وقال : سمعت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن طريف يقول : لما حضرت الشيخ أبا الحسن ابن غالب الوفاة قال لأصحابه : اجتمعوا واهلوا سبعين ألف مرة ، واجعلوا ثوابها لي ، فإنه بلغني أنها فداء كل مؤمن من النار ، قال : فعملناها واجتمعنا عليها وجعلنا ثوابها له .

١ محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي : ترجمته في ابن خلكان ٣ : ٤٣٢ والوافي ٢ : ٧٨ .

ثم حكى عن شيخه أبي زيد القرطبي ما حكاه السنوسي عنه في أواخر شرح
صُغْرَاهُ ، وقد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر وغيره كون ما ذكر
حديثاً ، ولعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه ، والله تعالى أعلم .

وقال رحمه الله تعالى : دخلت على الشيخ أبي محمد عبد الله المغاور ، فقال
لي : أعلمك شيئاً تستعين به ، إذا احتجت لشيء فقل : يا واحد يا أحد يا واحد
يا جواد ، انْفَحْنَا مِنْكَ بِنَفْخَةِ خَيْرٍ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، قال : فأنا
أُفَقِّقُ مِنْهَا مِنْذُ سَمِعْتُهَا . وقال رحمه الله تعالى : ما من حال ذُكِرَ فِي رِسَالَةِ
الْقَشِيرِيِّ إِلَّا وَقَدْ شَاهَدْتَهُ نَفْسِي . وتزوج رحمه الله تعالى بنساء حدثن عنه
بكرامات ، ومنهنَّ أُمُّ الْقُطْبِ الْقِسْطَلَانِي ، وحكت أنها خرجت عنه يوماً
لحاجتها ، ثم عادت فسمعت عنده في طبقته حِسَّ رَجُلٍ ، فتوقفت وافتقدت
الباب فوجدته مُغْلَقاً ، فلَمَّا انْقَطَعَ الْكَلَامُ دَخَلْتُ إِلَيْهِ ، فإذا هو وحده كما
تركته ، فسألته عن ذلك ، فقال : هو الْخَضِرُ دَخَلَ عَلَيَّ وَفِي يَدِهِ حَيَّةٌ فَقَالَ :
هَذِهِ جِثَّتُكَ بِهَا مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ ، وَفِيهَا شِفَاءُ مَرَضِكَ ، فقلت : لا أريد ، اذهب
أنت وحيثك لا حاجة لي بها . ودخل عليه بعض نساءه يوماً ، فوجدته بصيراً
نَقِيَّ الْجِسْمِ مِنَ الْجُدَامِ ، فَلَمَّا نَظَرْتُهُ قَالَ لَهَا : أَتُرِيدِينَ أَنْ أَبْقِيَ لَكَ هَكَذَا ؟ فَقَالَتْ
لَهُ : يَا سَيِّدِي كُنْ كَيْفَ شِئْتَ ، إِنَّمَا مَقْصُودِي خِدْمَتُكَ وَبِرْكَتُكَ . وقيل له ،
وقد تكاثرت منه رؤية الأشياء وإخباره بها ، مع كونه ضريراً ، عن ذلك ،
فقال : كُلِّي عَيْنٍ ، بِأَيِّ عَضْوٍ أُرِدْتُ أَنْ أَنْظُرَ بِهِ نَظَرْتُ . وقال : هَمِمْتُ أَنْ
أَدْعُو بِرَفْعِ الْغَلَاءِ ، فَقِيلَ لِي : لَا تَدْعُ فَمَا نَسْمَعُ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ دَعَاءً ،
فَسَافَرْتُ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى بَلَدِ الْخَلِيلِ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، تَلَقَانِي رَسُولُ
[اللَّهِ] الْخَلِيلِ حِينَ وَرُودِي عَلَيْهِ ، فقلت له : يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ ضِيَافَتِي عِنْدَكَ
أَهْلَ مِصْرَ ، فَدَعَا لَهُمْ فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ . ومناقبه رحمه الله تعالى وكراماته لا
يفي بها هذا المختصر ، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا بِذِكْرِهَا الْبَرَكَةَ وَكِفَّارَةَ مَا وَقَعَ فِي هَذَا
الْكِتَابِ مِنَ الْإِحْمَاضِ ، وَاللَّهُ الْمَرْجُو فِي الْعَفْوِ .

ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبي الربيع المالقي أنه قال له : ألا أعلمك كترًا تنفق منه ولا ينفد ؟ قلت : بلى ، قال قل : « يا الله ، يا أحد ، يا واحد ، يا موجود ، يا جَوَاد ، يا باسط ، يا كريم ، يا وهَّاب ، يا ذا الطَّوْلِ ، يا غني ، يا مُغْنِي ، يا فتاح ، يا رزاق ، يا عليم ، يا حيّ ، يا قيّوم ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حنان ، يا منان ، انفخي منك بنفحة خير تُغنيني بها عن سواك ﴿ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ (الأنفال : ١٩) ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (الفتح : ١) ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ (الصف : ١٣) اللهم يا غني يا حميد ، يا مبدئ يا معيد ، يا ودود^١ يا ذا العرش المجيد ، يا فعّالاً لما يريد ، اكفني بحلالك عن حرامك ، وأغنني بفضلك عن سواك ، واحفظني بما حفظت به الذكر وانصرتني بما نصرت به الرسل ، إنك على كل شيء قدير . فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصاً صلاة الجمعة حفظه الله تعالى من كل مَخُوف ، ونصره على أعدائه ، وأغنائه ورزقه من حيث لا يحتسب ، ويسّر عليه معيشته ، وقضى عنه دينه ولو كان عليه أمثال الجبال ديناً ، بكرمه وإحسانه ، انتهى . نقله عنه العلامة ابن داود البكّوي الأندلسي ، ومن خطه نقلت ، رحم الله تعالى الجميع ، ونقله اليافعي كما ذكر رحمه الله تعالى ، إلا أنه لم يقل فيه « يا ودود » ، واتفقا فيما عدا ذلك ، والله سبحانه أعلم .

وقال ابن خلكان في حقّه : محمد بن أحمد^٢ بن إبراهيم القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء ، كانت له كرامات ظاهرة ، ورأيت أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة ، ولقيت جماعة ممن صحبه ، وكل منهم قد نمي عليه^٣ من بركته ، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد

١ يا ودود : مكررة في ق ط .

٢ ابن أحمد : سقطت من دوزي ، وهي ثابتة في ق وابن خلكان .

٣ ط ج ق : قد يفي عليه ، وما أثبتناه في ابن خلكان أيضاً .

من الولايات والمناصب العلية ، وأنها صحت كلها . وكان من السادات الأكابر والطاراز الأول ، وهو مغربي صحب بالمغرب أعلام الزهاد وانتفع بهم ، فلماً وصل إلى مصر انتفع به مَنْ صحبه أو شاهده ، ثم سافر إلى الشام قاصداً زيارة بيت المقدس ، فأقام بها إلى أن مات ، وصُلِّي عليه بالمسجد الأقصى ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وقبره ظاهر للزيارة والتبرك به ^١ .

والجزيرة الخضراء في بلاد الأندلس : مدينة تقابل سبَّعة من بر العدو . ومن جملة وصاياه لأصحابه : سيروا إلى الله تعالى عُرْجاً ومكاسير فإن انتظار الصحة بطلالة ، انتهى ببعض اختصار .

٢٤ — ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي ^٢ ، سمع من قاسم بن أصبغ وغيره ، وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموت والباوردي ^٣ وابن السكّن في آخرين ، وسمع بالرملة وبيت المقدس ، وكان ضابطاً بصيراً بالنحو واللغة فصيحاً بليغاً طويل اللسان ، ولي الشرطة ببلاد المغرب . توفي سنة ٣٧٢ .

٢٥ — ومنهم أبو بكر محمد بن علي بن خلف التَّجِيبِي الإشبيلي ^٤ الحافظ الكاتب ، روى عن ابن الجدد وغيره ، ومر بمصر حاجاً فلقي بمكة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن المكناسي ، ولقي بالإسكندرية السلفي وابن عوف وغيرهما ، وكان مدرّساً للفقه ، فقيهاً جليلاً ، متقدماً فيه عارفاً فاضلاً سَنِيّاً ، توفي بعد امتحان من منصور بني عبد المؤمن سنة ٥٩٦ ، وذلك أنّه وشي به للمنصور

١ به : سقطت من ق ط .

٢ محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي : ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٨٥ وعنه ينقل المقرئ باختصار .

٣ ط ودوزي : والباوردي .

٤ ترجمته في التكملة : ٥٥٧ والذيل والتكملة ٦ : الورقة ١٧٩ (نسخة باريس) وأورد له ترجمة مفصلة .

أَيَّامَ عَزَمَ عَلَى تَرْكِ التَّقْلِيدِ وَالْعَمَلِ بِالْحَدِيثِ^١ .

٢٦ - وَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْدَلُسِيُّ الْجَيَّانِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَاسِرٍ ، الْأَنْصَارِيُّ ، الْجَيَّانِيُّ^٢ ، سَافَرَ مِنْ بِلَدِهِ وَدَخَلَ دِيَارَ مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْعِرَاقَ وَخِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَلَقِيَ أَثْمَنَهَا ، وَتَفَقَّهَ بِبِخَارَى حَتَّى تَمَهَّرَ فِي الْمَذْهَبِ وَالْخِلَافِ وَالْجَدَلِ ، ثُمَّ اشْتَغَلَ بِالْحَدِيثِ وَسَمَاعِهِ وَحَفَظَهُ وَحَصَّلَ مِنْهُ كَثِيرًا ، ثُمَّ سَكَنَ بَلِخَ مَدَّةً ، وَعَادَ إِلَى بَغْدَادَ وَدَخَلَهَا سَنَةَ ٥٥٩ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ فَحَجَّ وَرَجَعَ إِلَى الشَّامِ وَاسْتَوَظَنَ حَلَبَ ، إِلَى أَنْ تَوَفَّى بِهَا ، وَوَقَفَ كِتَابَهُ ، وَكَانَ مُتَدَيِّنًا صِدْقًا حَافِظًا عَالِمًا بِالْحَدِيثِ ، وَفِيهِ فَضْلٌ ، وَلَدَ بِجَيَّانَ سَنَةَ ٤٩٢ ، وَمَاتَ بِحَلَبَ سَنَةَ ٥٦٣ .

٢٧ - وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التَّجِيبِيُّ الدَّهَانُ الْغَرْنَاطِيُّ^٣ ، كَانَ حَسَنَ السَّمْتِ بَارِعَ الْخَطِّ وَالْخُلُقِ وَالْخُلُقِ ، رَحَلَ إِلَى الْحِجْ ، وَجَالَ فِي الْبِلَادِ فِي حُدُودِ سَنَةِ سِتٍّ وَسِتْمِائَةٍ فَأَخَذَ بِمَكَّةَ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عَنْ جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ ، وَكَانَ عَدْلًا^٤ ، فَاضِلًا عَلَى خَيْرِ وَدِينَ ، وَكَانَ مُتَحَرِّفًا بِالتَّجَارَةِ بِغَرْنَاطَةَ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا آخِرَ عَمْرِهِ فَمَاتَ بِقُوصَ بَعْدَمَا حَجَّ سَنَةَ ٦٥٠ ، وَصَلَرُ مِنْ مَكَّةَ سَنَةَ ٦٥٣ فَمَاتَ قَبْلَ مُنْتَصَفِ السَّنَةِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

٢٨ - وَمِنْهُمْ أَبُو عَمْرِو مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الرَّبِيعِ الْقُرَشِيُّ الْعُثْمَانِيُّ

١ - كَانَ الْمَنْصُورُ قَدْ حَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسَّيِّئَةِ ، فَعَلَّ أَهْلَ الظَّاهِرِ ، وَرَفَضَ الْإِسْتِغْنَالَ بِالْفُرُوعِ ، فَتَعَرَّضَ التَّجِيبِيُّ لِلْمُحَنَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَخَلَصَ مِنَ التَّكْبَةِ فَلَزِمَ دَارَهُ ، وَكَانَتْ لَهُ غُرْفَةٌ مُشْرِفَةٌ عَلَى الدَّرْبِ الَّذِي فِيهِ دَارُهُ يَكْثُرُ الْجُلُوسُ فِيهَا ، فَخَطَرَ لِلْمَنْصُورِ أَنْ يَسْتَدْعِيَهُ وَيُؤَنِّسَهُ ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ الشَّرْطِيُّونَ ، فَرَأَوْهُمْ مِنْ غُرْفَتِهِ تِلْكَ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ جَاءُوا لِشَرِّ فَاسْطَطِرَ قَلْبُهُ ذَعْرًا ، وَأَصَابَهُ شَيْءٌ كَالْفَالِجِ أَقْعَدَهُ ، وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّى أَدْرَكَتْهُ مَوْتُهُ .

٢ - مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ يَاسِرٍ الْأَنْصَارِيُّ الْجَيَّانِيُّ : تَرْجَمَتْهُ فِي التَّكْمَلَةِ : ٥٠٠ .

٣ - مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التَّجِيبِيُّ الدَّهَانُ : تَرْجَمَتْهُ فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ ٦ : ١٩٨ (نَسْخَةُ بَارِيْسَ) .

٤ - دَوْزِي : عَادِلًا .

الأندلسي الإشبيلي النحوي ، ولد سنة ٦١٧ بإشبيلية ، وقدم مصر فسمع الكثير بها ، وبدمشق وغيرها ، وكان إماماً عالماً نحويّاً فاضلاً ، كتب عنه أبو محمد الدميّاطي والقطب عبد الكريم ، وناهيك بهما .

٢٩ - ومنهم أبو بكر [و] أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي ابن هُذَيْل البَلَنْسِي^١ ، رحل وسمع من السّلفي ، وحج ، قال أبو الربيع ابن سالم : هو شيخ صدوق متيقّظ ، سمع أباه وأبا الوليد ابن الدباغ وأبا الحسن طارق بن موسى بن يعيش وجماعة ، وأخذ بمكة سنة ٥٣٩ عن أبي علي الحسن المُقَرِّي ، وقفّل إلى الأندلس سنة ٥٤٦ ، فأخذ عنه بها ، وسمع منه جماعة ، قال ابن الأبار : كان غاية في الصّلاح وأعمال البر والورع ، توفي ببغض قرى بلنسية سنة ٥٨٣^٢ ، ومولده سنة سبع أو تسع عشرة وخمسمائة ، وله حظ من علم التعبير واللغة ، رحمه الله تعالى .

٣٠ - ومنهم أبو عبد الله ، ويقال : أبو سلّمة ، محمد بن علي البَيّاسي الغرناطي الأنصاري ناصر الدين ، روى عن الحافظ أبي جعفر^٣ بن الزبير وغيره ، وقدم إلى القاهرة واستوطنها بعد الحج ، حتّى مات بها سنة ٧٠٣ ، وكان عارفاً بعلم الحديث وكتب منه كثيراً ، ومال إلى مذهب الظاهرية ، وانفع به جماعة من طلبة الحديث ، وكان ثقة ، رحمه الله تعالى .

٣١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن علي بن الشامي الأندلسي ، الغرناطي ، قدم مصر حاجّاً ، وأقام بمكة والمدينة ، وكان إماماً فاضلاً عالماً متفتّناً في علوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقرآيات ونظم ونثر ، ومع

١ محمد بن علي بن هذيل : ترجمته في التكملة : ٥٤٥ والذيل والتكملة ٦ : ٢٠٠ (نسخة باريس).

٢ التكملة : سنة ٥٨٨ ، وفي ق ط : ٥٣٨ .

٣ ق ودوزي : أبي حفص .

٤ في نسخة : متفتّناً .

معرفته بمذهب مالك ينقل كثيراً من مذهب الشافعي ، وسمع الموطأ بتونس
من أبي محمد ابن هرون القرطبي ، ومولده بغرناطة سنة ٦٧١ ، وتوفي سنة ٧١٥ .

ومن شعره :

إذا كنتُ جاراً للنبيِّ وصحبه ومكةُ بيْتُ الله مني على قُربِ
فَمَا ضَرَّرَنِي أَنْ فَاتَنِي رَغْدُ عَيْشَةٍ وَحَسَنِي الَّذِي أُوتِيَتْهُ نِعْمَةٌ حَسْبِي

وقوله :

نزِيلُ الكرامِ عَزِيزُ الجوارِ ولأني نَزِيلٌ عليكم وِجارُ
حَلَلْتُ ذَرَاكَ وَأَنْتَ الكَرِيمُ ومن حَلٍّ مَثْوَى كَرِيمٍ يُجَارُ

٣٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعي الميُورقي^١ ، قدم
مصر ، وروى عن ابن الوليد بها ، وكان عالماً ، وله قصيدة طويلة فيها حِكَم
ومواعظ يوصي ابنه بها ، منها قوله :

وطاعةٌ مَنْ إِيْلِهِ الأَمْرُ فَالْزَمْ وإنْ جَارُوا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ
فإنْ كَفَرُوا ككَفَرِ بَنِي عُبَيْدٍ فلا تَسْكُنْ دِيَارَ الكَافِرِينَ

واسم ابنه حسن ، وسمع من المذكور الحافظُ القاضي أبو بكر ابن العربي
في رحلته سنة ٤٨٥ ، ووصفه بالعلم ، وعمّار : بالزاء .

٣٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفَخَّار القوطي
الحافظ^٢ ، روى عن [أبي] عيسى^٣ الليثي وابن عون الله وأبي جعفر التميمي

١ محمد بن عمار الكلاعي : ترجمته في التكملة : ٤٠٣ ؛ وقد سقط أكثر هذه الترجمة في ق ولم
يبق منها إلا ابتداء من قوله « واسم ابنه حسن . . . بالراء » ودخلت في الترجمة السابقة .
٢ انظر ترجمة ابن الفخار في الصلة : ٤٨٣ وعنه ينقل المقرئ .
٣ في الأصول : عن عيسى .

وأبي محمد الباجي ، وقدم مصر ، وحج ، وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ، وأفتى بها ، وافتخر بذلك على أصحابه ، وقال : لقد شُورْتُ بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم دار مالك بن أنس ومكان شوره ، ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم ، وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم ، عارفاً بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء ، ذاكراً للروايات ، يحفظ « المدونة » و « النوادر » لابن أبي زيد ، ويوردها من صدره دون كتاب .

قال ابن حيّان مؤرخ الأندلس : توفي الفقيه المشاور الحافظ المتبحر^١ الرواية الطويل الهجرة في طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بلكنسية في ربيع الأول سنة ٤١٧ عشر خلون من الشهر ، وكان الحفل في جنازته عظيماً ، وعان الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجللت الجمع رافقة فوق النعش لم تفارق نعشه إلى أن وُوريَ ، فتفرقت ، ومكث مدة بلكنسية مطاعاً عظيم القدر عند السلطان والعامّة .

وذكر جُماهيرُ بن عبد الرحمن حديث الطير ، وكذا ذكر الحسن بن محمد القيسي خبر الطير . قال : وكانت سنّة نحو الثمانين سنة ، وكان مجاب الدعوة ، وظهرت في دعوته الإجابة .

وقال أبو عمرو الداني : إن وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وأربعمائة ، ودُفن يوم الأحد بمدينة بلكنسية ، وبلغ نحو ست وسبعين سنة ، وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العالمين بالكتاب والسنة بالأندلس ، رحمه الله تعالى .

٣٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمرو القرطبي^٢ ، سمع علي بن مفرج وغيره من شيوخ قرطبة ، وقدم مصر فأخذ بها عن ابن المهندس وغيره ،

١ ط : المستبحر .

٢ ترجمة ابن عمرو في الصلة : ٤٦٢ .

وحجّ ودخل العراق ، وسمع من أبي بكر الأبهري والدارقطني وجماعة ، وعاد إلى الأندلس ، وشُهر بالعلم والمال ، وولي الأحباس بقرطبة ، حدّث عنه أبو عمر ابن عبد البر وغيره ، ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة ، رحمه الله تعالى .

٣٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح^١ ، المعافري ، المعروف بالأعشى ، القرطبي ، رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عُيينة ووكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحاً عاقلاً سرياً جواداً يذهب إلى مذهب أهل العراق^٢ ، وتوفي سنة ٢٢١ ، ذكره ابن يونس وغيره .

٣٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي^٣ ، الإلبيري ، الزاهد ، قال الحميدي في حقه : هو من أهل الحديث والحفظ والفهم والبحث عن الرجال ، وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب وغيرهما ، وروى بالأندلس عن جماعة منهم بقى ابن مَخلد وابن وضاح ، وسمع بمكة وغيرها من مائة شيخ ، قال ابن الفَرَضِي : كان شيخاً نبيلاً ، ضابطاً لكتبه ، ثقة في روايته ، صدوقاً في حديثه ، وكانت الرحلة إليه بليلة ، وبها مات في شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة ، رحمه الله تعالى .

٣٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيّار ، القرطبي^٤ ، من موالي بني أمية ، سمع من أبيه ومن بقى ابن مَخلد وغيره ، ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي ، ومن أحمد بن حماد زغبة ، وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والإسكندرية والقيروان

١ ترجمة ابن نجح في الجذوة : ٦٩ (وبنية الملتس رقم : ٢١٢) وابن الفرضي ٢ : ٧ .

٢ ابن الفرضي : وكان يذهب في الأشربة مذهب أهل العراق ، إذ كان علمه عراقياً .

٣ ترجمته في الجذوة : ٧٨ (وبنية الملتس رقم : ٢٥٢) وابن الفرضي ٢ : ٤٢ .

٤ ترجمته في الجذوة : ٨٠ (وبنية الملتس رقم : ٢٦٠) وابن الفرضي ٢ : ٤٨ .

من مائة وستين رجلاً ، قال أبو محمد الباجي : لم أدرك بقرطبة أكثر حديثاً منه ، وكان عالماً بالفقه ، متقدماً في علم الوثائق رأساً فيها ، وكان مشاوراً ، سمع من الناس كثيراً ، وكان ثقة صدوقاً ، وغزا سنة ٣٢٧ ، ومات ثالث ذي الحجة منها ، ومولده سنة ٢٦٣ ، وقيل : توفي سنة ٣٢٨^١ ، قاله ابن يونس والحميدي .

٣٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي الفهري ، عُرِفَ بابن رمان ، الغرناطي ، قرأ على أبي جعفر ابن الزبير بها ، وقدم إلى القاهرة سنة ٧٢٢ ، ومات بالمدينة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام سنة ٧٢٩ .

ومن شعره قوله :

فُديتمْ خَبَرُونِي كَيْفَ صَحَّتْ فَرِيضَةُ هَالِكٍ مِنْ غَيْرِ مَيِّنٍ
لَزِيدٍ زَوْجَةً وَلَهَا ابْنُ أُمٍّ فَمَاتَتْ عَنْهُمَا لَا غَيْرَ ذِينَ
فَحَازَ الْبَعْلُ مَا تَرَكْتُهُ إِرْثًا وَوَلَّى غَيْرُهُ صِفْرَ الْيَدَيْنِ
وَلَا رِقٌّ فُديتَ عَلَى أَخِيهَا وَلَيْسَ بِكَافِرٍ يُرْمَى بِشَيْنٍ
وَلَيْسَ مُعْجَلًا إِرْثًا بِقَتْلٍ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَ شَقَاوَتَيْنِ

٣٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن لبّ الشاطبي^٢ ، حدث بالقاهرة ، وتوفي قريباً من سنة ٦٤٠ ، وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن ابن الصباغ ، ومن كلامه : اشتغالك بوقتٍ لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذي أنت فيه ، ولعمري لقد صدق .

٤٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سُراقَة الشاطبي بن محمد بن إبراهيم ابن الحسين بن سُراقَة^٣ ، محيي الدين ، ويكنى أيضاً أبا القاسم وأبا بكر ،

١ ق : ٣١٨ .

٢ ترجمة محمد بن لب الشاطبي في التكملة : ٦٥٢ .

٣ انظر ترجمته في الوافي ١ : ٢٠٨ وشذرات الذهب ٥ : ٣١٠ (وفيات : ٦٦٢) والنجوم

الزاهرة ٧ : ٢١٦ وذيل الروضتين : ٢٣٠ والفوات ٢ : ٣٠٦ .

الأنصاري الشاطبي ، المالكي ، ولد بشاطبة سنة ٥٩٢ ، وسمع من أبي القاسم ابن بقيّ ، ورحل في طلب الحديث ، فسمع ببغداد من الشيخ أبي حفص عمر السهروردي وأبي طالب القُبَيْطِي وأبي حفص الدينوري وجماعة ، وسمع بحلب من ابن شداد وغيره ، وتولى مشيخة دار الحديث البهائية^١ بحلب ، ثم قدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصري سنة ٦٤٢ ، وبقي بها إلى أن توفي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٦٢ ، ودفن بسفح المقطم ، وكان الجمع كبيراً ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل ، وأحد المشايخ الصوفية ، له في ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعاني الشعر ، وكان صالح الفكرة في حلّ التراجم ، مع ما جُبِّل عليه من كرم الأخلاق ، واطّراح التكلف ، ورقة الطبع ، ولين الجانب .

ومن شعره قوله :

نَصَبْتُ ومثلي للمكارم يَنْصَبُ	ورُمْتُ شروق الشمس وهي تُغْرَبُ
وحاولتُ إحياء النفوس بِأَسْرِها	وقد غَرَّغَرَتْ يا بُعد ما أنا أطلبُ
وأَتَعَبُ إن لم تمنح الخلق راحةً	وغيري إن لم تتعب الخلق يتعبُ
مُرَادِي شيءٌ والمقاديرُ غيره	ومنْ عاند الأقدارَ لا شكَّ يُغلبُ

وقوله^٢ :

إلى كم أُمَنِّي النفسَ ما لا تناله	فيذهب عمري والأمانُ لا تُقْضَى
وقد مرَّ لي خمسٌ وعشرون حجةً	ولم أرضَ فيها عيشتي فمتى أَرْضَى
وأَعْلَمُ أنِّي والثلاثون مُدَّتِي	حرَّ بِمَغَانِي اللهو أوسعُها رَفْضاً

١ في ق ط ج ودوزي : البهادية ، والتصويب عن الوافي .

٢ الأبيات ما عدا الأخير منها في الوافي والقوات .

فماذا عَسَى في هذه الخمس أرتجي ووجدني إلى أوبٍ من العشر قد أفضى

وقال رحمه الله تعالى ١ :

وصاحب كالزُّلالِ يَمْحُو صَفَاؤُهُ الشَّكَّ بِالْيَقِينِ
لم يُحْصَ إِلَّا الْجَمِيلَ مِنِّي كَأَنَّهُ كَاتِبُ الْيَمِينِ

وهذا عكس قول المنازي :

وصاحب خَلِئَتْهُ خَلِيلًا وما جَرَى غَدْرُهُ بِنِيَالِي
لم يُحْصَ إِلَّا الْقَبِيحَ مِنِّي كَأَنَّهُ كَاتِبُ الشَّمَالِ

٤١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الفَرِيشي - بكسر الفاء ،
وتشديد الراء المهملة ، بعدها شين معجمة - نسبة إلى فَرِيشَ - إحدى مدائن
قُرْطُبَة ٢ . ولد بغير ناطقة سنة ٥٥٧ ، وقرأ بالروايات على أبي القاسم ابن غالب ،
وسمع عليه وعلى أبي القاسم ابن بَشْكُوَال وغيره ، وسمع بمكة ، وحدث
بمصر ، وعاد إلى الأندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣ ، وكان مشهوراً بالصلاح ،
معروفاً بإجابة الدعاء ، ورعاً ثقة زاهداً فاضلاً ، رحمه الله تعالى .

٤٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن خَيْرُون ٣ ، وقيل : محمد بن
عمر بن خيرون ، أندلسي ، سكن القيروان ، ورحل إلى المشرق ، وأخذ
القراءات بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطي وغيره كعبيد بن رجاء وأبي الحسن

١ البيتان وبيتا المنازي في الوافي والشذرات والنجوم الزاهرة .

٢ تقع فريش إلى الشمال من قرطبة ، وقال الحميري في تحديدها : بين الجوف والغرب من قرطبة .

٣ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١١٢ وجذوة المقتبس : ٥٠ (وبغية الملتبس رقم : ١٠٨) وكنيته
فيها أبو جعفر ؛ وفي غاية النهاية ٢ : ٢١٧ واسمه محمد بن عمر وكنيته أبو عبد الله . ومن
مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألفات واللام ، وذكر ابن الجزري أن وفاته كانت
سنة ست وثلاثمائة ، وعند دوزي وق طج : ٣٥٦ ولعله سهو .

إسماعيل بن يعقوب الأزرق المدني ، ودخل العراق ، وسمع به من أصحاب علي ابن المديني ويحيى بن معين ، وعاد إلى القيروان ، وسمع بها وبقرطبة ، وقدم بقراءة نافع على أهل إفريقية ، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلا الخواص ، حتى قدم بها فاجتمع إليه الناس ، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق ، وكان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش ، وتوفي بشعبان سنة ٣٠٦ ، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً كريم الأخلاق إماماً في القراءات ، مشهوراً بذلك ، ثقة ، مأموناً ، واحد أهل زمانه وأئمتهم في علم القرآن ، رحمه الله تعالى .

٤٣ - ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بُندار ، القيسي ، الأندلسي ، الملقب^١ ، ولد بمالقة سنة ٦٢٥ وسمع الكثير ، وقدم القاهرة حاجاً فسمع بها وبدمشق وكتب بخطه كثيراً ، وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد ، ديناً خيراً فاضلاً ، له مشاركة جيدة في عدة علوم ، توفي شاباً بالقاهرة سنة ٦٦٢ ، رحمه الله تعالى .

٤٤ - ومنهم أبو بكر محمد الزُّهري ، المعروف بابن محرز ، البَلَنَسِي^٢ ، ولد بها سنة ٥٢٩ ، وقدم مصر فسمع ابن الفضل^٣ وغيره ، وروى عنه جماعة ، وكان أحد رجال الكمال علماً وإدراكاً وفصاحة وحفظاً للفقهِ وتفناً في العلوم ومتانة في الأدب ، حافظاً للغة والغريب ، وله شعر رائق ، ودين متين ، وأخذ الناس عنه ببلده وبمُرسِيّة وإشبيلية ومالقة وغرناطة في اجتيازه عليها ، وبغيرها من البلاد ، وعلا صيته ، وعُرف بالدين والعلم والفضل ، وكان أبو الخطاب

١ ترجمته في الوافي ١ : ٢٠٠ .

٢ هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان أبو بكر الزهري البلسني : انظر ترجمته

في الوافي ١ : ١٩٨ والتكملة : ٦٦٤ .

٣ ط ج : ابن المفضل .

يُثْنِي عَلَى عِلْمِهِ وَدِينِهِ ، تُوَفِّي بِبَجَايَةِ سَنَةِ ٦٥٥ عَنْ سِنٍ عَالِيَةٍ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

٤٥ - وَمِمَّنْ ارْتَحَلَ^١ مِنَ الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْمَشْرِقِ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي صَاحِبُ التَّصَانِيفِ الْمَشْهُورَةِ^٢ . وَقَالَ ابْنُ مَكُولَا فِي حَقِّهِ : إِنَّهُ فَقِيهٌ مُتَكَلِّمٌ أَدِيبٌ شَاعِرٌ ، سَمِعَ بِالْعِرَاقِ ، وَدَرَسَ الْكَلَامَ وَصَنَّفَ إِلَى أَنْ مَاتَ ، وَكَانَ جَلِيلًا رَفِيعَ الْقَدْرِ وَالْخَطَرِ .

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ وَلِدَ سَنَةَ ٤٠٣ ، وَارْتَحَلَ سَنَةَ ٤٢٦ ، وَجَاوَرَ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ مَلَاذِمًا لِأَبِي ذَرِّ الْحَافِظِ يَخْدُمُهُ ، وَرَحَلَ إِلَى بَغْدَادٍ وَدِمَشْقَ ، وَلَقِيَ فِي رَحْلَتِهِ غَيْرَ وَاحِدٍ ، وَتَفَقَّهَ بِالْقَاضِي أَبِي الطَّيِّبِ الطَّبْرِيِّ وَغَيْرِهِ .

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ سَكْرَةَ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَ أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِي ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا عَلَى هَيْئَتِهِ وَسَمَتِهِ وَتَوْقِيرِ مَجْلِسِهِ ، وَلَمَّا كُنْتُ بِبَغْدَادٍ قَدِمَ وَلَدُهُ أَبُو الْقَاسِمِ ، فَسَرَتْ مَعَهُ إِلَى شَيْخِنَا قَاضِي الْقَضَاةِ الشَّاشِيِّ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عَزْلَكَ ، هَذَا ابْنُ شَيْخِ الْأَنْدَلُسِ ، فَقَالَ : لَعَلَّهُ ابْنُ الْبَاجِيِّ ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ : وَكَثُرَتِ الْقَالَةُ فِي الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ لِمُدَاخَلَتِهِ الرُّؤْسَاءِ ، وَوَلِيَ قَضَاءَ أَمَاكُنٍ تَصْغُرُ عَنْ قَدْرِهِ ، وَكَانَ يَبِيعُ إِلَى تِلْكَ النُّوَاحِي خُلَفَاءَهُ ، وَرَبَّمَا أَتَاهَا الْمَرَّةُ وَنَحْوَهَا ، وَكَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مُقْبِلًا حَتَّى احْتِاجَ إِلَى الْقَصْدِ بِشَعْرِهِ ، وَاسْتَأْجَرَ نَفْسَهُ مَدَّةَ مَقَامِهِ بِبَغْدَادٍ ، فِيمَا سَمِعْتَهُ مُسْتَفِيزًا ، لِحِرَاسَةِ دَرْبٍ . وَقَدْ جَمَعَ ابْنَهُ شَعْرَهُ .

قَالَ : وَلَمَّا قَدِمَ الْأَنْدَلُسَ وَجَدَ لِكَلَامِ ابْنِ حَزْمٍ طَلَاوَةَ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ خَارِجًا عَنِ الْمَذْهَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْأَنْدَلُسِ مَنْ يَشْتَغِلُ بِعِلْمِهِ ، فَقَصُرَتْ أَلْسُنَةُ الْفُقَهَاءِ عَنْ

١ ق ج : وَمِنَ الرَّاحِلِينَ ، ط : وَمِنَ رَحَلَ ، وَأَثْبَتْنَا مَا فِي دَوْزِي .

٢ انْظُرْ تَرْجُمَةَ أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ سَلِيمَانَ بْنِ خُلْفٍ فِي الذَّخِيرَةِ (الْقِسْمُ الثَّانِي : ٣٨) وَالْقَلَانِدُ : ١٨٨

وَالصَّلَةُ : ١٩٧ وَبَغْيَةُ الْمُتَمَسِّسِ رَقْمُ : ٧٧٧ وَالْمَغْرِبُ ١ : ٤٠٤ وَوَفَايَاتُ الْأَعْيَانِ ٢ : ١٤٢

وَمُعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١١ : ٢٤٦ وَالدِّيْبَاجُ الْمَذْهَبُ : ١٢٠ وَتَذَكُّرَةُ الْحَفَاطِ : ١١٧٨ وَتَهْذِيبُ ابْنِ

عَسَاكِرِ ٦ : ٢٤٨ وَشَذَرَاتُ الْمَذْهَبِ ٣ : ٣٣٤ وَالْمَرْقَبَةُ الْعَلِيَا : ٩٥ .

مُجادلته ، وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل ، وحل بجزيرة
مَيُورَقَة ، فرأس فيها واتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد كلموه في ذلك ،
فدخل إليه ، وناظره وشهر باطله ، وله معه مجالس كثيرة .

ولما تكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري قال
بظاهر لفظه ، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره بإجازة الكتّاب على
الرسول الأُمي ، صلّى الله عليه وسلّم ، وأنه تكذيب للقرآن ، فتكلّم في ذلك
مَنْ لم يفهم الكلام ، حتى أثاروا عليه الفتنة وقبحوا عليه عند العامة ما أتى به ،
وتكلّم به خطباؤهم في الجمع ، وقال شاعرهم :

برئتُ ممّن شرى دُنْيَاً بآخرةٍ وقال : إن رسولَ الله قد كتبَا

فصنف أبو الوليد رحمه الله تعالى رسالة بيّن فيها أن ذلك غير قادح في
المعزة ، فرجع بها جماعة ؛ إذ ليس مَنْ عَرَفَ أن يكتب اسمه فقط بخارج
عن كونه أُمِيّاً لأنه لا يُسمّى كاتباً ، وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة
العلامة وهم أُمَيُّون ، والحكم للغالب لا للصور النادرة ، وقد قال عليه الصلاة
والسلام « إِنَّا أُمَّة أُمَيُّون » أي : أكثرهم كذلك ، لنور الكتابة في الصحابة ،
وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (الحجّة : ٢)
انتهى ، وبعضه بالمعنى .

وذكر ابنُ بَسَّام أن أبا الوليد الباجي نشأ وهمته في العلم ، وأنه بدأ بالأدب ،
فبرز في ميادينه ، وجعل الشعر بضاعته ، فنال به من كل الرغائب ، ثم رحل
فما حلّ بلدًا إلّا وجده ملآن بذكره ، نشوآن من قهوّيّ نظمته ونثره ، فمال
إلى علم الديانة ، فمشى بمقياس ، وبنى على أساس ، حتى صار كثير من العلماء
يسمعون منه ، ويرتاحون للأخذ عنه ، ثم كرّ واستقضي في طريقه بحلب ،
فأقام بها نحواً من عام .

قال : وبلغني عن ابن حزم أنه كان يقول : لو لم يكن لأصحاب المذهب

المالكي بعد عبد الوهاب إلاّ مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم .

وصنف أبو الوليد كتباً كثيرة منها كتاب «التسديد إلى معرفة التوحيد» وكتاب «سنن المنهاج وترتيب الحجاج» وكتاب «إحكام الفصول في أحكام الأصول» وكتاب «التعديل والتجريح لمن خرّج عنه البخاري في الصحيح» وكتاب «شرح الموطأ» وهو نسختان : نسخة سمّاها «الاستيفاء» ، ثم انتقى منها فوائد سمّاها «المنتقى» في سبع مجلدات ، وهو أحسن كتاب ألف في مذهب مالك ، لأنّه شرح فيه أحاديث الموطأ ، وفرّع عليها تفريعاً حسناً ، وأفرد منه شيئاً سمّاه «الإيماء» ، وقال بعضهم : إنّه صنف كتاب «المعاني في شرح الموطأ» فجاء عشرين مجلداً عديم النظير ، وكان أيضاً صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سمّاه «الاستيفاء» ، وله كتاب «الإيماء» في الفقه ، خمس مجلدات ، انتهى .

ومن تصانيفه «مختصر المختصر» في مسائل المدونة ، وله كتاب «اختلاف الموطأ» وكتاب «الإشارة في أصول الفقه» وكتاب «الحدود» وكتاب «سنن الصالحين» وكتاب «التفسير» لم يتمّه ، وكتاب «شرح المنهاج» وكتاب «التبيين لسبيل المهتدين» في اختصار فرق الفقهاء ، وكتاب «السراج» في الخلاف ، ولم يتم ، وغير ذلك .

وحجّ الباجي رحمه الله تعالى أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازماً لأبي ذر عبد بن أحمد الهروي ، وكان يسافر معه للسراوات^١ لأن أبا ذر تزوّج من العرب ، وسكن بها .

* * *

١ السراوات ثلاث : واحدة بين تهامة ونجد وواحدة في بلاد عدوان وثالثة أرض عالية وجبال تشرف على البحر من الغرب وعلى نجد من الشرق .

[ترجمة أبي ذر الهروي]^١

وأبو ذر المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفيرة الأنصاري المالكي ، ويعرف بابن السمّاك ، سمع بهراً وسرخساً وبلخ ومرو والبصرة وبغداد ودمشق ومصر ، وجاور بمكة ، وألف معجماً لشيوخه ، وعمل الصحيح ، وصنف التصانيف ، قال الخطيب : قدم أبو ذرّ بغداد وأنا غائب ، فحدث بها ، ثم حجّ وجاور ، ثم تزوّج في العرب ، وسكن السّروّات ، وكان يبيع كل عام ويحدث ويرجع ، وكان ثقة ضابطاً ديناً ، وقال الحسن بن بقيّ المالقي : حدثني شيخي قال : قيل لأبي ذر : من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأي الأشعري مع أنك هروي ؟ فقال : قدمت بغداد ، وكنت ماشياً مع الدارقطني ، فلقينا أبا بكر ابن الطيب ، فالتزمه الدارقطني ، وقبّل وجهه وعينه ، فلمّا افترقنا قلت : من هذا ؟ قال : هذا إمام المسلمين ، والذّاب عن الدين ، القاضي أبو بكر ابن الطيب ، فمن ذلك الوقت تكررت إليه وتمذهبت بمذهبه ، انتهى .

قلت : هذا صريح في أن القاضي أبا بكر الباقلاني مالكي ، وهو الذي جزم به غير واحد ، ولذا ذكره عياض في المدارك في جملة المالكية ، وكذلك شيخُ السّنة الإمام أبو الحسن الأشعري مالكي المذهب فيما ذكره غير واحد من الأئمة ، وذكر بعض الشافعية أنّهما شافعيان ، والله تعالى أعلم .

وقال عبد الغافر في « تاريخ نيسابور » : كان أبو ذرّ زاهداً ، ورعاً ، عالماً ، سخيّاً لا يدّخر شيئاً ، وصار كبير مشيخة الحرم ، مشاراً إليه في التصوف ، خرّج على الصحيح تخريجاً حسناً ، وكان حافظاً ، كثير الشيوخ ، توفي سنة ٤٣٥ ، وقال أبو علي ابن سكرة : توفي عقب شوال سنة ٤٣٤ ، وقال الخطيب : في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين ، رحمه الله تعالى ، وأكثر

١ ترجمة أبي ذر الهروي في تبیین کذب المفتری : ٢٥٥ وتذکرة الحفاظ : ١١٠٣ .

نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب إمّا من رواية الباجي عن أبي ذر عبد بن أحمد الهروي المذكور ، وإمّا من رواية أبي علي الصّدّقي الشهير المعروف بابن سكرة بسنده .

وأعلم أن هَرّاة المنسوب إليها الحافظ أبو ذر ليست بهَرّاة التي وراء النهر نظيرة بَلَخ ، وإنّما هي هَرّاة بني شيمانة بالحجاز^١ ، وبها كان سكنى أبي ذر ، والله أعلم .

رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى

ثم إنّه - أعني الباجي - قدم بغداد ، وأقام بها ثلاثة أعوام يُدرّس الفقه ، ويقرأ الحديث ، فلقي بها عدّة من العلماء كأبي الطيب الطبري والإمام الشهير أبي إسحاق الشيرازي والصيّمري وابن عُمُروس المالكي ، وأقام بالموصل سنة مع أبي جعفر السّمّاني يأخذ عنه علم الكلام ؛ فبرع في الحديث وعِلّله ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه ، وتدبج مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر ، رضي الله تعالى عنهما ونفع بهما . ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جَمٍّ حَصَلَهُ مع الفقر والتّعفُّف .

وممّا يفتخر به أنّه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر ابن عبد البر والخطيب أبو بكر ابن ثابت البغدادي ، وناهيك بهما ، وهما أسنّ منه وأكبر ، وأبو عبد الله الحميدي ، وعلي بن عبد الله الصقلي ، وأحمد بن علي بن غَزَلُون ، وأبو بكر الطرطوشي ، وأبو علي ابن الحسين السبتي ، وأبو بحر سفيان بن العاصي ،

١ لم يذكر أحد أن في الحجاز موضعاً اسمه « هرة » أو قوماً اسمهم بنو شيمانة وإنما أورد ياقوت في مادة « شباة » : سراة بني شباة من نواحي مكة ينسب إليها أبو جميع عيسى ابن الحافظ أبي ذر عبد الله بن أحمد الهروي الشبائي ، حدث بهذا الموضع عن أبيه أبي ذر ، روى عنه أبو الفتيان عمر بن أبي الحسن الرّؤاسي ، وكان يحدث سنة نيف وستين وأربعمائة .

وممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد . وكان لما رجع إلى الأندلس فشا علمه ،
وتهيات الدنيا له ، وعظم جاهه ، وأُجْزِلَتْ له الصَّلَات ، فمات عن مال وافر ،
وترسل للملوك ، وولي القضاء بعدة مواضع ، رحمه الله تعالى .

وأما ما تقدّم عن القاضي أبي الوليد الباجي من إجراء حديث الكتابة على
ظاهره فهو قول بعض ، والصوابُ خلافه ، قال القاضي أبو الفضل عياض :
حدثنا محمد بن علي المعروف بابن الصيقل الشاطبي من لفظه ، قال : حدثني
أبو الحسن ابن مَفُوز قال : كان أبو محمد ابن أحمد بن الحاج الهواري من أهل
جزيرة شقر ممن لازم الباجي وتفقه عنده ، وكان يميل إلى مذهب الباجي في
جواز مباشرة النبي صلى الله عليه وسلم الكتابة بيده في حديث المقاضاة في
الحديثة على ما جاء في ظاهر بعض رواياته ، ويعجب به ، وكنت أنكر ذلك
عليه ، فلما كان بعد برّهة أتاني زائراً على عادته ، وأعلمني أن رجلاً من
إخوانه كان يترى في النوم أنه بالمدينة ، وأنه يدخل المسجد ، فيرى قبر النبي
صلى الله عليه وسلم أمامه ، فيجد له قُشْعَرِيْرَةً وهيبة عظيمة ، ثم يراه
ينشقُّ ويمد ولا يستقر ، فيعتربه منه فَرَعٌ عظيم ، وسألني عن عبارة رؤياه ،
فقلت : أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم
بغير صفته ، أو ينحله ما ليس له بأصل ، أو لعله يفترى عليه ، فسألني : من أين
قلت هذا ؟ قلت له : من قول الله تعالى ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾
— إلى قوله تعالى : وَلَدَأْ ﴿ (مریم : ٩٠) فقال لي : لله درك يا سيدي ، وأقبل
يقبل رأسي وبين عيني ، ويبكي مرّة ويضحك أخرى ، ثم قال لي : أنا صاحب
الرؤيا ، واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك ، قال : إنه لما رأيتني في ذلك
الفرع العظيم كنت أقول : والله ما هذا إلاّ أنتي أقول وأعتقد أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كتب ، فكنت أبكي وأقول : أنا تائب يا رسول الله ،
وأكرر ذلك مراراً ، فأرى القبر قد عاد إلى هيأته أولاً وسكن ، فاستيقظت ،
ثم قال لي : وأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتب قطّ حرفاً ،

وعليه ألقى الله تعالى ، فقلت : الحمد لله الذي أراك البرهان ، فاشكرك له كثيراً ، انتهى .

قال ابن الأبار : حدثني بهذه الحكاية أبو الربيع ابن سالم بقراءتي عليه ، عن الكاتب أبي بكر عبد الرحمن بن مغاور قراءة عليه ، عن القاضي أبي حفص^١ أحمد بن عبد الرحمن بن جحدر عن أبي الحسن طاهر بن مفضوز قال : كان أبو محمد - إلى آخرها ، وهي أتم من هذه ، انتهى .

رجع إلى الباجي

ذكر أبو العرب عبد الوهاب البقساني بسنده إلى القاضي أبي الوليد الباجي أنه كان يقول ، وقد ذكرت له صحيفة السلطان : لولا السلطان لنقلتني الذر من الظل إلى الشمس ، أو ما هذا معناه ، انتهى .

ومن فوائد الباجي أنه حكى أن الطلبة كانوا يتتابون مجلس أبي علي البغدادي ، واتفق أن كان يوماً مطراً ووحل ، فلم يحضر من الطلبة سوى واحد ، فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال وإتيانه في تلك الحال أنشده^٢ :

دَبَبَتْ للمجد والسَّاعُونَ قد بَلَغُوا حَدَّ النَفُوسِ وَأَلْقَوْا دُونَهُ الْأَزْوَ
وَكَابَدُوا المجدَ حَتَّى مَلَ أَكْثَرُهُمْ وَعَانَقَ المجدَ مَنْ وَافَى وَمَنْ صَبَرَ
لَا تَحْسَبِ المجدَ تَمَرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ المجدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ
انتهى .

وروى عن القاضي أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى الخطيب البغدادي قوله رحمه الله تعالى^٣ :

١ ط ج : أبي جعفر .

٢ انظر القصة والأبيات في الصلة : ٦٢٠ - ٦٢١ ؛ والأبيات في أمالي القاضي ١ : ١١٢ .

٣ البيتان وردا في أكثر المصادر التي ترجمت للباجي .

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنْ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةٌ
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا وَأَجْعَلَهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةٍ

وقد ذكرناهما فيما يأتي قريباً من كلام الفتح ، لكوننا نقلنا كلامه بلفظه ،
رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

وقال في القلائد في حق الباغي رحمه الله تعالى ، ما صورته : بدرُ العلوم
اللائح ، وقَطَرُها الغادي الرائح ، وثبِيرها الذي لَا يُزْجَم ، ومُسِيرها الذي
ينجلي به ليلها الأسحَم ، كان إمام الأندلس الذي تُقْتَبَس أنواره ، وتُتَجَع
نَجْوَدُهُ وأَغْوَارُهُ ، رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهراً ، وقَطَفَ من
العلم أزهراً ، وتفنن في اقتنائه ، وثنى إليه عِنانَ اعتنائه ، حتى غدا مملوء
الوِطَاب ، وعاد بِلَحْ طلبه إلى الإِرطَاب ، فَكَّرَ إلى الأندلس بجرأ لا تخَاض
لُجَجُهُ ، وفجراً لا يَطْمَس منهجه ، فتهداته الدول ، وتلقته الخيل والحوال ،
وانتقل من مَحْجَرٍ إلى ناظر ، وتبدل من يانع بناضر ، ثم استدعاه المقتدر بالله
فصار إليه مرتاحاً ، وبدا بأفقه مُلْتاحاً ، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه ،
وبدا وخدُهُ في سُبُل العلم وإيضاعه ، وكان المقتدر يباهي بانحياشه إلى سلطانه ،
وإيثاره لخصرتَه باستيطانه ، ويحتفل فيما يرتبه له ويُجْزِيه ، وينزله في مكانه
مَتَى كان يُوافيه ، وكان له نَظْمٌ يوقفه على ذاته ، ولا يصرفه في رَفَثِ القول
وبَدَايَةِ .

فمن ذلك قوله في معنى الزهد :

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنْ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةٌ
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا وَأَجْعَلَهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةٍ

وله يرثي ابنه وماتا مغربين ، وغربا كوكبين ، وكانا ناظري الدهر ،

وساحري النّظم والنثر ١ :

رعى الله قبرين استكانا ببلدة
لثين غيبا عن ناظري وتبوءا
يقر بعيني أن أزور ثراهما
وأبكي وأبكي ساكنيها لعلتي
فما ساعدت ورق الحمام أبا أسى
ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى
أحين وبني اليأس نفسي عن الأسى

وله يرثي ابنه محمداً :

أحمداً ، إن كنتُ بعدك صابراً
ورزئتُ قبلك بالنبى محمد
فلقد علمتُ بأننى بك لاحق
لله ذكر لا يزال بخاطري
فإذا نظرتُ فشخصه متخيّل
وبكل أرض لي من أجلك لوعة
فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسمه
حكم الردى ومناهج قد سنّها

انتهى .

ولعمري إنه لم يوف القاضي أبا الوليد الباجي حقه الواجب المفترض ،
ووددت أنه مدّ النفس في ترجمته بعبارة التي يعترف ببراعتها من سلم

١ انظر أيضاً المغرب ١ : ٤٠٤ .

له ومن اعترض ، فإن ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالاً ، وأفصح رويةً وارتجالاً ، وبالحملة فهو أحد أعلام الأندلس ، وهو سليمان بن خلف ابن سعد بن أيوب بن وارث التَّجِيبِي ، وذكره ابنُ بَسَّام في الذخيرة وابن خلكان وغير واحد ، وأصله من بَطْلَيْوس ، وانتقل جدّه إلى باجةَ قرب إشبيلية ، وليس هو من باجة القيروان ، ومولده سنة ٤٠٣ ، ورحل سنة ٤٢٦ ، فقدم مصر ، وسمع بها ، وأجرّ نفسه ببغداد لحراسة الدروب ، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب ، ويعقد الوثائق ، إلى أن فشا علمه ، وتهيأت له الدنيا ، وشهرته تغني عن وصفه .

ومن نظمه قوله :

ما طال عهدي بالديار ، وإنما أنسى معاهدَها أمي وتبلدُ
لو كنتُ أنبأتُ الديارَ صبابتي رَقَّ الصفا بفنائها والحمدُ

وله في المعتضد بن عباد والد المعتضد :

عبادُ استعبدَ البرايا بأنعم تبلى النعم
مدحجه ضمن كل قلب حتى تغنت به الحمائم

ومن أشهر نظمه قوله :

إذا كنت أعلم - البيتين ، وقد سبقا

وممن ذكره أيضاً الحِجاري في المسهب ، وابن بَشْكُوَال في الصلة ، وأنه حج أربع حجج ، رحمه الله تعالى ، وتوفي في المربة لإحدى عشرة بقية من رجب ، وقيل : ليلة الخميس تاسع رجب ، وقيل^١ : تاسع عشر صفر ،

١ تاسع رجب ، وقيل : سقطت من دوزي .

سنة أربع وسبعين وأربعمائة .

ومن تواليفه « المنتقى في شرح الموطأ » ذهب فيه مذهب الاجتهاد وإيراد الحجج ، وهو مما يدل على تبحره في الفنون ، ولما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً مفترقة ، فمشى بينهم في الصلح ، وهم يُجِلُّونه في الظاهر ، ويستثقلونه في الباطن ، ويستبدون نزعته ، ولم يفد شيئاً ، فالله تعالى يجازيه عن نيته ، ولما ناظر ابن حزم قال له الباجي : أنا أعظم منك همّة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت مُعان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائث السوق^١ ، فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجُ به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة ؛ فأفحمه .

قال عياض : قال لي أصحابه : كان يخرج إلينا للإقراء ، وفي يده أثر المطرقة ، إلى أن فشا علمه ، ونوهت الدنيا به ، وعظم جاهه ، وأُجزِلَتْ صلاته ، حتى مات عن مال وافر ، وكان يستعمله الأعيان في ترسلهم ، ويقبل جوائزهم ، وولي القضاء بمواضع من الأندلس .

* * *

[ترجمة ابن حزم]^٢

وابن حزم المذكور هو أبو محمد ابن حزم الظاهري ، قال ابن حبان وغيره : كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل ، وله كتب كثيرة في المنطق

١ يريد أنه يسهر على قنديل الدراب وهو الحارس الليلي وسماه «بائث السوق» لأنه يبيت فيه للحراسة .
٢ ترجمة ابن حزم في الجفوة : ٢٩٠ (والبقية رقم : ١٢٠٤) والصلة : ٣٩٥ وطبقات الأمم : ٨٦ والذخيرة ١/١ : ١٤٠ والمطبع : ٥٥ والمغرب ١ : ٣٥٤ والمعجب : ٣٠ وتاريخ الحكماء للقفطي : ١٥٦ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٢٤١ ومسالك الأبصار (الجزء الثامن) وغلط شعره بشعر ابن عمه أبي المغيرة ، وفي طوق الحماة معلومات عنه وكذلك في سائر كتبه ورسائله .

والفلسفة لم يخلُ فيها من غلط ، وكان شافعيّ المذهب ، يُناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريّاً ، فوضع الكتب في هذا المذهب ، وثبت عليه إلى أن مات ، وكان له تعلق بالأدب ، وشنّع عليه الفقهاء ، وطعنوا فيه ، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه ، وتوفي بالبادية^١ عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وقال صاعد في تاريخه : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار ، أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليقه نحو أربعمائة مجلد ، نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبي .

قال الذهبي : وهو العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ، الأموي ، مولاهم ، الفارسي الأصل ، الأندلسي القرطبي الظاهري ، صاحبُ المصنفات ، وأول سماعه سنة ٣٩٩ ، وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدةُ الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

قال الغزالي رحمه الله تعالى : وجدتُ في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه ، انتهى باختصار . وعلى الجملة فهو تسبيحٌ وحده ، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد ، والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد ، سامحه الله تعالى .

وذكر الذهبي أن عمره اثنتان وسبعون سنة ، وهو لا ينافي قول غيره « إنه كان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر » لأنه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام

١ يعني بقرية التي منها منته وهي ببادية لبلة ، واسمها منت لثم . وفي ق ط ج : من بلده بلد لبلة .

الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان ، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، بطالع العقرب ، وتوفي ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ ، وكان كثيرَ المواظبة على التأليف ، ومن جملة تأليفه كتاب « الفصل بين أهل الأهواء والنحل » وكتاب « الصادع والرادع على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد » وكتاب « شرح حديث الموطأ والكلام على مسأله » وكتاب « الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاختصار على أصحها » وكتاب « التلخيص والتخليص^١ في المسائل النظرية وفروعها التي لا نصَّ عليها في الكتاب والحديث » وكتاب « منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف » وكتاب « الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها » وكتاب « أخلاق النفس » وكتاب « الإيصال إلى فهم كتاب الحصال » وكتاب « كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس » انتهى .

وقال ابن سعيد في حق ابن حزم ، ما ملخصه : الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي ، شهرته تُغني عن وصفه ، وتوفي منفيًا بقرية من بلد لبلة^٢ ، ووصله من ابن عمه أبي المغيرة رسالة فيها ما أوجب أنْ جاوبه بهذه الرسالة ، وهي : سمعت وأطعت ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٩٩) وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام : « صَلِّ مَنْ قَطَعَكَ ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ورضيت بقول الحكماء : كفاك انتصاراً ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه ، وأقول :

تَبَعَ سِوَايَ امْرَأً يَبْتَغِي سِيَابَكَ إِنَّ هَؤُلَاءِ السَّبَابُ
فَإِنِّي أَبَيْتُ طِلَابَ السَّفَاهِ وَصَنْتُ مَحَلِّي عَمَّا يُعَابُ

١ والتخليص : سقطت من ق .

وَقُلْ مَا بَدَأَ لَكَ مِنْ بَعْدِ ذَا وَأَكْثَرُ فَإِنْ سَكُوتِي خِطَابُ
وَأَقُولُ :

كفاني بذكرِ الناسِ لي ومآثري وما لكَ فيهم يا ابنَ عمِّي ذاكِرُ
عدوِّي وأشياعي كثيرٌ كذاك من غدا وهو نَقَاعُ المساعي وضائرُ
وإني وإن آذيتني وعَقَقْتَنِي لمحتملٌ ما جاءني منك صابرُ
فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعتيه : قرأتُ هذه الرقعة العاقبة ، فحين
استوعبتها أنشدتني :

نَحْنَحَ زَيْدٌ وَسَعَلَ لَمَّا رَأَى وَقَعَ الْأَسَلُ

فأردت قطعها ، وترك المراجعة عنها ، فقالت لي نفسي : قد عرفت مكانها ،
بالله لا قَطَعْتَهَا إِلَّا يَدَهُ ، فأثبتُ على ظهرها ما يكونُ سبباً إلى صونها ، فقلت :

نَعَقْتُ وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ الْجَوَابُ وَأَخْطَأْتَ حَتَّى أَتَاكَ الصَّوَابُ
وَأَجْرَيْتَ وَحَدَاكَ فِي حَلْبَةٍ نَأَتْ عَنْكَ فِيهَا الْجِيَادُ الْعِرَابُ
وَبَتْ مِنَ الْجَهْلِ مُسْتَنْبَحاً لَغِيرِ قِرْرَى فَأَتَتْكَ الذَّنَابُ
فكَيْفَ تَبَيَّنْتَ عَقْبِي الظَّلُومُ إِذَا مَا انْقَضَتْ بِالْحَمِيسِ الْعُقَابُ
لعمرك ما لي طباعٌ تُذَمُّ وَلَا شِيمَةٌ يَوْمَ مَجْدٍ تُعَابُ
أُنِيلُ الْمَنَى وَالظُّبَا سُخْطُ وَأُعْطِي الرِّضَى وَالْعَوَالِي غَضَابُ

وَأَقُولُ :

وِغَاصِبِ حَقٍّ أَوْبَقَّتَهُ الْمَقَادِرُ يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرَّمْعُ شَاجِرُ
غدا يستعيرُ الفخرَ من خِيَمِ خَصْمِهِ وَيَجْهَلُ أَنَّ الْحَقَّ أَبْلَجُ ظَاهِرُ

١ هذا البيت متقدم على الذي قبله في ق .

٢ قوله « يذكّرني حاميم » مأخوذ من أبيات للأشتر النخعي قالها عندما قتل محمد بن طلحة وفيها :
يذكّرني حاميم والرمع شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

ألم تتعلَّمْ يا أخا الظُّلَمِ أَتَنِي
تُذِلُّ لِي الْأَمْلَاكُ حُرّاً نَفْسُهَا
وَأَبْعَثُ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ شَوَارِدَا
فَإِنْ أَتَوِ فِي أَرْضِ فَإِنِّي سَائِرٌ
وَحَسْبُكَ أَنْ الْأَرْضَ عِنْدَكَ خَاتِمٌ
وَلَا لَوْمَ عِنْدِي فِي اسْتِراحتِكَ الَّتِي
فَإِنِّي لِلْحِلْفِ الَّذِي مَرَّ حَافِظٌ
هَتَيْتَا لِكُلِّ مَا لَدَيْهِ فَإِنَّا

برغمك ناهٍ منذ عشرٍ وأمر
وأركبُ ظَهَرَ النسرِ والنسرُ طائر
تُليَنُهُمْ وهي الصعابُ النوافر
وإنَّ أَنَا عَنْ قَوْمٍ فَإِنِّي حَاضِرٌ
وأنتك في سطح السلامة عائر
تنفست عنها والخطوبُ فواقر
وللتزعة الأولى بحاميمٍ ذاكر
عطيةٌ من تُبَلَّى لديه السرائر

ومن شعر أبي محمد ابن حَزْمٍ يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن
ابن بشر^١ :

أنا الشمسُ في جَوْ العلومِ منيرةٌ
ولو أَتَنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالَعٌ
وَلِي نَحْوُ آفَاقِ الْعِرَاقِ صَبَابَةٌ
فَإِنْ يُتَزَلِ الرَّحْمَنُ رَحْلِي بَيْنَهُمْ
فَكَمْ قَائِلٍ أَغْفَلْتُهُ وَهُوَ حَاضِرٌ
هَنَالِكَ يَدْرِي أَنَّ لِلْعَبِيدِ قِصَّةً
فِيَا عَجَباً مَنْ غَابَ عَنْهُمْ تَشَوَّقُوا
وَلَنْ مَكَاناً ضَاقَ عَنِّي لَضِيقٌ
وَلَنْ رَجَالاً ضَيَّعُونِي لَضِيعٌ

ولكنَّ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ
لَجَدَّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهْبُ
وَلَا غِرْوَانِ يَسْتَوْحِشُ الْكَلِيفُ الصَّبُّ
فَحِينَئِذٍ يَبْدُو التَّأْسَفُ وَالْكَرْبُ
وَأَطْلُبُ مَا عَنْهُ تُجِيءُ بِهِ الْكُتُبُ
وَأَنْ كَسَادَ الْعِلْمِ آفَتَهُ الْقُرْبُ
لَهُ ، وَدُنُوُّ الْمَرْءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبُ
عَلَى أَنَّهُ فَيَحْ مَهَامِيهِ سُهْبُ
وَلَنْ زَمَاناً لَمْ أَتَلْ خِصْبَهُ جَدْبُ

١ في الأصول : عبد الرحمن بن بشر والتصويب عن الصلة : ٣١٣ والمراقبة العليا : ٨٧ - ٨٩
وهو عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غرسية قاضي الجماعة بقرطبة يكنى أبا
المطرف ويعرف بابن الحصار ، ولاء علي بن حمود القضاء في صدر سنة ٤٠٧ فظل في منصبه
إلى أن عزله المعتد المرواني سنة ٤١٩ وتوفي سنة ٤٢٢ .

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه^١ :

ولكنَّ لي في يوسف خيرَ أسوةٍ
يقولُ مقالَ الصدِّقِ والحقَّ إنَّني
وليس على مَنْ بالذي اتَّسى ذنبُ
حفيظٌ عليمٌ ، ما على صادقٍ عتبُ

وقوله :

لا يشمتنَّ حاسدي إنْ نكبةٌ عرَّضتْ
ذو الفضلِ كالنَّبرِ يُلقي تحتَ مرتبةٍ
فالدهرُ ليس على حالٍ بمُتَّركِ
طوراً ، وطوراً يرى تاجاً على ملكِ

وقوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتيبه بإشبيلية :

دَعُونِي من إحراقِ رَقٍ وكاغِدِ
فإنَّ تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا الذي
وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ منْ يدري
تضمَّنه القرطاسُ ، بل هو في صدري
ويتزل إنْ أنزلُ ويُدْفَنُ في قبري
يسيرُ معي حيثَ استقلتْ ركائبي

وقوله :

لئن أصبحتُ مرتحلًا بشخصي
ولكنَّ للعيانِ لطيفٌ معنَى
فَقَلَّني عِندَكم أبداً مُقيمُ
لذا سألَ المعاينةَ الكَلِيمُ

وقوله :

وذي عَدَلٍ فيمن سباني حُسْنُهُ
أمنَ أجلِ وجهٍ لاحَ لم ترَ غيره
بطلُ ملامي في الهوى ويقولُ
ولم تدرِ كيفَ الجسمُ أنتَ عليلُ
فقلتُ له أسرفتَ في اللومِ فاتَّشِدْ
فعندي رَدٌّ لو أشاء طويلُ
ألم ترَ أنِّي ظاهريُّ ، وأنَّني
على ما أرى حتى يقومَ دليلُ

١ في الأصول : ومنها في مدحه لنفسه .

وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن مزيد ،
القرطبي . قال ابنه أبو رافع الفضل : اجتمع عندي بخط أبي من تواليه نحو
أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة ، انتهى .
وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبي عامر ،
وتوفي - كما قال ابن خيان - بذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة ، وكان منشؤه
ومولده بقرية تُعرف بالزاوية .

وحكي أن الحافظ أبا محمد ابن حزم قصد أبا عامر ابن شهيد في يوم غزير
المطر والوحل شديد الريح ، فلقيه أبو عامر ، وأعظم قصده على تلك الحال ،
وقال له : يا سيدي ، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم ! فأنشده أبو محمد ابن
حزم بديهاً :

فلو كانت الدنيا دُونِكَ لَجَّةٌ وفي الجوّ صَعَقٌ دائمٌ وحريقٌ
لسهلَ ودّي فيك نحوكَ مسلِكاً ولم يتعذّر لي إليك طريقٌ

قال الحافظ ابن حزم^١ : أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه لي :

إذا شئت أن تحنياً غنياً فلا تكن على حالةٍ إلا رضىت بدونها

وهذا كافٍ في فضل الفرع والأصل ، سامح الله الجميع .
قال ابن حزم في « طوق الحمامة »^٢ : إنه مرّ يوماً هو وأبو عمر ابن عبد
البر صاحب « الاستيعاب » بسكة الخطّابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب
حسن الوجه ، فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم نرَ
إلاّ الوجه ، فلعلّ ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالاً :

١ انظر الجذوة : ١١٨ في ترجمة أحمد بن سعيد والد الفقيه أبي محمد ابن حزم .

٢ لم يرد هذا في طوق الحمامة .

وذي عدلٍ فيمن سباني حسنه ...
الآيات .

ولابن حزم أيضاً قوله :

لا تَلُمِّي لَأَنَّ سَبْقَةَ لَحْظٍ فَاتَ إِدْرَاكُهَا ذَوِي الْأَلْبَابِ
يَسْبِقُ الْكَلْبُ وَثْبَةَ اللَّيْثِ فِي الْعَدَّةِ وَ يَعْلُو النُّخَالُ فَوْقَ اللَّبَابِ
ولأبي بكر ابن مفلّح جزء يردُّ فيه على أبي محمد ابن حزم ، وفيه قال
معرضاً :

يَا مَنْ تُعَانِي أُمُوراً لَنْ تُعَانِيَهَا خَلَّ التَّعَانِي وَأَعْطَى الْقَوْسَ بَارِيَهَا
تَرَوِي الْأَحَادِيثَ عَنْ كُلِّ مُسَاحَةٍ وَإِنَّمَا لِمُعَانِيهَا مَعَانِيهَا

وقيل : إنّه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم .

رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي

ومن نظمه قوله من مرثية :

أَحْنُ وَيَشْنِي الْيَأْسُ نَفْسِي عَلَى الْأَسَى كَمَا اضْطُرَّ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَرْكَبِ الصَّعْبِ

ومن جيد نظمه قوله :

أَسْرَوْا عَلَى اللَّيْلِ الْبَهِيمِ سُرَاهِمُ
مَتَى نَزَلُوا ثَاوِينَ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى
فَلَلَهُ مَا ضُمْتُ مِنْى وَشِعَابُهَا
وَلَمَّا التَّقِينَا لِلْجِمَارِ وَأَبْرَزَتْ
أَشَارَتْ إِلَيْنَا بِالْغَرَامِ مَحَاجِرُ
فَنَمَتْ عَلَيْهِمْ فِي الشَّمَالِ شَمَائِلُ
بَدَتْ لِلْهُوَى بِالْمَازِمِينَ مَخَايِلُ
وَمَا ضُمْتُ تِلْكَ الرَّبَى وَالْمَتَانِزِلُ
أَكُفُّ لَتَقْبِيلِ الْحَصَى وَأَنَامِلُ
وَبَاحَتْ بِهِ مَنَا جُسُومٌ نَوَاحِلُ

وقال الباجي أبو الوليد رحمه الله تعالى :

مَضَى زَمَنُ الْمَكَارِمِ وَالْكَرَامِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ صَوْبِ الْغَمَامِ
وَكَانَ الْبِرُّ فِعْلاً دُونَ قَوْلٍ فَصَارَ الْبِرُّ نَطْقاً بِالْكَلامِ
وَذَيْلُهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ :

وَزَالَ النَّطْقُ حَتَّى لَسْتَ تَلْفَى فَتَى يَسْخُو بَرْدٍ لِلْسَّلَامِ
وَزَادَ الْأَمْرُ حَتَّى لَيْسَ إِلَّا سَخِيٌّ بِالْأَذَى أَوْ بِالْمَلَامِ

٤٦ — ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي^١ صاحب «سراج الملوك» ، ويُعرف بابن أبي رندة^٢ — بالراء المهملة المفتوحة ، وسكون النون — وكفى بسراج الملوك دليلاً على فضله .

ذكره ابن بَشْكُوَال في الصلة ، وتوفي بالإسكندرية في شعبان ، وقيل : جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة^٣ ، وزرت قبره بالإسكندرية ، وممن أخذ عنه الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي وغيره .

ومن نظم الطرطوشي قوله من رسالة :

أَقْلَبُ طَرَفِي فِي السَّمَاءِ تَرَدُّدًا لَعَلِّي أَرَى النَّجْمَ الَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ
وَأُسْتَعْرِضُ الرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لَعَلِّي بَعْدَ شَمِّ عَرَفِكَ أَظْفَرُ

١ ترجمة أبي بكر الطرطوشي في الصلة : ٥٤٥ ووفيات الأعيان ٣ : ٣٩٣ وبغية الملتبس رقم : ٢٩٥ والغرب ٢ : ٤٢٤ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٣١ وشذرات الذهب ٤ : ٦٢ والديباج المذهب : ٢٧٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٦٢ .

٢ قال ابن خلكان : هي لفظة فرنجية ، سألت بعض الفرنج عنها فقال معناها : « رد تعال » .
٣ أثار ابن خلكان شيئاً من الإشكال حول تاريخ وفاة الطرطوشي ، فقد وجد في مشيخة جمعت لبهاء الدين بن شداد أن الطرطوشي أجازه ، وابن شداد ولد سنة ٥٣٩ فكيف يجيزه إذا كان قد توفي سنة ٥٢٠ ؟ (وفي بعض أصول المقرئ أن الطرطوشي توفي سنة ٥٤٠) .

وَأَسْتَقْبِلُ الْأَرْوَاحَ عِنْدَ هُبُوبِهَا
وَأُمْشِي وَمَا لِي فِي الطَّرِيقِ مَارِبٌ
وَالْمَحُ مِنْ أَلْقَاهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ
وَمَنْ نَظَّمَهُ أَيْضاً قَوْلُهُ :

يَقُولُونَ ثُكَلَى وَمَنْ لَمْ يَدُقْ
لَقَدْ جَرَّعَتْنِي لَيَالِي الْفِرَاقِ
وَمِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ ١ :

إِذَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً
فَارْسِلْ بِأَكْمِهِ جَلَّابَةً
وَدَعْ عَنْكَ كُلَّ رَسُولٍ سِوَى
وَكَانَ كَثِيراً مَا يَنْشُدُ ٢ :

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا
فَتَكْرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
جَعَلُوهَا لَجَّةً وَاتَّخَذُوا
طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحْيٍ وَطْنَا
صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ٣ : كُنْتُ لَيْلَةً نَائِماً بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِذْ سَمِعْتُ فِي
الْإِلِيلِ صَوْتاً حَزِيناً يَنْشُدُ :

أَخَوْفٌ وَنَوْمٌ ، إِنَّ ذَا الْعَجِيبِ
أَمَّا وَجَلَّالِ اللَّهِ لَوْ كُنْتُ صَادِقاً
ثُكَلَيْتُكَ مِنْ قَلْبٍ فَأَنْتَ كَذُوبٌ
لَمَا كَانَ لِلْإِغْمَاضِ فِيكَ نَصِيبٌ

١ انظر تحقيق ذلك في ابن خلكان .

٢ جاءت هذه الأبيات منسوبة له في الصلة .

٣ النقل عن ابن خلكان .

قال : فأيقظ النّوأم ، وأبكى العيون .

وكان رحمه الله تعالى زاهداً ، متورعاً ، متقللاً من الدنيا ، قوَّالاً للحق .
وكان يقول : إذا عرض لك أمرٌ دُنياً وأخرى ، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك
أمر الدنيا والأخرى . وله طريقة في الخلاف .

ودخل مرةً على الأفضل ابن أمير الجيوش فوعظه ، وقال له ^١ : إن الأمر
الذي أصبحت فيه من الملك إنّما صار إليك بموتٍ من كان قبلك ، وهو خارج
عن يدك بمثل ما صار إليك ، فاتّق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله ،
عزّ وجل ، سائلك عن النقيير والقِطْمير والفتيل ، وأعلم أن الله ، عزّ وجلّ ،
أتى سليمان بن داود ملك الدنيا بخدافيرها فسخرّ له الإنس والجن والشياطين
والطير والوحش والبهائم ، وسخرّ له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ،
ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عزّ من قائل : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ
أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص : ٣٩) فما عدّ ذلك نعمة كما عدتموها ، ولا
حسبها كرامة كما حسبتوها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله ، عزّ وجلّ ،
فقال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (النمل : ٤٠)
فافتح الباب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم .

وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني فأنشده ^٢ :

يا ذا الذي طاعته قُرْبَةٌ وحقّه مفترَضٌ واجبُ
إن الذي شرفّت من أجله يزعمُ هذا أنّه كاذبُ

وأشار إلى النصراني ، فأقامه الأفضل من مكانه .

والطُّرطُوشِي - بضم الطاءين - نسبة إلى طُرطُوشة من بلاد الأندلس ،

١ دوزي : أمران .

٢ ورد هذا النص في سراج الملوك : ٦١ مع بعض اختلاف ، وأزهار الرياض ٣ : ١٦٤ .

٣ النقل عن ابن خلكان .

وقد تفتح الطاء الأولى .

وعبر عنه ابن الحاجب في مختصره الفقهي في باب العتق بالأستاذ .

وكان رحمه الله تعالى صاحب القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى بسرّ قسطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجازه ، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وقرأ الأدب على أبي محمد ابن حزم بمدينة إشبيلية ، ثم رحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمئة ، ودخل بغداد والبصرة فتقّه عند أبي بكر الشاشي وأبي محمد الجرجاني ، وسمع بالبصرة من أبي علي التستري ، وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان راضياً بالسير .

وقال الصفدي في ترجمة الطرطوشي ^١ : إن الأفضل ابن أمير الجيوش أنزله في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد ، وكان يكرهه ، فلما طال مقامه به ضجر ، وقال لخادمه : إلى متى نصبر ؟ اجمع لي المباح ، فجمعه ، وأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : رميته الساعة ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل ، وولي بعده المأمون بن البطاحي فأكرم الشيخ إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ « سراج الملوك » ، انتهى .

ومقامه - أعني الطرطوشي - مشهور ، وهذه الحكاية تكفي في ولايته .

ومن تأليفه « مختصر تفسير الثعالبي » ، و « الكتاب الكبير في مسائل الخلاف » ، وكتاب « في تحريم جبن الروم » ، وكتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » ، وكتاب « شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد » .

وولد سنة إحدى وخمسين وأربعمئة تقريباً ، ولما توفي صلى عليه ولده محمد ، ودفن رحمه الله تعالى قبيل الباب الأخضر بإسكندرية ، وزرت قبره مراراً ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، ونفعنا به .

وكان القاضي عياض ممن استجازه فأجازه ولم يلقه ، وشهرته رضي الله

١ انظر ابن خلكان ٣ : ٣٩٤ .

تعالى عنه تغني عن الإطتاب .

وحكي أنه كتب على « سراج الملوك » الذي أهده لولي الأمر بمصر :

الناسُ يُهْدُون عَلَى قَدَرِهِمْ لَكُنِّي أَهْدِي عَلَى قَدَرِي
يُهْدُون مَا يَبْقَى وَأَهْدِي الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْآيَامِ وَالْدَّهْرِ

وحكي أنه سمع رضي الله تعالى عنه منشداً ينشد للوأواء :

قَمَرٌ أَتَى مِنْ غَيْرِ وَعَدِ فِي لَيْلَةٍ طَرَقَتْ بِسَعْدِ
بَاتَ الصَّبَاحُ إِلَى الصَّبَا حُ مَعَانِقِي خَدًّا بِخَدِ
يَمْتَازُ فِي وَنَاطِرِي مَا شَتَّ مِنْ خَمَرٍ وَشَهْدِ

فقال : أُوَيْظَنُ هَذَا الدَّمَشْقِيُّ أَنَّ أَحَدًا لَا يَحْسَنُ يَنْظِمُ الْكَذِبَ غَيْرَهُ ؟ لو

شئنا لكذبنا مثل هذا ؛ ثم أنشد لنفسه يعارضه :

قَمَرٌ بَدَا مِنْ غَيْرِ وَعَدِ	حُفَّتْ شَمَائِلُهُ بِسَعْدِ
قَبْلَتْهُ وَرَشَقَتْ مَا	فِي فِيهِ مِنْ خَمَرٍ وَشَهْدِ
فَرَشَقَتْ مُزْنَ السَّلْسِي	لِ بَزْتَجِيلٍ مُسْتَعْدِ
وَلَثِمَتْ فَاهِ مِنَ الْغُرُو	بِ إِلَى الصَّبَاحِ الْمُسْتَجِدِ
وَسَكِرَتْ مِنْ رَشَقِي الْعَقِي	قَ عَلَى أَقَاحٍ تَحْتَ رَنْدِ
فَنَزَعَتْ عَنْ فِيهِ فَمِي	وَوَضَعَتْ خَدًّا فَوْقَ خَدِ
وَشَمِمَتْ عَرَفَ نَسِيمِهِ	جَارِي عَلَى مِسْكِ وَنَدِ
وَصَحَوْتُ مِنْ رِيَا الْقَرَنْدِ	فُلٍ بَيْنَ رِيحَانٍ وَوَرْدِ
وَأَلَدْتُ مِنْ وَصْلِي بِهِ	شُكْوَاهُ وَجَدًّا مِثْلَ وَجْدِي

ومن نظم الطرطوشي قوله أيضاً :

١ كذا في الأصول ؛ وفي دوزي « يمتاز » .

كَانَ لِسَانِي وَالْمُشْكَلَاتِ سَنَا الصَّبْحَ يَنْحَرُ لَيْلًا بِهِمَا
وغيري إن رام ما رُمْتُهُ خَصِيٍّ يَحَاوِلُ فَرَجًا عَقِيمًا
وقوله أيضاً :

فَاعْمَلْ لِمَعَادِكَ يَا رَجُلُ فَالْقَوْمُ لِدُنْيَاهُمْ عَمِلُوا
وَاذْخِرْ لِمَسِيرِكَ مِنْ زَادٍ فَالْقَوْمُ بِلَا زَادٍ رَحَلُوا

٤٧ - ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشي^٢ ، وفد إلى المشرق ،
وذكره العماد في « الخريدة » وله في الآمدي العلي^٣ بمصر ، وكان يخضب بسواد
الرمان^٤ ، يخضب بأقبح سواد خضب به^٥ :

اخْلِطِ الْعَقْصَ فِيهِ يَا أَحْوَجَ النَّاسِ إِلَى الْعَقْصِ حِينَ يُعَكِّسُ عَفْصَ

٤٨ - ومنهم القاضي الشهير الشهيد أبو علي الصديقي^٦ ، وهو حسين بن
محمد بن فيره بن حيّون ، ويعرف بابن سكرة^٧ ، وهو من أهل سرقسطة ،
سكن مرسية ، وروى بسرقسطة عن الباجي وأبي محمد عبد الله بن محمد بن
إسماعيل وغيرهما ، وسمع ببكتسية من أبي العباس العنزي ، وسمع
بالمرية من أبي عبد الله محمد بن سعدون القروي وأبي عبد الله ابن المراتب وغيرهما ،

١ ق ط : فالقلب ، وهو سهو ، وفي بعض النسخ : فالناس .

٢ اسمه في نسخة باريس من الخريدة (حسبما ذكر في هوامش طبعة ليدن) : محمود بن عبد الجبار
الطرطوسي .

٣ ق : الآمد المعجل .

٤ الخريدة : الرماد ، وهو الصواب فيما يبدو .

٥ يخضب . . . يخضب به : وردت في ط ق وسقطت من ج .

٦ في ط : الصيرفي .

٧ دوزي : شكره بالشين ؛ وانظر ترجمته في الصلة : ١٤٢ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٥٩
وتذكرة الحفاظ : ١٢٥٣ وشذرات الذهب : ١٠٤ وفي أصحابه ألف ابن الأبار « المعجم في
أصحاب القاضي أبي علي الصديقي » (ط . مدريد ١٨٨٥) وقد شهر بابن السراج .

ورحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وحج من عامه ، ولقي بمكة أبا عبد الله الحسن^١ بن علي الطبري وأبا بكر الطرطوشي وغيرهما ، ثم سار إلى البصرة فلقى بها أبا يعلى المالكي وأبا العباس الجرجاني وأبا القاسم ابن شعبة وغيرهم ، وخرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبي المعالي محمد بن عبد السلام الأصبهاني وغيره ، ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة ، وسمع بها من أبي الفضل ابن خَيْرُون مُسْنِدِ بغداد ، ومن أبي الحسين المبارك ابن عبد الجبار الصيرفي ، وطراد الزينبي ، والحميدي ، وغيرهم ، وتفقه عند أبي بكر الشاشي وغيره ، ثم رحل منها سنة سبع وثمانين ، فسمع بدمشق من أبي الفتح نصر الملقمي وأبي الفرج^٢ الأسفراييني وغيرهما ، وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن الخَلِمي وأبي العباس أحمد بن إبراهيم الرازي ، وأجاز له الحبال مُسْنِدِ مصر في وقته ومكثها ، وسمع بالإسكندرية من أبي القاسم الوراق^٣ وشعيب بن سعيد وغيرهما ، ووصل إلى الأندلس في صفر من سنة تسعين^٤ وأربعمائة ، وقصد مَرُسية ، فاستوطنها ، وقعد يُحَدِّثُ الناس بجامعها ، ورحل الناس من البلدان إليه ، وكثر سماعهم عليه ، وكان عالماً بالحديث وطرقة ، عارفاً بعلومه ، وأسماء رجاله ونقَلته ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وقبَّده ، وكان حافظاً لمصنَّفات الحديث ، قائماً عليها ، ذاكراً لمتونها وأسانيدها ورواتها ، وكتب منها « صحيح البخاري » في سِفَر ، و« صحيح مسلم » في سِفَر ، وكان قائماً على الكتابين مع مُصنِّف أبي عيسى الترمذي ، وكان فاضلاً دِيناً متواضعاً حلوماً وقوراً عالماً عاملاً ، واستقضى بِمَرُسية ، ثم استغنى فأعفى ،

١ الصلة : الحسين .

٢ اسمه : سهل بن بشر .

٣ اسمه : مهدي بن يونس .

٤ ق ط : سبعين ، وهو خطأ نسخي .

وأقبل على نشر العلم وبثّه^١ .

وقد ذكره أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه لدخوله الشام ، قال^٢ : وبعد أن استقرت به النوى ، واستمرت إفادته بما قيّد ورَوَى ، رفعته ملوك أوانه ، وشقّعتَه في مطالب إخوانه ، فأوسعته رعباً ، وأحسنَت فيه رأياً ، ومن أبنائهم من جعل يقصده ، لسماع يُسُنِّده ، وعلى وقاره الذي كان به يُعرف ، نَدَرَ له مع بعضهم ما يُستطرف ، وهو أن فتى يسمى يوسف لازم مجلسه ، معطراً رائحته ومنظفاً ملبّسه ، ثم غاب لمرض قطعه ، أو شغل منعه ، ولما فرغ أو أبلّ ، عاود ذلك النادي المبارك والمحلّ ، وقبل إفضائه إليه ، دلّ طيبه عليه ، فقال الشيخ على سلامته من المجون ، وخلاصه من الفتون : ﴿ إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ (يوسف : ٩٤) وهي من طُرَف نوادره^٣ رحمة الله عليه .

ولما قلّد قضاء مُرسِية وعزم عليه صاحب الأمر فيه فرّاً إلى المربة فأقام بها سنة خمس وبعض سنة ست وخمسمائة ، وفي سنة ست قبِلَ قضاءها على كرهه إلى أن استخفى آخر سنة سبع في قصّة يطول إيرادها ، وبطول مقامه بالمربة أخذ الناس عنه بها ، فلما كانت وقعة كُتُنْدَة^٤ كان ممّن حضرها فقُفِدَ فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

وقال القاضي عياض : ولقد حدّثني الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر أنّه قال له : خذ الصحيح ، واذكر أيّ متن شئت منه أذكر لك سنده ، أو أيّ سند شئت أذكر لك متنه ، انتهى .

١ إلى هنا كانت الترجمة نقلا عن الصلة ، مع شيء يسير من الإيجاز .

٢ لم يرد شيء من هذا النص في تهذيب ابن عساكر ، وظني أنه ليس من تاريخ دمشق ، فهو مبني على السجع ، إلا أن يكون ابن عساكر ناقلا له من مصدر آخر .

٣ ق : ظرف نوادره ؛ ط : وهي من نوادره .

٤ تكتب أيضاً « قنّدة » وتقع في حيز دروكة (Doroca) من عمل سرقطة .

وذكر غير واحد أنه حدث ببغداد بحديث واحد ، والله أعلم ؛ وهو من أبناء الستين ^١ .

٤٩ - ومنهم ابن أبي روح الجزيري ، ومن شعره لما تغرب بالمشرق قوله :

أَحِنُّ إِلَى الْخَضْرَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ حَنِينٌ مَشُوقٌ لِلْعَنَاقِ وَلِلضَّمِّ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ جَسْمِي رَضِيعُهَا وَلَا بُدَّ مِنْ شَوْقِ الرَضِيعِ إِلَى الْأُمِّ

٥٠ - ومنهم العالم أبو حَقِصٍ عمر بن حسن الهوزني ^٢ ، الحسيب العالم المحدث ، ذكره ابن بسام في « الذخيرة » والحجاري في « المسهب » ^٣ ، وسبب رحلته للمشرق أنه لما تولى المعتضد بن عبيد خاف منه ، فاستأذنه في الحج سنة ٤٤٤ ، ورحل إلى مصر ، ثم إلى مكة ، وسمع [في طريقه كتاب] صحيح البخاري ، وعنه أخذ أهل الأندلس ، ورجع ، وسكن لإشبيلية وخدم المعتضد ، فقتله [ومن خاف من شيء سلط عليه ، وكان قتله يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول] ^٤ سنة ستين وأربعمائة .
ومن شعره يُحَرِّضُهُ عَلَى الْجِهَادِ :

أَعْبَادَ جَلَّ الرَّزْءُ وَالْقَوْمُ هُجَّعٌ عَلَى حَالَةٍ مِنْ مِثْلِهَا يُتَوَقَّعُ
فَلَقَى كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً وَإِنْ طَالَ فَاَلْمَوْصُوفُ لِلطَّوْلِ مَوْضِعُ
إِذَا لَمْ أَبْثُ الدَّاءَ رَبَّ شَكَايَةٍ أَضَعْتُ ، وَأَهْلٌ لِلْمَلَامِ الْمُبْصِيعُ

[ووصله بنثر ، وهو] : وما أخطأ السبيل مَنْ أُنِيَ الْبُيُوتُ مِنْ أَبْوَابِهَا ،

١ هذه الجملة ثبتت في ق ط ، وسقطت من دوزي وج .

٢ ترجمة الهوزني في الذخيرة (القسم الثاني : ٣٣) والصلة : ٣٨١ والمغرب ١ : ٢٣٤ .

٣ ذكره ... المسهب : سقطت من ق ط ج .

٤ ما بين معقفين زيادة من الذخيرة .

٥ الذخيرة : ٣٤ - ٣٥ .

ولا أرجأ الدليل من أناط الأمور بأربابها ، ولربّ أمل بين أثناء المحاذير مُدمّج ،
ومحبوب في طي المكاره مُدرّج ، فانتهاز فرصتها فقد بان من غيرك العجز ،
وطبّق مفاصلها ' فقد أمكنك الحزّ ، ولا غرو أن يُستَمطر الغمام في الجذب ،
ويُستصحب الحُسام في الحرب .

وله ٢ :

صرّح الشرُّ فلا يستقلُّ إن نهلتُم جاءكم بعدُ علُّ
بدء صقّ الأرض رَشَّ وطلُّ ورياحٌ ثم غيَمٌ أبَلُّ
خفَضُوا فالداء رُزءٌ أجَلُّ واغمدوا سيفاً عليكم يُلُّ

وابنه أبو القاسم هو الذي كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل
المعتضد والدّه^١ كما مرّ^٢ ؛ [وبيت بني الهوزني بالأندلس بيت كبير مشهور
ومنهم عدّة علماء وكبراء ، رحم الله الجميع]^٤ .

٥١ - ومنهم أبو عمرو عثمان بن الحسين^٥ ، أخو الحافظ أبي الخطاب ابن
دحيّة الآتي ذكره^٦ ، كان أسنّ من أخيه أبي الخطاب ، وكان حافظاً للغة العرب ،
قيماً بها ، وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها
بين القصرين ورتب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور ، ولم يزل بها إلى أن توفي

١ ق ط ج : مضاربها .

٢ الذخيرة : ٣٧ .

٣ في دوزي : وبسبب قتل بني عباد لأبي حفص الهوزني المذكور تسبب ابنه أبو القاسم في فساد دولة
المعتمد بن عباد ، وحرّض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتّى أزال ملكه
ونثر ملكه وسبب هلكه ، كما ذكرناه في غير هذا الموضع من هذا الكتاب غير مرة ، فليراجع
من أراد في محاله .

٤ زدنا هذه العبارة من دوزي .

٥ ترجمته في شذرات الذهب ٥ : ١٦٨ وذيل الروضتين : ١٦٤ ووفيات الأعيان ٣ : ١٢٣ .

٦ ذكره : سقطت من ق ط ج ، وانظر الترجمة رقم ٥٥ فيما يلي .

سنة ٦٣٤ بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم كأخيه ، وكان موت أبي عمرو بعد أبي الخطاب بسنة ، رحمهما الله تعالى .

٥٢ - ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم^١ ، من أهل وادي الحجارة ، ويُعرف باشكهادة^٢ ، وارتحل إلى المشرق لما نبتت به حضرة قرطبة عند تقلب دُولها ، وتحول ملوكها وخَوَلها ، فجال في العراق ، وقامى ألم الفراق ، واجتاز بحلب ، وأقام بها مقام غريب لم يَصِفْ له حَلَب ، وقال^٣ :

أين أَقْصَى الْغَرْبِ مِنْ أَرْضِ حَلَبٍ	أَمَلٌ فِي الْغَرْبِ مَوْصُولُ التَّعَبِ
حَنٌّ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أوطَانِهِ	مَنْ جَفَاهُ صَبْرُهُ لَمَّا اغْتَرَبَ
جال في الأرضِ لِحَاجَةٍ حَائِراً	بَيْنَ شَوْقٍ وَعَنَاءٍ وَنَصَبِ
كُلُّ مَنْ يَلْقَاهُ لَا يَعْرِفُهُ	مُسْتَغْنِئاً بَيْنَ عُجْمٍ وَعَرَبِ
لَهْفٍ نَفْسِي أَيْنَ هَاتِيكَ الْعُلَا	وَاضْيَاعَاهُ وَيَا غَيْنَ الْحَسَبِ
والذي قَدْ كَانَ ذُخْراً وَبِهِ	أُرْتَجِي الْمَالَ وَإِدْرَاكَ الرُّتَبِ
صار لي أَبْخَسُ مَا أَعْدَدْتُهُ	بَيْنَ قَوْمٍ مَا دَرَوْا طَعْمَ الْأَدَبِ
يا أَحِبَّائِي اسْمَعُوا بَعْضَ الَّذِي	يَتَلَقَّاهُ الطَّرِيدُ الْمُغْتَرِبِ
وَلْيَكُنْ زَجْراً لَكُمْ عَنْ غُرْبَةٍ	يَرْجِعُ الرَّأْسُ لَهَا كَالذَّنْبِ
وَاحْمِلُوا طَعْنًا وَضَرْبًا دَائِماً	فَهُوَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْمِي كَالضَّرْبِ
وَلِئِنْ قَاسَيْتُ مَا قَاسَيْتُهُ	فَبِمَا أَبْصَرَ لِحَظِي مِنْ عَجَبِ
وَلَقَدْ أَخْبَرَكُمْ أَنَّ التَّقِي	بَكُمْ حَتَّى تَقُولُوا قَدْ كَذَبِ

١ ترجمت في المغرب ٢ : ٣١ .

٢ في المغرب : اشكهاط ؛ وأعتقد أن هذا هو نفسه الذي ورد في الذخيرة ١/١ : ١٩٥ باسم « أبو بكر المعروف باشكهاط » وقد عرضت عليه فصول لأبي عامر ابن شهيد ، فقال فيها : فقر حسان إلا أنه عثر عليها ، فكتب إليه ابن شهيد رسالة (الذخيرة ١/١ : ١٩٦) .

٣ بعض هذه القصيدة في المغرب .

واجتاز بدمشق فقال من أبيات رحمه الله تعالى :

دمشقُ جَنَّةُ الدنيا حَقِيقاً ولكن ليس تَصْلُحُ للغَرِيبِ
بها قومٌ لهم عَدَدٌ ومَجْدٌ وصُحْبَتُهُمْ تَوُولُ إلى حُرُوبِ

ثم إنّه ودع الشرق بلا سلام ، وحلّ بحضرة دانيّة لدى ملكها مجاهد
العامري في بُحْبُوحَةٍ عزّ لا يَخْشَى فيه الملام ، واستقبل الأندلس بخاطر جديد ،
ونال بها بعدُ من بلوغ الآمال ما ليس له عليه مزيد ، وقال ^١ :

وكم قد لقيتُ الجَهْدَ قبل مجاهد وكم أبصرتُ عيني وكم سمعتُ أذني
ولاقيت من دهري وصرف خطوبه كما جرّت النكباء في معطف الغصن
فلا تسألوني عن فراق جهنم ولكن سلوني عن دخولي إلى عدن

وله من كتاب : وحامل كتابي - سلّمه الله تعالى وأعانه - ممّن أخنى
عليه الزمان ، وأدار عليه وما صحا إلى الآن كؤوس الهوان ، وقد قصد علي بعد
جنابك الرحيب الحصيب ، قصد الحسن محلّ الحصيب ، وبمم جناب ابن
طاهر حبيب ، وإنتي لأرجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان ^٢ ،
ويستعين في شكرك بكل لسان ، وأنت عليم بأن الثناء هو الخلف ، وقد قال
الأول :

أرى الناس أحمّوثةً فكوني حديثاً حسنً

وأنا القائل :

فلا ترهّدن في الخير قد مات حاتم وأخباره حتى القيامة تُدكرُ

١ انظر هذا الشعر في المغرب .

٢ الحسن بن هانيء أبو نواس أم جناب الحصيب صاحب الخراج بمصر ، وحبيب أبو تمام أم عبد الله
ابن طاهر ، ونصيب أم سليمان بن عبد الملك .

ومع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الأوان ، عارف وجوه
الأعداء غير ذي عَجَل في العتب قبل البيان ، وعند سيدي من التهدي للإيضاء ،
ما يحقق فيه جميع الرجاء ، دامت أرجاؤه مؤملة ، ولا برحت نعمه سابعة
مكملة .

٥٣ - ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي^١ ، وقال
بعضهم : إنّه من الجزيرة الخضراء ، له رحلة إلى الديار المصرية ، صنع فيها
مقامة يقول فيها :

وفي جَنَابَاتِ الروضِ نَهْرٌ ودوحةٌ يروقُكَ منها سُندسٌ ونُضَارُ
تقولُ وضوءُ البدرِ فيه مغربٌ^٢ ذراعُ فتاةٍ دارَ فيه سِوَارُ
ومن شعره :

ما كلُّ إنسانٍ أخٌ منصفٌ ولا الليالي أبداً تُسَعِفُ
فلا تُضَعُ إن أمكنتَ فرصةً واصحبْ من الإخوانِ من ينصفُ
وانتفِ من الدهرِ ولو ريشةً فإنما حظُّك ما تَنْتَفِ

وقوله يرثي السيد أبا عمران ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد
المؤمن بن علي ملك المغرب والأندلس :

بجيدِ المعالي أيُّ عقدٍ تَبَدَّدَا وصدرِ العوالي أيُّ رمحٍ تَقَصَّدَا

١ ترجمته في تحفة القادِم : ٩٤ والمغرب ١ : ٤٢٧ والمعجب : ٣٧٥ - ٣٧٨ والوافي رقم :
٢٠٣ وكنيته في التحفة « أبو عمرو » ، وقال إن أبا بكر ابن صقلاب كناه في بعض ما خاطبه
به أبا عبد الله ، وكان صديقاً لصاحب المعجب وقال : إن له اتساعاً في صناعة الشعر إلا أنه نخل
كثيراً من شعره السيد الأجل أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ؛ وقال
ابن سعيّد : وله رسالة في صقلية ذكر فيها ما جرى له بمصر وحذر فيها من الأسفار لما قاسى فيها .
٢ في الأصول : مغرباً .

ولمّا دهّت خيلُ الشقيّ فجاءهُ^١ وسال العدا بحراً من الموت مُزبِدا
شهدتْ بوجهٍ كالغزالةٍ مشرقاً وإن كان وجهُ الشمسِ بالنّقعِ مريداً
عزائمِ صدقٍ ليس تصرفُ هكذا إلى الموتِ تسعى أو على الموتِ يُعتدى

وكان السيد أبو عمران المرثي قتلته الميُورقي^١ صاحب فتنة إفريقية في الخزيمة
المشهورة على تاهرت ، وجمع ابن عبد ربّه المذكور شعر السيد أبي الربيع ابن
عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، وكان ابن عبد ربّه المذكور كاتباً
للسيد أبي الربيع سليمان المذكور ، ولما أنشد لبعض الشعراء^٢ :

حاكّتْ يمينُ الرّيحِ محكّمةً في نَهَرٍ واضحٍ الأساريرِ
فكُلّما ضعفتْ بهِ حلَقاً قام لها القطرُ بالمساميرِ

أنشد لنفسه^٣ :

بينَ الرّياضِ وبينَ الجوِّ معتركٌ بيضٌ من البرقِ أو سمرٌ من السّمُرِ
إن أوترتْ قوسها كفُ السّماءِ رمتْ نبلاً من الماءِ في زَغَفٍ من الغُدُرِ
لأجلِ ذاك إذا هبتْ طلائعُها تدرّعَ النهرُ واهترتْ قنا الشجرِ

واجتمع ابن عبد ربّه المذكور في رحلته بالسعيد ابن سناء الملك ، وأخذ عنه
شيئاً من شعره ، ورواه بالمغرب .

١ هذا الميُورقي هو يحيى بن غانية ، وكان السيد أبو عمران موسى والياً يومئذ على تلمسان ، فاتصل
كبراء زناته فيها بيحيى بن غانية ووصفوا له ما فيه أبو عمران من ضعف وعدم اعتماد ، فجاها
ابن غانية وقضى عليه وعلى أكثر من معه واقتحم مدينة تاهرت ونهبها وخرّبها (سنة ٦٠٥) انظر
ابن خلدون ٦ : ٢٤٩ ، ٢٧٨ .

٢ هذا ما أنشده إياه صديقه عبد الواحد المراكشي ، انظر المصعب : ٣٧٦ .

٣ من الغريب أن هذا الشعر ثابت في ديوان أبي الربيع : ١٤٠ ، بما قد يرجح القول بأن المألقي
نحل كثيراً من شعره لهذا الأمير .

٥٤ - ومنهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان ،
المالقي^١ ، ومن نظمه في السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه
الله تعالى^٢ :

وفي صَهَوَاتِ الْمُقَرَّبَاتِ وفي القَنَا حُصُونُ حُمَى لا في هَضَابِ المعَاقِلِ
ومنها :

ولا ملك يأتي كَيُوسُفَ آخِراً كما لم يحمى مثل^٣ له في الأوائل

٥٥ - ومنهم الحافظ أبو الخطاب ابن دحية^٣ ، وهو مجد الدين عمر بن
الحسن بن علي بن محمد [بن الحميل] بن فرح بن خلف ، الظاهري المذهب ،
الأندلسي ، كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ،
استوطن بجاية في مدة أبي عبد الله ابن يومور ، وروى بها ، وأسمع ، وكان
من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حُوشِيُّ اللغة عنده مستعملاً غالباً ،
ولا يحفظ الإنسان من اللغة حُوشِيَّهَا إِلَّا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من
مستعملها ، وكان قصده - والله تعالى أعلم - أن ينفرد بنوع يشتهر به دون
غيره ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المغرب وانفردوا بالطريق
الآخر ، ولو سلكوا طريق المغرب لكانوا فيه كآحاد الناس ، وكذا الشيخ أبو
الخطاب ابن دحية له رسائل ومخاطبات كلها مُغْلَقَات مَقْفَلَات ، وكان - رحمه
الله تعالى - إذا كتب اسمه فيما يميزه أو غير ذلك يكتب « ابن دحية ودحية
معاً المتشبه به جبريل وجبرائيل » ، ويذكر ما ينسب على ثلاث عشرة لغة مذكورة

١ ترجمته في الفوات ٢ : ٣٥ وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٥٧ وكنيته فيهما أبو الفضل والنسبة
إلى جليانة (أو جيان) لا إلى مالقة ، وكان مقرباً عند صلاح الدين ، ماهراً في الطب ،
وله عشرة دواوين عدها صاحب الفوات وابن أبي أصيبعة .

٢ من قصيدة له ورد بعض أبياتها في الفوات ٢ : ٣٦ .

٣ ترجمة أبي الخطاب ابن دحية في وفيات الأعيان ٣ : ١٢١ والنيربني ١٥٩ وشذرات الذهب
٥ : ١٦٠ ومرآة الزمان ٢ : ٦٩٨ وذيل الروضتين ١٦٣ والتكملة رقم ١٨٣٢ وصلة
الصلة : ٧٣ .

في جبريل ، ويقول عند فاطر السموات والأرض ، وهذا فرع انفرد به عمن
عداه من أهل العلم .

قال صاحب عنوان الدراية : رأيت له تصنيفاً في رجال الحديث لا بأس
به ، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب ، فرفعوا شأنه ، وقربوا له مكانه ،
وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلساً أقرؤا له بالتقدم ، وعرفوا أنه
من أولي الضبط والإتقان والتفهم ، وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ،
فأعاد المتون المحوالة ، وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه
من متونها الأصلية ، ومثل هذه الحكاية اتفق لأبي عمر ابن عات في كتاب مسلم
بمراكش ببيت الطلبة منها .

ومن شعر أبي الخطاب ما كتب به إلى الكامل بن العادل بن أيوب :

ما لي أسائلُ بَرَقَ بَارِقُ عَنَّاكُمْ من بَعْدَ ما بَعْدَتْ دِيَارِي مِنَّاكُمْ
فمَحَلُّكُمْ قَلْبِي وَأَنْتُمْ بِالْحَشَا لا بِالْعَقِيقِ وَلَا بِرِامَةِ أَنْتُمْ
وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْوَفَاءِ بَعْدَكُمْ يَا مَالِكِينَ ، وَفَيْتُمْ أَوْ خُنْتُمْ

وهي طويلة ، ومنها :

رَفَعْتَ لَهُ الْأَمْلَاقُ مِنْهُ سَجِيَّةً مَلَكَ السَّمَاءِ الرَّمَحَ وَهُوَ مُحَرَّمُ

ومنها أيضاً :

لذوي النُهي والفهم سِرُّ حُكُومَةٍ قد حار فيها كاهنٌ وَمُنَجِّمُ
فاقصِدْ مُرَادَكَ حَيْثُ سَرَتْ مُظْفَرًا وَاللَّهِ يَكْلَأُ وَالْكُوكَبُ نُومُ
وليَهْلكَ الشَّهْرُ السَّعِيدُ تَصُومُهُ وَتَقُوزُ فِيهِ بِالثَّوَابِ وَتَغْنَمُ
فَلَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا كَلِيلَةُ قَدْرِهِ قَدْرًا ، فَقَدْرُكَ فِي الْمُلُوكِ مُعْظَمُ

فأجابه السلطان مكافأةً بنثر ونظم ، فمن النظم :

وهيَجن شوقي للأجارعِ باللّوى وأين اللّوى مني وأين الأجارعُ
مَرَّابِعُ لَوْ أَنَّ المَرَّابِعَ أَنجُمُ لكان نجومَ الأرض تلك المَرَّابِعُ
رعى الله أياماً لها وَلَوْ أَنَّها إليَّ وَقَدْ وَلّى الشابُّ رَوَّاجُ
ليالي لا لَيْلَى إذا رُمْتُ وَصلها يلوح لها من صُبْح شبي مَوَاقِعُ
في جملة أبيات .

ومن النثر : الحمد لله ولي الحمد ، وقف ولده على الأبيات التي حَسِنَ
شعرها ، وصفا دُرُّها ، وليس من البديع أن يقذف البحر درّاً ، أو ينظم الخليلُ
شِعْراً ، وقد أخذتُ الورقة لأنتزه في معانيها ، وأستفيد بما أودَّعه^١ فيها ،
فالله تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته ، وصالح أدعيته ، والسلام .
فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الأبيات بقوله من قصيدة :

شَجَّتْني شَوَاجٍ في الغُصُونِ سَوَاجُ فقاضتُ هَوَامَ الجفونِ هَوَامُ
وأكثر فيها من التغزل ، إلى أن قال :

ولا حاكمُ أرضاه بِنِي وبَيِّنْها سوى حاكمٍ دَهْرِي له اليوم طائعُ
يُدافعُ عني الضَّيِّمَ قائمُ سَيْفِهِ إذا عَزَّ مَنْ للضَّيِّمِ عَنِّي يُدافعُ
هو الكاملُ الأوصافِ والملكُ الذي تشير إليه بالكمال الأصابعُ
وبيضُ أبياديه الكريمة في الوَرَى فلائدُ في الأعناق وهَي الصَّنائعُ
ويَوْمَاهِ يَوْمَاهِ اللِّذَانِ هُمَا هُما إذا جمعتُ غُلْبَ^٢ الملوكِ المِجامِعُ
ومنها :

فَمَارَوْضةٌ غَنَّا بها مَرَّتِ الصَّبَا ونَشَرُ شذاها الطَّيِّبِ النَشْرُ ذائعُ

١ ق : أودعته .

٢ ق : جمعت منه .

له من شَدِيّ الزهر بُرْدٌ مُقَوِّفٌ أُنِيجَ له من أرضِ صَنَعَاءِ صَانِعُ
فَرَأَقَكَ مِنْهَا أَخْضَرُ الثوبِ نَاضِرُ وشاقَكَ مِنْهَا أَصْفَرُ اللونِ فَاقِعُ
وأَحْمَرُ قَانٍ لِلْخُدُودِ مُورَدٌ وأَبْيَضُ كَالثَغْرِ الْمَفْلَجِ نَاصِعُ
بأَحْسَنَ من تَوْشِيْعٍ مَدْحِي الذي لَهُ بَدَائِعُ من وَشْيِ الْبَدِيعِ وَشَائِعُ
وما ضَائِعُ من نَشْرِ شُكْرِي الذي بِهِ تَأْرَجَتِ الْأَرْجَاءُ عِنْدَكَ ضَائِعُ
ولو لم يُقَيِّدْنِي نَدَاكَ لَكَانَ لِي مَجَالٌ فَسِيحٌ فِي الْبَسِيطَةِ وَاسِعُ
فَأَنْتَ الذي لِي وَالْأَعَادِي كَثِيرَةٌ فَوَيْقَ مَكَانِ النَجْمِ فِي الْأَفْقِ دَافِعُ

ومنها :

بَقِيتَ لَعَبْدٍ جَدُّهُ دَحِيَّةُ الذي يُشَابِهُ جِبْرِيلُ له وَيُضَارِعُ
وَجَدَّتَهُ الزَّهْرَاءُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّائِمُ الْمُتَابِعُ
ولا عَدِمْتُ مِنْكَ الْمَمَالِكُ مَالِكًا يُقَرِّبُ لِلْأَمَالِ مَا هُوَ شَائِعُ
ومِنْكَ عَيُّونٌ لِلْمِهْمَاتِ يُقَيِّظُ وَعَنْكَ عَيُّونُ الْحَادِثَاتِ هَوَاجِعُ

وقال المقرئ في ترجمة الملك الكامل : إنّه كان مشغولاً بسماع الحديث النبوي ، وتقدم عنده أبو الخطاب ابن دحية ، وبني له دار الحديث الكاملة بين القصرين بالقاهرة ، انتهى .

وقال أبو الخطاب ابن دحية : أنشدني أبو القاسم السهيلي لنفسه ، وذكر أنّه ما سأل الله تعالى بها إلّا أعطاه :

يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ أَنْتَ الْمَعْدُ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يا مَنْ يَرْجَى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا يا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْرَعُ

١ الأبيات في المطبع : ٢٣٤ وأبو القاسم السهيلي هو عبد الرحمن بن عبد الله (توفي ٥٨١) صاحب الروض الأنف ، انظر ترجمته في التكملة رقم : ١٦١٣ والمطرب : ٢٣٠ وأدباء مالقة ، الورقة : ١٢٧ .

يا من خزائن رزقه في قول كُنْ
 مالي سوى فقري إليك وسيلة
 مالي سوى قرعي لبابك حيلة
 ومن الذي أدعوا وأهتف باسمه
 حاشا لجودك أن يقنط عاصياً
 الأمنن فلان الخير عندك أجمع
 فبالافتقار إليك فقري أدفع
 فلئن رددت فأني باب أقرع
 إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
 الفضل أجزل والمواهب أوسع

ومن نظم السهيلي رضي الله تعالى عنه ^١ :

أسائلُ عن جبرانه من لقيتهُ
 وما بي إلى جبرانه من صباية
 وأعرضُ عن ذكره والحالُ تنطقُ
 ولكن نفسي ^٢ عن صبح ترققُ
 وله ^٣ :

لما أجاب بلا طمعت بوصله
 وكذا نعم بنعيم وصل آذنت
 إذ حرف لا حرفان معتقان
 فتعم ولا في اللفظ متفقان

ولد أبو الخطاب ابن دحية في ذي القعدة سنة سبع - أو ثمان - وأربعين وخمسائة^٤ وتوفي في انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .
 وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار ، وقدره أجل مما ذكروه ،
 وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم ، وكل ذلك في طلب الحديث ، وسمع بالأندلس من ابن بشكوال وابن

١ أدباء مالقة : ١٢٩ .

٢ أدباء مالقة : قلبي . . . يرقق ؛ وفيه إشارة إلى المثل «أمن صبح ترقق» .

٣ أدباء مالقة : ١٣٠ .

٤ أدباء مالقة : في الحب .

٥ مختلف في عام ولادته ، راجع وفيات الأعيان ؛ وفيه أنه ولد ٤٤٤ هـ .

زرقون في جمع كبير ، وبغداد من أبي الفرج ابن الحوزي ، وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني «معجم الطبراني» ومن غيره ، وبنيسابور من أبي سعيد ابن الصفار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي ، وحصل الكتب والأصول ، وحدث ، وأفاد ، وكان من أعيان العلماء ، ومشاهير الفضلاء ، مُتَقِنًا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفاً بالنحو واللغة وآيام العرب وأشعارها .

وصنّف كتباً كثيرة مفيدة جداً ، منها كتاب «التنوير في مولد السراج المنير» صنفه عند قدومه إلى إربل سنة أربع وستمائة ، وهو متوجه إلى خراسان لما رأى ملك إربل مظفر الدين كوكبري معتنياً بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول كل عام ، مهتماً به غاية الاهتمام ، وكماله وقرأه عليه بنفسه ، وختمه بقصيدة طويلة ، فأجازه بألف دينار ، وصنف أيضاً «العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور» ، و «الآيات البيّنات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات» وكتاب «شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم» وكتاب «النبراس في أخبار خلفاء بني العباس» وكتاب «الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صِفَتَيْن»^١ .

وولي قضاء بلد أصوله دانيّة مرتين ، ثم صرف عن ذلك لسيرة نعت عليه ، فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥ هـ ، ثم حجّ وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور ، وعاد إلى مصر ، فاستأدبه العادل لولده الكامل ، وأسكنه القاهرة ، فقال بذلك دنيا عريضة ، ثم زادت حظوته عند الكامل ، وأقبل عليه إقبالا عظيماً وكان يعظمه ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، حتى كان يسوي له المداس حين يقوم ، وهو بكنسي كما قاله ابن خلّكان وغيره ، وبلكنسية مشهورة بشرق الأندلس .

١ لم يذكر كتاب «المطرب» الذي ألفه ليعرف بالأدباء الأندلسيين والأدب الأندلسي .

٥٦ - ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ ، الحافظ ، الأندلسي^١ ، رحل إلى المشرق ، وكان حافظاً فهماً عارفاً بالرجال ، حدث حديث مالك وشعبة وأشباه في الزهد ، وسمع بمصر أبا الحسن ابن الورد البغدادي ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة ، وسمع بدمشق عليّ بن أبي العقب وأبا الميمون ابن راشد وبمكة من بكير الحداد وأبي الحسن الخزاعي والآجري ، وبقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد ومحمد بن معاوية ، وتوفي سنة ٣٩٣ .

٥٧ - ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم ابن الم رابط^٢ ، الكلبي ، من ذرية الأبرش الكلبي ، ويعرف بالمبرقع^٣ ، المحتسب ، القرطبي ، رحل إلى المشرق مرتين ، أولاهما سنة ٣٣٢^٤ ، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وسمع أبا سعيد ابن الأعرابي وابن الورد وأبا بكر الآجري ، وروى عنه أبو إسحاق ابن شنظير وأبو جعفر الزهراوي ، وقال ابن شنظير : إنه توفي في نحو الأربعمائة ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

٥٨ - ومنهم سابق فضلاء زمانه ، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشيلي^٥ .

يقال : إن عمره ستون سنة ، منها عشرون في بلده إشيلية ، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، وعشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب ، وكان وجّهه صاحب المهديّة إلى ملك مصر فسُجن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب ، فخرج في فنون العلم إماماً ، وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ،

١ ترجمته في الجذوة : ١٩٥ (والبنية رقم : ٧١٧) وابن الفرضي ١ : ١٦٣ .

٢ ترجمته في التسلة : ١٥٩ .

٣ التسلة : بابن المبرقع .

٤ كذلك هو في التسلة أيضاً ، وفي ط : ٣٣٣ .

٥ قد مرت الإشارة إليه وذكر مصادر ترجمته ، انظر ما سبق ١ : ٤٩٦ وله ترجمة في الخريدة

١ / ٤ : ٢٢٣ - ٣٤٣ فيها مختارات من أشعاره مرتبة على الحروف .

وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته ، وكان يكنى بالأديب الحكيم ، وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية ؛ قال ابن سعيد : وإليه تُنسب إلى الآن . وذكره العماد في « الخريدة » . وله كتاب « الحديقة » على أسلوب « بئمة الدهر » للثعالبي ، وتوفي سنة ٥٢٠ ، وقيل : سنة ٥٢٨ ، بالمهدية ، وقيل : مستهل السنة بعدها ، ودفن بها .

وله فيمن اسمه واصل^١ :

يا هاجرَ اسمَوه عَمَدًا واصلًا « وبضدّها تبينُ الأشياء »
أَلغيتني حتى كَأَنَّكَ واصلٌ وكَأَنِّي من طول هجري الراء

وقوله ، وهو من بدائعه^٢ :

لا غَرَوَ أن سبقتَ لَهَاكَ مدائحي وتدفقتْ جدواك ملءَ إناثها
يُكسِي القُضيبُ ولم يَحِنْ لِأُثْمَارِهِ وتطوّقُ^٣ الورقاء قبلَ غنائها

وقال في الأفضل^٤ :

تَرْدِي بكلّ فتي إذا شهد الوغى نثرَ الرماحَ على الدروبِ كعوبا
قد لَوَحَّتْهُ يَدُ الْهَوَاجِرِ فَاغْتَدَى مثلَ القَنَاقَةِ قِصَافَةً وشحوبا
تَخَذُوا القَنَا أَشْطَانَهُمْ وَاسْتَنْبَطُوا في كلِّ قلبٍ بالطعانِ قَلِيًّا

ومنها^٥ :

تعطي الذي أعطتكهُ سُمُرُ القَنَا أبداً فتغدو سالباً مَسْلُوباً

١ الخريدة : ٢٢٤ .

٢ الخريدة : ٢٢٦ .

٣ ق ط ج ودوزي : وتطقطق .

٤ الخريدة : ٢٢٨ .

٥ هذا البيت والذي يليه في الخريدة : ٢٣٠ .

ومنها :

وأنا الغريبُ مكانهُ وبيانهُ فاجعلُ صنيعَكَ في الغريبِ غريبا

وله ^١ :

ومَهْفَهفٍ شَرِبَتْ ^٢ محاسنُ وجهِهِ ما مَجَّهُ في الكاسِ من لِبْرِيقِهِ
ففعالها من مقلتيهِ ، ولونُها من وجنتيهِ ، وطعمُها من ريقِهِ

أخذه من ابن حَيَّوس ، وقصر عنه ، في قوله :

ومَهْفَهفٍ يَغْنَى بلحظِ جفونِهِ عن كاسِهِ الملائى وعن لِبْرِيقِهِ
فِعْلُ المدامِ ولونُها ومذاقُها في مقلتيهِ ووجنتيهِ وريقِهِ

ولأبي الصلت فيمن اسمه مُحْسِن :

أَيُّهَا الظالمُ المَسيءُ مَدَى دَهْرِهِ بِنَا
ما لهم أخطأوا الصوا بَ فسمَّوكَ محسنا

وله في لابس قرمزية حمراء ^٣ :

أَقْبَلَ يَسْنَى أبو الفوارسِ في مَرَأَى عَجِيبٍ وَمَنْظَرٍ أُنِيقٍ
أَقْبَلَ في قَرْمِزِيَّةٍ عَجَبٍ قد صَبِغَتْ لَوْنُ خَدَّهِ الشَّرِيقِ
كَأَنَّمَا جِيْدُهُ وَغُرَّتْهُ من دُونِهَا إِذْ بَدَوْنَ في نَسَقِ
عَمُودُ فَجْرِ من فَوْقِهِ قَمَرٌ دارَتْ به قِطْعَةٌ من الشَّفَقِ

١ ابن خلكان ١ : ٢٢١ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٧ .

٢ في المصدرين السابقين : شَرَكَتْ .

٣ الخريدة : ٣٠٢ .

٤ الخريدة : برزن .

٥ الخريدة : فويقه .

وله في ثقیل^١ :

لي جليسٌ عَجِبْتُ كَيْفَ اسْتَطَاعَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ تَقْلُهُ
أَنَا أَرْعَاهُ مُكْرَهًا^٢ وَبِقَلْبِي مِنْهُ مَا يُقْلِقُ الْجِبَالَ أَقْلُهُ
فَهُوَ مِثْلُ الْمَشِيبِ أَكْرَهُ مَرًّا هـ وَلَكِنْ أَصُونُهُ وَأَجْلُهُ

أخذه من قول أبي الحسن جعفر بن الحاج اللورقي^٣ ، وهما في عصر واحد :

لي صاحبٌ عَمِيتَ عَلَيَّ شُؤُونُهُ حَرَكَاتُهُ مَجْهُولَةٌ وَسُكُونُهُ
يَرْتَابُ بِالْأَمْرِ الْجَلِيَّ تَوَهَّمَا فَإِذَا تَيَقَّنَ نَازَعَتْهُ ظَنُونُهُ
لَاتِي لِأَهْوَاهُ عَلَى شَرْقِي بِهِ كَالشَّيْبِ تَكْرَهُهُ وَأَنْتَ تَصُونُهُ

وأوصى^٤ أن يكتب على قبره أبو الصلت المذكور ممّا نظمهُ قبيلَ موته^٥ :

سَكَتَكَ يَا دَارَ الْفَنَاءِ مُصَدِّقًا بَأْتِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ أَصِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنْتِي صَائِرُ إِلَى عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا وَزَادِي قَلِيلُ وَالذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَلَكُ مَجْزِيًّا بِذَنْبِي فَإِنِّي بَشَرٌ عِقَابِ الْمَذْنِبِينَ جَدِيرُ
وَلِنْ يَكُ عَفْوٌ لِمَنْ عَنِّي وَرَحْمَةٌ فَمَنْ نَعِيمٌ دَائِمٌ وَسُرُورُ

وله أيضاً^٦ :

١ الخريدة : ٣١٢ .

٢ الخريدة : مكرهًا .

٣ في الأصول ودوزي : الميورقي ، وهو خطأ ؛ فأعله من بيونات لورقة (المغرب ٢ : ٢٧٧) .

٤ ج : وأمر .

٥ الخريدة : ٣٤٢ وابن خلكان ١ : ٢٢٢ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٤ .

٦ الخريدة : ٢٣٦ وابن خلكان ١ : ٢٢٠ والبيتان يفسبان أيضاً لأبي العرب الصقلي .

إذا كان أصلي من تُراب فكلُّها وكُلُّ العالمين أقاربي
ولا بدَّ لي أن أسأل العيسَ حاجةً تشقُّ على شَمِّ الذِّرا والغواربِ

وقال ١ :

دبَّ العذارُ بجده ثم انشَى عَنْ لَثْمٍ مَبْسَمِهِ الْبِرُّودِ الْأَشْنَبِ
لا غَرَوَ أن خشيَ الردى في لثمه فالريقُ سُمٌّ قاتلٌ للعَقْرَبِ
وقد ذكروا أن من خواصِّ ريق الإنسان أنه يقتل العقرب ، وهو مجرَّب .

وقال ٢ :

لا تَدْعُنِي وَلْتَدْعُ مَنْ شِئْتَهُ إِلَيْكَ مِنْ عُجْنَمٍ وَمِنْ عُرْبِ
فَتَحْنُ أَكْالُونَ لِلْسُّحْتِ فِي ذِرَاكَ سَمَاعُونَ لِلْكَذْبِ

وقال ٣ :

لا تسألني عن صنيع جفونها يومَ الوداعِ وسلْ بذلك مَنْ نجا
لو كُنْتُ أملكُ خدَّها للثْمَةِ حتَّى أُعيدَ به الشقيقُ بِنَفْسِجَا
أو كُنْتُ أجمعُ لاحتضنتُ خيالها وَمَنْعْتُ ضَوْءَ الصَّبحِ أَنْ يَتَبَلَّجَا
وبشَّتُ في الظَّلماءِ كَحُلِّ جَفُونِها وَعَقَدْتُ هَاتِيكَ الذَّوَابِ بِالْدُّجَى

وقال مهنئاً بمولود ٤ :

يَلُوحُ فِي الْمَهْدِ عَلَى وَجْهِهِ تَجْهَمُ الْبَاسُ وَبُشْرَى النَّدى

١ الخريدة : ٢٣٧ .

٢ الخريدة : ٢٣٨ .

٣ الخريدة : ٢٤٧ .

٤ الخريدة : ٢٥٧ .

٥ الخريدة : وبشر .

والشمسُ والبدرُ إذا استجمعا لم يلبثا أن يلبدا فرقدا
فابقَ له حتى ترى نجله وإن عرا خطبُ فنحنُ الفدا
قال ابن سعيد : وهذا البيت الأخير من أثقل الشعر يُتطير من سماعه ،
وتركه أولى .

وقال رحمه الله تعالى في الرصد :

فذا غديرٌ وذا روضٌ وذا جبَلٌ فالضَّبُّ والنُّونُ والملاحُ والحادي

٥٩ - ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول
السَّرقُسطي ، ذكره العماد الأصبهاني في « الحريدة »^١ وذكره السمعاني في
الذيل ، وأنه دخل بغداد في حدود سنة ست عشرة وخمسمائة^٢ .
ومن شعره^٣ :

أيا شَمْسُ إِنِّي إِنَّا أَتَيْتُكَ مَدَائِحِي وَهَنْ لَّالٍ نَظَّمْتُ وَقَلَائِدُ
فَلَسْتُ بِمَنْ يَبْغِي عَلَى الشَّعْرِ رَشْوَةً أَبَى ذَاكَ لِي جَدُّ كَرِيمٌ وَوَالِدُ
وَأَنِّي مِنْ قَوْمٍ قَدِيمًا وَمُحَدَّثًا تَبَاعُ عَلَيْهِمُ بِالْأَلُوفِ الْقَصَائِدُ

٦٠ - ومنهم الفقيه المقرئ أبو عامر التياري^٤ ، من رجال « الذخيرة »
رحل إلى المشرق ، وقرأ على أبي جعفر الديباجي كتابه في العروض وسائر
كتبه ، ولقي شيخ القيروان في العربية ابن القراز وأديبها الحُصْري . وأخبر
عن نفسه أنه كان بين يديه تلميذ له وسيم ، فمرّ به أبو جعفر التَّجاني

١ انظر الحريدة ١/٤ : ٣٩٠ ووصفه بأنه من الفقهاء الفضلاء والشعراء النبلاء ، ولما ورد بغداد
(حدود : ٥١٦) أقام في المدرسة النظامية ، ثم خرج إلى خراسان وسكن بمرور الروذ ، وفي
الحريدة أنه توفي أيضاً في حدود : ٥١٦ .

٢ في إحدى النسخ : ٥١٠ .

٣ الحريدة : ٣٩١ .

٤ في ق ودوزي : « المتباري » وفي ط ج : المتياري ١٧٢ وفي فهرست الذخيرة « البيماري »
وترجمته في القسم الثالث : ١٧٢ ، وما أورده المقرئ مأخوذ عن الذخيرة .

بسحاة كتب له فيها وخلّاها بين يديه ، وهو قد غلب النوم عليه ، فقال :

يا نائماً متعمداً إِبْصارَ طيف حبيبهِ
هوَ جَوْهرٌ فائقُبهُ إِنْ الطيبَ في مثقوبهِ
أو أَرْكَبْنِي ظَهْرَهُ إِنْ لم تَقُلْ بِرُكوبهِ

فلما قرأها علم أنها للتجاني^١ ، فكتب تحتها :

يا طالباً أضْحَى حجا بٌ دُونَ ما مَطْلُوبهِ
لو لم يَكُنْ في ذاك إِذْ مٌ لَمْ أَكُنْ أَسْخُوبهِ
إِنِّي أَغارُ عَلَيْهِ مِنْ أَثوابِهِ ورَقِيهِ

وأنشد يوماً في حلقة لابن الرومي في خبّاز :

إِنْ أَنَسَ لا أَنَسَ خَبّازاً مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرِقاةَ وشكَّ اللَّحْمَ بالبَصَرِ
ما بَيَّنَ رُؤْيَها في كَفِّهِ كَبْرَةً وَبَيَّنَ رُؤْيَها قَوْرًا كالْقَمَرِ
إِلّا بِمَقْدارِ ما تَنَداحُ دائِرَةُ في صَفْحَةِ المائِ يُرْمى فِيهِ بالحِجَرِ

فقال بعض تلامذته : أما إنّه لا يُقدَّر على الزيادة على هذا ، فقال :

فَكَادَ يَضْرُطُّ إِعْجاباً بِرُؤْيَها وَمَنْ رَأى مِثْلَ ما أَبْصَرْتُ مِنْهُ خَرِي
فَضَحِكَ مَنْ حَضَرَ وقال : البَيْتُ لائقٌ بالقِطْعَةِ ، لولا ما فِيهِ مِنْ ذِكرِ
الرَّجِيعِ ، فقال :

إِنْ كانَ بَيْتِي هَذا لَيْسَ يُعْجِبُكُمْ فَعَجِّلُوا مَحْوَهُ أو فَالْعَقْوَهُ طَرِي

٦١ - ومنهم الأديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي^٢ ،

١ في نسخة الذخيرة : الجاني ، ولا ريب في أنه مصحف ، ولعل الصواب : « التجاني » .

٢ ترجمة أبي الحجاج يوسف بن عتبة في المغرب ١ : ٢٥٨ واختصار القدر : ١٦١ .

مطبوع في الشعر والتوشيح ، قال ابن سعيد^١ : اجتمعت به في القاهرة مراراً
بمجلس الأمير جمال الدين أبي الفتح موسى بن يغمور بن جلكدك وفي غيره ،
وتوفّي في مارستان القاهرة . ومن شعره :

أَمَّا الْغُرَابُ فَإِنَّهُ سَبَبُ النَّوَى لَا رَيْبَ فِيهِ وَلِلنَّوَى أَسْبَابُ
يَدْعُو الْغُرَابُ وَبَعْدَ ذَاكَ يَحْيِيهِ جَمْلٌ وَتَعْوِي بَعْدَ ذَاكَ ذِقَابُ
لَا تَكْذِبَنَّ فَهَذِهِ أَسْبَابُهُ لَكِنَّ مِنْهَا بَدَأَةٌ وَجَوَابُ

٦٢ - ومنهم الإمام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف
ابن موسى ، الأندلسي ، المعروف بابن مُسْدِي^٢ ، وهو من الأئمة المشهورين
بالمشرق والمغرب ، قال رحمه الله تعالى : أنشدني رئيس الأندلس وأديبها أبو
الحسن سهّل بن مالك الأزدي^٣ الغرناطي لنفسه سنة ٦٣٧ في سؤال بداره
بغرناطة^٤ :

مُنْغَصُّ الْعَيْشِ لَا يَأْوِي إِلَى دَعَةٍ مَنْ كَانَ ذَا بِلْدٍ أَوْ كَانَ ذَا وَلَدٍ
وَالسَّائِكُنُ النَّفْسِ مَنْ لَمْ تَرْضَ هَمَّتْ سَكْنَى مَكَانٍ وَلَمْ يَسْكُنْ إِلَى أَحَدٍ

٦٣ - ومنهم الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي

١ يقول ابن سعيد في القدح حين يحكي أخبار المترجم به في مصر : وأخبرني صاحبه بمصر أبو
الفضل التيفاشي قال : قدم علينا بالقاهرة الطبيب أبو الحجاج ابن عتية فلم يجد من يقبل عليه إلا
كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور . إلخ . وقال : وكانت وفاته بالقاهرة
سنة ٦٣٦ .

٢ ترجمة ابن مسدي في تذكرة الحفاظ : ١٤٤٨ وقال إنه قتل غيلة بمكة سنة ٦٦٣ ؛ وله معجم
في ٣ مجلدات ، وكان يداخل الزيدية بمكة فولوه خطابة الحرم .

٣ ترجمة سهل بن مالك في برنامج الرعيي : ٥٩ والتكملة رقم : ٢٠٠٧ والذيل والتكملة ٤ : ١٠١
واختصار القدح : ٦٠ ومسالك الأبصار : ١١ : ٤٨٢ وزاد المسافر رقم : ٢٣ والديباج :
١٢٥ والمغرب ٢ : ١٠٥ وبنية الوعاة : ٢٦٤ وسيرد له ذكر في مواضع من النفع .

٤ البيتان في الديباج : ١٢٥ والذيل والتكملة : ١٠٤ .

الحميدي^١ ، نسبة بلده حميد الأندلسي ، ولد أبوه بقُرطبة ، وولد هو بالجزيرة بليدة بالأندلس ، قبل العشرين وأربعمائة ، وكان يحمل على الكتف للسمع سنة ٤٢٥ ، فأول ما سمع من الفقيه أبي القاسم أصبغ . قال : وكنت أفصح من يقرأ عليه ؛ وكان قد لقي ابن أبي زيد وقرأ عليه وتفقه ، وروى عنه رسالته ومختصر المدونة ، ورحل سنة ٤٤٨ ، وقدم مصر وسمع بها من الضرّاب والقضاعي وغير واحد ، وكان سمع بالأندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنفاته وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته وصار على مذهبه إلا أنه لم يكن يتظاهر به ، وسمع بدمشق وغيرها ، وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنفاته ، وسمع بمكة من الرنجاني ، وأقام بواسط مدة بعد خروجه من بغداد ، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيراً من الحديث والأدب وسائر الفنون ، وصنّف مصنفات كثيرة ، وعلق فوائد ، وخرّج تخاريج للخطيب ولغيره ، وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنفاته وابن ماكولا ، وكان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته ، حتى قال بعض الأكابر ممّن لقي الأئمة : لم ترَ عيناى مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثّه في أهله ، وكان ورعاً ثقة إماماً في علم الحديث وعلمه ومعرفة متونه ورؤاه ، محققاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، متبحّراً في علم الأدب والعربية ، ومن تصانيفه كتاب « جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس » وكتاب « تاريخ الإسلام » وكتاب « من ادعى الأمان من أهل الإيمان » وكتاب « الذهب المسبوك في وعظ الملوك » وكتاب « تسهيل السبيل إلى علم الترسيل » وكتاب « مخاطبات الأصدقاء في

١ ترجمة الحميدي في الصلة : ٥٣٠ وتذكرة الحفاظ : ١٢١٨ وشذرات الذهب ٣ : ٣٩٢ وبغية الملتبس رقم : ٢٥٧ ووفيات الأعيان ٣ : ٤١٠ ومواطن من فهرسة ابن خير .

المكاتبات واللقاء» وكتاب «ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار» وكتاب «النميمة» وكتاب «الأمانى الصادقة» وغير ذلك من المصنفات والأشعار الحسان في المواعظ والأمثال . وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحرّ ويجلس في إجانة ماء يتبرد به ، ومن مشهور مصنفاته كتاب «الجمع بين الصحيحين» .

وذكره الحِجاري في المُسْتَهَب وقال عنه : إنّه طرق ميُورقة بعدما كانت عطلاً^١ من هذا الشأن ، وترك لها فخراً تباري به خواص البلدان ، وهو من علماء أئمة الحديث ، ولازم أبا محمد ابن حزم في الأندلس واستفاد منه ، ورحل إلى بغداد ، وبها ألف كتاب «الجدوة» ، ومن شعره قوله رضي الله تعالى عنه :

أَلِفْتُ النَّوَى حَتَّى أُنْسْتُ بِوَحْشِهَا وَصَرْتُ بِهَا لَا فِي الصَّبَابَةِ مُوَلَعَا
فَلَمْ أَحْصِ كَمْ رَافِقُهُ مِنْ مُرَافِقٍ وَلَمْ أَحْصِ كَمْ خِيَمَتُ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَا
وَمِنْ بَعْدِ جَوْبِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَلَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أُوَافِيَ مَصْرَعَا

وقال رحمه الله تعالى^٢ :

لِقَاءِ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئًا سِوَى الْهَذْيَانِ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ
فَأَقْلِيلُ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا لِأَخْذِ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ حَالِ

وذكره ابن بَشْكُوَال في «الصَّلَة» ، وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

قال ابن ماكولا : أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي ، وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ ، لم أر مثله في عِفَّتِهِ ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم ، وكان أوصى مظفراً ابن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافي ، فخالف وصيته

١ في التجارية : أنه أظهر العلم في طرق ميورقة بعدما كانت عطلاء .

٢ البيتان في وفيات الأعيان .

ودفنه في مقبرة باب أبرز^١ ، فلما كانت مدّة رآه مظفر في النوم كأنّه يعاتبه على مخالفته ، فنُقل في صفر سنة ٤٩١ إلى مقبرة باب حرب ، ودفن عند قبر بشر ، وكان كفنه جديداً وبدنه طرياً تفوح منه رائحة الطيب ، ووقف كتبه على أهل العلم ، رحمه الله تعالى .

ومن مناقبه أنّه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ : تعديت بعين إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت ، انتهى .
ومن شعر الحميدي أيضاً قوله :

طريق الزُّهْدُ أَفْضَلُ ما طريقِ وتقوى الله تاليسَةُ الحقّوقِ
فثِقْ بالله يكفِكَ ، واستعِنه يُعِنيكَ ، ودَعْ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ
وقوله :

كلامُ الله عزَّ وجلَّ قَوْلِي وما صحَّت بهِ الآثارُ ديني
وما اتفق الجميعُ عليه بدءاً وعوداً فهو عن حقٍّ مُبين
فدَعْ ما صدَّ عن هذي وخذها تكن منها على عَيْنِ اليقين

٦٤ - ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشي^٢ ، وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن ، القيسي ، من أهل شَرِيشَ . روى عن أبي الحسن ابن لبّال وأبي بكر ابن أزهر وأبي عبد الله ابن زَرْقُون وأبي الحسين ابن جبير وغيرهم ، وأقرأ العربية ، وله تواليف أفاد بما حشر فيها : منها « شرح الإيضاح » للفارسي ، و « الحمل » للزجاج ، وله في العروض تواليف ، وجمع مشاهير قصائد العرب ، واختصر « نوادر » أبي علي القالي .

١ ق : باب البرر ؛ ط : باب البر ؛ ج : باب البزر .

٢ ترجمة الشريشي في التكملة : ١١١ والمنهل الصافي ١ : ٣٥٤ وبنية الوعاة : ١٤٣ وبرناج الرعي : ٩٠ والوافي بالوفيات ٧ الورقة : ٧٧ .

قال ابن الأبار : لقيته بدار شيخنا أبي الحسن ابن حريق من بلنسية ، قبل توجهي إلى إشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة ، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه ، وأجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه ، وأخذ عنه أصحابنا ، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية ، انتهى .
ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ فإن قلبي بنار الشوق يستعُرُ
بَعُدْتُ عنكم فلا والله بَعْدَكُمْ ما لَدَّ للعَيْنِ لا نومٌ ولا سهر
إذا تَذَكَّرْتُ أوقاناً نأتُ ومضتُ بِقِرْبِكُمْ كادتِ الأحشاءُ تنفطرُ
كَأَنِّي لم أَكُنْ بالنيربَينِ ضحَى والغيمُ يبكي ومنه يضحك الزهر
والورقُ تُنشدُ ، والأغصانُ راقصةُ والدوحُ يطربُ بالتصفيق والنهر
والسفعُ أين عَشِيَّاتي التي سلفتُ لي منه فهي لعمرى عندي العمر
سقاك يا سفعُ سفعُ الدَّمعِ مُنْهَملاً وقلْ ذاك له إن أعوزَ المطرُ

وله رحمه الله تعالى شروح لمقامات الحريري : كبير ، ووسط ، وصغير ،
وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له ^١ ، وكان رحمه الله تعالى مُعْجَباً بالشام .
وقال ابن الأبار عندما ذكره : إنَّه شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ :
كبرها الأدبية ، ووسطها اللغوية ، وصغرها المختصرة ، انتهى .
وتوفي يشرِيشَ بلده سنة تسع عشرة وستمائة ، رحمه الله تعالى .

٦٥ - ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد ، الأزدي ،
القرطبي ، الملقَّب بضياء الدين ^٢ ، أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم
القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك .

١ الشرح الكبير هو المطبوع من شروح المقامات .
٢ ترجمته في وفيات الأعيان ٥ : ٢١٩ وغاية النهاية ٢ : ٣٧٢ .

قال القاضي الشمس ابن خلّكان : إنّه رحل من الأندلس في عُنْفُوَان
شبابه وقدم مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي ،
وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن
محمد الأصبهاني المعروف بالسَّلَفِي وغيرهم ، ودخل بغداد سنة ٥١٧^١ ،
وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرئ المعروف بابن
بنت الشيخ أبي منصور الخياط ، وسمع عليه كتباً كثيرة منها كتاب سيويه ،
وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان
وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز وغيرهم ، وكان ديناً ورعاً عليه وقار وسكينة ،
وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيداً ، أقام بدمشق مدة ،
واستوطن الموصل ، ورحل منها إلى أصبهان ، ثم عاد إلى الموصل ، وأخذ عنه
شيوخ ذلك العصر . وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل ، وقال :
إنّه اجتمع به بدمشق ، وسمع عنه مشيخة أبي عبد الله الرازي ، وانتخب عليه
أجزاء ، وسأله عن مولده فقال : ولدت سنة ٤٨٦ في مدينة قرطبة ، ورأيت
في بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧ ، والأول أصح ، وكان شيخنا القاضي
بهاء الدين أبو المحاسن^٢ يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب
رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه ، وقال : كنّا نقرأ عليه بالموصل ،
ونأخذ عنه ، وكنّا نرى رجلاً يأتي إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ، ثم يمد
يده إلى الشيخ بشيء ملفوف ، فيأخذه الشيخ من يده ، ولا نعلم ما هو ، ويتركه
ذلك الرجل ويذهب ، ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنّها دجاجة مسمومة كانت تُرسم
للشيخ في كل يوم ، يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها ، وإذا دخل
الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده .

١ ابن خلّكان : سبع وعشرين وخمسمائة .

٢ أبو المحاسن : لم ترد في ق ط ج .

وذكر في كتاب^١ « دلائل الأحكام » أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة ، آخرها سنة ٥٦٧ .

وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيراً ما ينشد مسنداً إلى أبي الخير الكاتب الواسطي :

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ فسيَّانِ التَّحَرُّكُ وَالسَّكُونُ
جُنُونُ مَنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ وَيُرْزَقُ فِي غَشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

وتوفي القرطبي المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧ ، رحمه الله تعالى . انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار .

٦٦ - ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ، ابن الشيخ الأجلّ أبي الحسن ابن عبد ربه^٢ ، وهو من حفدء صاحب كتاب « العقد » المشهور . حدث الشيخ الأجلّ أبو عبد الله محمد بن علي اليحصبي القَرْمُونِي رقيقه قال : اصطحبت معه في المركب من المغرب إلى الإسكندرية ، فلما قربنا منها هاج علينا البحر ، وأشفينا على الفرق ، فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الإسكندرية ، فسررنا برؤيته ، وطمعنا في السلامة ، فقال لي : لا بد أن أعمل في المنار شيئاً ، فقلت له : أعلى مثل هذه الحال التي نحن فيها ؟ فقال : نعم ، فقلت : فاصنع ، فأطرق ثم عمل بديهاً :

لله دَرٌّ مَنَارِ اسْكَندريَّةَ كم
من شامخِ الأثْنِ في عِرْنينه شَمَمٌ
يَكْسَرُ الموجُ منه جانبي رجلٍ
لا يبرحُ الدهرَ من وردٍ على سَفْنٍ
يَسْمُو إليه على بُعدٍ من الحدَقِ
كأنّه باهتٌ في دارةِ الأفقِ
مُسَمَّرِ الذيلِ لا يخشى من الفرقِ
ما بينَ مصطبحٍ منها ومغتبِقِ

١ ابن خلكان : في كتابه الذي ساء .

٢ انظر الترجمة رقم : ٥٣ فيما سبق .

للمنشآت الجوارى عند رؤيته كموقع النوم من أجفان ذي أرقٍ
وتقدمت ترجمة الكاتب أبي عبد الله ابن عبد ربه ، وأظنّه هذا ، فليُنبّه
له ، بل أعتقد أنّه هو لا غيره ، والله تعالى أعلم .

٦٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن الصفار ، القرطبي ^١ . قال في القدح
المعلّى : بيتهم ^٢ مشهور بقربة ، لم يزل يتوارث في العلم والجاه وعلو المرتبة ،
ونشأ أبو عبد الله هذا حافظاً للآداب ^٣ ، إماماً في علم الحساب ، مع أنّه كان
أعمى مقعداً مشوّء الحلقة ، ولكنّه إذا نطق علم كلّ منصف حقّه ، ومن
عجائبه أنّه سافر على تلك الحالة ، حتى غدت بغداد له هالة . اجتمعت به ^٤ بحضرة
تونس فرأيت بجرّاً زاحراً ، وروضاً ناضراً ، إلا أنّه حاطبٌ ليلٍ ، وساحبٌ
ذيل ، لا يبالي ما أورده ، ولا يلتفت إلى ما أنشده ، جامعاً بين السمين والغث ،
حافظاً للمتين والرث ، وكان يُقرىء الأدب بمراكش وفاس وتونس وغيرها .
ومن مشهور حكاياته أنّه لما قال أبو زيد الفازاري في أبي العلاء المستنصر
قصيدته التي مطلعها :

الحزمُ والعزمُ منسوبان للعربِ

عارضه بقصيدة ^٥ ، ثم قال فيه وفي ابن أخيه يحيى بن الناصر الذي نازعه
في ذلك الأوان [رداء السلطان] ^٦ :

١ انظر القدح المعلّى : ٢٠٣ والمغرب ١ : ١١٧ .

٢ القدح : بيته .

٣ القدح : لفنون الآداب .

٤ زاد في القدح : غير ما مرة .

٥ زاد في القدح : ذم فيها أنصاره .

٦ زيادة من القدح .

وإن يُنازعكَ في المنصور ذو نسب فنجلُ نوحٍ ثوى في قمّة العطبِ
وإن يقلّ أنا عمٌّ فالجوابُ له عمُّ النبيِّ بِلَا شكٍّ أبو لهبِ

وشاعت القصيدة فبلغت أبا العلاء ، فحرض على قتله ، وسلّمه الله تعالى منه ،
ومات سنة ٦٣٩ .

ومن شعره قوله ٢ :

لا تحسبِ الناسَ سَوَاءً متى تشابهوا فالناسُ أطوارُ
وانظرْ إلى الأحجارِ ، في بعضها ماءٌ ، وبعضٌ ضمنها نارُ

وقوله :

يا طالعاً في جُفوني وغائباً في ضلوعي
بالغت في السُّخْطِ ظلماً وما رحمت خضوعي
إذا نويّت انقطاعاً فاحسب حساب الرجوع

انتهى باختصار يسير .

٦٨ - ومنهم أبو الوليد ابن الجنتان محمد بن المشرف أبي عمرو ابن
الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء ابن الجنتان الكناي الشاطبي ٣ . قال
ابن سعيد : توارثوا بشاطبة ، مراتب تحسّدُها النجوم الثاقبة ، وأبو الوليد
أشعرهم ، وقد تجدّد به في أقطار المشرق ، مفخرهم ، وهو معروف هناك
بفخر الدين ، ومتصدر في أئمة النحويين ، ومرتب في شعراء الملك الناصر
صاحب الشام ، ومقطّعاته الغرامية قلائد أهل الغرام ، صحبته بمصر ودمشق

١ في الأصول : قسمة ، والتصويب عن المغرب .

٢ هذا الشعر والذي يليه وردا في المغرب والقدح ؛ وقد سقطا من نسخة ق .

٣ ترجمته في القدح : ٢٠٦ والمغرب ٢ : ٣٨٣ وبنية الوعاة : ٤٥ والفوات ٢ : ٣٢١ .

٤ القدح : شرق الأندلس .

وحلب ، وجريتُ معه طلق الجموح في ميادين الأدب ، وأنشدني بدمشق ^١ :

أنا من سُكْرِ هواهمُ ثَمِلُ لا أبالي هَجَرُوا أم وَصَلُوا
فَبِشْعَرِي وَحْدِي فِيهِمْ زَمَزَمَ الحادي وسار المثلُ
إِنَّ عُشاقَ الحمى تعرفني والحمى يعرفني والطللُ
رَحَلُوا عن رَنعِ عيني فلذا أدْمُعي عن مَقْلتي ترتحلُ
ما لها قد فارقتْ أوطانها وهي ليست لحماهم تصلُ
لا تَظُنُّوا أنِّي أسلو فما مذهبي عن حُبِّكم ينتقلُ

وقوله رحمه الله تعالى ^٢ :

بالله يا بانةَ الوادي إذا خَطَرَتْ
فعانِقِيها عن الصَّبِّ الكئيبِ فما
وعَرَّفِيها بأنِّي فيكِ مَكْتَبُ
وأنتُمْ جيرةَ الجرعاءِ من لَضَمِ
وأنتُمْ أنتمُ في كلِّ آوَةِ
ويا نَسِيماً سَرَى تَحْدُو رِكاثَهُ
وله ^٣ :

يا رَعَى الله أنْسنا بين رَوْضِ
تحسَبُ الزهرِ عنده يتشَى
حيثُ ماءُ السرورِ فيه يحولُ
وتخالُ الغُصُونُ فيه تَمِيلُ

وله ^٤ :

١ الأبيات في القدح الملى .

٢ القدح : ٢٠٧ .

٣ قالهما في بستان على نهر ثورا أحد أنهار دمشق ، انظر القدح : ٢٠٨ والفوات : ٢٢٤ .

٤ القدح : ٢٠٨ .

هات المدامَ فقد ناح الحمامُ على
وأعينُ الزهرِ من طولِ البُكا رمدتْ
والكأسُ حلتها حمراء مُذهبةٌ
كم قلتُ للأفقِ لما أن بدا صلَفاً
إن تِهتَ بالشمسِ يا أفقَ السماءِ فلي
قُم اسقنيها وثغرُ الصبحِ مبتسمٌ
والسُحبُ قد لبستْ سودَ الثيابِ وقد
وله ١ :

عَلَيْكَ مِنْ ذَاكَ الْحَمَى يَا رَسُولَ
بشرى علاماتِ الرضى والقبولِ
جئتَ وفي عِطْفَيْكَ مِنْهُمْ شَدًّا
يسكرُ من خمرِ هواه العذولُ

ومنها :

أحبابنا ودّعْنا ناظِري
حلّمتُ قلبي وَهُوَ الَّذِي
وأنتمُ بينَ ضلوعي نُزُولُ
أنا الذي حدّثَ عني الهوى
يقولُ في دينِ الهوى بالحلُولُ
فليزدِ العاذلُ في عَذْلِهِ
بأنّني عن حبّكم لا أحولُ
وليقلِ الواشي لكم ما يقولُ

انتهى كلام النور بن سعيد .

وقال غيره : ولد المذكور بشاطِبةَ منتصفِ شوال سنة ٦١٥ ، ومات
بدمشق ودفن بسفح قاسيون ، وكان عالماً فاضلاً ، دمث الأخلاق كريم الشمائل ،
كثير الاحتمال واسع الصدر ، صحب الشيخ كمال الدين بن العديم وولده قاضي

القضاة مجد الدين ، فاجتذبه إليهم ، وصار حنفي المذهب ، ودرس بالمدرسة الإقبالية الحنفيّة بدمشق ، وله مشاركة في علوم كثيرة ، وله يد في النظم ، ومنه قوله :

لله قومٌ يعشقون ذوي اللحى « لا يسألونَ عن السوادِ المقبلِ »
وبمُهجتي قومٌ وإنّي منهمُ « جُبِلوا على حبِّ الطرازِ الأولِ »

وله أيضاً :

قُم اسقنيها وليلُ الهمّ منهزمٌ والصبحُ أعلامهُ محمّرةُ العذَبِ
والسُحبُ قد نثرت في الأرض لؤلؤها تضمّه الشمسُ في ثوبٍ من الذهبِ

وقد تقدم عن ابن سعيد له ما يقارب هذا ^١ .

وله — رحمه الله تعالى — في كاتب :

وبي كاتبٌ أضمرتُ في القلبِ حُبّه مخافةَ حُسّادي عليهِ وعُذّالي
له صنعةٌ في خطِّ لامٍ عذاره ولكن سها إذ نقطَ اللام بالخال

٦٩ — ومنهم أبو محمد القرطبي ^٢ ، قال ابن سعيد : لقّيته بالقاهرة ، وكأنّه لا خبر عنده من الآخرة ، وقد طال عمره في أكلِ الأغراض ، وفسادِ الأغراض ، وممّا بقي في أذني من شعره قوله :

رَحِمَ اللهَ من لقيتُ قديماً فلَقَدْتُ كانَ بي رؤوفاً رحيماً
أتمنى لقاءَ حرٍّ وقدْ أعْ وزَبحني كما عدمتُ ^٣ الكريماً

١ انظر البيتين الأخيرين في البائية ص : ١٢٢ .

٢ ترجمته في القلح : ٢١٢ واسمه فيه « أبو المعاهد » وقال إنه كان يلقب بأبي بغل ولقب أيضاً بحجر بلبس لأنه أقام فيها زمناً يكره كل من جاء من الشام أو من سافر إليها .

٣ ق ط ج : علمت .

وتوفي بالقاهرة سنة ٦٤٣ ، انتهى .

٧٠ - ومنهم علي بن أحمد ، القادسي ، الكناني ^١ ، قال ابن سعيد :
لقيته بيت المقدس على زي الفقراء ، وحصلت منه هذه الأبيات ، وندمت بعد
ذلك على ما فات ، وهي :

ذاك العذارُ المطلُّ دمي عليه يُطلُّ
كأنّما الخدُّ ماءٌ وقد جرى فيه ظلُّ
عُقودُ صبري عليه مذ حلَّ قلبي تحلُّ
جرتُ دموعي عليه فقلتُ آسُ وطلُّ

٧١ - ومنهم أبو عبد الله ابن العطار ، القرطبي ^٢ ، قال ابن سعيد : هو
حلو المنازع ، ظريف المقاطع والمطالع ، مطبوع النوادر ، موصوف بالأديب
الشاعر ، مازجته بالإسكندرية ، وبهذه الحضرة العلية ، وما زال يدين بالانفراد ،
والنحول في البلاد ، حتى قضى مُنَاه ، وألقى بهذه المدينة عَصَاه ، لا يخطر
الهمُّ له ببال ، ولا يبيت إلاّ على وعد من وصال ، وله حين سمع ما ارتجلته
في السكين بالإسكندرية حين داعبني باختلاسها القاضي زين القضاة ابن الرّيعي ،
وقال : ما لي إليه سبيل ، حتى يحضر مصري نبيل :

أيا سارقاً ملكاً مصوناً ولم يَجِبْ على يده قطعٌ وفيه نِصابُ
ستندُبه الأقلامُ عند عثارها ويبيكه إن يَعُدُّ الصوابُ كتابُ
فقال :

١ ترجمته في القلح : ٢١٣ وقال ابن سعيد : وكان اجتماعي به سنة ثلاث وأربعين (وستمائة) ولم
أسع له خبراً منذ ذلك الحين .
٢ ترجمته في القلح : ٢١٥ .

أحاجيك ما شيء إذا ما سرقته وفيه نصاب ليس يلزمك القطع
على أن فيه القطع والحد ثابت ولا حد فيه ، هكذا حكم الشرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه « القدر المعلى » فيما أظن .

* * *

[رسالة للسان الدين]

ويعني والله سبحانه وتعالى أعلم بقوله « وبهذه الحضرة العلية » حضرة
تونس المحروسة^١ ، فإنها كانت محط رحال الأفاضل ، من الأواخر والأوائل ،
حتى إن قاضي القضاة ابن خلدون أقام بها مدة ، ومنها ارتحل إلى مصر ، وكذلك
الخطيب الجليل سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق رحمه الله تعالى ، ومنها خاطب
الوزير لسان الدين بن الخطيب وسلطانه في الشفاعة له عند سلطان المغرب ، فكتب
لسان الدين عن سلطانه في ذلك ما نصّه : المقام الذي تؤكد إليه ببر سلفه الوداد ،
ونغري بتخليد فخره وأمره القلّم والمداد ، ونصل به الاستظهار على عدو
الله تعالى والاعتداد ، ونخطب له من الله بهزّ أعطافه للخير والتوفيق والسداد ،
والإعانة منه والإمداد ، مقام محلّ أخينا الذي اشتهر فضله ودينه ، ووضع
سعدته متألّقةً براهينه ، وحيّاه الصنع الجميل وبنيّاه مشرقاً جيّنه ، السلطان
الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله يرعى الدّم ، ويسلك
من الفضائل المنهج الأمّم ، ويغلي البضائع النافقة عند الله تعالى ويعليّ الهمم ،
معظم قدره ، وملتزم بره ، الحريص على توفير أجره وتخليد فخره ، فلان .
أمّا بعد حمد الله تعالى ناصر الإمرة المطاعة ، المحافظة على السنّة والجماعة ،

١ هذا واضح من أن ابن سعيد ألف القدر ليعلم به أبا زكريا ابن الإمام المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس .

وحافظها من الإضاعة ، إلى قيام الساعة ، الذي جعل المودة فيه أنفع الوسائل
 النفاة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المخصوص بمقام
 الشفاعة على العموم والإشاعة ، متمم مكارم الأخلاق من الفضل والبذل والحياء
 والشجاعة ، والرضى عن آل وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة ،
 وزرعوا الخير في العاجلة ففازوا في الآجلة بفائدة تلك الزراعة ، والدعاء لمقامكم
 الأعلى بصنع يرؤى فيه عن الأشمط الباتر خبر النصر المتواتر لسان البراعة ، وتأيد
 لا ترضى فيه القنا بمقام القناعة ، فإننا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لثنائكم
 العاطر بتخليد المفاخر منشور الإذاعة ، في أيدي النواسم الضواعة ، من حمراء
 غرناطة - حرسها الله تعالى - عن خير هامي السحاب ، وبشر مفتحة الأبواب ،
 وعز للإسلام - ببركة الاعتداد بملككم المنصور الأعلام - مقتبل الشباب ،
 ويمن ضافي الجلباب ، والحمد لله على تضافر الأيدي في ذاته وتوفر الأسباب ،
 وجانبكم الرفيع الأمل للمنتاب ، إذا حدثت الحداة ذوات الأفتاب ، ومطمح
 الوسائل المطرزة المسائل بتصحيح الود اللباب ، وإلى هذا وصل الله تعالى ،
 سوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب ، وجعل ما عجل لكم من نعمه كفيلاً
 بالزلفى وحسن المآب ، وألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولاً وعملاً فالشكر
 مستدعي المزيد كما وعد في الكتاب ، فإن من المنقول الذي اشتهر ، وراق
 فضله وبهر ، قوله « اشفعوا تؤجروا » وما في معناه من المعتبر في الخبر ، وتنفيس
 كربة عن مسلم ، وسماع شكوى من متظلم ، ولولا أن مقامكم السني أغنى ،
 بلحبنا الكثير من هذا المعنى ، ولما تحقق ما أنتم عليه من سلوك سبيل والدكم الملك
 الصالح - قدس الله تربته ، وضاعف قربته - من يمن الظفر ، وسلوك سبيل
 الخير وإقامة رسوم الدين ، والاهتداء من هديته بالنور المبين ، خف علينا
 أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات ، ونتجر لكم مع الله بأنفس البضاعات ،
 فما أثمر من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حقيقة وشكرناكم عليه شريعة ، وما
 تأخر أوسعناكم فيه عذراً يسد ذريعة ، وعلمنا أن الله تعالى لم يأذن في تعجيله ،

وسألناه في تيسيره وتسهيله ، سواء لدينا في ذلك ما عاد ، بإعانة عامة وإمداد ، وساهم في قصد جهاد ، وما لم يَعُدْ علينا خصوصاً وعلى المسلمين عموماً بإعانة ولا إرفاد ، إنَّما علينا أن نجلب الخير الباقي والأجر الراقي إلى بابكم ، ونندلَّ عليه كريم جنابكم ، بمقتضى وداد ، صُبَّحه باد ، وجميل ظن في دينكم المتين واعتقاد ، سَلِّم مجمله ومفصله من انتقاد ، وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحـد سـلالة الصالحين ، وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين ، ويا لها من مزية دنيا ودين ، أبا عبد الله ابن مرزوق جَبَرَ الله تعالى على يدكم البرة حاله ، وسَنَّى من مقامكم السنِّي آماله ، جرى عليه من المحن ، وتباريح الإحـن ، ما يعلم كلُّ ذي مروءة وعقل ، واجتهاد ونقل^٢ ، أن ذلك من الجنـايات على والدكم السلطان محسوب ، وإلى مَعَقَّاته منسوب ، ولو كانت ذنوبه رَضَوَى وثَبِيرًا ، لاستدعت إلى تعمدها عفوًّا كبيرًا ، رَعِيًّا لذلك الإمام الصالح الذي كَبَّرَ خلفه وأحرم ، وتشهد وسلَّم ، وأمن عقب دعائه ، ونَصَّبَ كَفَّه لمواهب الله تعالى وآلائه ، وأنصت لخطبته ووعظه ، وأوجب المزية لسعة حفظه وعذوبة لفظه ، فأحبط ذلك من أحبط الأعمال الصالحة ، وعَطَّلَ المتاجر الراجحة ، وأسَفَ الملك المذكورُ بدم ولده ، وإحراق خزائنه وعدده ، وتغيير رسومه وحُدُوده ، وإسـخاطه وإسـخاط الله معبوده ، إلى أن طهَّر سيفكم المُلْك من عاره ، وأخذ منه بثاره ، وتقرَّب إلى الله وإلى السلف الكريم بمحو آثاره ، والحمد لله على ما خَصَّه من إثـاره ، وتدارك الإسلام بإقالة عثاره ، وإنَّه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرِّر من حاله ما يَفُتُّ الفؤاد ، ويوجب الامتعاض له والاجتهاد ، يطلب منَّا الإعانة بين يديكم والإنجاد ، ويشكو العيلة والأولاد ، والغربة التي أحلَّته الأقطار النازحة والبلاد ، والحوادث التي سلبته الطارف

١ ق ط ج : ونتائج .

٢ ق ج : وفضل .

والتلاد ، وأن نذكركم بوسيلته ، وضعف حيلته ، فبادرنا لذلك عملاً بالواجب ، وسلوكاً من بره ورعي حقّه على السّنن اللّاحب ، وإن كنّا نطوّقه في أمرنا عند الحادثة علينا تقصيراً ، ولا نشكر إلاّ الله وليّاً ونصيراً ، فحقّه علينا أوجب ، فهو الذي لا يُجحد ولا يُحجب ، ولا يلبس منه المذهب ، وكيف لا يشفع فيمن جعله السلف إلى الله تعالى شفيعاً ، وأحلّه محلاً متيناً رفيعاً ، إلى وليّه الذي جبر ملكه سريعاً ، وصير جنبه بعد المحول مريعاً ، وجدّد رسومه تأصيلاً لها وتفريعاً ، ومثلكم من اغتم برّه في نصر مظلوم ، وسبر مكلوم ، وإعداء كرم على لوم ، وهي منّا ذكرى تنفع ، وحرص على أجر من يشفع ، وإسعاف لمن سأل ما يُعلي من قدركم ويرفع ، وتأدية لحق سلفكم الذي توفّرت حقوقه ، وإبلاغ نصيحة دينيّة إلى مجدكم الذي لا يمنعه عن المجد مانع ولا يعوقه ، ومطلبه في جنب مُلككم الكبير حقير ، وهو إلى ما يفتح الله تعالى به على يد صدقتكم فقير ، ومنهلكم الأروى ، وباعُكم في الخير أطول وساعدكم أقوى ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة : ١٩٧) والله عزّ وجلّ ، يسلك بكم المسالك التي تخلد بالجميل ذكركم ، وتعظم عند الله أجركم ، فما عند الله خير للأبرار ، والدنيا دار الغرور والآخرة دار القرار ، وهو سبحانه يَصِلُ سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني ، وكان ابن مرزوق غالباً على دولة السلطان أبي سالم أخي أبي فارس المذكور ، فقتله الوزير عمر بن عبد الله الفودودي ، وتغلّب على الملك ، ونصب أخاً لأبي سالم معتوهاً ، وسجن ابن مرزوق ، ورام قتله ، فخلّصه الله تعالى منه ، ثم إن السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلّب وقتله ، واستقل بالملك ، فخطب في شأن ابن مرزوق بما ذكر .

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الأندلسيين إلى البلاد
المشرقية المحروسة بالله سبحانه وتعالى ، فنقول :

٧٢ - ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر ،
الأزدي ، القرطبي ، المعروف بابن الفرّضي ، الحافظ المشهور^١ ، كان فقيهاً
علماً^٢ عارفاً بعلم الحديث ورجاله ، بارعاً في الأدب وغيره ، وله من التصانيف
« تاريخ علماء الأندلس » ، وقفت عليه بالمغرب ، وهو بديع في بابه وهو الذي
ذيل عليه ابن بشكّوَال بكتاب « الصلة » ، وله كتاب حسن في « المؤتلف
والمختلف » وفي « مشته النسبة » ، وكتاب في « أخبار شعراء الأندلس » ، وغير
ذلك ، ورحل من الأندلس إلى المشرق سنة ٣٨٢ ، فحجّ وسمع من العلماء
وأخذ منهم وكتب من أماليهم ، وروى عن شيوخ عدّة من أهل المشرق .
ومن شعره :

أسيرُ الخطايا عندَ بابكَ واقفُ	على وجَلٍ ممّا به أنْتَ عارفُ
يخافُ ذنباً لم يغِبْ عنكَ غيبُها	ويرجوكَ فيها فهو راجٍ وخائفُ
ومن ذا الذي يُرجى سواكَ ويَتَقى	وما لكَ في فصلِ القضاءِ مُخالفُ
فيا سيّدي لا تُخزني في صحيفتي	إذا نُشرتَ يومَ الحسابِ الصّحائفُ
وكنْ مؤنسي في ظلمة القبر عندما	يصدُّ ذوو القربى ويجفو المؤلفُ
لئن ضاق عني عَفْوُكَ الواسع الذي	أرجي لإسرافي فإنّي لتألفُ

وكان — رحمه الله تعالى — حسنَ الشعر والبلاغة . ومن شعره أيضاً ،

١ انظر ترجمة الحافظ ابن الفرّضي في الجذوة : ٢٣٧ (وبنية الملتبس رقم : ٨٨٨) والصلة :
٢٤٦ والمطمح : ٥٧ والذخيرة ٢/١ : ١٣٠ والمغرب ١ : ١٠٣ والمغرب : ١٣٢ ووفيات
الأعيان ٢ : ٢٩٠ وتذكرة الحفاظ : ١٠٧٦ والديباج المذهب : ١٤٣ وشذرات الذهب : ٣ :
١٦٨ .

٢ هذا النص حتى بداية النقل عن « المطمح » متابع لما أورده ابن خلكان مع شيء من التصرف .

رحمه الله تعالى :

إن الذي أَصْبَحْتُ طَوَّعَ يَمِينِهِ إن لم يكن قَمَرًا فليس بدُونِهِ
ذُلِّي له في الحبِّ من سُلْطَانِهِ وَسَقَامُ جِسْمِي من سَقَامِ جَفُونِهِ

وله شعر كثير . ومولده في ذي القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١ ، وتولى القضاء بمدينة بِلَنَسِيَّة في دولة محمد المهدي المرواني ، وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣ ، وبقي في داره ثلاثة أيام ، ودفن متغيراً من غير غسل ولا كفن ولا صلاة ، رحمه الله تعالى . وروي عنه أنه قال : تعلقت بأستار الكعبة ، وسألت الله تعالى الشهادة ، ثم انخرفت وفكرت في هَوْلِ القتل ، فندمت وهممت أن أرجع فأستقبل الله سبحانه وتعالى فاستحييت . وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف : « لا يُكَلِّمُ أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله ، إلاَّ جاء يوم القيامة وجرحه يَشْعَبُ دماً اللونُ لونُ الدم والريح ريح المسك » كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك ، قال : ثم قَضَى على أثر ذلك . وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه .

وقد ساق في المطمح حكايته فقال : كان حافظاً عالماً كلفاً بالرواية ، رحل في طلبها ، وتبحر في المعارف بسببها ، مع حظ من الأدب كثير ، واختصاص بنظم منه ونثر ، حجَّ وبرع ، في الزهادة والورع ، فتعلق بأستار الكعبة يسأل الله الشهادة ثم فكَّر في القتل ومرارته ، والسيف وحرارته ، فأراد أن يرجع ويستقبل الله تعالى فاستحيا ، وآثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا ، فأصيب في تلك الفتن مكلوماً ، وقُتِل مظلوماً ، ثم ذكر مثل ما مرَّ . وممَّا قال في طريقه ، يشوق إلى فَرِيْقِهِ ١ :

١ الشعر في المطمح والجدوة والمغرب .

مَصَّتْ لي شهورٌ منذ غبتم ثلاثة^١ وما خِلْتُني أبقى إذا غبتم شهرًا
وما لي حياةٌ بعدكم أَسْتَلِدُّها ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرًّا
ولم يُسَلِّني طولُ التناهي عليكم^٢ بلى زادني وجدًّا وجدًّا لي ذكرى
يمثلكم لي طولُ شوقي إليكم^٣ ويدنيكم حتى أناجيكم سرًّا
سأستعَبُ الدهرَ المفرِّقَ بيننا وهل نافعي أن صرتُ أَسْتَعَبُ الدهرَ
أَعْلَلُ نفسي بالمتى في لقاءكم^٤ وأُسْتَسْهَلُ البرَّ الذي جُبْتُ والبحرَ
ويؤنِّسني طيُّ المراحلِ عنكم^٥ أرواحُ على أرضٍ وأغدو على أخرى
وتالله ما فارقتمكم عن قلبي لكم ولكنها الأقدارُ تجري كما تُجرى
رعتكم من الرحمن عينٌ بصيرة^٦ ولا كشفتُ أيدي النوى عنكم سرًّا

وقد عرَّف به ابن حيان في المقتبس ، وذكر قصّة شهادته ، رحمه الله تعالى .

٧٣ - ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، البكري ،
الشريشي ، المالكي^١ ، ولد بشريش سنة ٦٠١ ، ورحل إلى العراق ، فسمع
به المشايخ كالقطيعي وابن رَوَزْبَةِ^٢ وابن الكثير وغيرهم ، واشتغل وساد أهل
زمانه ، واشتهر بين أقرانه ، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية ، ثم انتقل إلى
القدس الشريف ، فأقام به شيخ الحرم ، ثم جاء إلى دمشق المحروسة بالله ، وتولى
مشيخة الحديث بترية أم صالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية ، وعُرِضَ
عليه القضاء فلم يقبل ، وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب ،
بالرباط الناصري ، ودفن بسفح قاسيون ، رحمه الله تعالى ، وذلك سنة
خمس وثمانين وستمائة .

وليس هو بشارح المقامات^٣ ، بل هو غيره ، وقد اشتركا في البلد ، فبسبب

١ ترجمة الشريشي في شذرات الذهب ٥ : ٣٩٢ .

٢ ق ط ج : وابن زروبة .

٣ قد نسب إليه في الشذرات أنه شرح المقامات ، وهو وهم كالذي نبه عليه المقري .

ذلك ربّما يقع في الأذهان الوهم في أمرهما ، وشارح المقامات أحمد وهذا محمد ، وقد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب ^١ ، فليراجع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

٧٤ - ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس ، القيسى ، الأندلسي ، البلسنسي ^٢ : كان من أهل العلم باللغة والعربية ، مشاراً إليه فيهما ، رحل من الأندلس ، وسكن بمصر واستوطنها ، وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب كتاب « الفصوص » ، وعلى أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن خُرّزاذ بن النّجيرمي ^٣ . ودخل بغداد ، واستفاد وأفاد ، وله شعر حسن ، فمن ذلك قوله :

مريضُ الحُفُونِ بلا علةٍ ولكنّ قلبي به مُمرّضُ
أعان السُّهادَ على مقلتي بفيضِ الدموعِ فما تغمضُ
وما زارَ شوقاً ولكنّ أتى يُعرّضُ لي أنّه مُعرّضُ

وله أشعار كثيرة . وتوفي يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢٧ ، وقيل : سنة ٤٢٩ ، بمصر ، وكان استوطنها ، وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي صاحب التفسير في مصلى الصّدّقي ، ودفن عند أبي إسحاق ، رحمه الله تعالى .

ومُغلّس : بضم الميم ، وفتح الغين ، وتشديد اللام المكسورة ، وبعدها سين مهملة . وكانت بينه وبين أبي الطاهر إسماعيل بن خلف ^٤ صاحب كتاب

١ انظر الترجمة رقم : ٦٤ فيما سبق .

٢ ترجمة ابن المغلس في وفيات الأعيان ٢ : ٣٦٠ وعنه ينقل المقرئ أكثر الترجمة . والجذوة :

٢٦٩ (وبنية الملتصق رقم : ١٠٨٨) والصلة : ٣٥١ .

٣ ق ط ج : يوسف بن خرقان ، والتصويب عن ابن خلّكان .

٤ هو إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران المالكي المقرئ الأندلسي ، أبو طاهر ، استوطن مصر وحدث بها (الصلة : ١٠٥ - ١٠٦) .

« العنوان » معارضات في قصائد . ومن شعر ابن المغلس أيضاً قوله في حمّام :

ومنزّل أقوامٍ إذا ما اغتدّوا به تشابه فيه وَغَدُهُ ورئيسه
يُخالطُ فيه المرءَ غيرَ خَلِيطِهِ وَيُضحّي عدوَّ المرءِ وهو جليسه^١
يفرّجُ كربِي إن تزايدَ كربهُ ويؤنسُ قلبي أن يُعدَّ أنيسه
إذا ما أعرّت الحوض ماءً^٢ تكاثرت على مائه أقماره وشموسه

٧٥ - ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الأديب المعروف بالمغربي^٣ ، وهو من أهل المَرِيّة ، وانتقل إلى المشرق ، وكان كامل الفضيلة ، وجمع بين الأدب والحكمة ، وله ديوان شعر جيّد ، والخلاعة والمجون غالبه عليه ، وذكر العماد في « الخريدة » أنّه كان طبيب المارستان المستصحب في معسكر السلطان السلجوقي حيث خيم ، وكان السديد يحیی ابن سعيد المعروف بابن المرخّم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا المارستان . وأثنى العماد على أبي الحكم المذكور ، وذكر فضله وما كان عليه ، وأن له كتاباً سمّاه « نهج الوضاعة ، لأولي الخلاعة » ، ثم إن أبا الحكم انتقل إلى الشام ، وسكن دمشق ، وله فيها أخبار ومجاريات^٤ ظريفة تدل على خفّة روحه .

قال ابن خلكان : رأيت في ديوانه أنّ أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسي كان عند الأمراء بني مُنقِذ بقلعة شَيْزَر ، وكانوا مقبلين عليه ، وكان بدمشق شاعر يقال له أبو الوحش^٥ ، وكانت فيه دُعابة ، وبينه وبين أبي الحكم المذكور

١ ق : وهو فيه جليسه .

٢ ق ج ط : أعرّت الجوّ طرفاً .

٣ ترجمة أبي الحكم المغربي في وفيات الأعيان ٢ : ٣٠٧ (وعنه ينقل المقرئ) وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٤٤ - ١٥٥ .

٤ اقرأ أيضاً : ومجاريات .

٥ هو سبع بن خلف الفقعسي وكانوا يصغرون كنيته فيقولون « وحيش » وقد مرت الإشارة إليه وإلى مصادر ترجمته ، انظر ١ : ٦١ .

مداعبات ، فسأل منه كتاباً إلى ابن منير بالوصية عليه ، فكتب أبو الحكم :

أبا الحسين استمع مقال فتى عوجِلَ فيما يقولُ فارتجلا
هذا أبو الوحش جاء ممتدحاً للقومِ فاهناً به إذا وصلاً
واتلُ عليهم بحسنِ شرحك ما أنقلهُ من حديثه جملاً
وخبرَ القومِ أنه رجُلٌ ما أبصر الناسُ مثله رجلاً
تنوبُ عن وصفه شمله لا يبتغي عاقلٌ به بدلاً
ومنها :

وهو على خيفةٍ به أبداً معترفٌ أنه من الثُقلا
يَمُتْ بالثُلُبِ والرّاقةِ وال سُخْفٍ ، وأما بغيرِ ذاك فلا
إن أنت فاتحته لتخبرَ ما يصنُدرُ عنه فتحت منه خلا
فنبهُ إن حلَّ خطّة الخسفِ وال هونٍ ورَحَبٍ به إذا رحلاً
وأسقيه السمَّ إن ظفرت بهِ وامزجْ له من لسانِكَ العسلا

وله أشياء مستملحة ، منها مقصورة هزلية ، ضاهى بها مقصورة ابن دريد ،
من جملتها :

وكلُّ مَلُومٍ فلا بدَّ له من فُرْقَةٍ لو ألزقوه بالغرا
وله مرثية في عماد الدين زنكي بن آق سنقر الأتابكي ، شاب فيها الجدةً
بالهزل ، والغالبُ على شعره الانطباع . وتوفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة
سنة ٥٤٩ هـ ، وقيل : في السنة التي قبلها ، بدمشق ، رحمه الله تعالى .
والقاضي ابن المرخم المذكور هو الذي يقول فيه أبو القاسم هبة الله ابن
الفضل الشاعر المعروف بابن القطان^١ :

١ ابن القطان من شعراء الخريدة ، كان شاعراً رقيقاً مجوداً غلب عليه الهجاء (توفي ٥٥٨) انظر
ابن خلكان ٥ : ١٠٤ .

يا ابن المرخّم صرتَ فينا قاضياً خرفَ الزمانُ تُراهُ أمْ جُنَّ الفلّكُ
إن كُنْتَ تحكّمُ بالنجومِ فربّما أمّا بشرعِ محمدٍ مِن أين لك ؟

وكان أبو الحكم المذكور فاضلاً في العلوم الحكيمة ، متقناً للصناعة الطبية ،
حسن النادرة ، كثير المداعبة ، محباً للهو والحلاعة والشراب ، وكان يعرف
صنعة الموسيقى ويلعب بالعود ، ويجلس في دكان بجيرون للطب ، وسكنه
باللبادين ، وأتى في ديوانه « نهج الوضاعة » بكل غريب ، يدل على أنه أريب ،
سامحه الله تعالى وغفر له .

٧٦ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق ، من هو الأحق بالتقديم
والسبق ، الشهير عند أهل الغرب والشرق ، الحافظ المقرئ الإمام الرباني ،
أبو عمرو الداني ، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر ، الأموي^١ ،
مولاهم ، القرطبي ، صاحب التصانيف التي منها « المقنع » و« التيسير » ، وعرف
بالداني لسكنائه دانية^٢ ، وولد سنة ٣٧١ ، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل
إلى المشرق سنة ٣٩٧ ، فمكث بالقيروان أربعة أشهر ، ودخل مصر في شوالها ،
فمكث بها سنة ، وحج ، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩ ، وقرأ
بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة ، وعلى أبي الحسن
ابن غلبون وخلف بن خاقان المصري وأبي الفتح فارس بن أحمد ، وسمع
من أبي مسلم الكاتب ، وهو أكبر شيخ له ، ومن عبد الرحمن بن عثمان
القشيري ، وحاتم بن عبد الله البزار^٣ ، وغير واحد من أهل مصر وسواها ،
وسمع من الإمام أبي الحسن القابسي ، وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب
والأندلس ، وتلا عليه خلق منهم مفرج الأفقالي وأبو داود ابن نجاح^٣ صاحب

١ ترجمة أبي عمرو الداني في الصلة : ٣٨٥ وغاية النهاية ١ : ٥٠٣ والدياج المذهب : ١٨٨ ومعجم

الأدباء ١٢ : ١٢٥ والجذوة : ٢٨٦ وبنية الملتبس رقم : ١١٨٥ .

٢ ط : البزاز .

٣ ق : حجاج .

«التزئيل» في الرسم ، وهو من أشهر تلامذته ، وحدث عنه خلق كثير ، منهم خلف بن إبراهيم الطليطلي .

قال أبو محمد عبيد الله الحَجَرِي : ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الدَّانِي ولا بعد عصره أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه ، وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط إلا كتبه ، ولا كتبه إلا حفظته ، ولا حفظته فنسيته .

قال ابن بَشْكُوَال : كان أبو عمرو أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه ، وجمع في ذلك كله تواليف حسناً ، وله معرفة بالحديث وطرقه وإعرابه^١ وأسماء رجاله ، وكان حسن الخط والضبط ، من أهل الحفظ والذكاء واليقين ، وكان ديناً فاضلاً ورعاً سنياً .
وقال بعضهم ، وأظنه المغامي^٢ : كان أبو عمرو مُجَاب الدعوة ، مالكي المذهب .

وقال بعض أهل مكة : إن أبا عمرو الدَّانِي مقرئ متقدم ، وإليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن ، والقراء خاضعون لتصانيفه ، واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك ، وله مائة وعشرون مصنفاً ، وروى عنه بالإجازة رجالان : أحمد بن محمد بن عبد الله الحَوْلَانِي ، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة ، وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية في نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

٧٧ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد بن أبي حبيب ، الأندلسي^٣ ، من بيت علم ووزارة ، صرف عمره في طلب العلم ،

١ وإعرابه : سقطت من ج ط ق .

٢ انظر غاية النهاية ١ : ٥٠٤ ، والمغامي هو محمد بن عتيق بن فرج المقرئ الطليطلي لقي أبا عمرو الداني وعليه اعتمد .

٣ ترجمة ابن حبيب في التكملة : ٨٣٤ وهو شلبي الأصل؛ وقد ذكر أنه توفي في جمادى الآخرة =

وكان غزير العلم في الفقه والحديث والأدب وولي القضاء بالأندلس مدّة^١ ،
ثم دخل الإسكندريّة ومصر ، وجاور بمكّة المشرّفة^٢ ، ثم قدم العراق وأقام
ببغداد مدّة ، ثم وافى خُراسان فأقام بنيسابور وبلخ ، وكانت ولادته ببلاذ
الأندلس ، وتوفّي بهرّاة في شعبان سنة ٥٤٨ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٧٨ — ومنهم أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الأندلسي
المقرئ^٣ ، رحل وأخذ القراءات عن أبي الفضل جعفر الهمداني ، وسمع من
أبي القاسم ابن عيسى ، وسكن القيوم ، واختصر « التيسير » وصنّف شرحاً
للشاطبية ، وتوفّي سنة ٦٤٠^٤ ، رحمه الله تعالى .

٧٩ — ومنهم العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المريني ،
اللورقي ، المقرئ ، النحوي^٥ ، ولد سنة ٦٥٧٥ ، وقرأ القراءات وأحكم
العربية وبرع فيها ، واجتمع بالجزولي ، وسأله عن مسألة في مقدمته ، وقرأ علم
الكلام والأصولين^٦ والفلسفة ، وكان خبيراً بهذه العلوم ، مقصوداً بإقراءها ، وولي
مشيخة قراءة العادلية ، ودرس بالعززيّة نيابة ، وصنّف شرحاً للشاطبية ،
وشرحاً للمفصل في عدة مجلّدات ، وشرح الجزوليّة ، وغير ذلك ، وكان مليح
الشكل ، حسن البزّة ، وتوفّي سنة ٦٦١ ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

٨٠ — ومنهم أبو عبد الله ابن أبي الربيع ، القيسي ، الأندلسي ، الغرناطي ،

= سنة ٥٥١ ؛ وراجع أخبار وتراجم أندلسية : ٥٧ - ٥٨ حيث عرف به السلفي .

١ تولى القضاء تسعة أعوام ثم امتحن بالأمراء لإقامته الحق وإظهاره العدل .

٢ كان ذهابه إلى مكة عام ٥٢٧ .

٣ ترجمته في غاية النهاية ١ : ٨٧ .

٤ غاية النهاية : في حدود الأربعين وستمائة .

٥ هذه الترجمة مكررة ، راجع في ما تقدم الترجمة رقم : ١٦ .

٦ في إحدى النسخ : ٥٨٥ .

٧ ق ودوزي : والأصوليين ؛ ج : والأصول .

قدم مصر سنة ٥١٥ أو بعدها ، فسمع على السلفي ، وبقراته على جماعة من
شيوخ مصر ، وكان لديه فقه وأدب ، ثم سافر إلى باب الأبواب ، وكان حياً
سنة ٥٥٦ .

ومن نظمه يمدح كتاب « الشهاب » :

إن الشهاب له فضلٌ على الكتبِ بما حوى من كلام المصطفى العربي
كم ضمَّ من حكمةٍ غرراً وموعظةٍ ومن وعيدٍ ومن وعدٍ ومن أدبٍ
أما القضاءي فالرحمنُ يرحمهُ كما حباه من التأليفِ بالعجبِ

٨١ - ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى ، القرشي ،
العبدري^١ ، من أهل ميُورقة من بلاد الأندلس ، سكن بغداد ، وسمع بها
من أبي الفضل ابن خيرون وطبرآد الزيني وأبي عبد الله الحميدي وجماعة ،
ولم يزل يسمع إلى حين وفاته ، وكتب بخطه كثيراً من الكتب والأجزاء ،
وجمع وخترج ، وكان صحيح العقل ، معتمد الضبط ، مرجوعاً إليه في الإتيان ،
وكفاه فخراً وشرفاً أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السلفي وأبو الفضل محمد
ابن ناصر ، وكان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث ، متعقفاً مع فقره ، وكان
يذهب إلى أن المناولة والعرض كالسماع .

وقال السلفي فيه : إنه من أعيان علماء الإسلام بمدينة السلام ، متصرف في
فنون من العلم أدباً ونحواً ومعرفة بأنساب العرب والمحدثين ، وكان داودي المذهب
قرشي النسب ، وقد كتب عني وكتبت عنه وسمعنا معاً كثيراً على شيوخ بغداد ،
ومولده بقرطبة من مدن الأندلس . وقبل اجتماعي به كنت أسمع إسماعيل
ابن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان يثني عليه ، فلمّا اجتمعنا وجدته فوق ما
وصفه ، انتهى .

١ ترجمة ابن سعدون في معجم البلدان : « ميورقة » نقلا عن ابن عساكر . وفي الصلة : ٥٣٤ .

وقال ابن عساكر : كان أحفظ شيخ لقيته ؛ وربّما حكى عنه بعضهم
كابن عساكر أموراً منكراً ، فالله أعلم . وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٢٤
ببغداد ، رحمه الله تعالى .

٨٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون ، الباجي^١ ، سمع بمصر من
ابن الورد وابن السكن وابن رشيق ، وبمكة من الآجري ، وكان صالحاً فاضلاً
زاهداً ورعاً ، حدث ، ومات ببسطةيوس فجأة سنة ٣٩٢ ، ومولده سنة ٣٢٢ .

٨٣ - ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون ، التميمي ، الجزيري ، المتعبد ،
كانت آدابه كثيرة ، وحجّ غير مرّة ، ورابط ببلاد المغرب ، وكان حسن
الصوت بالقرآن ، سمع بمصر من جماعة وبمكة ، وصحب الفقراء وطاف
بالشام ، وغزاً غزوات وتعرّض للجهاد وحرّض عليه ، وساح بجبل المقطم ،
وذكر أنّه صلّى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة ، ثم نام فرأى النبي صلّى الله
عليه وسلّم ، فقال : يا رسول الله ، إن مالكا والليث اختلفا في الضحى ،
فمالك يقول : اثنتا عشرة ركعة ، والليث يقول : ثمان ، فضرب عليه الصلاة
والسلام بين وركي ابن سعدون وقال : رأي مالكا هو الصواب ، ثلاث
مرّات ، قال : وكان في وركي وجع ، فمن تلك الليلة زال عني . وكان له
براهين من نور يضيء عليه إذا صلّى ونحوه ، وأنشد :

سَجَنُ اللّسانِ هو السّلامةُ للفتى مِنْ كُلِّ نازلةٍ لها استِصالُ
إنَّ اللّسانَ إذا حللتَ عِقاله ألقاك في شتَعاءٍ ليس تُقالُ

توفي سنة ٣٤٤ .

١ كان يسكن حصن مورة من عمل باجة ، ويعرف بابن الزنوني ، وكان رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً
ضعيف الكتاب غير ضابط (ابن الفريسي ٢ : ١٠٧) .

٨٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعد الأعرج ، الطَّلَبِيُّ الخَطِيبُ^١ ،
وقال فيه ابن سعيد : سمع بمصر ابن الورد وابن السكن ، وحدث ، مولده سنة
٣٠٩ ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٨٤ .

٨٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إسحاق بن يوسف ، الأموي ،
القرطبي^٢ ، وأصله من لبَّنة ، ولكن سكن قرطبة ، وقدم مصر ، وحجَّ ،
وسمع في طريقه من الشيخ أبي محمد ابن أبي زيد صاحب الرسالة ، وأخذ عن
القاسبي وعن جماعة من علماء مصر والحجاز ، ومولده سنة ٣٥٢ ، ورحلته
سنة ٤١٨ .

٨٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام ،
القرطبي^٣ ، سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب ، ورحل ، فسمع
من أشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم ، وعاد إلى
الأندلس وبها توفي سنة ٢٦٠ ، رحمه الله تعالى .

٨٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان ، المعافري ، الشاطبي^٤ ،
نزىل الإسكندرية ويعرف بابن أبي الربيع ، أحد أولياء الله تعالى ، شيخ الصالحين ،
صاحب الكرامات المشهورة ، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانتقطاع
إلى الله تعالى والتخلّي عن الناس والتمسك بطريقة السلف ، قرأ القرآن ببلده
بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره ، وقرأ بدمشق
على الواسطي ، وسمع عليه الحديث ، ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١٠٠ .

٢ ترجمته في الصلة : ٤٨٦ .

٣ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٩ والجذوة : ٥٥ (وبغية الملتبس رقم : ١٣٠) .

٤ ترجمته في الذيل والتكملة ٦ : الورقة ٨١ (نسخة باريس) ؛ وهو محمد بن سليمان بن محمد بن
سليمان بن عبد الملك المعافري الحميري الملقب بعلم الدين .

خادم أضياف رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلّم ، بين قبره ومنبره سنة ٦١٧ ، وسمع بدمشق على أبي القاسم ابن صَصْرَى^١ وأبي المعالي ابن خضر وأبي الوفاء ابن عبد الحق وغيرهم ، وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبي العباس الراسي^٢ ، وتَلَمَّذَ للشاطبي تلميذ الراسي ، وصنّف كتاباً حسنة : منها كتاب « المسلك القريب في ترتيب الغريب » وكتاب « اللمة الجامعة في العلوم النافعة » في تفسير القرآن العزيز ، وكتاب « شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل » وكتاب « المباحث السنية في شرح الحصريّة » وكتاب « الحرقّة في لباس الحرقّة » وكتاب « المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد » وكتاب « النبذة الجليلة في ألفاظ اصطلاح عليها الصوفية » وكتاب « زهر العريش في تحريم الحشيش » وكتاب « الزهر المضي في مناقب الشاطبي » وكتاب « الأربعين المضية في الأحاديث النبوية » . ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ، ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢ ، ودفن بتربة شيخه^٣ المجاورة لزاويته ، رحمهما الله تعالى ، ونفع بهما .

٨٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن شُرَيْح الرُّعَيْنِي الإشبيلي^٤ ، قدم مصر وسمع بها من ابن نفيس وأبي علي الحسن البغدادي وأبي جعفر النحوي وأبي القاسم ابن الطيب البغدادي الكاتب ، وبمكّة من أبي ذر الهروي . قال ابن بَشْكُوَال : كان من جملة المقرئين وخيارهم ، ثقة في روايته ، وكانت رحلته إلى المشرق سنة ٤٣٣ ، وولد سنة ٣٩٢ ، وتوفي سنة ٤٧٦ ، وعمره أربع وثمانون سنة إلا خمسة وخمسين يوماً ، وروى بإشيلية عن جماعة ،

١ ق ج : مصري ؛ ط : مصري .

٢ ق ج : الراس .

٣ يعني أبا العباس أحمد بن محمد اللخمي المعروف بالراسي .

٤ انظر الصلة : ٥٢٣ وغاية النهاية ٢ : ١٥٣ .

رحمه الله تعالى .

٨٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الأنصاري ، المالقي . قال السلفي : هو شاب من أهل الأدب له خاطر سمح كان يحضر عندي بالإسكندرية ، كثير السماع للحديث ، وذكر أنه قرأ الأدب على أبي الحسين ابن الطراوة النحوي^١ بالأندلس ، وعلى نظرائه ، وأنشدني لنفسه :

كَمْ ذَا تُقَلِّقُنِي النَّوَى وَتَسُوْقُنِي وَإِلَى مَتَى أَشْجَى بِهَا وَأَسَامُ
أَلِفْتُ رَكَائِي الْفَلَائِكَا فكَأَنَّمَا لِلْبَيْنِ عَهْدٌ بَيْنَنَا وَذِمَامُ
يَا وَيْحَ قَلْبِي مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّةٍ أَبَدًا تُصَدِّعُهُ بِهِ الْأَيَّامُ

٩٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الأنديسي المالكي^٢ ، رحل إلى المشرق فسمع بالشام خبثمة بن سليمان ، وبمكة أبا سعيد ابن الأعرابي ، وببغداد إسماعيل بن محمد الصفار ، وسمع بالمغرب بكر ابن حماد التاهرتي ومحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ ، وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني . روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال : اجتمعنا به بهمدان ، مات ببخارى سنة ٣٨٣ ، وقيل : سنة ثمان ، وقيل : سنة تسع وسبعين . وقال فيه أبو سعيد الإدريسي : إنه كان من أفاضل الناس ، ومن ثقاتهم . وقال غُنْجَار : إنه كان فقيهاً حافظاً ، جمع تاريخاً لأهل الأنديس . وقال السمعاني فيه : كان فقيهاً حافظاً ، رحل في طلب العلم إلى المشرق والمغرب ، رحمه الله تعالى .

٩١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الخزرجي

١ هو سليمان بن محمد بن الطراوة المالقي النحوي (ترجمته في تحفة القادم : ١١ والمغرب ٢ :

٢٠٨ وبغية الوعاة : ٢٦٢ وبغية المتنص : ٢٩٠) .

٢ ترجمة محمد بن صالح المعافري في ابن الفرضي ٢ : ٩١ والتكملة : ٣٧٢ .

الدَّانِي النُّحُوي^١ ، أخو أبي العباس ابن عيسى ، سمع بدانيّةً من أبي داود المقرئ وغيره ، وقدم دمشق سنة ٥٥٤ حين خرج حاجّاً ، وأقرأ بدمشق النحو مدة ، ثم خرج إلى بغداد ، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦١٩ ، وولد سنة ٥١٢ ، وقدم مصر سنة ٥٧٢ ، وله من المصنّفات كتاب «تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب» ومن كلامه : ليست هيبة الشيخ لشيئه ولا لسنّه ولا لشخصه ، ولكن لكمال عقله ، والعقل هو المُهاب ، ولو رأيت شخصاً جمع جميع الحاصل وعدم العقل لما هبته ، وقال : من جهل شيئاً عابه ، ومن قصر عن شيء هابه .

٩٢ — ومنهم القاضي الشهير محمد بن بشير ، وهو محمد بن سعيد بن بشير ابن شرّاحيل ، المعافري^٢ ، وقيل في آبائه غير ذلك كما يأتي ، ولما أُشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير إلى خطّة القضاء بقرطبة وجّه إليه بباجة ، فأقبل ولا يعلم ما دُعي إليه ، ونزل على صديق له من العبّاد^٣ ، فتحدث في شأن استدعائه ، وقدم أنّه يصرف في الكتابة ، فقال له العابد^٤ : ما أراه بعث فيك إلّا للقضاء ، فإن القاضي بقرطبة مات وهي الآن دون قاضٍ ، فقال ابن بشير : فأنا أستشيرك في ذلك إن وقع ، فقال : أسألك عن أشياء ثلاثة ، وأعزم عليك أن تصدقني فيها ، ثم أُشير بعد ذلك عليك ، فقال : ما هي ؟ فقال : كيف حبّك للأكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره ؟ فقال : والله لا أبالي ما رددتُ به جوعي وسترتُ به عورتي وحملتُ به

١ ترجمته في بغية الوعاة : ٤٩ نقلا عن ابن عساكر وابن النجار ؛ وفي الوافي ٣ : ١٦٨ .
٢ ترجمته في قضاة قرطبة للحشني : ٤٧ والمرقبة العليا : ٤٧ - ٥٣ والذيل والتكملة ٦ : الورقة ٧٧ (مخطوطة باريس) وفيه تفصيل للخلاف في اسمه ونسبه . والتكملة : ٣٥٥ وأغفله ابن الفرضي فلم يترجم له .
٣ الحشني : فلما صار يسهله المدور مال إلى صديق له كان بها من العباد فنزل عليه .
٤ سقط من ق ما بين لفظي «العباد» و «العابد» سهواً .

رحلي ، فقال : هذه واحدة ، فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب الغيد وما شاكل ذلك من الشهوات ؟ فقال : هذه حال والله ما استشرقت قط إليها ، ولا خطرت ببالي ، ولا اكرثت لفقدها ، فقال : وهذه ثانية ، فكيف حبك لمدح الناس لك وثنائهم عليك ؟ وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل ؟ فقال : والله ما أبالي في الحق من مدحني ودمتي ، وما أسرت للولاية ولا أستوحش للعزل ، فقال : وهذه الثالثة ، اقبل الولاية فلا بأس عليك ، فقدم قرطبة ، فولاه الأمير الحكم القضاء والصلاة .

قال ابن وضاح^١ : أخبرني من كان يرى محمد بن بشير القاضي داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة ، وعليه رداء معصفّر ، وفي رجله نعل صرّارة ، وله جُمّة مفرقة ، ثم يقوم فيخطب ويصلي وهو في هذا الزي ، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس ، فإن رام أحد من دينه شيئا وجده أبعد من الثريا .

وأناه رجل لا يعرفه ، فلما رأى ما هو فيه من زي الحداثة من الجمّة المفرقة والرداء المعصفّر وظهور الكحل والسواك وأثر الخناء في يديه ، توقف وقال : دلوني على القاضي ، فقيل له : ها هو ، وأشار إليه ، فقال : إنني رجل غريب ، وأراكم تستهزئون بي ، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلونني على زامير ، فصحّحوا له أنّه القاضي ، فتقدم إليه واعتذر ، فأدناه وتحدث معه ، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنّه ، فكان يحدث بقصته معه .

وعوتب في إرسال لمتّه ولبسه الخز والمعصفّر ، فقال : حدثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر - وكان سيّد القراء - كانت له لمة ، وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد - يعني المدينة - كان يلبس المعصفّر ، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخز .

١ الخشي : ٥٢ .

ولقد سئل بَحْيَى بن يَحْيَى عن لباس العمام فقال : هي لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أمرهم في القديم ، فقليل له : لو لبستها لاتبعك الناس في لباسها ، فقال : قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه ، وكان ابنُ بشير أهلاً أن يُقْتَدَى به ، فلعلِّي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا ابن بشير .

وكان أول^١ ما نظر فيه محمد بن بشير - حين ولي القضاء - التسجيل على الخليفة الحكم في أرْحِي القنطرة إذ قِيمَ عليه فيها وثبت عنده حق المدّعي ، وأعذر إلى الحكم فلم يكن عنده مدفع ، فسجّل فيها ، وأشهد على نفسه ، فما مضت مُدْبِئَةً حتى ابتاعها الحكم ابتياعاً صحيحاً ، فسُرَّ بذلك ، وقال : رحم الله محمد بن بشير ، فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره متناً ، كان في أيدينا شيء مشتبّه فصححه لنا ، وصار حلالاً طيب الملك^٢ في أعقابنا ، وحكم على ابن فُطَيْسٍ الوزير ، ولم يُعرّفه بالشهود ، فرفع الوزير ذلك إلى الحكم ، وتظلم من ابن بشير ، فأوماً الحكم إليه أن الوزير ذكر حُكْمَكَ عليه بشهادة قوم لم تعرّفه بهم ، ولا أعذرت إليه فيهم ، وإن أهل العلم يقولون : إن ذلك له ، فكتب إليه ابن بشير : ليس ابن فُطَيْسٍ ممّن يُعرّف بمن شهد عليه ، لأنّه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم لم يتخرج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم ، فيدعون الشهادة هم ومن ائتمسّ بهم ، وتضيع أموال الناس .

وأكثر موسى بن سماعة أحدُ خواصّ الأمير الحكم في ابن بشير الشكاية ، وأنّه يجور عليه ، فقال له الحكم : أنا أمتحن قولك الساعة ، فاخرج إليه فوراً ، واستأذن عليه ، فإن أذن لك عزلته ، وصدّقت قولك فيه ، وإن لم يأذن لك دون خصمك ازددتُ بصيرة فيه ، فليس هو عندي بجائر^٣ على حال ، وإنّما

١ الخشني : ٤٩ .

٢ في ق ودوزي : المسلك ، وفي الخشني : « وطاب لنا ملكه » .

٣ ق ودوزي : بجائر .

مقصده الحق في كل ما يتصرف فيه ، فخرج يؤم دار ابن بشير ، وقد أمر الحكم مَنْ يثق به من الفتيان الصَّقالبة أن يَقْفُوا أثره ويعلموا ما يكون منه ، فلم يكن إلا رَيْثما بلغ ، ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج الأذن إلى موسى وعلم القاضي بمكانه عاد إليه فقال له : إن كانت لك حاجة فاقصد فيها إذا جلس القاضي مجلس القضاء ، فتبسم الحكم ، وقال : قد أعلمته أن ابن بشير صاحب حق لا هوادة فيه عنده لأحد .

وولي القضاء مرتين ، فلما عَزِلَ المَرَّةَ الأولى انصرف إلى بلده ، وكان بعض إخوانه يعاتبه في صلابته ، ويقول له : أخشى عليك العزْل ، فيقول له : ليته قُدْرٌ ، إن الشقراء - يعني بغلته - تقطع الطريق بي حائنة نحو باجة . فما مضى إلا يسير حتى عتب عليه الأمير في قصة اشتدَّ فيها على بعض خاصته ، فكانت سبباً لعزله ، وانصرف كما تمنى ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى أتى فيه رقاص من قبل الأمير الحكم ، - والرقاص عند المغاربة : هو الساعي عند المشاركة - فعاد إلى قُرْطُبة ، وجبَّره على القعود للقضاء الأمير الحكم ، فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته وبصدقة ما يملك في سبيل الله تعالى ، إن حَكَمَ بين اثنين ، فلم يَعْذِرْه ، وأخرجه من ماله ، وعَوَّضه من طيب ما عنده ، ووهب له جارية من جواريه ، فعاد إلى القضاء ثانية .

ومما يحكى عنه في العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وكلَّ عند ابن بشير وكيلًا يخاصم عنه لشيء اضطر إليه ، وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا ، ولم يكن فيها من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهد آخر مبرز ، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد ، وضربت على وكيله الآجال في شاهد ثانٍ ، وجدَّ به الخصام ، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم وأراه . شهادته في الوثيقة ، وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه ، وعرفه مكان

حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفاً من بطلان حقّه ، وكان الحكم يعظم سعيد الخير عمّه ، ويلتزم مبرته ، فقال له : يا عمّ ، إنّنا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ، ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مخزاة كنّا نفديه بملكنا ، فصرّ في خصامك حيث صيرك الحق إليه ، وعلينا خلكف ما انتقصك ، فأبى عليه ، وقال : سبحان الله ، وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك ؟ وأنت وآليته ، وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمك في الديانة أن تشهد لي بما علمته ، ولا تكتمني ما أخذ الله عليك ؛ فقال : بلى ، إن ذلك لمن حقك كما تقول ، ولكنك تدخل علينا به داخله ، فإن أعفيتنا منه فهو أحب إلينا ، وإن اضطرتنا لم يمكننا عقوقك ، فعزم عليه عزّم من لم يشك أن قد ظفر بحاجته ، وضايقته الآجال ، فألح عليه ، فأرسل الحكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته بيده في قرطاس ، وختم بخاتمه^١ ، ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما : هذه شهادتي بخطّي تحت ختمي ، فأدّياها إلى القاضي ، فأتياه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسمع من الشهود ، فأدّياها إليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى ، وجاء وكيل سعيد الخير ، وتقدّم إليه مُدلاًّ واثقاً ، وقال له : أيّها القاضي ، قد شهد عندك الأمير — أصلحه الله تعالى — فما تقول ؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تعمل عندي ، فجثني بشاهد عدل ، فدُهِش الوكيل ، ومضى إلى سعيد الخير فأعلمه ، فركب من فوره إلى الحكم ، وقال : ذهب سلطاننا ، وأزيل بهاؤنا ، يجترىء هذا القاضي على ردّ شهادتك ، والله سبحانه قد استخلفك على عباده ، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك ؟ هذا ما لا يجب أن تُحمّلَ عليه ، وجعل يُغريه بالقاضي ويخرّضه على الإيقاع به ، فقال له الحكم : وهل شككت أنا في هذا يا عمّ ؟ القاضي رجل صالح والله ،

١ إلى فقيهين . . . بخاتمه : سقط هذا من ق .

لا تأخذه في الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه ، وسدّ دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى جزاءه ؛ فغضب سعيد الخير ، وقال : هذا حسبي منك ، فقال له : نعم ، قد قضيتُ الذي كان لك علي ، ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله . ولما عوتب ابن بشير فيما أتاها من ذلك قال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم أنه لا بد من الإعذار في الشهادات ، فمن كان يجترئ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها ؟ ولو لم أعذر لبخستُ المشهود عليه حقّه .

وتوفي القاضي محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعيّ بست سنين كما يأتي قريباً ، ومحاسنه - رحمه الله تعالى - كثيرة ، وقد استوفى ترجمته بقدر الإمكان القاضي عياض في المدارك ، فليراجعها من أرادها ، فإن عهدي بها في المغرب ^١ . وقال بعض من عرف به ، ما نصّه ^٢ : القاضي محمد بن بشير بن محمد المعافري ، أصله من جند باجة من عرب مصر ، ولاه الحكم بن هشام قضاء القضاة الذي يعبرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة ، بقرطبة ، بعد المصعب بن عمران ، ثم صرفه وولى مكانه القروج بن كنانة . وعن ابن حارث ، قال أحمد ابن خالد : طلبَ محمد بن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر ، ثم كتب لأحد أولاد عبد الملك بن عمر المرواني ^٣ لمظلمة نالته على وجه الاعتصام به وتصرف معه تصرفاً لطيفاً ، ثم انقبض عنه ، وخرج حاججاً ، قال ابن الحارث : وكتب محمد بن بشير في حدّائمه للقاضي مُصْعَب بن عمران ، ثم خرج حاججاً فلقي مالك بن أنس وجالسه وسمع منه ، وطلب العلم أيضاً بمصر ، ثم انصرف فلزم ضيعته في باجة .

١ دوزي : فإن عهدي بها لمغرب ، واستدركها فليشر في تصويباته ؛ ، وفي ج ط ق : فإن عهدي بها المغرب .

٢ راجع التكملة : ٣٥٥ .

٣ في ق ط ج : عبد الملك بن مروان المرواني ، والتصويب عن الحشني .

وقال ابن حيّان : إنّه استُقدِم من باجة للقضاء برأي العباس بن عبد الملك .
وقال ابن شعبان في الرواة^١ عن مالك من أهل الأندلس : محمد بن بشير بن
سَرَافيل ، ويقال شراحيل ، ولي القضاء ، وكان رجلاً صالحاً ، وبعده تَضرب
الأمثال ، واستوطن قرطبة ، وتوفي بها سنة ثمان وتسعين ومائة ، انتهى ،
وبعضه عن غيره .

ومن شعره قوله :

لستُ من بابة ^٢ أهل البلدِ	إنما أزرى بقدري أتني
لدوي الأبوابِ أو ذي حسدِ	ليس منهم غيرُ ذي مقليّةٍ
يتحامون لقاء الأسدِ	يتحامون لقاءي مثلاً
وعلى أنفسهم من أحدِ	مطلعي أثقلُ في أعينهم
أحدٌ يأخذُ منهم بيدي	لو رأوني وسطَ بحرٍ لم يكنُ

٩٣ - ومنهم محمد بن عيسى بن دينار ، الغافقي^٣ ، من أهل قرطبة ،
كان فقيهاً زاهداً ، وحج وحضر افتتاح إقريطش ، واستوطنها ، قاله الرازي .

٩٤ - ومنهم محمد بن يحيى بن يحيى اللبّي^٤ ، خرج حاجاً ، ولقي
سَحْنُون بن سعيد بإفريقية ، ولقي بمصر رجلاً من أصحاب مالك فسمع
منهم ، وعُرف بالفقه والزهد ، وجاور بمكة ، وتوفي هنالك .

٩٥ - ومنهم محمد بن مروان بن خطاب ، المعروف بابن أبي جَمْرَة^٥ ،

١ ق ودوزي : في الرواية .

٢ دوزي : لست من باجة ، وصوبه فليشر

٣ ترجمته في التكملة : ٣٥٦ .

٤ ترجمته في التكملة : ٣٥٦ .

٥ ترجمته في التكملة : ٣٥٦ وانظر ترجمة « عميرة بن عبد الرحمن بن مروان » في ابن الفرضي

١ : ٣٧١ .

رحل حاجاً هو وابناه خطاب وعميرة في سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، وسمعوا ثلاثتهم من سَحْنُون بن سعيد المدوّنة بالقيروان ، وأدركوا أصبغ بن الفرج ، وأخذوا عنه .

٩٦ - ومنهم محمد بن أبي عِلَاقَةَ البواب^١ ، من أهل قرطبة ، كانت له رحلة إلى المشرق ، ولقي فيها جماعة من أهل العلم ، وأخذ عن أبي إسحاق الزجاجي ، وعن أبي بكر ابن الأنباري ، وعن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش ، وأبي عبد الله نِفْطَوِيه ، وغيرهم ، وسمع من الأخفش « الكامل » للمبرّد ، وقال الحكم المستنصر : لم يصح كتاب « الكامل » عندنا من رواية إلا من قبل ابن [أبي] عِلَاقَةَ ، وكان ابن جابر الإشبيلي قد رواه قبل بمصر بمدة ، وما علمت أحداً رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشي^٢ يذكر أنّه رواه ، وكان صدوقاً ، ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين .

٩٧ - ومنهم محمد بن حزم بن بكر ، التَّنُوحِي^٣ ، من أهل طَلَيْطَلَة ، وسكن قرطبة ، يُعرف بابن المدني ، سمع من أحمد بن خالد وغيره^٤ ، وصحب محمد بن مسرة الحبلي قديماً ، واختص بمرافقته في طريق الحج ، ولازمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع والانقباض ، وحكى عن ابن مسرة أنّه كان في سكناه المدينة يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ودلّه بعض أهل المدينة على دار ماريّة أم إبراهيم سُرِّيَّة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصد إليها فإذا دُوبِرَة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد قد شق في وسطها بجائط ، وفُرش على حائطها خشب غليظ يرتقى إلى ذلك الفرش

١ ترجمته في التكملة : ٣٦٢ .

٢ كذا في الأصول ، ولعلها : الفريشي .

٣ ترجمته في التكملة : ٣٦٥ .

٤ بن بكر . . . وغيره : سقط من ق .

على خارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الصيف ، قال : فرأيت أبا عبد الله بعدما صلّى في البيتين والسقيفة وفي كل ناحية من نواحي تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره ، فكشفتُه بعد انصرافي وهو ساكن في الجبل عن ذلك ، فقال : هذا البيت الذي تراني فيه بنيته على تلك الحالة^١ في العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان ، انتهى .

٩٨ - ومنهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ^٢ ، ولد أبي زكريا الراوية ، من أهل طرطوشة ، يكنى أبا بكر ، تأدّب بقرطبة ، وسمع بها من قاسم بن أصبغ ومحمد بن معاوية القرشي وأحمد بن سعيد ومنذر بن سعيد وأبي علي القالي وغيرهم ، وكان حافظاً للنحو واللغة والشعر ، يفوت مَنْ جاراه على حدّاته سنّه ، شاعراً مجيداً مرسلًا بليغاً ، ورحل مع أبيه إلى المشرق سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكناني وغيرهم ، وسمع أيضاً بالبصرة وبغداد كثيراً ، وخرج إلى أرض فارس فسمع هناك ، وجمع كتباً عظيمة ، وأقام بها إلى أن توفّي بأصبهان مُعْتَبِطاً مع الستين وثلاثمائة ، ومولده بطرطوشة صدر ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، ذكره ابن حيّان ، رحمه الله تعالى .

٩٩ - ومنهم محمد بن عبّادون الجبلي العددي^٣ من أهل قرطبة ، أدّب بالحساب والهندسة ، ورحل في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، فدخل مصر والبصرة ، وعُني بعلم الطب فمهر فيه ، ودبّر في مارستان الفسطاط ، ثم رجع

١ ق ج ط : الحكاية .

٢ ترجمته في التكملة : ٣٦٧ ؛ وفي ق ط ودوزي : « عاين » بدل « عائذ » .

٣ انظر ترجمة محمد بن عبدون الجبلي في التكملة : ٣٦٧ وطبقات ابن جليل : ١١٥ والذيل والتكملة ٦ : ١٧٢ (نسخة باريس) . وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦ وطبقات صاعد : ٨١ والوافي

٣ : ٢٠٧ .

إلى الأندلس في سنة ستين وثلاثمائة ، فانصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله ،
وله في التفسير تأليف حسن ، رحمه الله تعالى .

١٠٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأزدي الفراء القرطبي ^١ ،
صحاب أبا بكر ابن يحيى بن مجاهد ، واختص به ، ولطف محله منه ، وقرأ عليه
القرآن ، ورحل صحبته لأداء فريضة الحج ، وكان رجلاً صالحاً كثير التلاوة
للقرآن والخشوع ، إذا قرأ بكى ورتل وبتن في مهل ، ويقول : أبو بكر علمني
هذه القراءة ، وحكي أنه سرّد الصوم اثني عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد
مفطراً كلّ ليلة وقت الإفطار ، ثم تهادى على ذلك بعد موته مفطراً عقب العشاء
الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب إليها ، تزيّداً من الخير ، واجتهاداً في العمل .

١٠١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح ، المعافري ، الأندلسي ^٢ ،
رحل إلى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد ابن الأعرابي وإسماعيل
ابن محمد الصفار وبكر بن حمّاد التاهرتي وغيرهم ، روى عنه أبو عبد الله
الحاكم وقال : اجتمعنا بهمدان سنة إحدى وأربعين ، يعني وثلاثمائة ، فتوجّه
منها إلى أصبهان ، وكان قد سمع في بلاده وبمصر من أصحاب يونس ، وبالحجاز
وبالشام وبالحزيرة من أصحاب علي بن حرب ، وببغداد ، وورد نيسابور في
ذي الحجة سنة إحدى وأربعين فسمع الكثير ، ثم خرج إلى مرو ومنها إلى بخارى
فتوفي بها في رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ، وروى عنه أيضاً أبو القاسم
ابن حبيب النيسابوري وغيرهما ، ذكره ابن عساكر ، وأسند إليه قوله :

وَدَعْتُ قَلْبِي سَاعَةَ التَّوْدِيعِ وَأَطَعْتُ قَلْبِي وَهُوَ غَيْرُ مُطِيعِي
إِنْ لَمْ أَشَبِّعْهُمْ فَقَدْ شَبِّعْتُهُمْ بِمُشَبِّعَيْنِ تَنَفَّسِي وَدُمُوعِي

١ ترجمته في التكملة : ٣٦٩ والذيل والتكملة ٦ : ١٤٧ (نسخة باريس) .

٢ هذه الترجمة مكررة . انظر الترجمة رقم : ٩٠ في ما تقدم .

وذكره ابن الفَرَّاضي وقال : إنه استوطن بُخارى ، وجعل وفاته بها سنة ثمان وسبعين ، والأول قول الحاكم ، وهو أصح .

١٠٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، السَّرْقُسْطِي^١ ، روى عن الباجي وابن عبد البر ، ورحل حاجاً فقدم دمشق وحدث بها عن شيوخه الأندلسيين ، وعن أبي حفص عمر بن أبي القاسم ابن أبي زيد القفصِيّ ، وذكره ابن عساكر ، وقال : سمع عنه أبو محمد الأكفاني ، وحكى عنه تدليساً ضعّفه به ، وتوفي سنة ٤٧٧ .

١٠٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن بَقَاء ، الأنصاري^٢ ، من بلاد الثغر الشرقي^٣ ، أخذ القراءات عن أبي داود سليمان بن نجاح ، ورحل حاجاً ، فقدم دمشق ، وأقرأ بها القرآن بالسبع ، وأخذ عنه جماعة من أهلها ، وكان شيخاً فاضلاً حافظاً للحكايات ، قليل التكلف في اللباس ، ذكره ابن عساكر وقال : رأيته وسمعته ينشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلّى للاستسقاء على المنبر ، أولها :

أستغفرُ الله من ذنبي وإن كَبُرَا وأستقلُّ له شكري وإن كَثُرَا

وكان يسكن في دار الحجارة ، ويُقْرَى بالمسجد الجامع .
ولد في الثاني والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وتوفي يوم الأربعاء عند صلاة العصر ، ودفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثاني من ذي الحجة سنة اثني عشرة وخمسمائة ، ودفن في مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبي الدرداء ، رضي الله تعالى عنه ، قال : وشهدت أنا غسله والصلاة عليه

١ ترجمته في التكملة : ٣٩٧ والذيل والتكملة ٦ : ١٩ (نسخة باريس) .

٢ ترجمته في التكملة : ٤١٣ .

٣ من أهل بلني في الثغر الشرقي .

ودفنه ؛ وذكره السلفي .

١٠٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى ، الأنصاري ،
الخرجي^١ ، من أهل دانية ، سمع كتاب « التقصي » لابن عبد البر ، ولقي أبا
الحسن الحصري ثم خرج حاجباً فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة ، وأقام بها
مدة يُقرئ العربية ، وكان شديد الوسوسة في الوضوء .

ذكره ابن عساكر وقال : أنشدني أخي أبو الحسين هبة الله بن الحسن الفقيه
قال : أنشدنا ابن طاهر الأندلسي بدمشق قال : أنشدني الحصري لنفسه :

يَمُوتُ مَنْ فِي الْأَنَامِ طُرّاً مِنْ طَيِّبٍ كَانَ أَوْ خَبِيثِ
فَمُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ

قال : وأنشدني الحصري لنفسه :

لَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ أَوْ فَوْقَ الذَّرَى حُرٌّ أُنِيجَ لَهُ^٢ الْعَدُوُّ لِيُوذَى
فَاخْذَرْ عَدُوَّكَ وَهُوَ أَهْوَنُ هَيِّنِ إِنَّ الْبِعُوضَةَ أَرْدَتِ النَّمْرُودَا

١٠٥ - ومنهم محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله ، البزاز^٣ ، من أهل
سَرَ قُسْطَةَ ، لقي بدانية الحصري ، وسمع منه بعض منظومه ، ورحل حاجباً
فأدّى الفريضة ، ودخل العراق فسمع من جماعة وأجازوا له : منهم ابن
خَيْرُون ، والحُمَيْدِي ، وأبو زكريا التبريزي ، والمبارك بن عبد الجبار ،
وثابت بن بُنْدَار ، وهبة الله بن الأكفاني ، وغيرهم ، ونزل الإسكندرية ،
وحدث بها وأخذ الناس عنه ، وتوفي هنالك ، وأنشد للحصري :

١ ترجمته في التكملة : ٤١٩ ، والذيل والتكملة ٦ : ٨٧ - ٨٨ (نسخة باريس) .

٢ ق : لو كنت ... حراً أُنِيجَ له ... ؛ وهو مضطرب .

٣ ترجمته في التكملة : ٤٣٣ ؛ وفي ق ودوزي : « البزار » .

الناسُ كالأَرْضِ ، ومنها هُمُ من خَشِنَ اللَّمَسُ ومن لَيِّنَ صَلْدُ تشكَّى الرَّجُلُ منه الْوَجَى وإِثْمٌ يُجْعَلُ في الْأَعْيُنِ

وروى عنه ابن الحضرمي وابن جارة ، وغيرهما .

١٠٦ - ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين ، الشهير بالمَيُورَقي^١ لأن أصله منها ، وسكن غَرْنَاطَةَ ، وروى عن أبي علي الصَّدَاقِي ، ورحل حاجباً فسمع بمكة من أبي الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي ، وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي ، في شَوَّالٍ وذِي الْقَعْدَةِ من سنة ٥١٧ ، وبالإسكندرية من أبي عبد الله الرازي وأبي الحسن ابن مُشَرَّفٍ وأبي بكر الطُّرْطُوشِي وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة فحدث في غير ما بلد لتجوُّله ، وكان فقيهاً ظاهرياً ، عارفاً بالحديث وأسماء الرجال ، متقناً لما رواه ، يغلب عليه الزهد والصلاح ، روى عنه أبو عبد الله النُميري الحافظ ويقول فيه : الأزدي تدليساً ، لأن الأنصار من الأزد ، وأبو بكر ابن رزق وأبو عبد الله ابن عبد الرحيم وابنه عبد المنعم وسواهم ، وصار أخيراً إلى بجاية هارباً من صاحب المغرب^٢ حينئذ بعد أن حمل إليه هو وأبو العباس ابن العريف وأبو الحكم ابن بَرُّجَان ، وحدث هنالك ، وسُمع منه في سنة ٥٣٧ ، رحمه الله تعالى .

١٠٧ - ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطُّفَيْلِ العَبْدِي الإشبيلي^٣ ، ويُعرف بابن عَظِيمَةٍ ، أخذ القراءات عن أبي عبد الله السَّرْقُسْطِي

١ ترجمته في التكملة : ٤٤٠ والذيل والتكملة ٦ : ٦٣ (نسخة باريس) وهو محمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن بشر الأنصاري الخزرجي ، وأسقط ابن الزبير « الحسين » من نسبه وقال في بشر « بشير » وكلاهما غلط ، هذا ما حققه ابن عبد الملك وهو ينتقل من خطه .

٢ يعني علي بن يوسف بن تاشفين ؛ وقال ابن عبد الملك : إن علياً ضربه بالسوط وسجنه وقتل ثم سرحه وعاد إلى الأندلس .

٣ ترجمته في التكملة : ٤٤٥ والذيل والتكملة ٦ : ١٤٣ (نسخة باريس) .

وروى عن أبي عبد الله الخولاني وأبي عبد الله ابن فرج وأبي علي الغساني وأبي داود المقرئ وأبي جعفر ابن عبد الحق وأبي الوليد ابن طريف ، ورحل حاجاً فروى بمكة عن رزين بن معاوية ، ثم بالإسكندرية عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور وأبي الحسن ابن مُشَرَّف الأنماطي ، وبالمهديّة عن المازري ، وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الأحدب للقاء أبي معشر الطبري ، فبلغهما نعيه بمصر ، فلما قفلا من حجتهما قعد منصور يقول : قرأت علي أبي معشر ، واقتصر أبو الحسن في تصدره للإقراء على التحديث عمّن لقي ، فعُرف مكانه من الصدق والعدالة ، وولي الصلاة ببلده ، وتقدّم في صناعته ، واشتهر بها ، وتلاه أهل بيته فيها ، فأخذ عنهم الناس ، وله أرجوزة في القراءات السبع ، وأخرى في مخارج الحروف ، وشرح قصيدة الشُّقْرَاطِسي ، وله أيضاً كتاب « الفريدة الحمصيّة »^١ في شرح القصيدة الحصريّة ، وإليه وإلى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشأن ، ومن جلة الرواة عنه أبو بكر ابن خير ، قرأ عليه « الشهاب »^٢ للقضاعي ، وأجاز له جميع رواياته وتوابعه في رجب سنة ٥٣٦ ، وتوفي في حدود الأربعين وخمسمائة ، وروى عنه أبو الضحّاك الفزاري .

١٠٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى بن هشام ابن جراح الخزرجي^٣ ، من أهل جَيّان ، ويُعرف بالبغدادي لطول سكناه ليّاتها ، روى عن أبي علي الغساني ، وأبي محمد ابن عتاب ، ورحل حاجاً فلقني أبا الحسن الطبري المعروف بالكَيّ ، وأبا طالب الزيني ، وأبا بكر الشاشي ،

١ سماها ابن خير « منح الفريدة الحمصية » - (الفهرسة : ٧٤) .

٢ انظر فهرست ابن خير : ١٨٢ .

٣ ترجمته في التكملة : ٤٧٤ والذيل والتكملة ٥ : ٥٨٢ صنف في مسائل الخلاف تعليقه المشهور في سبعة أسفار ، ومن مصنفاته « أسرار الإيمان » في سفر ؛ درس الفقه بفاس ثم تحول إلى جيان فجلس فيها للوعظ والقصص وخرج من بلده في الفتنة وعاد إلى فاس فنزلها ٥٤٤ وبقي يدرس فيها الفقه ومسائل الخلاف إلى أن توفي .

وغيرهم . وكان فقيهاً مشاوراً ، حدث عنه أبو عبد الله النميري ، وأبو محمد ابن عبيد الله ، وأبو عبد الله ابن حميد ، وأبو القاسم عبد الرحيم بن الملجوم ، وغير واحد ، وتوفي بفاس سنة ٥٤٦ .

١٠٩ — ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر ، الأنصاري الجبائي^١ ، ونزل حلب ، يكنى أبا بكر ، رحل إلى المشرق ، وأدب الفريضة ، وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة ، وسكن قنطرة سنان^٢ منها ، وكان يعلم القرآن ، ويردّد إلى أبي عبد الله^٣ نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه ، ثم رحل صحبة أبي القاسم ابن عساكر صاحب « تاريخ الشام » إلى بغداد سنة عشرين ، وكان زميله ، فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره ، ثم خرج إلى خراسان فسمع بها من حمزة الحسيني وأبي عبد الله القراوي وأبي القاسم الشّحامي وغيرهم ، وسمع ببسخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني^٤ وأبو النجم مصباح ابن محمد المسكي وغيرهما ، وبلغ الموصل فأقام بها مدة يُسَمَّعُ منه ويؤخذ عنه ، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها ، وسُلِّمَتْ إليه خزانة الكتب النورية ، وأُجريت عليه جراية ، وكان فيه عُسْرٌ في الرواية والإعارة معاً ، ووقف كتبه على أصحاب الحديث ، وله عَوَالٍ مخرّجة من حديثه ساوى [بها] بعض شيوخه البخاري ومسلماً وأبا داود والترمذي والنسائي ، روى عنه أبو حَقْص المياشي وأبو المنصور مظفر بن سوار اللخمي وأبو محمد عبد الله بن علي بن سويده وابن أبي السنان وغيرهم .

ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال : سمعت منه ، ومات [بحلب] في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغني .

١ ترجمته في التكملة : ٥٠٠ .

٢ هكذا في ق ط ج ، وجعل في دوزي « سنتين » ؛ وصوبه فليشر .

٣ التكملة : أبي الفتح .

٤ التكملة : الحسيني .

وقال ابن نقطة : حدثت عن جماعة منهم أبو القاسم سهل بن إبراهيم النيسابوري وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الهمداني ، حدثنا عنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبي وأخوه أبو العباس أحمد ، وحكي عن الحسن بن هبة الله بن صصرى أنه توفي بحلب في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة كما تقدم ، وقد بلغ السبعين ، قاله ابن الأبار .

١١٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة^١ ، مرسى سكن شاطبة ، ودار سلفه بكنسية ، سمع أبا علي الصدقي واختص به ، وأكثر عنه ، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق وأمّهات كتبه الصحاح ، لصهر كان بينهما ، وسمع أيضاً أبا محمد ابن أبي جعفر ، ولازم حضور مجلسه للثقة به ، وحمل ما كان يرويه ، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع أبا محمد ابن عتاب وأبا بحر الأسدي وأبا الوليد ابن رشد ، وأبا عبد الله الخولاني ، وأبا عبد الله ابن الحاج ، وأبا بكر العربي وغيرهم ، وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني وأبو الوليد ابن طريف وأبو الحسن ابن عفيف وأبو القاسم ابن صواب وأبو محمد ابن السيد وغيرهم ، ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمائة ، فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج ابن نادر الميوري ، وصحبه وسمع منه ، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام ، وأدى فريضة الحج في سنة إحدى وعشرين ، ولقي بمكة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدي إمام المالكية بها ، وأبا محمد ابن صدقة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزية فسمع منهما وأخذ عنهما ، وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عياش الغساني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصانيفه ، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية ، ولقي أبا طاهر ابن عوف وأبا عبد الله ابن مسلم القرشي وأبا طاهر السلفي وأبا

١ ترجمة ابن سعادة في التكملة : ٥٥٥ .

زكريا الزناتي وغيرهم ، فأخذ عنهم ، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطرطوشي وأبو الحسن ابن مُشَرَّف الأنماطي ، ولقي في صَدَرِه بالمهدية أبا عبد الله المازري فسمع منه بعض كتاب « المعلم » ، وأجاز له باقيه ، وعاد إلى مَرْسِيَةِ في سنة ست وعشرين .

وقد حصَّل في رحلته علوماً جمة ورواية فسيحة ، وكان عارفاً بالسنن والآثار ، مشاركاً في علم القرآن وتفسيره ، حافظاً للفروع ، بصيراً باللغة والغريب ، ذا حظ من علم الكلام ، ماثلاً إلى التصوّف ، مؤثراً له ، أديباً بليغاً خطيباً فصيحاً ، ينشئ الخطب مع الهدني والسمت والوقار والحلم ، جميل الشارة ، محافظاً على التلاوة ، [بادي] الخشوع^١ ، راتباً على الصوم ، وولي خطة الشورى بمَرْسِيَةِ مضافة إلى الخطبة بجامعها ، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه ، ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة المثلثين ، ونقل إلى قضاء شاطِبة فاتخذها وطناً ، وكان يسمع الحديث بها وبمَرْسِيَةِ وبكَنْسِيَةِ ، ويقوم الخطب أيتام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقباً عليها ، وقد حدث بالمَرْيَةِ وهناك أبو الحسن ابن موهب وأبو محمد الرُّشَاطِي وغيرهما ، وسمع منه أبو الحسن ابن هُدَيل « جامع الترمذي » ، وألّف كتابه « شجرة الوهم المترقية إلى ذِرْوَةِ الفهم » ولم يُسبق إلى مثله ، وليس له غيره ، وجمع فهرسة حافلة .

ووصفه غير واحد بالتَفَنُّن في العلوم والمعارف ، والرسوخ في الفقه وأصوله ، والمشاركة في علم الحديث والأدب .

وقال ابن عياد في حقّه : إنّه كان صليّياً في الأحكام ، مقتضياً للعدل ، حسن الخلق والخلق ، جميل المعاملة ، لين الجانب ، فكّه المجالسة ، ثبّتاً ، حسن الخط ، من أهل الإنقان والضبط . وحكي أنّه كانت عنده أصول حسان

١ ق ط ج ودوزي : على التلاوة بالخشوع .

بخط عمّه ، مع الصحيحين بخط الصّدفي في سِفرين ، قال : ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها وإتقانها وجودتها ولا كان فيهم مَنْ رُزِقَ عند الخاصة والعامة من الخطوة والذكر وجلالة القدر ما رُزِقَه .

وذكره أبو سفيان أيضاً وأبو عمر ابن عات ، ورفعوا جميعاً بذكره .
وتوفي بشاطبة مصروفاً عن قضائها آخر ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة^١ ودفن أول يوم من سنة ست وستين وخمسمائة ، بالروضة المنسوبة إلى أبي عمر ابن عبد البر ، ومولده في رمضان سنة ٤٩٦ .

١١١- ومنهم محمد بن إبراهيم بن وضاح ، اللخمي^٢ ، من أهل غرناطة ، ونزل جزيرة شقر ، يكنى أبا القاسم ، وأخذ القراءة عن أبي الحسن ابن هذيل وسمع منه كثيراً ، ورحل حاجباً فأدّى الفريضة ، وأخذ القراءات بمكة عن أبي علي ابن العرجاء في سنة ست وأربعين وخمسمائة وستة سبع بعدها ، وحج ثلاث حجّات ، ودخل بغداد ، وأقام في رحلته نحواً من تسعة أعوام ، وقفل إلى الأندلس ، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، وأقرأ بها القرآن نحواً من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجراً ، ولا قبيل هديّة ، وولي الصلاة والخطبة بجامعها ، وكان رجلاً صالحاً ، زاهداً يشار إليه بإجابة الدعوة ، معروفاً بالورع والانقباض ، وتوفي في صفر سنة ٥٨٧ .

١١٢- ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ، التجيبي ، نزيل تلمسان^٣ ، من أهل لقنت عمل مُرسية ، وسكن أبوه أوريولة ، رحل إلى

١ هكذا هو تاريخ وفاته في التكملة و ط ج ؛ وعند ق ودوزي أنه توفي ٥٥٥ ودفن أول يوم من سنة ٥٥٦ .

٢ ترجمته في التكملة : ٤٤٤ والذيل والتكملة ٦ : ٣٩ (نسخة باريس) .

٣ ترجمته في التكملة : ٥٨٨ والذيل والتكملة ٦ : ١٣٩ (نسخة باريس) وقد أطنب ابن عبد الملك في ذكره شيوخه والآخذين عنه .

المشرق فأدّى الفريضة ، وأطال الإقامة هنالك ، واستوسع في الرواية ، وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين ، من أعيانهم المشرقين أبو طاهر السلفي ، صحبه واختص به وأكثر عنه ، وحكى أنه لما ودّعه في قفوله إلى المغرب سأله عما كتب عنه ، فأخبره أنه كتب كثيراً من الأسفار ومئين من الأجزاء ، فسُرَّ بذلك ، وقال له : تكون محدث المغرب إن شاء الله تعالى ، قد حصّلت خيراً كثيراً ، قال : ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذتُ عنه ، وقد جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفاً مفيداً أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار ، وقصّل من رحلته ، وله أربعون حديثاً في المواعظ ، وأخرى في الفقر وفضله ، وثالثة في الحب في الله تعالى ، ورابعة في فضل الصلاة على النبي ، صلى الله عليه وسلّم ، ومسلّاته في جزء ، وكتاب « فضائل الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان » وكتاب « فضل عشر ذي الحجة » وكتاب « مناقب السبطين » وكتاب « الفوائد الكبرى » مجلد ، و « الفوائد الصغرى » جزء ، وكتاب « الترغيب في الجهاد » خمسون باباً في مجلّد ، وكتاب « المواعظ والرفائق » أربعون مجلّساً ، سفران ، وكتاب « مشيخة السلفي » وغير ذلك .

ومولده بِلَقْنَت^١ الصغرى في نحو الأربعين وخمسمائة ، وتوفي سنة عشر وستمائة ، رحمه الله تعالى .

١١٣ - ومنهم الشيخ الأكبر ، ذو المحاسن التي تبّهّر ، سيدي محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الحاتمي^٢ ، من ولد

١ ق ط : بالقنت .

٢ ترجمة ابن عربي الصوفي في التكملة : ٦٥٢ والذيل والتكملة ٦ : ٢٠٢ (نسخة باريس) وعنوان الدراية : ٩٧ والوافي ٤ : ١٧٣ - ١٧٨ والفوات ٢ : ٤٧٨ وشذرات الذهب ٥ : ١٩٠ - ٢٠٢ والنجوم الزاهرة ٦ : ٣٣٩ ومرآة الزمان : ٧٣٦ . وراجع طبقات المناوي ولسان =

عبد الله بن حاتم أخى عدي بن حاتم ، الصوفي الفقيه المشهور الظاهري ، ولد بمُرْسِيَّة يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ ، قرأ القرآن على أبي بكر ابن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي ، وحدّثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرُعَيْتِي عن أبيه ، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشَّراط القرطبي ، وحدّثه به عن ابن المؤلف ، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جَمْرَةَ كتاب « التيسير » للدّاني عن أبيه عن المؤلف ، وسمع على ابن زَرْقُون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم .

وكان انتقاله من مُرْسِيَّة لإشبيلية سنة ٥٦٨ ، فأقام بها إلى سنة ٥٩٨ ، ثم ارتحل إلى المشرق ، وأجازته جماعة منهم الحافظ السلفي وابنُ عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي ، ودخل مصر ، وأقام بالحجاز مدّة ، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ ، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ، ودفن بسفح قاسيُون ، وأنشدني لنفسه مؤرخاً وفاته الشيخُ محمد ابن سعد الكلشني سنة ١٠٣٧ ، حفظه الله تعالى :

إنما الخاتميُّ في الكونِ فَرْدٌ وهو غَوْتُ وَسَيْدٌ وإمامٌ
كَمَ عُلُومٍ أتى بها من غيوبٍ من بحارِ التوحيدِ يا مُسْتَهَامُ
إن سألتُم متى توفي حميداً قلتُ أرختُ: مات قطبُ هُمَامُ

وقال ابن الأبار : هو من أهل المَرِيَّة ، وقال ابن النجار : أقام بإشبيلية

= الميزان . وفي كتبه معلومات كثيرة عنه ، وقد كتب الأستاذ آسين بلاثيوس دراسة لحياته مؤلفاً بين الأخبار التي وردت فيها (ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي هذا الكتاب ، القاهرة ١٩٦٥) وللأستاذ أبو العلا عفيفي دراسات عنه . (وراجع بروكلمان ١ : ٥٧١) .

١ في ق : ٦٣٧ ، وكذلك قال ابن عبد الملك في الذيل والتكملة .

٢ في نسخة : ١٠٣٨ .

إلى سنة ٥٩٨ هـ ، ثم دخل بلاد المشرق ، وقال ابن الأبار : إنه أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الآداب ، وكتب لبعض الولاة ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً ، ولم يعد بعدها إلى الأندلس . وقال المنذري : ذكر أنه سمع بقُرْطُبَة من أبي القاسم ابن بَشْكُوَال وجماعة سواه ، وطاف البلاد ، وسكن بلاد الروم مدة ، وجمع مجاميع في الطريقة ، وقال ابن الأبار : إنه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين ، وأخذوا عنه ، وقال غيره : إنه قدم بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، وكان يُومأ إليه بالفضل والمعرفة ، والغالبُ عليه طرق أهل الحقيقة ، وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف ، ووصفَه غيرُ واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز ، وله أصحاب وأتباع .

ومن تأليفه مجموع ضمَّته منامات رأى فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم وما سمع منه ومنامات قد حدث بها عمَّن رآه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن النجار : وكان قد صحب الصوفية ، وأرباب القلوب ، وسلك طريق الفقر ، وحجَّ وجاور ، وكتب في علم القوم ، وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادها ، وله أشعار حسنة وكلام مليح ؛ اجتمعت به^١ في دمشق في رحلتي إليها ، وكتبت عنه شيئاً من شعره ، ونِعِمَّ الشيخ هو ، ذكر لي أنه دخل بغداد سنة ٦٠١ هـ ، فأقام بها اثني عشر يوماً ، ثم دخلها ثانياً حاجاً مع الركب سنة ٦٠٨ هـ ، وأنشدني لنفسه :

أيا حائراً^٢ ما بينَ علم وشهوة ليتصلا ، ما بينَ ضدَّينِ من وصلِ
ومن لم يكن يستشيقُ الريحَ لم يكن يرى الفضلَ للمسكِ الفتيقِ على الزبلِ

وسأله عن مولده فقال : ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمُرْسِيَة من بلاد الأندلس ، انتهى .

١ انظر هذا النص في الوافي ٤ : ١٧٨ نقلا عن ابن النجار .

٢ الوافي : أنا حائر .

وقال ابن مُسْدي : إنّه كان جميل الجملة والتفصيل ، محصلاً لفنون العلم أخصّ تحصيل ، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلْحَق ، والتقدم الذي لا يُسْبَق ، سمع بيلاده من ابن زَرْقُون والحافظ ابن الجلد وأبي الوليد الحضرمي وبسببته من أبي محمد ابن عبد الله ، وقدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي فسمع منه ، وأبو جعفر ابن مُصَلِّي ، وذكر أنّه لقي عبد الحق الإشبيلي ، وفي ذلك عندي نظر ، انتهى .

قلت : لا نظر في ذلك ، فإن سيدي الشيخ محيي الدين ذكر في إجازته للملك المظفر غازي ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ما معناه أو نصّه : ومن شيوختنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي ، رحمه الله تعالى ؛ حدثني بجميع مصنفاته في الحديث ، وعين لي من أسمائها تلقين المهتدي ، والأحكام الكبرى ، والوسطى ، والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ، ونظمه ونثره ، وحدثني بكتب الإمام أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم عن أبي الحسن شُريح بن محمد بن شُريح عنه ، انتهى .

وقال : إن الحافظ السِّلَفي أجاز له ، انتهى . قال بعض الحفاظ : وأحسبها الإجازة العامة .

وكان ظاهريّ المذهب في العبادات ، باطنيّ النظر في الاعتقادات ، وكان دَفَنه يوم الجمعة بجبل قاسيون ، واتفق أنّه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملكُ فقال : هذا تذُلُّ له الأسود^١ ، أو كلاماً هذا معناه ، فسُئِلَ عن ذلك ، فقال : خدمت بمكة بعض الصلحاء ، فقال لي يوماً : الله يُنْذِلُ لك أعزَّ خلقه ، وأمر له ملك الروم مرةً بدارٍ تساوي مائة ألف درهم ، فلما نزلها وأقام بها مرَّ به في بعض الأيام سائل ، فقال له : شيء لله ، فقال : ما لي غير هذه الدار ، خذها لك ، فتسلّمها السائل وصارت له .

١ الوافي : هذا بدعوة الأسود ؛ الفوات : تذعر له الأسود .

وقال الذهبي في حقّه : إن له توسّعاً في الكلام ، وذكاء ، وقوّة خاطر ، وحافظة ، وتدقيقاً في التصوّف ، وتواليف جمّة في العرفان ، لولا شطّطه في كلامه وشعره ، ولعلّ ذلك وقع منه حال سكره وغيبته ، فيرجى له الخير ، انتهى .

وقال القطب اليونيني في ذيل « مرآة الزمان » : عن سيدي الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه ونفعنا به — أنّه كان يقول : إنّي أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء ، انتهى .

وقال ابن شوّذكين عنه : إنّه كان يقول : ينبغي للعبد أن يستعمل همّته في الحضور في مناماته ، بحيث يكون حاكماً على خياله يصرفه بعقله نوماً ، كما كان يحكم عليه يقظة ، فإذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلُقاً له وجد ثمرة ذلك في البرزخ وانفع به جدّاً ، فليهم العبد بتحصيل هذا القدر ، فإنّه عظيم الفائدة بإذن الله تعالى .

وقال : إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزّمه بذلك .

وقال : ينبغي للسالك أنّه متى حضر له أنّه يعقد على أمرٍ ويعاهد الله تعالى عليه ، أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته ، فإن يسّر الله تعالى فعله فعلمه ، وإن لم يسّر الله فعله ، يكون مخلصاً من نكث العهد ، ولا يكون متصفاً بنقض الميثاق .

ومن نظم الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى قوله :

بين التدلّل والتدلّل نقطةٌ فيها يتيهُ العالم النحريرُ
هي نقطةُ الأكوان إن جاوزتها كنتَ الحكيمَ وعلمكُ الإكسيرُ
وقوله أيضاً رحمه الله :

يا دُرّةً بيضاءَ لاهوتيّةً قد رُكبتَ صدفاً من الناسوتِ

جهيل البسيطة^١ قدرها لشقائهم وتنافسوا في الدر والياقوت

وحكى العماد بن النحاس الأطروش^٢ أنه كان في سَفْح جبل قاسيُون
على مستشف ، وعنده الشيخ محيي الدين ، والغيث والسحاب عليهم ،
ودمشق ليس عليها شيء ، قال : فقلت للشيخ : أما ترى هذه الحال ؟ فقال :
كنت بمراكش وعندي ابن خروف الشاعر ، يعني أبا الحسن علي بن محمد
القرطبي القبيداتي^٣ ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه المقالة ،
فأنشدني :

يطوفُ السحابُ بمراكش طواف الحجيج بيت الحَرَمِ
يرومُ نَزولاً فلا يستطيعُ لسفكِ الدماء وهتكِ الحَرَمِ

وحكى المقرئ في ترجمة سيدي عمر بن الفارض — أفاض الله علينا من
أنواره — أن الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إلى سيدي عمر يستأذنه في شرح
أَكْبَرُ كِتَابِ التَّائِبَةِ ، فقال : [كتابك المسمي بالفتوحات المكيّة شرحٌ لها ، انتهى .
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] وقال بعض مَنْ عَرَفَ به : إنه لما صَنَّفَ «الفتوحات المكيّة» كان
مربياً عمره يكب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان ، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة ،
صدمت جِسْمَهُ فما ادَّخَرَ منها شيئاً ، وقيل : إن صاحب حمص رَتَبَ له كل يوم مائة
درهم ، وابن الزكي كل يوم ثلاثين درهماً ، فكان يتصدق بالجميع ، واشتغل
الناس بمصنّفاته ، ولها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم ، وهو من عجائب
الزمان ، وكان يقول : أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب .

ومن نظمه :

١ دوزي : جهل البرية .

٢ ط : الأطروش .

٣ ق ط ج : القيداتي .

وما رآها بَصَرِي	حقيقتي هَمْتُ بِهَا
قتيلَ ذاك الحَوَرِ	ولَوَ رآها لَعَدَا
صِرْتُ بِحُكْمِ النَّظَرِ	فَعِنْدَمَا أَبْصَرْتُهَا
أَهَيْمُ حَتَّى السَّحَرِ	فَبْتُ مَسْحُورًا بِهَا
لو كَانَ يُغْنِي حَذْرِي	يا حَذْرِي مِنْ حَذْرِي
جَمَالُ ذَاكَ الْحَقَرِ	وَاللَّهِ مَا هَيَّمَنِي
تَرَعَى بِذَاتِ الْحَمَرِ	فِي حُسْنِهَا مِنْ ظَلِيمَةٍ
تَسْبِي عَقُولَ الْبَشَرِ	إِذَا رَنَتْ أَوْ عَطَفَتْ
أَعْرَافُ مَسْكٍ عَطْرِ	كَأَنَّمَا أَنْفَاسُهَا
فِي النُّورِ أَوْ كَالْقَمَرِ	كَأَنَّمَا شَمْسُ الضُّحَى
نُورُ صَبَاحٍ مُسْفَرٍ	إِنْ أَسْفَرَتْ أَبْرَزَهَا
سَوَادُ ذَاكَ الشَّعَرِ	أَوْ سَدَلَتْ غَيْبَهَا
خَذِي فَوَادِي وَذَرِي	يَا قَمْرًا تَحْتَ دُجَى
إِذَا كَانَ حَظِّي نَظْرِي	عَيْنِي لَكِي أَبْصِرْكُمْ

وقال الحَوَيْي : قال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه : رأيت بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة ، فسألني : كيف حالك مع أهلك ؟ فقلت : ' :

إذا رأت أهل بيتي الكيسَ ممتلئاً تبَسَّمتَ ودَتَّتْ مِنِّي تمازحُنِي
وإن رأتَهُ خليئاً من دراهمِهِ تَجَهَّمَتِ وَاثْنَتْ عَنِّي تقابحُنِي

فقال لي : صدقت ، كلَّنا ذلك الرجل .
وذكر الإمام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة ، وشيخ الطريقة ، صفى الدين

حسين ابن الإمام العلامة جمال الدين أبي الحسن علي ، ابن الإمام مفتي الأنام كمال الدين أبي منصور ظاهر الأزدي الأنصاري رضي الله تعالى عنه ، في رسالته الفريدة المحتوية على مَنْ رَأَى من سادات مشايخ عصره ، بعد كلام ، ما صورته : ورأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ، وما وفر له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيدُ علماً وخلقاً وحالاً ، لا يكثرث بالوجود ، مقبلاً كان أو معرضاً ، وله علماء أتباع أرباب مَوَاجِد ، وتصانيف ، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحرَّار إخاء ورفقة في السياحات ، رضي الله تعالى عنهما ، في الآصال والبكرات ، ومن نظم سيدي الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه قوله :

يا مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ كَمْ ذَا أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي

قال رحمه الله تعالى : قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت : كيف تقول : إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ فقلت له مرتجلاً :

يا مَنْ يَرَانِي مُجْرِمًا وَلَا أَرَاهُ آخِذَا
كَمْ ذَا أَرَاهُ مُنْعِمًا وَلَا يَرَانِي لَاثِذَا

قلتُ : من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤوَّل ، وأنه لا يقصد ظاهره ، وإنما له محامل تليق به ، وكفاك شاهداً هذه الجزئية الواحدة ، فأحسنِ الظنَّ به ولا تنتقد ، بل اعتقد ، وللتأس في هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أسلم ، والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم .

ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدي محيي الدين رضي الله تعالى عنه ، في ضابط ليلة القدر :

وإنّا جميعاً إنّ نَصُمَ يَوْمَ جُمُعَةٍ ففي تاسع العشرين خُذَ لَيْلَةَ الْقَدَرِ
وإن كان يومُ السَّبْتِ أَوَّلَ صَوْمِنَا فحادي وعشرين اعْتَمِدَهُ بِلا عُسْرِ
وإن كان صوم الشهر في أحدٍ فَخُذْ ففي سابع العشرين ما شئتَ فَاسْتَقْرِي
وإن هَلََّ بِالْإِثْنَيْنِ فَاعْلَمْ بِأَنَّهُ يُؤَاتِيكَ نَيْلُ الْوَجْدِ فِي تاسعِ العَشْرِ
ويومُ الثَّلَاثَا إن بدا الشهرُ فَاعْتَمِدْ على خَامِسِ العَشْرِ فاعْمَلْ بِهَا تَدْرِي
وفي الأَرْبَعَا إن هَلََّ يَا مَنْ يَرُومُهَا فدُونِكَ فَاطْلُبْ وصلها سَابِعِ العَشْرِ
ويومُ خَمِيسٍ إن بدا الشهرُ فَاجْتَهِدْ ففي ثالثِ العَشْرِ تَظْفَرِ بالنَّصْرِ
وضَابِطُهَا بِالْقَوْلِ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ تُؤَافِيكَ بَعْدَ النِّصْفِ فِي لَيْلَةِ الْوَتْرِ

قلت : لستُ على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ رحمه الله تعالى ، فإن
نَفْسَهُ أَعْلَى من هذا النظم ، ولكنني ذكرته لما فيه من الفائدة ، ولأن بعض
الناس نسبوه إليه ، فالله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

ومما نسبوه إليه رحمه الله تعالى غيرُ واحدٍ قوله :

قَلْبِي قَطْبِي ، وَقَالِي أَجْفَانِي سَرِّي خَضْرِي ، وَعَيْنِي عِرْفَانِي
رُوحِي هَرُونٌ وَكَلِيمِي مُوسَى نَفْسِي فِرْعَوْنٌ ، وَالْهَوَى هَامَانِي

وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يُكْتَبَانِ لِمَنْ بِهِ الْقَوْلَانِجُ فِي كَفِّهِ
وَيُلْحَسُهُمَا ، فَإِنَّهُ يَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : وَهُوَ مِنَ الْمَجْرَبَاتِ .
وقد تأوَّل بعضُ العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بِإِيْمَانِ فِرْعَوْنَ أن مراده
بِفِرْعَوْنَ النَّفْسَ بِدَلِيلِ مَا سَبَقَ ، وَحَكَى فِي ذَلِكَ حِكَايَةَ عَنْ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ مِمَّنْ
كَانَ يَنْتَصِرُ لِلشَّيْخِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

* * *

[سعد الدين ابن الشيخ محيي الدين]

ولد للشيخ محيي الدين - رحمه الله تعالى - ابنه محمد المدعو سعد الدين^١ بملطية في رمضان سنة ٦١٨ ، وسمع الحديث ، ودرس ، وقال الشعر الجيد . وله ديوان شعر مشهور ، وتوفي بلمشق سنة ٦٥٦ سنة دخل هولاء بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ودفن المذكور عند والده بسفح قاسيون ، وكان قدم القاهرة ، وسكن حلبا ، ومن شعره^٢ :

لَمَّا تَبَدَّى عَارِضَاهُ فِي نَمَطٍ قِيلَ ظِلَامٌ بِضِيَاءٍ اخْتَلَطُ
وَقِيلَ سَطْرُ الْحَسَنِ فِي خَدَّيْهِ خَطٌ وَقِيلَ نَمْلٌ فَوْقَ عَاجٍ انْبَسَطُ^٣
وَقِيلَ مِسْكٌ فَوْقَ وَرْدٍ قَدْ نُقِطُ وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّهَا اللَّامُ فَقَطُ

* * *

[حكاية عن ابن جزري]

قلت : تذكرت بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد الله ابن جُزَيِّ الأندلسي^٤ كاتبُ سلطان المغرب أبي عنان حين تنازع الكتّابُ أربابُ الأقلامِ والرؤساءُ أصحابُ السيوفِ في تشبيه العذار ، وقالت كل فرقة : لا نشبهه إلا بما هو مناسب لصنعتنا ، فلما فرغوا قال ابن جُزَيِّ :

أَتَى أُولُو الْكُتُبِ وَالسِّيفِ الْأَوَّلَى عَزَمُوا مِنْ بَعْدِ سِلْمِي عَلَى حَرْبِي وَإِسْلَامِي

١ انظر ترجمة سعد الدين بن عربي في فوات الوفيات ٢ : ٣٢٥ والوافي ١ : ١٨٦ وشذرات الذهب ٥ : ٢٨٣ .

٢ انظر الفوات ٢ : ٣٢٦ والوافي ١ : ١٨٨ .

٣ الفوات والوافي : قد سقط .

٤ هو محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزري الكلبي (٧٢١ - ٧٥٧) غرناطي الأصل ، كتب عن السلطان أبي الحجاج يوسف ثم ارتحل ولحق بجناب السلطان أبي عنان ، وهو الذي كتب رحلة ابن بطوطة ورتبها (انظر ترجمته في الإحاطة ٢ : ١٨٦ والكتيبة الكامنة : ٢٢٣ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٩ ونثير فرائد الجمان ، الورقة : ٤ ونثير الجمان الورقة : ٧٨) .

بِكُلِّ مَعْنَى بَدِيعٍ فِي الْعِذَارِ عَلَى مَا تَقْنِضِي مِنْهُمْ أَفْكَارُ أَحْلَامِي
فَقَالَ ذُو الْكُتُبِ : لَا أَرْضَى الْمُحَارِبَ فِي تَشْبِيهِهِ لَا وَأَنْقَاسِي وَأَقْلَامِي
وَقَالَ ذُو الْحَرْبِ : لَا أَرْضَى الْكُتَّابَ فِي تَشْبِيهِهِ وَمِطْلَآتِي وَأَعْلَامِي
فَقُلْتُ : أَجْمَعُ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ مَعاً بِاللَّامِ ، فَاسْتَحْسِنُوا التَّشْبِيهَ بِاللَّامِ

وهذه الغاية التي لا تدرك مع البديهة ولزوم ما لا يلزم .
رجع — ومن نظم سعد الدين قوله ^١ :

سَهْرِي مِنَ الْمَحْبُوبِ أَصْبَحَ مُرْسِلاً وَأَرَاهُ مُتَّصِلاً بِفَيْضِ مَدَامِعِ
قَالَ الْحَبِيبُ : بَأَنَّ رِيقِي نَافِعٌ فَاسْمَعْ رَوَايَةَ مَالِكٍ عَنْ نَافِعِ
وَمِنْ نَظْمِهِ أَيْضاً قَوْلُهُ :

وَقَالُوا : قَصِيرٌ شَعَرٌ مَنْ قَدْ هَوَيْتَهُ فَقُلْتُ : دَعُونِي لَا أَرَى مِنْهُ مَخْلَصَا
مُحْيَاهُ شَمْسٍ قَدْ عُلَتْ غُصْنٌ قَدْ هِ فَلَا عَجَبٌ لِلظِّلِّ أَنْ يَتَقَلَّصَا
وَقَوْلُهُ ^٢ :

وَرُبَّ قَاضٍ لَنَا مَلِيحٍ يُعْرِبُ عَنْ مَنْطِقِ لَذِيزِ
إِذَا رَمَانَا بِسَهْمٍ لَحْظِ قُلْنَا لَهُ دَائِمُ النُّفُودِ

وَقَوْلُهُ ^٣ :

لَكَ وَاللَّهِ مَنَظَرٌ قَلَّ فِيهِ الْمُشَارِكُ
إِنَّ يَوْماً تَكُونُ فِيهِ لِيَوْمٍ مُبَارِكُ

١ انظر البيتين في الواقي : ١٨٨ .

٢ البيتان في الفوات والواقي .

٣ هما في الفوات من مقطوعة في تسعة أبيات .

ومن نظمهُ أيضاً ما كتب به إلى أخيه عماد الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ
الأكبر محيي الدين بن عربي أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته ، قوله :

ما للنوى رقةٌ ترثي لمكتبِ حَرَآن في قلبه والدمعُ في حلبِ
قد أصبحتُ حلبُ ذاتَ العماد بكم وجِلَقُ لِرَمٌ هذا من العجبِ

وتوفي الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧ ، ودفن بسفح قاسيون عند
والده بتربة القاضي ابن الزكي ، رحم الله تعالى الجميع .
وابن الزكي أيضاً محيي الدين .

ومن نظم سعد الدين المذكور في وسيم رآه بالزيادة في دمشق :

يا خليلي في الزيادة ظبيٌ سَلَبَتْ مُقَلَّتَاهُ جفني رقادةُ
كيف أرجو السُّلُو عنه وطرفي ناظرٌ حُسنَ وجهه في الزيادة

وله :

علقتُ صُوفِيّاً كبدِ الدُّجَى لكنّه في وَصلي الزاهدُ
يشهدُ وَجدي بغرامي له قدَيْتُ صُوفِيّاً له شاهدُ

وله أيضاً :

صوت إلى حَرِيرِي مَلِيحٌ تكررَ نحوَ منزله مَسِيرِي
أقولُ له : ألا تَرثي لَصَبٍ عديم للمُساعد والنصيرِ
أقام ببابِكُمُ خَمْسِينَ شَهْراً فقال : كذا مقاماتُ الحريري

وله :

وغزال من اليَهُود أتاني زائراً من كَنيسِهِ أو كَناسِهِ

بَتُّ أَجْنِي الشَّقِيقَ مِنْ وَجَنَتَيْهِ وَأَشْمُ الْعَبِيرَ مِنْ أَنْفَاسِهِ
واعتنقنا إذ لم نخف من رقيب مَنْ رَأَى يَظُنُّنِي لِنَحُولِي
وَأَمِنَا الْوُشَاةَ مِنْ حُرَّاسِهِ وَاصْفِرَّ أَرِي عِلَامَةً فَوْقَ رَأْسِهِ
وَلَهُ :

لِي حَبِيبٌ بِالنَّحْوِ أَصْبَحَ مُغْرَى فَهُوَ مِنِّي بِمَا أَعَانِيهِ أَذْرَى
قُلْتُ : مَاذَا تَقُولُ حِينَ تُنَادِي يَا حَبِيبِي الْمُضَافَ نَحْوَكَ جَهْرًا
قَالَ لِي : يَا غَلَامُ ، أَوْ يَا غَلَامِي قُلْتُ : لَبَّيْكَ ثُمَّ لَبَّيْكَ عَشْرًا
وَلَهُ أَيْضًا :

سَاءَ لَتَنِي عَنْ لَفْظَةِ لُغَوِيَّةٍ فَأَجَبْتُ مُبْتَدَأًا بِغَيْرِ تَفَكُّرٍ
خَاطَبَتْنِي مُتَبَسِّمًا فَرَأَيْتُهَا مِنْ نَظْمِ ثَعْرَكَ فِي صَحَاحِ الْجَوْهَرِي
وَلَهُ :

وَعَلِمْتُ أَنَّ مِنَ الْحَدِيدِ فُرَادَةً لَمَّا انْتَضَى مِنْ مُقْلَتَيْهِ مُهْنَدًا
أَنْسْتُ مِنْ وَجْدِي بِجَانِبِ خَدِّهِ نَارًا وَلَكِنْ مَا وَجَدْتُ بِهَا هُدًى

* * *

[رجع إلى الشيخ محيي الدين]

وقال الشيخ محيي الدين - أفاض الله تعالى علينا من أنواره ، وكسانا بعض
حلل أسرارهِ - إنه بلغني في مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت في بأمور
عظيمة ، فقلت : هذه قد جعلها الله تعالى سبياً لخير وصل إلي فلا كافيتها ،
وعقدت في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها ، ففعلت ذلك ، فلما
كان الموسم استدل علي رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده ، فقال : رأيت
بالينع في الليلة التي بت فيها كأن آلافاً من الإبل أوقارها المسك والعنبر والجوهر ،

ف عجبت من كثرتة ، ثم سألت : لمن هو ؟ فقيل : هو لمحمد بن عربي يهديه إلى فلانة ؛ وسمى تلك المرأة ثم قال : وهذا بعض ما تستحق ، قال سيدي ابن عربي : فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة ، ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم مني ذلك ، علمت أنه تعريف من جانب الحق ، وفهمت من قوله إن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة وقلت : اصدقيني ، وذكرت لها ما كان من ذلك ، فقالت : كنت قاعدة قبالة البيت ، وأنت تطوف ، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت في نفسي : اللهم إنني أشهدك أنني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس ، وكنت أصومهما وأنصديق فيهما ، قال : فعلمت أن الذي وصل مني إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت بالجميل ، والفضل للمتقدم .

ومن نظم الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى :

يا غاية السؤل والمأمول يا سندي	شوقي إليك شديد لا إلى أحد
ذُبتُ اشتياقاً ووجداً في محبتكم	فأه من طول شوقي آه من كمدتي
بدي وضعتُ على قلبي مخافة أن	ينشق صدري لما خانني جلدتي
ما زال يرفعها طوراً ويخفضها	حتى وضعت يدي الأخرى تشد يدي

وحكى سبط ابن الجوزي عن الشيخ محيي الدين أنه كان يقول : إنه يحفظ الاسم الأعظم ، ويقول : إنه يعرف السيميا بطريق التنزل ، لا بطريق التكسب ، انتهى والله تعالى أعلم ، والتسليم أسلم .

ومن نظم الشيخ محيي الدين قوله :

ما فاز بالتوبة إلا الذي قد تاب قديماً والورى نؤم
فمن يتب أدرك مطلوبة من توبة الناس ولا يعلم

وله ، رحمه الله تعالى ، من المحاسن ما لا يستوفى .

وأنشدني لنفسه بدمشق صاحبنا الصوفي الشيخ محمد بن سعد الكلشني -
حفظه الله تعالى - قوله شيخنا : الحاتمي . . . (الأبيات) ١ ؛ وأنشدني لنفسه :

أَمْوَلَايَ حِمِي الدِّينَ أَنْتَ الَّذِي بَدَتْ
عِلْمُكَ فِي الْآفَاقِ كَالغَيْثِ مُنْذُ هَمِي
كَشَفْتَ مَعَانِي كُلِّ عِلْمٍ مُكْتَمٍ وَأَوْضَحْتَ
بِالتَّحْقِيقِ مَا كَانَ مُبْهَمًا

وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة ، وآيته الباهرة ، ولا يلتفت إلى كلام من
تكلم فيه ، والله درُ السيوطي الحافظ فإنه ألَّف « تنبيه الغبي على تنزيه ابن
عربي » ومقامُ هذا الشيخ معلوم ، والتعريف به يستدعي طولاً ، وهو أظهر
من نار^٢ على عَلم .

وكان بالمغرب يُعرَف بابن العربي بالآلف واللام ، واصطلاح أهل المشرق
على ذكره بغير ألف ولام ، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر ابن العربي .

وقال ابن خاتمة في كتابه « مزية المريّة » ما نصّه : محمد بن علي بن محمد
الطائي الصوفي ، من أهل إشبيلية ، وأصله من مُرُسيّة ، يكنى أبا بكر ، ويُعرف
بابن العربي وبالحاتمي أيضاً ، أخذ عن مشيخة بلده ، ومال إلى الآداب ، وكتب
لبعض الولاة بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً فأدّى الفريضة ، ولم يعد
بعدها إلى الأندلس ، وسمع الحديث من أبي القاسم الحرّستاني ومن غيره ،
وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن ابن أبي نصر في شوال سنة ٦٠٦ .
وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي ، ويقول بها . وبرع في
علم التصوّف ، وله في ذلك تواليف كثيرة : منها « الجمع والتفصيل في
حقائق التنزيل » و « الجذوة المقتبسة والخطرة المختلصة » وكتاب « كشف
المعنى في تفسير الأسماء الحسنى » وكتاب « المعارف الإلهية » وكتاب « الإسرا

١ أثبت في الأصول الأبيات التي مرت ص : ١٦٢ .

٢ ق ط ج : من نور ، وصوبت في هامش ج .

إلى المقام الأسرى » وكتاب « مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم » وكتاب « عنقاء مغرب » في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب » وكتاب « في فضائل مشيخة عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدي » ، والرسالة الملقبة بـ « مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية » في كتب أخر عديدة ، وقدم على المريّة من مُرسية مُستهلّ شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وبها ألّف كتابه الموسوم بـ « مواقع النجوم » ، انتهى .
ولا خفاء أن مقام الشيخ عظم بعد انتقاله من المغرب ، وقد ذكر ، رحمه الله تعالى ، في بعض كتبه أن مولده بمُرسية .

وفي الكتاب المسمى بـ « الاغتباط بمعالجة ابن الحياط » تأليف شيخ الإسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي الصديقي صاحب القاموس ، قدّس الله تعالى روحه ، الذي ألّفه بسبب سؤال سُئل فيه عن الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي الطائي قدّس الله تعالى سرّه العزيز في كتبه المنسوبة إليه ، ما صورته :

ما تقول السادة العلماء شدّ الله تعالى بهم أزر الدين ، ولمّ بهم شعث المسلمين ، في الشيخ محيي الدين بن عربي في كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات والقصص ، هل تحلّ قراءتها وإقراؤها ومطالعتها ؟ وهل هي الكتب المسموعة المقرّوة أم لا ؟ أفتونا مأجورين جواباً شافياً لتحوزوا جميل الثواب ، من الله الكريم الوهاب ، والحمد لله وحده .

فأجابه بما صورته : الحمد لله ، اللهم أنطقنا بما فيه رضاك ، الذي أعتقده في حال المسؤول عنه وأدين الله تعالى به ، أنّه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً ، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً ، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً :

إذا تَغَلَّغَلْ فِكْرُ المرءِ في طَرَفٍ مِنْ بَحْرِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ
وهو عُباب لا تكدره الدّلاء ، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، وكانت

دعوته تخترق السبع الطباق ، وتنفرد بركاته فتملأ الآفاق ، وإنّي أصفه وهو
يقيناً فوق ما وصفته ، وناطق بما كتبه ، وغالب ظني أنني ما أنصفته :

وما عَلَيَّ إذا ما قلت مُعْتَقِدِي دع الجَهِولَ يَظُنُّ العَدْلَ عُدْوانا
والله والله والله العظيم وَمَنْ أَقامَهُ حُجَّةً للدين بُرْهاناً
بأنَّ ما قلتُ بعضٌ من مَنابِه ما زدتُ إلاّ لعلّي زدت نقصاناً

وأما كتبه ومصنّفاته فبالبحار الزواجر ، التي لجواهرها وكثرتها لا يُعرف
لها أول ولا آخر ، ما وضع الواضعون مثلها ، وإنّما خصّ الله سبحانه بمعرفة
قدرها أهلها ، ومن خواص كتبه أن مَنْ واطب على مطالعتها والنظر فيها ،
وتأمّل ما في مبانيها ، انشرح صدره لحل المشكلات ، وفك المضلات ، وهذا
الشأن لا يكون إلا لأنفاس مَنْ خصّه الله تعالى بالعلوم الدنية الربانية ، ووقفت
على إجازة كَتَبَهَا للملك المعظم فقال في آخرها : وأجزته أيضاً أن يروي عني
مصنفاي . ومن جملة ما كذا وكذا ، حتى عدّ نيّفاً وأربعمئة مصنف ، منها
التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَاهُ
مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف : ٦٥) وتوفّي ولم يكمل ، وهذا التفسير كتاب عظيم ،
كل سفر بحر لا ساحل له ، ولا غرو فإنّه صاحب الولاية العظمى ، والصدّيقية
الكبرى ، فيما نعتقد وندين الله تعالى به . وثم طائفة ، في الغي حائفة ، يُعْظِمُونَ
عليه النكير ، وربّما بلغ بهم الجهل إلى حد التكفير ، وما ذاك إلا لقصور
أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها ، ولم تصل أيديهم لقصّها
إلى اقتطاف مجانيها :

عَلَيَّ نَحْتُ القوافي من مَعادِنِها وما عَلَيَّ إذا لم تفهم البَقَرُ

هذا الذي نعلم ونعتقد ، وندين الله تعالى به في حقه ، والله سبحانه وتعالى
أعلم ، وصورة استشهاده : كتبه محمد الصديقي الملتجئ إلى حرم الله تعالى ،

عفا الله عنه .

وأما احتجاجه بقول شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام مشايخ الشافعية فغير صحيح ، بل كذب وزور ، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ كلّهم عن خادم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام أنّه قال : كنّا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ، فجاء في باب الردّة ذكر لفظة الزنديق ، فقال بعضهم : هل هي عربية أو عجميّة ؟ فقال بعض الفضلاء : إنّما هي فارسيّة معرّبة ، أصلها زن دين ، أي على دين المرأة ، وهو الذي يضمّر الكفر ويظهر الإيمان ، فقال بعضهم : مثل من ؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ : مثل ابن عربي بدمشق ، فلم ينطق الشيخ ولم يردّ عليه ، قال الخادم : وكنت صائماً ذلك اليوم ، فاتفق أن الشيخ دعاني للإفطار معه ، فحضرت ووجدت منه إقبالاً ولطفاً ، فقلت له : يا سيّدي ، هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا ؟ فقال : ما لك ولهذا ؟ كلّ ، فعرفت أنّه يعرفه ، فتركت الأكل وقلت له : لوجه الله تعالى عرفني به ، من هو ؟ فتبسّم ، رحمه الله تعالى ، وقال لي : الشيخ محيي الدين بن عربي ، فأطرقت ساكناً متحيراً ، فقال : ما لك ؟ فقلت : يا سيّدي ، قد حرّرت ، قال : لم ؟ قلت : أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت ؟ فقال : آسكت ، ذلك مجلس الفقهاء ، هذا الذي روي لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام .

وأما قول غيره من أضراب الشيخ عزّ الدين فكثير ، كان الشيخ كمال الدين الزملكاني من أجلّ مشايخ الشام أيضاً يقول : ما أجهل هؤلاء ! ينكرون على الشيخ محيي الدين بن عربي لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها ، فليأتوني لأحلّ لهم مشكله ، وأبين لهم مقاصده ، بحيث يظهر لهم الحق ، ويزول عنهم الزمهم .

وهذا القطب سعد الدين الحموي سئل عن الشيخ محيي الدين بن عربي لما

رجع من الشام إلى بلاده : كيف وجدت ابن عربي ؟ فقال : وجدته بجرأ زخاراً لا ساحل له .

وهذا الشيخ صلاح الدين الصفدي له كتاب جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة ، وهي موجودة في خزانة السلطان ، تنظر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي لتعرف مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم الدنية والمواهب الربانية .

وقوله في شيء من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره : إنه صنّفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية ، وأمره بإخراجه إلى الناس ، قال الشيخ محيي الدين الذهبي حافظ الشام : ما أظن المحيي يتعمّد الكذب أصلاً ؛ وهو من أعظم المنكرين وأشدّهم على طائفة الصوفية .

ثم إن الشيخ محيي الدين ، رحمه الله تعالى ، كان مسكنه ومظهره بدمشق ، وأخرج هذه العلوم إليهم ، ولم ينكر عليه أحد شيئاً من ذلك ، وكان قاضي القضاة الشافعية في عصره شمس الدين أحمد الخويّي يخدمه خدمة العبيد ، وقاضي القضاة المالكية زوجته بابنته ، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ .

وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات ، وقول المنكرين في حقّ مثله غشّاء وهبّاء لا يُعبأ به ، والحمد لله تعالى ، انتهى ما نقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراي ، رضي الله تعالى عنه .

وقد حكى الشيخ رضي الله تعالى عنه ، عن نفسه في كتبه ما يبهر الألباب ، وكفى بذلك دليلاً على ما منحه الله ، الذي يفتح لمن شاء الباب ، وقد اعتنى بتربته بصاحبة دمشق سلاطين بني عثمان ، نصرهم الله تعالى ، على توالي الأزمان ، وبني عليه السلطان المرحوم سليم خان المدرسة العظيمة ، ورتب له الأوقاف ، وقد زرت قبره وتبركت به مراراً ، ورأيت لوائح الأنوار عليه

١ الصواب : شمس الدين ، فهذا هو لقب الذهبي .

ظاهرة ، ولا يجد منصف مَحِيداً إلى إنكار ما يشاهد عند قبره من الأحوال الباهرة ، وكانت زيارتي له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة ١٠٣٧ .

وقال في « عنوان الدراية » : إن الشيخ محيي الدين كان يُعرف بالأندلس بابن سُراقَة ، وهو فصيح اللسان ، بارع فهم الجنان ، قوي على الإيراد ، كلما طلب الزيادة يزاد ، رحل إلى العُدوة ، ودخل بِجَايَة في رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، وبها لقي أبا عبد الله العربي وجماعة من الأفاضل ، ولما دخل بِجَايَة في التاريخ المذكور قال : رأيت ليلة أتني نكحت نجوم السماء كلها ، فما بقي منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ، ثم عرضت رؤياي هذه على مَنْ قَصَّها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذي عرضتها عليه : لا تذكرني ، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال : هذا هو البحر الذي لا يُدْرَك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم سكنت ساعة وقال : إن كان صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو ذاك الشاب الأندلسي الذي وصل إليها .

ثم قال صاحب العنوان ما ملخصه : إن الشيخ محيي الدين رحل إلى المشرق ، واستقرت به الدار ، وألّف تواليفه ، وفيها ما فيها ، إن قيّض الله تعالى مَنْ يسامح ويتأول سهّل المرام ، وإن كان ممّن ينظر بالظاهر فالأمر صعب ، وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعّوا في إراقة دمه ، فخلّصه الله تعالى على يد الشيخ أبي الحسن البجائي ، فإنّه سعى في خلاصه وتأول كلامه ، ولما وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ ، رحمه الله تعالى : كيف يحبس من حل منه اللاهوت في الناسوت ؟ فقال له : يا سيدي ، تلك شطحات في محل سكر ولا عتب على سكران .

وتوفي الشيخ محيي الدين في نحو الأربعين وستمائة ، وكان يحدث بالإجازة العامة عن السلفي ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه قوله ^١ :

سَرَائِرُ الْأَعْيَانُ	لَا حَتَّ عَلَى الْأَكْوَانِ	لِلنَّاطِرِينَ
وَالْعَاشِقُ الْغَيْرَانُ	مَنْ ذَاكَ فِي بُحْرَانٍ ^٢	يُبْدِي الْأَيْنِ
يَقُولُ وَالْوَجْدُ	أَضْنَاهُ وَالْبُعْدُ ^٣	قَدْ حَيَّرَهُ
لَمَّا دَنَا الْبُعْدُ	لَمْ أَدْرِ مَنْ بَعْدُ	مَنْ غَيَّرَهُ
وَهَيِّمُ الْعَبْدُ	وَالوَاحِدُ الْفَرْدُ	قَدْ خَيَّرَهُ
فِي الْبَوَّاحِ وَالْكَيْثَمَانِ	وَالسَّرِّ وَالْإِعْلَانِ	فِي الْعَالَمِينَ
أَنَا هُوَ الدِّيَّانُ	يَا عَابِدَ الْأَوْتَانِ	أَنْتَ الْفَضِّلُ
كُلُّ الْهَوَى صَعْبُ	عَلَى الَّذِي يَشْكُو	ذُلَّ الْحِجَابِ
يَا مَنْ لَهُ قَلْبُ	لَوْ أَنَّهُ يَدْكُو	عِنْدَ الشَّابِ
قَرَّبَهُ الرَّبُّ	لَكِنَّهُ إِفْكُ	فَانْوِ الْمَتَابِ
وَنَادِ يَا رَحْمَنُ	يَا بَرُّ يَا مَنَّانُ	إِنِّي حَزِينُ
أَضْنَانِي الْهَجْرَانُ	وَلَا حَيِّبَ دَانُ	وَلَا مُعِينُ
فَنَيْتُ بِاللَّهِ	عَمَّا تَرَاهُ الْعَيْنُ	مِنْ كَوْنِهِ
فِي مَوْقِفِ الْجَاهِ	وَصِحْتُ أَيْنَ الْأَيْنِ	فِي بَيْنِهِ
فَقَالَ : يَا سَاهِي	عَايَنْتَ قَطَّ عَيْنُ	بِعَيْنِيهِ
أَمَا تَرَى غَيْلَانُ	وَقَيْسَ أَوْ مَنْ كَانَ	فِي الْغَابِرِينَ
قَالُوا الْهَوَى سُلْطَانُ	إِنْ حَلَّ بِالْإِنْسَانِ	أَفْنَاهُ دِينَ

١ انظر ديوان ابن عربي : ٨٥ .

٢ في ق ط : في حران ، والتصحيح عن الديوان ؛ ج : في ضجران .

٣ الديوان : والسهد .

كَمْ مَرَّةٍ قَالَا	أَنَا الَّذِي أَهْوَى	مَنْ هُوَ أَنَا
فَلَا أَرَى حَالَا	وَلَا أَرَى شَكْوَى	إِلَّا الْفَنَا
لَسْتُ كَمَنْ مَالَا	عَنْ الَّذِي يَهْوَى	بَعْدَ الْجَنَى
وَدَانَ بِالسُّلْوَانِ	هَذَا هُوَ الْبُهْتَانِ	لِلْعَارِفِينَ
سَلُّوهُمْ مَا كَانَ	عَنْ حَضْرَةِ الرَّحْمَنِ	وَالْآفِكِينَ
دَخَلْتُ فِي بُسْتَانِ	الْأَنْسِ وَالْقُرْبِ	كَمَكْنِسَةٍ
فَقَامَ لِي الرَّيْحَانُ	يَخْتَالُ بِالْعُجْبِ	فِي سُنْدُسَةٍ
أَنَا هُوَ يَا إِنْسَانُ	مُطِيبُ الصَّبِّ	فِي مَجْلِسَةٍ
جَنَّانُ يَا جَنَّانُ	اجْنُ مِنَ الْبُسْتَانِ	الْيَاسَمِينِ
وَحَلَّ الرَّيْحَانُ	بِحَرْمَةِ الرَّحْمَنِ	لِلْعَاشِقِينَ

وقال الإمام الصفي ابن ظافر الأزدي في رسالته^١ : رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وفر له من العلوم الوهية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيد علماً وخلقاً وحالاً ، لا يكثر بالوجود مقبلاً كان أو معرضاً ، وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف ، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحرار إخاء ورفقة في السياحات ، رضي الله تعالى عنهما ، انتهى .

وذكر الإمام سيدي عبد الله بن سعد الياضي اليميني في « الإرشاد » أنه اجتمع مع الشهاب السهروردي ، فأطرق كل واحد منهما ساعة ، ثم افترقا من غير كلام ، ف قيل للشيخ ابن عربي : ما تقول في السهروردي ؟ فقال : مملوء سنة من قرنه إلى قدمه ، وقيل للسهروردي : ما تقول في الشيخ محيي

١ قد تقدم هذا ص : ١٦٨ .

الدين ؟ فقال : بحر الحقائق .

ثم قال اليافعي ما ملخصه : إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه ، فلمّا حضرته الوفاة نهى عن مطالعته ، وقال : إنكم لا تفهمون معاني كلامه ، ثم قال اليافعي : وسمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول : هو زنديق ، فقال له بعض أصحابه : أريد أن تريني القطب ، أو قال وليّاً ، فأشار إلى ابن عربي ، فقال له : فأنت تطعن فيه ، فقال : أصون ظاهر الشرع ، أو كما قال .

وأخبرني بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام ، ثم قال : وقد مدحه وعظمه طائفة كالنجم الأصبهاني والتاج بن عطاء الله وغيرهما ، وتوقف فيه طائفة ، وطعن فيه آخرون ، وليس الطاعن فيه بأعلم من الخضر عليه السلام ، إذ هو أحد شيوخه ، وله معه اجتماع كثير .

ثم قال : وما يُنسب إلى المشايخ له محامل : الأول أنّه لم تصح نسبته إليهم ، الثاني بعد الصحة يُلمس له تأويل موافق ، فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه ، وإنّما يعلمه العارفون ، الثالث : أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة ، والسكران سكرّاً مباحاً غير مؤاخَذ ولا مكلف ، انتهى ملخصاً .

وممّن ذكر الشيخ محيي الدين الإمام شمس الدين محمد بن مُسدي في معجمه البديع المحتوي على ثلاث مجلدات ، وترجمه ترجمة عظيمة مطوّلة أذكر منها أنّه قال : إنّّه كان ظاهري المذهب في العبادات ، باطني النظر في الاعتقادات ، خاض بحر تلك العبارات ، وتحقق بمُحييّا تلك الإشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدّم والإقدام ، ومواقف النهايات في مزالق الأقدام ، ولهذا ما ارتبت في أمره ، والله تعالى أعلم بسرّه ، انتهى .

ونقلت من خط ابن علّوان التونسي ، رحمه الله تعالى : وقال الشيخ محيي الدين :

بالمال يَنْقَادُ كُلُّ صَعْبٍ من عالم الأرض والسماء
يَحْسِبُهُ عَالَمٌ حَجَاباً لم يعرفوا لذّة العطاء
لولا الذي في النفوسِ مِنْهُ لَمْ يُجِبِ اللهُ فِي الدَّعَاءِ
لا تحسبِ المالَ ما تَرَاهُ من عَسَجَدَ مُشْرِقَ لَرَاهُ
بل هو ما كنت يا بني به غنياً عَنِ السَّوَاءِ
فكن ربّ العلا غنياً وعامِلِ الخلقَ بالوفاءِ

وقال :

نَبَّهَ عَلَى السَّرِّ وَلَا تُفْشِهِ فالبَوحُ بالسَّرِّ لَهُ مَقْتُ
على الذي يبيديه فاصبر لَهُ واكتمهُ حتى يصل الوقتُ

وقال :

قد ثابَ غلماننا علينا فما لنا في الوجودِ قَدْرُ
أذناننا صَيَّرَتْ رُؤُوساً ما لي على ما أراهُ صَبْرُ
هذا هو الدهرُ يا خليلي فمَنْ يُقَاسِيهِ فهو قَهْرُ

ونظمُ الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له .
ولنختم ما أوردنا منه بقوله :

يا حَبِذَا المسجدَ من مَسْجِدٍ وحبِذَا الروضةَ من مَشْهَدٍ
وحبِذَا طَيِّبَةً من بلدةٍ فيها ضريحُ المصطفى أحمدٍ
صَلَّى عليه الله من سَيِّدٍ لَوْلَاهُ لم نُفْلِحْ ولم نَهْتَدِ
قد قَرَنَ اللهُ بِهِ ذَكَرَهُ في كلِّ يومٍ فاعتبر ترشُّدِ
عَشْرُ خَفِيَّاتٍ وَعَشْرُ إِذَا أُعْلِنَ بالتأذين في المَسْجِدِ
فَهَذِهِ عِشْرُونَ مَقْرُونَةً بأَفْضَلِ الذِّكْرِ إِلَى المَوْعِدِ

١١٤ - ومنهم الصوفي الشهير أبو الحسن علي الشُّشْتُري ، وهو علي

ابن عبد الله النميري^١ ، عروس الفقهاء ، وأمير المتجردين ، وبركة لابي الخرقه ، وهو من قرية شُشْتُر من عمل وادي آش ، وزقاق الشُّشْتُري معلوم بها ، وكان مجوداً للقرآن ، قائماً عليه ، عارفاً بمعانيه ، من أهل العلم والعمل ، جال الآفاق ، ولقي المشايخ ، وحجّ حجّات ، وآثر التجرد والعبادات . وذكره القاضي أبو العباس الغبريني في « عنوان الدراية » فقال : الفقيه الصوفي ، من الطلبة المحصلين ، والفقراء المقطعين ، له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية ، وتقدّم في النظم والنثر على طريقة التحقيق ، وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع .

أخذ عن القاضي محيي الدين محمد بن إبراهيم بن الحسن بن سُرّاقه الأنصاري الشاطبي وغيره من أصحاب السُّهْرَوْرْدِي صاحب « عوارف المعارف » واجتمع بالنجم بن إسرائيل الدمشقي سنة ٦٥٠ ، وخدم أبا محمد ابن سبعين ، وتلمذ له ، وكان ابن سبعين دونه في السن ، لكن اشتهر باتباعه ، وعول على ما لديه ، حتى صار يعبر عن نفسه في منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين ، وقال له لما لقيه - يريد المشايخ - : إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبي مدين ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إليّ ، ولما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة والإمامة على الفقراء المتجردين ، فكان يتبعه في أسفاره ما ينيف على أربعمائة فقير فيقتسمهم الترتيب في وظائف خدمته .

صنف كتباً : منها كتاب « العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمل ويعتقده إلى وفاته » وله كتاب « المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية » و « الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة » و « المراتب

١ ترجمة أبي الحسن الشُّشْتُري في عنوان الدراية : ١٤٠ ؛ وانظر مقدمة ديوانه بتحقيق الدكتور علي سامي النشار (ط . الإسكندرية ١٩٦٠) .

الإيمانيّة والإسلاميّة والإحسانيّة » و « الرسالة العلميّة » وغير ذلك .
وله ديوان شعر مشهور ، ومن نظمه قوله ، رحمه الله تعالى ^١ :

لقد تهتُّ عجباً بالتجرد والفقر
وجاءتْ لقلبي نَفْحَةٌ قُدُسِيَّةٌ
طويتُ بساطَ الكون والطّيُّ نشره
وغمضتُ عينَ القلبِ غيرَ مطلق
وصلتُ لمن لم تنفصلْ عنه لحظة
وما الوصفُ إلاّ دونه غيرَ أنّي
وذلك مثلُ الصوتِ أيقظُ نائماً
فقلتُ لهُ الأسماءُ تبغي بيانه

فلم أندرجْ تحتَ الزمانِ ولا الدهرِ
فغبتُ بها عن عالمِ الخلقِ والأمرِ
وما القصدُ إلاّ التركُ للطّيِّ والنشرِ
فألقيتُني ذاكَ الملقبِ بالغيرِ
ونزّهتُ من أعني عن الوصلِ والهجرِ
أريدُ به التشييبَ عن بعضِ ما أدري
فأبصرُ أمراً جلّ عن ضابطِ الحصرِ
فكانتْ له الألفاظُ سترًا على سِرِّ

وقال ^٢ :

مَنْ لَامَنِي لَوْ أَنَّهُ قَدْ أَبْصَرَ
وَعَدَا يَقُولُ لَصَحْبِهِ إِنْ أَنْتُمْ
شَدَّتْ أُمُورُ الْقَوْمِ عَنْ عَادَاتِهِمْ

مَا ذُقْتُهُ أَضْحَى بِهِ مَتَحِيرًا
أَنْكَرْتُمْ مَا بِي أَتَيْتُمْ مِنْكَرًا
فَلَأَجَلَ ذَاكَ يَقَالُ سِحْرٌ مُفْتَرَى

وقال ، وهي من أشهر ما قال ^٣ :

أرى طالباً منّا الزيادة لا الحسنى
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا

بفكرٍ رمى سَهْمًا فعدّى به عدنا
نغيّبُ به عنّا لدى الصّعقِ إن عَنّا

وهي طويلة مشهورة بالشرق والغرب ، وقد شرحها شيخ شيوخنا

١ ديوان الشّثري : ٥١ .

٢ ديوانه : ٤١ .

٣ ديوانه : ٧٢ .

العارف بالله تعالى ، سيدي أحمد زروق ، نفعنا الله تعالى ببركاته . وأشار ابن الخطيب في « الإحاطة » إلى أنها لا تخلو عن شذوذ من جهة اللسان ، وضعف في العربية ، قال : ومع ذلك فهي غريبة المترع ، أشار فيها إلى مراتب الأعلام من أهل هذه الطريقة ، وكأنها مبنية على كلام شيخه الذي خاطبه به عند لقائه حسبما قدمناه ، إذ الحسنی : الجنة ، والزيادة : مقام النظر ، وقوله فيها :

وأظهرَ مِنْهَا الغافِقِي لَنَا جَنِّي وكشَفَ عن أطواره الغيم والدَّجَنَّا

هو شيخه أبو محمد ابن سبعين لأنه مُرْسِي الأصل غافِقِيه . ولما وصل الشُّسْتَرِي من الشام إلى ساحل دِمياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومي فقال : ما اسم هذه القرية ؟ ف قيل : الطينة ، فقال : حنّتِ الطينة إلى الطينة ، وأوصى أن يُدفن بمقبرة دِمياط ، إذ الطينة بمفازة ، وأقرب المدن إليها دِمياط ، فحملة الفقراء على أعناقهم إلى دِمياط . وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨ ، فدفن بدِمياط ، رحمه الله تعالى ، ورضي عنه .

١١٥ - ومنهم سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي - وحرالة : قرية من أعمال مُرُسية - غير أنه ولد بمراكش ، وأخذ بالأندلس عن أبي الحسن ابن خروف وغير واحد ، ورحل إلى المشرق فأخذ عن أبي عبد الله القرطبي إمام الحرم وغيره ، ولقي جلة من المشايخ شرقاً وغرباً . وهو إمام ورع صالح زاهد ، كان بقية السلف ، وقدوة الخلف ، وقد زهد في الدنيا وتخلّى عنها ، وأقام في تفسير الفاتحة نحواً من ستّة أشهر يُلقني في التعليل قوانين تنتزّل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام ، حتى منّ الله تعالى بـبركات ومواهب لا تحصى ، وعلى أحكام تلك القوانين

١ ترجمة أبي الحسن الحرالي في عنوان الدراية : ٨٥ وشذرات الذهب ٥ : ١٨٩ .

وضع كتابه « مفتاح اللبّ المفقّل على فهم القرآن المتزل » وهو ممّن جمع العلم والعمل ، وصنّف في كثير من الفنون كالأصلين والمنطق والطبيعيّات والإلهيّات ، وكان يُقرىء « النجاة » لابن سينا فينقضه عُرْوَة عُرْوَة ، وكان من أعلم الناس بمذهب مالك ، ولما ظنّ فقهاء عصره أنّه لا يحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات أقرأ « التهذيب » وأبدى فيه الغرائب ، وبيّن مخالفته للمدوّنة في بعض المواضع ، ووقع بينه وبين الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام شيء ، وطلب عزّ الدين أن يقف على تفسيره ، فلمّا وقف عليه قال : أين قول مجاهد ؟ أين قول فلان وفلان ؟ وكثر القول في هذا المعنى ، ثم قال : يخرج من بلادنا إلى وطنه — يعني الشام — فلمّا بلغ كلامه الشيخ قال : هو يخرج وأقيم أنا ، فكان كذلك . وله عدّة مؤلّفات في الفنون ؛ وقال ، رحمه الله تعالى : أقمت ملازماً لمجاهدة النفس سبعة أعوام ، حتى استوى عندي مَنْ يُعطيني ديناراً ومن يزدريني . وأصبح — رحمه الله تعالى — ذات يوم ولا شيء لأهله يقيمون به أودّهم ، وكانت أم ولده جارية تسمّى كريمة ، وكانت سيّئة الخلق ، فاشتدّت عليه في الطلب ، وقالت له : إن الأصاغر لا شيء لهم ، فقال : الآن يأتي من قبل الوكيل ما نتقوت به ، فبينما هم كذلك وإذا بالحمّال يضرب الباب ومعه قمح ، فقال لها : يا كريمة ، ما أعجّلتك ، هذا الوكيل بعث بالقمح ، فقالت : ومن يصنعه ؟ فأمر فتصدّق به ، ثم قال لها : يأتيك ما هو أحسن منه ، فانتظرت يسيراً ، وبدأ لها فتكلّمت بما لا يليق ، فبينما هم كذلك ، وإذا بحمّال سميد ، فقال لها : هذا السميد أيسر وأسهل من القمح ، فلم يقنعها ذلك ، فأمر أيضاً بصدّقه ، فلمّا تصدّق به زادت في المقال ، وإذا برجل على رأسه طعام ، فقال لها : يا كريمة ، قد كُفيت المؤونة ، هذا الوكيل قد علم بحالك .

ومن كراماته أن بعض طلبته اجتمعوا في نزهة ، وأخذوا حلياً من زينة النساء ، فزيّنوا به بعض أصحابهم ، فلمّا انقضى ذلك واجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذي كان في يده الحلي يتحدّث ويشير بيده ، فقال الشيخ : يد يجعل

فيها الحللي لا يشار بها في الميعاد .

ومنها أنه أصاب الناس جَدْبٌ بيجايةً ، فأرسل إلى داره مَنْ يَسُوقُ ماءً إلى الفقراء ، فامتنعت كريمة ، ونَهَرَتْ رُسْلَهُ ، فسمع كلامها ، فقال للرسول : قل لها يا كريمة ، والله لأشربنَّ من ماء المطر الساعة ، فرمقَ السماءَ بطرفه ، ودعا الله سبحانه وتعالى ، ورفع يده به ، وشرع المؤذن في الأذان ، ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القرب .

وتوفي ، رحمه الله تعالى ، بحِمْاة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة ؛ انتهى ملخصاً من « عنوان الدراية » للغبريني .

ووقع للذهبي في حقّه كلام على عادته في الخطّ على هذه الطائفة ، ثم قال : ورأيت شيخنا المجد التونسي يتغالى في تفسيره ، ورأيت غير واحد معظماً له وقوماً تكلّموا في عقيدته ، وكان نازلاً عند قاضي حِمْاة البارزي ؛ وقال لنا شرف الدين البارزي : تزوّج بحِمْاة ، وكانت زوجته تشتمه وتؤذيه وهو يتبسّم ، وإن رجلاً راهنَ جماعةً على أن يُحرّجه ، فقالوا : لا تقدر ، فأثنى وهو يعظ وصاح ، وقال له : أنت أبوك كان يهودياً وأسلم ، فنزل من الكرسي ، فاعتقد الرجل أنه غضب وأنه تمّ له ما رامه حتى وصل إليه فخلع مرطيه^١ عليه ، وأعطاه إياهما ، وقال له : بشّرك الله بالخير ، لأنك شهدت لأبي أنه كان مسلماً ، انتهى .

وظاهر كلام الغبريني أن تفسير الشيخ الحرالي كامل ، وقال بعض : إنه لم يكمل ، وهو تفسير حسن ، وعليه نسجَ البقاعي مناسباته ، وذكر أن الذي وقف عليه منه من أوّل القرآن إلى قوله في سورة آل عمران ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ (آل عمران : ٢٧) .

١ ق ط ج ودوزي : قرطيه .

وكلام الذهبي في الشيخ يرده كلام الغبريني ، إذ هو أعرف به ، والله تعالى أعلم .

وحكى الغبريني أنه أنشد بين يديه الزجل المشهور^١ :

جَنَانٌ يَا جَنَانُ اجْنُ مِنَ البُسْتَانِ اليَاسْمِينِ
وَاتْرُكِ الرِّيحَانَ بِحُرْمَةِ الرَّحْمَنِ للعَاشِقِينَ

فسأل بعض عن معناه ، فقال بعض الحاضرين : أراد به العذار ، وقال آخر : إنما أشار إلى دَوَامِ العهد ، لأن الأزهار كلها ينقضي زمانها إلا الرِّيحَانَ فإنه دائم ، فاستحسن الشيخ هذا أو وافق عليه .

١١٦ - ومنهم ولي الله العارف به الشيخ الشهيرُ الكرامات ، الكبير [المقامات]^٢ سيدي أبو العباس المُرسي ، نفعنا الله تعالى به^٣ . وهو من أكابر الأولياء ، صاحب سيدي الشيخ الفَرْدَ القطب الغوث الجامع سيدي أبا الحسن الشاذلي ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته ، وخلقه بعده ، وكان قدم من الأندلس من مُرسية ، وقبره بالإسكندرية مشهور بإجابة الدعوات ، وقد زرته مراراً كثيرة ، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله .

وقد عرّف به الشيخ العارفُ بالله ابنُ عطاء الله في كتابه « لطائف المنن في مناقب الشيخ سيدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن ، رضي الله تعالى عنهما » .

وقال الصفدي في الوافي : أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس ، الأنصاري المُرسي ، وارث شيخه الشاذلي تصوّفاً ، الأشعري معتقداً ،

١ انظر ما تقدم ص : ١٨٢ .

٢ المقامات : زيادة من ج ليست في ق ط .

٣ ترجمة أبي العباس المُرسي في طبقات الشعرا في ولطائف المنن لابن عطاء الله ونيل الابتهاج : ٦٤

(على هامش الديباج) والوافي للصفدي ج ٧ الورقة : ١٢٨ .

توفي بالإسكندرية سنة ٦٨٦ ، ولأهل مصر ولأهل الثغر فيه عقيدة كبيرة ، وقد زرتة لما كنت بالإسكندرية سنة ٧٣٨ ، قال ابن عَرَّام سبط الشاذلي : ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة ، كان من الشهود بالثغر ، انتهى وكان سيدي أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى ، حتى إنه ربّما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به ، وربّما دخل عليه عاصٍ فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر لعمله^١ ناظر لفعله ، وذلك العاصي دخل بكسر معصيته وذلة مخالفته ، وكان شديد الكراهة للوسواس في الصلاة والطهارة ، ويثقل عليه شهود مَنْ كان على صفته ، وذكر عنده يوماً شخصٌ بأنّه صاحب علم وصلاح ، إلاّ أنّه كثير الوسوسة ، فقال : وأين العلم ؟ العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود .

وله كلام بدیع في تفسير القرآن العزيز : فمن ذلك أنّه قال : قال الله سبحانه وتعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه في أزله ، فلمّا خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده ، فقال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له ، لا ينبغي أن يكون غيره ، فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد . وقال في قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : إِيَّاكَ نعبد شريعة ، وإِيَّاكَ نستعين حقيقة ، إِيَّاكَ نعبد لإسلام ، وإِيَّاكَ نستعين إحسان ، إِيَّاكَ نعبدُ عبادة ، وإِيَّاكَ نستعين عبودية ، إِيَّاكَ نعبدُ فرق ، وإِيَّاكَ نستعين جمع . وله في هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدلُّ على عظيم ما منحه الله سبحانه من العلوم اللدنية . وقال ، رضي الله تعالى عنه ، في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : بالتثنية^٢ فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ؛ وهذا

١ في نسخة : متكبر بعمله ؛ وفي ق : متكبر بعمله .

٢ في نسخة : بالتثبت .

الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره ، وبسطه الشيخ ، رضي الله تعالى عنه ، فقال : عمومُ المؤمنين يقولون ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنَّهم حصل لهم التوحيد ، وفاتهم درجات الصالحين ، والصالحون يقولون ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل ، لأنَّهم حصل لهم الصلاح ، وفاتهم درجات الشهداء ، والشهيد يقول ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي بالتثبيت فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنه حصلت له درجة الشهادة ، وفاته درجة الصديقية ، والصديق كذلك يقول ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذ حصلت له درجة الصديقية ، وفاته درجة القطب ، والقطب كذلك يقول ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه حصلت له رتبة القطبانية ، وفاته علم إذا شاء الله تعالى أن يطلع عليه أطلعه . وقال ، رضي الله تعالى عنه : الفتوة الإيمان ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف : ١٣) وقال ، رضي الله تعالى عنه ، في قوله سبحانه وتعالى حاكياً عن الشيطان ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ... ﴾ (الأعراف : ١٧) ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لأن فوقهم التوحيد وتحتهم الإسلام . وقال ، رضي الله تعالى عنه : التقوى في كتاب الله ، عز وجل ، على أقسام : تقوى النار ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ (آل عمران : ١٣١) وتقوى اليوم ، قال الله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢٨١) وتقوى الربوبية ، قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ (الحج : ١) لقمان : (٢٣) وتقوى الألوهية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (المائدة : ١١٠، ٨٧، ٤٠) وتقوى الإنسية ﴿ وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ١٩٧) وقال ، رضي الله تعالى عنه ، في قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أي : لا أفتخر بالسيادة ، وإنما الفخر لي بالعبودية لله ، وكان كثيراً ما ينشد :

يا عمرو نادِ عبدَ زهراءِ يَعْرِفُهُ السامِعُ والرائي
لا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبَّدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

وقال رضي الله تعالى عنه ، في قول سَمْنُونُ المحب :

وليس لي في سواكَ حظٌّ فكَيْفَما شِئْتَ فاخْتِبرني

الأولى أن يقول : فكيفما شئت فاعفُ عني إذ طلب^١ العفو أولى من طلب الاختبار . وقال رضي الله تعالى عنه : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا . وقال رضي الله تعالى عنه : العارف لا دُنْيَا له ، لأن دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ، وآخِرَتُهُ لربِّهِ . وقال : الزاهد غريب في الدُّنْيَا ، لأن الآخرة وطنه ، والعارف غريب في الآخرة .

قال بعض العارفين : معنى الغربة في كلام الشيخ ، رضي الله تعالى عنه ، أن الزاهد يكشف له^٢ عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومُعَشَّشَ روحه ، فيكون غريباً في الدُّنْيَا ، إذ ليست وطناً لقلبه ، عاين الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونواها ، وفيما شهد من عقوبتها ونكالاتها ، فتغرب في هذه الدار . وأمّا العارف فإنه غريب في الآخرة إذ كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هناك ، فصار غريباً في الآخرة ، لأن سرّه مع الله تعالى ، بلا أين ، فهؤلاء العباد تصير الحضرة مُعَشَّشَ قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون ، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق ، أو أرض الخصوص ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ في اليقين ، فلم ينزلوا إلى الخصوص لشهوة ، ولم يصعدوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، بل كانوا في ذلك كله بآداب الله تعالى وآداب رسله وأنبيائه متأدبين ، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين ، رضي الله تعالى عنهم ، ونفعنا بهم . آمين .

١ في بعض النسخ : لأن طلب .

وكلام سيدي الشيخ أبي العباس ، رضي الله تعالى عنه ، بحر لا ساحل له ،
وكراماته كذلك ، وليُراجَعَ كتاب تلميذه ابن عطاء الله ، فإن فيه من ذلك ما
يشفي ويكفي ، وما بقي أكثر .

ومن كراماته ، رضي الله تعالى عنه ، أنه عزم عليه إنسان وقدّم إليه طعاماً
يُخْبِرُه به ، فأعرض عنه ولم يأكله ، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال له :
إن الحارث المحاسبي ، رضي الله تعالى عنه ، كان في إصبعه عرق إذا مدّ يده
إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه ، وأنا في يدي سبعون عرقاً تتحرك عليّ إذا كان
مثل ذلك ، فاستغفرَ صاحبُ الطعام ، واعتذر إلى الشيخ ، رضي الله تعالى عنه ،
ونفَعنا به .

١١٧ - ومنهم أبو إسحاق الساحلي ، المعروف بالطَّوَيْجِن^١ - بضم الطاء
المهملة ، وفتح الواو ، وسكون الياء التحتية ، وكسر الجيم ، وقيل بفتحها - العالم
المشهور ، والصالح المشكور ، والشاعر المذكور ، من أهل غرناطة من بيت
صلاح وثروة وأمانة ، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة ، وكان مع أمانته من
أهل العلم فقيهاً متفتناً ، وله الباع المديد في الفرائض .

وأبو إسحاق هذا كان في صغره مؤثّقاً بسماط شهود غرناطة ، وارتحل
عن الأندلس إلى المشرق ، فحجّ ، ثم سار إلى بلاد السودان فاستوطنها ، ونال
جاهاً مكيناً من سلطانها ، وبها توفي ، رحمه الله تعالى ، انتهى ملخصاً من
كلام الأمير ابن الأحمر في كتابه « نثير الجمان » ، فيمن نظمني وإياه الزمان .
وقال أبو المكارم منديل بن أجروم : حدثني من يوثق بقوله أن أبا إسحاق
الطَّوَيْجِن كان وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأخيرة سنة ٧٤٧^٢ بِتَنْبُكْتُو

١ ترجمة الطويجين في الإحاطة ١ : ٣٣٧ ومسالك الأبصار ١١ : ٥١٦ والكنية الكامنة : ٢٣٥

ونثير فرائد الجمان : الورقة ٥٣ ونثير الجمان : الورقة ٥٨ والاستقصاء ٣ : ٥٢ .

٢ في نسخة : ٧٦٧ .

موضع بالصحراء من عمالة مالي ، رحمه الله تعالى ؛ ثم ضبط الطويحين بكسر
الجيم ، قال : وبذلك ضبطه بخطّ يده ، رحمه الله تعالى ، قال : ومن نسبه
للساحلي فإنه نسبه لجدّه للأُم ، انتهى .

١١٨ - ومنهم الشيخ الأديب الفاضل المعمّر ضياء الدين أبو الحسن علي
ابن محمد بن يوسف بن عفيف ، الخزرجي ، الساعدي^١ ، من أهل غرناطة ،
ويشهر بالخزرجي ، مولده ببسطة ، رحل عن الأندلس قديماً واستقرّ أخيراً
بالإسكندرية ، وبها لقيه الحافظ ابن رُشيد غير مرّة ، وقد أطلّ في رحلته
في ترجمته ، إلى أن قال : وذكره صاحبنا أبو حيان ، وهو أحد من أخذ عنه
ولقيه ، فقال : تلا القرآن بالأندلس على أبي الوليد هشام بن واقف المقرئ ،
وسمع بها من أبي زيد الفازلي العشرينيات ، وسمع بمكة من شهاب الدين
السُّهروردي صاحب « عوارف المعارف » وتلا بالإسكندرية على أبي القاسم
ابن عيسى ، ولا يُعرف له نظم في أحد من العالم إلاّ في مدح رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم .

ومن شعره يعارض الحريري :

أهين^٢ لأهل^٢ البدعِ والهجرِ والتصنّعِ ودنّ بتركِ الطمعِ
ولذّ بأهلِ الورعِ
وعدّ عن كلّ بدني لم يكثرث بالنبيدِ والهجّ ببر جهلِ
وعالِمٍ متّضعِ
واندبَ زماناً قد سلفَ ولم تجد منه خلفَ وابنعتْ بأنواع الأسفِ
رسائلَ التضرّعِ

١. راجع ترجمة ابن عفيف الخزرجي في رحلة ابن رُشيد (القسم الثالث من مخطوطة الاسكوريال ،
الورقة ٨) .

٢. ابن رُشيد : هون بأهل .

وهي طويلة^١ ؛ فلتراجع ترجمته في « ملء العيبة » لابن رشيد ، رحمه الله تعالى .

١١٩ - ومنهم الفقيه الجليل ، العارف النبيل ، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الشهير بابن سبعين ، العكي ، المرسي ، الأندلسي ، ويلقب من الألقاب المشرقية بقطب الدين^٢ . قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك : درس العربية والآداب بالأندلس ، ثم انتقل إلى سبّنة ، وانتحل التصوّف ، وعكف برهة على مطالعة كتبه ، والتكلم على معانيها ، فمالت إليه العامة ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج حججاً ، وشاع ذكره ، وعظم صيته ، وكثر أشياعه ، وصنف أوضاعاً كثيرة تلقوها منه ، ونقلوها عنه ، ويُرْمى بأمور ، الله تعالى أعلم بها وبحقيقتها ، وكان حسن الأخلاق ، صبوراً على الأذى ، آية في الإيثار ، انتهى .

وقال غير واحد : إن أغراض الناس فيه متباينة ، بعيدة عن الاعتدال ، فمنهم المهرق المكفر ، ومنهم المقلّد المعظم الموقر ، وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد ، والنفرة والانتقاد ، ما لم يقع لغيره ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره . ولما ذكر الشريف الغرناطي عنه أنّه كان يكتب عن نفسه ابن ○ يعني الدارة التي هي كالصفر ، وهي في بعض طرق المغاربة في حسابهم سبعون ، وشهر لذلك بابن دارة - ضمن فيه البيت المشهور :

محا السيّف ما قال ابن دارة أجمعاً

١ قال ابن رشيد : عددها أحد وأربعون بيتاً .

٢ ترجمة ابن سبعين في عنوان الدراية : ١٣٩ والإحاطة : ٣١٧ (النسخة الخطية) وفيها نقل عن ابن عبد الملك ؛ والقوات ١ : ٥١٦ والبداية والنهاية ١٣ : ٢٦١ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٣٢ وله ترجمة في المنهل الصافي والوافي (راجع مقدمة رسائله) وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوي مجموعة من رسائله في سلسلة تراثنا - الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (تاريخ المقدمة : ١٩٥٦) .

حسبما ذكره الشريف في شرح مقصورة حازم ، وقد طال عهدي به ، فليراجعه من ظفر به ^١ .

وقال صاحب «درة الأسلاك» في سنة ٦٦٩ ، ما صورته ^٢ : وفيها توفي الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المُرسي ، صوفي متفلسف ، مترهّد متقشّف ، يتكلّم على طريق أصحابه ، ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه ، شاع أمره ، واشتهر ذكره ، وله تصانيف وأتباع ، وأقوال يميل إليها بعض القلوب وتملّتها بعض الأسماع ، وكانت وفاته بمكة المشرّقة عن نحو خمسين سنة ، تغمّده الله تعالى برحمته ، انتهى .

وقال بعض الأعلام في حقّ ابن سبعين : إنّه كان ، رحمه الله تعالى ، عزيز النفس ، قليل التصنّع ، يتولى خدمة الكثير من الفقراء والسّفارة أصحاب العبادات والدقائقس ^٣ بنفسه ، ويخفون به في السكك ، ولما توفّرت دواعي النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ، ووجّهت لألفاظه المعارض ، وفُليّت موضوعاته ، وتعاورته الوحشة ، وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوب يطول ذكرها .

ووقع في رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور ، وأظن اسمه يحيى

١ كتب الفقيه أبو البركات ابن الحاج علي جزء فيه كلام ابن سبعين :

ألا فدعوا ما قال عنكم فإنه يحا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

وشرح ما أراد أن أصحاب ابن سبعين يعبرون عنه بأبن دارة ، لأن شكل سبعين في رسوم الحساب الرومية دارة هكذا ه . . . إلخ ؛ (انظر شرح المقصورة ١ : ٩٩) .

٢ اسمه «درة الأسلاك في دولة الأتراك» لمحمد بن حبيب الحلبي (٧٧٩ -) ابتدأ فيه في سنة ٦٤٨ وانتهى إلى آخر سنة ٧٧٨ والتزم رعاية السجع في كلامه (كشف الظنون ١ : ٧٣٧) .

٣ في الأصول : العبادات ، ثم تصحفت الكلمة التالية على صور أخرى مثل «الدنافيس» و«الدقايس» وقد وردت بصورة المفرد في الطالع السعيد : ٤٤ حيث جاء : «إني كنت في طريق عذاب ومعنا شخص من المغاربة فمات فغسلته فوجدت معه في دفاسه ذهباً . . . إلخ» فاللفظة تشير إلى نوع من الثياب ، ولذا صححت كلمة «العبادات» وجعلتها «العباءات» لكي تتناسب اللفظتان .

ابن أحمد بن سليمان ، وسمّاها بـ «الوراثه المحمديّة والفصول الذاتية» ما صورته : فإن قيل : ما الدليل على أن هذا الرجل الذي هو ابن سبعين هو الوارث المشار إليه ؟ قلنا : عدم النظر ، واحتياج الوقت إليه ، وظهور الكلمة المشار إليها عليه ، ونصيحته لأهل الملة ، ورحمته المطلقة للعالم المطلق ، ومحبته لأعدائه ، وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه ، وعقّوه عنهم مع قدرته عليهم ، وجذبهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه ، وهذه كلّها من علامات الوراثه والتبعية المحضة التي لا يمكن أحداً أن يتصف بها إلاّ بمجد أزلي وتخصيص إلهي ، وها أنا أصف لك بعض ما خصّه الله سبحانه وتعالى به من الأمور التي هي خارقة للعادة ، ونلغي عن الأمور الخفيّة التي لا نعلمها ، ونقصد الأمور الظاهرة التي نعلمها ، والتي لا يمكن أحداً أن يستريب فيها إلا من أصمّه الله تعالى وأعماه ، ولا يحجدها إلا حسود قد أتعّب الله تعالى قلبه وأنساه رشده ، ونعوذ بالله ممّن عاند من الله تعالى مُساعده ومؤيده ، وهو معه بنصره وعونه ، فما أتعّب معانده ، وما أسعد موادده ، وما أكبت مرادده ، فنبداً بذكر ما وعدنا ، فنقول :

أول ما ذكر في شرفه واستحقاقه لما ذكرنا ، كونه خلقه الله تعالى من أشرف البيوت التي في بلاد المغرب ، وهم بنو سبعين ، قرشيّاً هاشميّاً علويّاً ، وأبواه وجدوده يشار إليهم ، ويُعوّل في الرئاسة والحسب والتّعين عليهم .
والثاني : كونه من بلاد المغرب ، والنبي عليه السلام قال : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة » وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه ، فهو المشار إليه بالحديث ، ثمّ نقول : أهل المغرب أهل الحق ، وأحقّ الناس بالحق وأحقّ المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط ، وأحقّ علمائه بالحق محقّقهم وقطبهم الذي يدور الكل عليه ويعول في مسائلهم ونوازلهم السهلة والعويصة عليه ، فهو حقّ المغرب ، والمغرب حقّ الله تعالى ، والملة حقّ العالم ، فهو المشار إليه بالوراثه ، ثمّ نقول : أهل المغرب ظاهرون على الحق ،

أي على الدين ، والحق سر الدين ، والمحقق سر الحق ، فالمحقق سر الدين ، فهو المشار إليه بالوراثة . ثم نقول : أهل الله خير العالم ، وأهل الحق هم خير أهل الله ، والمحقق خير أهل الحق ، فالمحقق خير العالم ، فهو المشار إليه . ثم نقول : انظر في بدايته وحفظ القديم له في صغره ، وضبطه له من اللهو واللعب ، وإخراجه من اللذة الطبيعية التي هي في جبلته البشرية ، وتركه للرياسة العرضية المعول عليها عند العالم ، مع كونه وجدها في آبائه ، وهي الآن في إخوته ، وخروجه عن الأهل والوطن الذي قرّنه الحق مع قتل الإنسان نفسه ، وانقطاعه إلى الحق انقطاعاً صحيحاً تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ، ثم انظر في تأييده وفتحه من الصغر ، وتأليف كتاب «بدء العارف» وهو ابن خمس عشرة سنة ، وفي جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوي على جميع الصنائع العلمية والعملية ، وجميع الأمور السنية والسنينة ، تجده خارقاً للعادة ، وفي نشأته في بلاد الأندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التي لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة ، وفي تواليفه واشتمالها على العلوم كلها ، ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق تعلم بأنه مؤيد بروح القدس ، وفي شجاعته وقوة توكّله في عزمه ونصره لصنائه وظهور حجته على خصمائه وإقامة حقه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوة إلهية وعناية ربانية ، وفي امتحان أهل المغرب له ، واجتماعهم عليه في كل بلد معتبر للمناظرة ، ويظهر الله تعالى حجته ، ويقمع خصمه ، ويسكت عدوه ، ويعجز معارضه ، ويُفحم معترضه ، وفي غير الحق عليه ، وهلاك من تعرض بالأذى إليه — يعلم العاقل المخصوص ، أنه عند الله مخصوص ، وفي خلقه وقهره لقواه التزوعية والغضبية وإسلام قرينه وجلالة قوته الحافظة التي لا تنسى شيئاً والمفكرة التي تتصور الذوات المجردة والمعلومة أسر عين الطيف^١ ،

١ ق : أسرعين ؛ وسقطت لفظة «الطيف» ؛ وفي دوزي : أسرعين الطبق ، وأشار إلى قراءة أخرى وإلى أن العبارة سقطت من بعض النسخ .

وكذلك الذاكرة ، وسرعة ظهوره وانتشار رايته واستجلاب ثنائه في الجهات كلها ، وبالحملة جميع ما ذكرت هو فيه خارق للعادة البشرية ، ومعجز لمعارضه من كل الجهات ، ولولا خوف التطويل لكنت أفصل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعي ، ونقيم الأدلة القطعية على تعجيزها ، ولكن أعطيت النموذج ، وعرفت أن النبيه يعن فكره ، ويجد ذلك كما قلته . وبالحملة جميع جزئياته إذا تؤملت توجد خارقة للعادة ، وتشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص ، فصحّ أنه هو المشار إليه ، والمعول في جملة الأمور عليه ، وإنّما أعطيت الأمر المشهور ، وتركت ما يُعلم منه من خرق العوائد في ظهور الطعام والشراب والسمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون ، وإخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت كما أخبر ، فصحّ أنه هو المذكور ؛ انتهى ما تعلق به الغرض ممّا في الرسالة في شأن الشيخ ابن سبعين .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين — ومنهم لسان الدين بن الخطيب في « الإحاطة » كما سيأتي قريباً — أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها ، فعظم عليه بذلك الحمل ، وقبحت الأحداث عنه ، انتهى . لكن قال شهاب الدين بن أبي حَجَلَة التلمساني الأديب الشهير ، وهو صاحب كتاب « السكردان » و « ديوان الصبابة » و « منطق الطير » و « الاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض » ، ما معناه : أخبرني الشيخ الصالح أبو الحسن ابن بُرْغُوش التلمساني شيخ المجاورين بمكّة وكانت له معرفة تامة بهذا الرجل ، أنه صدّه عن زيارة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام يُهرق منه دم كدم الحيض ، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره ، انتهى . وقال غيره : نعم زار النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مستخفياً على طريق المشاة ، حدث بذلك أصهاره بمكّة ، انتهى .

وقال لسان الدين ^١ : أما شهرته ومحلّه من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء والوقوف على الأقوال والتعمق في الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يقضى منه العجب .

وقال الشيخ أبو البركات ابن الحاج البكفّيتي ، رحمه الله تعالى ^٢ : حدثني بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله ابن هُودٍ سالمَ طاغيةَ النصارى ، فنكث به ^٣ ، ولم يَفِ بشرطه ، فاضطره ذلك إلى مخاطبة القس الأعظم برومية ، فوكل أبا طالب ابن سبعين أخا أبي محمد عبد الحق بن سبعين في التكلّم عنه ، والاستظهار بين يديه ، قال : فلما بلغ ذلك الشخص رومية ^٤ ، وهو بلد لا يصل إليه المسلمون ، ونظر إلى ما بيده ، وسئل عن نفسه ، فأخبر بما ينبغي ، كتّم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم تُرجم لأبي طالب بما معناه : اعلّموا أن أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه ، انتهى .

وقال غير واحد : إنّه اشتهرت عنه أشياء كثيرة ، الله تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ما ادعاه منها : فمنها قوله — فيما زعموا — وقد جرى ذكر الشيخ وليّ الله ، سيدي أبي مدّين نفعا الله تعالى ببركاته : « شُعَيْبٌ عَبْدٌ عَمَلٍ » ، ونحن عبيد حضرة « وممّن حكى هذا لسانُ الدين في الإحاطة ^٥ .
وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير ^٦ في ترجمة السلطان المستنصر بالله تعالى أبي عبد الله محمد ابن السلطان زكريا بن عبد الواحد بن أبي حَقْنَص ملك إفريقية وما إليها : أن أهل مكة بايعوه ، وخطبوا له بعَرَفَة ، وأرسلوا له بيعتهم ،

١ انظر الإحاطة : ٣١٩ (المخطوطة) .

٢ المصدر نفسه .

٣ الإحاطة : فنكث عهده .

٤ الإحاطة : القومس .

٥ الإحاطة : فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومة .

٦ انظر الإحاطة : ٣١٩ .

٧ الحديث عن خلافة المستنصر الحفصي ورد في ابن خلدون ٦ : ٢٨٠ وما بعدها ، ولكن ليس فيه ذكر لبيعة أهل مكة أو سرد لرسالة ابن سبعين .

وهي من إنشاء ابن سبعين ، وسردها ابن خلدون بجملة ، وهي طويلة ، وفيها من البلاغة والتلاعب بأطراف الكلام ما لا مطمح وراءه ، غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهدي المبشر به في الأحاديث الذي يحشو المال ولا يعُدّه ، وحمل حديث مسلم وغيره عليه ، وذلك ما لا يخفى ما فيه ، فليراجع كلام ابن خلدون في محله .

ولابن سبعين من رسالة : سلام عليك ورحمة الله ، سلام عليك ثم سلام مناجاتك ، سلام الله ورحمة الله الممتدة على عوالمك كلها ، السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك ، وكصلاة أعز ملائكتك من حيث حقيقتك ، وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته ، السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا قياس الكمال ، ومقدمة العلم ، ونتيجة الحمد ، وبرهان المحمود ، ومن إذا نظر الذهن إليه قرأ ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ (سورة ص : ٣٠) السلام عليك يا من هو الشرط في كمال الأولياء ، وأسرار مشروطات الأذكياء الأتقياء ، السلام عليك يا من جاوز في السموات مقام الرسل والأنبياء ، وزادك رفعة واستعلاء على ذوات الملأ الأعلى ، وذكر قوله تعالى ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى : ١) .

وقال بعضهم عند إيراد جملة من رسائله التي منها هذه : إنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة وإيثار الورع ، انتهى .

وقال بعض العلماء الأكابر ، عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به ، ما نصه ببعض اختصار : هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم ، وتعدد المعارف ، وكثرة التصانيف ، ولد سنة ٦١٤ ، ودرس العربية والأدب بالأندلس ، ونظر في العلوم العقلية ، وأخذ عن أبي إسحاق ابن دهاق ، وبرع في طريقه ، وجال في البلاد ، وقدم القاهرة ، ثم حج واستوطن مكة ، وطار صيته ، وعظم أمره ، وكثر أتباعه ، حتى إنه تَلَمَّذَ له أمير مكة ، فبلغ من التعظيم الغاية ، وله كتاب « الدرج » وكتاب « السفر » وكتاب « الأبوبة اليمنية » وكتاب « الكد »

وكتاب « الإحاطة »^١ ورسائل كثيرة في الأذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والغنائم .

ومن شعره^٢ :

كم ذا تُمَوِّهُ بالشعبيين والعلَمَ والأمرُ أوضحُ من نارٍ على علَمٍ
وكيم تعبّرُ عن سَلْعٍ وكاظمَةٍ وعن زَرُودٍ وجيرانٍ بذِي سَلَمٍ
ظَلَلْتَ تسألُ عن نجدٍ وأنت بها وعن تهامةٍ ، هذا فعلُ متهمٍ
في الحِيِّ حِيٌّ سوى ليلي فتسأله عنها؟ سؤَالُكَ وهمٌ جرٌّ للعدمِ

ونشأ ، رحمه الله تعالى ، تَرَفّاً مَبْجَلاً في ظل جَاه ونعمة ، لم تفارق معها نفسه البأو ، وكان وسيماً ، جميلاً ، ملوكي البزة ، عزيز النفس ، قليل التصنع ، وكان آية من الآيات في الإيثار والجود بما في يده ، رحمه الله تعالى .

وقال في الإحاطة : للناس في أمره اختلاف بين الولاية وضدها^٣ ، ولما وجه إلى كلامه سهام الناقدين^٤ قصر أكثرهم عن مداه في الإدراك ، والخوض في تلك البحار والاطلاع^٥ ، وساءت منهم في الممازجة له السيرة^٦ ، فانصرفوا عنه مكلوّمين^٧ ، يبذرون عنه في الآفاق من سوء القالة ما لا شيء فوقه ، وجزت بينه وبين أعلام المشرق خطوب ، ثم نزل مكة^٨ ، وعاقه الخوف من أمير المدينة

١ ورد هذا الكتاب في « رسائل ابن سبعين » : ١٣٠ - ١٥٠ .

٢ انظر الأبيات في الإحاطة : ٣٢١ .

٣ نص ما ورد في الإحاطة : وأغراض الناس في هذا الرجل متباينة بعيدة عن الاعتدال .

٤ الإحاطة : ولما توفرت دواعي النقد عليه ؛ هذا ما ثبت في حواشي دوزي ، أما في النسخة التي اعتمدتها من الإحاطة فقد اضطربت هذه الجملة ؛ والمقري ينقل حاذفاً عبارات كثيرة .

٥ الإحاطة : قصر أكثرهم عن مداه في الإدراك والاطلاع والخوض في تلك الأغراض .

٦ الإحاطة : وساءت منه لهم [في] الملاطفة السيرة .

٧ الإحاطة : مكفّ مين .

٨ زيادة من الإحاطة .

[المعظمة] ^١ عن الدخول إليها إلى أن توفي فعظم بذلك الحمل عليه ^٢ ، وقبحت الأحذوثة عنه ، ولما وردت على سببة المسائل الصقلية - وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبيكياً للمسلمين - انتدب للجواب المقنع عنها ، على فناء من سنه ، وبديهة من فكرته ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

وقال بعض من عرف به : إنه من أهل مُرْسِيَّة ، وله علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وفصاحة وبلاغة .

وقال في «عنوان الدراية» ^٣ : رحل إلى العُدوة ، وسكن ببجاية مدة ، ولقي من أصحابنا ناساً ^٤ ، وأخذوا عنه ، وانتفعوا به في فنون خاصة ، له مشاركة في معقول العلوم ومنقولها ، وله فصاحة لسان ، وطلاقة قلم ، وفهم جنان ، وهو أحد الفضلاء ، وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس ، وله موضوعات كثيرة هي موجودة بأيدي أصحابه ، وله فيها ألغاز وإشارات بحروف أبجد ، وله تسميات مخصوصة في كتبه من نوع الرموز ، وله تسميات ظاهرة هي كالأسامي المعهودة ، وله شعر في التحقيق ، وفي مراقي أهل الطريق ، وكتابته مستحسنة في طريق الأدباء ، وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام ، والتزامه الاعتمار على الدوام ، وحبُّه مع الحجاج في كل عام ، وهذه مزية لا يُعرف قدرها ولا يُرام ، ولقد مشى به للمغاربة في الحرم الشريف حظ لم يكن لهم في غير مدته ، وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله ، ويهتدون بأفعاله .

توفي ، رحمه الله تعالى ، يوم الخميس تاسع شوال ٦٦٩ ، انتهى ببعض اختصار .

١ زيادة من الإحاطة ؛ وفي دوزي : النبوية .

٢ الإحاطة : فعظم عليه الحمل لأجل ذلك .

٣ عنوان الدراية : ١٣٩ - ١٤٠ وهو أيضاً في الإحاطة : ٣١٨ .

٤ عنوان الدراية : ولقيه من أصحابنا أناس .

٥ كذا قال ، ولم يختصر من النص الذي نقله شيئاً .

وذكر^١، رحمه الله تعالى، في ترجمة تلميذه الشيخ أبي الحسن الششتري السابق الذكر أن أكثر الطلبة يُرجّحونه على شيخه أبي محمد ابن سبعين، وإذا ذكر له هذا يقول: إنما ذلك لعدم اطلاعهم على حال الشيخ وقصور طباعهم. ومن تأليف ابن سبعين «الفتح المشترك».

* * *

[رجع إلى الششتري]

ومما حكاه صاحب «عنوان الدراية»^٢ في ترجمة الششتري - ممّا لم نذكره في ترجمته الماضية، ورأينا ذكره هنا تبركاً - أن الششتري كان في بعض أسفاره في البرية، وكان رجل من أصحابه قد أسر فسمعه الفقراء يقول: إلينا يا أحمد، فقيل له: مَنْ أحمد الذي ناديت به يا سيدي في هذه البرية؟ فقال لهم: مَنْ تُسرّون به غداً إن شاء الله تعالى. فلما كان من الغد ورد الشيخ وأصحابه بلدة قابيس، فعند دخولهم إذا بالرجل المأسور، فقال الشيخ للفقراء: هنيئاً لنا باقتحام العقبة، صافحوا أخاكم، المنادى به.

ومن مناقبه - نفع الله تعالى به - أنه لما نزل ببلدة قابيس برباط البحر المعروف [بمسجد] الصهريج جاءه الشيخ الصالح أبو إسحاق الزرناني^٣ نفع الله تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة، فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الولي أبي عبد الله الصنهاجي - نفع الله تعالى به - مع جملة أصحابه للزيارة، فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج إلى موضع بخارج المدينة برسم الخلوة، فجلسوا لانتظاره، فلم يكن إلا قليل إذ أقبل الشيخ على هيئة معتبر متفكر، فلما دخل الرباط سلّم على الواصلين برسم الزيارة، وحيّا المسجد، وأقبل على الفقراء، وأثر العبّرة على وجهه، فقال: اتنوني بمداد،

١ عنوان الدراية : ١٤١ .

٢ انظر المصدر المذكور : ١٤١ وما بعدها .

٣ في عنوان الدراية : الورقاني ؛ وفي نسخة : الزناني .

فلما أحضر بين يديه تأوّه تأوّه شديداً كاد أن يحرق بنفسه جليسه ، وجعل يكتب في اللوح هذه الآيات ١ :

لا تلتفت بالله يا ناظري لأهيف كالغصن الناصر
يا قلب واصرف عنك وهم البقا وخل عن سرب حمى حاجر
ما السرب والبان وما لعلع ما الخيف ما ظبي بني عامر ؟
جمال من سميت دائر ما حاجة العاقل بالدائر
وإنما مطلبه في الذي هام الورى في حسنه الباهر
أفاد للشمس سنا كالذي أعاره للقمر الزاهر
أصبحت فيه مغرماً حائراً لله درُّ المغرم الحائر

وكانوا يوماً ببلد مالقة ، وكثيراً ما يجود عليه القرآن العزيز ، فقرأ طالب قوله تعالى ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ (طه : ١٤٠) فقال معجلاً رضي الله تعالى عنه ، وفهم من الآية ما لم يفهم ، وعلم منها ما لم يعلم ٢ :

انظر للفظ أنا يا مغرمًا فيه من حيث نظرنا لعلّ تدريه
خل ادّخارك لا تفخر بعارية لا يستعير فقير من مواليه
جسوم أحرفه للسرّ حاملة إن شئت تعرفه جرب معانيه

ودخل عليه شخص بيجاية من أهلها يُعرف بأبي الحسن ابن علال ، من أهل الأمانة والديانة ، فوجده يذاكر بعض أهل العلم ، فاستحسن منه إirاده للعلم ، واستعماله لمحاضرة الفهم ، فاعتقد شياخته وتقديمه ، ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين ديناراً شكر الله تعالى ، ويأتيهم بما كول ، فلما يسر جميع ما اهتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثاني إلى حين انصراف الشيخ ،

١ ديوانه : ٤٨ .

٢ ديوانه : ٨٠ .

ليكون للفقراء زاداً ، فلما كان في الليل رأى في منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومعه أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما ، قال الرجل : فنهضت إليه بسرور رؤية النبي . صلى الله عليه وسلم ، وقلت : يا رسول الله ادعُ الله تعالى لي ، فالتفت لأبي بكر ، رضي الله تعالى عنه ، وقال : يا أبا بكر ، أعطه ، فإذا به ، رضي الله عنه ، قسم رغيفاً كان بيده وأعطاني نصفه ، ثم أفاق الرجل من منامه ، وأخذ وجده من هذه الرؤيا المباركة . فأيقظ أهله ، واستعمل نفسه في العبادة ، فلما كان من الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها ، فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ : يا علي ، اقرب ، فلما قرب قال له : يا علي ، لو أتيت بالكل لأخذت منه الرغيف بكامله ، انتهى .

١٢٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، الشهير بابن غصن الإشيلي ، من ولد شداد بن أوس الأنصاري ، الجزيري ، نسبة إلى الجزيرة الخضراء ، الإمام ، المقرئ ، الزاهد ، عرض على الأستاذ ابن أبي الربيع الموطأ من حفظه ، وأخذ عنه النحو ، وكان من أولياء الله تعالى الصالحين ، وعباده الناصحين ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، قوَّلاً بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، عارفاً بمُتُون الحديث وأحكامه ، فقيهاً متقناً لمذاهب الأئمة الأربعة والصحابة والتابعين ، لا يقبل من أحد شيئاً ، مخلصاً لله تعالى ، يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية ، وأقرأ القرآن بمكة مدّة بالقراءات وبالمدينة وبيت المقدس ، وممن قرأ عليه خليل إمام المالكية بالحرم ، والشهاب الطبري إمام الحنفية بالحرم ، وله مصنفات في القراءات : منها « مختصر الكافي » وكتاب « في معجزات النبي » صلى الله عليه وسلم ، ومولده سنة ٦٣١ تخميناً ٢ ،

١ انظر ترجمة ابن غصن في غاية النهاية ٢ : ٤٧ ولم ينسبه إشيليّاً أو جزيرياً وإنما قال فيه : القصري السيّ .

٢ في غاية النهاية : سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

وتوفي بيت المقدس آخر سنة ١٧٢٣ ، رحمه الله تعالى .

١٢١ - ومنهم الشيخ الفقيه ، الأستاذ النحوي التاريخي اللغوي أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي^٢ يكنى أبا العباس وأبا جعفر ، قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو علي عمر الشلّوين ، ثم ارتحل إلى العُدوة وسكن بجاية ، وأقرأ بها مدة ، وارتحل إلى المشرق فحج ، ثم رجع إلى حضرة تونس واتخذها وطناً ، واشتغل بها بالإقراء إلى أن مات . كان يتبسط لإقراء سائر كتب العربية ، وله علم جليل باللغة ، وله تواليف كثيرة : منها^٣ على الجمل و « شرح الفصيح » لثعلب ، ولم يشذ فيه شيء من فصيح كلام العرب . قال الغبريني ، رحمه الله تعالى : ورأيت له تأليفاً في الأذكار ، وله عقيدة في علم الكلام ، ورأيت له مجموعاً سمّاه « الإعلام بحدود قواعد الكلام » تكلم فيه على الكلم الثلاث ، الاسم والفعل والحرف ، وله تواليف أخر ، وكان من أساتيد إفريقية في وقته ، وممن أخذ عنه ، واستفيد منه ، انتهى .

وذكر الشيخ أبو الطيب ابن علوان التونسي عن والده أحمد التونسي الشهير بالمصري أن للمذكور تأليفاً سمّاه « التجنيس » ، وله شرح أبيات الجمل ، سمّاه « وشي الحلل » رفعه للملك المستنصر الحفصي بتونس ، فدفعه المستنصر للأستاذ أبي الحسن حازم ، وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجَدَه ، فحكى أبو عبد الله القطان المسفّر - وكان يخدم حازماً - قال : كنت يوماً بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب ، فسمعت نقر الباب ، فخرجت فإذا بالفقيه أبي جعفر ، فرجعت وأخبرت أبا الحسن ، فقام مبادراً حتى أدخله وبالع في بره وإكرامه ، فرأى الكتاب بين يديه ، فقال له : يا أبا الحسن ، قال الشاعر :

١ هكذا هو في غاية النهاية أيضاً ؛ وفي إحدى نسخ النسخ : ٧٢٢ .

٢ ترجمته في عنوان الدراية : ٢١١ وبغية الوعاة : ١٧٦ .

٣ بعد لفظة « منها » بياض في ج بقدر كلمة .

وعَيْنُ الرضی عن كلِّ عیبِ كَلِيلَةٍ

فقال له : يا فقيه أبا جعفر ، أنت سيدي وأخي ، ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه إلا قول الحق ، والعلم لا يحتمل المداهنة ، فقال له : فأخبرني بما عثرت عليه ، قال له : نعم ، فأظهر له مواضع ، فسلمها أبو جعفر وبشرها وأصلحها بخطه .

وأصل هذا اللَّبْلِي من لَبْلَةٍ بالأندلس^١ ، اجتمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد ، وكان نحوياً ، فلما دخل عليه اللَّبْلِي قال له القاضي : خَيْرَ مَقْدَمٍ ، ثم سأله بعد حين : بمَ انتصب خير مقدم ؟ فقال له اللَّبْلِي : على المصدر وهو من المصادر التي لا تظهر أفعالها ، وقد ذكره سيبويه ، ثم سرد عليه الباب من سيبويه إلى آخره ، فإنه كان يحفظ أكثره ، فأكرمه القاضي وعظمه .
ثم قال ابن علوان : وذكر والذي أيضاً ، رحمه الله تعالى ، ومن خطه المبارك نقلت ، أن الأستاذ أبا جعفر اللَّبْلِي المذكور ، رحمه الله تعالى ، قرء عليه يوماً قول امرئ القيس^٢ :

حَيَّ الحَمُولَ بِجَانِبِ العَزَلِ إِذْ لَا يَلَاثِمُ شَكْلُهَا شَكْلِي

فقال لطلبته : ما العامل في هذا الظرف يعني «إذ» ؟ فتنازعا القول ، فقال : حسبكم ، قرء هذا البيت على أستاذنا أبي علي الشَّلَوْبِيْن ، فسألنا هذا السؤال ، وكان أبو الحسن ابن عصفور قد برع واستقل وجلس للتدريس ، وكان الشَّلَوْبِيْن يَغْضُ منه ، فقال لنا : إذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل ، يعني ابن عصفور ، فلما خرجنا سرنا إليه بجمعنا ، ودخلنا المسجد ، فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة ، وهو يتكلم بغرائب النحو ، فلم نجسر على سؤاله لهيبته ،

١ دوزي : قرية بالأندلس ، وسقطت «قرية» من ق ط ج .

٢ ديوان امرئ القيس : ٢٣٦ .

وانصرفنا ، ثم جئنا بعدُ على عادتنا لأبي علي ، فنسي حتى قرىء عليه قول النابغة :

فَعَدَّ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ^١

فتذكر ، وقال : ما فعلتم في سؤال ابن عصفور ؟ فصدقنا له الحديث ، فأقسم ألاّ يجربنا ما العامل فيه ، ثم قال اللبّي لطلبته : وأنا أقول لكم مثل ذلك ، فانظروا لأنفسكم ، قالوا : فنظرنا فإذا المسألة مسألة فحص ونظر ، كلما حكمنا بحكم صدقنا عنه قوانين نحوية ، حتى مضت مدة طويلة ، فوفد علينا بتونس المحروسة أحدُ طلبة ابن أبي الربيع ، وكان ابن أبي الربيع هذا ساكناً بِسَبْتَنَة ، وهو أحد طلبة الشلوين أيضاً ، ومن كبار هذه الطبقة التي نشأت بعده ، قالوا : فتذاكرنا مع هذا الطالب في مسائل نحوية ، فمرت هذه المسألة في قوله تعالى ﴿ إِذْ نَسُوكُمْ رَبِّبِ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء : ٩٨) فقال هذا الطالب إن هذا الظرف وقع موقع لام العلة ، فعلمنا أن هذا هو الذي أراد الأستاذ أبو علي ، ثم ناقشنا الطالب وقلنا له : إذا جعلته ظرفاً فلا بد من العامل ، وإذا جعلته واقعاً موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين ، والذي يجوز عكسه على مذهب الجميع ، وإنما الأولى أن يقال : إذ حرفٌ معناه التعليل تشترك فيه الأسماء والحروف كما اشتركت في عن ، والله أعلم بغيبه ، انتهى .

١٢٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح القرطبي^٢ ، قال الحافظ المقرئ : وفرح بسكون الراء ، وقال الحافظ عبد الكريم في حقه : إنه كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين في الدنيا المشتغلين بما يعينهم من أمور الآخرة ، فيما بين توجه وعبادة وتصنيف ، جمع في تفسير القرآن كتاباً خمسة عشر مجلداً ، وشرح أسماء الله الحسنى في

١ عجز البيت : « وائم الفتود على عيرانة أجد » .

٢ ابن فرح هو صاحب التفسير المشهور بتفسير القرطبي واسمه « جامع أحكام القرآن » ؛ انظر ترجمته في الوافي ٢ : ١٢٢ وطبقات المفسرين : ٢٨ (وبراوكلمان : التكملة ١ : ٧٣٧) .

مجلدين ، وله كتاب « التذكرة في أمور الآخرة » في مجلدين ^١ ، وشرح « التقصي » ، وله تأليف غير ذلك مفيدة ، وكان مطّرح التكلف ، يمشي بثوب واحد ، وعلى رأسه طاقية ، سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب « المفهم في شرح مسلم » بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن حفص اليحصبي ، وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري وغيرهما ، وتوفي بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ ، ودفن بها ، رحمه الله تعالى .

وفي تاريخ الكتبي في حقه ما نصه : كان شيخاً فاضلاً ، وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه ، منها « تفسير القرآن » مليح إلى الغاية اثنا عشر مجلداً ، انتهى .

وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته : قد أجحف المصنف في ترجمته جلدًا ، وكان متفنناً متبحراً في العلم ، انتهى . وكتب بعض بإثر هذا الكلام ما نصه : قال الذهبي : رحل وكتب وسمع ، وكان يقظاً فهماً حسن الحفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظاً ، انتهى . وكتب آخر إثر ذلك الكلام ما صورته : مشاحة شيخنا للمصنف في هذه العبارة ما لها فائدة ، فإن الذهبي قال في تاريخ الإسلام : العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن قرّح الإمام القرطبي إمام متفنن ، متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة ، تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله ، ثم ذكر موته ، وقال بعده : وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان ، وله « الأسنى في شرح الأسماء الحسنى » و « التذكرة » وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه ، انتهى . وكتب آخر بإثر هذا الكلام ما نصه : غفر الله لك ، إذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت ، وهو والله فوق ذلك ، فكيف تقول : إن مشاحة شيخك لا فائدة فيها ، وتسمي الأدب معه

١ هو المعروف باسم « التذكرة القرطبية » وله مختصر صنمه الشعرائي وطبع ببولاق سنة ١٣٠٠ .

وتقول إن كلامه لا فائدة فيه ؟ فالله يسر عليك ، انتهى .

١٢٣ - ومنهم أبو القاسم ابن حاضر ، الخزيري ، الخزرجي ، محمد بن أحمد ، من جزيرة شقر ، قدم مصر ، وسكن قُوصَ بعدما كان من عدول بِلَنْسِيَّة ، وكان فصيحاً ، عالماً بصناعة التوريق ، وله نظم لم يحضرني الآن شيء منه ، ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

١٢٤ - ومنهم أبو القاسم التَّجِيبِي ، محمد بن أحمد التَّجِيبِي^١ ، من أهل بِلَنْسِيَّة ، قرأ على ابن مفرّج وابن أبي الأحوص ، ورحل فاستوطن القاهرة ، وكان شيخاً فاضلاً خيراً ، له أدب وشعر ، منه قوله من أبيات^٢ :

أحوى الجفون له رقيبٌ أحولُ الشيء في إدراكه شَيْثَانِ
يا ليتَه ترك الذي أنا مُبْصِرٌ وهو المَخِيرُ في الغزالِ الثاني

ولد بِلَنْسِيَّة سنة ٦٢٣ ، وتوفي بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥^٣ وممن روى عنه نحوئُ الزمان أثير الدين أبو حيّان وغيره ، رحم الله تعالى الجميع .

١٢٥ - ومنهم أبو بكر الخزرجي ، محمد بن أحمد بن حسن ، وقيل : محمد بن عيسى المالقي المالكي^٤ ، قال الشريف أبو القاسم : إنه كان أحد الزهاد الورعين ، وعباد الله المتقين ، مشغلاً بنفسه ، متخلياً^٥ عما في أيدي الناس ، يأكل من كسب يده ، ولا يقبل لأحد شيئاً ، مع وجْد وعمل وفضل وأدب ،

١ هو محمد بن أحمد بن حسن بن عامر بن أحمد بن محمد بن حسن التجيبي . انظر ترجمته في الوافي

٢ : ١٤٠ .

٣ البيتان في الوافي .

٤ في ق : ٦٩٩ وفي دوزي : ٦٩٤ .

٥ ترجم له السيوطي في بغية الوعاة : ٨٨ باسم محمد بن عيسى ، وهو ينقل عن البدر السافر .

٥ ق ط ج : مستخلياً .

ولم يكن في زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له .
وقال الحافظ عبد الكريم : إنه دخل إشبيلية ، واشتغل بالعربية على الشلّوبين
وقرأ القراءات السبع ، ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك ، وكان والده نجاراً
وكان لا يأكل إلاّ من كسب يده ، يخيّط الثياب ، فازدحم الناس عليه تبركاً
به ، فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه ، وكان
شديد الزهد ، كثير العبادة ، لا يسلم يده إلى أحد ليقبّلها ، وجاءه شخص قد
زيد عليه في أجرة مسكنه ليشفع إلى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد ، فمضى إلى
صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر ، فعلم بذلك الساكن بعد مدة ، فقال له :
يا سيدي ما سألت إلاّ شفاعاً ، وأنت تزن غني^١ ، فقال له : رجل له دار يأخذ
أجرتها يجيء إليه الخزرجي يقطع عليه حقه ؟ والله ما يدفع هذا إلاّ أنا ، فلم يزل
يدفع الزائد إلى أن انتقل الساكن إلى غيره ، ومات ليلة الثامن والعشرين من
شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١ ، عن خمس وأربعين سنة ، ودفن بالقرافة ، رحمه
الله تعالى ، ونفعنا به .

١٢٦ - ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمي^٢ ،
مولاهم ، لأن ولّاه لبني العباس من أهل قرطبة ، ولد في شهر رمضان سنة ٣٢٢
بقرطبة ، وسمع بها من وهب بن مسرة ، وخالد بن سعيد^٣ وغيره ، ورحل فحج
وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق وأبا علي ابن السكن ونظراءهم في سنة ٣٤٩ ،
وعاد إلى بلده ، وبها مات في شهر رمضان سنة ست وأربعمائة .
قال ابن بشكّو^٤ : كان رجلاً صالحاً فاضلاً ، من أهل الاجتهاد في
العبادة ماثلاً إلى التقشف والزهادة ، قديم الطلب حسن المذهب متبعاً للسنن .

١ دوزي : وأنت تنقذ .

٢ ترجمته في الصلة : ٤٧٠ .

٣ الصلة : خالد بن سعد .

٤ لم يرد هذا في الطبعة المصرية من كتاب الصلة .

١٢٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان^١ بن أحمد بن إبراهيم الزهري الأندلسي الإشبيلي^٢ ، ولد بمالقة ، وطاف الأندلس ، وطلب العلم ، وحصل طرفاً صالحاً من علم الأدب ، ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة فسمع الحديث بها ، ودخل الشام وبلاد الجزيرة ، وقدم بغداد سنة ٥٩٠ . وعمره ثلاثون سنة ، وأقام بها مدة ، وسمع من شيوخها كأبي الفرج ابن كليب ونحوه ، وقرأ ونسخ بخطه ، وسافر إلى أصبهان وبلاد الجبل ، وكان فاضلاً حسن المعرفة بالأدب ، يقول الشعر ، وينشئ المقامات ، وصنف كتاب « البيان والتبيين في أنساب المحدثين » ستة أجزاء ، وكتاب « البيان فيما أبهم من الأسماء في القرآن » مجلد ، وكتاب « أقسام البلاغة وأحكام الصناعة »^٣ في مجلدين ، وكتاب « شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي » في خمسة عشر مجلداً ، وكتاب « شرح المقامات » مجلد ، وكتاب « شرح اليميني »^٤ في مجلد ، قال المنذري : توفي شهيداً ، قتله التتار في رجب ؛ وقال ابن النجار : في سابع عشر رجب سنة ٦١٧ ، رحمه الله تعالى .

١٢٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم ، القرطبي ، المقرئ المعروف بالورشي ، نسبة إلى قراءة ورش لاشتهاره بها ، وهو أحد القراء المعروفين . قال الحاكم : هو من الصالحين المذكورين بالتقدم في علم القرآن ، سمع بمصر والشام والحجاز والعراقين والجبل وأصبهان ، وورد نيسابور ، ودخل خراسان فسمع علي بن المرزبان بأصبهان ، وبالأهواز عبد الواحد ابن خلف الجنديسابوري ، وبفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي ،

١ دوزي : سلمان .

٢ ترجمته في بغية الوعاة : ١١ والوافي ٢ : ١٠٤ والنقل عن ابن النجار .

٣ كذلك هو في البغية ، أما في الوافي : وأحكام الفصاحة .

٤ كتاب في التاريخ للمتبي .

وقال ابن النجار : قدم بغداد . وحدث بها . توفي بسجستان في ربيع الأول سنة ٣٩٣ .

١٢٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجي ، اللخمي ^١ ، قال ابن بشكوال : مولده في صفر سنة ٣٥٦ . وسمع عن جده . ورحل إلى المشرق . وقال ابن غلبون في مشيخته : إنه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل . قائماً بها . واقفاً عليها ، قاعداً للشروط . محسناً لها . عارفاً . وبيتهم بيت علم . ونشأ فيهم هو وأبوه وجده ، وكان جميعهم في الفضل والتقدم على درجاتهم في السن . وعلى منازلهم في السبق ، وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة . وشاركه في السماع والرواية عن جده . وسمع بمصر على أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد بن رزيق المخزومي .

وقال ابن بشكوال : كان من أجل الفقهاء عندنا دراية ورواية ، بصيراً بالعقود ، ومتقدماً على أهل الوثائق ^٢ ، عارفاً بعلمها ، وألف فيها كتاباً حسناً . وكتاباً في السجلات إلى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين ، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى ، وتوفية العلم حقه من الوفاء والتصون . توفي في المحرم سنة ٤٣٣ لعشرين بقين منه .

١٣٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز ، العُتبي . الأندلسي ، القرطبي ، الفقيه المالكي المشهور ، صاحب العُتبية ^٣ ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ، ورحل إلى المشرق فسمع من سَحْنُون وأصبغ بن الفرج وغيرهما . وكان حافظاً للمسائل . جامعاً لها ، عالماً بالنوازل ، وهو الذي جمع المستخرجة من الأسمعة المسموعة غالباً من مالك

١ ترجمته في الصلة : ٤٩٥ .

٢ الصلة : متقدماً في علم الوثائق .

٣ ترجمته في جذوة المقتبس : ٣٦ (وبغية الملتبس رقم : ٩) وابن الفريسي ٢ : ٨ والوافي ٢ : ٣٠ .

ابن أنس ، وتعرف بالعتبية ، وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة ، وكان يؤتى بالمسألة الغريبة الشاذة فإذا سمعها قال : أدخلوها في المستخرجة ، ولذا روي عن ابن وضاح أنه كان يقول : المستخرجة فيها خطأ كثير ، كذا قال ، ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من أعلام المالكية كابن رشد وغيره . قال ابن يونس : توفي بالأندلس سنة ٢٥٥ .

والعتبي : نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان ابن حرب ، وقيل : إلى جد للمذكور يسمى عتبة ، وقيل : إلى ولاء عتبة بن أبي يعيث .

١٣١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافري ، المقرئ ، الفَرَضِي ، الأديب ، ولد بالأندلس سنة ٥٩١ ، ونشأ ببليسية ، وأقام بالإسكندرية ، وقرأ القرآن على أصحاب ابن هُذَيْل ، ونظم قصيدة في القراءات على وزن الشاطبية ، لكن أكثر أبياتاً ، وصرح فيها بأسماء القراء ، ولم يرمز كما فعل الشاطبي ، وكانت له يد في الفرائض والعروض ، مع معرفة القراءات والأدب .

ومن شعره :

إذا ما اشترت بنتاً أباهاً فعتقها بنفس الشراء شرعاً عليها تأصلاً
وميراثه إن مات من غير عاصب ومن غير ذي قرصٍ لها قد تأثلاً
لها النصف بالميراث والنصف بالولا فإن وهبَ ابناً أو شراه تفضلاً
فأعتق شرعاً ذلك الابن ما لها سوى الثلث ، والثلثان للأخ أصلاً
وميراثها فيه إذا مات قبلها كميراثها في الأب من قبل يحتل
ومولى أبيها ما لها الدهر فيه من ولاء ولا إرث مع الأب فاعتلى

وهذه المسألة ذكر الغزالي في «الوسيط» أنه قضى فيها أربعمائة قاضٍ وغلطوا بصورتها ابنة اشترت أباهاً فعتق عليها ، ثم اشترى الأب ابناً فعتق عليه ، ثم

اشترى الأب عبداً فأعتقه ، ثم مات الأب ، فورثه الابن وال بنت للذكر مثل حظ الأنثيين ، ثم مات العبد المعتق ، فلمن يكون ولاؤه ؟ وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهي مشهورة .

١٣٢ - ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل ، أبو عبد الله الأموي ، الأندلسي ، الطَّلَيْطَلِي ، المعروف بالنقاش ، نزل مصر ، وقعد للإقراء بتجامع عمرو بن العاص ، وأخذ عنه جماعة ، وتوفي بمصر سنة ٥٢٩ .

١٣٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي القَبْرِي ، القُرْطُبِي ، المؤدب^١ ، رحل من الأندلس سنة ٣٤٢ ، فسمع بمصر من أبي محمد ابن الورد وأبي قتيبة مسلم بن الفضل البغدادي وغيره ، وكان صالحاً خيراً مؤدباً ، سمع الناس منه كثيراً^٢ ، وتوفي سنة ٣٦٢ .

والقَبْرِي - بفتح القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ثم راء مهملة - نسبة إلى قَبْرَة بلد بالأندلس بقرب قُرْطُبَة بنحو ثلاثين ميلاً .

١٣٤ - ومنهم جمال الدين أبو بكر الواثلي ، محمد بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن سُجْمَان^٣ ، الشريشي ، المالكي^٤ ، ولد بشرش سنة ٦٠١ ، ورحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد^٥ الحراني ، ودمشق من مكرم بن أبي الصقر ، وبحلب من أبي البقاء يعيش بن علي النحوي ، وسمع بإربيل وبغداد ، وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدة يفيد الناس فتخرج به جماعة ، وولي مشيخة المدرسة بالقدس ، ومشيخة الرباط الناصري بالجليل ، وأقام بدمشق يفتي

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٧٤ .

٢ في ط ق ج : سمع من الناس ، والتصويب عن ابن الفرضي .

٣ ضبطه السيوطي : بضم السين المهملة وسكون الحاء أي « سحمان » .

٤ انظر ترجمته في بنية الرواة : ١٨ .

٥ في الأصول : ابن عمار .

ويدرس ، وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد . أحد الأئمة
المبرزين المتبحرين في العربية والفقه على مذهب الإمام مالك ، والتفسير . والأصول .
وصنّف كتاباً في الاشتقاق ، وشرح ألفية ابن معطي ، وأخذ عنه الناس ، وطلب
لل قضاء بدمشق فامتنع منه زهداً وورعاً ، وبقي المنصب لأجله شاغراً إلى أن مات
برجب سنة ٦٨٥ ، ودفن بقاسيون .
وسُجّمان : بسين مهملة مضمومة ، ثم جيم ساكنة ، بعدها ميم مفتوحة ،
ونون .

١٣٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج القرطبي ،
المعروف والده بالقنّثوري^١ ، وكان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن
عبد الرحمن الداخل ، وكان أبوه أحمد بن يحيى رجلاً صالحاً ، وولد هو سنة
٣١٥ ، وكان سكناه بقَرْطُبة بقرب عين قنت أوربة ، وسمع بقرطبة من قاسم
ابن أصبغ كثيراً ، ومن ابن أبي دكليم والخشي ، ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة
من ابن الأعرابي ، ولزمه حتى مات ، وسمع بها من جماعة غيره ، وسمع
بجدة ، وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ، ودخل صنعاء وزبيد وعدن
وسمع بها من جماعة ، وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزار ، وسمع
من السيرافي وجماعة كثيرة ، وسمع بغزّة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس
وبيروت وصيدا والرملة وصور وقيسارية والقلزم والقرما والإسكندرية ،
فبلغت عدة شيوخه إلى مائتين وثلاثين شيخاً ، وروى عنه أبو عمر الطلمنكي
وجماعة ، وكتب تاريخ مصر عن مؤلفه أبي سعيد ابن يونس ، وروى عنه ابن
يونس وهو من أقرانه ، وعاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥ ، واتصل بالحكم
المستنصر ، وصارت له عنده مكانة ، وألّف له عدة كتب ، واستقضاه على

١ انظر ترجمته في جذوة المقتبس : ٣٨ (وبغية الملتبس رقم : ١٤) وابن الفريسي ٢ : ٩٣ .
٢ في أصول النفع : ٣٢٥ ؛ والتصويب عن ابن الفريسي ؛ وقد اتفقت المصادر على أن رحلته سنة
٣٣٧ ، وهذا يعني أنه رحل وهو ابن اثني عشرة سنة إذا قلنا إنه ولد سنة ٣٢٥ وهو أمر مستبعد .

إِسْتِجَاجَةً ثُمَّ عَلَى الْمَرِيَّةِ ، ومات برجب سنة ١٣٤٨ .

قال الحميدي : هو محدث ، حافظ جليل . صنف كتباً في فقه الحديث ، وفي فقه التابعين : فمنها « فقه الحسن البصري » في سبع مجلدات ، و « فقه الزهري » في أجزاء كثيرة . وسمع مسند ابن الفَرَضِي وحديث قاسم بن أصبغ . قال ابن الفرضي : وكان عالماً بالحديث . بصيراً برجاله ، صحيح النقل حافظاً . جيد الكتابة على كثرة ما جمع .

وقال ابن عفيف في حقه : إنه كان من أعنى الناس بالعلم ، وأحفظهم للحديث وأبصرهم بالرجال ، ما رأيت مثله في هذا الفن ، من أوثق المحدثين بالأندلس . وأصحهم كتباً ، وأشدهم تعباً لروايته . وأجودهم ضبطاً لكتبه . وأكثرهم تصحيحاً لها . لا يَدَعُ فيها شبهة ، رحمه الله تعالى .

١٣٦ - ومنهم أبو عبد الله الْقَيْسِي الوضاحي محمد بن أحمد بن موسى^٢ ، رحل من المغرب ، وسمع من السِّلَفِي وغيره جملة صالحة ، ثم عاد إلى الأندلس بعد الحج ، وسكن الْمَرِيَّة مدة وبها مات سنة ٥٣٩ ، وقيل : في التي بعدها ، وكان من أظرف الناس ، وأحسنهم أدباً ، فقيهاً ، فاضلاً ، ثقة ، ذا فرائد جمّة ، عفيفاً ، معتياً بالعلم .

١٣٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هُذَيْل ، الْعَبْدَرِي ، الْبَلَنْسِي^٣ ، ولد سنة ٥١٩ ، وسمع من أبيه وجماعة ، ورحل حاجاً فسمع من السِّلَفِي وابن عوف^٤ والخضرمي والتنوخي والعثماني وغيرهم ،

١ ذكر ابن الفرضي أنه توفي ستة ثمانين وثلاثمائة وهذا هو المعقول إذ ان المستنصر لا يستقضي قبل سنة ٣٥٠ وهي السنة التي تولى فيها الحكم .

٢ ترجمة الوضاحي في أخبار و تراجم أندلسية : ١١٥ - ١١٦ .

٣ ترجمة ابن هذيل في الذيل والتكملة : ٢٤ (نسخة باريس) وقال فيه مريباطري ، وذكر أنه توفي بمريباط سنة ٥٩٣ وانظر كذلك التكملة : ٥٥٢ وإنما نسب إلى بلنسية لأنه من أبيشة وهي من ثغور بلنسية .

٤ ق : وابن عون ؛ وهو خطأ .

ورجع بعد الحج إلى الأندلس فحدث ، وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر ، وله حظ من علم العبارة ، ومشاركة في اللغة ، وكتب بخطه على ضعفه كثيراً ، رحمه الله تعالى .

١٣٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلي ، ومولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة بإشبيلية ، وجال في بلاد المغرب والمشرق ، وقرأ على الشيوخ الفضلاء ، وحصل كثيراً في علم القرآن والأدب ، وله نظم ونثر ، وكان كثير التلاوة للقرآن ، جيد الأداء له ، وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩ ، رحمه الله تعالى .

١٣٩ - ومنهم محمد بن أسباط ، المخزومي ، القرطبي ^١ ، روى عن يحيى ابن يحيى ، وقدم مصر فسمع من الحارث بن مسكين ، وكان حافظاً للفقهاء ، عالماً ، توفي سنة ٢٧٩ .

١٤٠ - ومنهم أبو بكر محمد بن إسحاق ، الشهير بابن السليم ^٢ ، قاضي الجماعة بقرطبة مولده سنة ٣٠٦ ، روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته ، ورحل سنة ٣٣٢ ، فسمع بمكة من ابن الأعرابي ، وبمصر من الزبير بن النحاس وغيرهما ، وعاد إلى الأندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم ، وحدث ، فسمع منه الناس ، وكان حافظاً للفقهاء ، بصيراً بالاختلاف ، حسن الخط والبلاغة متواضعاً ، وتوفي بجمادى الأولى سنة ٣٦٧ .
وسلكم بفتح السين مكبراً .

١٤١ - ومنهم موسى بن بهيج المغربي الأندلسي الواعظ الفقيه العالم ،

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ١٣ .

٢ ترجمة القاضي ابن السليم في جذوة المقتبس : ٤٠ (وبغية الملتبس رقم : ٥٧) وابن الفرضي

٢ : ٧٩ والمرقبة العليا : ٧٥ .

من أهل المَرْيَةِ ، نزل مصر ، يكنى أبا عمران ، كان من أهل العلم والأدب ، وله في الزهد وغيره أشعار حُمِلت عنه ، وحدث المَرْشَانِي عنه بِمُخَمَّسَةٍ في الحج وأعماله كلها ، ولقيه بمصر وقرأها عليه .
ولابن بهيج هذا قوله :

إِنَّمَا دُنْيَاكَ سَاعَةٌ فَاجْعَلِ السَّاعَةَ طَاعَةً
وَاحْذِرِ التَّقْصِيرَ فِيهَا وَاجْتَهِدْ ، مَا قَدَّرُ سَاعَةٌ
وَلِذَا أَحْبَبْتَ عَزَاءً فَالْتَمَسْ عَزَّ الْقَنَاعَةَ

١٤٢ - ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة^١ ، مولى سعيد بن نصر^٢ ، من أهل مَرْسِيَّة^٣ ، سمع صهره أبا علي ابن سُكْرَةَ الصَّدْفِي ، وكانت بنته عند أبي علي ، ولازمه وأكثر عنه ، وروى عن أبي محمد ابن مُفَوِّز الشَّاطِئِي وأبي الحسن ابن شَفِيع ، قرأ عليهما الموطأ ، ورحل ، وحج ، وسمع السنن من الطرطوشي ، وعُني بالرواية ، وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه ، وسمعهما على صهره أبي علي ، وكانا أصليين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما ، حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنهما سمعا على أبي علي نحو ستين مرة ، وكتب أيضاً « الغريين » للهَرَوِي ، وغير ذلك ، وكان أحد الأفاضل الصُّلَحَاء ، والأجواد السُّمَحَاء ، يؤم الناس في صلاة الفريضة ، ويتولى القيام بمؤون صهره أبي علي وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها ، وإليه أوصى عند توجُّهه إلى غزوة كَتَنَدَةَ الَّتِي فَقَدَ فِيهَا سَنَةً أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَمِائَةَ ، وكانت له مشاركة في علم اللغة والأدب ، وقد حدث عنه ابنُ أَخِيهِ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ سَعَادَةَ بِكِتَابِ « أدب الكتاب » لابن قتيبة ، و« الفصيح » لثعلب .

١ ترجمة موسى بن سعادة في معجم شيوخ الصدفي : ١٨٨ .

٢ كان سعيد بن نصر مولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر .

٣ أصله من بلنسية ولكنه خرج منها عندما استولى عليها الروم سنة ٤٨٦ فانتقل إلى دانية ثم إلى مرسية .

١٤٣ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر ، الأزدي ^١ ، من أهل وادي آش ، له رحلة إلى المشرق أدى فيها الفريضة ، وسمع بدمشق من أبي طاهر الخشوعي مقامات الحريري وابن عساكر وغيرهما ، ثم قفّل إلى بلده ، انتهى ملخصاً من ابن الأبار .

وحكى الصفدي ^٢ أن ابن المستكفي اجتمع بالمتنبي بمصر ، وروى عنه شيئاً من شعره ، ومما روى عنه أنه قال : أنشدني المتنبي لنفسه :

لأعبتُ بالخاتم إنسانَةً كمثل بدْرٍ في الدجى الفاحِمِ
وكلّما حاولتُ أخذي له مِن البَنانِ المترفِ الناعمِ
ألقتهُ في فيها فقلتُ : انظروا قد خبّبتِ الخاتمَ في الخاتمِ ^٣

١٤٤ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد الله ابن مالك ^٤ ، صاحب التسهيل والألفية ، وهو : جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن مالك الإمام العلامة الأوحّد الطائي الجياني المالكي حين كان بالمغرب ، الشافعي حين انتقل إلى المشرق ، النحوي نزيل دمشق .

ولد سنة ستمائة أو في التي بعدها ، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن صباح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم ، وأخذ العربية عن غير واحد ، فممن أخذ عنه بيجيآن أبو المظفر ، وقيل : أبو الحسن ، ثابت بن خيار ، عُرف بابن الطيلسان ، وأبي رزين ابن ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعي

١ هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، انظر التكملة : ٨٧٥ وقال ابن الأبار إنه وقف على خطه بالسباع منه والإجازة في ذي القعدة سنة ٥٩٩ .

٢ لا أدري علاقة هذا النص بما قبله . ولعله : وحكى [عنه] الصفدي . . .

٣ عند هذا الحد تنتهي نسخة ط وقد جاء في آخرها : « انتهى الجزء الأول من كتاب نفع الطيب . . . الخ ، يتلوه إن شاء الله في أول الثاني : ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد الله ابن مالك » .

٤ ترجمة ابن مالك في الوافي ٣ : ٣٥٩ والفوات ٢ : ٤٥٢ وغاية النهاية ٢ : ١٨٠ وبتعية الوعاة : ٥٣ .

من أهل لبَّسَلَة ، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نَوَّار ، وقرأ كتاب سيوييه على أبي عبد الله ابن مالك المرشاني ، وجالس يعيش وتلميذه ابن عَمْرُون وغيره بجلب ، وتصدَّر بها لإقراء العربية ، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب ، حتى بلغ فيه الغاية ، وأربى على المتقدمين ، وكان إماماً في القراءات ، وعالماً بها ، وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية ، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها .

قال الصفدي : أخبرني أبو الثناء محمود قال : ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة ، قال الصفدي : وهذا أمر مُعْجَز ، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين ^١ ، وأخبرني عنه أنه كان إذا صلَّى في العادلية — لأنه كان إمام المدرسة — يُشَيِّعه قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له .

وقد روى عنه الألفية شهابُ الدين محمود المذكور ، ورواها الصفدي خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ، ورواها إجازةً عن ناصر الدين شافِع بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه .

وأما النحو والتصريف ^٢ فكان فيهما ابن مالك بجرأ لا يُشَقُّ لُجُّهُ ، وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يُسْتَشْهَدُ بها على النحو واللغة فكان أمراً عجيباً ، وكان الأئمة الأعلام يتحIRON في أمره ، وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية ، لأنه أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه شيء ^٣ عدل إلى أشعار العرب ، هذا مع ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة ، وكثرة النوافل ، وحُسن السَمْت ، وكمال العقل ،

١ الوافي : لأنه يريد ينقل الكتابين .

٢ النقل عن الصفدي أيضاً .

٣ دوزي : شاهد .

وأقام بدمشق مدة يصنف ويشغل بالجامع وبالتربة العادلة ، وتخرج به جماعة ، وكان نظم الشعر عليه سهلاً رَجَزُهُ وطَوِيلُهُ وبَسِيطُهُ ، وصنف كتاب « تسهيل الفوائد » ، قال الصفدي^١ : ومدحه سعد الدين محمد بن عربي بأبيات مليحة إلى الغاية ، وهي :

إن الإمام جمال الدين جمَّله ربُّ العُلا ولنشر العلم أهَّله
أملى كتاباً له يُسمَّى « الفوائد » لم يزل مفيداً لذي لبٍّ تأمله
وكلَّ مسألة في النحو يَجْمَعُها إن الفوائد جمع لا نظير له

قال : وفي هذه الأبيات مع حسن التورية فيها ما لا يخلو من إيراد ذكرته في كتابي « فض الختام »^٢ ، انتهى .

قلت : أجب العجيسي عن ذلك بأن الأبيات ليست في التسهيل ، وإنما هي في كتاب له يسمى « الفوائد » وهو الذي لخصه في « التسهيل » ، فقوله في اسم التسهيل « تسهيل الفوائد » معناه تسهيل هذا الكتاب ، وذكر أيضاً أنه مثل التسهيل في القدر على ما ذكره مَنْ وقف عليه ، وقال : وإليه يشير سعد الدين محمد بن عربي بقوله « إن الإمام — إلى آخره » وسعد الدين ابنُ الشيخ محيي الدين صاحب « الفُصُوص » وغيرها .

ثم قال العجيسي : وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتاباً آخر سماه بـ « المقاصد » ، وضمَّتها تسهيله ، فسماه لذلك « تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » فعلى هذا لا يصح قول الصفدي : إن المدح المذكور في التسهيل ، إلا بارتكاب ضرب من التأويل ، انتهى كلام العجيسي .

قلت : وذكر غيره أن قوله في الألفية « مقاصدُ النحو بها محوية » إشارة لكتاب المقاصد ، وتعقب بقوله « محوية » فإنه لو كان كما ذكر لقال محوي ،

١ الوافي : ٣٦٠ .

٢ في الأصول ودوزي : فض الخاتم ؛ والمراد كتابه « فض الختام عن التورية والاستخدام » .

وأجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام ، وفيه تعسف .

رجع - ومن تصانيف ابن مالك « الموصل في نظم المفصل » وقد حل هذا النظم فسماه « سبك المنظوم وفك المختوم » ومن قال « إن اسمه فك المنظوم وسبك المختوم » فقد خالف النقل والعقل ، ومن كتب ابن مالك كتاب « الكافية الشافية » ثلاثة آلاف بيت ، وشرّحها ، و « الخلاصة » وهي مختصر الشافية ، و « إكمال الإعلام بمثلث الكلام » وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم ، و « لامية الأفعال » وشرحها ، و « فَعَلَ وَأَفْعَلَ » ، و « المقدمة الأسدية » وضعها باسم ولده الأسد ، و « عُدَّة الالفاظ وعمدة الحافظ » ، و « النظم الأوجز فيما يهمل » ، و « الاعتضاد في الظاء والضاد » مجلد ، و « إعراب مشكل البخاري » ، و « تحفة المودود في المقصور والممدود » وغير ذلك كشرح التسهيل . وروى عنه ولده بدر الدين محمد ، وشمس الدين بن جعوان ، وشمس الدين بن أبي الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين أبو بكر المزني ، والشيخ أبو الحسين اليونيني ، وأبو عبد الله الصيرفي ، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، وشهاب الدين محمود ، وشهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين بن شافع ، وخلق كثير سواهم . ومن نظمته في الحليّة :

خَيْلُ السَّابِقِ الْمَجْلِيِّ يَقْتَفِيهِ مُصَ لِّ الْمُسْلِيِّ وَتَالِ قَبْلَ مَرَاتِحِ
وَعَاطِفُ وَحْظِيٍّ وَالْمُؤَمِّلُ وَالْمَطِيمُ وَالْفِسْكَيلُ السُّكَيْتُ يَا صَاحِرِ

وله من هذه الضوابط شيء كثير .

وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل ، وصاحب المفصل نحوه صُغِيرَات ، وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري . وكان الشيخ ركن الدين بن القَوْبُع يقول : إن ابن مالك ما خَلَّى للنحو حرمة . وحكي عنه أنه كان يوماً في الحمام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسيقى ، فهجم عليه فتى فقال : ما تصنع ؟ فقال : أكنس لك الموضع للعود ، قال

بعضهم : وهذا مما يُستبعد على دين ابن مالك ، والعُهْدَة على ناقله ، قال
المصنفدي : ولا يستبعد ذلك من لطف النحاة وطباع أهل الأندلس .

وتوفي ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة .

وقال بعضهم : من أحسن شعر ابن مالك قوله :

إذا رَمِدَتْ عيني تداوَيْتُ منكمُ بنظرة حسن أو بسمعٍ كلام
فإن لم أجِدْ ماءً تيممتُ باسمكم وصلَّيتُ فرضي والديارُ أمامي
وأخلصتُ تكبيري عن الغير مُعرضاً وقابلتُ أعلام السوى بسلام
ولم أرَ إلَّا نورَ ذاتك لائحاً فهل تدعُ الشمسُ امتدادَ ظلام

وقدم - رحمه الله تعالى - القاهرة ، ثم رحل إلى دمشق ، وبها مات كما علم .
وقال الشرف الحصري يرثيه^١ :

يا شَتَاتَ الأسماءِ والأفعالِ	بعْدَ موتِ ابنِ مالكِ المفضالِ
وانحرافِ الحروفِ من بعدِ ضَبْطِ	منه في الانفصالِ والاتصالِ
مَصْدَرًا كانَ للعلومِ بإذنِ الـ	له من غيرِ شُبْهَةٍ ومَحالِ
عدمِ النعتِ ^٢ والتعطفِ والتو	كيدُ مُسْتَبْدَلٍ من الأبدالِ
ألمْ إِعْترَاهُ أَسْكَنَ مِنْهُ	حركاتِ كانتِ بغيرِ اعتلالِ
يا لها سَكَنَةٍ لَهُمْ قَضَاءُ	أورَّتْ طوْلَ مَدَةِ الانفصالِ
رَفَعُوهُ فِي نَعْشِهِ فانتصبنا	نصبَ تمييزٍ ، كيفَ سَيرِ الجبالِ
فخَمَمُوهُ عِنْدَ الصَّلَاةِ بَدَلِ	فأميلتُ أسرارُهُ للَدلالِ
صَرَفُوهُ يَا عَظُمَ ما فَعَلُوهُ	وهو عَدَلٌ مَعْرُوفٌ بِالجمالِ
أَدْغَمُوهُ فِي التَّربِ من غيرِ مِثْلِ	سالمًا من تَغْيِيرِ الإِنْتقالِ

١ وردت في الفوات والوافي وبغية الوعاة .

٢ في ق ج ودوزي : النحو .

وَقَفُّوا عِنْدَ قَبْرِهِ سَاعَةً الدَّفْنِ وَوُقُوفًا ضَرُورَةً الْإِمْتِثَالِ
وَمَدَدْنَا الْأَكْفَ نَطْلُبُ قَصْرًا مَسْكَنًا لِلتَّزِيلِ مِنْ ذِي الْجَلَالِ
آخِرَ الْآيِ مِنْ سَبَا الْحِظِّ مِنْهُ^١ حَظَّهُ جَاءَ أَوَّلُ الْأَنْقَالِ
يَا بَيَانَ الْإِعْرَابِ^٢ يَا جَامِعَ الْإِغْ رَابِ يَا مُفْهِمًا لِكُلِّ مَقَالِ
يَا فَرِيدَ الزَّمَانِ فِي النِّظْمِ وَالنَّثِ رَ فِي نَقْلِ مُسْتَنْدَاتِ الْعَوَالِ
كَمْ عُلُومٍ بَشَّتْهَا فِي أَنَاسِ عِلْمُوا مَا بَشَّتْ^٣ عِنْدَ الزَّوَالِ
انتهت ملخصة .

قال الصفدي : وما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها على طولها ، انتهى .
ودفن ابن مالك بسفح قاسيون ، بتربة القاضي عز الدين ابن الصائغ ، وقال
العجيسي : بتربة ابن جعوان . ورثاه الشيخ بهاء الدين ابن النحاس بقوله^٤ :

قُلْ لَابْنَ مَالِكٍ أَن جَرَّتْ بِكَ أَدْمَعِي حُمُرًا يُحَاكِهَا النَّجِيعُ الْقَانِي
فَلَقَدْ جَرَحْتَ الْقَلْبَ حِينَ نُعِيتَ لِي وَتَدَفَّقَتْ بَدْمَائِهِ أَجْضَانِي
لَكِنْ يَهُونَ مَا أُجِيتُ مِنَ الْأَسَى عِلْمِي بِنُقْلَتِهِ إِلَى رَضْوَانِ
فَسَقَى ضَرْبًا ضَمَّهُ صَوْبُ الْحَيَا يَهْمِي بِهِ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ

وابن النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك ، وهو القائل يخاطب رضي
الدين الشاطبي الأندلسي ، وقد كلفه أن يشتري له قطراً :

أَيُّهَا الْأَوْحَدُ الرِّضِيُّ الَّذِي طَالَ عِلَاءُ وَطَابَ فِي النَّاسِ نَشْرَا
أَنْتَ بَحْرٌ لَا غُرُورَ إِنْ نَحْنُ وَافِي نَاكَ رَاجِينَ مِنْ نَدَاكَ الْقَطْرَا

١ الوافي : حفظنا منه .

٢ ج ودوزي : يا لسان الأعراب .

٣ ق ودوزي : ما ثنيت .

٤ انظر البغية : ٥٧ .

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس ، وهو : بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر ، الحلبي الأصل ، المعروف بابن النحاس ، وهو شيخ أبي حيّان ، ولم يأخذ أبو حيّان عن ابن مالك وإن عاصره بنحو ثلاثين سنة . وقال بعض من عرف بابن مالك : إنه تصدر بحلب مدة ، وأمّ بالسلطانية ، ثم تحول إلى دمشق ، وتكاثر عليه الطلبة ، وحاز قَصَبَ السبق ، وصار يُضرب به المثل في دقائق النحو ، وغوامض الصرف ، وغريب اللغات ، وأشعار العرب ، مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السَّمْتِ والصيانة والتحري لما ينقله والتحرير فيه ، وكان ذا عقل راجح ، حسن الأخلاق مهذباً ، ذا رَزَاقَة وحياء ووقار ، وانتصاب للإفادة ، وصبر على المطالعة الكثيرة ، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجي وغيره ، وسارت بتصانيفه الرُّكبان ، وخضع لها العلماء الأعيان ، وكان حريصاً على العلم ، حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد .

وقال بعض الحفاظ حين عرف بابن مالك : يقال إن عبد الله في نسبه مذكور مرتين متواليتين ، وبعض يقول : مرة واحدة ، وهو الموجود بخطه أول شرحه لعمدته ، وهو الذي اعتمده الصفدي وابن خطيب دارياً محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري ، وعلى كل حال فهو مشهور بجدة في المشرق والمغرب .

وحكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وعليه عَوَّل شيخ شيوخ شيوخنّا ابن غازي في قوله :

قد خبّع ابن مالك في خبعا وهو ابن عه كذا وعى من قد وعى^١

وقيل ، كما تقدم : إن مولده سنة ستمائة أو بعدها ببجّيان الحرير مدينة من مدن الأندلس جبر الله كسرها - وهي مفتوحة الجيم وياؤها مشددة تحتانية - وتصدّر ابن مالك بحمّة مدة ، وانتقد بعضهم على ابن خلكان إسقاطه من تاريخه ،

١ يريد أن مقدار حروف « خبع » في حساب الجمل يساوي ٦٧٣ وهي سنة وفاته ، وعه = ٧٥

مع كونه كان يعظمه إلى الغاية . وقدّم ، رحمه الله تعالى ، لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه : إنه أعلم الناس بالعربية والحديث ، ويكفيه شرفاً أن من تلامذته الشيخ النووي ^١ ، والعلم الفارقي ، والشمس البعلبي ، والزين الميزي ، وغيرهم ممن لا يحصى .

وكان ، رحمه الله تعالى ، كثير المطالعة ، سريع المراجعة ، لا يكتب شيئاً من محفوظه حتى يراجعه في محله ، وهذه حالة المشايخ الثقات ، والعلماء الأثبات ، ولا يرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ ، وكذا كان الشيخ أبو حيّان ، ولكن كان جده في التصنيف والإقراء .

وحكي أنه توجه يوماً مع أصحابه للفرجة بدمشق ، فلما بلغوا الموضع الذي أرادوه غفّلوا عنه بسويعه ، فطلبوه فلم يجدوه ، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكباً على أوراق .

وأغرب من هذا في اعتناؤه بالعلم ما مر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدّثها بعضهم بثمانية ، وفي عبارة بعض «أو نحوها» لقنه ابنه إياها ، وهذا ممّا يصدق ما قيل : بقدر ما تتعنى ، تنال ما تتمنى ، فجزاه الله خيراً عن هذه المهمة العلية .

وذكر أبو حيان في الجوازم من تذييله وتكميله ، أنه لم يصحب من له البراعة في علم اللسان ، ولذا تَضَعُفُ استنباطاته وتعقّباته على أهل هذا الشأن ، وينفر من المنازعة ، والمباحثة والمراجعة ، قال : وهذا شأن من يقرأ بنفسه ، يأخذ العلم من الصحف بفهمه ، ولقد طال فَحْصِي وتنقيري عمّن قرأ عليه ، واستند في العلم إليه ، فلم أجِدْ مَنْ يذكر لي شيئاً من ذلك ، ولقد جرى يوماً مع صاحبنا تلميذه علم الدين سليمان بن أبي حرب الفارقي الحنفي فقال : ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلدِه ، جيّان ، وأنه جلس في حلقة

١ ق ج ودوزي : النووي .

الأستاذ أبي علي الشلوين نحواً من ثلاثة عشر يوماً ، وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة في هذا الشأن ، وإنما جلالته وشهرته في إقراء القرآن ، هذا حاصل ما ذكره أبو حيّان .

قال بعض المحققين . وهو العلامة يحيى العَجَسي : وليس ذلك منه بإنصاف ولا يحمل على مثله إلاّ هوى النفس وسرعة الانحراف ، ففيه المستند عنه والمتبع ، شهادة نفي فلا تنفع ولا تُسمع ، ويكفي ما سطر في حقه قوله في أثنائه : نظم في هذا العلم كثيراً ونثر ، وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من هذا العلم غرائب ، وحوث مصنفاته منها نوارد وعجائب ، وإن منها كثيراً استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة إذ هي مرتبة الأكابر النقاد ، وأرباب النظر والاجتهاد ، وقوله في موضع آخر من تذييله « لا يكون تحت السماء أنحى ممّن عرّف ما في تسهيله » وقرنه في « بحره » بمصنف سيويه فما ينبغي له أن يغمصه ، ولا أن يحط عليه ، ولا أن يقع فيما وقع فيه ، فإنه ممّا يُجرىء على أمثاله الغبي والنبه ، والحليم والسفيه ، وما هذا جزاء السلف من الخلف ، والدُرر من الصدف ، والجَيّد من الحشف ، أوّما ينظر إلى شيخه أبي عبد الله ابن النحاس ، فإنه لا يذكره إلاّ بأحسن ذكر كما هو أدب خيار الناس ، ومن كلامه في نقله عنه : وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول : وإلى تلميذه أبي البقاء المصري حيث يقول فيه . أعني في أبي حيّان :

هو الأوحدُ الفردُ الذي تمَّ عِلْمُهُ وسار مسيرَ الشمسِ في الشرقِ والغربِ
ومن غايةِ الإحسانِ مبدأ فضلهِ فلا غرو أن يسمو على العُجمِ والعُربِ

ومن غاية الإحسان ، في هذا الشأن ، التصانيف التي سارت بها الرُكبان .
في جميع الأوطان ، واعترف بحسنها الحاضر والبادي ، والداني والقاصي .
والصديق والعدو ، فتلقّاها بالقبول والإذعان ، فسامح الله تعالى أبا حيّان ، فإن

كلامه يحقق قول القائل : كما تدين تدان . ورحم الله تعالى ابن مالك ، فلقد أحيا من العلم رسوماً دارسة ، وبيّن معالم طامسة . وجمع من ذلك ما تفرق ، وحقق ما لم يكن تبين منه ولا تحقق ، ورحم شيخه ثابت بن الحيار ، فإنه كان من الثقات الأخيار . وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الحيار الكلّاعي - بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب في الإحاطة - وأصله من لبّانة ، ويُعد في أهل جَيّان ، وتوفي بغرناطة سنة ٦٢٨ .

وكان أبو حَيّان يغض من هذا الكتاب ويقول : ما فيه من الضوابط والقواعد حائد عن مَهْنَع الصواب والسداد ، وكثيراً ما يشير إلى ذلك في شرحه المسمى « منهج السالك » ومن غَضَبه منه بالنظم في ملا من الناس من جعلتهم شيخه بهاء الدين ابن النحاس والأقسراني يجاريه مقتفياً له ومتأسياً في تسويد القرطاس :

ألفيّة ابن مالك مطموسة المسالك
وكم بها مشغل أوقع في المهالك

ولا تغتر أنت بهذا الغرر ، فإنه ما كل سحاب أبرق مطر . ولا كل عود أورق ثمر . وقيل معارضة للقوم ، وتنبهاً لهم ممّا هم فيه من النوم :

ألفيّة ابن مالك مشرقة المسالك
وكم بها من مشغل علا على الأرائك

وما أحسن قول ابن الوردي في هذا المعنى :

يا عائياً ألفيّة ابن مالك وغائباً عن حفظها وفهمها
أما تراها قد حوت فضائلاً كثيرة فلا تجرّ في ظلمها
وازجر لمن جادل من يحفظها برابع وخامس من اسمها

يعني « صه » فإنه عند الاستقلال بمعنى اسكت ، انتهى ملخصاً .

وقال أيضاً عند ذكره مصنفات ابن مالك : وهي كما قيل غزيرة المسائل ، ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل ، وهي مع ذلك كثيرة الإفادة ، موسومة بالإجادة ، وليست لمن هو في هذا الفن في درجة ابتدائه ، بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه ، انتهى .

واعلم أن الألفية مختصرة الكافية كما تقدم ، وكثير من أبياتها فيها بلفظها ، ومتبوعه فيها ابنُ معطي ، ونظمه أجمع وأوعب ، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب ، وذكر الصفدي عن الذهبي أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقي الدين محمد المدعو بالأسد ، واعترضه العلامة العجيسي بأن الذي صنفه له عن تحقيق « المقدمة الأسدية » قال : وأما هذه - يعني الألفية - فذكر لي من أثقُ بقوله أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن إبراهيم بن عفيف الدين بن هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهنّي الحموي الشافعي الشهير بابن البارزي ، ويقال : إن هذه النسبة إلى باب أبرز أحد أبواب بغداد ، ولكن خفف لكثرة دَوْرِهِ على الألسنة ، انتهى مختصراً .

وقال بعض من عرّف بابن مالك : هو مقيم أود ، وقاطع لدّد ، ومزين سماء موّهت الأصائل ديباجتها ، وشعشت البُكرُ زجاجتها ، وجاءت أيامه صافية من الكدر ، ولياليه وما بها شائبة من الكبر ، قد خلّقها العشي بردّعه ، وخلفها الصباح برّبعه ، فكان كل متعين حول مسجده ، وكل عين فاخرة بعسجده ، هذا وزُمُرُ الطلاب ، وطلبة الأجلاب ، لا تزال تُزجي إليه القِلاص ، وتكثر من سِرْبِهِ الاقتناص ، كان أوحّد وقته في علم النحو واللغة مع كثرة الديانة والصلاح ، انتهى .

وقال بعض المغاربة :

لقد مزّقَتْ قلبي سِهَامُ جُفُونِهَا كما مَزَّقَ اللَّخْمِيُّ مذهبَ مالِكِ
وَصَالَ عَلَى الْأَوْصَالِ بِالْقَدِّ قَدْهَا فَأُصَحَّتْ كَأَبْيَاتِ بَتْقَطِيعِ مالِكِ

وقلدت إذ ذاك الهوى لمرادها كتقليد أعلام النحاة ابن مالك
وملكتُها رقتي لرقعة لفظها وإن كنت لا أرضاه ملكاً لمالك
وناديتُها يا مُنيّتي بذل مهجتي ومالي قليل في بديع جمالك

ويعني بقوله « بتقطيع مالك » مالك بن المرحّل السبّتي ، رحمه الله تعالى .
ولما سئل ابن مالك عن قول النبي ، صلّى الله عليه وسلّم : « نعوذ بالله من
الحَوَرِ بعد الكَوَرِ » هل هو بالراء أو بالنون ؟ أنكر النون ، فقيل له : إن في
« الغريين » للهروي رواية بالنون ، فرجع عن قوله الأول ، وقال : إنما هو
بالنون ، انتهى .

وقد ذكر في « المشارق » النون والراء ، فقال : « الحَوَرُ بعد الكَوَرِ »
بالراء رواه العذري وابن الحذاء ، وللباقين بالنون ، معناه النقصان بعد الزيادة ،
وقيل : من الشذوذ بعد الجماعة ، وقيل : من الفساد بعد الصلاح ، وقيل :
من القلة بعد الكثرة ، كارَ عِمَامَتَه إذا لفها على رأسه واجتمعت ، وحارها
إذا نَقَصَها فافترقت ، ويقال : حار إذا رجع عن أمر كان عليه ، ووهم
بعضهم رواية النون ، وقيل : معناها رجع إلى الفساد بعد أن كان على خير ممّا
رجع إليه ، وقال عياض في موضع آخر بعد : الحور بعد الكور ، كذا للعذري ،
والكون للفارسي والسجزي وابن ماهان ، وقول عاصم في تفسيره « حار بعدما
كار » وهي روايته ، ويقال : إن عاصماً وهم فيه ، انتهى .

والسائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خلكان ، لأن ابن الأثير سأل ابن
خلكان عنها ، فسأل هو ابن مالك ، رحم الله تعالى الجميع .

* * *

[تعريف بابنه بدر الدين]

وقد عرّف الحافظ الذهبي بابن مالك في تاريخ الإسلام ، وذكر فيه ترجمة
لولده بدر الدين محمد ، وأنه كان حاد الذهن ، ذكياً ، إماماً في النحو وعلم

المعاني والمنطق ، جيد المشاركة في الفقه والتدريس ، وأنه تصدّر بعد والده للتدريس ، ومات شاباً قبل الكهولة سنة ٦٨٦ ، ومن أجل تصانيفه شرّحه على ألفية والده ، وهو كتاب في غاية الإغلاق ، ويقال : إنه نظير الرضي في شرح الكافية ، وللناس عليه حواشٍ كثيرة ، رحمهم الله تعالى أجمعين .

١٤٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسي التدميري^١ ويعرف بالشهيد ، كان عظيم القدر جداً بالأندلس ، بعيد الأثر في الخير والصلاح والعلم والنسك والانتقطاع إلى الله تعالى ، وكان من وجوه أهل كورة تدمير ذوي البيوت الرفيعة ، وبرع بخصاله المحمودة ، فكان في نفسه فقيهاً ، عالماً ، زاهداً ، خيراً ، ناسكاً ، متبتلاً ، نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدعة ، طلب العلم في حدثان سنّه ، ورحل إلى قرطبة فروى الحديث وتفقه وناظر ، وأخذ بحظّ وافر من علم المسألة والجواب ، وكان أكثر علمه وعمله الورع ، والتشدد فيه ، والتحفّظ بدينه ومكسبه ، ورسخ في علم السنّة ، ثم ارتحل إلى المشرق ، فمر بمصر حاجتاً ، فأقام بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيها من عمل يده بالنسخ ، ثم سار إلى العراق ، فلقى أبا بكر الأبهري وأخذ عنه ، وأكثر من لقاء الصالحين وأهل العلم ، ولبس الصوف ، وقنع ، وتورع جداً ، وأعرض عن الشهوات ، وكان إذا ستم من النسخ الذي جعل قوته منه أجر نفسه في الخدمة رياضة لها ، فأصبح عابداً متقشفاً منيباً مخبئاً عالماً عاملاً منقطع القرين ، قد جرت منه دعوات مجابة ، وحفظت له كرامات ظاهرة ، ثم عاد إلى بلده تدمير سنة ست أو سبع وسبعين وثلاثمائة ، وبها أبوه أبو الحسام طاهر حياً ، فترل خارج مدينة مرسية تورعاً عن سكناها وعن الصلاة في جامعها ، فاتخذ له بيتاً سقفه من حطب السدر يأوي إليه ، واعتمر جنيّة بيده يقات منها ، وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبي عامر ، ثم تحول من قريته بعد عامين إلى الثغر ، وواصل

١ ترجمته في ابن الفرضي ٢ : ٩٠ .

الرباط ، ونزل مدينة طَلَبِيرَة ، وكان يدخل منها في السرايا إلى بلد العَدُوِّ فيغزو ويتقوت من سُهْمَانِه ، وَيُعَوِّل على فرس له ارتبطه لذلك ، وكان له بأس وشدة وشجاعة وثقافة ، يحدث عنه فيها بحكايات عجيبة ، إلى أن استشهد مقبلاً غير مدبر . سنة ٣٧٩ ، أو في التي قبلها ، عن اثنتين وأربعين سنة ، وأبوه حي ، رحم الله تعالى الجميع .

١٤٦ - ومنهم أبو عبد الله القَيْجَاطِي محمد بن عبد الجليل بن عبد الله بن جَهْوَور ، مولده سنة ٥٩٠ بَقِيَّجَاطَة ، وكتب عنه الحافظ المنذري ، ومن شعره قوله :

إِذَا كُنْتَ تَهْوَى مِنْ نَأَتْ عِنكَ دَارُهُ فَحَسْبُكَ مَا تَلْقَى مِنَ الشَّوْقِ وَالْبُعْدِ
فِيَا وَيْحَ صَبٍّ قَدْ تَضَرَّمَ نَارُهُ وَوَاحَرَ قَلْبٌ ذَابَ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ

١٤٧ - ومنهم أبو عبد الله - ويقال : أبو حامد - محمد بن عبد الرحيم ، المازني ، القَيْسِي ، الغَرْنَاطِي^١ ، ولد سنة ٤٧٣ ، ودخل الإسكندرية سنة ٥٠٨ ، وسمع بها من أبي عبد الله الرازي ، وبمصر من أبي صادق مرشد بن يحيى المديني وأبي الحسن الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم ، وحدث بدمشق ، وسمع أيضاً بها وببغداد ، وقدمها سنة ٥٥٦ ، ودخل خراسان ، وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى الشام ، وأقام بحلب سنين ، وسكن دمشق ، وكان يذكر أنه رأى عجائب في بلاد شتى ، ونسبه بعض الناس بسبب ذلك إلى ما لا يليق ، وصنّف في ذلك كتاباً سماه « تحفة الألباب » وكان حافظاً عالماً أديباً ، وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر ، وزّته بالكذب ، وقال ابن النجار : ما علمته إلاّ أميناً .

١ ترجمة أبي حامد الغرناطي في الوافي ٣ : ٢٤٥ نقلا عن ابن النجار ، وفي الترجمة المقطوعتان اللتان أوردهما المقرئ ؛ وكتابه « تحفة الألباب » في العجائب نشره جبرائيل فراند في المجلة الآسيوية سنة ١٩٢٥ .

ومن شعره قوله :

تكتب العلم وتلقي في سَفَطٍ ثم لا تحفظ ؟ لا تُفْلِحُ قَطَّ
إنما يُفْلِحُ مَنْ يُحَفِّظُهُ بعد فهمٍ وتوقٍ مِنْ غَلَطٍ

وقوله :

العلم في القلب ليس العلم في الكتبِ فلا تكن مُغْرَمًا باللهو واللعبِ
فاحفظه وافهمه واعمل كي تفوز به فالعلم لا يجتنى إلاَّ مع التَّعَبِ

توفي بدمشق في صفر سنة ٥٦٥ .

١٤٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ، القرطبي^١ ، من ذرية أبي
ثعلبة الخُشَنِي صاحب رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلّم ، رحل قبل الأربعين
وماثنين ، فحج ، وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبي موسى الزَّيْمِي ونَصْر
ابن علي الجَهْضَمِي ، ولقي أبا حاتم السجستاني والعباس بن الفرج الرياشي ،
وسمع ببغداد من أبي عبيد القاسم بن سلام^٢ ، وبمكة من محمد بن يحيى العدني ،
وبمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبد الرزَّاق والبرقي وغيرهما ، وأدخل
الأندلس علماً كثيراً من الحديث واللغة والشعر ، وكان فصيحاً جَزَل المنطق ،
صاوماً ، أنوفاً ، منقبضاً عن السلطان ، أرادته على القضاء فأبى ، وقال : إباية
إشفاق لا إباية عصيان^٣ ، فأعفاه ، وكان ثقة مأموناً ، وتوفي في رمضان سنة
٢٨٦ عن ثمان وستين سنة ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمة الخُشَنِي في ابن الفرضي ٢ : ١٦ والجزء ٦٣ (وبنية الملتبس رقم : ٢٠٢) وتذكرة
الحفاظ : ٦٤٩ .

٢ يبدو أن هذا وهم من المقرئ ، فقد ذكر ابن الفرضي أن محمد بن عبد السلام دخل بغداد وكتب
بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام عن محمد بن وهب المسعري تلميذ أبي عبيد ، وهذا ما ذكره
الحميدي وزاد على ذلك أن من شيوخه محمد بن المغيرة وهو تلميذ آخر لأبي عبيد .

٣ انظر خبر إبايته القضاء في « المرقبة العليا » : ١٣ .

١٤٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج ، القرطبي ^١ ،
سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه ، وأخذ عن محمد الحُسَني وقاسم بن أصبغ
ولإبراهيم بن قاسم بن هلال ^٢ ، ورحل سنة ٢٧٤ ، فسمع بمصر من المطلب بن
شعيب والمقدام ^٣ بن داود الرُعَيني ، وأدرك بالعراق إسماعيل القاضي وعبد الله
ابن أحمد بن حنبل .

قال الحميدي : حدث بالمغرب وبالمشرق ، وصنّف السنن ، وممن روى عنه
خالد بن سعيد ، وقال لنا أبو محمد ابن حزم : مُصَنَّف ابن أيمن مصنف رفيع
احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات ، وتوفي
في ذي القعدة سنة ٣٣٠ ، بقرطبة ، رحمه الله تعالى .

١٥٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي ^٤ ،
الرصافي ، القرطبي ، الحداد ، سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن
أصبغ ، وحج سنة ٣٣٩ سنة ردّ القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه ، وسمع
بمكة من ابن الأعرابي ، وبمصر من ابن الورد ^٥ وأبي علي ابن السكن وعبد الكريم
النسائي وغيرهم وسمع بأطرابلس والقيروان من جماعة ، وكان رجلاً صالحاً ^٦ ،
عدلاً ، حدث وكتب عنه الناس ، وعَلَّتْ سنه ، وتوفي بشوال سنة ٣٩٤ ،
وولد فيما أظن سنة ٣٠٢ ، وكانت وفاته بقرطبة ، وقد اضطرب في أشياء
قرئت عليه ، وممن أخذ عنه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، رحم الله تعالى الجميع .

١ ترجمة ابن أيمن في ابن الفريسي ٢ : ٥٢ والجذوة : ٦٣ (وبغية الملتبس رقم : ١٩٧)
وتذكرة الحفاظ : ٨٣٦ .

٢ ابن الفريسي : ويحيى بن قاسم بن هلال .

٣ ج : والمقداد .

٤ ترجمته في ابن الفريسي ٢ : ١١٠ والجذوة : ٦٣ (وبغية الملتبس رقم : ١٩٩) وزاد في
ك : ابن مروان بعد لفظة « ضيفون » في نسبه .

٥ ق : من أبي الورد .

٦ صالحاً : سقطت من ج .

١٥١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك ، الخرجي ، السعدي ،
القرطبي ، روى عن أبي الحسن علي بن هشام ، وروى عنه أبو القاسم ابن
بَشْكُوَال ، وقدم مصر وحدث بها ، وممن سمع منه بها ابن وردان وأبو الرضى
القيسراتي في آخرين ، واستوطن مصر ، وتوفي سنة ٥٨٨ .

١٥٢ - ومنهم أبو بكر ابن السراج ، النحوي ^١ - بتشديد الراء - وهو
محمد بن عبد الملك بن محمد بن السراج الشنتمري ، أحد أئمة العربية المبرزين
فيها ، ويكفيه فخراً أنه أستاذ أبي محمد عبد الله بن بري المصري اللغوي النحوي ،
وحدث عن أبي القاسم عبد الرحمن ^٢ بن محمد النفطي ^٣ ، وقرأ العربية بالأندلس
على ابن أبي العافية وابن الأخضر ، وقدم مصر سنة ٥١٥ ، وأقام بها ، وأقرأ
الناس العربية ، ثم انتقل إلى اليمن ، وروى عنه أبو حفص عمر بن إسماعيل
وأبو الحسن علي والد الرشيد العطار ، وله تواليف منها « تنبيه الألباب في فضل
الإعراب » ^٤ وكتاب في العروض ، وكتاب « مختصر العمدة » لابن رشيق وتنبيه
أغلاطه . قال السلفي : كان من أهل الفضل الوافر ، والصلاح الظاهر ، وكانت
له حلقة في جامع مصر لإقراء النحو ، وكثيراً ما كان يحضر عندي - رحمه الله
تعالى - مدة مقامي بالفسطاط ، توفي بمصر سنة ٥٤٩ ، وقيل : سنة خمس وأربعين ،
وقيل : خمسين وخمسمائة ، برمضان ، والأول أثبت .

١٥٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن سعيد
[العنسي] ، ويكنى أيضاً أبا القاسم ، الغرناطي ، سمع من الجيلة بمصر
والإسكندرية ودمشق وبغداد : منهم الحراني أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد

١ ترجمة السراج في بنية الوعاة : ٦٨ والوافي ٤ : ٤٦ (وبروكلمان ١ : ٣٧٧) .

٢ البنية : عبد الرحيم .

٣ ج : السقطي .

٤ الوافي : تلقيح الألباب في عوامل الإعراب .

ابن داود بدمشق ، وكتب الحديث [وعني] بالرواية أتم عناية ، وفُقد بأصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة .

١٥٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الدفاع^١ ، بالذال المهملة ، وقيل : بالراء ، قرطبي ، سمع عبد الملك بن حبيب ، ورحل فسمع بمصر من الحارث بن مسكين وغيره ، وكان زاهداً فاضلاً ، وتوفي سنة ٢٨١ ، رحمه الله تعالى .

١٥٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد ، المَعافري القرطبي^٢ ، ولد بقرطبة سنة ٣٥٨ ، ودخل مصر فسمع من أبي بكر ابن المهندس وأبي بكر البصري ، وروى عن أبي عبد الله ابن مفرج وأبي محمد الأصيلي وجماعة ، ولقي الشيخ أبا محمد ابن أبي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها ، وحج من عامه . ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ٣٨٢ ، وكان معتنياً بالأخبار والآثار ، ثقة فيما رواه ، وعني به ، خيراً ، فاضلاً ، ديناً ، متواضعاً ، متصاوفاً ، مقبلاً على ما يعنيه ، صاحب حظ من الفقه ، وبَصَرٍ بالمسائل ، ودعي إلى الشورى بقرطبة فأبى ، ومات سنة ٤٣٩ . وعابد جده بالباء الموحدة ، رحم الله تعالى الجميع .

١٥٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد^٣ الأنصاري البَلَنْسي ، أخذ القراءات^٤ عن جماعة من أهل بلده ، وخرج حاجباً سنة ٥٧١ ، فجاور بمكة ، وسمع بها وبالإسكندرية من السَّلَفي ، وعاد إلى بلده

١ ترجمة ابن الدفاع في ابن الفرضي ٢ : ١٤ والجزوة : ٥٨ (وبنية الملتبس رقم : ١٥٨) .

٢ ترجمة ابن عابد في الصلة : ٥٠١ وبنية الملتبس رقم : ١٧٧ .

٣ ترجمته في التكملة : ٥٥٩ وفي «ابن ماجد» وغاية النهاية ٢ : ١٧٩ وفي دوزي : ابن هاجر .

٤ ج : القراءة .

سنة ٥٩٦^١ ، وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع ، كثير البر ، ومفاداة الأسرى ، ويحترف بالتجارة ، ومولده بعد سنة ٥٣٠^٢ ، ومات سنة ٥٩٨ بمرسية ، رحمه الله تعالى .

١٥٧ - ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خيَـرَة ، القرطبي ، المالكي ، الحافظ^٣ ، ولد سنة ٤٧٩^٤ ، وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد ابن رشد ، والحديث عن ابن عتاب ، وروى الموطأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان^٥ ، وأخذ الأدب عن أبي الحسين^٦ سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي ، وعن مالك بن عبد الله العُتبي ، وخرج من قُرطُبَة في الفتنة بعدما درّس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله ، وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي ، ثم قال : كَأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ، ثم سافر إلى مصر بعدما روى عنه السلفي ، وأقام بها مدة ، ثم قال : والله ما مصر والإسكندرية بمتباعدتين ، ثم سافر إلى الصعيد ، وحدث في قُوصَ بالموطأ ، ثم قال : والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد ، فمضى إلى مكة ، وأقام بها ، ثم قال : وتصل إلى هذه البلاد ولا تحج ؟ ما أنا إلا هربت منه إليه ! ثم دخل اليمن ، فلما رآها قال : هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن ، فتوجه إلى الهند ، فأدركته وفاته بها سنة ٥٥١ ، وقيل : بل مات بزبد من مدن اليمن ، وكان من جِلّة العلماء الحفاظ مُتَقَنّاً مُتَفَنّاً في المعارف كلها جامعاً لها ، كثير الرواية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب ، من كبار فقهاء المالكية

١ في التكملة : سنة ٥٧٦ .

٢ دوزي : بعد سنة ٥٢٠ ، والتصويب عن التكملة ونسخة من أصول النفع .

٣ ترجمة ابن خيرة في الصلة : ٥٦٠ وبغية الملتبس رقم : ١٧٨ .

٤ في نسختين : ٤٨٩ وفي دوزي : ٤٢٩ .

٥ ج : صفوان . . . صفوان .

٦ ك : عن مولانا أبي الحسين .

يتصرف في علوم شتى حافظاً للآداب ، عارفاً بشعراء الأندلس ، وكان علمه أوفر من منطقته ، ولم يرزق فصاحة ولا حسن إيراد [والله أعلم]^١ .
قال ابن نقطة : خيرة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين .

١٥٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل ، السلمي ، المُرسي^٢ ، قال ابن النجار : ولد بمُرسيّة سنة ٥٧٠ ، وقال غيره : في التي قبلها ، وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧ ، ودخل مصر ، وسار إلى الحجاز ، ودخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد ، وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصليين بالنظامية ، ثم سافر إلى خراسان ، وسمع بنيسابور وهرارة ومرو ، وعاد إلى بلاد بغداد ، وحدث بكتاب السنن الكبير^٣ للبيهقي عن منصور ابن عبد المنعم الفراوي ، وبكتاب غريب الحديث للخطابي ، وقدم إلى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي . وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الرّعقة والعريش من منازل الرمل في ربيع الأول سنة ٦٥٥ ، ودفن بتل الزعقة ، وكان من الأئمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والأصليين والنحو واللغة ، وله فهم ثاقب ، وتدقيق في المعاني ، مع النظم والنثر المليح ، وكان زاهداً ، متورعاً ، حسن الطريقة ، متديناً ، كثير العبادة ، فقيهاً ، مجرداً^٤ ، متعففاً ، نزه النفس ، قليل المخالطة^٥ لأوقاته ، طيب الأخلاق ، متودداً ، كريم النفس ،

١ ما بين معقفين زيادة من ج .

٢ ترجمة ابن أبي الفضل المرسى في الوافي ٣ : ٣٥٤ وبغية الوعاة : ٦٠ ومعجم الأدباء ١٨ :

٢٠٩ ويلقب بشرف الدين ، وله استدراكات على الفصل للزمخشري في سبعين موضعاً ،

وله كلام على شعر أبي الطيب ، وقد عدا ياقوت له مؤلفات أخرى .

٣ ج : السنن الكبرى .

٤ ج : متجرداً .

٥ ج : قليل المخالطة .

قال ابن النجار : ما رأيت في فنه مثله ، وكان شافعي المذهب ، وله كتاب تفسير القرآن سماه « ري الظمان » كبير جداً ، وكتاب « الضوابط الكلية » في النحو ، وتعليق على الموطأ ، وكان مكثراً شيوخاً وسماعاً ، وحدث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز ، وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها بحيث إنه لا يستصحب كتباً في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه ، وكان كريماً ، قال أبو حيان : أخبرني الشرف الجزائري بتونس أنه كان على رحلة ، وكان ضعيفاً ، فقال له : خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط ، فرفعت ذلك ، فوجدت تحته نحواً من أربعين ديناراً ذهباً ، فأخذتها . وقال الجمال اليعقوبي : أنشدني لنفسه بالقاهرة ٢ :

قالوا فلان قد أزال بهاءه ذاك العذارُ وكان بدَرَ تمام
فأجبتُهُمْ بل زاد نورُ بهائِهِ ولذا تَضَاعَفَ فيه فرطُ غرامي
استقصرت الحاظُهُ فتكاثرتِها فأنى العِذارُ يمدُّها بسهامِ

ومن شعره قوله ٣ :

مَنْ كان يرْعَبُ في النجاة فما له غَيْرُ اتِّبَاعِ المصطفى فيما أتى
ذاك السَّبِيلُ المستقيمُ ، وغيرُهُ سُبُلُ الغواية والضلالة والرَّدَى
فاتبع كتاب الله والسنن التي صحت ، فذاك إذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فإنه بابٌ يجرُّ ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال النبي وصحبه والتابعون ومن مناهجهم قفا

١ ذكر الصفدي أنه خلف كتباً عظيمة كانت مودعة بدمشق فرسم السلطان بييها فكانوا يحملون منها كل يوم ثلثاً (لعله : ثلاثاء) إلى دار السعادة لأجل الباذرائي فاشترى منها جملة كثيرة وبقيت في سنة ؟ وفي ج ق : في البلاد التي ينتقل إليها .

٢ انظر معجم الأدباء : ٢١٢ .

٣ معجم الأدباء : ٢١٢ .

١٥٩ - ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البُنْتِي ، الأندلسي ، الأنصاري ، قدم مصر ، وأقام بالقرافة مدة ، وكان شيخاً صالحاً زاهداً فاضلاً ، وتوجه إلى الشام فهلك ، قال الرشيد العطار : كان من فضلاء الأندلسيين ونبھائهم ، ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة ، وكان يتكلم بالسنة شتى . ومن شعره قوله :

إذا قَلَّ مِنْكَ السَّعْيُ فالعزمُ ناشدُ وكلُّ مكانٍ في مَرَاثِكِ واحدُ
توجهُ بصدقٍ وانتقِ الميَنَ واقتصدِ تجنك رهيناتِ النجاحِ المقاصدُ

والبُنْتِي - بضم الباء . وسكون النون - نسبة إلى بُنْتُ حصن بالأندلس . ويقال « بونت » بزيادة واو .

١٦٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، الخولاني ، الباجي ، ثم الإشبيلي ، المعروف بابن القوق^١ ، سمع بقرطبة من جماعة ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٦ . فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره . وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيه سعد ، وكان فقيهاً في الرأي . حافظاً له ، عاقداً للشروط . قال ابن الفرضي : كان رجلاً صالحاً ورعاً ثقة ، وكان خالد بن سعيد قد رحل إليه وسمع منه . وكان يقول إذا حدث عنه : كان من معادن الصدق ، توفي سنة ٣٠٨ .

١٦١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، اللوشي ، الطبيب ، اشتغل بالطب ، وبرع فيه ، وأقام بمصر مدة ، وبها مات في عَشْرِ السنين وستمائة .

١ ترجمة ابن القوق في ابن الفرضي ٢ : ٣٢ (وفيه : ابن القون وفي بعض الأصول كتب : القوف أو القوق وفي ج : الغرق) .

١٦٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون ، العذري ، القرطبي ^١ ،
رحل سنة ٣٣٧ ، فدخل مصر والبصرة ، وعني بعلم الطب ، ودبر مارستان
مصر ، ثم رجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠ ، واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد ،
وله في التفسير كتاب حسن .

قال صاعد : تهر في الطب ، ونبل فيه ، وأحكم كثيراً من أصوله ،
وعانى صنعة المنطق مُعَانَاةً صحيحة ، وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد
ابن طاهر بن بهرام السجستاني البغدادي ، وكان قبل أن يتطب مؤدباً للحساب
والهندسة ، وأخبرني أبو عثمان سعيد الطليطلي ، أنه لم يلق ^٢ في قرطبة مَنْ
يلحق محمد بن عبدون في صناعة الطب ، ولا يجاريه في ضبطها وحسن دربته
فيها وإحكامه لغوامضها ، رحمه الله تعالى .

١٦٣ - ومن الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد
الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زُهر ^٣ ، الإيادي ، الأندلسي ، صاحب
البيت الشهير بالأندلس ، رحل المذكور إلى المشرق ، وتطب به زماناً ، وتولى
رئاسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم القيروان ، ثم استوطن مدينة دانية ، وطار
ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب ، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى
بزأ أهل زمانه ، ومات في مدينة دانية ، رحمه الله تعالى .

ووالده محمد بن مروان ^٤ كان عالماً بالرأي ، حافظاً للأدب ، فقيهاً حاذقاً
بالفتوى متقدماً فيها ، متقناً للعلوم ، فاضلاً ، جامعاً للدراية والرواية ، وتوفي
بطليطبة سنة ٤٢٢ ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، حدث عنه جماعة من علماء

١ ترجمة ابن عبدون هذه مكررة ، انظر رقم : ٩٨ ومصادر التخريج في الحاشية .

٢ ج : لم يبق .

٣ ترجمة عبد الملك بن زهر في المغرب ٢ : ٢٦٥ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٦ والتكملة رقم :

١٧١٧ والذيل والتكملة ٥ : ١٨ والمطرب : ٢٠٣ .

٤ انظر ترجمة محمد بن مروان بن زهر في الصلة : ٤٨٧ .

الأندلس ، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل ، رحمه الله تعالى .
وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه ^١ : إنه
كان وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه ، وتوفي
ممتحناً من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة ، انتهى .
وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ، ولذلك كتب في شأنه إلى
أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ما صورته : أطال الله تعالى بقاء الأمير
الأجل سامعاً للنداء ، دافعاً للتطاؤل والاعتداء ، لم ينظم الله تعالى بلبنتك
الملك عقداً ، وجعل لك حلاً للأمر وعقداً ، وأوطأ لك عقباً ، وأصار من
الناس لعونك منتظراً ومرتباً ، إلا أن تكون للبرية حائطاً ، وللعدل فيهم باسطاً ،
حتى لا يكون فيهم من يضام ، ولا ينال أحدَهم اهتضام ، ولتقصر يد كل
معتد في الظلام ، وهذا ابن زهر الذي أجررتَه رَسَنًا ، وأوضحت له إلى
الاستطالة سَنَنًا ، لم يتعد من الإضرار إلا حيث انتهيته ، ولا تهادى على غيّه
إلا حين لم تنه أو نهته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نكراً ، ولا تغير له
مى ما مكر في عباد الله مَكْرًا ، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه ، وسرى
إلى ما شاء بعدوانه ، ولم يراقب الذي خلقه ، وأمدَّ في الحطوطة عندك طَلَقَه ،
وأنت بذلك مرتين عند الله تعالى ، لأنَّه مكَّنك لئلاَّ يتمكن الجور ، ولتسكن
بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق ،
وأخفق به كلُّ فريق ، وقد علمت أن خالفك الباطش الغيور ، يعلم خائنة
الأعين وما تخفي الصدور ، وما تخفى عليه نجواك ، ولا يستر عنه تقلبك
ومثواك ، وستقف بين يدي عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظلم ، قد
علم كل قضية قضاها ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها ، فبِمَ تحتجُ
معي لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر ينجيك في ذلك

١ المطرب : ٢٠٣ وانظر التكملة : ٣٣٤ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٤ .

المقام ، أو يحملك من الانتقام ؟ وقد أوضحت لك المحجة ، لتقوم عليك الحجة ،
والله سبحانه النصير ، وهو بكل خلق بصير لا ربّ غيره ، والسلام ، انتهى .

[رسالة للفتح في غريق]

وقد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتبه وقد مات بعض إخوانه غريقاً :

أتاني ورَحلي بالعراق عشيّة ورَحلُ المطايا قد قَطَعْنَ بنا نجدا
نعيّ أطار القلب عن مُسْتَقَرِّهِ وكنت على قَصْدٍ فأغلطني القَصْدَا

نَعَوْا والله باسق الأخلاق لا يخلف ، ورموا قلبي بسهم أصاب صميمه
فما أخلف ، لقد سام الردى منه حسناً وجمالاً ووسامة ، وطوى بطيه نَجْدَه
وتِهَامَه ، فعطل منه التديّ والتدى ، وأثكل فيه الهدىّ والهدى ، كم قلّ
السيوف طول قراعه ، ودل عليه الضيوف موقد ناره بيفاعه ، وكم تشوّف
إليه السرير والمنبر . وتصرف فيه الثناء المُحَبَّر . وكم راع البدر ليلة
إبداره ، وروّع العدو في عُقْرِ داره . وأي فتى غدا له البحر ضريحاً ، وأعدى
عليه الحين ماء وريحاً ، فبدل من ظلل علّى ومفاخر . بقعر بحر طامي
اللّجج زاهر . وبدل من صهوات الخيل ، بلهوات اللّجج والسيل ، غريق
حكى مقتلتي في دمعها . وأصاب نفسي في سمعها . ومن حزن لا أستسقي
له الغمام فما له قبر تجوده ، ولا ثرى تروى به تهائمته ونجوده ، وقد آليت
أن لا أودع الريح تحية ، ولا يورثني هبوبها أريحية ، فهي التي أثارَت في
الموج حتقاً ، ومشت عليه خبباً وعنتقاً ، حتى أعادته كالكُثبان ، وأودعته
قضيّب بان ، فيا أسفا لزلال غاض في أجاج ، وللسال فاض عليه بحر عجاج ،
وما كان إلّا جوهرأ ذهب إلى عنصره ، وصدفاً بان عن عين مبصره ، لقد
آن للحُسام أن يُغمَد فلا يُشام ، وللحمام أن تبكيه بكل أراكة وبشام ،
وللعذارى أن لا يحجبهن الحفر والاحتشام . ينحُن فتى ما ذرّت الشمس

إلاّ ضرّاً أو نفع ، ويبكين مَنْ لم يدع فقدّه في العيش من مُنتَفِع ، فكم
 نعمنا بدنوّه ، ونسمنّا نسيم الأنس في رَوَاحه وغدوّه ، وأقمنا بروضة مَوْشِيّة ،
 ووقفنا بالمسرات عَشِيّة ، وأدربناها ذهباً سائلة ، ونظرناها وهي سائلة ، لم
 نرم السهر ، ولم نَشِمْ برقاً إلاّ الكأس والزهر . ولو غير الحمام زَحَف إليه
 جيشه ، أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه . لفداه من أُسْرته كلُّ أروع
 إن عاجله المكروه تَبَطَّطه ، أو جاءه الشرّ تَأَبَّطه ، ولكنّها المنايا لا تردّها
 الصّوارم والأسل ، ولا تفوتها ذئاب الغضا العُسل . قد فرقت بين مالك
 وعقيل ، وأشرقت بعدهما جذيمة بالحسام الصَّقيل . انتهى .
 وقد عرّفنا بالفتح في غير هذا الموضع فليراجع .

رجع إلى بيت أبي زُهَيْرٍ ، رحمهم الله تعالى - وأما أبو بكر محمد بن أبي
 مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر^١ المذكور ، فهو عين ذلك البيت ، وإن
 كانوا كلّهم أعياناً علماء رؤساء حكماء وزراء ، وقد نالوا المراتب العلية .
 وتقدموا عند الملوك . ونفذت أوامرهم ، قال الحافظ أبو الخطاب ابن دحية
 في « المطرب من أشعار أهل المغرب » : كان شيخنا الوزير أبو بكر ابن
 زُهْرَ بمكان من اللغة مكي . ومورد من الطَّلَب عَدْبُ مَعِين . وكان يحفظ
 شعر ذي الرِّمّة وهو ثلث لغة العرب . مع الإشراف على جميع أقوال أهل
 الطب . والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب . مع سموّ النسب . وكثرة
 الأموال والنسب . صحبته زماناً طويلاً . واستفدت منه أدباً جليلاً ،
 وأنشد من شعره المشهور قوله^٢ :

ومُسَدِّين على الأكفّ خلدودهم قد غاظم نومُ الصَّبّاح وغالتي

١ انظر ترجمة ابن زهر الحفيد في ابن أبي أصيبعة ٢ : ٦٧ ومجمع الأدباء ١٨ : ٢١٦ والمطرب :

٢٠٤ والتكملة : ٥٥٥ والذيل والتكملة ٦ : ١٦٠ (نسخة باريس) وله موشحات في دار

الطراز والمغرب ١ : ٢٦٦ وابن خلكان ٤ : ٦١ .

٢ الشعر في المطرب وابن خلكان .

ما زِلْتُ أُسْقِيهِمْ وَأَشْرَبُ فَضْلَهُمْ حَتَّى سَكَرْتُ وَنَالَهُمْ مَا نَالِي
وَالْحَمْرُ تَعْلَمُ كَيْفَ تَأْخُذُ ثَارَهَا إِنِّي أَمَلْتُ إِنْاءَهَا فَأَمَالِي

ثم قال ابن دحية : وسأله عن مولده ، فقال : ولدت سنة سبع وخمسمائة ،
قال : وبلغتني وفاته آخر سنة ٥٩٥ ، رحمه الله تعالى ، انتهى .
وزعم ابن خلكان أن ابن زُهر أُلِّمَ في الأبيات المذكورة بقول الرئيس
أبي غالب عبيد الله بن هبة الله ١ :

عَاقَرْتُهُمْ ٢ مَشْمُولَةً لَوْ سَأَلْتُ شُرَابَهَا مَا سُمِّيَتْ بِعُقَارٍ
ذَكَرْتَ حَقَائِدَهَا الْقَدِيمَةَ إِذْ غَدْتُ صَرَعِي تُدَاسُ بِأَرْجُلِ الْعَصَّارِ
لَأَنْتَ لَهُمْ حَتَّى انْتَشَوْا وَتَمَكَّنْتَ مِنْهُمْ وَصَاحَتْ فِيهِمْ بِالْثَارِ

ومن المنسوب إلى أبي بكر ابن زُهر قوله في كتاب جالينوس المسمى بحيلة
البرء ، وهو من أجل كتبهم وأكبرها ٣ :

حِيلَةُ البرءِ صَنْعَةُ لَعْلِيلٍ يَتَرَجَّى الْحَيَاةَ أَوْ لَعْلِيلَهُ
فَإِذَا جَاءَتِ الْمَنِيَّةُ قَالَتْ : حِيلَةُ البرءِ لَيْسَ فِي البرءِ حِيلَةٌ

ومن شعره ، رحمه الله تعالى ، يشوق ولداً له صغيراً بإشبيلية وهو
بمراكش ٤ :

وَلِي وَاحِدٌ مِثْلُ فَرَخِ الْقَطَاةِ ضَغِيرٌ تَخَلَّفْتُ قَلْبِي لَدَيْهِ
وَأُفْرِدْتُ عَنْهُ فَيَا وَحْشَتَا لِدَاكَ الشُّخَيْصَ وَذَاكَ الْوُجَيْهَ ٥

١ ابن خلكان : عبيد الله بن هبة الله بن صاعد ؛ وفي بعض النسخ : الأصباغي .

٢ ابن خلكان : عقرتهم .

٣ ابن خلكان : ٦٢ .

٤ الشعر في ابن خلكان والمطرب والذيل وابن أبي أصيبعة .

٥ ابن خلكان : نأت عنه داري فيا وحشتا .

تَشَوَّقَنِي وَتَشَوَّقْتُهُ فَيَبْكِي عَلَيَّ وَأَبْكِي عَلَيْهِ^١
وَقَدْ تَعَبَ الشَّوْقُ مَا بَيْنَنَا فَمِنْهُ إِلَى وَمَنِّي إِلَيْهِ

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم ابن محمد الوزير
الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور
بالله الحسني صاحب المغرب رضي الله تعالى عنه أن ابن زُهْر لما قال هذه الأبيات
وسمعتها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة
السادسة أرسل المهندسين إلى إشبيلية ، وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيوت ابن زُهْر
وحارته ثم بينوا مثلها بحضرة مراکش ، ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة ، وفرشها
بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال ابن زُهْر وأولاده وحشاشمه
وأسابه إلى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء [إلى] ذلك الموضع ، فرآه
أشبه شيء ببيته وحارته ، فاحتار لذلك ، وظن أنه نائم ، وأن ذلك أحلام ،
فقبل له : ادخل البيت الذي يشبه بيتك ، فدخله ، فإذا والده الذي تشوق إليه
يلعب في البيت ، فحصل له من السرور ما لا [مزيد عليه ، ولا] يعبر عنه :
هكذا هكذا وإلا فلا لا^٢ .

ومن نظم ابن زُهْر المذكور حيث شاخ وغلب عليه الشيب^٣ :

إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ قَدْ جَلِيَّتْ فَأَنْكَرْتُ مُقْلَتَايَ كُلَّ مَا رَأَيْتَا
رَأَيْتُ فِيهَا شَوْيْحًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ وَكُنْتُ أَعْهَدُهُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ فَنِي
فَقُلْتُ : أَيْنَ الَّذِي بِالْأَمْسِ كَانَ هُنَا ؟ مَتَى تَرْحَلُ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ ؟ مَتَى ؟

١ سقط هذا البيت من ج .

٢ صدر بيت ، وعجزه : طرق الجذ غير طرق المزاح .

٣ الأبيات في ابن خلكان وابن أبي أصيبعة .

٤ في رواية : شبيخاً .

فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة : إن الذي أنكرته مقلتك أنى^١
كانت سُلَيْمَى تنادي يا أَخِيَّ وقد صارت سُلَيْمَى تنادي اليوم يا أبتا^٢
والبيت الأخير ينظر إلى قول الأخطل^٣ :

وإذا دَعَوْنِكَ عَمَّهْنَ فَإِنَّهُ نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالًا
وإذا دَعَوْنِكَ يا أَخِيَّ فَإِنَّهُ أَذْنَى وَأَقْرَبُ خَلَّةً وَوَصَالًا

وقال ابن دحية في حقه أيضاً^٤ : والذي انفرد به شيخنا وانقادت لتحليته
طباعه ، وصارت النبهاء فيه من حَوَالِهِ وأتباعه ، الموشحات ، وهي زُبْدَةُ الشعر
ونخبته ، وخلاصة جوهره وصفوته^٥ ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل
المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق ،
انتهى .

ومن مشهور موشحات ابن زُهر قوله^٦ :

ما للمولاه من سكره لا يفيق

وهذا مطلع موشح يستعمله أهل المغرب إلى الآن ، ويرون أنه من أحسن
الموشحات .

١ هذه رواية ابن خلكان ، وأما ابن أبي أصيبعة ففيه :

فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
هون عليك فهذا لا بقاء له أما ترى العشب يفنى بعدما نبأنا
٢ ابن أبي أصيبعة :

كان الفواني يقلن يا أخي فقد صار الفواني يقلن اليوم يا أبتا

٣ ديوان الأخطل : ٤٣ .

٤ المطرب : ٢٠٤ .

٥ ج : وخلاصته وصفوته .

٦ أورد ابن سعيده هذه الموشحة عندما تحدث عن متنزهات إشبيلية ، وهي في جملة ما سقط من المغرب .

ومن موشحاته قوله :

سَلِّمِ الْأَمْرَ لِلْقَضَا فهُوَ لِلنَّفْسِ أَنْفَعُ

وَاعْتَمِ حِينَ أَقْبَلَا

وَجْهَهُ بِدَرْ تَهَلَّلَا

لَا تَقُلْ بِالْهُمُومِ لَا

كُلْ مَا فَاتَ وَانْقَضَى لَيْسَ بِالْحُزْنِ يَرْجِعُ

وَاصْطَبِخْ بَابِنَةَ الْكُرُومِ

مَنْ يَدِي شَادَنْ رَخِيمِ

حِينَ يَقْتَرَّ عَنْ نَظِيمِ

فِيهِ بَرْقٌ قَدْ آوَمَضَا وَرَحِيقٌ مُشَعَّشَعُ

أَنَا أَفْئِدِيهِ مِنْ رَشَا

أَهْنِيفِ الْقَدَّ وَالْحَشَا

سُقِّيَ الْحَسْنَ فَاَنْتَشَى

مُذْ تَوَلَّى وَأَعْرَضَا ففَوَادِي يَقَطَّعُ

مَنْ لَصَبَ غَدَا مَشُوقِ

ظَلَّ فِي دَمْعِهِ غَرِيقِ

حِينَ أَمَّوَا حِمَى الْعَقِيقِ

وَاسْتَقَلُّوْا بِذِي الْغَضَا أَسْفَى يَوْمَ وَدَّعُوا

مَا تَرَى حِينَ أَظْغَمْنَا

وَسَرَى الرِّكْبُ مَوْهِنَا

وَاكْتَسَى اللَّيْلُ بِالسَّنَا

نورُهُمُ ذا الذي أضأ أم مع الركب يوشعُ
ورأيت من هذا موشحاً آخر لا أدري هل هو لابن زُهْر أم لا ، وهو هذا :

فُتِقَ المسك بكافور الصّباح ووَشَتَ بالروّضِ أعرافُ الرّيح

فاسقنيها قبل نورِ الفلقِ
وغناء الورق بين الورقِ
كاحمرار الشمس عند الشفقِ

نَسَجَ المزجُ عَلَيْهَا حينَ لاح فلكِ اللهو وشمس الاصطباح

وغزال سامي بالملقِ
وبرى جسمي وأذكي حرقي
أهيف مذ سل سيف الحدقِ

قصرَت عنه أنابيب الرماح وثنى الذعر مشاهير الصفاح

صار بالدّلّ فؤادي كلفا
وجفون ساحرات وطفا
كلما قلت جوى الحب انطفا

أمْرَضَ القلبَ بأجفانٍ صحاح وسبى العقْلَ بجِدِّ ومزاح

يوسفِيُّ الحسن عذب المبتسم
قمرِيُّ الوجه ليليّ اللمم
عنْزِيُّ البأس علويُّ الهمم

غصنيُّ القَدِّ مهْضومُ الشَّاحِ مادريُّ الوصلِ طائيُّ السَّاحِ

قَدِّ بِالْقَدِّ فَوَادِي هَيَافَا

وسبي عقليَ لَمَّا انعطفا

ليته بالوصلِ أحيا دَنِفَا

مُسْتَطَارَ الْعَقْلِ مَقْصُوصِ الْجَنَاحِ ما عليه في هواه من جُنَاحِ

يا علي أنت نورُ المَقْلِ

جُدْ بوصلِ منك لي يا أُمْلِي

كم أغْنِيكَ إِذَا مَا لَحْتَ لِي

طَرَقَتْ وَاللَّيْلُ مَمْدُودُ الْجَنَاحِ مرحباً بالشمس من غير صباح

١٦٤ — ومنهم أبو الحجاج الساحلي ، يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم بن علي ، الفهري ، الغرناطي ، قال في الإحاطة : صدر من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء و [سنن] الصالحين ، حج ولقي الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وطبقته ، ومن نظمه يخاطب الوزير ابن الحكيم ١ وقد أصابته حمى تركت على شفته بثوراً :

حاشاك أن تمرضَ حاشاكَا قد اشتكى قلبي لشكواكا

إن كنتَ محموماً ضعيف القوى فإنتي أحسُدُ حمّاكا

ما رَضِيتَ حمّاك إِذْ بَاشَرْتَ جسمك حتى قبَلْتَ فَاكا

قال أبو الحجاج ، رحمه الله تعالى : وكتب إلي شيخنا محمد بن محمد بن عتيق

١ المعنى هنا هو أبو عبد الله ابن الحكيم ذو الوزارتين ، وسيترجم له المقري كما سترجم لابنه الوزير القائد الكاتب أبي بكر (توفي سنة ٧٥٠) وانظر الكتيبة الكامنة : ١٩٥ .

ابن رشيق في الاستدعاء الذي أجازني فيه ولمن ذكر معي :

أَجَزْتُ لَهُمْ أَبْقَاهُمْ اللهُ كُلَّ مَا رَوَيْتُ عَنْ الْأَشْيَاخِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
وَمَا سَمِعْتُ أَذْنَائِي مِنْ كُلِّ عَالَمٍ وَمَا جَادَ مِنْ نَظْمِي وَمَا رَاقَ مِنْ نَثْرِي
عَلَى شَرْطِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَضَبَطِهِمْ بَرِيءٌ عَنِ التَّصْحِيفِ عَارٍ عَنِ النُّكْرِ
كَتَبْتُ لَهُمْ خَطِّي وَإِسْمِي مُحَمَّدٌ أَبُو الْقَاسِمِ الْمَكْنِيُّ مَا فِيهِ مِنْ نَكْرِ
وَجَدْتِي رَشِيقُ شَاعٍ فِي الْغَرْبِ ذِكْرُهُ وَفِي الشَّرْقِ أَيْضاً فَادِرٌ إِنْ كُنْتُ لَا تَدْرِي
وَلِي مَوْلَدٌ مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ثَمَانٍ عَلَى السَّتِّ الثَّانِ ابْتِدَأَ عَمْرِي
وَبِاللهِ تَوْفِيقِي عَلَيْهِ تَوَكَّلِي لَهُ الْحَمْدُ فِي الْحَالَيْنِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ

ومولد أبي الحجاج المذكور سنة ١٦٦٢ ، وتوفي سنة ٢٧٠٢ ، رحمه الله تعالى ، انتهى باختصار .

١٦٥ - وممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق شاعر الأندلس يحيى بن الحكم البكري الجبائي الملقب بالغزّال بحماله^٣ ، وهو في المائة الثالثة ، من بني بكر بن وائل .

قال ابن حيان في «المقتبس» : كان الغزّال حكيماً الأندلس ، وشاعرها ، وعرفاتها ، عمراً أربعاً وتسعين سنة ، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس : أولهم عبد الرحمن بن معاوية ، وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم .

١ في نسخة : سنة ٦٦٧ .

٢ في نسخة : سنة ٧٥٢ .

٣ انظر ترجمة الغزّال في المطرب : ١٣٣ والخذوة : ٣٥١ (وبغية الملتبس رقم : ١٤٦٧) والمغرب : ٢ : ٥٧ وأورد ابن دحية خبر رحلة له إلى بلاد المجوس ، وقد شك فيها بروفنسال وذهب إلى أنها كانت إلى القسطنطينية ، راجع تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ص : ١١١ - ١٢٧ وانظر (Lodon, 1960) Allen (The Poet and the Spae-Wife by W. Allen)

ومن شعره :

أدركتُ بالمصر ملوكاً أربعةً وخامساً هذا الذي نحنُ معه

وله على أسلوب ابن أبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب^١ :

وَلَقَلْبُهَا طَرِباً إِلَيْكَ وَجِيبُ	خَرَجَتْ إِلَيْكَ وَثَوْبُهَا مَقْلُوبُ
ظِيٍّ تَعَلَّلَ بِالْفَلَا مَرْعُوبُ	وَكَأَنَّهَا فِي الدَّارِ حِينَ تَعَرَّضَتْ
يُحْمَانُ دُرٌّ لَمْ يَشْنِهْ ثَقُوبُ	وَتَبَسَّمَتْ فَأَتَتْكَ حِينَ تَبَسَّمَتْ
نَفْسٌ إِلَى دَاعِي الضَّلَالِ طَرُوبُ	وَدَعَتْكَ دَاعِيَةَ الصَّبَا فَنَطَرَبَتْ
فِي الدَّارِ إِذْ غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبُ	حَسَبْتُكَ فِي حَالِ الْغَرَامِ كَعَهْدِهَا
فَتَسَاقَطَتْ بِهَنَانَةٍ رُعُوبُ	وَعَرَفْتُ مَا فِي نَفْسِهَا فَضَمَمْتُهَا
فَنَزَا إِلَيَّ عِضْنُكَ حَلِيبُ	وَقَبَضْتُ ذَاكَ الشَّيْءِ قَبْضَةً شَاهِنُ
لَيْسَتْ لِأُخْرَى وَالْأَدِيبِ أَرِيبُ	بِيَدِي الشَّمَالِ وَلِلشَّمَالِ لَطَافَةُ
بَلَلٌ كَمَا الْوَرْدِ حِينَ يَسِيبُ	فَأَصَابَ كَفِّي مِنْهُ حِينَ لَمَسْتُهُ
حَتَّى خَشِيتُ عَلَى الْفَوَادِ يَدُوبُ	وَتَحَلَّلْتُ نَفْسِي لِلذَّةِ رَشْحُهُ
نَادَيْتُهُ خَيْرًا فَلَيْسَ يُجِيبُ	فَتَقَاعَسَ الْمَلْعُونُ عَنْهُ وَرُبَّمَا
جَانُ يُقَادُ إِلَى الرَّدَى مَكْرُوبُ	وَأَبَى فَحَقَّقَ فِي الْإِبَاءِ كَأَنَّهُ
كَبِيرٌ تَقَادِمُ عَهْدِهِ مَثْقُوبُ	وَتَغَضَّضَتْ جَنَابَاتُهُ فَكَأَنَّهُ
قَبَسًا وَحَانُ مِنَ الظَّلَامِ ذُهُوبُ	حَتَّى إِذَا مَا الصَّبَحُ لَاحَ عَمُودُهُ
عِنْدِي ؟ فَقَالَتْ : سَاخِرٌ وَحَرُوبُ	سَاءَ لُتُّهَا خَجَلًا : أَمَا لَكَ حَاجَةٌ
قَرْنٌ وَفِيهِ عَوَارِضٌ وَشُعُوبُ	قَالَتْ حَرَّ أَمَلِكَ إِذْ أَرَدْتَ وَدَاعِهَا

١ ابن أبي حكيمة أحد الشعراء المحدثين ، أسرف في وصف عنته وراثاء متاعه ، وكان صديقاً لابن الزيات . راجع ترجمته في طبقات ابن المعتز : ٣٨٩ وتخريج ترجماته ص : ٥٢٣ ، وانظر أبيات الغزال هذه في المطرب : ١٤٩ برواية مختلفة .

وذكرها ابن دحية بمخالفة لما سرّدناه .

قال عتبة التاجر : وجهني الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق
وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قبل المأمون ، فلقيته بالعراق ، فسألني عن هذه
القصيدة هل أحفظها للغزال ؟ قلت : نعم ، فاستنشدنيها ، فأشدته إياها ،
فسر بها وكتبها ، قال عتبة : ونلت بها حظاً عنده .
والبهانة : المرأة الطيبة النفس والأرج ، كما في الصحاح ، وقيل : اللينة
في منطقها وعملها ، وقيل : الضحّاكة المتهللة ، والرعبوب : السبّطة البيضاء ،
والسبّطة : الطويلة .

وقال ساعمه الله تعالى :

سألتُ في التَّوَمِ أَبِي آدَمَ فَقُلْتُ وَالْقَلْبُ بِهِ وَامِقُ
إِبْنُكَ بِاللَّهِ أَبُو حَازِمٍ ؟ صَلَّى عَلَيْكَ الْمَالِكُ الْخَالِقُ
فَقَالَ لِي : إِنْ كَانَ مِنِّي وَمِنْ نَسَلِي فَحَوًّا أَمَّكُمْ طَالِقُ

وقال رضي الله تعالى عنه :

أَرَى أَهْلَ الْيَسَارِ إِذَا تَوَفَّوْا بَنَوْا تِلْكَ الْمَقَابِرَ بِالصَّخُورِ
أَبَوًا إِلَّا مُبَاهَاةً وَفَخْرًا عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى فِي الْقُبُورِ
فَإِنْ يَكُنِ التَّفَاضُلُ فِي ذُرَاهَا فَإِنَّ الْعَدْلَ فِيهَا فِي الْقُعُورِ
رَضِيتُ بِمَنْ تَأْتَقَ فِي بِنَاءِ فَبَالِغٍ فِيهِ تَصْرِيفُ الدَّهْوَرِ
أَلَمَّْا يَبْصُرُوا مَا خَرِبَتْهُ الدُّ هَوْرٌ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
لَعَمْرُ أَبِيهِمْ لَوْ أَبْصُرُوهُمْ لَمَّا عُرِفَ الْغَنِيُّ مِنَ الْفَقِيرِ
وَلَا عَرَفُوا الْعَبِيدَ مِنَ الْمَوَالِي وَلَا عَرَفُوا الْإِنَاثَ مِنَ الذَّكَوْرِ
وَلَا مَنْ كَانَ يَلْبَسُ ثَوْبَ صَوْفٍ مِنْ الْبَدَنِ الْمُبَاشِيرِ لِلْحَرِيرِ

ج : تصريف الأمور .

إذا أكل الثَّرَى هذا وهذا فما فضلُ الكبيرِ على الحَقِيرِ
وقال رضي الله تعالى عنه :

لا ، وَمَنْ أَعْمَلَ المطايا^١ إليه كلُّ من يَرْتَجِي إليه نصيبا
ما أَرَى هَهُنَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا ثَعْلِبًا يَطْلُبُ الدَّجَاجَ وذِيبا
أو شَبِيهَا بِالْقَطِّ أَلْقَى^٢ بعَيْنِي^٣ هـ إلى فارةٍ يريد الوثوبا
وقال رضي الله تعالى عنه :

قالت أُحْبِيكَ قلتَ كاذبة غُرِّي بذا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هذا كلامٌ لَسْتُ أَقبله الشيخ لَيْسَ يَحِبُّه أَحَدُ
سَيِّانَ قَوْلِكَ ذا وَقَوْلِكَ إِن الريحَ نَعَقَدها فَتَنْعَقِدُ
أو أَنْ تَقُولِي النارُ باردة أو أَنْ تَقُولِي الماءُ يَتَّقِدُ

وحكى أبو الخطاب ابن دحية في كتاب « المطرب »^٣ أن الغزال أرسل
إلى بلاد المجوس وقد قارب الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولكنه كان
مجمع الأشد ، فسألته زوجة الملك يوماً عن سنّه ، فقال مداعباً لها : عشرون
سنة ، فقالت : وما هذا الشيب ؟ فقال : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تَرَي قَطُّ
مهرأ ينتج وهو أشهب ؟ فأعجبت بقوله ، فقال في ذلك ، واسم الملكة تود^٤ :

كَلَّفْتَ يا قَلْبِي هَوًى متعبا غالبت منه الضَّيْعَمَ الأغلبا
إِنِّي تَعَلَّقْتُ مَجْوسِيَّةً تَأبَى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله في حيث لا يُلْفِي إليه ذاهبٌ مذهبا

١ ج : المطي .

٢ ج : أومى .

٣ انظر المطرب : ١٤٤ .

٤ ج والمطرب : تود ؛ ويرى بروفنسال أن تود هو اختصار تيودورا Theodora .

يا تود يا رُودَ الشَّبَابِ التي
يا بأبي^١ الشخصَ الذي لا أرى
إن قلتُ يوماً إنَّ عيني رأتُ
قلتُ : أرى فَوَدَّيْهِ قَدَنُورًا
قلتُ لها : ما باله ؟ إنَّه
فاستضحكت عجباً بقولي لها
تُطْلِعُ من أزرارها الكوكبا
أحلى على قلبي ، ولا أعذبا
مُشَبَّهه لم أعدُ أن أكذبا
دُعابة توجب أن أدعبا
قد ينتج المهرُ كذا أشهبا
وإنما قلتُ لكي تعجبا

قال : ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت ، وأمرته بالحضاب ،
فغدا عليها وقد اختضب وقال^٢ :

بَكَرَتْ تحسُنُ لي سَوَادَ خضابي
ما الشيبُ عندي والحضابُ لواصِفُ
تخفى قليلاً ثمَّ يَقْشَعُهَا الصَّبَا
لا تنكري وَضَحَ المشيبِ فإنَّما
فَلَدَيْ ما تَهْوَيْنِ من شأن الصَّبَا
فَكَأَنَّ ذاكَ أعادَني لِشبابي
إِلَّا كَشَمْسٍ جُلَّتْ بِضباب
فيصيرُ ما سَتَرْتُ به لذهاب
هوَ زهرةُ الأفهامِ والألباب
وطلاوةُ الأخلاقِ والآداب

وحكى ابن حيان في « المقتبس » أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني
وجّه شاعره الغزال إلى ملك الروم ، فأعجبه حديثه ، وخف على قلبه ،
وطلب منه أن يناديه ، فامتنع من ذلك ، واعتذر بتحريم الخمر ، وكان يوماً
جالساً عنده ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها ، وهي كالشمس
الطالعة حسناً ، فجعل الغزال لا يُسمِل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه وهو
لاهٍ عن حديثه ، فأنكر ذلك عليه ، وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له : عرفه
أنِّي قد بهَرَنِي من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه ، فإني لم أر قطُّ

١ ج : يا حبذا .

٢ المطرب : ١٤٦ .

مثلها ، وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها ، وأنها شوقته إلى الحور العين ،
 فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حُظُوتُه عنده ، وسُرَّت الملكة بقوله ،
 وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الخِتان ، وتجنُّم
 المكروه فيه وتغيير خلق الله ، مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان : عرفها
 أن فيه أكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زُبِرَ قَوِيَّ واشتد وغلظ ، وما
 دام لا يُفعل به ذلك لا يزال رقيقاً ضعيفاً ، فضحكت وفطنت لتعريضه ، انتهى .

ومن شعر الغزال قوله ١ :

يا راجياً ودَّ الغواني ضلَّةً	وفؤاده كليفَ بهنَّ مُوكَّلُ
إن النساءَ لكالسَّروجِ حقيقةً	فالسَّرجُ سرَّجك ريشما لا تنزلُ
فإذا نزلتَ فإنَّ غيرك نازلُ	ذاك المكانَ وفاعلُ ما تفعلُ
أو منزلُ المجتازِ أصبحَ غادياً	عنهُ ويتزلُّ بعدهُ من يتزلُّ
أو كالثمارِ مُباحةٍ أغصانُها	تدْنُو لأول من يمر فيأكلُ
أعطِ الشبيبةَ لا أبا لك حَقَّها	منها ، فإنَّ نعيمَها متحوَّلُ
وإذا سلَّبتَ ثيابها لم تنتفع	عندَ النساءِ بكل ما تستبدلُ

وقال ٢ :

قال لي يحیی وصرنا	بينَ مَوْجِ كالجبالِ
وتولتُنَا رِيحُ	من دَبُورِ وشمالِ
شقتِ القلْعينِ وابنه	تتَّ عُرَى تلك الجبالِ
وتمطى مملِكُ المو	ت إلینا عن حِیالِ
فراينا الموتَ رأيَ الذ	عیّن حالاً بعد حالِ

١ المطرب : ١٤٦ .

٢ المطرب : ١٣٩ - ١٤٠ والجدوة : ٣٥٢ .

لم يَكُنْ للقَوْمِ فينا يا رفيقي رأسُ مالٍ

ومنها :

وسُلِّمَ ذاتُ زُهْدٍ في زهيدٍ في وصالٍ
كلّما قُلْتُ صِليني حاسِبَتِي بالخِيارِ
والكَرَى قد منعتَه مقلتي أخرى اللّياالي
وهي أدرى فلماذا دافَعَتني بمَحالٍ
أُتري أنا اقتَضينا بعدُ شيئاً من نوالٍ

وله :

من ظَنَّ أن الدهرَ ليس يصيبه بالحدّاثِ^١ فإنّه مَغْرُورٌ
فالقَ الزّمانَ مَهْوناً لخطوبه وانجَرَ حيثُ يجرُّكُ المقدورُ
وإذا تَقَلَّبَتِ الأمورُ ولم تدُمُ فسواءُ المحزونُ والمسرورُ

وعاش الغزال أربعاً وتسعين سنة ، وتوفي في حدود الخمسين والمائتين ،
سأحه الله تعالى .

وكان الغزال أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب ، فذكر ذلك
لعبد الرحمن ، فأمر بنفيه ، فدخل العراق ، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة
يسيرة ، فوجدهم يلهجون بذكره ، ولا يساوون شعر أحد بشعره ، فجلس
يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم
حتى وقعوا في ذكر أبي نواس ، فقال لهم : من يحفظ منكم قوله^٢ :

١ ج : بالنائبات .

٢ انظر بعض هذه الأبيات في الجذوة : ٢١٢ ، وهي جميعاً في المطرب : ١٤٨ .

ولما رأيتُ الشَّرْبَ^١ أَكْدَتُ سَمَاوَهُمْ
فَلَمَّا أَتَيْتُ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ^٢
قَلِيلَ هَجْوَعِ العَيْنِ إِلَّا تَعَلَّةً^٣
فَقُلْتُ أَذِقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَهَا
وَقُلْتُ أَعِزَّنِي بِذَلَّةٍ أَسْتَتِرُ بِهَا
فَوَاللَّهِ مَا بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَفَّتْ
فَأُبْتُ إِلَى صَحْبِي وَلَمْ أَكُ أَتِيبًا
تَأَبَّطْتُ زِقْيِي وَاحْتَبَسْتُ^٢ عَنَائِي
فَتَابَ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نَدَائِي
عَلَى وَجَلٍّ مِنِّي وَمِنْ نُظْرَائِي
طَرَحْتُ عَلَيْهِ رِيْطِي وَرَدَائِي
بَدَلْتُ لَهُ فِيهَا طَلَاقَ نِسَائِي
لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضَامِنٌ بِوَفَائِي
فَكُلُّ يَفْدِيَنِي وَحَقٌّ فِدَائِي

فأعجبوا بالشعر ، وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا
عليكم ، فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تَدَارَكْتُ فِي شَرْبِ النَّبِيدِ خَطَائِي وَفَارَقْتُ فِيهِ شِيْمَتِي وَحَيَائِي

فلما أتم القصيدة بالإنشاد خجلوا ، وافترقوا عنه .

وحكي أن يحيى الغزال أراد أن يعارض سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾
فلما رام ذلك أخذته هَيْبَةٌ وَحَالَةٌ لَمْ يَعْرِفْهَا ، فَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ ، فَعَادَ إِلَى حَالِهِ .
وحكي أن عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء كان يَفْدُ
على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها ، ومُرت عليهم قصيدته التي أولها :

لَعَمْرُكَ مَا الْبَلَوَى بَعَارٍ وَلَا الْعَدَمُ إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْدَمِ تَقَى اللَّهَ وَالْكَرَمُ

حتى انتهى القارئ إلى قوله :

تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا فَمَا لِمُعْجَزٍ وَلَا عَاجِزٍ إِلَّا الَّذِي خُطَّ بِالْقَلَمِ

١ الجذوة : وكنت إذا ما الشرب .

٢ الجذوة : واحتضنت ؛ المطرب ؛ واحتسبت .

٣ الجذوة : نهت أهله .

فقال له الغزّال ، وكان في الحلقة ، وهو إذ ذاك حَدَثُ نظامٌ متأدّب
 ذكي القريحة : أيها الشيخ ، وما الذي يصنع مُفَعَّلٌ مع فاعل ؟ فقال له : كيف
 تقول ؟ فقال : كنت أقول : فليس لعاجز ولا حازم ، فقال له عباس : والله
 يا بني لقد طلبها عَمَّكَ فما وجدها .
 وأنشد يوماً قوله من قصيدة :

بَقَرْتُ بطونَ الشعرِ فاستُفْرِغَ الحشا بكفّي حتى آبَ خاويه من بَقَرِي
 فقال له بكر بن عيسى الشاعر : أما والله يا أبا العلاء ، لئن كنت بقرت
 الحشا لقد وسخت يديك بَقَرَتِهِ ، وملأتهما بدمه ، وخبّئتَ نفسَكَ
 بئته ، وخشّمتَ أنفَكَ بعَرَفِهِ ، فاستحيا عباس وأفحم عن جوابه .

١٦٦ - ومنهم الشهير بالمغرب والمشارق ، المحليّ بجواهره صدور
 المهارق ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي^١ ، متمم كتاب « المغرب
 في أخبار المغرب » قال فيه : وأنا أعتذر في إيراد ترجمتي هنا بما اعتذر به
 ابن الإمام في كتاب « سمط الجُمان » وبما اعتذر به الحجاري في كتاب « المسهب »
 وابن القطّاع في « الدرة الخطيرة » وغيرهم من العلماء .
 فمن نظمه عندما ورد الديار المصرية :

أصبحتُ أعترض الوجوه ولا أرى ما بيّنها وجنّها لمن أدريه
 عَوْدِي على بدئي ضلالاً بينهم حتى كأني من بقايا التّيه
 وَبَحَّ الغريب توحّشتُ ألحاظه في عالم ليسوا له بشبّيه
 إن عادَ لي ووطي اعترفتُ بحقه إن التغرّب ضاع عمري فيه

١ ابن سعيد المغربي : ترجمته في المغرب ٢ : ١٧٨ واختصار القدح ص : ١ والفوات ٢ :
 ١٧٨ والديباج المذهب : ٢٠٨ وتاريخ السلامي : ١٤٥ وبغية الوعاة : ٣٥٧ ومسالك الأبصار
 ٨ : ٣٨٢ وله ترجمة مبتورة في الذيل والتكملة ٥ : ٤١١ - ٤١٢ .

وله من قصيدة يمدح ملك إفريقية أبا زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي
حَقْصٍ :

والرَوْضُ وَشَتَّ بُرْدَهُ الْأَنْدَاءُ	الْأَفْقُ طَلَقَ وَالنَّسِيمُ رُخَاءُ
فكَأَنَّمَا هُوَ مُقْلَةٌ وَطُفَاءُ	وَالنَّهْرُ قَدْ مَالَتْ عَلَيْهِ غُصُونُهُ
فكَأَنَّمَا هُوَ حَيَّةٌ رَقُطَاءُ	وَبَدَا نِثَارُ الْجَلْتَارِ بِصَفْحِهِ
فكَأَنَّمَا هِيَ حِلَّةٌ زَرْقَاءُ	وَالشَّمْسُ قَدْ رَقَمَتْ طِرَازَ آفَوْقِهِ
وَاسْمَعْ إِلَى مَا قَالَتِ الْوَرْقَاءُ	فَأَدِرْ كَوْوَسَكَ كَي يَتِمَّ لَكَ الْمَنَى
فَعَلَى الْمَنَامِ لَدَى الصَّبَاحِ عَفَاءُ	تَدْعُوكَ حَيَّ عَلَى الصَّبُوحِ فَلَا تَمُ

وله أيضاً :

فَتَوَقَّعْتُ ثُمَّ نَادَيْتُ قَائِلُ	كَمْ جَفَانِي وَرُمْتُ أَدْعُو عَلَيْهِ
وَأَرَانِي عِذَارَهُ وَهُوَ سَائِلُ	لَا شَفَى اللَّهَ لِحِظِهِ مِنْ سَقَامِ

وله من قصيدة كتب بها إلى مالك سببته الموفق أبي العباس أحمد بن أبي
الفضل السبتي شافعاً لشخص رغب في خدمته :

لَا فَارَقْتُكَ كَفَايَةً وَعَطَاءُ	بِالْعَدْلِ قَمْتُ وَبِالسَّمَاكِ فَدِنْ وَجْدُ
وَطِلَابُ مَا يَأْبَى الْقَضَاءُ شَقَاءُ	مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ السَّعَادَةَ نَالُهَا

ومنها :

مَنْ أَنْهَضْتَهُ لِنَحْوِكَ الْعَلِيَاءُ	وَقَدْ اسْتَطَارَ بِأَسْطُورِي نَحْوِ النَّدَى
إِلَّا لَدَيْكَ تَأْمَلُ وَرَجَاءُ	طَلَبَ النَّبَاهَةِ فِي ذَرَاكَ فَمَا لَهُ
أَحْوَالُهُ وَجَرَى عَلَيْهِ ثَنَاءُ	وَهُوَ الَّذِي بَعْدَ التَّجَارِبِ أَحْمَدَاتُ

لا يقربُ الدنسَ المريبَ كواصيلَ [قد مارسَ الحربَ الزبونَ زمانه
هجرتهُ خوفاً أن يَشانَ الراءَ وجرتَ عليه شدةُ ورَشاءِ]^١
وعلاكَ تقضي أن يَسودَ بأفقهَا لا غرو أن يُعليَ الشهابَ بهاءَ

وقوله من قصيدة :

ألفَ التغرُّبَ والتوحُّشَ مثلَ ما ألفَ التوحُّشَ والنفورَ ظباءَ
حُجَّابِهِ أَلْفُوا التَّجَهُّمَ والخفاَ فهُمُ لِكُلِّ أَخِي هُدًى أعداءَ
مهما يَرُمُ طابُ إلىهِ تَقَرُّباً بَعُدَتْ بِذَلِكَ البدرِ عنه سماءَ
لكنني ما زلتُ أَخْدَعُ حاجِباً ومُرَاقِباً حَتَّى أَلَانَ حِباءَ
والأَرْضُ لَمْ تُظْهِرْ مَحْجَبَ نَبْتِهَا حَتَّى حَبَّتْهَا الدِّيمَةُ الوُطْفاءُ^٢

قيل : وهذا معنى لم يسمع من غيره ، وقوله في خسوف البدر :

شانَ الخسوفُ البدرَ بعدَ جَمالِهِ فكأنَّهُ ماءٌ عليه غُشاءُ
أو مثلَ مرآةٍ لَحُودٍ قد قَضَتْ نظراً بها فعلا الجلاءَ غِشاءَ

وله من قصيدة عتاب يقول فيها :

ولقد كَسَبْتُ بِكُمْ عِلاًّ لكنها صارتَ بِأَقْوالِ الوِشاةِ هَباءَ
فغَدَوْتُ ما بينَ الصَّحابةِ أَجْرباً كُلُّ يُحاذِرِ مِنِّي الإِعداءَ
ولقد أرى أن النجومَ تَقِلُّ لي حُجُباً وَأَصْغُرُ أن أحلَّ سماءَ
فليهجروا هجرَ الفَظِيمِ لِدَرِهِ وَيُساعدوا الزَمَنَ الخُئونَ جَفاءَ
فلقد شَكوتُ لِمِ إحالةِ ودِّهِمْ إِذْ لَمْ أَكُنْ أَرْضَى بِهِمْ خُدْماءَ

١ البيت زيادة من إحدى النسخ .

٢ ورد وحده في المقتطفات (الورقة : ٩) وقدم له بقوله : وله من قصيدة وهو معنى يديع ، ومن الغريب أن البيت وما بعده لاحق بأخبار الغزال .

إِيَّاهُ فَذَكَرَهُمْ أَقْلًا ، وَإِنَّمَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ قَيْنٌ لَمَّا فَتَكَتْ ظُبًا
وَلَوْ أَنِّي أَرْجُو ارْتِجَاعَكَ لَمْ أَطِيلُ
لَكِنْ رَأَيْتُكَ لَا تَمِيلُ سَجِيَّةً
إِنْ لَمْ يَكُنْ عَطْفٌ فَمَنُوا بِالنَّوَى

وقوله :

وَلَكُمْ سَرَيْنَا فِي مُتُونِ ضَوَامِرٍ
مِنْ أَدْهَمِ كَاللَّيْلِ حُجَلٍ بِالضُّحَى
أَوْ أَشْهَبَ يَحْكِي غَدَائِرَ أَشْيَبٍ
أَوْ أَشْقَرٍ قَدْ نَمَّقَتْهُ بِشُعْلَةٍ
أَوْ أَصْفَرٍ قَدْ زَيَّنَتْهُ غُرَّةٌ
طَارَتْ ، وَلَكِنْ لَا يُهَاضُ جَنَاحُهَا

تَشْنِي أَعْنَتَهَا مِنْ الْخِيَلَاءِ
فَتُشَقَّ غُرَّتُهُ عَنْ ابْنِ ذُكَاةٍ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ الشُّهْبُ فَضْلَ رِءَاءِ
كَالزَّجِ ثَارٍ بِصَفْحَةِ الصَّهْبَاءِ
حَتَّى بَدَا كَالشَّمْعَةِ الصَّفْرَاءِ
هَبَّتْ ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ بِرُخَاءِ

وقوله من أبيات في افتضاض بكر :

وَحَرِيدَةٌ مَا إِنْ رَأَيْتُ مِثْلَهَا
فَسَأَلْتُهَا سَمِعَ الشَّكَاةَ فَأَفْهَمَتْ
وَتَبِعْتُهَا وَسَأَلْتُ مِنْهَا قُبْلَةً
فَنُتَتْ عَلَيَّ قَوَامُهَا بِتَعَانٍ
وَوَجَدْتُهَا لَمَّا مَلَكَتْ عِنَانَهَا
جَاءَتْ إِلَيَّ كَوَرْدَةٍ حَمْرَاءُ^٢
وَسَلَبْتُهَا مَا أَحْمَرَّ مِنْهَا صَفْوُهُ

حَيَّتْ مِنَ الْأَلْحَاطِ بِالْإِيمَاءِ
أَنَّ الرَّقِيبَ جُهَيْنَةَ الْأَنْبَاءِ
فِي خَلْوَةٍ مِنْ أَعْيُنِ الرِّقَابِ
أَحْيَا فَوَادًا مَاتَ بِالْبُرْجَاءِ
عَدْرَاءَ مِثْلَ الدَّرَّةِ الْعَدْرَاءِ
فَتَرَكْتُهَا كَعَرَّارَةٍ صَفْرَاءِ
فَجَرَى مُذَابًا مُنْجِحًا لِرَجَائِي

١ ورد هذا البيت أيضاً وحده في المقتطفات (الورقة : ٩) .

٢ ج : حمرة .

وقوله من أبيات :

أحبابنا عودُوا عَلَيْنَا عَوْدَةً
كم ذا أداريكم بنفسي جاهداً
وأزیدُ بعداً ما اقتربتُ إليكمُ
وأجوبُ نحوكمُ المنازلَ جاهداً
كالبدرِ أقطعُ منزلاً في منزل
ما منكمُ بعدَ التفرُّقِ مرَّغبُ
وكأنَّما أرضيكمُ كي تغضبوا
كالسَّهمِ أبعدُ ما يرى إذ يقربُ
ومعَ اجتهادي فاني ما أطلب
فإذا انتهيت إلى ذرَّاكمُ أغرب

وقوله من أبيات :

سألتك يا من يُستَلانُ فيصعُوبُ
أما خدَّكَ البدرُ المنيرُ فلمْ غَدَّتْ
ومَنْ يُتَرَضَّى بالحياة فيغضبُ
نحلُّ بِهِ ضدَّ القضيةِ عقربُ

وقوله ، وقد داعبَه أحدُ الفقهاء وسرق سكينه من حرز :

أيا سارقاً مُلكاً مَصُوناً ولم يَجِبْ
ستندُبه الأَقلامُ عند عثارها
على يَدِهِ قَطْعُ وفيه نِصَابُ
ويَبْكِيهِ إن يعدُّ الصَّوابَ كتابُ

وقوله في تفاحة عنبر أهديت :

أنا لونُ الشَّبابِ والحالُ أهدِي
ملكُ العالمين نجمُ بني أَيْدِ
تُلمنُ قد كَسَا الزَّمانُ شَبَاباً
وب لا زالَ في المعالي شهاباً
من شكورٍ إحسانه والثواب
قد كفاني أريجُ عَرَفِي خطاباً
جئتُ مَلأى من الثَّناء عليه
لستُ ممَّنْ له خطابٌ ولكن

وقوله من قصيدة :

فالحَمْدُ لله على ساعة
وليَعذرِ المولى على أنْتِي
قد قَرَّبْتَنِي من علا الصَّاحِبِ
قد كُنْتُ من عَليَّاه في جانب

كَمَنْ أَنِي نَافِلَةٌ أَوَّلًا ثُمَّ أَنِي مِنْ بَعْدُ بِالْوَاجِبِ

وقوله من أبيات ١ :

فَإِنْ كُنْتُ فِي أَرْضِ التَّغْرِبِ غَارِبًا فَسَوْفَ تَرَانِي طَالِعًا فَوْقَ غَارِبِ
فَصَمَّصَامُ عَمِرُو حِينَ فَارَقَ كَفَّهُ رَمَوْهُ وَلَا ذَنْبٌ لِعَجْزِ الْمُضَارِبِ
وَمَا عِزَّةُ الضَّرْغَامِ إِلَّا عَرِينَهُ وَمِنْ مَكَّةَ سَادَتْ لُؤْيُ بْنُ غَالِبِ

وقوله في فرس أصفر أغر أكحل الحلية ٢ :

وَأَجْرَدَ تَبِيرِي أَثَرْتُ بِهِ الثَّرَى وَلِلْفَجْرِ فِي خَصْرِ الظَّلَامِ وَشَاحُ
لَهُ لَوْنٌ ذِي عِشْقٍ وَحُسْنُ مُعَشَّقٍ لِذَلِكَ فِيهِ دَلَّةٌ ٣ وَمَرَّاحُ
عَجِبْتُ لَهُ وَهُوَ الْأَصِيلُ بِعَرَفِهِ ظَلَامٌ وَبَيْنَ النَّاطِرَيْنِ صَبَاحُ
يَقِيئُ طَيْرَ اللَّحْظِ وَالْوَحْشِ عِنْدَمَا يَطِيرُ بِهِ نَحْوَ النِّجَاحِ جَنَاحُ

وقوله من أبيات :

إِذَا مَا غُرَابُ الْبَيْنِ صَاحَ فَقُلْ لَهُ تَرَفَّقْ رَمَاكَ اللَّهُ يَا طَيْرُ بِالْبَعْدِ
لَأَنْتَ عَلَى الْعُشَاقِ أَفْبَحُ مَنْظَرًا وَأَكْرَهُ فِي الْأَبْصَارِ مِنْ ظِلْمَةِ اللَّحْدِ
تَصِيحُ بَنُوحٍ ثُمَّ تَعْتَرُ مَاشِيًا وَتَبْرُزُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَزَنِ مُسْوَدَّ
مَتَى لَحْتَ صَحَّ الْبَيْنِ وَانْقَطَعَ الرَّجَا كَأَنَّكَ مِنْ وَشْكِ الْفِرَاقِ عَلَى وَعْدِ

وقوله في غلام جميل الصورة أهدى تفاحه :

نَابَ مَا أَهْدَيْتَ عَنْ عَرٍّ فِي وَعَن رِيْقٍ وَخَدَّ

١ المقتطفات (الورقة : ٩) .

٢ المغرب ٢ : ١٧٣ والمقتطفات (الورقة : ٩) .

٣ دوزي : لذة ، وفي ج ق والمقتطفات : ذلة ، والتصويب عن المغرب .

حَبِّدَا تَفَاحَةً قَدْ أَشْبَهَتْ أَوْصَافَ مُهْذِي
بَيْتٌ مِنْهَا فِي سُورٍ فَكَأَنَّ قَدْ بَتَّ عِنْدِي

وقوله من قصيدة :

هذا الذي يَهَبُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا وَبَعْدَ ذَلِكَ يُلْفِي وَهُوَ يَعْتَذِرُ
إِنْ هَزَّهَ الْمَدْحُ فَلْأَمْوَالِ فِي بَدَدٍ وَالْغَصْنُ مَا هَزَّ إِلَّا بُدِّدَ الثَّمَرُ
[قُلْتُ لَمَّا بَدَأَ لِي حُسْنُ مَنْظَرِهِ لَكِنَّهُ زَادَ إِشْرَاقًا : هُوَ الْقَمَرُ]^١
مَتَّعْ لِحَاطِكَ فِي وَجْهِهِ بَلَا ضَرَرٍ إِنْ كَانَ شَمْسًا يَدَاهُ تَحْتَهَا مَطَرُ

وقوله من أبيات :

لِي جَبْرَةٌ ضَمَّتْهُ عَلَيَّ وَجَارُوا فَنَبَتَ بِي الْأَوْطَانُ وَالْأَوْطَارُ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ أَنِّي مَعَ جَوْرِهِمْ مَا قَرَّ لِي بَعْدَ الْفِرَاقِ قَرَارُ

وقوله :

أَنَا شَاعِرُ أَهْوَى التَّخْلِيِّ دُونَ مَا لَوْ كُنْتُ ذَا زَوْجٍ لَكُنْتُ مُنْغَصِّصًا
دَعْنِي أَرْحَ طَوْلَ التَّغْرِبِ خَاطِرِي حَتَّى أَعُودَ وَيَسْتَقِرَّ قَرَارُ
كَمْ قَائِلٍ لِي ضَاعَ شَرِّخُ شَبَابِهِ مَا ضَيَّعَتْهُ بَطَالَةٌ وَعُقَارُ
إِذْ لَمْ أَزَلْ فِي الْعِلْمِ أَجْهَدُ دَائِمًا حَتَّى تَأْتَتْ هَذِهِ الْأَبْكَارُ
مَهْمَا أَرُمُ مِنْ دُونَ زَوْجٍ لَمْ أَكُنْ كَلَّا وَرِزْقِي دَائِمًا مِدْرَارُ
وَإِذَا خَرَجْتُ لِفُرْجَةٍ هَنَيْتُهَا لَا صَنْعَةً ضَاعَتْ وَلَا تَذْكَارُ

وقوله من قصيدة :

١ زيادة لم ترد في ج ق ودوزي .

ما كنتُ أحسبُ أن أضيع وأنت في الـ
أنا مثلُ سَهْمٍ سَوْفَ يَرْجِعُ بعدما
دنيا وأن أُمسي غريباً مُعْسِراً
أقصاهُ راميهِ المجيدُ ليخبراً
وقوله ساعده الله تعالى :

وافى عليّ لَنَا بِسَيْفٍ والبينُ قد حان والوداعُ
فقال شَبَهَ فَقَلْتُ شمس قد مدَّ من نورها شعاعُ

وقوله من قصيدة في ملك لإشبيلية الباجي ، وقد هزم ابن هود :

لله فُرسان غَدَتْ راياتهم مثلَ الطيور على عِدَاكَ تُحَلِّقُ
السَّمَرُ تنقط ما تُسَطَّرُ بِيضُهُمْ والنَّعْ يُتْرَبُ والدماءُ تَحْلُقُ

وقال ارتجالاً بمحضر زكي الدين بن أبي الإصبع وجمال الدين أبي الحسين
الجزار المصري الشاعر ونجم الدين بن إسرائيل الدمشقي بظاهر القاهرة ، وقد
مشى أحدهم على بسيط نرجس :

يا واطيء النرجس ما تستحي أن تطأ الأعينَ بالأرجلِ

فتهافتوا بهذا البيت ، وراموا إجازته ، فقال ابن أبي الإصبع مجيزاً :

فقلتُ دعني لم أزل مُحَرَّجاً على لحاظ الرشيد الأكلِ

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابلُ جُفُوناً بجُفُونٍ ولا تبذل الأرفعَ بالأسفلِ

وقوله في الجزيرة الصالحية بمصر ، وهي الشهيرة الآن بالروضة :

تأملُ الحُسْنَ الصالحية إذ بدتْ مناظرُها مثلَ النجوم تلالاً

وللقلعة الغراء كالبدْر طالعا تفجّر صدرُ الماء عنه هلالا
ووافى إليها النّيلُ من بعد غاية كما زار منشغوفٌ يروم وصالا
وعانقها من فَرط شوق بحُسْنها فمدّ يميناً نحوها وشمالا
جرى قادماً بالسعد فاخطّ حولها من السعد إعلاماً بذلك دالا

وقوله من أبيات في ملك إفريقية وقد جهز ولده الأمير أبا يحيى بعسكر :

وقد أرسلته نحو الأعادي كما جرّدت من غمدٍ حُساما

وقوله في قوس :

أنا مثلُ الهلال في ظلّم النّقْ حِ سهمي تنقّضُ مثلَ النجومِ
تقصّرُ القُصْبُ والقنا عن مجالي عندَ رَجْمي بها لكلِّ رَجيمِ
قد كسّتها الطيورُ لما رأها كافلاتٍ لها برزقٍ عَميمِ

وقوله من أبيات ١ :

وأشقرّ مثلَ البرقِ لونا وسُرعةً قصّدتُ عليه عارضَ الجود فانهمى

ولنذكر ترجمته من الإحاطة ملخصة ، فنقول :

قال لسان الدين ٢ : علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين العنسي ، المدلجي ، من أهل قلعة يَحْصُب ، غرناطي ، قلعي ، سكن تونس ، أبو الحسن ابن سعيد ، وهذا الرجل وسطي عقد بيته ، وعلم أهله ، ودرة قومه ، المصنف ، الأديب ، الرحالة ، الطرفة ،

١ المغرب : ١٧٩ .

٢ الإحاطة ، الورقة : ٣٢٣ .

الأخباري ، العجيب الشأن في التجوّل في الأقطار ، ومداخلة الأعيان والتمتّع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية ، أخذ عن أعلام إشبيلية كأبي علي الشّلّوبين ، وأبي الحسن الدباج ، وابن عصفور وغيرهم ، وتواليفه كثيرة : منها « المرقصات والمطربات » و « المقتطف من أزاهر الطرف » و « الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد » تاريخ بلده وبيته ، والموضوعان الغريبان المتعددا الأسفار ، وهما « المغرب في حلى المغرب » و « المشرق في حلى المشرق » وغير ذلك ممّا لم يتصل إلينا ، فلقد حدّثني الوزير أبو بكر ابن الحكيم أنه تخلف كتاباً يسمى « المرزّمة »^١ يشتمل على وقَرٍ بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والأخبارية إلاّ الله تعالى ، وتعاطى نظم الشعر في حد من الشيبة يُعجّب فيه من مثله ، فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى إشبيلية وفي صحبته سهّل ابن مالك ، فجعل سهل بن مالك يُباحثه عن نظمه إلى أن أنشده في صفة نهر والنسيم يردده والغصون تميل عليه :

كأنّما النّهر صفحةٌ كُتبت أسطُرّها ، والنّسيم يُنشئها
لما أبانت عن حُسن منظرها مالتْ عليّها الغصون تقرؤها

فطرب وأثني عليه .

ثم ناب عن أبيه في أعمال الجزيرة ، ومازج الأدباء ، ودوّن كثيراً من نظمه ، ودخل القاهرة ، فصنع له أدباؤها صنيعاً في ظاهرها ، وانتهت بهم الفرجة إلى رَوْضٍ^٢ نرجس ، وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجله ، فقال أبو الحسن :

يا واطيء النرجس ما تستحي أن تَطأَ الأعينَ بالأرجل

١ الإحاطة : المزيد له .

٢ ق : أنوار ، ج : صنف .

فتهافتوا بهذا البيت ، وراموا إجازته ، فقال ابن أبي الإصبع :

فقال دعني لم أزل مُحَنَقًا على لحاظ الرشيد الأكمل

وكان أمثل ما حضرهم ، ثم أبوا أن يجيزه غيره ، فقال :

قابل جفوناً بجفونٍ ، ولا تبتذل الأرفع بالأسفل

ثم استدعاه^١ سيف الدين ابن سابق إلى مجلس بَصْفَةِ النيل مبسوط بالورد ، وقد قامت حوله شمامات نرجس ، فقال في ذلك :

مَنْ فَضَّلَ النرجسَ فهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأسُ
أما ترى الوردَ غداً قاعداً وقام في خدمته النرجسُ

ووافق ذلك ممالك الترك وقوفاً في الخدمة ، على عادة المشاركة ، فطرب الحاضرون .

ولقي بمصر أيدمر التركي والبهاء زهيراً وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم ، ورحل صحبة كمال الدين بن العديم إلى حلب ، فدخل على الناصر صاحب حلب ، فأنشده قصيدة أولها :

جُدْ لي بما ألقى الخيال من الكرى لا بُدَّ للضيف المليم من القرى

فقال كمال الدين : هذا رجل عارف ، ورأى بمقصوده من أول كلمة ، وهي قصيدة طويلة ، فاستجلسه السلطان ، وسأله عن بلاده ومقصوده برحلته ، وأخبره أنه جمع كتاباً في الحلى البلادية والعلی العبادية المختصة بالمشرق ، وأخبره أنه سمّاه « المشرق في حلى المشرق » وجمع مثله فسمّاه « المغرب في حلى المغرب » فقال : نعينك بما عندنا من الخزائن ، ونوصلك إلى ما ليس

١ انظر هذا الخبر في المقتطفات (الورقة : ٩) .

عندنا كخزائن الموصل وبغداد ، وتُصَنَّف لنا ، فخدم على عادتهم ، وقال :
أمر مولاي بذلك إنعام وتأنيس ، ثم قال له السلطان مداعباً : إن شعراءنا ملقبون
بأسماء الطيور ، وقد اخترت لك لقباً يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر ، فإن
كنت ترضى به ، وإلا لم نعلم به أحداً غيرنا ، وهو البُلْبُل ، فقال : قد رضي
المملوك يا خوند ، فتبسم السلطان . وقال له أيضاً يداعبه : اختر واحدةً من ثلاث :
إمّا الضيافة التي ذكرتها أوّل شعرك ، وإمّا جائزة القصيدة ، وإمّا حق الاسم ،
فقال : يا خوند المملوك ممّا لا يَخْتَنق بعشر لُقَمٍ لأنّه مغربي أكل فكيف
بثلاث ؟ فطرب السلطان وقال : هذا مغربي ظريف ، ثم أتبعه من الدنانير
والخلع الملوكة والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف . ولقي بحضرته عون الدين
العجمي ، وهو بحر لا تنزفه الدلاء ، والشهاب التلّعفري ، والتاج ابن شقير ،
وابن نجيم الموصل ، والشرف بن سليمان الإربلي ، وطائفة من بني الصاحب . ثم
تحول إلى دمشق ، ودخل الموصل وبغداد ، ودخل مجلس السلطان المعظم [ابن
الملك الصالح]^١ بدمشق ، وحضر مجلس خلوته ، وكان ارتحاله إلى بغداد في عقب
سنة ثمان وأربعين وستمائة في رحلته الأولى إليها ، ثم رحل إلى البصرة ودخل
أرجان ، وحج ، ثم عاد إلى المغرب ، وقد صنّف في رحلته مجموعاً سمّاه
بـ « النفحة المسكية في الرحلة المكية » وكان نزوله بساحل مدينة إقليبيّة^٢
من إفريقية في إحدى جمادى سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، واتصل بخدمة
الأمير أبي عبد الله المستنصر ، فنال الدرجة الرفيعة من حظوته .
حدثني شيخنا الوزير أبو بكر ابن الحكيم أن المستنصر جفاه في آخر عمره
وقد أسنّ لِحْجَرَاء خدمة مالية أسندها إليه ، وقد كان بلا منه قبل جفوة أعقبها
انتشال وعناية ، فكتب إليه بنظم من جملته :

١ ما بين معقنين سقط من ق ج وزاده دوزي من نسخة الإحاطة .

٢ إقليبية : حصن قريب من قرطاجنة ، وفي ج : اقلبية .

لا تَرُعْنِي بِالْجُفَا ثَانِيَةً

فرقَّ له ، وعاد إلى حسن النظر إليه ، إلى أن توفي تحت بر وعناية^١ .
مولده بغيرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائة^٢ ، ووفاته بتونس في حدود
خمس وثمانين وستمائة ، انتهى باختصار .
وذكرت حكاية إجازة بيته في الرجس وإن تقدمت لاتصال الكلام .
قلت : قد كنتُ وقفتُ على بعض ديوان شعره المتعدد الأسفار ، ونقلت
منه قولاً من قصيدة يهنيء ابن عمه الرئيس أبا عبد الله ابن الحسين^٣ بقدمه
من حركة هَوَّارة :

وَقَدْ بَعُدَتْ دَارُ وَخَانَ حَبِيبُ	أَمَّا وَاجِبٌ أَنْ لَا يَحُولَ وَجِيبُ
وَدَمَعٌ عَلَى مَنْ لَا يَرِقُ صَيْبُ	وَلَيْسَ أَلِيفٌ غَيْرُ ذَكْرِ وَحَسْرَةٍ
وَشَوْقٌ كَمَا شَاءَ الْهَوَى وَنَجِيبُ	وَخَفَقُ فُؤَادٍ إِنْ هَذَا الْبَرْقُ خَافَقُ
وَعَذَلُ مَشُوقٍ فِي الْبُكَاءِ عَجِيبُ	وَيَعْذُلُنِي مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَا الْهَوَى
وَصَمَتُوا وَدَائِي لَيْسَ مِنْهُ طَيْبُ	أَلَا تَعْسَ الْوَأَمُ فِي الْحَبِّ قَدْ عَمُوا
وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي الْمَلَامِ أَجِيبُ	يُرُومُونَ أَنْ يَنْثِي الْمَلَامُ صَبَابِي
وْغَيْرِي ذُو غَدْرِ أَوْانَ يَغِيبُ	وَفَائِي إِذَا مَا غَبْتُ عَنْكُمْ مُجَدِّدُ
لَكُنْتُ لَغَيْرِ ابْنِ الْحُسَيْنِ أَنْيْبُ	وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي الْوَفَاءُ سَجِيَّةُ
مُهَلَّبُهُ إِنْ مَارَسَتْهُ حُرُوبُ	سَمَوَالُ هَذَا الْعَصْرِ حَاتِمُ جُودِهِ

١ في الإحاطة حسب مقارنة دوزي : ورعاية ؛ ويبدو أن نسخة الإحاطة التي اعتمدها قد أخلت
بجوانب كثيرة من أخبار ابن سعيد ؛ أما النسخة التي اعتمدها دوزي فهي أوفى .

٢ كذا في ق ج ، وأثبت دوزي : سنة ٦١٥ اعتماداً على الإحاطة .

٣ ستأتي ترجمته .

٤ في نسخة : غريب .

٥ ق : يشفي للفرام ؛ ج : يفي الغمام .

٦ دوزي : ما مارسه .

فَتَنَى سَيَّرَ^١ الأمداحَ شرقاً ومغرباً
إذا رَقَمَ القرطاسَ قَلَّتْ ابنُ مُقْلَةٍ
وإن نثرَ الأسجاعِ قَلَّتْ سَمِيَّةُ
وما أَحْرَزَ الصُّوْلِيُّ آدَابَهُ الَّتِي

أَبُو دُلْفٍ مِنْ دُونِهِ وَخَصِيبُ
وإن نَظَّمَ الأشعارَ قَلَّتْ حَبِيبُ
وإن سَرَدَ التاريخَ قَلَّتْ عَرِيبُ
إذا ما تَلَّاهَا لَمْ يُجِبْهُ أَدِيبُ

ومنها :

وَأَمَّا إِذَا مَا الْحَرْبُ أَحْمَدُ^٢ نَارَهَا
فَكَمْ قَارَعَ الْأَبْطَالُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
وَكَاثِنٌ لَهُ بِالْغَرْبِ^٣ مِنْ مَوْقِفٍ لَهُ
بِمَرَاكَشٍ سَلَّ عَنْهُ تَعَلَّمَ غَنَاءَهُ
إِذَا مَا ثَنَى الرِّمْحَ الطَّوِيلَ كَأَنَّهُ
وإن جَرَّهُ أَبْصَرَتْ نَجْمًا مَجْرَرًا
يَهِيمٌ بِهِ مَا إِنْ يَزَالُ مُعَانِقًا
مُحَمَّدُ ، لَا تُبْدِ الَّذِي أَنْتَ قَادِرٌ
نَفْوذُ سِهَامِ الْعَيْنِ أَوْدَى بِمُضْعَبٍ
أَلَا فَهَنِيئًا أَنْ رَجَعْتَ لِتُونُسٍ
كَوَاكِبُهَا تَبْدُو إِذَا مَا تَرَكْتَهَا
إِذَا سُدَّتْ فِي أَرْضٍ فَعِيرُكَ تَابِعٌ

فَفِيهِ تَلَطَّى^٣ مَارِجٌ وَلَهِيْبُ
نَحَاها وَكَمْ لُقَّتْ عَلَيْهِ حُرُوبُ
حَدِيثٌ إِذَا يُتْلَى تَطِيرُ قُلُوبُ
وَقَدْ سَاءَ هُمْ^٤ "يَوْمَ" هُنَاكَ عَصِيبُ
مُدِيرٌ لَغَصْنِ الْخِيزَرَانِ لَعُوبُ
ذُؤَابَتُهُ ، مِنْهُ الْكُفَاةُ تَذُوبُ
لَهُ رَاكِعَاتٌ مَا تَحُوزُ كَعُوبُ
عَلَيْهِ ، وَخَفَّ عَيْنًا عُلَاكَ تَصِيبُ
وِطَاحَ بِهِ بَعْدَ الشُّبُوبِ شَبِيبُ
فَأُطْلِعْتَ شَمْسًا وَالسَّفَارُ^٥ غُرُوبُ
وَقَدْ جَعَلْتَ مَهْمًا حَضْرَتَ تَغِيبُ
عُلَاكَ ، وَمَهْمًا سَادَ فَهُوَ مَرِيبُ

١ ج : سرد .

٢ ج : أظهر .

٣ دوزي : تلفظ .

٤ ج : في الغرب .

٥ دوزي : ساءه .

٦ ق ج : والشفار .

ومنها :

كفاني أني أستظل بظلكم
فأصلك أصلي والفروع تباينت
وحسي فخرأ أن أقول محمد
تركت جميع الأقربين لقصده
رأيت به جنات عدن فلم أبطل
فقبلت كفا لا أعاب بلثما
وكيف وليس الرأس كالرجل ، فرقت
ولو كان قدرتي مثل قدرك في العلا
ولولا الذي أسمعت من مكر حاسد
لما كنت محتاجاً لقولي آنفاً
إذا كنت ذا طوع وشكر وغيطة
لقد كنت معتاداً ببشر فما الذي
إن رفع السلطان سعيي بقدركم
فأحسب ذنبي ذنب صحرأ ، بدارها
وحاشاك من جور علي ، وإنما
صحاب هم الداء الدفين فليتبني
كلامهم شهد ولكن فعلهم
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع

وَمَنْ هَابَ ذَاكَ الْمَجْدَ فَهُوَ مَهِيْبٌ
بَعِيدٌ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَقَرِيبٌ
نَسِيبٌ عَلَى جَلٍّ مِنْهُ نَصِيبٌ
عَلَى حِينَ حَانَتْ فِتْنَةٌ وَخُطُوبٌ
إِذَا وَصَلْتَنَا لِلْخُلُودِ شَعُوبٌ
وَأَيْدِي الْأَيَادِي لَثْمُهُنَّ وَجُوبٌ
شِيَاتٌ لَعَمْرِي بَيْنَنَا وَضُرُوبٌ
لَحَقَّ بِأَنْ يَعْلُو الشَّبَابَ مَشِيبٌ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ وَهُوَ فِيهِ كَذُوبٌ
تَخَلَّيْتُ مِنْ ذَنْبٍ وَجِئْتُ أَتُوبُ
فَمَنْ أَيْنَ لِي يَا ابْنَ الْكَرَامِ ذُنُوبٌ
تَقْلَدَتْهُ حَتَّى يَزَالَ قُطُوبٌ
أَحْسَلْتُ عَنْ وَرْدٍ لَكُمْ وَأَخِيبُ
إِلَى الْبِرِّ عِنْدَ الْخَابِرِينَ مَعِيبُ
أَخَاطِبُ مَنْ أَصْفَى لَهُ فَيْشُوبُ
وَلَمْ أَدْنُ مِنْهُمْ ، لِلذَّنَابِ صَحُوبُ
كَسَمَّ لَهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ دَيْبُ
بِقَلْبِي لَهُمْ شَيْئًا عَلَيْهِ أَثِيبُ

١ في نسخة : بقريكم .

٢ ذنب حر : مثل ، وذلك أن لقمان بعد أن قتل زوجته لقيته ابنته صحر فقتلها أيضاً قائلاً « وهل أنت إلا امرأة ؟ » دون ذنب جنته ، فضرب بذلك المثل . وفي ج ق ودوزي : صخر

— بالمعجمة — .

٣ في نسخة : أصفر .

إذا اغترَبَ الإنسانُ عَمَّنْ يسوءُ فما هوَ في الإِبْعَادِ عَنْهُ غَرِيبُ
فقدَارِكَ برَأْبٍ منك ما قد خَرَقَتْهُ ليحسنَ مِنِّي مَشْهَدُ ومَغِيبُ
ولا تَسْمَعْ قولَ الوشاةِ فإنَّما عدَوْهُمُ بَيْنَ الأَنَامِ نَجِيبُ
فيا لَيْتَ أَنِّي لم أَكُنْ متَأَدِّباً ولم يَكُ لي أَصلٌ هناكَ رَسوبُ
وكنْتُ كبعضِ الجاهِلينَ محبباً فما أَنَا للهِمِّ المُلِمِّ حِيبُ
وما إِن ضَرَبْتُ الدهرَ زِيداً بَعَمْرِهِ ولم يَكُ لي بَيْنَ الكِرَامِ ضَرِيبُ
أَشْكوكَ أم أَشْكُو إِلَيْكَ فما عَدَّتْ عِدائِي حتَّى حَانَ مِنكَ وَثوبُ
سَأشْكُرُ ما أُولَى وأَصبرُ للذي توالى ، على أَنَّ الغِزَاءَ سَلِيبُ
فدُمُ في سُرورٍ ما بَقِيتَ فَإِنِّي وحَقَّكَ مُذْ دَبَّ الوُشاةُ كَتِيبُ

قال : وكان سبب التغير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور أن ملك إفريقيا استوزر لأشغال الموحدين أبا العلاء^٢ إدريس بن علي بن أبي العلاء ابن جامع ، فاشتمل عليّ ، وأولاني من البرّ ما قيّدني وأمال قلبي إليه ، مع تأكيد ما بينه وبين ابن عمي من الصّحبة ، فلم يزل ينهضُ بي ، ويرفع أمداحي للملك ، ويوصّل إليه رسائلي ، مُنَبِّهاً على ذلك مرشحاً ، إلى أن قبض الملكُ على كاتب عسكره ، وكان يقرأ بين يديه كتبَ المظالم ، فاحتجج إلى من يَخْلُقه في ذلك ، فنبه الوزير عليّ ، وارتهن فيّ ، مع أنّي كنت من كتاب الملك ، فقلدني قراءة المظالم المذكورة ، وسفّر لي الوزيرُ عنده في دار الكاتب المؤخّر ، فأنعم بها ، فوجد الوشاة مكاناً متسعاً للقول ، فقالوا وزوّروا من الأقاويلِ المختلفة ما مال بها حيث مالوا ، وظهر منه مخايل التغير ، فجعلت أداريه وأستعطفه ، فلم ينفع فيه قليل ولا كثير ، إلى أن سعى في تأخير والدي عن الكتّاب للأمير الأسعد أبي يحيى ابن ملك إفريقيا ، ثم سعى في تأخيري ، فأخّرت عن الكتابة وعن

١ ق ج : برأي .

٢ ج ق ودوزي : أبا المل .

قراءة المظالم ، فانفردت بالكتابة للوزير المذكور ، وفوض إليّ جميع أموره ،
وأولاني من التأنيس ما أنساني تلك الوحشة ، ومن العز ما أنقذني من تلك الذلة :

فردّ عليّ العيشَ بَعْدَ ذهابِهِ وآتسني بعد انفرادي من الأهل
وقال إذا ما الوبلُ فاتك فاقتنع بما قد تَسَتَّى عندك الآن من طلٍ
ووالله ما نُعماه طلٌ وإنما تأدُّبهُ غيثٌ يجودُ على الكلِّ
رآني أظمًا في الهَجيرة ضاحياً فرقَ وآواني إلى الماء والظلِّ

ولم أزل عنده في أسرٍ حال ما لها تكدير إلاّ ما يبلغني من أن ابن عمي لا
يزال يسعى في حقي بما أحشى مَغَبَّتَهُ ، وخِفْتُ أن يطول ذلك ، فيُسْمِع
منه ، ولا ينفع دفاعُ الوزير المذكور عني ، فرغبتُ له في أن يرفع للملك أنتي
راغبٌ في السَّراح إلى المشرق برسم الحج :

ومن بَلَّه الغيثُ في بطنٍ وادٍ وباتَ فلا يأمنُ السيولا

فلم يُسْعِفني في ذلك ، ولا مَتِي على تخوُّفي ، وقلة ثقتي بحمايته ، فرفعت
له هذه القصيدة :

هل الهجرُ إلا أن يطولَ التجنُّبُ ويبعدَ مَنْ قد كان منه التقربُ
وتُقطَعَ رُسُلُ بَيْننا ورسائلُ ويمنعَ لُقيانا نوًى وتُحجَّبُ
ولو أنتي أدري لنفسِي زِلَّةٌ جعلتُ لكم عذراً ولم ألكُ أعتبُ
ولكننكم لما مللتم^٢ هجرتمُ وذنبتمُ في الحبِّ من ليس يُذنبُ
إلى الله أشكو غدركم وملاكم وقلباً له ذاك التعذبُ يعذبُ
فلو أنه يجزيكمُ بفعالكم^٣ لكان له عنكم مَرَادٌ ومَذْهَبُ^٣

١ دوزي : وعن كتابة .

٢ كذا في ق وج ؛ وفي نسخة : ملكتم .

٣ دوزي : ومطلب .

ولكن أبي أن لا يمنَّ لغيركم
فهلاً رعيتم أنه في ذراكم
لزمك لما أن رأيتك كاملاً
ولاني لأخشي أن يطول اشتكاؤه
فلم أسع إلا لارتياح وراحة
فأنت الذي آويتني ورحمتني
فما مرَّ يوم لا يدير مصيبة
وهبه ثبوتاً لا يحيل أما ترى
وهبه له سدّاً فكّم أنت حاضر
وما إن أرى إلا الفرار مخلصاً
فأنه إلى الأمر العليّ شكيتني
ولا تطمعوني في الذي لست نائلاً
ألا فلتمنّوا بالسراح فإنه
سلوا الكأس عني إذ تُدار فلنتي
ولا أسمع الألحان حين تهزني
فديتكم كم ذا أهون بأرضيكم
أبخل عليّ؟ ما سواك يصيخ لي
تقلّص عني كل ظلٍ ولم أجد
أذو طمع في العيش يبقى وحوله
أجزني أنجو^٣ بالفرار فإنه

وأن لا يرى عنكم مدى الدهر مذهب
غريب ، وليس الموت إلا التغرب
جمالاً وإجمالاً وذاك يحبب
لمن إن أتى مكرّاً فليس يشرب
وغيري وقد آواه غيرك يتعب
وذو الرحيم الدنيا لناري يحطب
عليك ، وبالتدبير منك يخيب
مجرّ جبال في الحجارة يرسب
أحاذر خرقاً منه أن يتسبّوا
وما راغب في الضيم من عنه يرغب
وأن خطوب الدهر نحوي تحطب
فلا أنا عرقوب ولا أنا أشعب
لراحة من يشقى لديكم وينصب
لأتركها همّاً ودمعي أشرب
ولو كان نوحاً كنت أصغي وأطرب
أهذا جزاء للذي يتغرب
فهل لي ممّا كدّر العيش مهرب
كما كنت ألقى^١ من أود وأصحب
مدى الدهر أفعى لا تزال^٢ وعقرب
وحقك من نعماك عندي يحسب

١ ج ودوزي : أكفي .

٢ ج : لا تزال .

٣ ج ق : أجرني ؛ ق : أنجز .

فلا زلت يا خيرَ الكرام مهناً فَعِيشِي منه الموتُ أَشهى وأطيبُ
وصانك من قد صُنْتَ في حقهِ دمي وغيرُكَ من ثوبِ المروءةِ يسلبُ

ولم يزل الوزير — لا أزال الله عنه رضاه — يحمي جانبي ، إلى أن أصابني
فيه العين ، فأصابه الحين ، فقلت في ذلك :

وطيبَ نفسي أنه ماتَ عندما تنَاهى ولم يشمتَ به كلُّ حاسدٍ
ويحكمُ فيه كلُّ من كان حاكماً عليه ويُعطي الثأرَ كلُّ معاندٍ

وقلتُ أرثيه :

بَكَتْ لك حَتَّى الهَاطَلَاتُ السَوَاكِبُ وَشَقَّتْ جِيوباً فِيكَ حَتَّى السَحَابُ
فَكَيْفَ بَمَنْ دَافَعَتْ عَنْهُ وَمَنْ بِهِ أَحَاطَتْ وَقَدْ بُوْعِدَتْ عَنْهُ الْمَصَائِبُ
أَلَا فَانظُرُوا دَمْعِي فَأَكْثَرُهُ دُمٌ وَلَا تَذْهَبُوا عَنِّي فَإِنِّي ذَاهِبُ
وَقُولُوا لِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَنْدُبُ بَعْدَهُ لَعْمُكَ مَا فِي الْأَرْضِ وَافٍ بِذِمَّةٍ
دَعْوَتِكَ يَا مَنْ لَا أَقُومُ بِشُكْرِهِ أَيْ سَيِّدَا قَدْ جَالَ بَيْتِي وَبَيَّنَّنَهُ
لِمَنْ أَشْتَكِي إِنْ جَارَ بَعْدَكَ ظَالِمٌ لِمَنْ أُرْتَجِي عِنْدَ الْأَمِيرِ بِمَنْطِقٍ

وهي طويلة ، ومنها قُبِيلَ الخَم :

وَقَدْ كُنْتُ أَخْتَارُ التَّرْحُلَ قَبْلَ أَنْ يُصَيِّكَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ صَائِبُ
وَلَكِنْ قَضَاءُ اللَّهِ مَنْ ذَا يَرُدُّهُ فَصَبْرًا فَقَدْ يَرْضَى الزَّمَانُ الْمَغَاضِبُ

١ دوزي : النوائب .

٢ دوزي : اشتكي .

ومنها ، وهو آخرها :

ولمَّا لَدَّرِي أَنَّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ عَلَيَّ مَثَالِبُ
وَلَمَّا لَمْ يُوْبْ مِنْ كُنْتُ أَرْجُو انتصارَهُ عَلَيْكَ فَلُطْفُ اللَّهِ نَحْوِي آيِبُ

قال رحمه الله تعالى : ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتني^١ فيهما وحشة ،
وأثار لي تذكر ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التي قطعت
بها العيش غصّاً خصباً ، وصحبت بها الزمان غلاماً ولبست الشباب قشياً ،
فقلت :

هذه مِصْرُ فَأَيْنَ الْمَغْرِبُ ؟ مُذْ نَأَى عَنِي دُمُوعِي تَسْكُبُ
فَارَقْتَهُ النَّفْسُ جَهْلًا لِمَا يُعْرِفُ الشَّيْءُ إِذَا مَا يَذْهَبُ^٢
أَيْنَ حِمْنُ ؟ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا ؟ بَعْدَهَا لَمْ أَلْقَ شَيْئًا يُعْجِبُ
كَمْ تَقْصَى لِي بِهَا^٣ مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبُ
وَحِمَامُ الْأَيْكِ تَشْدُو حَوْلَنَا وَالْمَثَانِي فِي ذَرَاهَا تَصْخَبُ
أَيُّ عَيْشٍ قَدْ قَطَعْنَاهُ بِهَا ذَكَرَهُ مِنْ كُلِّ نَعْمَى أَطْيَبُ
وَلَكُمْ بِالْمَرْجِ لِي مِنْ لَذَّةٍ بَعْدَهَا مَا الْعَيْشُ عِنْدِي يَعْذِبُ
وَالنَّوَاعِيرُ الَّتِي تَذَكَرُهَا بِالنَّوَى عَنْ مُهْجَتِي لَا تُسَلِّبُ
وَلَكُمْ فِي شِبْنَبُوسٍ مِنْ مِثْنَى قَدْ قَضَيْنَاهُ وَلَا مِنْ يَعْتَبُ
[حَيْثُ هَاتِيكَ الشَّرَاجِبُ الَّتِي كَمْ بِهَا مِنْ حُسْنٍ بَلَدٍ مُعْصَبُ]^٤
وَعَنَاءُ كُلِّ ذِي فَقْرٍ لَهُ سَامِعٌ غَضَبًا وَلَا مِنْ يَغْضِبُ
بِلَدَّةٍ طَابَتْ وَرَبٌّ غَافِرٌ لِيَتِّيَ مَا زِلْتُ فِيهَا أَذْنُبُ

١ ج : أذكرتني .

٢ سقط هذا البيت من ج .

٣ ق : كم بعيش نالنا ، واضطربت في ج .

٤ البيت زيادة من إحدى النسخ ، ولم يرد في ق ج .

أَيْنَ حُسْنُ النِّيلِ مِنْ نَهْرِ بِهَا
كَمْ بِهِ مِنْ زَوْرَقٍ قَدْ حَلَّهْ
لَذَّةُ النَّاطِرِ وَالسَّمْعِ عَلَى
كَمْ رَكْبَانَا فَلَمْ تَجْمَحْ بِنَا
طَوْعَنَا حَيْثُ انْجَهْنَا لَمْ نَجِدْ
قَدْ أَثَارَتْ عَثِيرًا يُشْبِهُهُ
كَلِمَا رِشْنَا لَهَا أَجْنَحَةٌ
كَطَيُورٍ لَمْ تَجِدْ رِيًّا لَهَا
بَلْ عَلَى الْخَضِرَاءِ لَا أَنْفَكَ مِنْ
حَيْثُ لِلْبَحْرِ زَيْفٌ حَوْلَهَا
كَمْ قَطَعْنَا اللَّيْلَ فِيهَا مَشْرِقًا
وَكَانَ الْبَحْرَ ثَوْبٌ أَزْرَقُ
وَالِي الْحَوْرِ حَنِينِي دَائِمًا
حَيْثُ سُلَّ النَّهْرُ عَضْبًا وَانْثَنَتْ
وَتَشَقَّتْ أَعْيُنُ الْعُشَّاقِ مِنْ
مَلْعَبٍ لِلَّهِوِ مَذَّ فَارَقَتْهُ
وَالِي مَالِقَةٍ يَهْوُو هَوَى
أَيْنَ أَبْرَاجُهَا قَدْ طَالَمَا
حَقَّتِ الْأَشْجَارُ عَشْقًا حَوْلَنَا
جَاءَتْ الرِّيحُ بِهَا ثُمَّ انْثَنَتْ

كُلُّ نَعِمَاتٍ لَدَيْهِ تُطْرِبُ
قَمَرٌ سَاقٍ وَعُودٌ يَضْرِبُ
شَمَّ زَهْرٍ وَكُؤُوسٍ تُشْرِبُ
وَلَكُمْ مِنْ جَامِحٍ إِذَا يُرْكَبُ
تَعَبًا مِنْهَا إِذَا مَا نَعَبُ
نَشْرُ سَلَكٍ فَوْقَ بُسْطٍ يُنْهَبُ
مِنْ قِلَاعٍ ظَلَمْتَ مِنْهَا تَعْجَبُ
فَبَدَا لِلْعَيْنِ مِنْهَا مَشْرَبُ
زَفِيرَةٌ فِي كُلِّ حِينٍ تَلْهَبُ
تَبْصُرُ الْأَغْصَانِ مِنْهُ تَرْهَبُ
بَحْبِيبٍ وَمُدَامٍ يُسْكَبُ
فِيهِ لِلْبَدْرِ طِرَازٌ مُذْهَبُ
وَعَلَى شَنْيَلٍ دَمْعِي صَيِّبُ ٢
فَوْقَهُ الْقَضْبُ وَعَنَى الرَّبْرُبُ
حَوْرٍ عَيْنٍ بِالْمَوَاضِي تُحْجَبُ
مَا ثَنَانِي نَحْوَهُ لَهْوٍ مَلْعَبُ
قَلْبُ صَبٍّ بِالنَّوَى لَا يُقْلَبُ
حَثَّ كَاسِي فِي ذَرَاهَا كَوَكَبُ
تَارَةً تَنَاقَى وَطَوْرًا تَقْرُبُ
أَتَرَاهَا حَدَرَتْ مِنْ تَرْقُبُ

١ يعني الجزيرة الخضراء ، وقد قضى ابن سعيد فيها جانباً من حياته إذ كان والده والياً عليها ، وكان هو ينوب عنه أحياناً .

٢ الحور : حور مؤمل وهو من متزهات غرناطة (المغرب ٢ : ١٠٣) وشنيل هو نهريها ، وقد مر التعريف به في هذا الكتاب .

وعلى مُرْسِيَةِ ابْنِكِي دماً
مَعَ شمسٍ طَلَعَتْ في ناظري
هذه حالي ، وأما حالي
سَمِعْتُ أَذني محالاً ، ليتها
وكذا الشيء إذا غاب انتَهَوْا
ها أنا فيها فريدٌ مُهْمَلٌ
وأرى الأُلْحاظَ تَنْبُو عندما
وإذا أَحْسِبُ في الديوان لَمْ
وَأُنَادِي مغربياً ، لَيْتَنِي
نَسَبُ بِشركٍ فِيهِ خاملٌ
أُتْرَانِي لَيْسَ لي جَدُّ لَهُ
سوفَ أَثْنِي راجعاً لا غرتي

وقال بقرْمُونَةَ متشوقاً إلى غَرْناطَةِ ١ :

أَغِثْنِي إذا غَنَى الحمامُ المطرَبُ
ومِلْ مَيْلَةً حَتَّى أَعانِقَ أَيْكَةَ
ولَمْ أَرِ مَرَّجَاناً ودُرّاً خِلافَهُ
فَدَيْتُكَ من غَضَنِ تَحْمَلُهُ نَقاً
وَجَنَّتُهُ جَنَاتُ عَدْنٍ وفي لَطْفِي
وَيَعْدِلُنِي العَدَالُ فِيهِ وإِنْتِي
لَقَدْ جَهِلُوا ، هل عن حياتي أَثْنِي
يقولونَ لي قد صار ذَكَرُكَ مَخْلَقاً

بكأسٍ بِها وَسْوَاسُ فِكْرِي يُنْهَبُ
وَأَلِثِمَ ثَغْراً فِيهِ لِلصَّبِّ مَشْرَبُ
يُطِيفُ بِهِ وَرَدٌ من الشَّهْدِ أَعْذَبُ
تَطْلَعُ أَعْلَاهُ صَباحٌ وَغَيْهَبُ
فَوَادِي وما لي من ذُنُوبٍ تَعْذِبُ
لأَعْصِي عَلَيْهِ مَنْ يُلُومُ وَيَعْتَبُ
إذا نَمَقُوا أَقْوالَهُمْ وتَأَلَّبُوا
وأَصْبَحَ كُلُّ في هَواهُ يُؤْتَبُ

١ سقط هذا السطر من ج .

وعِرْضُكَ مَبْذُولٌ ، وَعَقْلُكَ تَالِفٌ
فَقُلْتُ لَهُمْ عِرْضِي وَعَقْلِي وَالْعُلَا
جَنُونَ أَبَى أَنْ لَا يَلِينَ لِعَازِمٍ
فَقَالُوا أَلَا قَدْ خَانَ عَهْدَكَ قُلْتُ لَمْ
وَكَمْ دُونَهُ مِنْ صَارِمٍ وَمُثَقِّفٍ
عَلَى أَنَّهُ يَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَ عِنْدَمَا
وَكَمْ حِيلَةٍ تَبْرَى عَلَى لِأَثَرِ حَالَةٍ
عَلَى أَنَّهُ لَوْ خَانَ عَهْدِي لَمْ أَزَلْ
فَأَيْنَ زَمَانٌ^١ لَمْ يَخْنِي سَاعَةً
وَلَا فِيهِ مِنْ بَخْلٍ وَلَا بِي قَنَاعَةٌ
وَيَا رَبَّ يَوْمٍ لَا أَقُومُ بِشُكْرِهِ
عَلَى نَهْرِ شَتِيلٍ وَلِلْقَضْبِ حَوْلَنَا
وَقَدْ قَرَعَتْ مِنْهُ سَبَائِكُ^٢ فِضَّةٍ
شَرَبْنَا عَلَيْهَا قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً
كَأَنَّ يَاسْمِينًا وَسَطَ وَرْدٍ تَفْتَحَتْ
إِذَا مَا شَرَبْنَاهَا لَنِيلٍ مَسْرَةٍ
أَتَتْ دُونَهَا الْأَحْقَابُ حَتَّى تَخَالَهَا
نَعِمْنَا بِهَا وَالْيَوْمُ قَدَرَقَ بُرْدُهُ
فَقَالُوا أَلَا هَاتُوا السَّرَاجَ فَكُلُّ مَنْ
وَقَالَ أَلَا تَدْرُونَ مَا فِي كُؤُوسِكُمْ
كَوَاكِبُ أَمْسَتْ بَيْنَ شَرْبٍ وَلَمْ تَخْلُ

وجسْمُكَ مَسْلُوبٌ ، وَمَالُكَ يَنْهَبُ
وَفَخْرِي لَا أَرْضِي بِهَا حِينَ يَغْضَبُ
بَسْحَرٍ بَيَّاتِ الرُّقَى لَيْسَ يَذْهَبُ
يَخْنُ مَنْ إِذَا قَرَبَتْهُ يَتَقَرَّبُ
فِيَا مَنْ رَأَى بَدْرًا يَهْدِينِ يُحْجَبُ ؟
يَزُورُ فَلَا يُجِدِي حِمَى وَتَرَقُّبُ
وَذُو الْوَدِّ مَنْ يَحْتَالُ أَوْ يَتَسَبَّبُ
لَهُ رَاعِيًا ، وَالرَّعِي لِلصَّبِّ أَوْجِبُ
بِهِ وَهُوَ مَنِّي فِي التَّنَعُّمِ أَرْغَبُ
كَلَانَا بَلَدَاتِ التَّوَاصِلِ مُعْجَبُ
عَلَى أَتَيْتِي مَا زِلْتُ أَتْنِي وَأُطْنِبُ
مَتَابِرُ مَا زَالَتْ بِهَا الطَّيْرُ تَخْطُبُ
خِلَالَ رِيَاضٍ بِالْأَصِيلِ تَذْهَبُ
غَدَتِ تَشْرَبُ الْأَلْبَابُ أَيَّانَ تُشْرَبُ
أَزَاهِرُهُ أَيَّانَ فِي الْكَأْسِ تُسْكَبُ
تَبَسُّمٌ عَنْ دُرٍّ لَهَا فَتَقْطَبُ
سَرَابًا بِأَفَاقِ الزَّجَاجَةِ يَلْعَبُ
إِلَى أَنْ رَأَيْنَا الشَّمْسَ عَنَّا تَغْرُبُ
دَرَى قَدَرًا مَا فِي الْكَأْسِ أَقْبَلُ يَعْجَبُ
فَلَا كَأْسَ إِلَّا وَهُوَ فِي اللَّيْلِ كَوَكَبُ
بِأَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ تَدْنُو وَتَغْرُبُ

١ ج : زماناً .

٢ ق : وقد قرعت منه سبائك .

ظللنا عليها عاكفينَ وليلنا
فلم نثنِ عن دين الصُّبوحِ عاننا
صُرعنا فأَمسى يحسبُ السكرُ قد قضي
وكَمَ لَيْلَةٍ في إثر يومٍ وعدَّلي
فيا ليتَ ما وَلَّى مُعادُ نعيمه
نهارُ إلى أَنُ صاح بالأيكِ مطربُ
إلى أن غدا مَنَ ليس يعرفُ يندبُ
علينا ، وذاك السكرُ أشهى وأعجبُ
وعُدَّالُ مَنَ يُصغي لقولي خيبُ
وأَيُّ نعيمٍ عندَ مَنَ يتغرَّبُ

قال : وقلت بإشيلية ذاكرآ لوادي الطَّلحِ ، وهو بشرق لإشيلية ملتف
الأشجار ، كثير مُترنم الأطيَّار ، وكان المعتمد بن عباد كثيراً ما ينتابه مع
رميكيتيه ، وأولي أنسه ومسرته^١ :

سائلُ بوادي الطَّلحِ رِيحَ الصِّبَا
كانتَ رسولاً فيه ما بيننا
يا قاتِلَ اللهُ أناساً إذا
هلاً رَعَوْا أَنَا وثِقْنَا بهم
يا قاتِلَ الله الذي لم يتبْ
واليمُّ لا يَعْرِفُ ما طعمه
دَعْنِي من ذكر الوُشاةِ الألى
واذكرُ بوادي الطَّلحِ عهداً لنا
بجانب العطف وقد مالت الأغْ
والطيرُ مازتَ بينَ ألحانها
وخانتني مَنَ لا أَسْمِيهِ مِنُ
قد أترع الكأسَ وحيّا بها
أهلاً وسهلاً بالذي شِثته
هل سُخِّرَتْ لي في زمان الصِّبَا
لن نأمن الرُّسلَ ولن نَكْتُبا
ما استؤمنوا خانوا ، فما أعجبا
وما اتخذنا عنهم مَذْهَباً
من غدرهم من بعد ما جرّبا
إلاّ الذي وافى لأن يَشْرِبَا
لَمَّا يَزَلُ فكري بهم مُلْهَباً
لله ما أحلى وما أطيبا
صانُ والزهرُ يَبْثُ الصِّبَا
وليسَ إلاّ مُعْجِباً مطربا
شَحَّ أخافُ الدهرَ أن يُسْلِبَا
وقلتُ أهلاً بالمُنَى مرحبا
يا بدرَ تمَّ مُهْدياً كوكبا

١ انظر هذه القصيدة فيما تقدم ج ١ ص ٦٩١ وفي روايتها بعض اختلاف ، ليس من الضروري إثباته .

لكنني آليتُ أسقى بها
فَمَجَّ لي في الكأس من ثغره
فقال : ها لثمي نُقْلاً ولا
فاقطفُ بخدي الوردَ والآسَ والـ
أُسْعِفْته غصناً غداً مثمراً
قَدْ كُنْتُ ذا نهيٍ وذا إمرةٍ
ولم أصنْ عِرْضيَ في حُبِّه
حتى إذا ما قال لي حاسدي
أرسلتُ من شعري سحراً له
وقالَ عَرَفَهُ بِأَتْيِ سَاحِ
فَزَادَ في شوقي لَهُ وَعَدُهُ
أمدُّ طرفي ثم أثنيه مِن
أُصْدَقِ الوعدِ وطوراً أرى
أنى ومن سَخَرَهُ بَعْدَما
قَبِلْتُ في التَّربِ ولم أَسْتَطِعْ
هَتَأْتُ رُبْعِي إِذْ غدا هَالَةً
بِاللهِ مِلٌّ مَعْتَقاً لائِماً
وقالَ : ما تَرْغَبُ ؟ قلتُ : اتُّدْ
فقالَ : لا مَرْغَبَ عَن ذَكَرِ ما
فَكَانَ ما كَانَ ، فوالله ما

أو تودِعَ عنها ثَغْرَكَ الأَشْنِبَا
ما حَبَّبَ الشَّرْبَ وما طَيَّبَا
تَشَمُّ إِلَّا عَرَفِي الأَطْيَا
نَسْرِينَ لا تَحْفَلُ بِزَهْرِ الرُّبَى
ومن جَنَاهِ مَيْسَهُ قَرَبَا
حَتَّى تَبَدَّدَى فَحَلَلْتُ الحُبَا
ولم أَطِيعْ فِيهِ الَّذِي أَتَبَا
تَرْجُوهُ وَالْكُوكَبَ أَنْ يَغْرَبَا
يَسِّرُ المَرْغَبَ والمَطْلَبَا
تَالُ فَمَا أَجْتَنِبُ المَكْتَبَا
ولم أَزَلْ مُقْتَعِداً مَرْقَبَا
خَوْفِ أَخِي التَّنْغِيصِ أَنْ يَرْقَبَا
تَكْذِيبَهُ وَالْحَرْ لَنْ يَكْذَبَا
أَيَّاسُ بَطْناً كَادَ أَنْ يُغْضَبَا
مَنْ حَصَرَ اللُّقْيَا سِوَى مَرْحَبَا
وَقُلْتُ : يَا مَنْ لَمْ يُضِيعْ أَشْعَبَا
فَمَالَ كَالْغَصَنِ ثَنَّتَهُ الصَّبَا
أَدْرَكَتْ إِذْ كَلَّمْتَنِي المَأْرَبَا
تَرْغَبُهُ ، قلتُ : إِذَا مَرْكَبَا
ذَكَرْتُهُ دَهْرِي أَوْ أَغْلَبَا

قال : وقلت باقتراح الملك الصالح نور الدين صاحب حمص أن أكتب
بالذهب على تفاعلة عتبر قدما لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية^١ :

١ انظر ما سبق ص : ٢٦٦ .

أنا لَوْنُ الشبابِ والحالِ أَهْدِيْ
تُ لمن قد كسا الزمانَ شَبَاباً
ملكِ العالمينَ نجمِ بني أدي
وبَ ، لا زالَ في المعالي مهابا
جئتُ مَلَأَى من الثناء عليه
من شكور إحسانه والثوابا
لستُ ممّن له خطابٌ ولكن
قد كفاني أريجُ عَرَفِي خطابا

قال : ولما أنشد أبو عبد الله ابن الأَبَّار كاتب ملك إفريقية لنفسه :

للهِ دولا بٌ يدورُ كأنه
فلَكْ ولكن ما ارتقاه كوكبُ
هامتْ به الأحداقُ لما نادمتْ
منه الحديقةُ ساقياً لا يشربُ
نصبتَه فوق النهر أيدٍ قدَّرتْ
ترويحهُ الأرواحُ ساعة يُنصبُ
فكأنه وهو الطليقُ مُقَيَّدٌ
وكأنه وهو الحيسُ مُسَيَّبُ
للماء فيه تصعدُ وتحدُّ
كالْمُزَن يستسقي البحارَ ويسكبُ

حلف أبو عبد الله ابن أبي الحسين ابن عمي أن يصنع في ذلك شيئاً ، فقال ^١ :

ومخنية الأضلاع ^٢ تحنو على الثرى
وتسقي نباتَ التربِ در ^٣ الترائبِ
تُعَدُّ من الأفلاك أن مياها
نجومٌ لرجمِ المَحَلِّ ذاتُ ذوائبِ
وأعجبها رَقَصُ الغصونِ ذوابلاً
فدارتْ بأمثالِ السيوفِ القواضبِ
وتحسبها والروضَ : ساقٍ وقينة
فما بَرَحَا ما بين شادٍ وشاربِ
وما خلتها تشكو بتحنانها الصدى
ومن فوق ^٤ متنيها اطرادُ المذائبِ

١ انظر هذه الأبيات في المغرب ٢ : ١٦٩ .

٢ المغرب : الأضلاع .

٣ المغرب : دمع .

٤ المغرب : تظن .

٥ المغرب : وأطربها .

٦ المغرب : وما بين .

فَخَذَ مِنْ مَجَارِيهَا وَدُهُمَّةَ لَوْنِهَا « بياض العطايا في سواد المطالب »^١

ثم كلفت في أن أقول في ذلك ، وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لي ما أقول :

وَذَاتِ حَيْنٍ لَا تَرَالُ مُطِيفَةً
كَأَنَّ أَلْفًا بَانَ عَنْهَا فَأُصْبِحَتْ
إِذَا ابْتَسَمَتْ فِيهَا الرِّيَاضُ شِمَاتَةً
فَكَمْ رَقَصَتْ أَغْصَانُهَا فَرَمَتْ لَهَا
لَقَدْ سَخَطَتْ مِنْهَا الثُّغُورُ وَأَرْضَتْ
شَرِبَتْ عَلَى تَحْنَانِهَا ذَهَبِيَّةً
فَهَاجَتْ لِي الْكَأْسُ أَدْكَارَ مُغَاضِبٍ
فَلَا تَدْعِ التَّيْرِيزُ فِي كَثْرَةِ الْهَوَى
تَنْ وَتَبْكِي بِالدَّمُوعِ السَّوَكَبِ
بِمَرْبَعِهِ كَالصَّبِّ بَعْدَ الْحَبَائِبِ
تَرُوعُهَا بِأَمْثَالِ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
نِثَارًا كَمَا بَدَّدَتْ حَلْيَ الْكَوَاعِبِ
قَدُودَ وَلَمْ تَحْفَلِ بِتَثْرِيْبِ عَائِبِ
ذَخِيرَةَ كَسْرَى فِي الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
فَحَاكَيْتُهَا وَجَدًّا بِذَلِكَ الْمَغَاضِبِ
فَلَوْلَايَ كَانَتْ فِيهِ لِحْدَى الْعَجَائِبِ

قال : وقلت بغرناطة :

بَاكِرِ الْهَوَى وَمَنْ شَاءَ عَتَبَ
مَا تَوَانَى مَنْ رَأَى الزَّهَرَ زَهَا
وَشَدَاهُ صَانَهُ حَتَّى اغْتَدَى
يَا نَسِيمًا عَطَرَ الْأَرْجَاءَ ، هَلْ
هُمْ أَعْلَوْهُ وَهُمْ يَشْفُونَهُ
خَلَعَ الرُّوْضُ عَلَيْهِ زَهْرَهُ
فَأَبَى إِلَّا شَدَاهُ^٢ فَانْثَى
لَسْتُ ذَا نَكْرٍ لِأَن يُشْبِهَكُمْ
لَا يَلْدُ الْعَيْشُ إِلَّا بِالطَّرَبِ
وَالصَّبَا تَمْرُحُ فِي الرُّوْضِ خَبَبِ
بَيْنَ أَيْدِي الرِّيحِ غَضْبًا يُنْتَهَبِ
بَعَثُوا ضَمْنَكَ مَا يَشْفِي الْكَرْبَ ؟
لَا شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَاكَ الْوَصَبِ !
حِينَ وَافَى مِنْ ذَرَاكُمْ فِعْلَ صَبِّ
حَامِلًا مِنْ عَرَفِهِ مَا قَدْ غَضِبَ
مَنْ بَعَثَ ، غَيْرُ ذَا مِنْهُ الْعَجَبِ

١ من قول أبي تمام :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض المطايا في سواد المطالب

٢ ج : ثناه .

غَالِبَ الْأَغْصَانِ فِي بَدَأْتَهُ ثَمَّ لَمَّا زَادَ أُعْطِيَتْهُ الْغَلَبُ
 فَبَكَى الطَّلُّ عَلَيْهَا رَحْمَةً أَوْ بَكَى مِنْ وَعْظِ طَيْرٍ قَدْ خَطَبَ
 كُلُّ هَذَا قَدْ دَعَانِي لِلَّتِي مَلَكَتْ رَقِيٍّ عَلَى مَرِّ الْحَقَبِ
 قَهْوَةً أَبْسُمُ مِنْ عُجْبٍ لَهَا عِنْدَمَا تَبَسُّمُ عُجْبًا عَنْ حَبِّ
 حَاكَتِ الْخَمْرَ فَلَمَّا شُعْشَعَتْ قُلْتُ مَا لِلخَمْرِ بِالمَاءِ التَّهَبِ
 وَبَدَتْ مِنْ كَأْسِهَا لِي فَضَّةٌ مَلَّتْ إِذْ جَمَدَتْ ذَوْبَ الذَّهَبِ
 سَقْنِيهَا مِنْ يَدَيَّ مِثْلَهَا بِالَّذِي يَحْوِيهِ طَرْفٌ وَشَنَبِ
 لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ نُقْلِي غَيْرَ مَا لَدَّ لِي مِنْ رَيْقٍ تُغْرِ كَالضَّرَبِ
 لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ رِيحَانِي سِوَى مَا بِخَدَّيْهِ مِنَ الْوَرْدِ انْتَحَبِ
 لَمْ أَزَلْ أَقْطَعُ دَهْرِي هَكَذَا وَكَذَا أَقْطَعُ مِنْهُ الْمُرْتَقَبِ
 حَبْدًا عَيْشٌ قَطَعْنَاهُ لَدَى مَعْطَفِ الْخَابُورِ مَا فِيهِ نَصَبِ
 مَعَ مَنْ لَمْ يَدِرْ يَوْمًا مَا الْخُفَا مَنْ أَرَاكَ الصَّبَّ فِيهِ مِنْ تَعَبِ
 كُلُّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ حَسَنٌ لَمْ يُذَقْنِي فِي الْهَوَى مَرُّ الْغَضَبِ
 أَيُّ عَيْشٍ سَمَحَ الدَّهْرُ بِهِ كُلُّ نَعْمَى ذَهَبَتْ لَمَّا ذَهَبِ

قال : ودخلتُ بتونس مع أبي العباس الغساني^١ حماماً ، فنظرنا إلى غلمان
 في نهاية الحسن ونُعومة الأبدان ، فقلت مخاطباً له :

دَخَلْتُ حَمَامًا وَقَصْدِي بِهِ تَعِيمُ جِسْمٍ فَقَدَا لِي عَذَابُ
 قَلْتُ لَطْفِي فَاعْتَرَضَتْ حُورُهُ وَقُلْتُ عَدْنٌ فَنَهَانِي التَّهَابُ
 وَأَنْتَ فِي الْفَضْلِ إِمَامٌ فَكُنْ فِي الْحُكْمِ مِمَّنْ حَازَ فَضْلَ الْخَطَابِ

فقال :

لَا تَأْمَنِ الْحَمَامَ فِي فَعْلِهِ فَلَيْسَ مَا يَأْتِيهِ عِنْدِي صَوَابُ

١ ترجم له ابن سعيّد في القدح : ١٢ ، وكان كاتب العلامة عند المستنصر الحفصي وبينه وبين
 ابن سعيّد شيء كثير من المطارحات والرسلات نظماً ونثراً .

فما أرى أخذع منه ولا أكذب إلا أن يكون السراب
يُبدي لك الغيد كحور الدُمى ويلبس الشيخ برود الشباب
ظن به النار فلا جنة للحسن إلا ما حوته الثياب

* * *

[نقول عن ابن سعيد]

[١ - بناء الهودج بروضة مصر]

ومن فوائده ^١ ، أعني ابن سعيد رحمه الله تعالى - في كتابه « المحلى بالأشعار » ^٢
نقلاً عن القرطبي ^٣ - قضية بناء الهودج بروضة مصر ، وهو من منتهزات
الخلفاء الفاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة ، وذلك أنه يقال : إن الباقي له الخليفة
الآمر بأحكام الله ^٤ ، للبديعة التي غلب عليه حبها ، بجوار البستان المختار ،
وكان يتردد إليه كثيراً وقتل وهو متوجه إليه ، وما زال منتهزاً للخلفاء من بعده .
وقد أكثر الناس في حديث البدوية وابن مبيّاح من بني عمها ، وما يتعلق
بذلك من ذكر الأمر ، حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كحديث البطال
وَألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك ، والاختصار منه أن يقال : إن الأمر قد كان
بلي بعشق الجوّاري العربيات ، وصارت له عيون في البوادي ، فبلغه أن بالصعيد
جارية من أكمل العرب وأظرفهم ، شاعرة جميلة ، فيقال : إنه تزياً بزى بُداة

-
- ١ ورد هذا الخبر في المقتطفات ، الورقة : ٩ ، والمخطوط ٢ : ٣٧٦ .
٢ ذكره أيضاً المقرئ في المخطوط ٢ : ٣٧٦ ولعله يعني كتابه « القدر المحل في التاريخ
المحل » ، وهو يضم - فيما يبدو - أخباراً تاريخية أخرى عدا التراجم التي وردت في القسم
الباقى منه المسمى « اختصار القدر » .
٣ في قج ودوزي والمقتطفات : « القرطبي » والصواب ما أثبتته ، وهو محمد بن سعد أبو بكر القرطبي ؛
صنف كتاباً في تاريخ مصر في أيام العاضد وعنه ينقل ابن سعيد في القسم المصري من المغرب
(انظر ترجمته في المغرب ١ : ٢٦٧) .
٤ من متأخري الخلفاء الفاطميين (٤٩٥ - ٥٢٤) قام بأمره أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه ابن
بدر الجمالي .

الأعراب ، وكان يجول في الأحياء إلى أن انتهى إلى حبيها ، وبات هنالك ، ونحيل حتى عاينها هناك ، فما ملك صبره ، ورجع إلى مقر ملكه ، وأرسل إلى أهلها بخطبها ، وتزوجها ، فلما وصلت إليه صَعِبَ عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ، ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة ، فبنى لها البناء المشهور في جزيرة القُسطاط المعروف بالهودج ، وكان غريب الشكل ، على شط النيل ، وبقيت متعلقة الخاطر بآبن عم لها رُبِّيتْ معه ، يُعرف بآبن مِيّاح ، فكتبت إليه من قصر الآمر :

يا ابن مِيّاح إليك المشتكى	مالك ^١ من بعدكم قد ملكا
كنتُ في حبي طليقاً آمراً	ناثلاً ما شئتُ منكم مدركا
فأنا الآن بقصرٍ موصدٍ	لا أرى إلاّ حبيساً ^١ ممسكا
كم تشنينا كأغصان اللوى	حيثُ لا نخشى علينا دَرَكا ^٢

فأجابها بقوله :

بنت عمي والتي غَدَيْتُها	بأهوى حتى علا واحتنكا ^٣
بُحْتُ بالشكوى وعندي ضِعْفُها	لو غدا يَنْفَعُ مِنّا المُشْتكى
مالك ^٤ الأمرِ إليه يَشْتكى	هالك ^٥ ، وهو الذي قد أهلكا

قال : وللناس في طلب ابن مِيّاح واختفائه أخبار تطول .
وكان من عرب طيء في عصر الآمر طراد بن مهلهل ، فقال وقد بلغته هذه الأبيات :

١ ج ودوزي : خيئاً .

٢ سقط من ج .

٣ ق ودوزي : واحتبكا .

٤ ج : ملك .

ألا بلغوا الأمر المصطفى مقال طراد ونعم المقال
 قطعت الألفين عن ألفه بها سمر الحى حول الرجال
 كذا كان آباؤك الأكرمون ؟ سألت فقل لي جواب السؤال

فقال الخليفة الأمر لما بلغته الأبيات : جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله ،
 فطلب في أحياء العرب فلم يوجد ، فقل : ما أخسر صفقة طراد ، باع عدة
 أبيات بثلاثة أبيات .

* * *

[٢ - مكين الدولة ابن حديد]

وكان بالإسكندرية^١ مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد
 ابن الحسن بن حديد ، له مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء
 فيه أمداح كثيرة ، ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصلت وغيرهما ، وكان
 له بستان يتفرج فيه ، به جرن كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه
 الماء فيبقى كالبركة من كبره ، وكان يجد في نفسه برؤيته^٢ زيادة على أهل
 التمتع والمباهاة في عصره ، فوشى به البدوية محبوبة الأمر ، فسألت الأمير في
 حمل الجرن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد في إحضار الجرن ، فلم يجد بداً من
 حمله من البستان ، فلما صار إلى الأمر أمر بعمله في المودج [وتركه هنالك]^٣ ،
 فقلق ابن حديد ، وصارت في قلبه حزازة^٤ من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية
 وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد في الكثرة ، حتى قالت
 البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمراً نقدر عليه عند

١ هذا الخبر في المقتطفات (الورقة : ١٠) والمقرزي ٢ : ٣٧٧ .

٢ المقتطفات : وكان كمن يجد في نفسه برؤيته له .

٣ زيادة من المقتطفات .

٤ ق : حرارة .

الخليفة مولانا ، فلما قيل له عنها هذا القول قال : ما لي حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها في عزٍّ غير رَدِّ السَّقِيَّةِ التي قُلِّعَتْ مِنْ دَارِي التي بَنَيْتُهَا فِي أَيَّامِهِمْ مِنْ نِعْمَتِهِمْ^١ تُرَدُّ إِلَى مَكَانِهَا ، فَتَعَجِبُ مِنْ ذَلِكَ ، وَرَدَّتْهَا عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ : قَدْ حَضَلْتَ فِي حَدِّ أَنْ خَيْرَ تَرْكِ الْبُدْوِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْمَطَالِبِ^٢ ، فَتَزَلْتَ هِمَّتَكَ إِلَى قِطْعَةِ حَجَرٍ ، فَقَالَ : أَنَا أَعْرِفُ بِنَفْسِي ، مَا كَانَ لَهَا أَمَلٌ سِوَى أَنْ لَا تُغْلَبَ فِي أَخْذِ ذَلِكَ الْحَجَرِ مِنْ مَكَانِهِ ، وَقَدْ بَلَّغَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَمَلَهَا .

وكان هذا المكين متولي قضاء الإسكندرية ونظرها في أيام الأمر ، وبلغ من علو همته وعظيم مروءته أن سلطان الملوك حَيَدَرَةُ أَخَا الْوَزِيرِ الْمَأْمُونِ ابْنِ الْبَطَّاحِيِّ لَمَّا قَلَّده الْآمِرُ ولاية نَغرِ الإسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وَأَضَافَ إِلَيْهَا الْأَعْمَالِ الْبَحْرِيَّةَ ، وَوَصَلَ إِلَى الثَّغْرِ - وَصَفَ لَهُ الطَّيِّبُ دَهْنَ الشَّمْعِ بِحَضْرَةِ الْقَاضِي الْمَذْكُورِ ، فَأَمَرَ فِي الْحَالِ بَعْضَ غُلَمَانِهِ بِالْمُضِيِّ إِلَى دَارِهِ لِإِحْضَارِ دَهْنِ الشَّمْعِ ، فَمَا كَانَ أَكْثَرَ مِنْ مَسَافَةِ الطَّرِيقِ إِلَّا وَقَدْ أَحْضَرَ حَقًّا مَخْتُومًا ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ فُوجِدَ فِيهِ مَنَدِيلٌ لَطِيفٌ مَذْهَبٌ عَلَى مَرَاقٍ^٣ بَلُورٍ فِيهِ ثَلَاثَةُ بَيْوتٍ كُلُّ بَيْتٍ عَلَيْهِ قُبَّةٌ ذَهَبٌ مَشْبُكَةٌ مَرَصَعَةٌ بِبَاقُوتٍ وَجَوْهَرٍ : بَيْتٌ دَهْنٌ مُمَسَّكٌ ، وَبَيْتٌ دَهْنٌ بِكَافُورٍ ، وَبَيْتٌ دَهْنٌ بَعْنَبَرٍ طَيِّبٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مَصْنُوعٌ لَوْقَتِهِ ، فَعِنْدَمَا أَحْضَرَهُ الرَّسُولُ تَعَجَّبَ الْمُؤْتَمِنُ وَالْحَاضِرُونَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، فَعِنْدَمَا شَاهَدَ الْقَاضِي ذَلِكَ بِالْبَغِّ فِي شِكْرِ إِنْعَامِهِ ، وَحَلَفَ بِالْحَرَامِ إِنْ عَادَ إِلَى مَلِكِهِ ، وَكَانَ جَوَابُ الْمُؤْتَمِنِ : وَقَدْ قَبِلْتَهُ مِنْكَ لَا لِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَا نَظَرَ فِي قِيَمَتِهِ ، بَلْ لِإِظْهَارِ هَذِهِ الْهِمَّةِ وَإِذَاعَتِهَا ، وَذَكَرَ أَنَّ قِيَمَةَ هَذَا الْمُدَّافِ وَمَا عَلَيْهِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ .

فَانْظُرْ ، رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى ، إِلَى مَنْ يَكُونُ دَهْنُ الشَّمْعِ عِنْدَهُ فِي إِثْنَاءِ قِيَمَتِهِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ ، وَدَهْنُ الشَّمْعِ لَا يَكَادُ أَكْثَرَ النَّاسِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَمَاذَا تَكُونُ ثِيَابُهُ

١ المقتطفات : من يستاني الذي أنشأته من نعمتهم .

٢ المقتطفات : في ما تطلب .

٣ ق : مداق .

وحلّى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات ؟ وهذا إنما هو حال قاضي الإسكندرية ومن قاضي الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة ؟ ! وما نسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبتهتها إلا يسير حقير .

وما زال الخليفة الأمر يتردد إلى الهودج المذكور إلى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ٥٢٤ يريد الهودج ، وقد كمن له عدة من التزارية^١ على رأس الجسر من ناحية الروضة ، فوثبوا عليه وأثخنوه بالجراحة ، وحُمل في العُشاري^٢ إلى اللؤلؤة^٣ ، فمات بها ، وقيل : قبل أن يصل إليه ، وقد خرب هذا الهودج ، وجُهل مكانه من الروضة ، والله عاقبة الأمور ، نقل ذلك كله الحافظ المقرئ^٤ ، رحمه الله تعالى .

• • •

[٣ - الشهاب التلعفري]

قال النور ابن سعيد ، ومن خطه نقلت : لما نزلنا بتلّعفر حين خرجنا من سنجار إلى الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد شهاب الدين التلعفري ، فقال : أنا أدركته ، وكان كثير التجول ، وأنشدني لنفسه في عيد أدركه في غير بلده :

يبتهجُ الناسُ إذا عَيَدُوا وعيندُ سرّائهمُ أكدُ
لأنّني أبصرُ أحبابهم ومُقلّتي محبوبها تفقيدُ

١ التزارية : هم الذين يرون تسلسل الإمامة في خلفاء الفاطميين حتى نزار بن المستنصر ولا يرون إمامة من بعده ، والتزارية تطلق في إمامة المستعلي ، وتضادها الفرقة المستعلية وهي ترى صحة خلافة المستعلي والأمر والحافظ . . . إلخ .

٢ العشاري : نوع من السفن ،

٣ اللؤلؤة : موضع نزاهة الخلفاء الفاطميين وقصورهم ، بناها الخليفة العزيز .

٤ انظر الخطط المقرئية ٢ : ٣٤٨ - ٣٥١ .

قال : وخرج ابنه الشهاب أجول منه شخصاً وشعراً ، وصدق فيما قاله .
وأنشد ابن سعيد للشهاب التلعفري ^١ :

لَكَ ثَغْرٌ كُلُّوْهُ فِي عَقِيْقٍ وَرُضَابٌ كَالشَّهْدِ أَوْ كَالرَّحِيْقِ
وَجُفُونٌ لَمْ يُمْتَشَقْ سَيْفُهَا لَ لَا لِمُعْرَى بِقَدِّكَ الْمَشْوِقِ
تِهَتْ عُجْبًا بِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الْحُسْنِ نِ جَلِيلٍ وَكُلِّ مَعْنَى دَقِيْقِ
وَتَفَرَّدَتْ بِالْجَمَالِ الَّذِي خَدَّ لَأَنَّكَ مُسْتَوْحِشًا بِغَيْرِ رَفِيْقِ
بِاللِّحَازِ الَّتِي بِيهَا لَمْ تَزَلْ تَرِ شَقُّ قَلْبِي وَبِالْقَوَامِ الرَّشِيْقِ
لَا تُغَيِّرْ بِالْغَوِيْرِ إِذْ تَتَشَنَّى فِيهِ أَعْطَافُ كُلِّ غَصْنٍ وَرَبِيْقِ
وَإِنَّ مَحْمَرًا وَرَدَّ خَدَّيْكَ وَاسْتَرِ هُ وَإِلَّا يَنْشَقُّ قَلْبُ الشَّقِيْقِ

قال ابن سعيد : وحظي الشهاب التلعفري بمُزَادَةِ الملوك ، وكونهم يقدمونه ،
وَيُقْبِلُونَ عَلَى شعره . وعهدي به لا ينشد أحدٌ قبله في مجلس الملك الناصر ،
على كثرة الشعراء ، وكثرة من يعتني بهم ، ولما جمعتُ للملك الناصر كتاب
« ملوك الشعر » جعلتُ ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة ،
فإنَّه كان كثيراً ما ينشده وينوه به . والتشقي من ذكر الشهاب ومحاسن شعره
له مكان بكتاب « الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة » وهو الآن عند الملك
المنصور صاحب حَمَاة قد عِلَّتْ سنُّهُ ، وما فارقهُ غرامه ودنَّته ، انتهى .

* * *

١ هو محمد بن يوسف بن سمعود بن بركة منسوب إلى تل أعفر أو تل يعفر (ثم تدغم الكلمتان)
ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وكان خليعاً محتجاً بالقمار أهلك فيه كل ما ناله من عطاء وكسب ،
توفي سنة ٦٧٥ هـ وديوانه مطبوع . (انظر ترجمته في الفوات ٢ : ٥٤٦ والنجوم الزاهرة ٧ :
٢٥٥ وشذرات الذهب ٥ : ٣٤٩ وتاريخ ابن الفرات ٧ : ٧٦ ومادة « تل أعفر » بمعجم
البلدان) .

ولما أجرى ابنُ سعيد في بعض مصنفاته ذكرَ الملك العادل بن أيوب^١ قال ما نصّه : وكان من أعظم السلاطين دهاء وحزماً ، وكان يُضرب به المثل في إفساد القلوب على أعدائه وإصلاحها له ، ويحكى أنه بشّره شخص بأن أميراً من أمراء الأفضل ابن صلاح الدين فسّد عليه ، فأعطاه مالاّ جزيلاً ، وأرسل مستخفياً إلى المذكور يزيده بصيرة في الانحراف عن الأفضل ، ويَعِدّه بما يفسد الصالح فكيف الفاسد ، قال : وكان يمنع حتى يوصف بالبخل ، ويجود في مواضع الجود حتى يوصف بالسّماح ، وكان صلاح الدين - وهو السلطان - يأخذ برأيه ، وقدّم له أحدُ المصنفين كتاباً مُصَوّراً في مكاييد الحروب ومنازلة المدن ، وهو حينئذ على عكّا محاصراً للفرنج ، فقال له : ما نحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر ، وكان كثير المُدَاراة والحزم ، ومن حكاياته في ذلك أن أحد الأشياخ من خَوَاصّه قال له يوماً ، وهو على سباطه يأكل : يا خُوند ، ما وفيتَ معي ولا رعبتَ سابق خدمتي ، وكلمه بدآلة السن وقِدَم الصحبة قبل الملك ، فقال لماليكه : انظروا وسطه ، فجسّوا الكَمَرانَ ؛ وقال : خذوا الصرة التي فيه ، فوجدوا صُرةً ، فقال : افتحوها ، ففتحوها فإذا فيها ذَرُور ، فقال العادل : كُلْ مِنْ هذا الذرور ، فتوقف ، وعلم أنه مُطَّلِع على أنه سم ، فقال : كيف نَسَبْتَنِي إلى قلة الوفاء ، وأنا منذ سنين أعلم أنك تريد أن تسمي بهذا السم ، وقد جعل لك الملك الفلاني على ذلك عشرة آلاف دينار ، فلا أنا أمكنتك من نفسي ، ولا أشعرتك ، لئلا يكون في ذلك ما لا خفاء به ، وتركتك على

١ هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي ، ولد سنة ٥٣٩ هـ واشترك في معظم الأعمال الحربية التي قام بها أخوه صلاح الدين ، فأعطاه مصر ثم حلب ثم الشرق والكرك والشوبك ، ثم جرت بينه وبين أولاد أخيه خطوط ، فملك دمشق سنة ٥٩٢ هـ ، وملك مصر سنة ٥٩٦ هـ وامتد ملكه على مناطق واسعة وتوفي سنة ٦١٥ هـ ؛ وأخباره مشروحة في تاريخ ابن الأثير ومفرج الكروب ومراة الزمان وغيرها .

حالك ، وأنا مع هذا لا أُغَيِّر عليك نعمة ، ثم قال : ردوا سمه إلى كَرَّانِه ، لا أبقي الله تعالى عليه إن قدر وأبقى علي ، فجعل يقبِّل الأرض ويقول : هكذا والله كان ، وأنا تائب لله تعالى ، ثم إن الشيخ جدَّد توبة ، واستأنف أدباً آخر وخدمة أخرى ، وكانت هذه الفعلة إحدى عجائب العادل .

قال : وكان كثير المصانعات حتى إنه يَصُوغ الحلي الذي يصلح لنساء الفرنج ويُوَجِّه في الخفية إليهنّ ، حتى يمكن أزواجهنّ عن الحركة ، وله في ذلك مع ملوك الإسلام ما يطول ذكره .

ولما خرج ابنُ أخيه المعز إسماعيل بن طغتكين^١ باليمن ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وكتب له أن يبایعه ويخطب له في بلاده ، كان في الجماعة مَنْ أشار إلى النظر في توجيه عسكر له في البر والبحر ، وإنفاق الأموال قبل أن يتفاهم أمره ، فضحك وقال : مَنْ يكون عقله هذا العقل لا يحوج خصمه إلى كبير مؤونة ، أنا أعرف كيف أفسد عليه حاله في بلاده ، فضلاً عن أن يتطرق^٢ فساد له لبلادي ، ثم إنه وجّه في السر لأصحاب دولته بالوعد والوعيد وقال لهم : أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لي ، فكيف يسوغ له ؟ وقد أدخل نفسه في أمر لا يخرج منه إلا بهلاكه ، فاحذروا أن تهلكوا معه ، واتعظوا بالآية ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ ﴾ (هود : ١١٣) وما لهذا عقل يدبر به نفسه ، فكيف يفضل عن تدبير خاصته إليكم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص : ٨٨) فعندما وعت أسماؤهم هذا وتدبروه بعقولهم قبضوا عليه وقتلوه ، وعادت البلاد للعادل ، وقال للمشيرين عليه في أول الأمر بتجهيز العسكر : قد كُفِينَا المؤونة بأيسر شيء من المال ، ولو حاولناه بما أشرتم به لم تقم خزائن ملكنا بالبلوغ إلى غايته .

١ ق : طغتكين ؛ ج : طغرلكين .

٢ ج : يطرق .

وكان - على ما بلغه من عظمة السلطان ، واتساع الممالك - يحكي ما جرى له في زمان خلوة من ذلك ، ويجب الاستماع لنوادر أنذال العالم ، واشتهر في خدمته مسافر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغوطة دمشق ؛ ومن نوادره الحارة معه أنه سمعه يوماً وهو يقول في وضوئه : اللهم حسبي حساباً يسيراً ، ولا تحاسبني حساباً عسيراً ، فقال له : يا خوندُ على أي شيء يحاسبك حساباً عسيراً ؟ إذا قال لك : أين أموال الخلق التي أخذتها ؟ فقل له : تراها بأمانتها في الكرك ، وكان قد صنع بهذا المعقل الحشرات ، سميت بذلك لأن من رآها ، يتحسر إذا نظرها ، ولا يستطيع على شيء منها بحيلة ، وهي خواب مفروغة من ذهب وفضة تركت بمرأى من الناظرين ليشتهر ذلك في الآفاق . وقال العادل مرة ، وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم ممن ذكر في كتاب « المستجد في حكايات الأجواد » : إنما هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الأموال ، فقال خضير : يا خوند ، ولأي شيء لا يكذبون عليك ؟ قال ابن سعيد : من وقف على حكايات أبي العيشاء مع عبّيد الله بن سليمان يجد مثل هذه الحكاية .

قال ابن سعيد : ووجدت الشهاب القوصي قد ذكر السلطان العادل في كتاب « [تاج] المعاجم »^١ وأبتدأ الكتاب المذکور بمحاسنه والثناء عليه وخرّج عنه الحديث النبوي عن الحافظ السلفي ، وتمثّل فيه عند وفاته^٢ :

١ في ق ج ودوزي : المعاجم ، واسم الكتاب « تاج المعاجم » كما سيرد بعد قليل ؛ ومؤلفه هو إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي القوصي الملقب بشهاب الدين ، وكنيته أبو الطاهر وأبو العرب وأبو المحامد وأبو الفداء ، نزل دمشق وجمع لنفسه نفعاً في أربع مجلدات وسماه « تابع المعاجم » وذكر فيه من لقيه من المحدثين ، وتوفي بدمشق ٦٥٣ (الطالع السعيد ٨١ - ٨٢) .

٢ مر البيهقي الثاني والثالث في مقدمة النفع ج ١ : ١٤ .

أَلَامُ عَلَى بُكَائِي خَيْرَ مَلَكٍ وَقَلَ لَهُ بُكَائِي بِالنَّجِيمِ
بِهِ كَانَ الشَّبَابُ جَمِيعَ عُمُرِي وَدَهْرِي كُلَّهُ زَمَنَ الرَّبِيعِ
فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زَمَنٌ خَوْونٌ لَهُ شَعَفٌ بِتَفْرِيقِ الْجَمِيعِ

قال ابن سعيد : ودفن العادل بالمدرسة العادلية بدمشق ، وكان أنشأها
للشافعية ، وهي في نهاية الحسن ، وبها خزانة كتب ، فيها تاريخ ابن عساكر ،
وذيّل هذا التاريخ واختصره أبو شامة ، سمعت عليه منه هنالك ما تيسر أيام
إقامتي بدمشق .

وأولاد العادل ملوك البلاد في صدر هذه المائة السابعة ، منهم الكامل والمعظم
والأشرف ، وهؤلاء الثلاثة شهرُوا بالفضل وحب الفضلاء وقول الشعراء ،
انتهى .

* * *

[٥ - المزدغاني]

وقال ابن سعيد ، في ترجمة الرئيس صفى الدين أحمد بن سعد المزدغاني ^١ ،
وهو من بيت وزارة ورياسة بدمشق : إن من شعره قوله :

كَيْفَ طَابَتْ نَفُوسُكُمْ بِفِرَاقِي وَفِرَاقُ الْأَحْبَابِ مُرٌّ الْمَدَاقِ
لَوْ عَلِمْتُمْ بِلَوْعَتِي وَصَبَابَا نِي وَوَجْدِي وَزَفَرْتِي وَاحْتِرَاقِي
لَرَتَيْتُمْ لِلْمُسْتَهَامِ الْمَعْنَى وَوَفَيْتُمْ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ

قال ابن سعيد : وقفت على ذكر هذا الرئيس في كتاب « تاج المعاجم »
ووجدت صاحبه الشهاب القوسي قد قال : أخبرني بدمشق أنه قد كان عزم
على السفر منها إلى مصر ، لأمر ضاق به صدره ، فهتف به هاتف في النوم ،
وأنشده :

١ لم أستطع التثبت من ضبط هذه النسخة ، وفي بعض الأصول : المزدغاني ، والبردغاني .

يا أحمدُ اقْنَعْ بالذي أُعْطِيَتْهُ إنْ كُنْتُ لا تَرْضَى لنفسك ذُلَّهَا
وَدَعْ التكاثر في الغنى لمعاشر أضْحَوْا على جَمْعِ الدراهم وَلُتْهَا
واعْلَمْ بأنَّ اللهَ جلَّ جلالُهُ لم يَخْلُقْ الدنيا لأجلِكَ كُلَّهَا
فانثني عزمه عن الحركة ، ثم بلغ ما أمَّله دون سفر .

* * *

[٦ - دفترخوان دمشقي]

وقال ابن سعيد ، في ترجمة المنتجب أحمد بن عبد الكريم الدمشقي المعروف بدِفْتَرِخْوَان^١ ، وهو الذي يقرأ الدفاتر بين أيدي الملوك والأكابر^٢ : إنَّه كان يقرأ الدفاتر بين يدي العادل بن أيوب ، وكان يكتب له بالأشعار في المواسم والفصول ، فينال من خيره ، وكتب له مرَّةً وقد أظَلَّ الشتاء في دمشق فقال :

مَوْلَايَ جاءَ الشتاءُ والكيسُ منها خَلَاءُ
لا زَالَ يَجْرِي بما تَرَّ تَضِي عُلَاكَ الْقَضَاءُ
وكلُّ كافٍ إِلَيْهِ يُحْتَاجُ فِيهِ التَّوَاءُ^٣

فقال له العادل : هذا الضمير الذي في البيت الأول على ماذا يعود ؟ قال : بحسب مكارم السلطان ، إن شئت على الدراهم ، وإن شئت على الدنانير ! فضحك وقال : هات كيسك ، فأخرج له كيساً يسع قدر مائة دينار ، فملأه

١ ترجمته في الوافي : ٧ الورقة : ٣٧ ولقبه منتجب الدين ؛ وبعد خدمته للعادل وشى به الحساد لديه فحرمه وهجره ، وتوفي دفترخوان سنة ٦١٥ بعد وفاة العادل ، وكان العادل قد رضي عنه قبل وفاته ؛ وقد نقل الصفدي ترجمته عن معجم الشهاب القوصي .
٢ قال الصفدي في تعريف دفترخوان : « هو الذي يتحدث في أمر الكتب المجلدات ويكون أمرها راجعاً إليه ، وهو الذي يقرأ على السلطان فيها ، إما ليلاً وإما نهاراً ، يناديه بذلك » .
٣ يشير إلى كافات الشتاء : كالكن والكيس والكانون . . . إلخ وقد جمعها ابن سكرة في بيت واحد .

له ، وقال : أظنّه كان مُعَدّاً عندك ، فقال : مثل السلطان مَنْ يكون جوده
مظنوناً .

وكتب إليه مرّة وقد أملق^١ :

انظر إليّ بعين جُودِكَ مرّةً فلعلّ محروم المطالب يُرزقُ
طيرُ الرجاء على عِلاكُ^٢ محلّق وأظنّه سيعود وهو مخلّقُ

فأعطاه جملة دنائير ، وقال له : اشترِ بهذه ما تخلّق به طير رجائك ، انتهى .

* * *

[٧ - الزناطي وابن الرّيب]

وأنشد ابن سعيد رحمه الله تعالى لبعض المغاربة ، وهو أبو الحسن علي بن
مروان الزناطي^٣ الكاتب :

أنسُ أخِي الفضل كتابٌ أنيقٌ أو صاحبٌ يُعنى بوَدٍّ وثيقٌ
فإن تُعِرّه دونَ رَهْنٍ به تخسّره أو تخسّر وداد الصديق
وربّما تخسّر هذا وذا فاسمّع رعاكَ الله نُصَحَ الشفيق

قال : وأجابه المخاطب بهذه الأبيات ، وهو ابن الرّيب^٤ ، بنثر نصّه :

١ البيتان في الوافي للصفدي .

٢ الوافي : إلى علاك .

٣ كذا في ق ج ودوزي ؛ وفي نسخة : الرباطي .

٤ ابن الرّيب : ينصرف هذا الاسم إلى الحسن بن محمد بن أحمد بن الرّيب القبرواني صاحب
الرسالة التي وجهها لأبي المغيرة ابن حزم يذكر له إهمال أهل الأندلس في تقييد أخبارهم ومآثرهم
(وستأتي في الباب السادس) ؛ وقد ترجم العمري لابن الرّيب وسماه الحسين بن محمد (المسالك
١١ : ٣١٩) وقال فيه : « ولو قرن به البلاذري لعصفت به ريحه النكباء فذري » فدل على
أنه مؤرخ ؛ ويؤكد هذا ما نقله عن أنموذج ابن رشيّق من أن ابن الرّيب « بلغ نهاية من الأدب
وعلم النسب » ، ولكنني لست أقطع يقيناً بأنه المعني في هذا المقام لأنني لم أستطع تحديد الزمن الذي
عاش فيه معاصره علي بن مروان .

مثلك يُفِيد تجربة قد نفق عليها عمر ، وضل عن فوالدها غيرَ غُمر ، وقد
أنفذت رهناً لا يسمح بإخراجه من اليد إلا ليدك ، فتفضل بتوجيه الجزء الأول ،
فأنا أعلم أنه عندك مثل ولدك ، قال : فوجهه ومعه بطاقة صغيرة فيها : يا أخي ،
إن عرّضت بولدي فكذلك كنت مع والدي وقد توارثنا العقوق كابراً عن كابر ،
فكن شاكراً فإنني صابر .

ثم قال ابن سعيد : وتفاقم أمر ولده فقَيِّده بقيد حديد وقال فيه :

لي وَلَدٌ يا لَيْتَهُ لم يَتَكُ عِنْدِي بِمُخْلِقُ
يَجْهَدُ في كل الذي يرغمُ وهو يَعْشَقُ
وإن أكن قَيِّدَتُهُ دَمْعِي عَلَيْهِ مُطْلَقُ

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيراً ما يستعير الكتب ،
فإذا طُلبت منه فكأنها ما كانت ، فذكر لبعض أصحابه — وهو ابن الربيب
المؤرخ — أن عنده نسخة جليلة من تاريخ عَرِيب^١ الذي لخص فيه تاريخ الطبري
واستدرك عليه ما هو من شرطه وذيل ما حدث بعده ، فأرسل إليه في استعارتها ،
فكتب إليه : يا أخي ، سَدَّدَ الله آراءك ، وجعل عقلك أمامك لا وراءك ،
ما يلزمي من كونك مُضَيِّعاً أن أكون كذلك ، والنسخة التي رُمّت إعارتها
هي مؤنسي إذا أوحشني الناس ، وكاتم سرتي إذا خانوني ، فما أعيرها إلا بشيء
أعلم أنك تتأذّى بفقدته إذا فقد جزء من النسخة ، وأنا الذي أقول :

١ هو عريب بن سعد القرطبي من بيت من الموالي يعرفون ببني التركي ، كان أديباً شامراً تاريخياً ،
أضاف إلى تاريخ الطبري بعد أن اختصره « أخبار إفريقية والأندلس » وقد نشر له ملحق
بتاريخ الطبري عرف باسم « صلة عريب » ولكنه لا يمثل الإضافة التي قام بضمها إلى تاريخ
أبي جعفر ، وله من الكتب كتاب الأنواء ، نشره دوزي باسم « التقويم القرطبي » ، وأورد
له النماذجي شمرأ في البيضة ٢ : ٥٢ وهو أحد الذين ذكرهم ابن فرج في كتاب المدايق
(النظر الذيل والتكملة ٥ : ١٤١ - ١٤٣) .

أنسُ أخِي الفضل كتاب أنيق

إلى آخره .

وأنشد للكاتب أبي الحسن المذكور :

إنَّ ذاك العِذار قام بِعُذْرِي وقشاً فيه للعَوَادل سِرِّي
ما رأينا من قبل ذلك مسكاً صاغ مِنه الإلهُ هالَةً بَدْرِي
أيُّ آسٍ مِن حَوْلِ جَنَّةٍ وردٍ ليس مِنه آسٍ مَدَى الدهرِ يُبرِي

ولما اشتد مرضه بين تِلِمِسان وفاس قال هذه الأبيات ، وأوصى أن تُكتب

على قبره :

ألا رَحِمَ الله حَيًّا دعا لَمِيتٍ قَضَى بِالْفِلا نَحْبُهُ
تَمَرُّ السَّوافي على قبره فتَهْدِي لِأَحبابِهِ تَرْبُهُ
وليس له عَمَلٌ يُرْتَجَى وَلَكِنَّهُ يَرْتَجَى رَبَّهُ

رجع إلى نظم ابن سعيد المترجم به ، فنقول :

وقال لما سار المعظم من حصن كيفا ، وآل أمره إلى الملك ، ثم القتل والهلك :

لَبِيتَ المعظمَ لَمْ يَسِرْ مِنْ حِصْنِهِ يَوْمًا وَلَا وافي إلى أَملاكِهِ
إِنَّ العِناصِرَ^٢ إِذْ رَأَتْهُ مُكْمَلًا حَسَدَتْهُ فَاجْتَمَعَتْ عَلَى إِهْلَاكِهِ

ومما نقلته من ديوانه الذي رتبته على حروف المعجم قوله ، رحمه الله تعالى

— وقلتُ بالقاهرة على لسانٍ من كلَّفني ذلك :

شرفَ الدين أبينَ لي ما السَّبَبُ في انقِلابِ الدهرِ لي عندَ الغُضْبِ

١ انظر اختصار القدح : ٨ .

٢ القدح : الطبايع .

فَلْتَدُمْ غَضْبَانَ أَظْفَرَ بِالْمُنَى لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَرْبٍ
إِنَّمَا ظَهَرْتُكَ عِنْدِي قِبَلَهُ وَوُضُوئِي الدَّهْرَ مِنْ ذَاكَ الشَّنْبِ

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلِ الْكَذِبِ ، قال : وقلت بإشيلية :

قَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَالصَّبْحُ لَمَّا رَضِيَتْ « صُبْحُ »
فَهَنَّتُونِي بَارْتِجَاعِ الْمُنَى لَوْلَا الرِّضَى مَا بَرَحَ الْبَرْحُ
يَا أَوْرَقًا يَا غُصْنًا يَا نَقًّا يَا ظِيَّةً بِاللَّيْلِ يَا صَبْحُ
يَصْحُو جَمِيعُ النَّاسِ مِنْ سَكْرِهِمْ وَلَسْتُ مِنْ سَكْرِكُمْ أَصْحُو
بَلِغْتُ فِيهِ غَايَةَ لَمْ يُبَيِّنْ غَايَتَهَا التَّفْسِيرُ وَالشَّرْحُ
وَيَنْصَحُ الْعَذَالُ ، مَنْ لِي بَأَن يَعْذِلُنِي عَنْ غَيْكِ النَّصْحُ

وقلت بإشيلية :

وَصَحَّ الصَّبْحُ فَأَيْنَ الْقَدَحُ يَعْرِفُ اللَّذَاتِ مَنْ يَصْطَبُحُ
مَا تَرَى اللَّيْلَ كَطَرَفِ أَدْهَمِ وَضِيَاءُ الْفَجْرِ فِيهِ وَصَحُ
وَالثَّرَى دَبَّجَهُ دُرُّ النَّدَى وَعَلَى الْأَغْصَانِ مِنْهُ وَشُحُ
وَمَدِيرُ الرَّاحِ لَمْ يَعْدُ الْمُنَى كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ مُقْتَرَحُ
فِي بَطَاحِ الْمَرْجِ قَدْ نَادَمَنِي رَشًا مِنْ سَكْرِهِ يَنْبَطُحُ
جَعَلَ الْمَسَاوِكَ سِرًّا لِلْمُنَى فَكَأَنَّ قَبْلَ فَاهُ قُرْحُ
كَلَّمَا شَتَّتُ الَّذِي قَدْ شَاءَ فَحَنَى لِي كَاسَهُ أَفْتَحُ
مَا أَبَالِي أَنْ رَأَيْتُ كَاشِحُ أَمْ رَأَيْتُ مَنْ لَدَيْهِ نَصْحُ
هَكَذَا الْعَيْشُ وَدَعُ عَيْشَ الَّذِي خَافَ مِنْ نَقْدِهِ إِذَا يَفْتَضُّعُ

وقلت بشريرش :

طَابَ الشَّرَابُ لِمَعْشَرِ سَلَبُوا الْمَرْوَةَ فَاسْتَرَا حَا

لا يعرفون تستراً السكرُ عندهم مُباحُ
 متهتكون لدى المني وفسادهم فيها صلاحُ
 ساقِيهمُ متبذّلُ هل يُمنعُ الماءُ القراحُ
 غُصنُ يميلُ به الصبا رَدَّتْهُ طَوْعَ الراحِ راحُ
 طَوْعُ الأمانِي ، كلُّ ما يأتي به فهو اقتراحُ
 ما إن نبالي إن بدا أن لا يلوح لنا الصباحُ
 ما زلتُ أرشِفُ ثَغْرَهُ وعليه من عَضْدِي وشاحُ
 والقلبُ يَهْفُو طائراً ولعاً ولا يُخشي اقتضاحُ
 ولو آتانا نخشاهُ كما ن لنا من الظلِّما جناحُ
 لكننا في عصبية ما في تهتكهم جناحُ
 لا يُنكرون سوى ثقي ل لا يميلُ به مزاحُ
 أفى الذي قد جمعو هُ الكأسُ والحَدَقُ الملاحُ

وقلت بأركش :

قُمْ هاتِها لاحَ الصبا ما العيشُ إلا الإصطباحُ
 معَ فتيةٍ ما دأبهم إلا المروءةُ والسَّماحُ
 جَرَّبَتْهُمْ فوجدتُهُم ما للمني عنهم بَرَّاحُ
 يَتْنِيهِمْ نحوَ الصبا نَقَرُ المثاني والمراحُ
 ما نادوا شخصاً فكأ ن لهم بخلمته استراحُ
 بلْ يعرفون مكانَهُ فلهُ إذا شاء اقتراحُ
 همُ يتعبونَ وضيْفُهُم ما دامَ عندهم يُراحُ
 ما إن يملّونَ التزُّ ل وبالرضى منه السراحُ

١ ج : طائماً .

يدعونه بأجل ما يدعى به الحرُّ الصَّراحُ
حتى إذا ما بان كدُّ رَ عيشهم منه انتراحُ
فعلی مثلهم يُبَا حُ لي المدامعُ والنواحُ
كرهاً فقدتهم فما لي بعد بعدهم ارتياحُ
لله شوقي إن هفت من نحو أرضهم الرياحُ
فهناك قلبي طائر لهم ومن شوقي جناحُ

قال : وقلت بمدينة ابن السليم^١ في وصف كلبٍ صيد أسود في عنقه
بياض :

وأدهم دون حلتي ظل حالي كأن ليلاً يفلده صباحُ
يطير وما له ريش ولكن متى يهفو فأربعه جناحُ
تكل الطير مهما نازعته وتحسده إذا مرق الرياحُ
له الأخطأ مهما جاء سلك ومهما سار فهي له وشاحُ

قال : وقلت بنيل مصر :

يانيل مضر أين حمص ونهرها حيث المناظر أنجمُ تلتاحُ
في كل شطٍ للتواظير مسرحُ تدعو إليه منازحُ وبطاحُ
وإذا سبحت فلست أسبح خائفاً ما فيه تيارٌ ولا تمساحُ

قال : وقلت وقد حضرت مع إخوان لي بموضعٍ يُعرف بالسلطانية على نهر
إشبيلية وقد مالت الشمس للغروب :

رقَّ الأصيلُ فواصل الأقداحا واشرب إلى وقت الصباح صباحا

١ مدينة ابن السليم : اسم لمدينة شذونة ، وكان بنو السليم قد استوطنوها بعد خراب قلشانة فسميت
باسمهم (الروض المطار : ١٦٢) .

وانظرْ لشمسِ الأفقِ طائفةً وقد
فاظفرْ بصفوَ الأفقِ قبل غروبها
متعْ جفونك في الحديقة قبل أن
قلت بمُرْسِيَةٍ :

أقلقه وجدُهُ فَبَاحَا وزاد تبريحه فَنَاحَا
ورام يثني الدموعَ لَمَّا جَرَتْ فزادتْ له جمَاحَا
يا من جفا فارققنْ عليه مستعبداً لا يرى السراحَا
يكابدُ الموتَ كلَّ حينٍ لو أَنَّهُ ماتَ لاسَراحَا
يتزو إذا ما الرياحُ هَبَّتْ كأنَّهُ يَعشَقُ الرياحَا
يسألها عن ربوع حِمصٍ لَمَّا نَمَّا عَرَفُها وفَاحَا
كم قد بكى للحمام كيما يعيرةُ نحوها جَنَاحَا

قال : وخرجت مرة مع أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي^١ إلى مرج
الفضة بنهر إشبيلية فتشاركنا في هذا الشعر^٢ :

غيري يميلُ إلى كلامِ اللاحي ويمدُّ راحتهُ لغيرِ الراحِ
لا سيما والغصنُ يزهرُ زهرُهُ ويميلُ عطفَ الشاربِ المراتحِ
وقد استطارَ القلبُ ساجعُ أَيْكَةٍ من كلِّ ما أشكوهُ ليس بصاحِ

١ إبراهيم بن سهل من أشهر شعراء الأندلس في عصر الموحدين وهو صديق ابن سبيد وزميله أيام
الدراسة ، وسيرد جانب من أخباره في مواطن من نفح الطيب . (انظر ترجمته في المغرب ١ :
٢٦٤ واختصار القدح : ١٤٠ - ١٤١ والمسالك ١١ : ٤٧٣ وشذرات الذهب ٥ : ٢٤٤ ،
٢٩٦ والفوات ١ : ٤١ وهو ينقل عن تحفة القادم لابن الأبار) . وقد نشر ديوانه (دار
صادر : ١٩٦٧) عن نسخة خطية فيها كثير من شعره الذي لم ينشر من قبل ، وكتبنا دراسة
في حياته وشعره جعلناها مقدمة للديوان .

٢ انظر الأبيات في اختصار القدح : ٧٦ وديوان ابن سهل : ٩٢ والمسلك السهل : ٢٥٠ .

قَدْ بَانَ عَنْهُ جَنَاحُهُ عَجَباً لَهُ
 بَيْنَ الرِّيَاضِ وَقَدْ غَدَا فِي مَأْتَمٍ
 الْغَصْنُ يَمْرَحُ تَحْتَهُ وَالنَّهْرُ فِي
 وَكَأَنَّمَا الْأَنْشَامُ فَوْقَ جِوَانِهِ
 لَا غُرُوءَ أَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ أَسْطَرٌ
 فَلِذَا تَتَابَعَ مَوْجُهُ لِدِفَاعِهِ
 مِنْ جَانِحٍ لِلْعَجَزِ حِلْفِ جَنَاحٍ
 وَتَخَالَه قَدْ ظَلَّ فِي أَفْرَاحٍ
 قَصَفَ تَرْجِيهِ يَدُ الْأَرْوَاحِ
 أَعْلَامُ خَزَرٍ فَوْقَ سُمْرِ رِمَاحٍ
 لَمَّا رَأَتْهُ مُدْرَعاً لِكِفَاحٍ
 مَالَتْ عَلَيْهِ فَظَلَّ حِلْفَ صِيَاحٍ

قال : وقلت بمالقمة منشوقاً إلى الجزيرة الخضراء :

يَا نَسِيباً مِنْ نَحْوِ تِلْكَ النَّوَاحِي
 أَسَقَفْتَهَا الْغَمَامُ رِيّاً فَلَاحَتْ
 أَمْ جَفَّتْهُ فَصَيَّرَتْهُ هَشِيباً
 يَا زَمَانِي بِالْحَاجِبِيَّةِ إِنِّي
 آهٌ مِمَّا لَقِيتُ بِعَدَدِكَ مِنْ هَـ
 أَيْنَ قَوْمٌ أَلْفَيْتُهُمْ فَيْكَ لَمَّا
 تَرَكَوْنِي أَسِيرَ وَجَدٍ وَشَوْقٍ
 أَسْلَمُونِي لِلْوَيْلِ حَتَّى تَوَلَّوْا
 أَعْرَضُوا ثُمَّ عَرَضُونِي لَشَوْقٍ
 أَسْهَرُ اللَّيْلِ لَسْتُ أَغْنِي لَصَبْحٍ
 قَدْ يَدَا يُظْهِرُ النُّجُومَ حُلِيْباً
 مَسِيلاً سَرَّهُ مُنْعَمٌ بِالْ
 أَيُّهَا اللَّيْلُ لَا تَوْمَلْ خُلُوداً
 وَيَلُوحُ الصَّبَاحُ مَشْرِقَ نَوْرِ
 إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ بَدَأَ شَمْلِي
 حَالِكِ اللَّوْنِ شَبَهُ لَوْنِكَ فَاعْزُبْ
 كَيْفَ بَالَهُ نَوْرُ تِلْكَ الْبِطَاحِ
 فِي رِدَائِهِ وَمُتَرِّبٍ وَوَشَاحِ
 تَرَكَتُهُ تَذَرُوهُ هَوْجُ الرِّيحِ
 لَسْتُ مِنْ سَكْرِ مَا سُقِيتُ بِصَاحِي
 مَـ وَشَوْقٍ وَغَرَبَةٍ وَانْتِرَاحِ
 قَرَّبَ الدَّهْرُ آذَنُوا بِالرَّوَّاحِ
 مَا لَقَلْبِي مِنَ الْجَوَى مِنْ سَرَاحِ
 وَأَصَاخُوا ظُلْماً لِقَوْلِ النَّوَاحِي
 تَرَكَ الْقَلْبَ مُتَخَنّاً بِجِرَاحِ
 أَتَرَى النَّوْمَ ذَاهِباً بِالصَّبَاحِ
 وَهُوَ مِنْ لَبَسَةِ الصَّبَا فِي بَرَاكِ
 وَجُفُونِي مِنْ سُهُودٍ فِي كِفَاحِ
 عَنْ قَرِيبٍ يَمْحُو ظِلَامَكَ مَاكِ
 فِيهِ لِلْمُسْتَهَامِ بَدْءُ نَجَاحِ
 طَائِرٌ لَيْتَهُ بِغَيْرِ جَنَاحِ
 عَنْ عَيَانِي يَا شَبِهُ طَيْرٍ انْتِرَاحِ

وإذا ما بدا الصبح فما يش
به إلا لَوْنَ الخلود الملاح
وقلت بالجزيرة الخضراء :

قد رُفِعَتْ رايةُ الصُّباحِ تدعو الندامى للاضطِباحِ
فبادروا للصُّبُوحِ إِنِّي قد بعْتُ في غِيهِ صلاحِي
ولا تَميلُوا عن رَشْفِ نغْرِ وسمعِ شَدْوٍ وشُرْبِ راحِ
وأنتِ يا مَنْ يرومُ نُصْحِي قد يثسَّ القومُ من فلاحِي
فلمستُ أَصْغِي إلى نصيحِ ما نهَضتُ بالكُؤُوسِ راحِي

قال : وقلت أمدح ملك إفريقية وأهنته بقتل ثائر من زَنَاته يدعي أنه
من نسل يعقوب المنصور :

بَرَّحَ بي مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بَرَّاحٌ وَمَنْ رَأَى قَتْلِي حَلالاً مُباحٌ
مَنْ صَرَّحَ اللَّمْعُ^١ بِمُحِبَّتِي لَهُ وما لِقَلْبِي عن هواه مَرَّاحٌ
ظَنِي عِلْمْتُ الصُّبْحِ مَذْ صَدَّتِي وكيف لا يُعَدُّمُ وهو الصُّباحِ
مُورَدُ^٢ الخلدِ شَهِيُ اللَّمَى مُنَعَّمُ الرَّدْفِ جَدِيبُ الوُشاحِ
تَظَنُّهُ مِنْ قَلْبِهِ جَلْمَدًا وَمِنْهُ لِلْماءِ بِجَفْنِي انْسِباحِ
لَرَدْفُهُ أَضْعَفُ مِنْ صَبِّهِ ولم أَزَلْ مِنْ لِحْظِهِ في كَفاحِ
نَشْوانُ مِنْ رِيقَتِهِ عَرَبْدَتُ أَجْفَانُهُ بِالْمَرْهَفَاتِ الصُّفاحِ
فَها أَنبِي خَافَتُ مِثْلَ ما أَنَا أُسِيرُ مُشْخَنُ بِالْجِراحِ
يا قاتِلِي صَدًّا أَمَّا تَسْتَحْيِ أَنْ تَلْزِمَ الْبُخْلَ بَأَرْضِ السَّماحِ^٢
مَنْ ذا الَّذِي يَبْخُلُ في تُونسِ وَالْمَلْعُ فِيها صارَ عَذْبًا قَرَّاحِ
وَأَصْبَحَتْ أَرْجَاؤُها جَنَّةً مُبْيَضَّةَ الْأَبْراجِ خُضْرُ البَطاحِ

١ ق : صرح اللع ؛ وفي نسخة : صرح القلب .

٢ سقط من ق . وأثبتته دوزي في الحاشية .

لولا ندى يحى وتدبيره
لكن يده سحُب كلما
هذا وقد آمن من حلها
كم شئتوا من قبل تأميره
يا سائراً يَرْجُو بلوغ المني
وحية بالمدح فهو الذي
بالشرق والغرب غدا ذكره
ساعده السعد وأضحى له
وبسر الله له ملكه
وكل من كان على غيره
وكم جموح عندما قام بالأم
كف بكف للتدى والردى
حتى لقد أحسب من ساعده
قولوا ليعقوب فماذا جنى
قد أصبحا من فوق جذعين لا
واسأل عن الداعي الدعي الذي
أكان من صيره والدأ
شكراً لسعد لم يدع فرقة
راموا بلا جاه ولا محند
زناة بينكم فملككم
كفر ما قد متهم آخر
عهدي به في موكب الملك ما

ما برحت تغبر منها النواح
حلت بأرض حل فيها النجاج
وحفها من غربة وانتراح
وحكمت فيهم عوالي الرماح
باكر ذرا يحى وقل لا رواح
يهتز كالهندي حين امتداح
بعت من حمد وشكر جناح
آمال لا تجري بغير اقتراح
من غير أن يشهر فيه السلاح
ذا منعة أمسى به مستباح
رأى القهر فخلّى الجراح
بها معان وهي خرس فصاح
تجري على ما يرتضيه الرياح
وابن أبي حمزة ماذا استباح
يؤنسهم غير هبوب الرياح
حاول أمراً كان عنه انضراح
بزعمه أمل فيه فلاح
قد صبر الملك كضرب القيداح
ما حزت بالحق فكان افتضاح
عاجلكم نأثركم باجتياح
والخير لن يبرح للشر ماح
بينكم نشوان من غير راح

يَحْسَبُ أَنَّ الْأَرْضَ مَلِكٌ لَهُ
 غدا بَعَزَ الْمَلِكُ لَكِنَّهُ
 جَاءُوا بِهِ يَمْزِجُ فِي عِزِّهِ
 تَوَقَّعُوا فِي الْقَرَبِ مِنْهُ الرَّدَى :
 فَأَسْرَعُوا نَحْوَكُ يَبْغُونَ مَا
 فَغَادَرُوهُ جَانِباً غَدْرَهُ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مَا
 مِثْلُكَ لَا يَنْفَدُ مَا شَادَهُ
 لَا زَلَّ فِي عِزِّهِ وَفِي مُكِنَّتِهِ
 وَرَوْحُهُ مَلِكٌ لَسُمِرَ الرِّمَاحُ
 أَهْوَنُ مَمْلُوكٍ عَلَى الْأَرْضِ رَاحُ
 وَهُمْ أَزَالُوا عَنْهُ ذَاكَ الْمَرَّاحُ
 مِنْ صَحْبَةِ الْأَجْرِبِ يَخْشَى الصَّحَّاحُ
 عَوْدَتَهُمْ مِنْ عَطْفَةٍ وَالتَّمَّاحُ
 لَطَائِرُ الْبَيْنِ عَلَيْهِ نِيَّاحُ
 سَنَى لَكَ السَّعْدُ بِرَغَمِ التَّوَّاحُ
 فَلَسْتَ تَأْتِي الدَّهْرَ إِلَّا صِلَاحُ
 وَفِي سُرُورٍ دَائِمٍ وَانْفِصَاحُ

قال : وقلت ببنيونش موضع الفرجة بسببته :

اشربْ عَلَى بَنِيونشِ
 مَعَ فِتْنَةٍ مِثْلِ النُّجُومِ
 سَاقِيهِمْ مُتَبَذَلٌ
 كُلُّ يَمْدٍ يَمِينُهُ
 هَبُّوا عَلَيْهِ كَلِّمَا
 طَوَّعُ الْأَمَانِي كُلِّ مَا
 عَانَقْتُهُ حَتَّى تَرَكَ
 بَيْنَ السَّوَانِي وَالْبَطَاحِ
 مِ لَهُمْ إِذَا مَرُّوا جَمَاحِ
 لَا يَمْنَعُ الْمَاءَ الْقَرَّاحِ
 مَا فِي الَّذِي يَأْتِي جُنَّاحِ
 هَبَّتْ عَلَى الرُّوْضِ الرِّيحُ
 يَأْتِي بِهِ فَهُوَ اقْتِرَاحِ
 تُ بِخَصْرِهِ أَثَرَ الْوَشَاحِ

وقلت بإشيبيلية :

أَوْجُهُ صُبْحٍ أَمْ الصَّبَاحِ
 وَتَغْرُّهَا أَمْ نَظِيمُ دُرِّ
 وَقَدُّهَا أَمْ قَوَامُ غَصَنِ
 وَلَحْظُهَا أَمْ ظُلِّي الصَّفَاحِ
 وَرَيْقُهَا أَمْ سُلَافُ رَاحِ
 وَعَرَفُهَا أَمْ شَذَا الْبَطَاحِ

١ ق : لا ينفد ما شاء .

يا حَبْدَا زورةٌ تَأْتَتْ
فلم أُصدِّقْ بها سروراً
أما منعتِ السلامَ دهرًا
قالتُ : ألا فانسَ ما تَقْضَى
يا حَبْدَاها وقد تَأْتَتْ
زارتُ ومن نورها دليلُ
أخفتُ سُراها فباحَ نَشْرُ
وافتُ فأمنى فمي مُدامًا
كأنما بتُ بينَ روضِ
فبينما الشملُ في انتظامِ
فغادرتني ، فقلتُ : غدرًا ؟
ولتُ وما خِلْتُ مِن صَباحِ
مِنْهَا عَلَى غَفْلَةِ اللَّوْاحِ
وظَلْتُ نَشْوانَ دُونِ راحِ
ولا رسولُ سوى الرياحِ
فمن يَدْعُ ما مضى استراحِ
من دُونِ وعدٍ ولا اقتراحِ
والليلُ قد أسبلَ الجناحِ
لها بِعَرَفٍ فشا وفاحِ
وساعدايَ لها وشاحِ
والفصنِ والوردِ والأفاحِ
إذ سمعتُ داعيَ الفلاحِ
قالتُ : أما تحذِرُ افتضاحِ
يَبْلُو على لُثْرِهِ صَباحِ

قال : وقلت بتونس :

لا مَرَحَبًا بالتينِ لما بدا
مزقُ الجلبابِ بِحُكْمِي ضَحَى
وإن تُصَحِّفه فلا حَبْدَا
يَسْحَبُ من ليلٍ عليه الوشاحُ
هامةٌ زنجيَ عليها جراحُ
ما قد أتى تصحيفه بانتراحُ^١

وقلت بالجزيرة الخضراء ، وقد كُلِّفْتُ ذلك :

غرامي بأقوالِ العدا كيف يُنْسخُ
كلامُكم لا يدخلُ السمعَ نُصْحُهُ
وبي بَدْرٍ تَمَّ قَدْ ذَلَّتْ لِحْصُهُ
إذا خاصمونِي في هواهُ خَصَمَتْهُمْ
وعهندي وقد أَحْكَمْتُهُ كيف يُفْسخُ
ولكنْ إذا حَرَضْتُمْ فَهُوَ يَرْسخُ
فَمَنْ ذا الذي فيما أَتَيْتُ يوبِّخُ ؟
ويغون تنقيصي بذلك فَأُشْمَخُ

١ تصحيف « تين » ، « بين » أي فراق وانتراح .

أرى أن لي فضلاً على كل عاشقٍ فقَصَّتنا في الدهرِ ممّا يُورِّخُ
فمّا بَشَّرَ مثلُ له في جماله ووجدني به في العشقِ ليس له أخُ

وقلت بالإسكندرية ، وقد تعذّر عليّ الحجُّ عند وصولي إليها سنة تسع
وثلاثين وستمائة :

قربَ المزارُ ولا زمانٌ يُسعدُ كمّ ذا أقربُ ما أراه يَبعدُ
وإرحمةً لمتيمٍ ذي غربةٍ ومعَ التغرّبِ فاتهُ ما يَقصدُ
قد سار من أقصى المغربِ قاصداً من لدّ فيه مسيرهُ إذ يَجهدُ
فلكم بحارٍ معَ قفارِ جُبَّتْها تلقى بها الصمصامَ ذُعراً يرعدُ
كابدتها عَرَباً وروماً ، ليتني إذ جُزْتُ صعبَ صراطها لا أُطردُ
يا سائرينَ ليثربٍ بُلغْتُمُ قد عاقني عنها الزمانُ الآنكدُ
أعلمتُمُ أن طرتُ دون محلّها سبّقاَ وها أنا إذ تداني مُقعدُ
يا عاذلي فيما أكابدُ قلّ في ما أبْتَغيهِ صَبابةً وتسهدُ
لم تَلقَ ما لقيتُهُ فعدلتني لا يعذرُ المشتاقَ إلا مُكمدُ
لو كُنْتَ تعلمُ ما أرومُ دُنُوهُ ما كنتَ في هذا الغرامِ تُفندُ
لا طابَ عيشي أو أحلّ بطيبةٍ أفقُ به خيرُ الأنامِ محمدُ
صلى عليه من براهِ خيرةً من خلقهِ فهو الجميعُ المفردُ
يا ليتني بُلغْتُ لثَمَ تراه فيزاد سعاداً من بنعمي يسعدُ
فهنالك لو أعطى مُنايَ محلّةً من دونها حلّ السُها والفرقدُ
عيني شكّتُ رمداً وأنتَ شفاؤُها من دائها ذاك الثرى لا الإمدُ
يا خيرَ خلقِ الله مهما غيبتُ عن عليا مشاهداً فقلّبي يشهدُ
ما باختيارِ القلبِ يتركُ جسمهُ غيرُ الزمانِ له بذلك تشهدُ
يا جنةَ الخلدِ التي قد جثتُها من دون بابكِ للجحيمِ توقدُ
صرمَ التواصلِ ذُبُلٌ وصوارمُ ما للجليدِ على تقحّمها يدُ

فلئن حُرِمْتُ بلوغَ ما أُمِلْتُهُ
فلتَنعشوا مِنِّي الدَّمَاءَ بِذِكْرِهِ
لَوْلَاهُ ما بَقِيَتْ حَيَاتِي سَاعَةً
ذَكَرْتُ بِهِ مِنْ الثَّنَاءِ سَحَابُ
مَنْ ذَا الَّذِي نَرْجُوهُ لِلْيَوْمِ الَّذِي
يَا لَهْفَ مَنْ وَاغَى هُنَاكَ وَمَا لَهُ
ما أُرْجِي عَمَلًا وَلَكِنْ أُرْجِي
ما صَحَّ إِيمَانٌ خَلَا مِنْ حُبِّ
عَنْ ذِكْرِهِ لَا حُلَّتْ عَنْهُ لَحْظَةٌ
يَا مَادَحِي بَيْنِي ثَوَابًا زَائِلًا
لَوْلَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ نَلِدِ الْهُدَى
يَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ بَعَثْتَ وَالِدَةً
أَظْلَعْتَ صَبْحًا سَاطِعًا فَهَدَيْتَ لَنَا
لَمْ تَخْشَ فِي مَوْلَاكَ لَوْمَةً لَا تُنْمِ
وَنَصَرْتَ دِينَ اللَّهِ غَيْرَ مُحَازِرٍ
وَلَقِيتَ مِنْ حَرْبِ الْأَعَادِي شِدَّةً
أَيَّانَ لَا أَحَدٌ عَلَيْهِمْ عَاضِدٌ
فَحَمَاكَ بِالْفَارِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَدِ
وَوَقَاكَ مِنْ سَمِّ الدَّرَاعِ بِلُطْفِهِ
وَالْجَذْعُ حَنْ لِيْلِكَ وَالْمَاءُ انْهَمَى
وَالذُّبُّ أَنْطَقَ لِلَّذِي أَضْحَى بِهِ
وَبَلِيلَةُ الْإِسْرَا حَبَاكَ وَسُمِّيَ الْإِلَهِ
وَحَبَاكَ بِالْخَلْقِ الْعَظِيمِ وَمُعْجَزِ الْإِلَهِ
وَبُعِثْتَ بِالْقُرْآنِ غَيْرَ مُعَارَضٍ

فَلَدِي ذَكَرِي لَا تَرَالُ تَرَدُّدُ
مَا دَمْتُ عَنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ أَبْعَدُ
هُوَ لِي إِذَا مِتُّ اشْتِيَاقًا مَوْلَدُ
أَبْدَأُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ يُجَدِّدُ
يُقْصِي الظُّمَاءَ بِهِ وَيُحْمِي الْمَوْرَدُ
مِنْ حُبِّ ذَخَرٍ بِهِ يَتْرُودُ
ثِقَتِي بِهِ وَلِحَسْبُ مَنْ يَتْرُودُ
أَبِلًا رِيَاشٍ يُسْتَعْدُّ مَهْنَدُ ؟
وَمَدِيحِهِ فِي كُلِّ حَفْلٍ أَسْرُدُ
فَتَوَابُ مَدَحِي فِي الْجَنَانِ أَخْلُدُ
وَبِهِ غَدًا نَرْجُو النَّجَاةَ وَنَسْعُدُ
يَا بِيْجَحِ الْكَفْرِ لَيْلُ أَرِيدُ
إِيمَانٍ إِلَّا مَنْ يَحِيدُ وَيَجْنَحُدُ
حَتَّى أَقْرَأَ بِهِ الْكَفُورَ الْمَلْحَدُ
وَدَعَوْتُ فِي الْأُخْرَى الْأَلَى قَدْ أَضْعَفُوا
لَوْ كَابِلُوهَا سَاعَةً لَتَبَدَّعُوا
إِلَّا الْإِلَهِ وَلَمْ يَخُنْ مَنْ يَعْضُدُ
لِ الْمَعْجَزَاتِ وَخَابَ مَنْ يَتَرَصَّدُ
كَيْمَا يُغَاظَ بِكَ الْعَدَى وَالْحُسَّةُ
مَا بَيْنَ خَمْسِكَ وَالصَّخَابَةِ شُهِدُ
يُهْدِي إِلَى سَبْلِ النِّجَاحِ وَيُرْشِدُ
صَدِيقَ مَنْ أَضْحَى لِقَوْلِكَ يُسْعَدُ
كَلِمَ الَّذِي يَهْدِي بِهِ إِذَا يُورَدُ
فِيهِ وَأَمْسَى مَنْ نَحَاهُ بِعَرْدُ

فتوالت الأحقابُ وهو مبرأ
ولكم بليغ جال فصل خطابه
زويت لك الأرض التي لا زال
ونصرت بالرعب الذي لما يزل
فمى تعرّض طاعن أو حاد عن
يا من تخيير من ذؤابة هاشم
لستاك حين بدا بآدم أقبلت
لم أستطع حصراً لما أعطيته
ماذا أقول إذا وصفت محمداً
فعليك يا خير الخلائق كلها

قال : وقلت بإشبيلية :

هل تمنع النهود
نعم وكم طعين
يا ربة المحبا
لم تسكر الحميا
لله يا عدولي
ما زلت فيه أفنى
يا هل ترى زماناً
لدى العروس سقت
حيث الغصون مالت
وزهرها نظيم

ما أبدت الحدود
بطعنها شهيد
حققت به السعود
بل ريقك البرود
ما تكتم البرود
والوجد مستزید
مضى لنا يعود
جناها العهد
كأنها قود
كأنه عقود

١ العروس : من متزهات إشبيلية .

أَعْطَاهَا تَمِيدُ	حَمَامُهَا تُغْنِي
لنَهْرَهَا بُرُودُ	وَبالنَّسِيمِ شُقَّتْ
وَسُورَهُ بُنُودُ	فَرَوْعُهُ سَيُوفُ
إِلَى الْوَرُودِ رُودُ	هَنَّاكَ كَمْ دَعَتْنِي
يَفْقَى بِهِ الْحُودُ	فَنَلْتُ كُلَّ سُوْلُ
مَا بَعْدَهُ مُزِيدُ	قَضَيْتُ فِيهِ عَيْشًا
مَرْتَحًا أَمِيدُ	أُضْحِي بِهِ وَأَمْنِي
كَأَنِّي الْوَلِيدُ	كَأَنِّي يَزِيدُ
بِكُلِّ مَا أُرِيدُ	يَجْرِي الزَّمَانُ طَوْعِي
فَالْخَلْقُ لِي عِيدُ	الْحَمْرُ مَلَكْتَنِي
أَبْصَرْتُهَا تَجُودُ	يَحْنُ لِي إِذَا مَا
فَقَدْتُهَا فَقِيدُ	فَهَا أَنَا إِذَا مَا
الْعَدْلُ لَا يُفِيدُ	يَا مَنْ يَلُومُ بَغْيًا
فَلَيْسَ لِي وَجُودُ	إِذَا عَدِمْتُ كَأْسِي

قال : وقلت بإشبيلية :

وَالْغَصْنُ مِنْ طَرَبٍ بِهَا يَتَأَوَّدُ	أَوْ مَا نَظَرْتَ إِلَى الْحَمَامَةِ تُنْشَدُ
لَمَّا يَزَلُ بِيَدِ النَّسِيمِ يِيدَدُ	وَنَثَارَهُ أَلْقَاهُ جَائِرَةٌ لَهَا
فَتَنَاقُوه طَوْلَ الزَّمَانِ يَرْدَدُ	أَلْقَى عَلَيْهَا الطَّلُ بَرْدًا سَابِغًا
أَوَّلَى بِشَكْرِ حِينَ تَغْمُرُهُ يَدُ	أَتَرَى الْحَمَامَةَ مِنْ مَحَبِّ مَخْلُصٍ
لِي الْغَصْنِ حَنَّانُ الْهَدِيدِ مَفْرَدُ	فَلَا تُنِينَ عَلَيْكَ مَا أَتْنِي بَاعِدُ
بِدُ جَهْدِهَا ؟ أَيَّانَ بَرَكَ يَجْهَدُ ؟	كَمْ نِعْمَةٍ لِي فِي جَنَابِكَ ؟ كَمْ أَكَا

١ ق ج : ألقى جمائره .

وقال :

أرى العين مني تحسدُ الأذنَ كلِّما
أُحقِّقُ أنباءَ ولم أرَ صورةً
فمنَّ على عيني بلفياك لآتي
جرتْ مدحةٌ للعلم والفضلِ والمجدِ
كتحقيقي الأخبارَ عن جنةِ الخلدِ
أخذتُ لها أمناً بذاك من السُّهدِ

قال : وقلت أمدح ابن عمي وأشكره^١ ، على ما أذكره :

آه ممّا تكنُ فيكَ الجوانحُ
واشتقاءُ من العدوِّ بينِ
يا أتمَّ الأنامِ حسناً أما تمَّ
يا زمانَ الوصالِ عوداً فلآتي
أين عيشُ العروسِ إذ يططحُ السكِّ
والأمانِ ترى ولا أحدٌ ين
وزمانُ السرورِ سمحٌ مطيعٌ
ولكم ليلةٌ أتاني بلا طي
هو ظبيٌ فليس يحتاجُ طبيباً
مثلُ عليا محمدٍ لم تكنْ كـ
يا كريماً أتني من الجودِ ما لا
وعلا كلَّ ذي علاءٍ وأضحى
قد أتاني إحسانك الغمرُ في لآ
فاض بحرُ النوالِ منك ولا سا
حلَّ مثلُ ما كسوتك في المد
ودموعي على نواك سوافح
كدَّرَ العيشَ ، أيُّ عيشٍ لنازح
سنُ حتى يتمَّ إطرأءِ مادح
طوّحتُ بي لما غدرتِ الطوائحُ
رُحبي ما بينَ تلكَ الأباطحُ
صحُّ إذ لا يُصغى إلى قولِ ناصح
ورسولُ الحبيبِ غادٍ ورائح
بٍ ولكنْ يزري بأذكي الروائحُ
قد كفاه عَرَفٌ من المسكِ فائح
بأ وما لا يكون في الطبعِ فاضح
كان يُدري فأوجدته المدايحُ
نحو ما لا يرومه الناسُ طامح
رِ سواه فكنْتَ أكلَ مادح
حلَّ يبدو ولم أزل فيه سابح
ح نمتُ العدا ومالٌ وسابح^٢

١ دوزي : وأشكره .

٢ ق ج ودوزي : وسائح ؛ والسابح فرس أهداه إليه .

أوردَ الوردُ^١ منطقي كلَّ شكرٍ
لونُ خدِّ الحبيبِ حينَ كسَّوهُ
شفَّقَ^٢ سالَ بينَ عينيه صبحُ
لم أجدُ فيه من جماحٍ ولكي
لكَ يا ابنَ الحسينِ ذكرٌ جميلٌ
قد هدى نحوكَ الثناءَ كما يَهْدُ
فاعذرِ الناسَ إن أتوا لك أفوا
ما هدَّتْهم إليك إلا الأمانى
قل لذي المفخرِ الحديثِ تأخَّرْ
أيُّ أصلٍ وأيُّ فرعٍ أقاما
قد حوتُ مذحجٌ من الفخرِ لما
أفَّقُ مَجْدٌ قد زانه منك بدرٌ
بدرٌ تيمَّ حَفَّتْ به هالةٌ من
يا سماكاً بمسكِهِ القَلَمِ الآءِ
رفعَ اللهَ للكتابةِ قدراً
يا أعزَّ الأنامِ نفساً وأعلا
أين أعداؤك الذين رعى سي
أفسدَ الدهرُ حالهم ليُرى حا
دُمتَ في عِزَّةٍ وسعدٍ مدى الدهرِ

حينَ أضحى طوعَ البنانِ مسامحُ
حُلَّةَ الحسنِ بالعيونِ اللوامحُ
حُسْنُهُ قَيْدُ اللحاظِ السوارحُ
نَ ثَنائي عليكَ ما زالَ جامعُ
صَيَّرَ الكلَّ نحو بابك جانحُ
لدي إلى الروضِ باسماتِ النوافحِ
جاءَ فكلُّ بقصدِ فضلكَ رابعُ
لم تُحلِّهمْ إلا عَليكَ القرائعُ
ليس مُهزَّزٌ في شأوهِ مثلَ قارحِ
شرفاً ظلَّ للنجومِ بناطعِ
كنتَ منها ما ليس يحويه شارحُ
في ظلامِ الخطوبِ ما زالَ لائحُ
بيتِ مجدٍ علاؤها الدهرَ واضحُ
لى بدأَ بينَ أنجمِ الملكِ رامعُ
بعدما كابدتَ توالي القضايعِ
هَمُّ محلاً لا زالَ أمركَ راجعُ
فكُ فيهم فأشبهوا قومَ صالحِ
لُكَ رَغماً بمن بناويك صالحِ
ولا زالَ طائرُ منك مانعِ

[أبو عبد الله ابن سعيد]

وابن عمه المذكور قال في حقه في « المغرب » ما ملخصه^٢ :

١ الورد : الفرس الوردى اللون .

٢ انظر المغرب ٢ : ١٦٨ ونص المقرئ مختلف كثيراً عما هو في المغرب، وفي هذا تأكيد لاختلافه

لأنه الرئيس الأعلى ، ذو الفضائل الجمة ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد ، قال : واجتماع نسبنا مع هذا الرئيس في سعيد بن خلف ، وهو الآن قد اشتمل عليه ملك إفريقية اشتمال المقلة على إنسانها ، وقدمه في مهماته تقديم الصَّعدة لسنانها ، وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس ، واعتزل فيها بعسكر الأندلس الذين صيَّروهم الملك المنصور إلى نظره ، وهو كما قال الفتح صاحب القلائد « فقد جاء آخرهم ، فجدد مفاخرهم » ، ومن نظمه وقد نزل على من قدم له مشروباً أسود اللون غليظاً وخروباً وزيبياً أسود وزيبياً كثير الغضون جاءت به عجوز في طبق ، فقال :

ويومَ نزلنا بعبدٍ العزيزِ فلا قدَّسَ اللهُ عبدَ العزيزِ
سقانا شرباً كلونِ الهناء ونقلنا بقرونِ العنوزِ
وجاءتْ عجوزٌ فأهدتْ لنا زيبياً كخيلائِ خَدِّ العجوزِ

ونزل السلطان أبو يحيى في بعض حركاته لموضع فيه نهر ، وعلى شطئه نورٌ ، فقال الرئيس أبو عبد الله ابن الحسين يصفه أو أميراً بذلك :

ونهر يرفُّ الزهراً في جنباتِهِ ويثقي النسيمُ قُضْبَهُ فتأطَّرُ
يسيلُ كما عَنَ الصَّباحِ بأفقه وإلا كما شيمَ الحسامُ المجوهرِ
عليه ليحيى قبةٌ ، هل سمعتمُ بقرصةِ شمسٍ حلَّ فيها غضنفرُ؟
فإن قلتَ هذي قبةٌ لعُفاتها فقلْ ذلك الوادي الذي سال كوثرُ

وقال أبو عمرو أحمد بن مالك بن سيد أمير اللخمي الشامي في ذلك :
وأرضٍ من الحصباءِ بيضاء قد جرت جداولُ ماءٍ فوقها تنفجرُ

= نسخ الكتاب ؟ وانظر ترجمة أبي عبد الله ابن سعيد أيضاً في تاريخ ابن خلدون ٦ : ٢٩٤ .
١ ق ودوزي : النور .

كما سَبَحَتْ تَبْغِي الحَيَاةَ أَرَاقِمُ على روضةٍ فيها الأَقاحُ المنوَّرُ
وإلا كما شَقَّتْ سِبَائِكُ فُضَّةٍ بساطاً على حافاتِهِ الدُّرُّ يَنْثُرُ

وقال أبو علي يونس :

انظُرْ إلى منظرٍ يَسْبِيكَ مَنظَرُهُ ويزدهيكَ بإذنِ الله مَخْبَرُهُ
وَمُعْجَبٌ مُعْجَبٌ لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ خَرِيرُ ماءٍ نَمِيرٍ ثُمَّ مَنَهْرُهُ
كَأَنَّمَا فَرَشَتْ بِالدُّرِّ صَفْحَتَهُ فالماءُ يَنْظُمُهُ طَوْرًا وَيَنْثُرُهُ
كَأَنَّ خُلْجَانَهُ قُدَّتْ عَلَى قَدَرٍ بمائها قَسَمٌ يَجْرِي مَفْجَرُهُ
أَحَلَّ سِيدُنَا المِيْمُونُ قُبَّتَهُ بحوزِهِ فَعْدَا يزدانُ جَعْفَرُهُ

رجع إلى ما كنا فيه من أخبار الرئيس ابن الحسين ، فنقول : رأيت
بالمغرب آخر كتاب « روح السحر » من نسخة ملوكية كتبت له أبياتاً علق
بمحفظي منها الآن ما نصه :

تَمَّ رُوحُ السَّحْرِ نَسْخًا فَأَتَى مُصْحَبًا بِالْيُمْنِ وَالْفَخْرِ البَعِيدُ
لَأَبِي عَبْدِ الإِلَهِ المُرْتَقِي فِي ذَرَا المَجْدِ الرِّيسِ ابنِ سَعِيدُ

ولم أحفظ تمام الأبيات .

وقال أبو الحسن علي بن سعيد : كتبت إليه من أبيات بحضرة تونس وقد
نَقَلْ إلىه بعض الحساد ما أوجب تغييره :

وَمِنْ بَعْدِ هَذَا قَدْ أَتَيْتُ بِزَلَّةٍ أَمَا حَسَنٌ أَنْ لَا تَضِيقَ بِهَا صَدْرَا
وَعَلْمُكَ حَسْبِي بِالْأُمُورِ فَلِاتِي عَهْدُكَ تَلْزِي سِرَّ أَمْرِي وَالْجَهْرَا
وَقَدْ أَصْلَحَ اللهُ الْأُمُورَ بِسَعْيِكُمْ وَنَيْتِكُمْ صَلَاحًا عَلَى الْبِشْرِ وَالْبُشْرَا
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا رِضَاكَ فَإِنْ بِهِ كَتَبْتَ وَلَوْ حَرْفًا أَطْبَتَ لِي الْعُمْرَا
فَبَقِيَّتْ كَهْفًا لِلْجَمِيعِ وَمِثْلًا وَلَا زَلَّتْ مَا دَامَ الزَّمَانُ لَنَا سِتْرَا

فكتب إلي هذه الأبيات ، وكان متمرصاً ، وبعث إلي بما يذكر :

أَكُفُّ الصَّبَا حَفَّتْ جَنَى زَهَرِ الرَّبِيِّ سَوَّالِكَ عَنِ نِصْوِ يُسَامِي بَكَ الزَّهْرَا
بَعَثَتْ بِمَثَلِ الزَّهْرِ فِي مَثَلِ صَفْحَةٍ لِّذَلِكَ مَا قَلَّدَتْهَا الشَّدَرُ وَالْدَّرَا
مَعَانٍ لَهَا أَعْنُو وَأَعْنَى بِهَا فِكْمٍ وَقَفْتُ عَلَيْهَا الْعَيْنَ وَالسَّمْعَ وَالْفِكْرَا
فَلَوْ عَرَّضْتُ لِلْبَحْرِ لَمْ يَلْفِظِ الدَّرَا وَلَوْ عَارَضْتُ هَارُوتَ لَمْ يَنْفِثِ السَّحْرَا
أَبَا حَسَنٍ هُنْتُ مَا قَدْ مُنِحْتُهُ ضَرُوباً مِنَ الْآدَابِ تُحْلِي بِهَا الدَّهْرَا
وَدُونِكَ بَحْرًا مِنْ وَدَادِي تَلَاظَمْتُ بِهِ زَاخِرَاتُ الْمَدَّةِ لَا يَعْرِفُ الْجَزْرَا
فَإِنْ خَطَرْتُ فِي جَانِبٍ مِنْكَ هَفْوَةً فَلَا تَحْسَبْنِ أَتَيْتُ أَضِيقُ بِهَا صَدْرَا
يَزُلُّ الْجَوَادُ عِنْدَمَا يَبْلُغُ الْمَدَى وَيَعْتَرُ بِالرَّمْثِ النَّسِيمُ إِذَا أَسْرَى
فَدَعُ ذَا وَخْذَهَا شَائِبَاتٍ قَرُونَهَا عَرُوباً لَعُوباً جَائِزاً حَكَمَهَا بَكْرَا
وَلَوْ غَادَرْتُ أَوْصَافُهَا مَرْدَمًا لَشَنَنْتُ مِنْ أَشْعَارِهَا أُذُنَ الشَّعْرَى
أَلَا فَاحْجُبْنَهَا عَنْ صَدِيقٍ مَعْمَمٍ فَإِنَّ قُصَارَى الْغَمْرِ أَنْ يَبْكِيَ الْعَمْرَا
وَمَنْ كَانَ ذَا حِجَرٍ وَنُبْلٍ وَرَقَةٍ فَلَا يَخْلُونُ إِلَّا عَلَى الْحَمْرَةِ الْحَمْرَا
قَرَنْتُ بِهَا صَفْرَاءَ لَمْ تَعْرِفِ الْهُوَى وَلَا أَلْفَتْ وَصْلًا وَلَا عَرَفَتْ هَجْرَا
وَلَا ضَمَّخْتُ نَضِخَ الْعَبِيرِ وَإِنْ غَدْتُ تَوَخَّرَهُ لَوْنًا وَتَقَضَّحَهُ نَشْرَا
فَإِنْ خَلَّتْهَا بِنْتُ الظَّلِيمِ أَظْلَمَتْهَا فَقَدْ فَرَّشَ الْإِذْخِرَ مِنْ تَحْتِهَا تَبْرَا
لَهَا نَسَبٌ بَيْنَ الثَّرِيَّا أَوْ الثَّرَى وَسَلْ بِرِيَابِهَا الْمَزْنَ وَالْعُصْنَ النَّضْرَا
فَشَرِبًا دِهَاقًا وَانْتِشَاقًا وَلَا تَرِمِ عَنِ الْبَيْتِ فَرَا أَوْ تَقِيمَ بِهِ شَهْرَا
وَلَهُ فِي الْخَشْكَلَانِ ١ :

هُوَ الْأَهْلَةُ لَكِنْ تَدْعُونَهُ خَشْكَلَانَا
فَإِنْ تَفَاءَلْتِ صَحْفٌ تَجِدُ : حَبِيبَكَ لَانَا

انتهى باختصار .

١ الخشكلان (بالفارسية : خشك نان) نوع من الخبز أو البقساط في شكل هلاكي .

وحظي المذكور جداً عند السلطان ملك إفريقية أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص ، ولما مات السلطان المذكور ، وحدت فتنة بموته واختلاف ، ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبي عبد الله المستنصر ممدوح حازم بالمقصورة ، وقاتل ابن الأبار القضاعي^١ - سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور ، وقبض على دياره وأمواله ، وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة ، فأحضره ، وسأله فأخبره بأن أباه صنع داراً عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عُدّة وذخيرة لسلطانه ، ولم يترك على وجه الأرض من له علم بهذا الموضع الذي أودعه نفائس أمواله غيري ، وأوصاني أنه إذا انتقل إلى جوار ربّه ، إذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه ، أنه إذا انقضت سنة واستقر الأمر لأحد من ولدي أو من يتيقن أنه يصلح لأُمور المسلمين ، فأطلعه على هذه الذخائر ، فربما فنيّت الأموال بالفتنة ، فلا يجد القائم بالأمر ما يصلح به الدولة إذا تفرغ للتدبير والسياسة ، ففرح السلطان ، وبادر إلى تلك الدار ، فرأى ما ملأ عينه ، وسرّ قلبه ، وخرج الرئيس ابن الحسين والحليل تجنب أمامه ، وبدّر الأموال بين يديه ، وأعادته إلى أحسن أحواله ، وجعله وزيراً لديه ، كما كان أبوه مفوضاً أموره إليه ، وقال السلطان : إن من أوجب شكر الله عليّ أن أفتتح المال بأن أؤدي منه للرعيّة الذين نهبت دورهم واحترقت في الفتنة التي كانت بيني وبين أقاربي ما خسروه ، وأمر بالنداء فيهم ، وأحضرهم وكل من حاف على شيء قبضه وانصرف .

* * *

[ذكر المستنصر الحفصي]

وكان السلطان المستنصر المذكور في بعض متصيداته ، فكتب لأبي عبد الله

١ ستأتي ترجمة حازم وابن الأبار والتعريف بهما ؛ أما مقصورة حازم فمطلّهما :

الله ما قد هجت يا يوم النوى على فؤادي من تباريح الجوى

وهي التي شرحها الشريف الغرناطي في ما سماه « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » .

الرئيس المذكور يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم بقوله :

لِيَحْضُرْ كُلُّ لَيْثٍ ذِي مَنَالٍ زَكَاَ فَرَعَاً لِإِسْدَاءِ النَّوَالِ
غَدَاً يَوْمَ الْخَمِيسِ فَمَا شَغِلْنَا بِأُسْدِ الْوَحْشِ عَنْ أُسْدِ الرِّجَالِ

وحكي أن السلطان المذكور عَرَضَ مرةً أجناده ، وقيل : بل سَلَّمَ عليه
الموحدون يوم عيد بتونس ، وفيهم شابٌ مليحٌ وسيمٌ اسمُ جده النعمان ، فسأله
السلطانُ عن اسمه ، وأعجبه حسنه ، فخبَّلَ واحمرَّ وجهه ، وازداد حسناً ،
فقال السلطان هذا المصراع :

كَلِمَتُهُ فَكَلَمْتُ صَفْحَةَ خَدِّهِ

وسأل من الحاضرين الإجازة ، فلم يأتوا بشيء ، فقال السلطان مجيزاً شطره :

فَتَفَتَّحَتْ فِيهَا شَقَائِقُ جَدِّهِ

وهذا من البدائع مع ما فيه من التورية والتجنيس .
وممّا نسب له أبو حيان بسنده إليه :

مَا لِي عَلَيْكَ سِوَى الدُّمُوعِ مُعِينُ إِنْ كُنْتَ تَغْدِرُ فِي الْهَوَى وَتُخُونُ
مَنْ مُنْجِدِي غَيْرُ الدَّمُوعِ وَإِنَّهَا لِمَغِيثَةُ مَهْمَا اسْتَغَاثَ حَزِينُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنْ مَا حَمَلْتَنِي صَعْبٌ وَلَكِنْ فِي رِضَاكِ يَهُونُ

وكان للسلطان المذكور سعد يُضْرَبُ به المثل ، حتى إنّه كتب له صاحب
مكة البيعة من إنشاء ابن سبعين المتصوف ، كما ذكر ذلك ابن خلدون في
تاريخه الكبير ، وسرد نصّها ، وهي من الغرائب .

ومن سعده أن الفرنسيّ الذي كان أُسِرَ بمصر وجُعِلَ في دار ابن لُقْمان
والطواشي صَبِيحَ يَحْرُسُهُ لما سُرِّحَ جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بما لم يجتمع
قط مثله ، حتى قيل : إنهم كانوا ألف ألف ، فكتب إليه أهل مصر من

نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التي منها :

قُلْ للفرنسيس إذا جِثَّتْهُ مَقَالَةٌ من ذي لِسَانٍ فَصِيح

إلى أن قال :

دارُ ابْنِ لُقْمَانَ على حالها ومِصْرُ مِصْرٍ والطَّوْاشِي صَبِيح

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسردّها ، فصرف الفرنسيس جيوشه إلى تونس ، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر :

أفرنسيس ، تونسُ أختُ مصرٍ فتأهَّبْ لما إليه تَصِيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمان قَبْرٌ وطَواشيك مُنْكَرٌ ونَكِيرُ

فقضى الله سبحانه وتعالى أنّه مات في حركته لتونس ، وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط ، ويقال : إنّه دس إليه سيفاً مسموماً من سلكه أثر فيه سمّه ، وقتلده رسولاً إليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره ، وقال للرسول : إن الفرنسيس رجل كثير الطمع ، ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره ، وإنّه سيرى السيف ، ويكثر النظر إليه ، فإذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبّله ، وقل له : هذا هدية مني إليك ، لأن من آدابنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعادَ النظر إليه بالقصد فلا بد أن يكون له ، ويحرم علينا أن نمسكه ، لأن ما أحبه المولى على العبيد حرام ، وتكراره النظر إليه دليل على حُبّه له ، ففرح النصراني بذلك ، وأسرع الرسول العود إلى سلطانه ، فسلّ النصرانيّ السيف ، فتمكّن فيه السم بالنظر ، فمات في الحين ، وفرّج الله تعالى عن المسلمين .

رجع إلى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد :

قال ابن العديم في تاريخ حلب : أنشدني شرف الدين أبو العباس أحمد بن

يوسف التيفاشي^١ بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي يشير إلى كتاب أبي الحسن الذي جمعه في محاسن المغرب وسمّاه «المغرب» :

سَعِدَ الغربُ وازدهى الشرقُ عَجَباً وابتهاجاً بمَغْرِبِ ابنِ سعيدِ
طلعتْ شمسُهُ من الغَرْبِ تُجَلَّى فأقامتْ قِيامَةً التَّقْيِيدِ
لم يَدْعُ للمؤرخينَ مقالاً لا ولا للرواةِ بيتَ نشيدِ
إنْ تَلَاهُ على الحَمَامِ تَغَنَّتْ ما على ذا في حُسْنِهِ من مَزِيدِ

وأنشدني أبو العباس التيفاشي لنفسه فيه :

يا طَيِّبَ الأَصْلِ والفرعِ الزكيِّ كما يبدو جَنَى ثَمَرٍ من أَطْيَبِ الشَّجَرِ
ومَنْ بَخَلَّاقُهُ مثلُ التَّسِيمِ إذا يَهْفُو على الزَّهْرِ حولَ النهرِ في السَّحَرِ
ومَنْ مُحَيَّاهُ واللهُ الشَّهيدُ إذا يبدو إلى بصري أبيض من القَمَرِ
أثْقَلْتُ ظَهْرِي بِبِرٍّ لا أقومُ بِهِ لو كُنْتُ أَتْلُوهُ قرآنًا معَ السَّوَرِ
أَهْدَيْتَ لي الغَرْبَ مجموعاً بعالمه في قابِ قوسينِ بينَ السَّمْعِ والبَصَرِ
كأنِّي الآنَ قد شَاهَدْتُ أَجْمَعَهُ بكلِّ مَنْ فِيهِ من بَدْوٍ ومن حَضَرِ
نعم ولا قَيْتُ أَهْلَ الفَضْلِ كُلَّهُمْ في مُدَّتِي هذه والأَعْصَرِ الأَخَرِ
إنْ كُنْتُ لم أرَهُمْ في الصِّدْرِ من عُمْرِي فقد رَدَدْتَ عَلَيَّ الصِّدْرَ من عَمْرِي
وَكُنْتُ لي واحِداً فيهم جميعهم ما يُعْجِزُ اللهُ جَمْعُ الخَلْقِ في بَشَرِ
جُزَيْتَ أَفْضَلَ ما يَجْزِي به بَشَرٌ مفيدَ عَمْرٍ جَدِيدِ الفَضْلِ مَبْتَكِرِ

١ التيفاشي (٦٥١ -) منسوب إلى تيفاش من قرى قفصة بإفريقية هاجر من بلده إلى القاهرة وتعلم فيها ثم عاد إلى بلده وتولى القضاء فيه ، ورجع إلى المشرق فسلم ماله وكتبه في البحر ، فلجأ إلى الصاحب محمد بن محمد بن سعيد بن ندى الجزري الذي عاش ابن سعيد مدة في كنفه ، وألف مستعياً بمكتبة ابن ندى كتابه الكبير « فصل الخطاب في مدارك الخواص الخمس لأولي الألباب » في ٢٤ مجلدة ، وقد اختصره ابن منظور وسماه « سرور النفس بمدارك الخواص الخمس » ويمثل « نثار الأزهار » قطعة منه ، وألف أيضاً كتابين في الجواهر (الوافي ٨ الورقة : ١٣٣) .

ومن نظم أبي الحسن ابن سعيد قوله :

وعَشِيَّةٌ بَلَغَتْ بِنَا أَيْدِي النَّوَى مِنْهَا مُحَاسِنٌ جَامِعَاتٌ لِلنَّخَبِ
فَحَدَاتُقٌ مَا بَيْنَهُنَّ جَدَاوِلُ وَبِلَابِلُ فَوْقَ الْغُصُونِ لَهَا طَرَبُ
وَالنَّخْلُ أَمْثَالُ الْعَرَائِسِ لُبْسُهَا خَزٌّ وَحَلِيَّتُهَا فَلَانْدُ مِنْ ذَهَبِ

ومن نظمه رحمه الله تعالى في حلب قوله :

حَادِي الْعَيْسِ كَمْ تُنِيخُ الْمَطَايَا سَقُ فُرُوحِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي سِيَاقِ
حَلَبٌ لَهَا مَقَرٌّ غَرَامِي وَمِرَامِي وَقِبْلَةٌ الْأَشْوَاقِ
لَا خَلَا جَوْسَقٌ وَبَطْيَاسٌ وَالسَّعِ دَاءٍ مِنْ كُلِّ وَابِلٍ غِيْدَاقِ
كَمْ بِهَا مَرْتَعٌ لَطَرَفٍ وَقَلْبِ فِيهِ يُسْقَى الْمُنَى بِكَأْسِ دِهَاقِ
وَتُغْنِي طَيُورُهُ لَارْتِيَا حِ وَتَشْنِي غُصُونُهُ لِّلْعَنَاقِ
وَعَلَوْ الشُّهْبَاءُ حَيْثُ اسْتَدَارَتْ أَنْجُمُ الْأَفْقِ حَوْلَهَا كَالنَّطَاقِ

وقوله أيضاً في حماة :

حَمَى اللَّهُ مِنْ شَطَطِي حِمَاةَ مَنَاظِرَا وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفِكْرَ وَالطَّرْفَا
تُغْنِي حِمَامٌ أَوْ تَمِيلُ خِمَائِلُ وَتُزْهِى مَبَانٍ تَمْنَعُ الْوَاصِفَ الْوَصْفَا
يَلُومُونَ أَنْ أَعْصِي التَّصَوُّنَ وَالنَّهْيَ بِهَا وَأَطِيعَ الْكَأْسَ وَاللَّهُوَ وَالْقَصْفَا
إِذَا كَانَ فِيهَا النَّهْرُ عَاصٍ فَكَيْفَ لَا أَحَاكِهَ عَصِيَانَا وَأَشْرِبَهَا صِرْفَا
وَأَشْدُو لَدَى تِلْكَ النُّوَاعِيرِ شَدَّوْهَا وَأَغْلِبُهَا رَقْصَا وَأَشْبِهَا غَرْفَا
تَنْ تَذْذِرِي دَمْعَهَا فَكَأَنَّهَا تَهِيْمُ بِمَرَاَهَا وَتَسْأَلُهَا الْغَطْفَا

وقوله في وداع ابن عمه وكتب بهما إليه :

وَدَاعٌ كَمَا وَدَعْتَ فَصْلَ رَبِيعِ يَفْضُ ضُلُوعِي أَوْ يُفَيْضُ دُمُوعِي
لَنْ قِيلَ فِي بَعْضٍ يُفَارِقُ بَعْضَهُ فَإِنِّي قَدْ فَارَقْتُ مِنْكَ جَمِيعِي

قال : فأرسل إليَّ إحساناً ، واعتذر ولسان الحال ينشد عنه :

أَحِبُّكَ فِي الْبَتُولِ وَفِي أَبِيهَا وَلَكِنِّي أَحِبُّكَ مَنْ بَعِيدٍ

وقوله ، وقد أفلت المركب الذي كان فيه من العدو :

أَنْظُرْ إِلَى مَرَكَبِنَا مُنْقَذَاً مِنْ الْعِيدَا مِنْ بَعْدِ إِحْزَارِ

أَفْلَتَ مِنْهُمْ فَعَدَا طَائِراً كَطَائِرٍ أَفْلَتَ مِنْ بَازِي

وقال رحمه الله تعالى لما خرج من حدود إفريقية :

رَفِيقِي جَاوَزْنَا حُدُودَ مَوَاطِنٍ صَحَبْنَا بِهَا الْأَيَّامَ طَلَقًا مَحِيَّاهَا

وَمَا إِنْ تَرَكْنَاهَا بِالْجَهْلِ بِقَدْرِهَا وَلَكِنْ ثَنَتْ عَنَّا أَعْنَةً سَقْيَاهَا

فَسَرْنَا نَحْثُ السَّيْرِ عَنْهَا لَغِيرِهَا إِلَى أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ يَوْمًا بَلْقِيَاهَا

وكان وصوله الإسكندرية في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وقال رحمه الله تعالى : أخذت مع والدي يوماً في اختلاف مذاهب^١ الناس ، وأنهم لا يسلمون لأحد في اختياره ، فقال : متى أردت أن يسلم لك أحد في هذا التأليف - أعني المغرب - ولا تُعْتَرَضَ أتبع^٢ نفسك باطلاً ، وطلبت غاية لا تُدْرَك ، وأنا أضرب لك مثلاً : يحكى أن رجلاً من عقلاء الناس كان له ولد ، فقال له يوماً : يا أباي ، ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل ؟ ولو سعت في مجانبتها سلمت من نقّدهم ، فقال : يا بني ، إنك غير لم تجرّب الأمور ، وإن رضى الناس غاية لا تُدْرَك ، وأنا أوقفك على حقيقة ذلك ، وكان عنده حمار ، فقال له : اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشياً ، فبينما هما كذلك إذ قال رجل :

١ مذاهب : سقطت من دوزي .

٢ ق ج : أتبع .

أنظر ، ما أقلّ هذا الغلام بأدب ، يركب ويمشي أبوه ، وانظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا ، فقال له : انزل أركب أنا وامش أنت خلفي ، فقال شخص آخر : انظر هذا الشخص ، ما أقله بشفقة ، ركب وترك ابنه يمشي ، فقال له : اركب معي ، فقال شخص : أشقاها الله تعالى ، انظر كيف ركبا على الحمار ، وكان في واحد منهما كفاية ، فقال له : انزل بنا ، وقد ماه وليس عليه راكب ، فقال شخص : لا خفف الله تعالى عنهما ، انظر كيف تركا الحمار فارغاً وجعلا يمشيان خلفه ، فقال : يا بني ، سمعت كلامهم ، وعلمت أن أحداً لا يسلم من اعتراض الناس على أي حالة كان ، انتهى .

* * *

[مقتبسات من خطبة المغرب]

وقال في أثناء خطبة المغرب ما نصه : والحمد لله الذي جعل الأدب أفضل ما اكتسب ، وأفضل ما انتخب ، إذ هو ذخّر لا يخاف كساده ، وكثر لا يخشى انتقاصه وإن كثر مرّ تاده ، والله درّ القائل :

رأيت جميع الكسب يفقدهُ الفتي	وتبقى له أخلاقه والتأدّب
إذا حلّ في أرض أقام لنفسه	بآدابه قدراً به يتكسّب
وأوماً كلّ نحوهُ ، ولعلّه	إلى غير أهلٍ للنباهة يُنسب

وقال في أثناء الكلام لبعض المغاربة :

فأثبتت في كلّ المواطنِ هِمّةً إلى طلب العلم الذي كان مطرّحاً
وصيّرت من قد كان بالنظم جاهلاً يُحاولُهُ كيما تجود لك المدحُ

وقال أيضاً في الخطبة : وبعد ، فهذا كتاب راحة قد تعبت في جمعه الأسماع والأبصار والأفكار ، وكل عناء سهل إذا أنجح القصد ، وقد بدأ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة ، ومنتهاه إلى غرة سنة إحدى وأربعين وستمائة ، قال : وأول

مَنْ كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جَدّ والدي عبد الملك بن سعيد ، وهو إذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر ، إلى أن استبدّ بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقصّده في سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الأندلس أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن الحجاري وصنف له كتاب « المسهب في غرائب المغرب » في نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه ، وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ، ثمّ ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحِجاري ، وتولّع بمطالعة ابنه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبدّ به محمد ، فاعتنى به أشدّ اعتناء ، ثمّ استبدّ به والدي — وكان أعلمهم بهذا الشأن — وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أنني أذكره يوماً وقد نوّه به ابن هودٍ وهو ملك الأندلس وولاه الجزيرة الخضراء ، فأعلمه شخص أن عند أحد المنسوين إلى بيت نباهة كرايس من شعر شعرائها ، وأخبار رؤسائها ، الذين تحتوي عليهم دولة بني عبد المؤمن ، فأرسل إليه راغباً في استعارتها ، فأبى ، وقال : عليّ عيب أن لا تخرج عن منزلي ، وقال : إن كانت له حاجة يأتي على رأسه ، وكان جاهلاً ، فلما سمع والدي ضحك وقال : سرّ معي إليه ، فقلت له : ومن يكون هذا حتى نمشي له على هذه الصورة ؟ فقال : إني لا أمشي له ، ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكرايس أشعارهم وأخبارهم ، أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أنفّت أن أمشي إليهم ؟ قلت : لا ، قال : فإن الأثر ينوب عن العين ، فمشينا إلى منزل الرجل ، فوالله ما أنصفنا في اللقاء ؛ فلما قضينا منها الغرض صرّفها إليه والدي وشكره ، وقال : هذه فائدة لم أجدها عند غيرك ، فجزاك الله تعالى خيراً ، ثمّ انفصل وقال : ألم تعلم يا بني أنني سررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية ، وإن هذا والله أوّل السعادة ، وعنوان نجاحها .

* * *

[قلعة بني سعيد]

والقلعة التي كان بها بنو سعيد تُعرفُ بهم فيقال لها : قلعة بني سعيد ، وكانت تُعرف قبل بقلعة أسطير ، وهو عين لها ، وقال الملاح في تاريخه : إنها تُعرف بقلعة يَحْصُب ، قبيل من اليمن نزل بها عند فتح الأندلس ، وبها كما مرّ صنّف الحجاري كتاب « المسهب » لصاحبها عبد الملك بن سعيد .
وفي بني سعيد يقول الحجاري :

قومٌ لهم في فخرهم شَرَفُ الحديثِ مع القديمِ
وَرِثُوا الندى والبأسَ والد عليا كريماً عن كريمِ
من كلِّ وضاحٍ به يُجَلَّى دُجَى الليلِ البهيمِ

* * *

[أولية بني سعيد]

وكان أول من دخل الأندلس^١ من ولد عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه عبدُ الله بن سعد بن عمار ، وقد ذكره ابن حيان في مُقْتَبَسِه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي صاحب الأندلس آخرَ دولة بني أمية بالشرق كتب إليه أن يدافع عبد الرحمن بن معاوية المرواني الداخل للأندلس ، وكان إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق، وإنما ركن إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمار وبين بني أمية من الثأر بسبب قتل عمّار بصِفَيْن على يد عسكر معاوية رضي الله تعالى عنه ، وكان عمار من شِيعَةِ علي رضي الله تعالى عنهما .

* * *

١ قارن بما ورد في المغرب ٢ : ١٦١ .

[شعر لأبي بكر ابن سعيد]

وقال الحجارى : أنشدني أبو بكر محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة
في مدة الملتصين لنفسه ، فيما يليق بجنسه :

إن لم أكن للعلاء أهلاً بما تراه فمن يكونُ
وكلُّ ما أبتَغيه دُوني ولي على همَّتي ديونُ
ومن يرُمُّ ما يقلُّ عنه فذاك من فعله جنونُ
فرعٌ بأفقِ السماء سامٍ وأصله راسخٌ مكينُ

ومن نظمه قوله أيضاً :

اللهُ يعلمُ أنِّي أحبُّ كَسْبَ المعالي
وإنما أتوانى عنها لسوء المآلِ
تحتاجُ للكدة والبذلِ لِ واصطناعِ الرجالِ
دع كلَّ مَنْ شاء يسمو لها بكلِّ احتيالِ
فحالمهمُ بانعكاسٍ فيها وحالي حالي

* * *

[ترجمة الغساني من المغرب]

ولما ذكر ابنُ سعيد في « المغرب »^١ ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبي
العباس أحمد الغساني كاتب ملك إفريقية قال : بماذا أصفه ؟ ولو أن النجومَ
تصير لي ثراً لما كنت أنصفه ، وكفاك أنِّي اختبرت الفضلاء من البحر المحيط
إلى حضرة القاهرة ، فما رأيت أحسنَ ولا أفضلَ عشرة منه ، ولما فارقت لم

١ ليس له ترجمة في المغرب المطبوع ، وقد أشرت من قبل إلى ترجمته في اختصار القدح : ١٢ .

أشعر إلا برسالته قد وافتني بالإسكندرية من تونس ، وفيها قصيدة فريدة منها^١ :
 إليه أبا الحسن استمع شدي فقد يُصْغِي الحمامُ إذا الحمامُ ترنما
 ثم سرد بعضاً من القصيدة ، وستأتي قريباً إن شاء الله تعالى ، بزيادة على
 ما ذكر منها في المغرب .

* * *

[إجازته للتيفاشي رواية المغرب]

رجع - وجد بخطه رحمه الله تعالى آخر الجزء من كتاب « المغرب » ما
 نصّه : أجزتُ الشيخَ القاضي الأجلَّ أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضي أبي
 يعقوب التيفاشي ، أن يروي عني مُصَنَّفِي هذا ، وهو « المغرب في محاسن
 المغرب » ويُرويه من شاء ثقة بفهمه ، واستقامة إلى علمه ، وكذلك أجزت
 لفتاه النبيه جمال الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن خطّاخ الفارسي الأرموي
 أن يرويه عني ، ويُرويه من شاء ، وكتبه مصنفه علي بن موسى بن محمد بن
 عبد الملك بن سعيد في تاريخ الفراغ من نسخ هذا السِّفَر ، انتهى .

* * *

[شعر لابن سعيد]

وقال في وسيم من أبناء العجم صحبه في الطريق من حَلَب إلى بغداد فمات ،
 وكان ظريفاً أديباً^٢ :

لهفي على غُصْنٍ ذَوَى أَفْقَدْتُهُ لَمَّا اسْتَوَى
 رَيَّانٌ مِنْ مَاءِ الصَّبَا وَمِنْ الْمَدَامِعِ مَا ارْتَوَى

١ انظر هذه القصيدة في اختصار القدح : ١٩ وجواب ابن سعيد عليها ص : ٥ .

٢ الأبيات في اختصار القدح : ٨ .

لا تعذلوني إن نقطة
 كم ضلَّ صاحبهُ بسح
 أنا لا أفيقُ الدهرَ فيه
 من الصبابةِ والجوى
 إنَّ الهوى حيّاً وميَّ
 تماً لا يزالُ به سَوَا
 كم قد نويتُ بهِ التَّعْيِ
 مَ فقدَر الله النوى
 دارَ السلام حوَّيتُ مَنْ
 كلَّ المحاسنِ قد حَوَى
 مجموعُ حُسْنٍ قد ثَوَى
 في جنةٍ وبها ثَوَى

وولد أبو الحسن علي بن موسى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان عام عشرة وستمائة ، وهو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ، رضي الله تعالى عنه .

* * *

[ترجمة والد ابن سعيد من المغرب]

وقال في « المغرب » لما عرف بوالده الكاتب الشهير أبي عمران موسى ابن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، ما محصله ^١ : لولا أنه والدي لأطنبت في ذكره ، ووفيته من الوصف حق قَدْرِهِ ، لكن كفاه وصفاً ما أثبتتهُ له في هذه الترجمة ، وما مر له ويمر في أثناء هذا الكتاب ، وكونُ كلِّ من اشتغل بهذا التأليف نهراً وهو بحر ، واشتهاره في حفظه التاريخ والاعتناء بالآداب في بلاده ، بحيث لا يحتاج إلى تنبيه ولا إطناب ، وله من النظم والنثر ما تضيح الأقلام من كثرته ، ويُسْتَمَد القَطْر من درتِهِ ، وممَّا شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعاً

١ المغرب ٢ : ٩٩ ويشبه أن يكون نص المغرب المطبوع تلخيصاً لهذه الترجمة التي أوردها المقرئ .

وستين سنة ولم أره يوماً يخلي مطالعة كتاب أو كَتَب ما يخلده ، حتى إن أيتام الأعياد لا يخليها من ذلك ، ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكَتَب ، فقلت له : يا سيدي ، أفي هذا اليوم لا تستريح ؟ فنظر إلي كالمغضب وقال : أظنك لا تُفْلح أبداً ، أترى الراحة في غير هذا ؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ، ولوددت أن الله تعالى يُضَاعِف عمري حتى أتم كتاب « المغرب » على غرضي ؛ قال : فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذُّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن ، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه . وكان أولع الناس بالتجول في البلدان ، ومشاهدة الفضلاء ، واستفادة ما يرى وما يسمع ، وفي تولعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول :

يا مَفْنِياً عُمُرَهُ في الكَأْسِ والوَتَرِ	وراعياً في الدُّجَى للأَنْجَمِ الزَّهَرِ
يَسْكِ حَبِيباً جَفَاهُ أو ينادمُ مَنْ	يَهْفُو لَدَيْهِ كَغُصْنٍ بِاسِمِ الزَّهَرِ
مَنْعَماً بَيْنَ لَذَاتٍ يَحَقُّهَا	ولا يَخْلُدُ مِنْ فَخْرٍ ولا سِيرِ
وعاذلاً لي فيما ظَلَمْتُ أَكْتَبُهُ	يَبْدِي التَّعَجُّبَ مِنْ صَبْرِي وَمِنْ فِكْرِي
يَقُولُ مَا لَكَ قَدْ أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ فِي	حَبْرٍ وَطِرْسٍ عَنِ الْأَغْصَانِ وَالْحَبْرِ
وظَلَمْتَ تَسْهَرُ طَوْلَ اللَّيْلِ فِي تَعَبٍ	ولا تَتِي أَمَدَ الْأَيَّامِ ^١ فِي ضَجَرِ
أَقْصِرْ فَإِنِّي أَدْرَى بِالَّذِي طَمَحْتَ	لَأَفْقَهُ هَمَّتِي وَاسْأَلْ عَنِ الْأَثَرِ ^٢
وَاسْمَعْ لِقَوْلِ الَّذِي تُتْلَى مُحَاسِنُهُ	من بَعْدِ مَا صَارَ مِثْلَ التُّرْبِ كَالسُّورِ
« جَمَالَ ذِي الْأَرْضِ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُمْ	بَعْدَ الْمَمَاتِ جَمَالُ الْكُتُبِ وَالسَّيْرِ »

انتهى .

وولد أبو عمران موسى بن محمد في الخامس من رجب عام ثلاثة وسبعين

١ المغرب : ولا ترى أبد الأيتام .

٢ ق : الخبر .

وخمسمائة ، وتوفي بثر الإسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوال عام أربعين وستمائة .

* * *

[محمد بن عبد الملك بن سعيد]

وولد أبوه محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غرناطة وأعمال إشبيلية عام أربعة عشر وخمسمائة ، وتوفي بشعبان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بغرناطة^١ .

وكان محمد بن عبد الملك وزيراً جليلاً ، بعيد الصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمّة ، كثير الأموال ، وذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه « تاريخ الموحدين »^٢ ونبه على مكانته منهم في الحظوة والأخذ في أمور الناس ، وأثنى عليه ، وذكره السهيلي في « شرح السيرة الشريفة »^٣ حيث ذكر الكتاب الموجه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وأن محمد بن عبد الملك عاينه عند أذفونش مكرماً مفتخراً به ، والقصة مشهورة ؛ ومدحه الرصافي بقصيدة أولها^٤ :

ذهناً يفيضُ وخاطراً متوقداً ماذا عسى يُشقى على علم الندى °

ولما أنشده قصيدته فيه التي أولها^٥ :

لمحلّك الترفيعُ والتعظيمُ ولوجْهِكَ التقديسُ والتكريمُ

حكّفَ لا يسمعها ، وقال : عليّ إجازتك ، ولكن طباعي لا تحمل مثل

١ انظر المغرب ٢ : ١٦٢ .

٢ يعني كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » ، انظر ص : ٢٥١

٣ هو كتاب « الروض الأنف » .

٤ ديوانه : ٦٢ .

٥ الديوان : أبدأ تفيض . . . دعها تبت قبساً على علم الندى .

٦ الديوان : ١٣١ وفيه أنها في مدح أبي جعفر الوقيشي وزير ابن هشك .

هذا ، فقال له الرصافي : ومنْ مُثلِكَ يستحق هذا في الوقت غيرك ؟ فقال له :
دعني من خداعك ، أنا وما أعلمه من قلبي .
وأُشَدُّ له في « الطالع السعيد »^١ :

فلا تُظْهَرَنَّ ما كان في الصَّدْرِ كامناً ولا تَرْكَبَنَّ بالغِظِ في مَرْكَبٍ وَعَرِّ
ولا تَبْحَثَنَّ في عُدْرٍ من جاء تائباً فليس كريماً مَنْ يُبَاحِثُ في العُدْرِ
وولي للموحدين أعمالاً كثيرة بمراكش وسلا وإشبيلية وغرناطة ،
واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها ، وكتب عليه
عقد أن في داره من الحلى وأصنافه ما لا يمكن إلا في دار الملك ، وأنه إذا
ركب في صلاة الصبح شوش ...^٢ ونُبَّاح الكلاب ، فأمر المنصور بالقبض عليه
وعلى ابن عمته صاحب أعمال إفريقية أبي الحسين سنة ٥٩٣ ، ثم رضي عنهما ،
وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ له ، فصرفه عليه ، ولم
ينقص منه شيئاً ، وغرم له ما فات منه ، وهذا مما يدل على قوة سَعْدِ محمد
ابن عبد الملك المذكور ونباهة قدره ، وحَسْبُهُ من الفخر مدحُ أديب الأندلس
وشاعرها أبي عبد الله الرصافي^٣ له ، وهو ممَّنْ يمدحُ الخلفاء في ذلك العصر ،
رحمه الله تعالى ..

[عبد الملك بن سعيد]

وولد أبوه عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة ، وتوفي بحضرة

- ١ البيهقي في المغرب ٢ : ١٦٢ .
- ٢ بياض بقدر سطر في ج ق وجاء في هامش إحدى النسخ : « هذا سطر بخط المؤلف رحمه الله ما قدرنا على استخراج جبره الله تعالى » .
- ٣ أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي (- ٥٧٢) قد جمعنا شعره وقدمنا له بدراسة عن الشاعر ، وانظر في ترجمته المغرب ٢ : ٢٩٧ والتكملة : ٥٢٠ والمعجب : ١٣٧ وتحفة القادم : ١٨٣ وأدباء مالقة ، الورقة : ١٨ .

مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة . قال الحجاري : لما مات يحيى بن غانية الملقب ملك الأندلس بحضرة غرناطة ، وكان وزيره ومُدبر دولته عبد الملك بن سعيد ، بادر الفرار لغرناطة عندما سمع بموته إلى قلعته ، وثار بها ، وطلبه خليفة يحيى بن غانية طلحة^١ بن العنبر ، فوجده قد فاته .

وقد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب في تأليف كتاب « المغرب في أخبار المغرب » ثم تمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تمم ما بقي منه ابنه موسى ابن محمد ، ثم أربى على الكل في إتمامه أبو الحسن علي بن موسى الذي قصدناه بالترجمة في هذا الكتاب ، وقد ذكرنا من أحواله جملة كافية .

* * *

[وصف ابن سعيد لفسطاط]

ومن فوائده ابن سعيد أبي الحسن ما حكاه عن صاحب كتاب « الكمام » وهو^٢ : فأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس ، وجاء الإسلام وبها بناء^٣ يُعرف بالقصر حوله مساكن ، وهو الذي عليه نزل عمرو بن العاص ، وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه ، ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ، ونسب المدينة إليه ، فقل : فسطاط عمرو ، وتداولت عليها بعد ذلك^٤ ولأمة مصر ، فاتخذوها سرير السلطنة ، وتضاعفت عمارتها ، فأقبل الناس من كل جانب إليها ، وقصروا أمانيتهم عليها ، إلى أن رسخت بها دولة بني طولون ، فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع ، وبها كان مسجد ابن طولون الذي هو الآن إلى جانب القاهرة ، وهي مدينة

١ طلحة : ثبتت في ج وسقطت من ق .

٢ قارن هذا النص بما ورد في المغرب ١ : ١ والخط المبريزية ٢ : ١٤٦ ، وأما كتاب الكمام المذكور فإنه للبيهقي .

٣ المغرب : مبني .

٤ بعد ذلك : سقطت من دوزي .

مستطيلة يمر النيل مع طولها ، وتحطُّ في ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ، وبها منزهات ، وهي في الإقليم الثالث ، ولا ينزل فيها مطر إلا في النادر ، وترابُها ينتن^١ الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تستكدر^٢ منه أرجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة . ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة القسطنطينية ، وفُترط في الاعتناء بها بعد الإفراط ، وبينهما نحو ميلين ، وأنشدت فيها للشريف العقيلي^٣ :

أحِنُّ إلى القسطنطينية شوقاً وإنني لأدعو لها أن لا يحلَّ بها القطرُ
وهل في الحيا من حاجةٍ لجنابها وفي كل قطرةٍ من جوانبها نهرُ
تبدَّتْ عروساً والمقطمُ تاجُها ومن نيلها عقدٌ كما انتظم الدُرُّ

وقال عن كتاب أجار^٤ : والقسطنطينية هو قَصَبَة مصر ، والجبل المقطم شرقها ، وهو متصل بجبل الزمرذ ، وقال عن كتاب ابن حوقل^٥ : القسطنطينية مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهي كبيرة ، ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارة والطيب واللذة ذات رِحاب في محالِّها ، وأسواق^٦ عظام فيها ضيق ،

١ المغرب : كثيره .

٢ المغرب : تستكدر .

٣ هو أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة من شعراء المائة الرابعة ، أكثر شعره في الوصف ولم يكن يمدح (انظر المغرب ١ : ٢٠٥ قسم مصر والخريدة ٢ : ٦٢ والمسالك ١١ : ١٩٥) والأبيات ليست في ديوانه المطبوع .

٤ يعني كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسي الذي ألفه للملك رجار (ويقال فيه أجار) : Roger وانظر المغرب ١ : ٢ .

٥ انظر كتاب صورة الأرض : ١٣٧ والنقل عنه باختصار ، ولذا لم نثبت فروق القراءة ؛

والمغرب ١ : ٢ .

٦ ج : وأسواقها .

ومتاجر فخام^١ ، ولها ظاهر أنيق ، وبساتين نضرة ، ومنتزهات على ممر الأيام خضرة ، وفي الفسطاط قبائل وخطط للعرب تُنسب إليها كالكوفة والبصرة ، إلا أنها أقلُّ من ذلك ، وهي سبخة الأرض ، غير نقية التربة ، وتكون الدار بها سبع طبقات وخمساً وستاً ، وربما يسكن في الدار المائتان من الناس ، ومُعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة ، بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط ، والآخر على الموقف^٢ بناه ابن طولون ، وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلاً في ميل يسكنها جنده ، وتُعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان رقّادة ، وقد خربت في وقتنا هذا ، وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة . قال ابن سعيد^٣ : لما استقررتُ بالقاهرة تشوّفت^٤ إلى مُعانة الفسطاط ، فسار معي إليها أحد أصحاب القرية^٥ ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المُعدّة لركوب مَنْ يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة ، لا عهد لي بمثلها في بلد ، فركب منها حماراً ، وأشار إليّ أن أركب حماراً آخر ، فأنيّفتُ من ذلك جرّياً على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فأخبرني^٦ أنّه غير معيب على أعيان مصر ، وعانيت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت ، وعندما استويتُ راكباً أشار المُكاري إلى الحمار ، فطار بي ، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينيّ ، ودنس ثيابي ، وعانيت ما كرهته ، ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدّوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المُكاري ، وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، فقلت :

١ كذا في ج ؛ وفي ق : ضخام .

٢ الموقف : بقعة شمال الفسطاط (الانتصار لابن دقماق ٤ : ١٠) ؛ وفي ج : والآخر على الآخر .

٣ المغرب ١ : ٥ (قسم مصر) .

٤ كذا في ج والمغرب ؛ وفي ق ودوزي : تشوقت .

٥ المغرب : الغزوة .

٦ المغرب : فأعلمني .

لَقِيتُ بِمَصْرَ أَشَدَّ الْبَوَارِ رَكُوبَ الْحِمَارِ وَكَحْلَ الْغُبَارِ
وَحَلَفِي مُكَارٍ يَفُوقُ الرِّيحَ لَا يَعْرِفُ الرِّفْقَ مَهْمَا اسْتَطَارَ
أَنَادِيهِ مَهْلًا فَلَا يَرْعَوِي إِلَى أَنْ سَجَدْتُ سُجُودَ الْعَنَارِ
وَقَدْ مَدَّ فَوْقِي رَوَاقَ الثَّرَى وَأَلْحَدَ فِيهِ ضِيَاءَ النَّهَارِ

فدفعني إلى المكاري أجرته ، وقلت له : إحسانك أن تتركني أمشي على رجلي ، ومشيت إلى أن بلغتها ؛ وقدرت الطريق بين القسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ، ولما أقبلت على القسطاط أدبرت عني المسرة ، وتأمّلت أسواراً مثكّمة سوداء وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها وهو دون غلّقي يُفضي إلى خراب معمور بمبانٍ ممتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بُنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس التنظيف ، ويغض طرف الطريف ، فسرت وأنا مُعَيْن لاستصحاب تلك الحال ، إلى أن صرت في أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تنفي به إلاّ مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعانيت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضده في جامع إشبيلية وجامع مرّاكش ، ثم دخلت إليه فعانيت جامعاً كبيراً قديماً البناء ، غير مزخرف ، ولا مُحْتَقَل في حُصْره التي تدور مع بعض حيّطانه ، وتنسبط فيه ، وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه مَعْبَراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما سوى ذلك ، والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لبحري العادة عندهم بذلك ، وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً ، وفضلات ما كلهم مطروحة في صحن الجامع ، وفي زواياه العنكبوت قد عظم

نسجه في السقف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كُتِبَ فقراء العامة^١ ، إلا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع إشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ، ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس^٢ دون منظر يوجب ذلك ، فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ساحته عند بنائه ، واستحسن ما أبصرته من حلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقهاء والنحو في عدة أماكن ، وسألت عن مواد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب إلا بالجاه والتعب . ثم انفصلنا من هناك إلى ساحل النيل ، فرأيت ساحلاً كدير التربة ، غير نظيف ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سور أبيض ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلتُ إنني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنني أقول حقاً ، والنيل هنالك ضيق ، لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعة قد توسطت الماء ومالت إلى جهة القسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل . وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذي يكون ممتداً من القسطاط إلى الجزيرة ، وهو غير طويل ، ومن الجانب الآخر إلى البر الغربي المعروف ببر الجزيرة^٣ جسر آخر من الجزيرة إليه ، وأكثرُ جَوَازِ الناس بأنفسهم ودوابهم في المراكب ، لأن هذين الجسرين قد احتُرما لحصولهما في حيز قلعة السلطان ، ولا يجوز أحد على الجسر الذي بين القسطاط والجزيرة راكباً احتراماً

١ المغرب : العوام .

٢ ج ق : والحسن .

٣ في ج : ببر الجزيرة .

لموضع السلطان ، وبتنا في ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل ، فقلت ^١ :

نَزَلْنَا مِنَ الْفُسْطَاطِ أَحْسَنَ مَنَزَلٍ بَحِثْ أَمْتَدَادُ النَّيْلِ قَدْ دَارَ كَالْعِقْدِ
وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ الْمَرَائِبُ سُحْرَةً كَسِرْبِ قَطَا أَضْحَى يَرِفُّ عَلَى وَرْدِ
وَأَصْبَحَ يَطْفُو الْمَوْجُ فِيهِ وَيَرْتَمِي وَيَطْرُبُ أحيانًا وَيَلْعَبُ بِالرَّدِ
حَلَا مَأْوَاهُ كَالرَّيْقِ مَمَّنْ أَحَبَّهُ فَمَدَّتْ عَلَيْهِ حُلَّةٌ مِنْ حُلَى الْخَدِّ
وَقَدْ كَانَ مِثْلَ النَّهْرِ مِنْ قَبْلِ مَدَّةٍ فَأَصْبَحَ لَمَّا زَادَهُ الْمَدُّ كَالْوَرْدِ

وقلت هذا لأنني لم أذق في المياه أحلى من مائه ، وإنه يكون قبل المد الذي يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض ، فإذا كان عباب النيل صار أحمر ، وأنشدني علم الدين فخر الترك أيدمر ^٢ عتيق وزير الجزيرة في مدح الفسطاط ^٣ :

حَبَّبْنَا الْفُسْطَاطَ مِنَ الْوَلَدَةِ جَنَّبْتُ أَوْلَادَهَا دَارَ الْحَفَا
يَرِدُ النَّيْلُ إِلَيْهَا كَدِرًا فَإِذَا مَازَجَ أَهْلِيهَا صَفَا
لَطْفُوا فَالْمَزْنُ لَا تَأْلَفُهُمْ خَجَلًا لَمَّا رَأَتْهُمْ أَلْفَا

ولم أر في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ، والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ، وتحت ذلك من المَلَقِ وقلة المبالاة برعاية قدر الصحة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره .

وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندراني والبحر الحجازي

١ الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٨) ، والخطط ٢ : ١٤٨ .

٢ هو علم الدين أيدمر المحيوي التركي ، راجع ترجمته في فوات الوفيات (١ : ١٤٠) وهو ينقل عن المشرق في حلى المشرق لابن سميذ ، وله ديوان شعر يمثل قسماً من شعره (دار الكتب : ١٩٣١) .

٣ وردت هذه الأبيات في كتاب الانتصار ٤ : ١٠٩ ، وانظر مقدمة ديوانه ، والمغرب (قسم مصر ١ : ٩) ، والخطط ٢ : ١٤٨ .

٤ المغرب (قسم مصر) : ١١ .

فإنّه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك ، لا بالقاهرة ، ومنها يجهر إلى القاهرة وسائر البلاد .

وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى ، لأن القاهرة بُنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما يُنسج ويصاغ وسائر ما يُعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية ، والخراب في الفسطاط كثير ، والقاهرة أجْدُ وأَعمَر وأَكْثَر زحمة ، باعتبار انتقال^١ السلطان إليها ، وسكنى الأجناد فيها ، وقد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن ، لمجاورتها للجزيرة الصالحية ، وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر ، انتهى .

قال المقرئ^٢ : يعني ابن سعيد ما بني على شفة مصر من جهة النيل ، انتهى . وقال ابن سعيد المذكور في « المغرب من حلى المغرب » ما ملخصه : الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجزيرة ، وبها مقياس النيل ، وكانت منتزهاً لأهل مصر ، فاخترها الملك الصالح ابن الملك الكامل سريراً لسلطنته ، وبنى فيها قلعة مُسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالي السَّمك لم ترَ عيني أحسنَ منه ، وفي هذه الجزيرة كان الهودج الذي بناه الخليفة الأمر لزوجته البدوية التي هَامَ في حبها ، والمختار بستان الإخشيد وقصره ، وله ذكر في شعر تميم بن المعز وغيره ، ولشعراء مصر في هذه الجزيرة أشعار ، منها قول أبي الفتح ابن قادوس الدميّاطي :

أرى سُرُجَ الجزيرة من بَعِيدٍ كأحداق تُغازلُ في المغازل
كَأَنَّ مَجْرَةَ الجوزاء خَطَّتْ وأُثْبِتَ المنازلَ في المنازل

١ المغرب : بسبب انتقال .

٢ الخطط ٢ : ١٤٩ .

قال : وكنت أبيتُ بعض الليالي بالقسطا ، فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدريّ اللون ، ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة ، وفي داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همّة بانيتها ، وهو من أعظم السلاطين في البناء ، وأبصرت بهذه الجزيرة إيواناً جلوسه لم تر عيني مثاله ، ولا يُقدَّر ما أنفق عليه ، وفيه من صحائف الذهب والرخام الآبنوسي والكافوريّ والمجزَّع ما يذهل الأفكار ، ويستوقف الأبصار ، ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة في بعضها حاضر^١ حصر فيه أصناف الوحوش التي يتفرج عليها السلطان ، وبعدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر ، قال : وقد تفرجت كثيراً في طرف^٢ هذه الجزيرة ممّا يلي أثر القسطا فقطعت به عشيات مُذهّبات ، لم تزل لأحزان الغربة مُذهّبات ، وإذا زاد النيل فصل برها عن بر القسطا من جهة خليج القاهرة ، ويبقى موضع الحسر تكون فيه المراكب ، انتهى .

وأورد الصفدي في تذكرته لابن سعيد المذكور في هذه الجزيرة :

انظر إلى سور الجزيرة في الدجى والبدر يلثم منه تُغراً أشنباً
تضاحك الأنوار في جنباته فترك فوق النيل أمراً مُعجباً
بيننا تراه مُفضّضاً في جانب أبصرت منه في سواه مُذهّبا
لله مرأى ما رآه ناظري إلا خلعت له المقام تطربا

* * *

[وصف القاهرة]

وقال في « المغرب » نقلاً عن بعضهم ما صورته^٣ : وأما مدينة القاهرة ، فهي الحالية الباهرة ، التي تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها ، واتخذوها

١ ق : حاظر . ٢ ق : طرق .

٣ المخطوط ٢ : ١٨٦ - ١٩٠ والنقل عن البيهقي .

قُطِباً لخلافتهم ومركزاً لأرجائها ، فَنُسِيَ الفسْطاط ، وزُهِد فيه بعد الاغْتباط ،
وسميت القاهرة لأنها تَقْهَر من شَذ عنها ورام مخالفة أميرها ، انتهى . قال ابن
سعيد : هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها
على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظمُ خلفاء العُبيديين ، وكان
سلطانها قد عم جميع طول المغرب من أوّل الديار المصرية إلى البحر المحيط .

وسارت مَسِيرَ الشمسِ في كلّ بلدةٍ وهبّتْ هبوبَ الريحِ في البرِّ والبحرِ
لا سيّما وقد عاين مباني أبيه المنصور في المدينة المنصورية إلى جانب القيروان
وعاين المهديّة مدينة جدّة عبّيد الله المهدي ، لكنّ الهمة السلطانية ظاهرة على
قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة إلى الآن بألسن الآثار ، ولله در القائل :

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها من بَعْدِهِمْ فبالسُّنَنِ البُنيانِ
إنَّ البِناء إذا تعاضَمَ شأنُهُ أضْحى يدلّ على عَظِيمِ الشانِ

وتهم من بعده الخلفاء المصريون في الزيادة في تلك القصور ، وقد عاينت
فيها إيواناً يقولون إنّه بني قدر إيوان كسرى الذي بالمدائن ، وكان يجلس فيها
خلفاؤهم ولهم على الخليج الذي بين الفسْطاط والقاهرة مَبَانٍ عظيمة جليّة
الآثار ، وأبصرت في قصورهم حيطاناً عليها طاقات عديدة من الكِلْس والجبس
ذُكر لي أنهم كانوا يجدّون تبييضها في كلّ سنة ، والمكان المعروف بالقاهرة
بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأنّ هناك ساحة متّسعة للعسكر
والمُتفرّجين ما بين القصرين ، ولو كانت القاهرة كلّها كانت عظيمة القدر
كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ، ثم تسير منه إلى أمد ضيق ، وتُمرّ
في ممر كدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيلُ مع الرجال كان
مما تضيق به الصدور ، وتسخن منه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة
وبين يديه الأمراء ، وهو في موكب جليل ، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل

حجارة ، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم
الازدحام ، وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير ، وعلى ثيابه ،
وقد كاد يهلك المشاة ، وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دُروب القاهرة ضيقة
مظلمة كثيرة التراب والأزبال ، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد
ضَيَّقَتْ مسلك الهواء والضوء بينها ، ولم أرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ منها
حالاَ في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري ، وتُدْرِكني وحشة
عظيمة ، حتى أخرج إلى بين القصرين .

ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشاً
لبعدها عن مجرى النيل ، لثلا يصادرها ويأكل ديارها ، وإذا احتاج الإنسان إلى
فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاھرھا بين المباني التي خارج السور إلى
موضع يُعرف بالمتّقس ، وجوَّھا لا يبرح كدراً بما تنثره الأرض من التراب
الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر عليّ رفاقي من الحُص على العود فيها :

يقولون سافِرْ إلى القَاهِرَة وما لي بها راحَة ظاهِرَة
زِحامٌ وضيقٌ وكَرْبٌ وما تُثير بها أَرْجُلٌ سائِرَة

وعندما يُقْبِلُ المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً ، وجوّاً مغبرّاً ،
فتنقبض نفسه ، ويفرُّ أنسه ، وأحسن موضع في ظواھرھا للفرجة أرض الطبالَة ،
لا سيّما أرض القرط والكتان ، وقلت :

سقى الله أرضاً كلما زُرَتْ رَوْضُها كَسّاها وحلّاها بزِينَتِها القرطُ
تَجَلَّتْ عَرُوساً والمياه عَقُودُها وفي كل قطر من جوانبها قرطُ

وفيها خليج لا يزال يضعف بين حضرتها حتى يصير كما قال الرصافي :

ما زالتِ الأمحالُ تأخذه حتى غدا كدْوَابة التّجم

وقلت في نور الكتان على جانبي الخليج :

انظرُ إلى النهرِ والكتانُ يَرْمُقُهُ من جانبيهِ بأجفانٍ لها حَدَقُ
رأتهُ سَيِّفًا عليه للصِّبَا شُطْبُ فقابلتُهُ بأحداقٍ بها أَرَقُ
وأصْبَحْتُ في يدِ الأرواحِ تَنْسُجُهَا حتَّى غَدَتُ حَلَقًا من فوقها حَلَقُ
فقمُ فزُرْها ووجهُ الأرضِ مُصْطَبُ أو عندَ صُفْرَتِهِ إن كنتَ تَغْتَبُ

وأعجني في ظاهرها بركة الفيل ، لأنها دائرة كالبدر ، والمناظر فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ، وتُسْرِجُ أصحابُ المناظر على قدر همتهم وقدرتهم ، فيكون لها بذلك منظر عجيب ، وفي ذلك قيل^١ :

انظرُ إلى بِرْكَةِ الفِيلِ التي اكْتَنَفَتْ بها المَنَاطِرُ كالأهدابِ للبَصْرِ
كأتما هي والأبصارُ تَرْمُقُهَا كواكبٌ قد أداروها على القَمَرِ

ونظرتُ إليها وقد قابلتها الشمس بالغُدُو فقلت :

انظرُ إلى بركةِ الفيلِ التي فَجَرَتْ لها الغَزَالَةُ فَجْرًا مِنْ مَطَالِعِهَا
وخَلَّ طَرَفَكَ مَجْنُونًا بَبْهَجَتِهَا يَهِيمُ وَجَدًا وَحُبًّا في بدائعِهَا

والفسطاط أكثر أرزاقاً ، وأرخص أسعاراً من القاهرة ، لقرب النيل من الفسطاط ، والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ، ويبيع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة ، لأنه يبعد عن المدينة ، والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجَلُّ مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة ، لقرب قلعة الجبل منها ، فأمر السلطنة كلها فيها أيسر ، وأكثر ، وبها الطراز وسائر الأشياء التي يتزين بها الرجال والنساء ، إلا أن في هذا الوقت لما اعتنى

١ سقط البيتان من ج .

السلطان ببناء قلعة الجزيرة التي أمام القسطاط وصيرها سرير السلطنة عَظُمَت
عمارة القسطاط ، وانتقل إليها كثير من الأمراء ، وضخمت أسواقها ، وبني
فيها السلطان أمام الجسر الذي للجزيرة قيسارية عظيمة ، فنقل إليها من القاهرة
سوقَ الأجناد التي يُباع فيها الفِرَاء والجوخ وما أشبه ذلك .

إلى أن قال : وهي الآن عظيمة آهلة ، يُجَنَّبُ إليها من الشرق والغرب
والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفسيره إلا خالق الكل جلّ وعلا ، وهي
مستحسنة للفقير الذي لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيماً ولا عذاباً ، ولا يطالب
برقيق له إذا مات ، فيقال له : ترك عندك مالاً ، فربما سجن في شأنه أو ضرب
أو عصر ، والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماع
والفرج في ظواهرها ودَوَاحِلها ، وقلّة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه ،
يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة
أو صحبة مُرَدّان وما أشبه ذلك ، بخلاف غيرها من بلاد المغرب ، وسائر الفقراء
لا يتعرضون إليهم بالقبض للأسطول إلا المغاربة ، فذلك وقف عليهم لمعرفة
بمعاناة البحر ، وقد عمّ ذلك مَنْ يعرف معاناة البحر منهم ومَنْ لا يعرف ،
وهم في القدوم عليها بين حالين : إن كان المغربي غنياً طوّل بالزكاة وضيق
عليه السعاة ، وإن كان مجرداً فقيراً حُمِلَ إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول .
وفي القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتصال ، وهذا الشأن في الديار
المصرية يفضل كثيراً من البلاد ، وفي اجتماع الرجس والورد فيها أقول :

مَنْ فَضَّلَ الرِّجْسَ وَهُوَ الَّذِي يَرْضَى بِحُكْمِ الْوَرْدِ إِذْ يَرَأْسُ
أما ترى الورد غداً قاعداً وقامَ في خِدْمَتِهِ الرِّجْسُ

وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز ، أمّا التفاح والإجاص
فقليل غال ، وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والرجس والنسرین والنيلوفر والبنفسج
والياسمين والليمون الأخضر والأصفر ، وأمّا العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة

ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ، ومع هذا فشرابه عندهم في غاية الغلاء ، وعامتها يشربون المِزْرَ الأبيض المتخذ من الخنطة ، حتى إن الخنطة يطلع سعرها بسببه ، فينادي المنادي من قبل الوالي بقطعه وكسر أوانيه ، ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ، ولا تبرُّج النساء العواهر ، ولا غير ذلك ممّا ينكر في غيرها من بلاد المغرب ، وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب ، وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة ، حتى إن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسُّرُج في جانبيه بالليل منظر ، وكثيراً ما يتفرج فيه أهل الستر في الليل ، وفي ذلك أقول :

لا تَرْكَبَنَّ فِي خَلِيجِ مِصْرٍ	إِلَّا إِذَا أُسْدِلَ الظَّلَامُ
فَقَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَلَيْهِ	مِنْ عَالَمٍ كُلُّهُمْ طَعَامُ
صَفَاتِ الْحَرْبِ قَدْ أَطْلَأَ	سِلَاحُ مَا بَيْنَهُمْ كَلَامُ
يَا سَيِّدِي لَا تَسِرْ إِلَيْهِ	إِلَّا إِذَا هَوَّمَ النِّيَامُ
وَاللَّيْلُ سَتْرٌ عَلَى التَّصَابِي	عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ لثَامُ
وَالسُّرُجُ قَدْ مُدَّتْ عَلَيْهِ	مِنْهَا دَنَائِيرُ لَا تُرَامُ
وَهُوَ قَدْ امْتَدَّ وَالْمَبَانِي	عَلَيْهِ فِي خِدْمَةِ قِيَامُ
لِلَّهِ كَمْ دُوحَةٍ جَنَيْنَا	هُنَاكَ أَثْمَارَهَا الْأَثَامُ

قال المقرئ : وفيه تحامل كثير ، انتهى .
ومن نظر بعين الإنصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل إليه ، والله تعالى الموفق .

قال ابن سعيد : ومعاملة الفُسطاط والقاهرة بالدرهم المعروفة بالسوداء ،

كل درهم منها ثلاثة من الدرهم الناصري ، وفي المعاملة بها شدة وخسارة في البيع والشراء ، ومحاصرة بين الفريقين ، وكان بها قديماً الفلوس ، فقطعها الملك الكامل ، فبقيت الآن مقطوعة منها .

وهي في الإقليم الثالث ، وهواؤها رديء ، لا سيّما إذا هبّ المَرِسي من جهة القبلة ، وأيضاً فرمَدُ العين فيها كثير ، والمعاش فيها متعذرة نَزْرَة ، لا سيّما أصناف الفضلاء ، وجوامك المدارس قليلة كدرة ، وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى في كتابة الطب والحراج ، والنصارى بها يمتازون بالزنتار في أوساطهم ، واليهود بعمائم صُفر ، ويركبون البغال ، ويلبسون الملابس الجليلة ، ويأكل أهل القاهرة البَطَارخ ، ولا تُصنع حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جَوَارٍ طبابخات أصلُ تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ، ولهن في الطبخ صنائع عجيبة ، ورياسة متقدمة ، ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة . انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام أبي الحسن النور بن سعيد رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله :

كَمْ ذَا تُقِيمُ بِمِصْرَ مُعَذَّباً بِذَوِيهَا
وكيف ترجو نَدَاهُمْ والسُّحْبُ تَبْخَلُ فِيهَا

وقال رحمه الله تعالى :

لابن الزبير مكارم أضحَتْ بها طيرُ المدائح في البلاد تُغَرَّدُ
إن قَيِّدوه وَبَالِغُوا فِي عَصْرِهِ فالكرمُ يُعْصَرُ والجَوَادُ يُقَيَّدُ

١٦٦ - ولنذكر بعض أخبار والده ، فإنه ممّن رحل إلى المشرق وتوفي بالإسكندرية ، وقد ذكر ابنه أبو الحسن في « المغرب » وغيره من أخباره

العجائب ، ولا بأس بأن نلم بشيء من ذلك ، سوى ما تقدم ، فنقول :
من أخباره أنه لما اجتاز بمالقة ومشرفها إذ ذاك أبو علي ابن مبقى وجه
إليه من نقل أسبابه إلى داره وأقبل عليه منشداً :

أكذا يجوز القطرُ لا يثني على أرض توالى جدُّها من بعده
اللهُ يعلمُ أنها ما أنبتت زهراً ولا ثمرأً بمدةٍ فقدته
عرجَ عليها ساعةً يا مَنْ له حسَبٌ يفوقُ العالمينَ بمجده
وانثُرْ عليها من أزهركَ التي تشفي المتيم من لواعجِ وجده
والله ما ذاكرتُ فكركَ ساعةً إلا وأقبسَ خاطري من زنده
قال موسى : فارتجلت للحين :

أنتَ الذي تعرفُ كيفَ العلا وتبتدي في سُبُلِ المجدِ
بدأتَ بالفضلِ المنيرِ الذي أكملَ بدرَ الشكرِ والحمدِ
والله ما أبصرتكم ساعةً إلاً بدا لي طالعُ السعدِ
وانصرفت معه إلى منزله :

فلم أزلَ في كرامتهُ ليستَ كظلِّ غمامهُ

ولما كان أبو عمران موسى بن سعيد بالجزيرة الخضراء مُقَدِّماً على أعمالها
من قبل ابن هود وصله كتاب من الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عسكر
قاضي مالقة مع أحد الأدباء ، منه :

أفتحُ مَنْ قلبي بعلياه واثقُ وإن كانت الأبصارُ لم تنسخِ الودَّ
وثقتُ بما لي من ذمام تشيخي بآلِ سعيدٍ فابتغيتُ به السعدا
وبالحب يدنو كلُّ من أقصتِ النوى برغمِ حجابِ للنوى بيننا مدداً

يا سيدي الذي حملني ما أمال أسماعي من الثناء عليه ، أن أهجم على مفاتحته

شافعاً في موصلها إليه ، واثقاً بالفرع لعلم الأصل ، مؤملاً للإفضال بتحقيق
الفضل ، إن لم تقص باجتماع بيننا الأيتام ، فلا تجزىء من المشافهة بيننا ألسن
الأقلام ، ويوحى بعضنا إلى بعض بسور الوداد ، والحمد لله الذي أطلعك في
ذلك الأفق بدرأ ، وأدناك من هذه الدار فصرنا لقرب من يرد عنك لا نعدم
لك ذكراً ، فكلُّ يثني بالذي علمت سعد ، ويصف من خلاك ما يقضي
ذلك المجد ، ولما كان إحسانك يبشر به الصادر والوارد ، ويحرض عليه الغائب
والشاهد ، مدَّ أمله نحوك موصل هذه المفاتحة ، وليس له وسيلة ولا بضاعة إلا
الأدب وهي عند بيتك الكريم رابحة ، وهو من شئت خطوب هذا الزمان شمَّله ،
وأبانت نوابه صبره وفضله ، وما طمح ببصره إلا إلى أفقك ، ولا وجه رجاء
إلا نحو طرقتك ، والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنت حقائبه ، وأعنت من
الحمد ركائبه ، دُمت غرة في الزمن البهيم ، مخصوصاً بأفضل التحية والتسليم ،
انتهى .

وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر في العلوم ، وله كتاب في أنساب
بني سعيد أصحاب هذه الترجمة ، ومن شعره :

أهواك يا بدرُ وأهوى الذي يعذلني فيك وأهوى الرقيب
والجارَ والدارَ ومن حلتها وكلَّ من مرَّ بها من قريب
وكلَّ مُبدٍ شبَّهاً منكم وكلَّ من يلفظُ باسم الحبيب

* * *

[وصية ابن سعيد الأب لابنه علي]

رجع :

قال ابنه علي : لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة أول
وصولي إلى الإسكندرية ، رأى أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية ،

فبقي فيها أياماً إلى أن كتبها عنه ، وهي هذه ، وكفى بها دليلاً على ما اختبر وعلم :

أودِعَكَ الرحمنَ في غُرْبَتِكَ ۖ مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ في أَوْبَتِكَ ۖ
وما اختياري كان طَوْعَ النوى ۖ لَكِنِّي أَجْرِي على بُغْيَتِكَ ۖ
فلا تُطِيلْ حَبْلَ النوى إِنِّي ۖ والله أَشْتاقُ إلى طَلْعَتِكَ ۖ
مَنْ ۖ كَانَ مَفْتُوناً بِأَبْنَاهُ ۖ فَإِنِّي أُمَعِّنْتُ في خَبْرَتِكَ ۖ
فاختَصِرِ التوديعَ أَخْذاً ۖ لي ناظرٌ يَقْوَى على فُرْقَتِكَ ۖ
فما واجعلُ ۖ وصافي نُصْبَ عَيْنٍ ۖ تَبَرَّحَ مَدَى الأيامِ من فِكْرَتِكَ ۖ
خُلَاصَةُ العُمُرِ الَّتِي حُنْكَتْ ۖ في ساعة زُقَّتْ إلى فِطْنَتِكَ ۖ
فللتجاريبِ أمورٌ ۖ إذا طالَعَتْهَا تَشْحَدُ من غفلتك ۖ
فلا تَنَمَ ۖ عَن ۖ وَعَيْهَا ساعةٌ ۖ فَإِنَّهَا عَوْنٌ ۖ إلى يَقْظَتِكَ ۖ
وكلُّ ما كابدتهُ في النوى ۖ إِيَّاكَ أن يَكْسَرَ من هِمَّتِكَ ۖ
فليس يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ ۖ وَإِنَّمَا تُعْرِفُ من شِمَّتِكَ ۖ
وكلُّ ما يُقْضِي لَعْدِرٍ ۖ فلا تجعلُهُ في الغُرْبَةِ من إِرْبَتِكَ ۖ
ولا تجالِسْ ۖ مَنْ ۖ فَشَا جَهْلُهُ ۖ واقْصِدْ ۖ لِمَنْ يَرِغْبُ في صِنْعَتِكَ ۖ
ولا تجادلْ ۖ أَبَداً حاسِداً ۖ فَإِنَّهُ ۖ أَدْعَى إلى هَيْبَتِكَ ۖ
وامْشِرِ الهَوَيْنَا مُظْهِراً عِفَّةً ۖ واِبْغِ رَضَى الأَعْيُنِ ۖ عن هَيْبَتِكَ ۖ
أَفْشِرِ التَّجِبَاتِ ۖ إلى أَهْلِهَا ۖ وَنَبِّهِ النَّاسَ ۖ على رَتْبَتِكَ ۖ
وانْطِقْ ۖ بِحَيْثُ العِي ۖ مُسْتَقْبَحٌ ۖ واصْصُمْتَ بِحَيْثُ الخَيْرُ ۖ في سَكَّتِكَ ۖ
ولا تَزَلْ ۖ مجْتَمِعاً طالِباً ۖ مِمَّنْ دَهْرُكَ الفُرْصَةَ ۖ في وَثْبَتِكَ ۖ
وكلِّمَا أَبْصَرْتَهَا أَمَكَّتْ ۖ ثِبْ ۖ وَاثِقاً بالله ۖ في مَكْنَتِكَ ۖ
ولِجْ ۖ على رِزْقِكَ ۖ مِنْ بابِهِ ۖ واقْصِدْ ۖ لَهُ ما عَشْتَ ۖ في بُكْرَتِكَ ۖ

وَايَأْسٌ مِّنَ الْوَدِّ لَدَى حَاسِدٍ
 وَوَفْرٌ الْجَهْدِ فَمَنْ قَصِدُهُ
 وَوَفٌّ كَلًّا حَقَّه وَلِتَكُنْ
 وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُتْبَةٍ
 وَحَيْثُمَا خَيَّمْتَ فَاقْصِدْ إِلَى
 وَلِلرَّزَايَا وَتَبَسُّةٌ مَا لَهَا
 وَلَا تَقُلْ أَسْلَمَ لِي وَحَدَّثَنِي
 وَلِتَتَزَنِ الْأَحْوَالُ وَزَنًا وَلَا
 وَلِتَجْعَلَ الْعَقْلَ مُحْكَمًا وَخُذْ
 وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاظِهِمْ
 بَعْدَ اخْتِبَارِ مَنْكَ يَقْضِي بِمَا
 كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُّظْهِرٍ نُّصْحِهِ
 إِيَّاكَ أَنْ تَقْرِبَهُ ، إِنَّهُ
 وَاقْنَعْ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا
 وَأَنْمُ نَمُو النَّبْتِ قَدْ زَارَهُ
 وَإِنْ نَبَا دَهْرٌ فَوْطَنَ لَهُ
 فَكُلْ ذِي أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ
 وَلَا تُضَيِّعْ زَمَنًا مِمَكْنًا
 وَالشَّرُّ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ
 ضِدٌّ وَنَافِسُهُ عَلَى خُطَّتِكَ
 قَصْدُكَ لَا تَعْتَبِهِ فِي بَغْضَتِكَ
 تَكْسِرُ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدِّتِكَ
 فَإِنَّهُ أَنْفَعُ فِي غُرْبَتِكَ
 صُحْبَةٌ مِّنْ تَرْجُوهُ فِي نَصْرَتِكَ
 إِلَّا الَّذِي تَذْخَرُ مِنْ عُدَّتِكَ
 فَقَدْ تُقَاسِي الذَّلَّ فِي وَحْدَتِكَ
 تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكَ
 كَلًّا بِمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
 وَاصْصَبْ أَخَا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكَ
 يَحْسُنُ فِي الْأَخْدَانِ مِنْ خِلْطَتِكَ
 وَفَكْرُهُ وَقِفْ عَلَى عَشْرَتِكَ
 عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
 وَاطْمَعْ إِذَا نَفَسْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
 غَبُّ النَّدَى وَاسْمُ إِلَى قُدْرَتِكَ
 جَاشَكَ وَأَنْظِرْهُ إِلَى مُدَّتِكَ
 فَوْفٌ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
 تَذَكَارُهُ يُدْكِ لَظَى حَسْرَتِكَ
 فَإِنَّهُ حُبٌّ عَلَى مُهْجَتِكَ

يَا بَنِيَّ الَّذِي لَا نَاصِحَ لَهُ مِثْلِي ، وَلَا مَنْصُوحَ لِي مِثْلِهِ : قَدِمْتُ لَكَ فِي
 هَذَا النِّظَمِ مَا إِنْ أَحْطَرَّتْهُ بِخَاطِرِكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ رَجَوْتُ لَكَ حَسَنَ الْعَاقِبَةِ ، إِنْ
 شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنْ أَحْفَافًا مِنْهُ لِلْحِفْظِ وَأَعْلَقَ بِالْفِكْرِ وَأَحَقَّ بِالتَّقْدِمِ

١ ج : قد قدمت

قول الأول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغترَبُ ثلاثُ فمَنْهَنُ حُسْنُ الأدبِ
وثانيةٌ حُسْنُ أخلاقِهِ وثالثَةُ إجتِنابُ الرِّيبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها في الغربة رأيتها جامعة نافعة ، لا يلحقك إن شاء الله تعالى مع استعمالها ندم ، ولا يفارقك بر ولا كرم ، والله درُّ القائل :

يَعْدُ رَفِيعَ القومِ مَنْ كانَ عاقِلاً وإن لم يكنْ في قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
إذا حلَّ أرضاً عاشَ فيها بِعَقْلِهِ وما عاقلٌ في بِلَدَةٍ بِغَرِيبِ

وما قصّر القائل حيث قال :

واصْبِرْ على خُلُقِ مَنْ تُعاشِرُهُ ودَارِهِ فالليْبُ مَنْ دَارَى
واتخذِ الناسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا ومثَلِ الأرضِ كُلِّهَا دَارًا

وأصغر يا بني إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر ، وسلّم الكرم والصبر :

ولوْآنَ أوطانَ الديارِ نَبَتَ بكم لسكنتم الأخلاقَ والآدابا

إذ حُسِنَ الخلقُ أَكْرَمَ نزيلُ ، والأدبُ أرحبُ منزلُ ، ولتكن كما قال أحدهم في أديب متغرب : وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد ، وإليه قصد ، غير مستريب بدهره ، ولا منكر شيئاً من أمره ، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلف له سلماً ، وهُبْ في روض أخلاقه هبوبَ النسيم ، وحلّ بطرفه محلّ الوسن^١ ، وانزل بقلبه نزول المسرة ، حتى يتمكن لك وداده ، ويخلص فيك اعتقاده ، وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا ترخص في جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه ، لمنفعته ،

١ ج : على الوسن .

أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك ، ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ، ولا تتمهد بدوام رقده ، فقد ينبهه الزمان ، ويغير منه القلب واللسان ، ولذا قيل : إذا أحبت فأحب هوناً ما ، ففي الممكن أن ينقلب الصديق عدوّاً والعدوّ صديقاً ، وإنّما العاقل مَنْ جعل عقله معياراً ، وكان كالمرآة يلقي كل وجه بمثاله ، وجعل نصب ناظره قول أبي الطيّب :

ولما صار ودُّ النَّاسِ خبيّاً جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامٍ

وفي أمثال العامة : من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل ، فاحتذى مثله^١ مَنْ جَرَّبَ ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبههم من الأقوال ، فإنّها خلاصة عمرهم ، وزُبْدَةُ تجاربهم^٢ ، ولا تتكلّ على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربهم يُربحك ، ويقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت مَنْ له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه ، ولا تضيع فعله ولا قوله ، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك ، وحشاً لك واهتداءً ، وإيّاك أن تعمل بهذا البيت في كل موضع :

فالحرُّ يُخدَع بالكلام الطيّب

فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمّل ، وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه ، حتّى تتدبره ، فإن كان موافقاً لعقلك مصلحاً لحالك قواه ذلك عندك ، وإلاّ فانبيذه نَبَذَ النواة ، فليس لكل أحد يُتَّبَع ، ولا كل شخص يُكَلِّم ، ولا الجود ممّا يُعَم به ، ولا حسن الظنّ وطيب النفس ممّا يعامل به كل أحد ، والله در القائل :

ومّا لي لا أوفي البريّة قِسْطَها على قدر ما يُعطى وعقلي ميزانٌ

١ كذا في ج ق ، وقد يقرأ معطوفاً على « وجعل » ولعل الصواب « فاحتذ أمثله » .

٢ ق : نخائبهم ؛ ج : تحابهم ؛ دوزي : حياتهم .

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفاء ،
ولا الكفاء بمعاملة الأعلى ، ولا تضع عمرك فيمن يملكك^١ بالمطامع ، ويشنّيك^٢
عن مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وبيع أجلاً منك بالعاجل

وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ، ولا تجفهم بالجملة ، ولكن يكون
ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء ، ولا تقل أيضاً أقعد في كسر
بيتي ولا أرى أحداً ، وأستريح من الناس ، فإن ذلك كسل داع إلى الذل
والمهانة ، وإذا علم عدوّ لك أو صديق منك ذلك عاملاً بحسبه ، فازدرك
الصديق وجسّر عليك العدو ؛ وإياك أن يغرك صاحب واحد عن أن تذخر
غيره للزمان ، وتطيعه في عداوة سواه ، ففي الممكن أن يتغير عليك فتطلب
إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها ، وكان هو في أوسع حال وأعلى
رأي بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره ، فلو اتفق لك أن تصحب من كل
صناعة وكل رياسة من يكون لك عدوّ لك كان ذلك أولى وأصوب ، وسكتي
فإنّي خبير ، طال والله ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتمد على سواه ،
ولا أعتدّ إلاّ إياه ، منخدعاً بسرّابه ، موثقاً في حبال خطابه ، إلى أن لا يحصل
لي منه غير العَصّ على البنان ، وقول : « لو كان ولو كان » ، ولا يملكك
أيضاً هذا القول أن تظنه في كل أحد ، وتعجل المكافأة ، وليكنّ حبس الظن
بمقدار ما ، واصبر بقدر ما ، والفطن لا تخفى عليه مخايل الأحوال ، وفي الوجوه
دلالات وعلامات ، وأصنع إلى القائل :

ليس ذا وجه من يضيف ولا يتهري ولا يدفع الأذى عن حريم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فول وجهك عنه قبله ترضاه ، ولتحرص

١ ج : يملك .

جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلاَّ ربَّ حشمة ونعمة ، ومن نشأ في رفاهية ومروءة ، فإنَّك تنام معه في مِهَاد العافية ، وإن الجياد على أعراقها تَجري ، وأهل الأحساب والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصْمَةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان : أشرب مصعب الخمر ؟ فقال عبد الملك - وهو عدوُّ له محارب له على الملك - : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

والفَضْل ما شهدت به الأعداء

يا بني ، وقد علمت أن الدنيا دار مُفارقةٍ وتغير ، وقد قيل : اصْحَبْ من شئت فإنَّك مفارقه ، فمتى فارقت أحداً فعلى حسنٍ في القول والفعل ، فإنَّك لا تدري هل أنت راجع إليه ، فلذلك قال الأول :

ولما مَضَى سلمٌ بكيت على سلمٍ

ولإياك والبيت السائر^١ :

وكننت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزيئةٍ وتركت عارا

واحرص على ما جمع قول القائل^٢ : ثلاثة تبقي لك الودَّ في صدر أخيك ، أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحبِّ الأسماء إليه ؛ واحذر كل ما بيته لك القائل : كلُّ ما تغرسه تجنيه إلاَّ ابن آدم فإنَّك إذا غرسه يقلعك ، وقول الآخر : ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن ، وقول الآخر : ابن آدم ذئب مع الضعف ، أسد مع القوة . وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطيل اختباره ، فيحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته ، فجاوبه :

١ البيت لبحرير (ديوانه : ٢١٦) .

٢ ورد في صيون الأخبار ٣ : ٩ مروياً عن مجاهد .

إن الصبحة رِقٌّ ، ولا أضع رقي في يدك حتى أعرف كيف مَلَكَكَ . واستمَلِ
من عين من تعاشره ، وتفقد في فلتات الألسن وصفحات الأوجه ، ولا يحملك
الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبينه ، فإن الكلام سلاح السلم ، وبالأئين
يُعرف ألم الجرح ، واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك ، وأكد ما
أوصيك به أن تطرح الأفكار ، وتسلم للأقدار :

واقبل من الدهر ما أتاكَ بهِ مَنْ قَرَّ عيناً بعيثه نفعه .

إذ الأفكار تجلب الهموم ، وتضاعف الغموم ، وملازمة القُطُوب ، عنوان
المصائب والخطوب . يستريب به الصاحب ، ويشمت العدو المجانب ، ولا تضرَّ
بالوساوس إلا نفسك ، لأنك تنصر بها الدهر عليك ، ولله درُّ القائل :

إذا ما كنتَ للأحزان عَوْنًا عَلَيْكَ معَ الزَّمانِ فَمَنْ تَلُومُ
مع أنه لا يردُّ عليك الفاتئ الحزن^١ ، ولا يرعوي بطول عتبك الزمن .
ولقد شاهدتُ بعَرَناطة شخصاً قد ألفتَه الهموم ، وعشقتَه الغموم ، من صغره
إلى كبره ، لا تراه أبداً خلياً من فكره ، حتى لُقِّبَ بصدر الهم ، ومن أعجب
ما رأيته منه أنه يتنكد في الشدة ، ولا يتعلل بأن يكون بعدها فرج . ويتنكد
في الرخاء خوفاً من أن لا يدوم ، وينشد :

توقَّع زَوَالاً إذا قيل تَمَّ^٢

وينشد^٣ :

وعِنْدَ التَّناهي يَقْصُرُ المتطاوَل

١ من قول المتنبي :

فما يديم سرور ما سررت به ولا يردُّ عليك الفاتئ الحزن

٢ صدر البيت : إذا تم شيء بدا نقصه .

٣ للمعري ، وصدره : فإن كنت تبني العز فابغ توسطاً .

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عمره مخسور يمر ضياعاً . ومتى رَفَعَكَ الزمان إلى قوم يَدُومون من العلم ما تحسنه حسداً لك ، وقَصْداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهداً لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك ، وتركن إلى العلم الذي مدحوه ، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مَشْيُ الحَجَلَة فرام أن يتعلمه فصعب عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه ، فبقي مخبل المشي ^١ . ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ، ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يستراح فيه ، فإن الذين تراههم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممّن صحبه الحرمان ، واستحققت طلعتة للهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال ، فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس ، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذير أمورهم . ولا تُزَلْ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إِذَا مَا نَلْتَ عَزّاً فَأَخُو الْعَزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

ولا قول الآخر :

تِهْ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَفْ تَرَّ وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى
كَالْغُصْنِ يَسْفَلُ مَا اكْتَسَى ثَمَرًا وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

ولا قول الآخر ^٢ :

١ زاد في مطبوعة التجارية بعد هذه اللفظة « كما قيل :

حسد القطا وأراد يمشي مشياً فأصابه ضرب من العقال
فأضل مشيته وأخطأ مشياً فلذلك سموه أبا المرقال

وقد سقط هذا من ج ق ودوزي .

٢ البيت لعبيد بن الأبرص ، ديوانه : ٤٩ ونسب لطرفة في ديوانه : ٤٥ .

الخيرُ يبقى وإن طال الزَّمان به والشرُّ أَخْبَثُ ما أوعيتَ من زادٍ

واعتقد في الناس ما قاله القائل ^١ :

وَمَنْ يَلْتَقِ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوُ لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغِيِّ لَأَنَّمَا ^٢
وتحفظ بما تضمَّنه قول الآخر ^٣ :

ومن دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّةٍ ذَمَّوْهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ولله درّ القائل ^٤ :

ما كلَّ ما فوقَ البَسِيطَةِ كافياً فإذا اقْتَسَنَعْتَ فَكُلْ شَيْءَ كافي

والأمثال يضربها لذي اللبِّ الحكيم ^٥ ، وذو البصر يمشي على الصراط
المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير ، والله سبحانه خليفتي عليك ،
لا ربَّ سواه .

نجرت الوصية وتكفيك عنواناً على طبقته في النثر .

* * *

١ البيت للمرقش الأصغر من مفضلية له (ص : ٥٠٣) .

٢ زاد بعده في مطبوعة التجارية : وقريب منه قول القائل :

يقدر الصعود يكون الهبوط فأياك والرتب العاليه

وكن في مكان إذا ما سقطت تقوم ورجلاك في عافيه

وقد سقط هذا من ج ق ودوزي ؛ كما أنه غير قريب مما قبله ، ولعله من زيادة بعض

المعلقين .

٣ البيت مما ينسب لكعب بن زهير ؛ انظر نهاية الأرب ٣ : ٦٨ والتمثيل والمحاضرة : ٦٢ .

٤ البيت لأبي فراس الحمداني ، ديوانه ٢ : ٢٥٦ (تحقيق الدكتور سامي الدهان) .

٥ من قول يزيد بن الحكم بن أبي العاص يعظ ابنه بدرأ (حماسة المروزقي : ١١٩٠) :

يا بدر والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم

[رسالة ابن سعيد الأب لعبد الواحد الموحي]

وله رسالة^١ كتب بها إلى ملك المغرب أبي محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب ابن عبد المؤمن مهناً له بالخلافة حين بويغ بها بمراكش ، وكان إذ ذاك بإشبيلية ، وكان قبل ذلك كاتباً له ومختصاً به :

الحضرة العلية ، السامية السنية ، الطاهرة القدسية ، حضرة الإمامة ، وجنة دار الإقامة ، مد الله على الإسلام ظلالها ، وأنمى في سماء السعادة تمامها وكماها ، وهنأ المؤمنين باستقبال إمارتها ، وأدام لهم بركة خلافتها ، عبداً أيادها ، وخديم نادياها ، المتوسل بقديم الخدمة ، المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة ، المشد بلسان المسرة ، حين أطلع الزمان هذه الغرة^٢ :

أَتَتْهُ الْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تَجَرَّرُ أَذْيَالُهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا

موسى بن محمد بن سعيد لا زال هذا الأمر العلي محموداً سعيداً ، ولا برح يستزيد ترقياً وصعوداً :

يا نعمة الله زبيدي إن كان فيك مزيد

سلام الله الكريم ، يخص حضرة الإجلال والتعظيم ، والتقدیس والتفخيم ، ورحمته وبركاته ، وبعد حمد الله الذي بلغ الإسلام بهذه الخلافة آماله ، وحلّى بهذه الولاية السعيدة أحواله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم ، الذي دحض الله تعالى بنبوته الكفر وضلاله ، وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله ، وامتثلوا أفعاله ، والرضى عن الإمام المهدي المعلوم الذي أفاء الله

١ وردت هذه الرسالة في المقتطفات (الورقة : ١٧) .

٢ البيتان لأبي المتاهية ، انظر ديوانه : ٦١٢ (تحقيق الدكتور شكري فيصل) .

به على الدين الحنفي ظلاله ، وأذهب عنه طواغيته وضلاله ، والدعاء للمقام العالي
الكريم ، بالسعد المتوالي. والنصر الجسيم ، وكتب العبد وقد ملأت هذه البشرية
المسرة أفاقه ، ووسعت عليه هذه المرتبة العلية طرقة :

فهذه رتبة^١ ما زلت أرقبها فالיום أبسط آمالي وأحتكم

ولا أقنع مني إن اقتصرت على السماء داراً ، والهلل للبشير سواراً ،
والنجوم عِقداً^٢ ، والصباح بندا ، حتى أسرَّ كل أحد بشكله ، وأقابل كل
شخص بمثله :

ومن خدَمَ الأقوامَ يَرْجُو نوالهم فإنِّي لم أخدُمك إلا لأخدَمَا
وما بعد الخلافة رتبة ، ودون تَبِير تنحطُّ كلُّ هَضْبَةٍ ، فالحمد لله ربَّ
العالمين ، وهنيئاً لعباده المؤمنين ، حيث نظر لهم نظر رحمة ، فأَسْبِل عليهم ستر
هذه النعمة :

ولقد علمتُ بأنَّ ذلك مِعْصَمٌ^٣ ما كان يتركُّه بغيرِ سِوارٍ^٢

والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وإلى مَنْ يشير بآياته ، فلهَّ صباح ذلك
اليوم السعيد وليلته ، لقد سَفَر عن وجه من البُشرى أضاءت الآفاق شرقاً
وغرباً غرته ، ولقد اجتمعت آراء السداد ، حتى أتت الإسلام بالمراد ، فأخذ
القوس باريها ، وحل بالدار بانيها ، هنيئاً زادك الرحمن^٣ خيراً ، ولا برحت
المسرات تسير إليك سَيْراً ، وهل يصلح النور إلا للمُقَلِّ ، وهل يليق بالحسن
إلا الحُلُل ، فالآن مهَّدَ الله البرِّين ، وأفاض العدل على العُدوتين ، وقدَّم

١ ق : والنجم .

٢ البيت لأبي تمام من قصيدته في الشماتة بمصرع الأفشين ، ديوانه ٢ : ٢٠٩ .

٣ ج : الإسلام .

للنظر من لا يعزب عن حفظه مكان ، ولا يختصُّ بحفظه إنسان دون إنسان ، خليفة له النفس العُمرية ، والآراء العُمرية ، والفراصة الإيائية ، ولا ينبئك مثل خبير ، فلقد شاهد العبد ما لا يحصره تفسير ، ولعمري لقد عاد الصباح في إشراق النهار ، ولم يخف عنا ما زاد الدنيا من البهجة^١ والمسار ، وشملت الناس هذه البشائر ، وعمت كل باد وحاضر ، وأصاخوا لتاليها لإصاخة المجدين لمرتابهم ، وأهطعوا لها مهتللين ومكبرين إهطاع الناس لأعيادهم ، وأما العبد فقد أخذ بحظه ، حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه :

ومن فَرَحَ النفس ما يَقتُلُ^٢

وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم ، ويحسد عليها الهلال والنجم ، بل يسلمان لما استحقته من المراتب ، ويخضعان إليها خضوع المفترض الواجب ، أقرّ الله بها عيون المسلمين ، وأفاض سحُبها على الناس أجمعين ، وحفظها بعينه التي لا تنام ، ووقف على خدمتها الليالي والأيام .

* * *

[من شعر أبي عمران ابن سعيد]

ولما قدم من الأندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله :

بُشْرَى وَيُسْرَى قَدْ أَنْارَ الْمُظْلِمُ	نَجْمًا وَقَدْ وَضَحَ الصَّبَاحُ الْمُعْلَمُ
وَرَبَّتْ عَيْنُ الْأَمْنِ وَهِيَ قَرِيرَةٌ	وَبَدَتْ ثَغُورُ السَّعْدِ وَهِيَ تَبَسُّمُ
فَارْحَلْ لَتُونَسَ وَاعْتَقِدْ أَعْلَامَ مَنْ	قَوِيَ الضَّعِيفُ بِهِ وَأَثْرَى الْمَعْدَمُ
حَيْثُ الْمَعَالِي وَالْمَعَانِي وَالنَّدَى	وَالْفَضْلُ وَالْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
أَجْرُوا إِلَى الْغَايَاتِ مَلءَ عَنَانَهُمْ	سَبَقًا وَبَدَّ هُمْ الْجَوَادُ الْمُنْعَمُ

١ ق : البهجات .

٢ عجز بيت للمتنبى ، وصدده : فلا تنكرون لها صرعة .

ساد الإمامُ المَلِكُ يحيى سادةُ أعطى الورى لهمُ القيادَ وسلّموا
 إنَّ الإمارةَ مُدَّ غداً يقتادُها يقظى وأجفانُ الحوادثِ نَوْمُ
 لله منكَ مُباركٌ ذو فطنة بزغتُ فأحجمَ عندها مَنْ يُقدمُ
 يقظانُ لا وانٍ ولا متقاعسٌ كالدهرِ يَبني ما يشاء ويهدمُ
 إن صال فالليثُ الهَصُورُ المقدمُ أو سال فالغيثُ المغيثُ المثجمُ
 أعلى منارَ الحقِّ حينَ أماله قومٌ تبرأتِ المنابرُ منهمُ
 أعلى الإلهُ مكانهُ وزمانهُ والنصرُ يقدمُ والسعادةُ تخدمُ

وقال يخاطب ملك المغرب مأمون بنى عبد المؤمن ، حين أخذ البيعة لنفسه
 بإشبيلية ، وكان المذكور بمراكش ولبنى سعيد بهذا الملك اختصاص قديم :

الحزمُ والعزمُ موجودان والنظرُ واليُمنُ والسعدُ مضمونان والظفرُ
 والنورُ فاض على أرجاء أندلسٍ والزورُ ليس له عينٌ ولا أثرُ
 حُثَّ الركابَ إلى هذا الجَنابِ فقد ضلّوا فما تنفعُ الآياتُ والتذرُ
 واعزمُ كما عزم المأمونُ إذ نَشَرَتْ أرضُ العراقِ فزال البؤسُ والضررُ

ولما قدم العادلُ القائمُ بِمُرسِيَةِ المتولي على مملكة البرّيينِ إلى إشبيلية كان
 في جملة من خرج للقاءه ، ورفع له قصيدة منها :

لقاء بِهِ لِلْبِرِّ والشكرِ مَجْمَعُ إلى يومه كُنَّا نَحْبُ ونُوضِعُ
 لقد يَسَّرَ الرحمنُ صَعْبَ مرامِهِ فأبصرتُ أضعافَ الذي كنتُ أسمعُ
 وله أيضاً :

يا مُنْعِماً قد جاءني بِرُّهُ مِن غَيْرِ أن أجري له ذكرا
 إنَّ أَحَبَّ الخَيْرِ ما جاءني عَقُوقاً ، وَلَمْ أَغْمُرْ بهِ فكرا

وله في غلام واعظ ، وهو من حسناته :

وشادن ظلّ للوعظ ظ تالياً بين جمع
متعت طرقي بمرآ ه في خفارة سمعي

وله من أبيات :

ومن عجب أن الليالي تغيّرت ولكنّها ما غيرت منّي العهدا

ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر ابن الجلد ، وأبو بكر ابن زهر ، وغيرهما ، وحضر حصار طليطلة مع منصور بني عبد المؤمن ، وكتب لملك البرين أبي محمد عبد الواحد ، وكتب أيضاً عن مأمون بني عبد المؤمن ، وكتب أخيراً عن ملك بجاية والغرب الأوسط الأمير أبي يحيى ابن ملك إفريقية ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى أبي الحسن ابن سعيد :

قال رحمه الله تعالى : حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك إفريقية أبي العباس أحمد الغساني ، فاحتاجت الشمعة أن تقط ، فتناول قطعها غلام ببنايه ، فقلت :

ورخص البنان تصدّي لأن يقط السراج بمثل العنم

فقال :

ولم يهب النار في لمسه ولا احتاج في قطه للجلم

فقلت :

وما ذاك إلا لسكناه في فؤادي على ما حوى من ضرم

فقال :

تعوّدَ حرّاً هبيبٍ بهِ فليس بهِ من أوارٍ ألم

وأنشد في « المغرب » للغساني المذكور في خسوف القمر ممّا قاله ارتجالاً :

كَأَنَّ الْبَدْرَ لَمَّا أَنْ عَلَاهُ خُسُوفٌ لَمْ يَكُنْ يَعْتَادُ غَيْرَهُ
سَجَنَجَلٌ غَادَةً قَلْبَتَهُ لَمَّا أَرَاهَا شَبِهَا حَسِداً وَغَيْرَهُ

وخاطبه المذكور برسالة يقول في آخرها : وعند حامل هذه الأحرف -
سلّمه الله تعالى - كُنْهُ خبري ، واستيعاب ما قصر عنه قلبي فضافت بحمله
أسطُري ، لتعلم ما أجده وأفقده من تشوقي وتصبري ، وأنتي لا أزال أنشد
حيث تذكّري وتفكّري :

يَا نَائِيَا قَدْ نَأَى عَنِّي بِمُصْطَبْرِي وَثَاوِيَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ
إِذَا تَنَاسَيْتَ عَهْدًا مِنْ أَخِي ثِقَةً فَاذْكُرْ عَهْدِي فَمَا أَخْلَيْكَ مِنْ فِكْرِي
وَارْدَدَ عَلَيَّ تَحِيَّاتِي بِأَحْسَنِهَا تَرَدُّدٌ عَلَيَّ حَيَاتِي آخِرَ الْعَمْرِ

ولنُمنِسِك العنان عن الجري في ميدان أخبار ابن سعيد ، فإنّها لا يُشَق
غبارها ، ومنها قوله رحمه الله تعالى : سمعت كثيراً من السماع المشرقي ، فلم
يهزني مثلُ قول الشريف الشمسي المكي ^١ :

مُقَلٌّ بِالْدمْعِ غَرْفِي وَفَوَادٌ طَارَ خَفَقًا
وَتَجَنَّ وَتَسْنَى شَقَّ جَيْبَ الصَّبْرِ شَقًّا
يَا ثِقَاتِي خَبْرُونِي عَنْ حَدِيثِ الْيَوْمِ حَقًّا
أَكْذَا كُلُّ مُحِبٍّ فَارَقَ الْأَحْبَابَ يَشْقَى؟
لَا وَعِيشٌ قَدْ تَقَضَّى وَغَرَامٌ قَدْ تَبَقَّى
وَنَعِيمٌ فِي ذَرَاكِمٍ قَدْ صَفَا دَهْرًا وَرَقًا

١ وردت الأبيات في المقتطفات (الورقة : ٢٨) .

ونسيم من حياكم حمل الوجد فرقا
برسالات صابا ت على المشتاق تلقى
وغصون ناعمات بمياه الدن تسقى
ووجوه فِضْن حُسنًا فملآن الأرض عشقا
لو رضيتُ بي عبدا ما رضيتُ الدهر عتقا

وقال : ما سمعتُ ولا وقفت على شيء أبدع من قول الجزار ، وقد تردد
إلى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يُقدّر له الاجتماع به :

أسألُ الله أن يُديمَ لك الع زَّ وَيُبْقِيكَ مَا أُرِدْتَ البقاء
كلَّ يومٍ أرجو النعيمَ بَلْقيا ك فآلَقى بالبعدِ عنك شقاء
علم الدهرُ أنني أشتكيه لك إذ نلتقي فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الإحسان ، وكتب في حقّه إلى ولادة الصعيد
كُتُباً أغنته مدّة عن شكوى الزمان ، انتهى .

وقال أيضاً : ولم أسمع في وضع الشيء موضعه أحسن من قول المتنبي :

وأصبحَ شِعْري مُتَهِماً في مكانه وفي عُنُقِ الحِساءِ يُسْتَحْسَنُ العِقدُ

ولم أسمع في وضع الشيء غير موضعه أحسن من قول أبي الفرج :

مرّ مدّحي ضائعاً في لؤمِهِ كضياحِ السيفِ في كفّ الجبانِ

ومن تأليف النور بن سعيد كتاب « عِدّة المستنجز وعُقْلَة المستوفز »
وذكر فيه أنّه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦ ، وأورد في
هذا الكتاب غرائب وبدائع ، وذكر فيه أنّه لما دخل الإسكندرية لم يكن عنده

آكد من السؤال عن الملك الناصر ، فأخبر بحاله ، وما جرى له مع التتر حتى
قتلوه بعد الأمان ، ثم ساق فيه دخول هولاكو حلب فقال بعد كلام كثير :
وارتكب في أهل حلب التتر المرتدون ونصارى الأرمن ما تصم عنه الأسماع ،
وكان فيمن قتل بتلك الكائنة البدر بن العديم الذي صدر عنه من الطبقة العالية
في الشعر مثل قوله ٢ :

واهاً لعقرب صدغه لو لم تكن للماء تحني
ولغفل خط عذاره لو بت أعجمه بلثمي

وابن عمه الافتخار بن العديم الذي وقع له مثل قوله :

والغصن فيه الماء مطرد والماء فيه الغصن منعكس

ثم قال ، لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء التتر على بلاد حلب والشام
وما يليهما ، ما نصه : قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق :
قبلت يده ، وجعلت أدعو له ، وأظهر تعزيبته على ما جرى من تلك المصائب
العظيمة ، فأضرب عن ذلك ، وقال لي : فيم تنغزل اليوم ؟ ثم أنشدني قوله
في مملوك فقده في هذه الكائنة :

والله ما أبكي لملك مضى ولا لحال ظاعن أو مقيم
وإنما أبكي وقد حق لي لفقد من كنت به في نعيم
يطلع بدرأ ينثي بانه يمر فيما رُمته كالنسيم
في خاطري أبصره خاطراً فالتوي مثل التواء السقيم
يا عاذلي دعني وما حل بي فما سوى الله بحالي عليم
إن مت من حزن له أسترخ وإن أعيش عشت بهم عظيم

١ ق : الططر .

٢ سقط البيتان من ج .

قال : ثم إنّه سار نحو هولاءكو ، فلمّا مرَّ بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال :

مررتُ بجَرَءاء الحِمَى فتلفتُ لحاظي إلى الدّار التي رحلوا عنها
ولو كان عندي ألفُ عَيْنٍ وقمتُ في معالمها عمري لما شَبَعْتُ منها
وصنع في نعيمها أشعاراً يغني بها المسمّعون ، ثم رحل إلى صحراء يوش
في جهة طريق أرمينية ، فوجد هولاءكو هنالك في تلك المروج المشهورة بالخصب ،
فأنزله ، وأقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك
المظفر قطز صاحب مصر سنة ٦٥٨^١ ، فقتلوه ، وخلعوا عظم كتفه ، وجعلوه
في أحد الأعلام على عادته في أكتاف الملوك ، انتهى باختصار .

رجع :

١٦٧ - ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد
الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد^٢ ، وكان صعب الخلق ، شديد الأنفة ،
جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق ، وفي ذلك يقول ،
وكتب به إليهم :

مَنْ لَصَبَ يرعى النجومَ صبابه	ضَيَّعَ السيرُ في الهمومِ شبابَه
زدتُ بعداً فزدتُ فيه اقتراباً	بودادي كذاك حُكْمُ القرابه
متزلي الآن سَمَرْقَنْدُ وبالقله	هه رُبْعٌ وطئتُ طفلاً تُرابه
شدّ ما أبعدَ الفراقُ انتراحي	هكذا الليثُ ليس يلدي اغترابه
لا ولا أرتجي الإيابَ لأمرٍ	إن يكنْ يرتجي غريبٌ إبابه

١ في ق : سنة خمسائة وثمانين ، وسقط التاريخ من ج .

٢ له ترجمة في المغرب ٢ : ١٧٢ .

وكتب لهم من بخارى :

إذا هبَّتْ رياحُ الغربِ طارتُ إليَّها مُهْجَتِي نحوَ التَّلَاقِ
وأحسَبُ من تركتُ به يلاقي إذا هبَّتْ صباها ما أُلَاقِ
فيا ليتَ التفرقَ كانَ عَدُولاً فَحُمِلَ ما يطيق من اشتياقي
وليتَ العمرَ لم يبرحْ وصالاً ولم يُخْتَمَ^١ علينا بالفراقِ

إذا كان الشوق فوق كل صفة ، فكيف تعبّر عنه الشفة ، لكن العنوان دلالة على بعض ما في الصحيفة ، والحاجبُ قد ينوب في بعض الأمور متنبّ الخليفة ، وما ظنكم بمشوق طريح ، في يد الأشواق طليح ، يقطع مسافات الآفاق يتقلب تقلب الأفياء ، ويتلون تلون الحرباء ، حتى كأنه يخبرُ مساحات الأرض ، ذات الطول والعرض ، ويحوب أهوية الأقاليم السبع ، خارجاً بما أدخله فيه اللّجاج عن الشرع ، فكان خليفة الإسكندر ، لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر ؛ جرت إلى برّ العدوّة من الغرب الأقصى ، فطمحت نفسي إلى مشاهدة الغرب الأوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة من المشاق ما لا يحصر^٢ ، ثم تشوّقت إلى إفريقية درب بلاد الشرق ، فاستشعرت من هنالك ما بينها وبين بلادي من الفرق ، واختلطت من عيني تلك الطلاوة ، وانترعت من قلبي تلك الخلاوة :

فلله عينٌ لم ترَ العينُ مثلها ولا تلتقي إلا بجَنّاتِ رِضْوان

ثم نازعتني النفس التواقة إلى الديار المصرية ، فكابدت في البحر ما لا يفي بوصفه إلا المشافهة إلى أن أبصرت منار الإسكندرية ، فيا لك من استئناف عمر جديد ، بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتنكيد ، ثمّ صعدت إلى القاهرة

١ المغرب : يحكم .

٢ ج : يحصى .

قاعدة الديار المصرية ، لمعينة الهرميين وما فيهما من المعالم الأثرية ، وعائنت القاهرة المعزية ، وما فيها من الهمم الملوكية ، غير أنني أنكرت مبانيها الواهية ، على ما حوت من أولي الهمم العالية ، وكونها حاضرة العسكر الحرار ، وكرسي الملك العظيم المقدار ، وقلت : أصداف فيها جواهر ، وشوك مُحَدِّق بأزاهر ، ثم ركبت النيل وعائنت تماسيحه ، وجُرْتُ بحر جدة وذقت تباريحه ، وقضيت الحج والزياره ، وملت إلى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمارة ، فهناك بعثت الزياره بالأوزار ، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار ، إذ هي كما قال أحد من عاينها^١ :

أما دمشقُ فجَنَّتْ مُعَجَّلَةً للطلالين بها الولدانُ والخورُ

فلله ما تضمن داخلها من الخور والولدان ، وما زُيِّنَ به خارجها من الأنهار والجنان ، وبالجمله فإنها حمى تتقاصر عن إدراكها أعناقُ الفصاحة ، وتقصر عن مناولتها في ميدان الأوصاف كل راحة ، ولم أزل أسمع عن حلب ، أنها دار الكرم والأدب ، فأردت أن يحظى بصري بما حظي به سمعي ، ورحلتُ إليها وأقمت جابراً بالذاكرة والمطايبة صدوعي ، ثم رحلت إلى الموصل فألقيت مدينة عليها رَوْنَقُ الأندلس ، وفيها لطافة وفي مبانيها طلاوة ترتاح لها الأنفس ، ثم دخلت إلى مقر الخلافة بغداد ، فعائنت من العِظَم والضخامة ما لا يفي به الكتب ولو أن البحر مِداد ، ثم تغلغلت في بلاد العجم بلداً بلداً ، غير مقتنع بغاية ولا قاصد أمداً ، إلى أن حلت ببُخارى قبة الإسلام ، ومجمع الأنام ، فألقيت بها عصا التسيار ، وعكفت على طلب العلم واصلاً في اجتهاده سَوَاد الليل وبياض النهار ، انتهى .

وكتب إليهم أيضاً من هذه الرسالة : كتبت وقد حصلتي السعادة ، وحظ

١ الشعر للعزلة الدمشقي ، أبي الندى حسان بن نمير أحد شعراء الحريرة (قسم الشام ١ : ١٧٨ وفي الحاشية ثبت بتخريج ترجمته) والبيت في الحريرة : ٢٠٤ ورحلة ابن بطوطة : ٨٥ .

الأمل والإرادة ، بحضرة بخارى قبة الإسلام .
وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته : « وإن كنت قد تحصنت بقبة
الإسلام ، فقد تعجلت لنا ولك الفقد قبل وقت الحِمام » . وأتبعوا ذلك بما
دعاه لأن خاطبهم بشعر منه :

عَتَبْتُمْ عَلَى حَثِي الْمَطِيِّ وَقَلْتُمْ
إِذَا لَمْ يَكُنْ حَالِي مُهِمًّا لَدَيْكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ رِحْلَتِي وَمَقَامِي

وقُتِلَ المذكور ببخارى ، حين دخلها التتر ، وهو عمُّ علي بن سعيد الشهير .
وكان لعبد الرحمن المذكور أخٌ يسمى يحيى قد عانى الجندیة ، فلما بلغه
أن أبا القاسم عبد الرحمن قُتِلَ ببخارى قال : لا إله إلا الله ، كان أبداً يُسَفِّه
رأیی في الجندیة ، ويقول : لو اتبعت طريق النجاة كما صنعتُ أنا لكان خيراً
لك ، فها هو ربُّ قلمٍ قد قُتِلَ شرقتلة بحيث لا ينتصر وسلب سلاحه ، وأنا ما زلت
أغازي في عباد الصليب وأخلص ، فما يقدر أحد يحسن لنفسه عاقبة ، انتهى .
قال أبو الحسن علي بن سعيد : ثمَّ إن يحيى المذكور بعد خَوْضِهِ في الحروب
صَرَعه في طريقه غلام كان يخدمه ، فذبحه على نَزَرٍ من المال ، أفلت به ،
فانظر إلى تقلُّب الأحوال كيف يجري في أنواع الأمور لا على تقدير ولا احتياط ،
انتهى .

ومن شعر أبي القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيب الأشراف
ببخارى ، وقد أهلى إليه فاخيتاً مع زوجته :

أَيَا سَيِّدَ الْأَشْرَافِ لَا زِلْتَ عَالِيًّا مَعَالِيكَ تَنْبُو الدَّهْرَ عَنْ كُلِّ نَاعٍ
مِنْ الْفَضْلِ إِقْبَالَ عَلَى مَا بَعَثَهُ لِفَنَّاكَ مِنْ شَادٍ دَعَوُهُ بِفَاخَتْ
أَلَا حَبِذَا مِنْ فَاخَتْ سَادِ جَنْسَهُ وَأَصْبَحَ مَقْرُونًا بَسَتْ الْفَوَاخَتْ

لئن فاتني منه الأنيسُ فكلّ ما يحلّ إلى عليك ليس بفات

١٦٨ - ومنهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن عبد الله بن يوسف ابن حمزة ، القرطبي ، الأنصاري ، المعروف بابن العابد ، نزيل رباط الصاحب الصفي بن شُكْر^١ ، قال بعض المشاركة عنه : إنّما سميت الخمر بالعجوز لأنّها بنتُ ثمانين ، يعني عددَ حدّها ، وأنشد له :

عدلنا فلاناً على فعله ولُمنّاه في شربه للعجوز
فقال : دعوني من أجلها أنا وأخي والعجوز

١٦٩ - ومنهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف ابن محمد بن يوسف الأنصاري ، الشاطبي الأصل ، البَلَنْسِي المولد في أحد ربيعي سنة إحدى وستمئة ، ولقبه المشاركة برضي الدين^٢ . وتوفي بالقاهرة في جمادى الأولى سنة ٦٨٤ ، رحمه الله تعالى .
ومن نظمه لما حضر أجله ، وقد أمر خادمه أن ينظف له بيته ، وأن يغلق عليه الباب ويفتقده بعد زمان ، ففعل ذلك ، فلمّا دخل عليه وجده ميتاً ، وقد كتب في رقعة :

حان الرحيلُ فودّع الدارَ التي ما كان ساكنها بها بمخلدٍ
واضرعْ إلى الملكِ الجوادِ وقلْ له عبدٌ ببابِ الجود أصبح يَجْتَدِي
لم يرضَ غيرَ الله معبوداً ولا ديناً سوى دينِ النبيّ محمدٍ
ومن نظمه أيضاً رحمه الله تعالى :

١ يريد وزير الملك العادل بمصر وهو صفي الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر .
٢ ترجمة رضي الدين الشاطبي في الوافي ٤ : ١٩٠ وغاية النهاية ٢ : ٢١٣ وبغية الوعاة : ٨٣ وشذرات الذهب ٥ : ٢٨٩ .

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ قَابِلَهَا الرَّدَى فرامتُ فراراً منه يُسْرَى إِلَى يُمْنَى
قِرْرِي تَحْمِلِي بَعْضَ الَّذِي تَكْرِهِيهِ فقد طالما اعتدتِ الفرارَ إِلَى الْأَهْنَى

أنشده تلميذه أبو حَيَّانَ إمام عصره في اللّغة .

حدث عن ابن المنير وغيره ، واشتغل الناسُ عليه بالقاهرة ، وله تصانيف مفيدة ، وسمع من الحافظ أبي الربيع ابن سالم ، وكتب على صحاح الجوهرى وغيره حواشي في مجلدات ، وأثنى عليه تلميذه أبو حيان ، رحم الله تعالى الجميع . ومن فوائده قوله : نقلت من خط أبي الوليد ابن خيرة الحافظ القرطبي في فهرست أبي بكر ابن مفلح : قد أدركته بسنّي ولم آخذ عنه واجتمعت به ، أنشدني له أبو القاسم ابن الأبرش يخاطب بعض أكابر أصحاب أبي محمد ابن حزم ، والإشارة لابن حزم الظاهري :

يا من تُعاني أموراً لَنْ تُعانيها خلّ التعاني وأعطِ القوس باربها
تَرَوِي الأحاديث عن كلِّ مُساعِدَةٍ وإنّما لمُعانيها مُعانيها

وقد سبق في ترجمة القاضي أبي الوليد الباجي ذكر هذين البيتين عندما أجرينا ذكر ابن حزم^١ ، قال : وإنّما قال هذا الشعر في ذكر رواية ادّعت على قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن خالداً قد احتبس أدراعه وأعتدّه في سبيل الله » وصحح رواية من روى « أَعْبُدْهُ » جمع عبد ، وعكّل رواية من روى « أعتده » بالتاء مثناةً باثنتين من فوق جمع عتدّ ، وهو الفرس : قال ابن خيرة : الإحاطة ممتنعة ، وهذه الرواية قد رواها جماعة من الأثبات والعلماء المحدثين ، فهو إنكار غير معروف ، والله تعالى أعلم .

ومن فوائده ما نقله تلميذه أبو حَيَّان النحوي عنه ، قال : أنشدنا للمقري ونقلته من خطّه :

١ انظر ما تقدم ٢ : ٨٤ .

إذا ما شئت معرفةً بما حارّ الورى فيه
فخذُ خمساً لأربعةٍ ودعْ للثوبِ رافيه

وهو لغز في ورد .

وقال : وأنشدنا لبعضهم :

لا رعى الله عزيمةً ضمنت لي سَلوةَ الصبرِ والتصبرِ عنه
ما وقتَ غيرَ ساعةٍ ثمَّ عادتْ مثلَ قلبي تقول : لا بُدَّ منه

قال : وأنشدنا لغيره :

وكان غريبَ الحُسْنِ قبلَ التحائه فلما التحى صار « الغريبَ المصنفاً »^١
وأنشدنا لغيره :

طبَّ على الوحدةِ نفساً وارضى بالوحشة أنسا
ما عليّها من يساوي حينَ يُستخبرُ فلئسا

وقرأ الرضيُّ ببلده على ابن صاحب الصلاة^٢ آخر أصحاب ابن هذيل ،
وسمع منه كتاب التلخيص للواني^٣ ، وسمع بمصر من ابن المقيّر وجماعة ،
وروى عنه الحافظ المزري واليونيبي والظاهري وآخرون ، وانتهت إليه معرفة
اللغة وغريبها ، وكان يقول : أعرف اللغة على قسمين : قسم أعرف معناه
وشواهده ، وقسم أعرف كيف أنطق به فقط ، رحمه الله تعالى .

١ فيه تورية ، يشير إلى كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام .

٢ اسمه محمد بن أحمد بن صاحب الصلاة .

٣ كذا في ج ق ودوزي ؛ وفي غاية النهاية « للداني » بالذال المهملّة ، ولم يرد كتاب « التلخيص »
بين كتب أبي عمرو الداني شيخ القراء الأندلسيين في مقدمة المحكم (تحقيق الدكتور عزة حسن ،
دمشق : ١٩٦٠) .

ومن فوائد الرضي الشاطبي المذكور ما ذكره أبو حيان في البحر قال :
وهو من غريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن علي
ابن يوسف الأنصاري الشاطبي لزيب بنت إسحاق النصراني الرّسّعي :

عَدِيّ وَتَيْمٌ لَا أَحَاوِلُ ذَكَرَهُمْ بسوء ، ولكنّي محبٌ لهاشمِ
وما يعتريني في عليٍّ ورهطِهِ إذا ذُكِرُوا في الله لَوْمةٌ لائمِ
يقولون : ما بال أنصاري تحبّهم وأهلُ النّهي من أعربٍ وأعاجمِ
فقلتُ لهم : إنّي لأحسبُ حبّهم سرى في قلوبِ الخلقِ حتّى البهائمِ

ومن نظم الرضي المذكور :

مُنْغَصَّ العيشِ لَا يَأْوِي إلى دَعَاةٍ مَنْ كَانَ ذا بِلَدٍ أَوْ كَانَ ذا وَلَدٍ
والساكنُ النفسِ مَنْ لَمْ تَرْضَ هِمَّتَهُ سُكُنَى بِلَادٍ وَلَمْ يَسْكُنْ إلى أَحَدٍ
ولَهُ :

لولا بناي وسيّثاي لطرتُ شوقاً إلى المماتِ
لأنّي في جوار قومٍ بَغَضَتِي قُرْبُهُمْ حَيَاتِي

وقرأ عليه أبو حيان كتاب « التيسير » وأثنى عليه ، ولما توفي أنشد ارتجالاً :

نَعَوَا لي الرضيّ فقلتُ لقد نُعِيَ لي شيخُ العلّا والأدبِ
فمَنْ لللغاتِ وَمَنْ للثقاتِ وَمَنْ للنحاةِ وَمَنْ للنسبِ
لقد كان للعلمِ بجرّاً فغار وإنَّ غُزُورَ البحارِ العجبِ
فقدُسُ من عالمٍ عاملٍ أثارَ لشجويّ لما ذهبِ

وتحاكم إلى رضى الدين المذكور الجزّار والسرّاج الورّاق أيهما أشعر ،
وأرسل إليه الجزّار شيئاً ، فقال : هذا شعر جزّل ، من نمط شعر العرب ، فبلغ
ذلك الورّاق ، فأرسل إليه شيئاً فقال : هذا شعر سلكس ، وآخر الأمر قال :

ما أحكم بينكما ، رحمه الله تعالى .
قلت : رأيتُ بخطه كتباً كثيرة بمصر وحواشي مفيدة في اللغة وعلى دواوين
العرب ، رحمه الله تعالى .

١٧٠ - ومنهم حميد الزاهد ، وهو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد
ابن أبي محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله ، الأنصاري ،
القرطبي ، نزيل مالقة^١ . قال الرضي الشاطبي المذكور قريباً : أنشدني حميدٌ
بالقاهرة لأبيه أبي محمد وقد تأخر شبيهه مع علو سنه^٢ :

وهل نافعني أن أخطأ الشيبُ مفرقي وقد شابَ أترابي وشابَ لداني
إذا كانَ خطُّ الشيبِ يوجدُ عنه بتربي فمَعناهُ يَقومُ بذاتي
واللّٰدات : مَنْ وُلدَ معه في زمان واحد ، انتهى .

وفي ذكره أنه قال هذين البيتين لما قال له القاضي عياض : شبتنا ولم
تشب .
وقال الرضي أيضاً : أنشدني حميدٌ لأبيه فيمن يكب في الورق بالمقص ،
وهو غريب :

وكتب وشي طرسه حبرٌ لم يشها حبرُهُ ولا قلّمهُ
لكن بمقراضه يُسَمِّمُها نعمة الروض جادهُ رهمهُ
يُوجدُ بالقطع أحرفاً عُدِمَتْ فاعجب لشيء وجوده علمهُ
والرهم : المطر .

١ حميد هذا هو أحمد - وشهر باسم حميد - ؛ وأبوه عبد الله بن الحسن هو أبو محمد القرطبي
أحد العلماء الحفاظ ، ترجم له ابن عبد الملك ترجمة ضافية في الذيل والتكملة ٤ : ١٩١ .
(وانظر التكملة : ٨٧٩ وتذكرة الحفاظ : ١٣٩٦) .
٢ انظر البيتين والقصة بين أبي محمد القرطبي والقاضي عياض في برنامج الرعي : ٨٨ والذيل
والتكملة ٤ : ٢٠٩ - ٢١٠ .

قال : وتوفي حميد الزاهد هذا بمصر ، قبيل الظهر من يوم الثلاثاء ، وصلي عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور ، ودفن بسفح المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبي بكر محمد الخزرجي الذي يدق الرصاص ، حذاء رجله ، في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وستمائة ، ومولده سنة ست وستمائة ؛ انتهى .

١٧١ - ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي^١ من أهل بكنسية وأصله من جيان ، وسكن المريّة ثم مالقة ، يكنى أبا يحيى ، كتب لبعض الأمراء بشرقي الأندلس^٢ ، وله تأليف سماه « المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب » ، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة ، وبها توفي يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

١٧٢ - ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد التجيبي ، يكنى أبا عبد الله ، من أهل إشبيلية^٣ ، تجول في بلاد الأندلس طالباً للعلم ، ثم حج ، ولقي الحافظ السلفي وغيره ، واستوطن تلمسان ، وبها توفي في جمادى الأولى سنة عشر وستمائة ، وله تواليف كثيرة .

١٧٣ - ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللّخمي ، الباجي^٤ ،

١ ترجمته في المغرب ٢ : ٨٨ والتكملة رقم : ٢١١٢ وشذرات الذهب ٤ : ٢٥٠ .

٢ في المغرب : وكان بالأندلس يكتب عن المستنصر بن هود .

٣ ترجم له في التكملة : ٥٨٨ ، وقال إنه من أهل لقنت عمل مرسية ، ولم ينسب إلى إشبيلية ، وذكر عدداً كبيراً من مؤلفاته .

٤ ترجمته في التكملة : ٦٣٧ ؛ خرج من وطنه عند مقتل ابن أخيه أبي مروان الباجي على يد ابن الأحمر ، ونزل في مرسى عكا ومنها توجه إلى دمشق وحج وزار ثم عاد إلى مصر عن طريق =

من أهل إشبيلية ، ولي القضاء بها وأصله من باجة إفريقية ، دخل المشرق لأداء الفريضة فحج ، وتوفي بمصر بعدما دخل الشام ، في اليوم الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستمائة ، ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة ، وكانت رحلته من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة .

١٧٤ - ومنهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمري^١ من أهل سرقسطة ، يكنى أبا العباس ، له كتاب سمّاه «الوجازة في صحة القول بالإجازة» وله رحلة لقي فيها ألف شيخ ومحدث وفقهه ، توفي بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، يروي عنه أبو ذر الهروي وعبد الغني الحافظ ، وكفاه فخرأ بهذين الإمامين العظيمين ، رحم الله تعالى الجميع .

١٧٥ - ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرُعيني الرُندي ، يكنى أبا محمد^٢ ، استوطن مالقة ، ورحل إلى المشرق ، وحج ، ولقي جماعة من العلماء ، وقفل إلى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة^٣ ، وولي الإمامة بالمسجد الجامع بمالقة ، وبها توفي في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، ولقب في المشرق برشيد الدين ، وولد في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الأندلس يقال لها يلماتين^٤ كورة

= عذاب ماراً بقنا وقوص ؛ وقد أطنب ابن عبد الملك في خبر رحلته وتنقلاته ووفاته (الذيل والتكملة ٥ : ٦٨٧) .

١ ترجمته في الصلة : ٦٠٧ وفيها « ابن أبي زياد » ؛ وكنيته أبو العباس ونسبته العمري ، بالغين المعجمة ؛ إلا أنه ذكر أنه عمري النسبة لكنه دخل إفريقية أيام العبيدين فكان يضع نقطة فوق العين حتى يسلم ؛ وكان يقول إنه إذا عاد إلى الأندلس جعل النقطة ضمة ، غير أنه توفي بالدينور بعيداً عن وطنه ؛ وعنه رويت الأشعار الأندلسية التي ضمها الثعالبي في يتيمة الدهر (انظر يتيمة ٢ : ٣٦) .

٢ ترجمته في التكملة رقم : ١٩٢٩ وصلة الصلة : ٥١ والذيل والتكملة ٥ : ٩٥ .

٣ أقام في رحلته بالمشرق نحو عشرين عاماً .

٤ دوزي : يلماتين .

بَشْتَعِيرَ ، ذكر ذلك ابن المستوفي في تاريخ إربل .

١٧٦ - ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد ، الينبي^١ ، من أهل الأندلس ،

استوطن المشرق ومدح الملك الكامل ، ومن شعره رحمه الله تعالى قوله :

لولا تحديّيه بآية سحره ما كنت ممثلاً شريعة أمره
رشاً أصدقهُ وكاذبٌ وعده يبُدي لعاشقه أدلة عُدّه
ظهرت نبوة حسنه في فترة من جفّنه وضلالة من شعره

١٧٧ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبي^٢ ، رحل حاجاً فلقي

ببجاية عبد الحق الإشبيلي ، وبالإسكندرية أبا الطاهر ابن عوف ، ولقي غير

واحد في رحلته كالفرنوي^٣ وابن بري^٤ وأبي الثناء الحراني وأبي الحسين

الحديثي^٥ - وللحديثي أحاديث ساوى بها البخاري ومسلماً - ولقي جماعة ممن

شارك السلفي في شيوخه .

١٧٨ - ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد جبّير ، الكناني صاحب

الرحلة^٦ ، وهو من ولد ضمّرة بن بكر بن عبد منّاة بن كنانة ، أندلسي ،

١ ق ودوزي : الينبي ؛ وهي غير واضحة الإعجام في ج .

٢ ترجمة الضبي في التكملة : ٩٣ ، وله كنية ثانية هي أبو العباس ، وقد توفي في مرسية عام

٥٩٩ هـ سقط عليه هدم .

٣ في دوزي : كالمربوي ، وفي نسخة : كالغذتوري ، وأثبت ما في التكملة .

٤ ج ق ودوزي : وابن بر .

٥ ج ق ودوزي : الحرثي .

٦ انظر ترجمة ابن جبّير في التكملة : ٥٩٨ ، والذيل والتكملة : ٥٩٥ وإرشاد الأريب : ٢ :

١٠٦ ومسالك الأبصار : ٨ : ٣١١ والمطرب : ١ : ٨٦ والإحاطة : ٢ : ١٦٨ والمغرب : ٢ :

٣٨٤ ، وغاية النهاية : ٢ : ٦٠ والنجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢١ وشذرات الذهب : ٥ : ٦٠ ؛

وانظر مقدمة الرحلة ففيها نقول عن المقفى ورحلة العبدري وبدائع البداه ؛ وأورد له ابن

عبد الملك أشعاراً يهاجم فيها الفلسفة في ترجمة أبي الوليد ابن رشد في الجزء السادس .

شاطبي ، بَلَسْنِي ، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة
بَلَسْنِي ، وقيل في مولده غير ذلك ، وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله
الأصيلي وأبي الحسن ابن أبي العيش ، وأخذ عنه القراءات ، وعُني بالأدب فبلغ
الغاية فيه ، وتقدم في صناعة القريض والكتابة .

ومن شعره قوله ، وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصناً نصيراً من أحد بساينها
فَذَوَى في يده :

لَا تَغْتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ وَاذْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوَى
أَمَا تَرَى الْغَصْنَ إِذَا مَا فَارَقَ الْأَصْلَ ذَوَى

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الحُجَنْدِي^١ :

يَا مَنْ حَوَاهُ الدِّينُ فِي عَصْرِهِ	صَدْرًا يَحُلُّ الْعِلْمُ مِنْهُ فَوَادُ
مَاذَا يَرَى سَيِّدَنَا الْمُرْتَضَى	فِي زَائِرٍ يَخْطُبُ مِنْهُ الْوَدَادُ
لَا يَبْتَغِي مِنْهُ سِوَى أَحْرَفٍ	يَعْتَدُّهَا أَشْرَفَ ذُخْرِ يَفَادُ
تَرْسُمُهَا أَمَلُهُ مِثْلَ مَا	نَمَقَ زَهْرَ الرُّوضِ كَفَّ الْعَهَادُ
فِي رَقْعَةٍ كَالصَّبْحِ أَهْدَى لَهَا	يَدَ الْمَعَالِي مَسْكُ لَيْلِ الْمَدَادِ
إِجَازَةً يُورِثُهَا الْعُلَا	جَائِزَةً تَبْقَى وَتَفْنَى الْبِلَادِ
يَسْتَصْحَبُ الشُّكْرَ خَدِيمًا لَهَا	وَالشُّكْرُ لِلْأَمْجَادِ أَسْنَى عِتَادِ

فأجابه الصدر الحُجَنْدِي :

لَكَ اللَّهُ مِنْ خَاطِبٍ خُلْتِي	وَمِنْ قَابِسٍ يَجْتَدِي سَقَطَ زَنْدِي
أَجَزْتُ لَهُ مَا أَجَازُوهُ لِي	وَمَا حَدَّثُوهُ وَمَا صَحَّ عِنْدِي
وَكَاتِبُ هَذِي السَّطُورِ الَّتِي	تَرَاهُنَّ عَبْدُ الْلطِيفِ الْحُجَنْدِي

١ هو عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الحُجَنْدِي أَبُو الْقَاسِمِ صدر الدين من أهل أصبهان ،
كان فقيهاً أديباً واعظاً توفي سنة ٥٨٠ هـ (انظر طبقات السبكي ٤ : ٢٦١) .

١٧٩ - ورافق ابن جبير في هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي ، وأصله من أُنْدَلَة من بِلَنْسِيَة^١ ، رحل معه فأدّى الفريضة ، وسمعا بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي ، وأجاز لهما أبو محمد ابن أبي عَصْرُون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ، ودخلا بغداد وتجولا مدة ، ثم قَفَلَا جميعاً إلى المغرب ، فسُمِعَ منهما به بعض ما كان عندهما . وكان أبو جعفر هذا متحققاً بعلم الطب ، وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم . وكتبَ عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن ، وجدّه لأُمّه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية . وتوفي أبو جعفر هذا بمرآكش سنة ثمان ، أو تسع وتسعين وخمسمائة ، ولم يبلغ الخمسين في سنه ، رحمه الله تعالى .

رجع إلى ابن جبير :

قال لسان الدين في حقّه : إنّه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب ، وله الرحلة المشهورة ، واشتهرت في السلطان الناصر صلاح الدين ابن أيوب له قصيدتان : إحداهما أولها^٢ :

أُطْلِمَتْ عَلَى أَفْقِكَ الزَّاهِرِ سَعُودٌ مِّنَ الْفَلَكَ الدَّائِرِ

ومنها :

رَفَعْتَ مَغَارِمَ مَكْسِ الْحِجَازِ بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْغَامِرِ
وَأَمَنْتَ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى الْعَابِرِ
وَسُحِبُ أَبْيَادِكَ فَيَاضَةٌ عَلَى وَارِدٍ وَعَلَى صَادِرِ
فَكَمْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ وَكَمْ لَكَ بِالْغَرْبِ مِنْ شَاكِرِ

١ ترجمته في التكملة : ٩٣ وعنها ينقل المقرئ إلا خبر الكتابة عن السيد أبي سعيد ، وفي الإحاطة والذيل « أبي جعفر ابن حسان » .

٢ انظر القصيدة في الذيل والتكملة : ٥٩٨ ومقدمة الرحلة : ٢٨ .

والأخرى منها في الشكوى من ابن سُكْر الذي كان أخذ المكس من الناس
في الحجاز^١ :

وما نال الحجازُ بكم صلاحاً وقد نالتهُ مصرُ والشَّامُ

ومن شعره :

أخلاءَ هذا الزَّمانِ الخوونِ تَوَالَتْ عليهمُ حروفُ العِللِ
قضيتُ التعجَّبَ من بابهمُ فصرتُ أطلعُ بابَ البَدلِ

وقوله^٢ :

غريبٌ تذكَّرَ أوطانهُ فهِيجَ بالذكرِ أشجانهُ
يحلُّ عُرَى صبره بالأسى^٣ ويعقدُ بالنجمِ أجفانهُ

وقال رحمه الله تعالى ، لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفاً :

بَدَتْ لي أعلامُ بيتِ الهدى بمكةَ والنورُ بادٍ عليه
فأحرمتُ شوقاً لهُ بالهوى وأهديتُ قلبي هديّاً إليه

وقوله يخاطب مَنْ أهدى إليه مَوْزاً^٤ :

يا مُهْدِيَ الموزِ تَبَقَّى وميمُهُ لكَ فاء
وزايُهُ عن قريبٍ لَمَنْ يُعَاديك تاء

١ الذيل والتكملة : ٦١٧ ومطلعهما :

صلاح الدين أنت له نظام فما يخشى لعروته انفصام
والقصيدة تحريض لصلاح الدين كي يزيل التشيع من المدينة .

٢ المغرب : ٣٨٥ .

٣ المغرب : يحل جواه عقود العزاء .

٤ الذيل والتكملة : ٦٢٠ .

وقال رحمه الله تعالى :

قد ظَهَرَتْ في عصرنا فرقةٌ ظُهِرَها شُؤْمٌ على العصرِ
لا تقنّدي في الدين إلا بما سنّ ابن سينا وأبو نصرِ

وقال :

يا وحشةَ الإسلامِ من فرقةٍ شاغلةٌ أنفُسَها بالسَّفَةِ
قد نَبَذَتْ دينَ الهدى خَلْفَها وادَّعَتْ الحكمةَ والفلسفَةَ

وقال :

ضَلَّتْ بأفعالها الشيعةُ طائفةٌ عن هُدَى الشريعةِ
لَيْسَتْ ترى فاعلاً حكيماً يفعلُ شيئاً سوى الطبيعةِ

كان انفصاله ، رحمه الله تعالى ، من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ هـ ، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام من السنة ، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يوماً ، ونزل البر الإسكندراني في الحادي والثلاثين ، وحجّ ، رحمه الله تعالى ، ونجّول في البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها ، وكان ، رحمه الله تعالى ، كما قال ابن الرقيق : من أعلام العلماء العارفين بالله ، كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتاباً وهو على شرابه ، فمدّ يده إليه بكأس ، فأظهر الانقباض ، وقال : يا سيدي ما شربتها قط ، فقال : والله لتشربنَّ منها سبعةً ، فلما رأى الغزيمة شرب سبع أكؤس ، فملاً له السيد الكأس من دنائير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره ، فحمله إلى منزله وأضر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ، ثم رغب إلى السيد ، وأعلمه أنه حلف

بإيمان لا خروج له عنها أنه يحج في تلك السنة ، فأسعفه ، وباع ملكاً له تزود به ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر .

ومن شعره في جارية تركها بغرناطة^١ :

طولُ اغترابٍ وبرحُ شوقٍ لا صبرَ والله لي عليه
إليك أشكو الذي أُلقي يا خيرَ مَنْ يُشْتَكي إليه
ولي بغرناطة حبيبٌ قد غلِقَ الرهنُ في يديه
ودعته وهو في دلالٍ^٢ يُظهرُ لي بعضَ ما لديه
فلو ترى طلَّ نرجسيه ينهلُ في وردٍ وجنتيه^٣
أبصرتَ دُرّاً على عقيقٍ من دمه فوقَ صفحتيه^٤

وله رحلة مشهورة بأيدي الناس .

ولما وصل بغداد تذكر بلده ، فقال :

سقى الله بابَ الطاق صوبَ غمامة ورداً إلى الأوطانِ كلَّ غريبٍ

وقال في رحلته في حق دمشق^٥ : جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق المشرق ، هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تحلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضع^٦ الحسن بمكان مكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين ، ظلّ ظليل ، وماء

١ المغرب : ٣٨٤ .

٢ المغرب : بارتماض .

٣ المغرب : صفحتيه .

٤ المغرب : وجنتيه .

٥ الرحلة : ٢٦٠ .

٦ الرحلة : موضوع .

سلسبيل ، تنساب مَذَانِه انسيابَ الأرقام بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نَسِيمُهَا العليل ، تبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلمُوا إلى مُعَرَّسٍ للحسن ومَقِيل ، قد سثمت أرضها كثرة الما ، حتى اشتاقت إلى الظَّما ، فتكاد تناديك بها الصَّمُّ الصلاب ، ﴿ اركضْ برجلِكَ هذا مُغْتَسِلٌ باردٌ وَشَرَابٌ ﴾ (ص : ٤٢) قد أهدقتُ بها البساتينُ إحداقَ الهالة بالقمر ، واكتفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدتْ بشرقيها غُوطَتُها الخضراء امتداد البصر ، فكلُّ موقع لحظة يجهاها الأربع نظرتة البانعة قَيْدُ النظر ، ولله صدق القائلين فيها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شكَّ فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها .

قال العلامة ابن جابر الوادي آشي ، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ، ما نصّه : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد ، هذا ولم تكن له بها إقامة ، فيعرب عنها بحقيقة علامة ، وما وصف ذهبيّات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ، ولا أزمان فصولها المتنوعات ، ولا أوقات سرورها المهنتات ، ولقد أنصف من قال : ألفتها كما تصف الألسن ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، انتهى .

رجع إلى كلام ابن جبير فنقول :

ثمَّ ذكر في وصف الجامع^١ أنّه من أشهر جوامع الإسلام حسناً ، وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه ، ومن عجيب شأنه أنّه لا تنسج به العنكبوت ، ولا تدخله ، ولا تُلْمُ به الطير المعروفة بالخطاف . ثمَّ مدَّ النَّفْس في وصف الجامع وما به من العجائب ، ثمَّ قال بعد عدة أوراق ما نصّه^٢ : وعن يمين الخارج من باب

١ الرحلة : ٢٦١ .

٢ الرحلة : ٢٧٠ .

جَيَّرُون فِي جِدَارِ الْبِلَاطِ الَّذِي أَمَامَهُ غُرْفَةٌ ، وَلَهَا هَيْئَةٌ طَاقٌ كَبِيرٌ مُسْتَدِيرٌ فِيهِ طَيْقَانُ صُفْرٍ ، وَقَدْ فَتَحَتْ أَبْوَاباً صَغَاراً عَلَى عِدَدِ سَاعَاتِ النَّهَارِ ، دُبِّرَتْ تَدْبِيرًا هِنْدَسِيًّا ، فَعِنْدَ انْقِضَاءِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ تَسْقُطُ صَنْجَتَانِ مِنَ صُفْرٍ مِنْ فَمِي بَازِيَيْنِ مَصُورَيْنِ مِنْ صُفْرٍ قَائِمَيْنِ عَلَى طَاسَتَيْنِ مِنَ صُفْرٍ تَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، أَحَدُهُمَا تَحْتَ أَوَّلِ بَابٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ وَالثَّانِي تَحْتَ آخِرِهَا ، وَالطَّاسَتَانِ مَقْنُوبَتَانِ ، فَعِنْدَ وَقُوعِ الْبُسْدُقَتَيْنِ فِيهِمَا تَعُودَانِ دَاخِلَ الْجِدَارِ إِلَى الْغُرْفَةِ ، وَتَبْصُرُ الْبَازِيَيْنِ بِمَدَّانِ أَعْنَاقِهِمَا بِالْبِنْدُقَتَيْنِ إِلَى الطَّاسَتَيْنِ وَيَقْدِفَانِهِمَا بِسُرْعَةٍ بِتَدْبِيرٍ عَجِيبٍ تَنْخِيلُهُ الْأَوْهَامُ سَحَرًا ، وَعِنْدَ وَقُوعِ الْبِنْدُقَتَيْنِ فِي الطَّاسَتَيْنِ يُسْمِعُ لِهَمَا دَوِيٌّ ، وَيَنْغَلِقُ الْبَابُ الَّذِي هُوَ لَتِلْكَ السَّاعَةِ لِلْحَيْنِ بِلَوْحٍ مِنَ الصُّفْرِ ، لَا يَزَالُ كَذَلِكَ عِنْدَ انْقِضَاءِ كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ حَتَّى تَنْغَلِقَ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا وَتَقْضِيَ السَّاعَاتُ ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ ، وَلَهَا بِاللَّيْلِ تَدْبِيرٌ آخَرٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ فِي الْقَوْسِ الْمُنْعَطِفِ عَلَى تِلْكَ الطَّيْقَانِ الْمَذْكُورَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَائِرَةً مِنَ النُّحَاسِ مَحْرَمَةٌ ، وَتَعْتَرِضُ فِي كُلِّ دَائِرَةٍ زَجَاجَةٌ مِنْ دَاخِلِ الْجِدَارِ فِي الْغُرْفَةِ ، مَدْبَرٌ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا خَلْفَ الطَّيْقَانِ الْمَذْكُورَةِ ، وَخَلْفَ الزَّجَاجَةِ مَصْبَاحٌ يَدُورُ بِهِ الْمَاءُ عَلَى تَرْتِيبِ مَقْدَارِ السَّاعَةِ ، فَإِذَا انْقَضَتْ عَمَّ الزَّجَاجَةُ ضَوْءُ الْمَصْبَاحِ ، وَفَاضَ عَلَى الدَّائِرَةِ أَمَامَهَا شِعَاعُهَا فَلَاحَتْ لِلْأَبْصَارِ دَائِرَةٌ مَحْمَرَةٌ ، ثُمَّ انْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْآخَرَى حَتَّى تَقْضِيَ سَاعَاتُ اللَّيْلِ وَتَحْمَرُ الدَّوَائِرُ كُلُّهَا ، وَقَدْ وَكَّلَ بِهَا فِي الْغُرْفَةِ مُتَّفَقَةً لِحَالِهَا ، دَرَبٌ بِشَأْنِهَا وَانْتَقَالُهَا ، يَعِيدُ فَتَحَ الْأَبْوَابِ وَصَرَفَ الصَّنِيعَ إِلَى مَوْضِعِهَا ، وَهِيَ الَّتِي تَسْمِيهَا النَّاسُ الْمُنْجَاةَ ، انْتَهَى الْمَقْصُودُ مِنْهُ .

قُلْتُ : كُلُّ مَا ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ دِمَشْقِ الشَّامِ وَأَهْلِهَا فَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ يَسِيرٌ ، وَمَنْ ذَا يَرُومُ عَدَّ مَحَاسِنَهَا الَّتِي إِذَا رَجَعَ الْبَصَرُ فِيهَا انْقَابَ وَهُوَ حَسِيرٌ ، وَقَدْ أَطْنَبَ النَّاسُ فِيهَا ، وَمَا بَقِيَ أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرُوهُ ، وَقَدْ دَخَلْتُهَا أَوَاخِرَ شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ لِلْهِجْرَةِ ، وَأَقَمْتُ بِهَا إِلَى أَوَائِلِ شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ ، وَارْتَحَلْتُ عَنْهَا إِلَى مِصْرَ وَقَدْ تَرَكْتُ الْقَلْبَ فِيهَا رَهْنًا ، وَمَلِكٌ هَوَاهَا

مني فكراً وذهناً ، فكأنتها بلدي التي بها ربيت ، وقراري الذي لي به أهل
وبيت ، لأن أهلها عاملوني بما ليس [لي] بشكره يدان ، وها أنا إلى هذا التاريخ
لا أرتاح لغيرها من البلدان ، ولا يشوقني ذكر أرض بابل ولا بغداد ، فالله
سبحانه وتعالى يعطر منها بالعافية الأردن .

[أشعار في وصف دمشق]

وقد عنّ لي أن أذكر جملة ممّا قيل فيها من الأمداح الرائقة ، وأسرّد
ما خاطبني به أهلها من القصائد الفائقة ، فأقول :

قال البدر بن حبيب^١ :

يَمَمُّ دِمَشْقَ وَمِلْ إِلَى غَرْبِهَا وَالْمَحْ مُحَاسِنَ حُسْنِ جَامِعِ يَلْبُغَا
مَنْ قَالَ مِنْ حَسَدٍ رَأَيْتُ نَظِيرَهُ بَيْنَ الْجَوَامِعِ فِي الْبِلَادِ فَقَدْ لَغَا
وقال رحمه الله :

لِلَّهِ مَا أَحْلَى مُحَاسِنَ جِلْقٍ وَجِهَاتِهَا اللَّاتِي تَرْوُقُ وَتَعْدُبُ
بِيَزِيدِ رِبَوْتِهَا الْفَرَاتِ وَجَنَّتْكِهَا يَا صَاحِبَ كَمِّ كُنَّا نَخْوُضُ وَنَلْعُبُ
وقال في كتاب « شنف السامع بوصف الجامع »^٢ :

لِلَّهِ مَا أَجْمَلَ وَصَفَ جِلْقٍ وَمَا حَوَى جَامِعُهَا الْمُنْفَرِدُ

١ من التعريف بالبدر بن حبيب ، انظر ١ : ٦٨ ؛ وهو الحسن بن عمر بدر الدين الحلبي المتوفى
سنة ٧٧٩ ؛ وهذا هو ابنه طاهر بن الحسن بن عمر يعرف أيضاً بأبن حبيب (توفي سنة ٨٠٨) وقد
ذيل على تاريخ أبيه المسمى «درة الأسلاك» ، وهو صاحب كتاب شنف السامع ؛ وربما كان
الأصوب أن يقال فيه «ابن البدر» .

٢ ينقل عن البدر صاحب نزهة الأنام في محاسن الشام ويسميه «تشنيف المسامع» (انظر ص :
٤٤) ، واسمه في كشف الظنون كما أوردته المقرئ .

قد أطربَ الناسَ بصوتِ صيتهِ وكيف لا يُطربُ وهو معبدُ
وقال في ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة^١ :

يا راغباً في غيرِ جامعٍ جَلِّقْ هل يستوي الممنوعُ والممنوحُ
أقصرَ عَنَّاكَ وفي غلوكَ لا تزدُ إنَّ الزيادةَ بابُها مَفْتُوحُ

وقال في منارته المعروفة بالعروس^٢ :

معبدُ الشامِ يجمعُ الناسَ طُرّاً وإليه شوقاً تَميلُ النفوسُ
كيف لا يجمعُ الورى وهو بيتُ فيه تُجلى على الدوامِ العروسُ

ومنه في ذكر بانيه الوليد :

تالله ما كانَ الوليدُ عابثاً في صَرفه المالَ وبذلِ جُهدِه
لكنهُ أحرزَ مُلكَ معبدٍ لا ينبغي لأحدٍ منْ بعده

ومن أبيات في آخره :

بجامعٍ جَلِّقْ ربُّ الزعامَةِ	أقمْ تلقَ العِنايةَ والكرامَةِ
ويممُ نحوهُ في كلِّ وقتٍ	وصلَّ به تَصِلُ دارَ الإقامَةِ
مُصَلَّتِي فيه للرحمنِ سرٌّ	ومثوَّى للقبولِ بهِ علامَةِ
محلُّ كَمَلِ الباري حُلاه	وبيتُ أبدعَ الباني نظامِه
دمشقُ لم تزلْ للشامِ وجهاً	ومسجدها لوجهِ الشامِ شامِه
وبينَ معابدِ الآفاقِ طُرّاً	لهُ أمرُ الإمارةِ والإمامَةِ
أدامَ الله بَهْجَتَهُ وأبقى	محاسنَهُ إلى يومِ القيامَةِ

١ البيتان في نزهة الأنام : ٤٥ .

٢ هما في نزهة الأنام : ٤٥ .

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور ، بل على بعضه فقط .

ومن قصيدة القاضي المهذب بن الزبير^١ :

ل إذا اشتملت الرند ^٢ بُردا	بالله يا ريح الشما
مى ما اغتدى للنند ^٣ ندّا	وحملت من عرّف ^٤ الخزا
ن إذا اعتقن ^٥ هوى وودّا	ونسجت ما بين الغصو
أعطافها قدّا فقدّا	وهزرت عند الصبح من
أجياذها للزهر عِقدا	ونثرت فوق الماء من
حتى اكتسى آسا ووردا	فملأت صفحة وجهه
ه منها صدغًا وخدا	وكأنما ألقيت في
ه يزيد في مسراك بردا	مرّي على برّدى عسا
سرّ مسنّه الأزهار عَمدا	نهر كنصل السيف تك
م بمرهنّ فليس يصدا	صقلته أنفاس النسي

ومنها :

أحبابنا ما بالكُم^٦ فينا من الأعداء أعدى
وحياة حبّكم^٧ وحرّ مة وصاكم^٨ ما خنت عهدا

١ هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير ، أبو محمد القاضي المهذب (٥٦١ -) أحد شعراء الخريدة (وانظر معجم الأدباء ٩ : ٤٧) ، وبعض أبياته هذه في الخريدة ١ : ٢١٤ (قسم مصر) . وهي في المقتطفات (الورقة : ٢٥) .

٢ الخريدة : الليل ؛ ق ودوزي : الروح ، وفي الحاشية نقلا عن هامش إحدى النسخ : لعله « الرند » ؛ ج : الريح .

٣ الخريدة : نشر .

٤ الخريدة : ونسجت في الأشجار بين غصونهن .

٥ في بعض الأصول : أصلكم ، وفي إحدى النسخ : عهدكم ، وأثبتنا ما في الخريدة .

وقال الكمال الشريشي^١ :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ
بعدتُ عنكم فلا والله بعدكمُ
إذا تذكرتُ أوقانا نأتُ ومضتُ
كأنّتي لم أكنْ بالنيرين^٢ ضحى
والورقُ تنشدُ والأغصانُ راقصةُ
والسفعُ أين عشيّاتي التي ذهبتُ^٣
سفاك بالسفعِ سفعُ الدمع منهمراً^٤
فإنّ قلبي بنار الشوق يستعيرُ
ما لذّ للعين لا نوم ولا سهرُ
بقربكم كادتِ الأحشاء تنفطرُ
والغيم يبكي ومنه يضحك الزهرُ^٥
والدّوح يطربُ بالتصفيق والنهرُ
لي فيه فهي لعمرى عندي العمرُ^٦
وقلّ ذاك له إن أعوزَ المطرُ

وحكى ابن سعيد وغيره أن غرناطة تسمى « دمشق الأندلس » لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس ، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار ، وقد أطلّ عليها جبل الثلج ، وفي ذلك يقول ابن جبّير صاحب الرحلة :

يا دمشق الغرب هاتي
تحنك الأنهار تجري
سكّ لقد زدّت عليها
وهي تنصبّ إليها

قال ابن سعيد : أشار ابن جبّير إلى أن غرناطة في مكانٍ مشرفٍ وغوّطتها

- ١ في هامش طبعة ليدن أن هذه الأبيات في « درة الأسلاك » لابن حبيب مخطوطة ليدن رقم ٤٢٥ ص : ٢٦٠ ، ولم أطلع عليها وإنما أثبت الفروق التي وزدت في حاشية الطبعة المذكورة ، وهي كذلك في المقتطفات الورقة : ٢٦ ولكمال الدين الشريشي ترجمة موجزة في الفوات ١ : ١٠٩ والشذرات ٦ : ٤٧ .
- ٢ في المقتطفات : بالنيرين .
- ٣ درة الأسلاك : والزهر .
- ٤ درة الأسلاك : سلفت .
- ٥ درة الأسلاك : يا سفع .
- ٦ دوزي : منهلاً .

تحتها تجري فيها الأنهار ، ودمشق في وَهْدَة تنصبُّ إليها الأنهار ، وقد قال
الله تعالى في وصف الجنة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ انتهى .
وقال الشيخ الصفدي في تذكرته : أنشدني المولى الفاضل البارع شمس الدين
محمد بن يوسف بن عبد الله الحياط بقاعة الجبل من الديار المصرية حرسها الله تعالى
لنفسه في شعبان المكرم سنة ١٧٣٢ :

قصدت مصرًا من رُبِّي جلتُ بهمة تجري بتجريبي
فلم أر الطرَّة حتى جرت دموع عيني بالمرزيب^٢
وأنشدني لنفسه أيضاً :

خَلَفْتُ بالشام حبيبي وقد يَمَمْتُ مصرًا لِعَنَا طارق
والأرضُ قد طالت فلا تَبْعَدِي بالله يا مصرُ على العاشق^٣
وأنشدني لنفسه أيضاً :

يا أهلَ مصرٍ أنتمُ للعلا كواكبُ الإحسان والفضل
لو لم تكونوا لي سعوداً لما وافيتكمُ أضربُ في الزمل
وذكرته برمته لحسن مغزاه .

وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظهير الحنفي
الإربلي^٤ :

١ قد مر البيتان وكذلك التعريف بابن الحياط (راجع النفع ١ : ٩٦) .
٢ في الأصول : بالمرزيب ، وقد غيرت في طبعة ليدن فجعلت « بالمرزيب » خلافاً لما أثبت
به من قبل ج ١ ص : ٦٤ من الطبعة المذكورة ، وصححها المعلق في المستدركات إلى « المرزيب »
وهو الصواب .
٣ في أمثالنا العاية بفلسطين : « مصر على المشتاق ما هي بعيدة » ، وفي البيت تلميح إلى هذا المثل .
٤ محمد بن أحمد بن عمر ابن الظهير الإربلي (٦٧٧) شاعر من فقهاء الحنفية ولد بإربل وتنقل
في البلاد وكانت وفاته بدمشق ، وهو صاحب مختصر أمثال الشريف الرضي (انظر القوات =

لعلَّ سَنًا بَرَقَ الحمى يتألقُ
فلا نارُها تبدو لمرتقبٍ ولا
لعلَّ الرياحَ الهُوجَ تُدني لنازحٍ
ديارُ قُضينا العيشَ فيها منعماً
سَحَبْنَا بها بُرْدَ الشبابِ وشربنا
مواطنُ منها السهمُ سهمي وظِلّه
كلا^٣ جانبِيهَ معلّمٌ متجددٌ
إذا الشمسُ حَلَّتْ مُتَنَّهُ فهو مُذْهَبٌ
وإن فَرَجَ الأوراقِ جادت بنُورها
يُطلُّ عَلَيْهِ قاسيونُ كأنّه
تسافرُ عنه الشمسُ قبلَ غروبها
وتصفّرُ من قبلِ الأصيلِ كأنّها
وفي التَّيرَبِ الميمونُ؛ اللَّبَّ سالبٌ
بدائع من صنع القديم ومحدثٌ
رياض كموشيِّ البرودِ يَشْفُفُهَا^٤
فَمِنْ نرجسٍ يَحْشَى فراقَ فريقه

على النَّايِ أو طيفاً لأسماءِ يَطْرُقُ
وعودُ الأمانِي الكواذبِ تَصْدُقُ
من الشامِ عَرَفًا كاللطيمةِ يعبقُ
وأيامُنَا تَحْنُو عَلَيْنَا وَتُشْفِقُ
لديْنَا كما شِئْنَا لذيذُ مَرُوقٍ^١
تَحْبُ مطايا اللّهُو فيه وَتُعْنِقُ^٢
من الماءِ في أَطْلَالِه يَتَدَفَّقُ
وإن حَجَبَتْهَا دَوْحُهُ فهو أَزْرَقُ
فَرَقَمُ أجادته الأكفُ مَنَمَقُ
غمامٌ مُعَلَى أو نَعَامٌ مَعْلَقُ
وترجفُ إجلالاً له حين تشرقُ
محبٌ من البين المشتتِ مُشْفِقُ
من المنظر الزاهي وللطرفِ مومقٌ^٥
تَأْتَقُ فيها المحدثُ المتأَنقُ
جداولها ، فالنَّورُ بالماءِ يَشْرِقُ
تري الدمعَ في أجفانه يَتَرَقُّ

= ٢ : ٣٥٦ وذكر أن ديوان شعره في مجلدين وأخطأ في سنة وفاته إذ جعلها ٦٩٧ ؛ والوائي
٢ : ١٢٣) وقصيدته هذه في الفوات وهي طويلة كثيراً ؛ والأبيات الواردة هنا موجودة في
المقتطفات الورقة : ٢٦ .

١ الفوات : مصفى مصفق .

٢ الفوات : فكلنا نحب . . . ونمقق .

٣ في ج ق ودوزي : جلا ، والتصويب عن الفوات .

٤ الفوات : المرموق .

٥ الفوات : موقق .

٦ في المطبوع : كوشي البرود ؛ وفي الفوات : رياض كوشي البرد تزهو بحسناها .

وَمِنْ كُلِّ رِيحَانٍ مُقِيمٍ وَزَائِرٍ
كَأَنَّ قَدُودَ السَّرَوِ فِيهِ مَوَاسِمًا
إِذَا مَا تَدَلَّتْ لِلشَّقَاقِ صَدَّاهَا
وَقَصْرٌ يَكِيلُ الطَّرْفُ عَنْهُ كَأَنَّهُ
وَكَمْ جَدُّولٌ جَارٍ يُطَارِدُ جَدُولًا
وَكَمْ بَرَكَةٌ فِيهَا تُضَاحِكُ بَرَكَةٌ
وَكَمْ مَنْزِلٌ يُعْشِي الْعَيُونَ كَأَنَّمَا
وَفِي الرَبْوَةِ الْفِيحَاءُ^٣ لِلْقَلْبِ جَاذِبٌ
عُرُوسٌ جَلَاهَا الدَّهْرُ فَوْقَ مَنْصَةِ
فَهَامَ بِهَا الْوَادِي فَفَاضَتْ عَيُونُهُ
تَكْفَلُ مِنْ دُونِ الْجَدَاوِلِ شُرْبَهَا

يَصَافِحُ رِيَّاهُ الرِّيَاضِ^١ فَتَعْبِقُ
قَدُودُ عَذَارَى مَيْلُهَا مَتَرَفُ
عَيُونَُ مِنَ النُّورِ الْمَفْتَحِ تَرْمَقُ
إِلَى النَّسْرِ نَسْرٌ فِي السَّمَاءِ مَعْلَقُ
وَكَمْ جَوْسِقُ عَالٍ يَوَازِيهِ جَوْسِقُ
وَكَمْ قَسْطَلٌ لِلْمَاءِ فِيهِ تَدْفُقُ^٢
تَأَلَّقَ فِيهَا بَارِقُ يَتَأَلَّقُ
وَلِلَّهِمْ مَسَلَاةٌ^٤ وَلِلْعَيْنِ مَرْمَقُ
مِنَ الدَّهْرِ وَالْأَبْصَارُ تَرْمِي وَتَرْمَقُ
فَكُلُّ قَرَارٍ مِنْهُ بِالْدمْعِ يَشْرِقُ
يَزِيدُ يُصَفِّيهِ لَهَا وَيُرَوِّقُ

وقال أبو تمام في دمشق^٥ :

لَوْلَا حَدَائِقُهَا وَأَنْتِي لَا أَرَى
وَأَرَى الزَّمَانَ غَدَا عَلَيْكَ بَوَّجَهُ
قَدْ بَوَّرِكَتْ تِلْكَ الْبَطُونُ وَقَدْ سَمَتْ
عَرَشًا هُنَاكَ ظَنَنْتُهَا بَلْقِيْسَا
جَذْلَانِ بِسَامًا وَكَانَ عَبُوسَا
تِلْكَ الظُّهُورُ وَقَدْ سَتَتْ تَقْدِيْسَا

وقال البحري^٥ :

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَبَدَتْ مُحَاسِنَهَا وَقَدْ وَفَى لَكَ مُطَرِّبُهَا بِمَا وَعَدَا

-
- ١ الفوات : تصاعف رياه الرياح .
 - ٢ الفوات : للماء في الماء يدفق .
 - ٣ الفوات : السماء .
 - ٤ ديوان أبي تمام ٢ : ٢٦٤ .
 - ٥ ديوان البحري ٢ : ٧١٠ والأبيات أيضاً في تاريخ دمشق ٢ : ١٧١ ومعجم البلدان مادة « دمشق » والأعلاق الخطيرة (دمشق : ٢٣٥) .

إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلدٍ مستحسنٍ وزمانٍ يُشبهُ البلدا
تمشي السحابُ على أجاها فِرَقاً ويصبحُ النَّورُ في صحرائها بددا
فلستَ تبصرُ إلاً واكفاً خضلاً أو يانعا خضيراً أو طائراً غردا
كانتما القهظُ ولّى بعدَ جيئته أو الربيعُ دنا من بعد ما بعدا
وفي دمشق يقول بعضهم :

برَزَتْ دمشقُ لزاثري أوطانها من كلِّ ناحيةٍ بوجهٍ أزهرٍ
لو أن إنساناً تعمَّدَ أن يرى مَغْنَى خلا من نزهةٍ لم يقلر
وقال القيراطي في قصيدته التي أولها :

لَلصَّبِّ بعدكُ حالة لا تعجبُ

لله ليلٌ كالنَّهارِ قطعته بالوصلِ لا أخشى به ما يرهبُ
وركبتُ منه إلى التصابي أدهماً من قبل أن يبدو لصبحٍ أشهبُ
أيام لا ماء الحدود يشوبه كدَرُ العذار ولا عِذارٍ أشيبُ
كم في مجالٍ اللهو لي من جولة أضحتُ ترقصُ بالسماع وتطربُ
وأقمتُ للندماء سوقَ خلاعةٍ تُجني المجونُ إليَّ فيه وتُجلبُ
وذكرتُ في مَغْنَى دمشقٍ معشراً أمُّ الزمانِ بمثلهم لا تُنجبُ
لا يسألُ القُصَّادُ عن ناديتهم لكنَّ يدلُّهمُ الثناء الطيبُ
قومٌ بحسنِ صفاتهم وفعلهم قد جاء يعتذرُ الزمانُ المذنبُ

١ هو إبراهيم بن عبد الله الطائي برهان الدين القيراطي (٧٨١) ، شاعر قاهري جمع بين الفقه والأدب وتوفي بمكة ، وله ديوان مطبوع ساه « مطلع النيرين » وأبياته في المقتطفات (الورقة : ٢٧) وبعض أبياته في نزهة الأنام : ٥٠ وحلبة الكميت : ٢٧٧ (وترجمته في الدرر الكامنة ٣١ : ٦ وشذرات الذهب ٦ : ٢٩٦) .

يا من حرَّانِ القوادرِ وطرفه
أشتاقُ في وادي دمشق معهداً
ما فيه إلا روضةً أو جوسقاً
وكانَ ذاك النهرَ فيه معصمٌ
وإذا تكسَّرَ ماؤه أبصرتهُ
وشدتْ على العيدانِ ورقٌ أطربتْ
فالورقُ تشدُّ والنسيمُ مشبَّبٌ
وضياعُها ضاعَ النسيمُ بها فكم
وحلتْ بقلبي من عساكرِ جنةٍ
ولكم رقصتْ على السماعِ بحُنُكها
فمتى أزورُ معالماً أبوابها
بدمشق أدمعُه غدتْ تتحلَّبُ
كلُّ الجمالِ إلى حماه يُنسبُ
أو جدولٌ أو بلبلٌ أو ربَّربُ
بيدِ النسيمِ مُنقَشٌ ومكتَّبُ
في الحالِ بينَ رياضِهِ يشعَّبُ
بغائثها منْ غابَ عنه المطربُ
والنهرُ يسقي والحدائقُ تشربُ
أضحى له من بينِ روضٍ مطلبُ
فيها لأربابِ الخلاعةِ ملعبُ
وغداً بربوتها اللسانُ يشبَّبُ
بسماحها كُتِبَ السَّماحُ تُبَوَّبُ

وقال الصَّقِيُّ الحَلِّيُّ عند نزوله بدمشق مسمطاً لقصيدة السموأل بالحامسة^١ :

قيحٌ بمن ضاقتْ عن الرِّزْقِ أرضه
وطولُ الفلا رحبٌ لديه وعرضه
ولم يُبلِّلْ سربالَ الدجى فيه ركضه
إذا المرءُ لم يدنْ نَسْ من اللؤمِ عرضُه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلٌ

إذا المرءُ لم يحجبْ عن العينِ نومها
ويُغلِّ من النفسِ النفيسةِ سَومها
أُضِيعَ ولم تأمنْ معاليه لَومها
وإن هو لم يحملْ على النفسِ ضيمها فليس إلى حُسنِ الثناء سبيل

١ ديوان الصَّقِيِّ : ٣٦ ، والمخسة أيضاً في المقتطفات (الورقة : ٢٤) .

رَفَعْنَا عَلَى هَامِ السَّمَاءِ مَحَلَّنَا
فَلَا مَلِكٌ إِلَّا تَغَشَّاهُ ظِلُّنَا
لَقَدْ هَابَ جَيْشُ الْأَكْثَرِينَ أَقْلُنَا
وَلَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا شَبَابُ تَسَامَى لِلْعُلَا وَكَهُولُ

يُوَازِي الْجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ وَقَارُنَا
وَتُبَّتِي عَلَى هَامِ الْمَجْرَةِ دَارُنَا
وَيَأْمَنُ مِنْ صَرْفِ الزَّمَانِ جَوَارُنَا
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلُ وَجَارُنَا عَزِيزُ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

وَلَمَّا حَلَلْنَا الشَّامَ تَمَّتْ أُمُورُهُ
لَنَا وَحَبَانَا مَلِكُهُ وَوَزِيرُهُ
وَبِالنَّيْرَبِ الْأَعْلَى الَّذِي عَزَّ طُورُهُ
لَنَا جَبَلُ يَحْتَلُهُ مَنْ نَجِيهِهِ مَنِيعُ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ

يَرِيكَ الثَّرِيَا مِنْ خِلَالِ شَعَابِهِ
وَتَحْدَقُ شُهْبُ الْأَفْقِ حَوْلَ هَضَابِهِ
وَيَقْصُرُ خَطُّ السُّحْبِ دُونَ ارْتِكَابِهِ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ إِلَى النَّجْمِ فَرَعُ لَا يُنَالُ طَوِيلُ

وَقَصِرَ عَلَى الشُّقْرَاءِ قَدْ فَاضَ نَهْرُهُ
وَفَاقَ عَلَى فَخْرِ الْكَوَاكِبِ فَخْرُهُ
وَقَدْ شَاعَ مَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ شُكْرُهُ
هُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي سَارَ ذِكْرُهُ يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

إذا ما غَضِبْنَا في رضا المجدِ غَضِبَةً
لندركَ ثأراً أو لنبلغَ رتبةً
نزيد غداةَ الكرِّ في الموتِ رغبةً

وإنا لَقَوْمٌ لا نرى الموتَ سُبَّةً إذا ما رأته عامرٌ وسكول

وكتب الشيخ محب الدين الحموي في ترجمة الشيخ^١ إسماعيل النابلسي شيخ
الإسلام من مصر^٢ :

لواء التّهاني بالمسرة يَخْفِقُ	وشمسُ المعالي في سما الفضلِ تُشْرِقُ
وسعدٌ وإقبالٌ ومجدٌ مخيمٌ	وأيامٌ عزٌّ بالوفا تتخلقُ
فيا أيها المولى الذي جلَّ قدرُهُ	ويا أيها الحبرُ اللبيبُ المدققُ
أرى الشامَ مذ فارقتها زال نورُها	وثوبٌ بهاها والنضارة يَخْلُقُ
إذا غبتَ عنها غابَ عنها جمالُها	ونفسٌ بدونِ الروحِ لا تتحققُ
وإن عُدتَ فيها عاد فيها كمالُها	وصارَ عليها من بهائك رَوْنَقُ
فيا ساكني وادي دمشقَ مزارُكمُ	بعيدٌ وبابُ الوصلِ دوني مُغْلَقُ
وليس على هذا النوى لي طاقةٌ	فهل من قيودِ البينِ والبعدِ أُلْطَقُ
ولإني إلى أخبارِكمُ متَشَوِّفٌ	ولإني إلى لقاءِكمُ متَشَوِّقُ
أودُّ إذا هبَّ النسيمُ لنحوكمُ	بأنِّي في أذيالِهِ أَتَعَلَّقُ
وأصبو لذكراكمُ إذا هبَّتِ الصِّبَا	لعلِّي مِن أخبارِكمُ أَتَنَشَقُ

١ ق : ترجمة للشيخ ، وسقطت « في » من ق ج .

٢ هو إسماعيل بن أحمد ابن الحاج إبراهيم النابلسي (٩٣٧ - ٩٩٣) شيخ الإسلام ، وصاحب الفتاوى وصدر دمشق في عصره (انظر ترجمته في الكواكب السائرة ٣ : ١٣٠) . وأما محب الدين الحموي فهو محمد بن تقي الدين أبي بكر ابن داود بن عبد الرحمن بن عبد الخالق المحبسي (٩٥١ - ١٠١٦) ، وهو صاحب تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات المعروف بشواهد الكشف وغيره من المؤلفات (خلاصة الأثر ٣ : ٣٢٢) .

ولي أنة أودت بجسمي ولوعة
فحنوا على المصنئ الذي ثوب صبره
غريب بأقصى مصر أضحت دياره
وقد نسخ التبريح جسمي فهل إلى
فيا ليت شعري هل أفوز بروضة
وأنظر واديا وآوي لربوة
ويحلولي العيش الذي مر صفوه
وأنظر ذاك الجامع الفرد مرة
وأصحابنا فيه نجوم زواهر
فلا برحوا في نعمة وسعادة

وقال ابن عني^١ :

ماذا على طيف الأحيّة لو سرى
جَنَحُوا إلى قول الوُشاة وأعرضوا
يا معرضاً عني بغير جنابة
هني أسأت كما تقول وتفتري
ما بعدد بُعدك والصدود عقوبة
لا تجمعن عليّ عتبك والنوى
عبء الصدود أخف من عبء النوى
فَسقى دمشق وواديّتها والحمى

وعليهم لو ساعدوني^٢ بالكري
والله يعلم أن ذلك مُفتري
إلا لما نفل العذول^٣ وزورا
وأئت في حبّيك شيئا منكرا
يا هاجري ما آن لي أن تغفرا
حسب الحب عقوبة أن يهجرا
لو كان لي في الحب أن أنخيرا
متواصل الأرهام^٤ منضم العرى

١ ديوان ابن عني : ٣ وهي في ملح الملك العادل بن أيوب .

٢ الديوان : ساعوني .

٣ الديوان : رقص الحسود .

٤ الديوان : الأرعاد .

حتى ترى وجهَ الرياضِ بعارضٍ أحوى وفودَ الدَّوحِ أزهَرَ نيراً
تلكَ المنازلُ لا ملاعبُ عالِجٍ ورمالُ كاظمةٍ ولا وادي القرى
أرضٌ إذا مرَّتْ بها ريحُ الصَّبَا حمَلَتْ على الأغصانِ مسكاً أذفراً
فارقَتْها لا عن رضاٍ وهجرَتْها لا عن قِلَىٍ ورحلتُ لا متخيِّراً
أسعى لرزقٍ في البلادِ مُسْتَتٍ ومن العجائبِ أن يكونَ مقتراً

* * *

[تعريف بابن عنين]

وابن عنين المذكور كان هجاء ، وهو صاحب « مقراض الأعراض »
تجاوز الله تعالى عنه ، فمن ذلك قوله ٢ :

أرحُ من نَزَحِ ماءِ البئرِ يوماً فَقَدْ أَفْضَى إِلَى تَعَبٍ وَعِيٍّ
مَرِّ الْقَاضِي بَوْضَعٍ يَدِيهِ فِيهِ وَقَدْ أَضْحَى كِرَاسِ الدَّوْلَعِيِّ

يعني أفرع ؛ وسببُ قوله البيتين أن المعظمَ أمرُ بنزح ماء بقلعة دمشق ،
فأعياهم ذلك .

ومن هَجْوِهِ قوله ٣ :

شكا شعري إليَّ وقال تهجو بمثلي عرضَ ذا الكلبِ اللثيمِ
فقلتُ له تَسَلَّ فَرُبَّ نَجْمٍ هوى في إثرِ شيطانٍ رجيمِ

وقال فيمن خرج حاجاً فسقط عن الهجين فتخلف :

إذا ما ذُمَّ فعلُ الدُّوقِ يوماً فَإِنِّي شاكِرٌ فعلَ النِّياقِ

١ الديوان : مفرق ، ومن البلية .

٢ ديوانه : ٢٣٥ .

٣ وردت هذه المقطعات في ديوانه : ١٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢١٥ ، ٢٣٥ ، ١٧٩ ، ٦٩ .

أَرَادَ اللهُ بِالْحُجَّاجِ خَيْرًا فثَبَّتَ عَنْهُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ

وقال :

وراحلٍ سِرْتُ فِي رَكْبٍ أَوْدَعُهُ تَبَارَكَ اللهُ مَا أَحْلَى تَلَاجِينَا
جِئْنَا إِلَى بَابِهِ لَاجِينَ نَسْأَلُهُ فَلَيْتَنَا عَاقْنَا مَوْتَ وَلَا جِينَا
رَاجِينَ نَسْأَلُ مَيِّتًا لَا حَرَكَهَ بِهِ مِثْلَ النَّصَارَى إِلَى الْأَصْنَامِ لَاجِينَا

وقال :

وَصَلَّتْ مِنْكَ رَقْعَةٌ أَسْأَمَنِي صَبَّرْتُ صَبْرِي الْجَمِيلَ قَلِيلًا
كَنْهَارِ الْمَصِيفِ حَرًّا وَكَرْبًا وَكَكَلِيلِ الشِّتَاءِ بَرْدًا وَطُولًا
وَأَوَّلُ «مَقْرَاضِ الْأَعْرَاضِ» قَوْلُهُ :

أَضَالَعْتُ تَنْطَوِي عَلَى كَرْبٍ وَمَقْلَةٌ مُسْتَهْلَةٌ الْغَرْبِ
شَوْقًا إِلَى سَاكِنِي دِمَشْقَ فَلَا عَدَّتْ رُبَاهَا مَوَاطِرُ السُّحْبِ
مَوَاطِنُ مَا دَعَا تَوَطَّنَهَا إِلَّا وَلَبَّيْ نَدَاءَهَا لُبِّي

ثُمَّ ذَكَرَ مِنَ الْمَهْجُوِّ مَا تَصَمَّ عَنْهُ الْأَذَانُ .

وهو القائل في دمشق :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَ لَيْلَةً وَظَلَمْتَ يَا مُقَرَّرِي عَلَيَّ ظَلِيلُ
وَهَلْ أَرَيْتَنِي بَعْدَمَا شَطَطَتِ النَّوَى وَلِي فِي ذَرَا رَوْضٍ هُنَاكَ مَقِيلُ

ومنها :

دِمَشْقُ بَنَا شَوْقًا إِلَيْكَ مَبْرُوحُ وَإِنْ لَجَّ وَاشْ أَوْ أَلَحَّ عَنُودُ

١ الديوان : ما أشقى الساكينا .

بلادُ بها الحصباءُ دُرٌّ ، وتربُّها عيرٌ ، وأنفاسُ الشَّمالِ شَمُولُ
تسلسلَ فيها ماؤها وهو مطلقٌ وصحَّ نسيمُ الروضِ وهو عليل

وقد تقدم التمثيل بهذه الأبيات الثلاثة في خطبة هذا الكتاب .

ومن هذه القصيدة :

وكيفَ أخافُ الفقرَ أو أحرمُ الغنى ورأيُ ظهيرِ الدينَ فيَّ جميلُ
منَ القومِ أمّا أحنفُ فمُسْفَهٌ لديهمُ ، وأمّا حاتمٌ فبخيلُ
ففي المجدِ أما جارهُ فمُمنَعٌ عزيزٌ ، وأمّا ضِدُّهُ فذلِيلُ
وأما عطايا كفه فمباحةٌ حلالٌ^١ ، وأمّا ظلهُ فظليلُ

وظهير الدين الممدوح هو طُغْتِكِين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ،
وكان ملك اليمن ، وأحسن إلى ابن عنين إحساناً كثيراً وافراً ، وخرج ابن
عين من اليمن بمال جم ، وطُغْتِكِين : بضم الطاء المهملة ، وبعدها غين معجمة ،
ثم تاء مثناة من فوقها مكسورة ، ثم كاف مكسورة أيضاً ، ثم ياء تحتية ، ثم
نون ، وكان يلقب بالملك العزيز ، ولذلك قال ابن عنين لما رجع من عنده إلى
مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزم أرباب الديوان ابن عنين بدفع
الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته^٢ :

ما كلُّ من يتَسَمَّى بالعزيزِ له أهلٌ وما كلُّ بُرِّقٍ سَحْبُهُ غَدَقَهُ
بينَ العزيزينِ بَوْنٌ في فعَالهما هذاك يُعْطِي وهذا يأخذُ الصَّدَقَهُ

ومن هجو ابن عنين قوله في فقيهين يلقَّب أحدهما بالبغل والآخر
بالحاموس^٣ :

١ الديوان : فسوانغ عذاب .

٢ ديوانه : ٢٢٣ .

٣ ديوانه : ٢٠٥ .

البغلُ والجاموسُ في حالَيْهِما قد أصبحا مثلاً لكلِّ مُناظِرِ
 قعداً عشيّةَ يومنا فتناظرا هذا بقرنيه وذا بالخافرِ
 ما أحكما غيرَ الصياح كأنهما لقنا جدال المرتضى بن عساكرِ
 جلفان ما لهما شبيهٌ ثالثٌ إلا رَقاعَةٌ مَدْلُويهِ الشاعرِ
 لَقْظٌ طويلٌ تحتَ معنَى قاصرٍ كالعقلِ في عبد اللطيفِ الناظرِ

رجع إلى دمشق :

وقال العز الموصلي :

إليك حياضَ حماماتِ مصرٍ ولا تتكثري عندي بمِمينِ
 حياضُ الشام أحلى منك ماءً وأظْهَرُ وهي دونَ القُلْتينِ

وهذان البيتان جوابٌ منه عن قول ابن نباتة ^٢ :

أحواضُ ^٣ حمامِ الشَّامِ مِ ألا اسمعي لي كلمتينِ
 لا تذكرِي أحواضَ مصرَ مرَ فأنتِ دونَ القُلْتينِ

وأما قول النواجي ساعه الله تعالى :

مصرُ قالت : دمشقُ لا تَفْتَحِرُ قَطُّ باسمِها
 لو رأَتْ قوسَ روضتي منه راحَتُ بسهمِها

فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ، ومنه قول الوداعي :

روٍّ بمصرٍ وبسكانِها شوقي وجدّدْ عهدي الخالي

١ الديوان : برزا .

٢ ديوان ابن نباتة : ٥٣٧ ، ومطالع البدر ٢ : ١٢ .

٣ الديوان : أجران .

وارو لنا يا سعدُ عن نيلها حديث صفوان بن عسال
فهو مُرادِي لا «يزيد» ولا «نور» وإن رقًا ورقًا لي

ومن ذلك النمط قول الشهاب الحجازي :

قالوا دمشقٌ قد زهتْ لزهرها فامضِ وشاهدْ جَوَزَهَا ولوزَهَا
فقلتُ لا أَبْدِلُ بلدي بها ولستُ أرضى زهرها ولَوَزَهَا

وقول الآخر :

قد قالَ وادي جِلَّتِي للنيلِ إذ كسروه أعينُ جبهتي لك تُرْفَعُ
فأجابَ بحرُ النيلِ لما أن طغى عندي مقابلُ كلِّ عينٍ لِاصْبَعُ

وقد تذكّرت هنا قول بعضهم :

ماذا يفيدُ المعنى من الأذى المتتابعِ
بمصرَ ذات الأيادي ونيلها ذي الأصابعِ

وقد شاع الخلافُ قديمًا وحديثًا في المفاضلة بين مصر والشام ، وقد قال

بعضهم :

في حلبٍ وشامينا ومصرَ طالَ اللَّغَطُ
فقلتُ قولَ منصفٍ خيرُ الأمورِ الوسطُ

* * *

١ زاد في التجارية بعد هذا البيت : وقول الحفاجي قاضي مصر ، وإن لم يكن في دمشق لكن في
السياق في النظم :

قد فتن العاشقين حين بدا بطلمة كالهلال أبرزها
طر له شارب على شفة كالورد في الآس حين طرزها
رأى ساقط من ق ج ودوزي .

[شعر في ذم دمشق]

وأما قول بعضهم :

تَجَنَّبَ دِمَشْقَ وَلَا تَأْتَهَا وَإِنْ رَأَيْتَ الْجَامِعَ الْجَامِعُ
فَسُوقُ الْفُسُوقِ بِهَا قَائِمٌ وَفَجَّرَ الْفُجُورَ بِهَا طَالِعُ

فلا يُلصِقُ إليه ، ولا يعول عليه ، إذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل ،
وهي من نزعات بقص الهجائين الذين يعتمدون إلى تنقيح الحسن الجميل
[الجليل] :

وما زالت الأشراف تُهنّجى وتُمدح

ولا يقابل ألف مثنٍ عدلٌ بفاسقٍ يقدر :

وَفِي تَعَبٍ مِنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ نَوْرَهَا وَيَأْمُلُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ
وَأَخْفُ مِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ، وَهُوَ الْكَاتِبُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ
قَاسِمٍ :

دِمَشْقُ جَنَّةُ الدُّنْيَا حَقِيقًا وَلَكِنْ لَيْسَ تَصْلُحُ لِلْغَرِيبِ
بِهَا قَوْمٌ لَهُمْ عَدَدٌ وَمَجْدٌ وَصَحْبُهُمْ تَوَلُّوا إِلَى الْخُرُوبِ
تَرَى أَنْهَارَهُمْ ذَاتَ ابْتِسَامٍ وَأَوْجُهُهُمْ تَوَلَّعَ بِالْقَطُوبِ
أَقَمْتُ بِدَارِهِمْ سِتِينَ يَوْمًا فَلَمْ أَظْفَرْ بِهَا بِفَتَى أَدِيبِ

والجواب واحد ، ولا يضر الحقّ الثابت إنكارُ الجاحد ، وأخفّ من
الجميع قول العارف بالله تعالى سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنه :

جَلِّقْ جَنَّةً مِنْ تَاهِ وَبَاهِي وَرُبَاهَا أَرْبِي لَوْلَا وَبَاهَا
قَالَ غَالٍ : بَرَدَى كَوْنُهَا قُلْتُ : غَالٍ بَرَدَاهَا بِرَدَاهَا

وطني مصرُ وفيها وطّري ولنفسي مُشتهها مُشتهها
ولعيني غيرها إن سكنتُ يا خليلي سلاها ما سلاها
وأخفُ منه قول ابن عبد الظاهر :

لا تلوموا دمشقيّ إن جثموها فهي قد أوضحتْ لكم ما لديها
إنّما في الوجوه تضحكُ بالزّه رِ لمنْ جاء في الربيع إليها
وتراها بالثلج تبصقُ في الح ية منْ مرَّ في الشتاء عليها

وقول ابن نباتة وهو بالشام يشوّق إلى المقياس والنيل ^١ :

أرقُّ له بالشام نيلٌ مدامع يُجريه ذِكْرُ منازلِ المقياسِ
سقيّاً لمصرَ منازلًا معمورةً بنجوم أفقٍ أو ظباء كناسِ
وطني سهرتُ له وشابتُ لِمَتي ونعمَ على عيني هواه وراسي
من لي به والحالُ ليس بآيسٍ كدِرٍ وعِطْفُ الدهرِ ليس بقاسي
والطرفُ يستجلي غزالاً آنساً بالنيلِ لم يعتدْ على باناسِ

رجع إلى مدح دمشق :

وقال الناصر داود بن المعظم عيسى ^٢ :

إذا عاينتُ عيناَيَ أعلامَ جِلَّتِي وبانَ من القَصْرِ المشيدِ قبابُهُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ البينَ قدْ بانَ والنوى نأى شخصُهُ والعيش عاد شبابُهُ

١ ديوان ابن نباتة : ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٢ هو صاحب الكرك (٦٠٣ - ٦٥٦) ، تغلب على الشام بعد موت عمه الكامل محمد ، ووقعت له أحداث كثيرة منشورة في كتب التاريخ كالنجوم الزاهرة ومرآة الزمان وغيرهما ؛ (انظر ترجمته في الفوات ١ : ٣٨٢ والنجوم ٧ : ٦١ والشذرات ٥ : ٢٧٥) وله قطعة صالحة من شعر ونثر في المقتطفات (الورقة : ٦٢ وما بعدها) ؛ وهذان البيتان في النجوم والفوات والمقتطفات .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يا راكباً من أعالي الشّام يجذبهُ
حدّثني عن ربوعٍ طالما قُضِيَتْ
لدى رياضٍ سقاها المزنُ دِيَمَتَهُ
شَحَّ الندى أن يسقيها مُجَاجَتَهُ
بَكَتْ عليها الغواصي وهي ضاحكة
يا حُسْنَهَا حينَ زانتها جواسقُها
فهي السماء اخضراراً في جوانبها
حدّثني وأنا الظامي إلى نَبَا
فهو الزلالُ الذي طابَتْ مشاربُهُ
كرَّرَ على نازحٍ شَطَّ المزارُ به
وعَلَّلَ النفسَ عنهم بالحديثِ بهم
إلى العراقيين إدلاجٌ وإسحارُ
للنفسِ فيها لُباناتٌ وأوطار
وزانها زهرٌ غَضٌّ ونوار
فجادها مُفْعَمُ الشُّبوبِ مِدْرار
وراحتِ الرِّيحُ فيها وهي معطار
وأينعتُ في أعالي اللوحِ أثمار
كواكبُ زُهرٌ تبدو وأقمار
لا فُضَّ فوكَ فَمِنِّي الريّ تمار
وفارقتُهُ غُشاءاتٌ وأكدار
حديثك العذب لا شَطَّتْ بك الدار
إنَّ الحديثَ عن الأحيابِ أسمار

وهذا الملك الناصر له ترجمة كبيرة ، وهو ممّن أدركته الحرفة الأدبية ،
ومنع حقّه بالحمية والعصبية ، وأنكرت حقوقه ، وأظهر عقوقه ، حتى قضى
نحبه ، ولقي ربه .

رجع :

وقال سيف الدين المشد رحمه الله تعالى^١ :

بُشْرَى لأهل الهوى عاشوا به سَعْدًا وإن يموتُوا فَهَمٌ مِنْ جَمَلَةِ الشَّهْدَا

١ هو علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني (٦٠٢ - ٦٥٦) وهو نسيب جمال الدين بن
يغصور الذي اتصل به ابن سديد ؛ وكان يتولى شه الدواوين (أي كان رفيقاً للوزير متحدثاً في
استخلاص الأموال وما في معنى ذلك) وكان ظريفاً طيب العشرة (انظر ترجمته في القوات
٢ : ١٢٨ والنجوم الزاهرة ٧ : ٦٤) .

شعارُهُمْ رَقَّةُ الشَّكْوَى وَمَذْهَبُهُمْ
عَيْونُهُمْ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ سَاهِرَةٌ
تَجَرَّعُوا كَأْسَ خَمْرِ الْحَبِّ مُتَرَعَّةً
وَعَاسِلِ الْقَدِّ مَعْسُولِ مُقْبِلَهُ
رَقِيمٌ عَارِضِهِ كَهْفٌ لِعَاشِقِهِ
نَادِمَتُهُ وَتُغَوِّرُ الْبَرْقِ بِاسْمَةٍ
كَأَنَّ جَلَّقَ حَيًّا اللَّهُ سَاكِنَهَا
فَاسْتَرْسَلَ الْجَوْدُ مِنْهَا «يَزِيد» عَلَى

وقال أيضاً :

فَوَادِي إِلَى بَانَاتِ جَلَّقَ مَائِلُ
يُرْتَحَنِي لَوْزُ ابْنِ كَلَّابٍ مُزْهَرًا
وَلَمَّتِي إِلَى زَهْرِ السَّفَرِجَلِ شَيْقُ
غِيَاضُ يَفِيضُ الْمَاءُ فِي عَرَصَاتِهَا
تَرَى بَرْدَى فِيهَا يَجُولُ كَأَنَّهُ
وَبِي أَحْوَرُ لَاحَ الْعَذَارُ بِخَدِهِ
يَحَاوِرُنِي فِيهِ عَلَى الصَّبْرِ صَاحِبِي
إِذَا اشْتَقْتُ وَادِي النِّيرَبَيْنِ لِمَحْتِهِ
حَوَى الشَّرَفَ الْأَعْلَى مِنَ الْحَسَنِ خَدُّهُ

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

وَادٍ بِهِ أَهْلُ الْحَبِيبِ نَزُولُ
وَادٍ يَفُوحُ الْمَسْكُ مِنْ جَنَابَاتِهِ
يَشْتَاقُهُ وَيُودُّ لَثْمَ تَرَابِهِ
حَيًّا مَعَاهِدَهُ الْحَيَا وَالنَّيْلُ
وَيَصْحُ فِيهِ لِلنَّسِيمِ عَلِيلُ
شَوْقًا وَلَكِنْ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

مَتَقَلُّهُ الْأَحْشَاءُ مَسْلُوبُ الْكُرَى
يَصْبُرُ إِلَى الْأَثَلَاتِ مِنْ وَادِي الْغَضَى
قَالُوا تَبَدَّلْ ، قُلْتُ يَا أَهْلَ الْهَوَى
هَلْ بَعْدَ قَطْعِ الْأَرْبَعِينَ مَسَافَةً
وَلَقَدْ هَفَا بِي فِي دِمَشْقٍ مَهْفَهْفُ
يَهْتَرُ إِنْ مَرَّ التَّسِيمُ بِقَدِّهِ
أَبْدَى لَنَا بَرْدًا تَبَسُّمُ ثَغْرِهِ
لَزِمَ التَّسْلُسِلَ مَدْمَعِي وَعِذَارُهُ
وَسَقَمْتُ مِنْ سَقَمِ الْجَفُونَ لِأَنْتَاهَا
لَا تَعْجِبُوا إِنْ رَاعَنِي بِذَوَائِبِ
مَا صَحَّ لِي أَنَّ النَّوَابَةَ حَيَّةٌ

طَلَّقُ الدَّمْعَ فَوَادُهُ مُتَبَوِّلُ
وَيَحْنُ إِنْ خَطَرَتْ هُنَاكَ شَمُولُ
وَالنَّاسُ فِيهِمْ عَاذِرٌ وَجْهَوِلُ
لِلْعَمْرِ فِيهَا يَحْسُنُ التَّبْدِيلُ
يَسِي الْعُقُولَ رُضَابُهُ الْمَسْوُولُ
وَيَمِيلُ بِي نَحْوَ الصَّبَا فَامِيلُ
وَإِذَا انْتَنَى فَقَوَامُهُ الْمَجْدُولُ
فَانْظُرْ إِلَى الْمُهْجَاتِ كَيْفَ تَسِيلُ
هِيَ عِلَّةٌ وَفَوَادِي الْمَعْلُولُ
فَاللَّيْلُ هَوْلٌ وَالْمَحَبُّ ذَلِيلُ
حَتَّى سَعَتْ فِي الْأَرْضِ وَهِيَ تَجُولُ

وَقَالَ نَازِرُ الْجَيْشِ عَوْنُ الدِّينِ بْنِ الْعَجْمِيِّ ١ :

يَا سَائِقًا يَقْطَعُ الْبَيْدَاءَ مَعْتَسِفًا
إِنْ جُرُتَ بِالشَّامِ شِمُّ تِلْكَ الْبُرُوقِ وَلَا
وَاقْصِدْ أَعَالِي قَلَالِيهِ فَإِنَّ بِهَا
مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ هَيْفَاءَ الْقَوَامِ إِذَا
وَكُلُّ أَسْمَرَ قَدْ دَانَ الْجَمَالُ لَهُ
وَرَبُّ صُدُغٍ بَدَا فِي خَدِّهِ مُرْسِلِهِ

بِضَامِرٍ لَمْ يَكُنْ فِي سِيرِهِ وَآفِي
تَعْدِلُ بَلَعْتَ الْمُنَى عَنْ دِيرِ مَرَّانٍ
مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ مِنْ حُورٍ وَوُلْدَانٍ
مَا سَتَ فَوَاحِجَلُ الْمُرَّانِ وَالْبَانِ
وَكَمَّلَ الْحَسَنَ فِيهِ فِرْطُ إِحْسَانٍ
فِي فِتْرَةٍ فَتَنَتْ مِنْ سِحْرِ أَجْفَانٍ

١ هو سليمان بن عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن عون الدين بن العجمي الكاتب (٦٠٦ - ٦٥٦) . خدم الملك الناصر داود ، وكان كامل الرئاسة لطيف الشائل (انظر ترجمته في القوات ١ : ٣٥٨ ومعجم الألقاب ٢/٤ : ٩٧٧ وله ترجمة في الوافي والمنهل الصافي) .
والقصيدة التي أوردتها المقرئ موجودة في القوات : ٣٥٩ .
٢ القوات : فيا خجلة .

فليت ريقته وردي ووجنته
وعُج على دير متى ثم حي به
فهمت منه لإشارات فهمت بها
واعبر بدير حنيننا وانتَهز فُرصاً
واستجل راحاً بها تحيا النفوس إذا
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت
كم رحت في الليل أسقيها وأثر بها
سألت توماس عمن كان عاصرها
وقال : أخبرني شمعون ينقله
بأنها سَفَرَت بالطُورِ مُشرقة
وهي المدام التي كانت مُعْتَقَة
وهي التي عبدتها فارس فكنتي
سكرت منها فلا صحوً وَجَدْتُ بها
وسوف أُنحها أهلاً وأنشده
حتى تميل لها أعطافه طرباً

وردي ومن صدغه آسي وريحاني
ربان بطرُس فالربان رباني
وصنت منشورها في طي كتمان
لمذات ما بين قسيس ومطران
دارت براح شماميس ورهبان
بشهبها من همومي كل شيطان
حتى انقضى وندي غير ندمان
أجاب رمزاً ولم يسمع بتبيان
عن ابن مريم عن موسى بن عمران
أنوارها فكثروا عنها بنيران
من عهد هرْمُس من قبل ابن كنعان
عنها بشمس الضحى في قومه ماني
على الندامى وليس الشح من شاني
ما قيل فيها بترجيع وألحان
وينثي الكون من أوصاف نشوان

وهذه وإن لم تكن في دمشق على الخصوص فلا تخرج عما نحن بصددده ،
والأعمال بالنيات ، وديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية ، ومن
حاك هذه البرود الشيخ الأكبر رحمه الله تعالى ، وقيل : إنه الشيخ شعبان
النحوي .

رجع :

وقال بعضهم :

شوقي يزيد وقلب الصب ما بردا وبان يآسي من المعشوق حين غدا

ومَدَّ مَعِيَ قَنَواتٌ ، والعَدُولُ حَكى
عَلَى مُغَنِّيةٍ بِالْجُنُكِ جَاوِها
ثَوْرًا ، يُلومُ الْفَتى فِي عَشْقِهِ حَسَدًا
وَحَلْبَةً مَاتَ فِي خَلْخالِها كَدًا

ولنذكر نبذة مما خوطبتُ به من علماء الشام وأدبائه حفظ الله تعالى
كاملهم ، وبلغ آمالهم .

فمن ذلك قول شيخ الإسلام ، مفتي الأنام ، سيدي الشيخ عبد الرحمن
العمادي الحنفي^١ حفظه الله تعالى ، وكتبه لي بخطه :

شمسُ الهُدَى ^٢ أَطْلَعَهَا الْمَغْرِبُ	وطار عَتَقَاءُ بِها مُغْرِبُ
فَأَشْرَقَتْ فِي الشَّامِ أَنْوارُها	وليتها فِي الدَّهْرِ لَا تَغْرِبُ ^٣
أَعْنَى الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْمُقَرَّرِ	أَحْمَدَ مَنْ يَكْتُبُ أَوْ يَخْطُبُ
شَهَابُ عِلْمٍ ثاقِبٌ فَضْلُهُ	يَنْظُمُ عَقْدًا وَهُوَ لَا يَنْقُبُ
فَرَعُ عُلُومٍ بِالْهُدَى مَثْمَرُ	وَرَوْضُ فَضْلِ بِالْهَدَى مُعْشِبُ
قَدِ ارْتَدَى ثَوْبَ عِلْمٍ وَامْتَطَى	غَارِبَ مَجْدٍ فَزَّاهَا الْمَرْكَبُ
دَرْسُ غَرِيبٍ كُلَّ يَوْمٍ لَهُ	يُمْلَى وَلَكِنْ حِفْظُهُ أَغْرَبُ
مَحَاضِرَاتُ مُسْكِرٍ لَفْظُها	بِكَاسٍ سَمِعَ رَاحُها تُشْرِبُ
رِياضُ آدَابٍ سَقَاهَا الْحَيَا	فَفَاحَ مَسْكَاً نَشْرُها الْأَطِيبُ
فَضَائِلُ عَمَتْ وَطَمَّتْ فَقَدْ	قَصَرَ فِيها كُلُّ مَنْ يُطَنِّبُ
قُلُوبُنَا قَدْ جَذِبَتْ نَحْوَهُ	وَالْحُبُّ مِنْ عَادَتِهِ يَجْذِبُ
إِنْ بَعُدَتْ عَنْ غَرْبِهِ شَرْقُنَا	فَالْفَضْلُ فِينَا نَسَبُ أَقْرَبُ

١ قد مر التعريف بعبد الرحمن العمادي ، انظر ١ : ٦٢ .

٢ ج : شمس هدى .

٣ سقط البيت من ج .

٤ ج : نطقها .

كَمْ طَلَبْتُ تَشْرِيفَهُ شَامِنَا
 قَدْ سَبَقَتْ لِي مَعَهُ صَحْبَةُ
 أَخْوَةِ فِي اللَّهِ مِنْ زَمَزَمِ
 أَهْلِي ثُمَّ وَدَاداً فَلِي
 أَهْدَيْتُ ذَا النِّظَمِ امْتِثَالاً لَهُ
 نَشِطَ قَلْبِي لَطْفُهُ فَاثْنَى
 ضَاءَ دُجَى الْعِلْمِ بِهِ لِلْوَرَى
 بَشَرَى لَهَا فَلَيْهِنَهَا الْمَطْلَبُ
 فِي حَرَمِ يَوْمِينَ مَنْ يَرْهَبُ
 رَضَاعُهَا طَابَ لَهَا الْمَشْرَبُ
 بِالشَّامِ مِنْهُ عِلَلٌ أَعَذَبُ
 وَقَدْ هَجَرْتُ الشَّعْرَ مَذْ أَحْقَبُ
 وَالْقَلْبُ فِي أَهْلِ الْهَوَى قَلْبُ
 مَا نَارَ فِي جُنْحِ الدَّجَى كَوَكَبُ

نَحِيَّةُ الْفَقِيرِ الدَّاعِي ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْعِمَادِي ، انْتَهَى .

وَأَجَبْتُهُ بِمَا نَصَّه :

مَا تَبَرُّ رَاحِ كَأْسُهَا مُذْهَبُ
 تُسْتَدْفَعُ الْأَكْدَارُ مِنْ صَقْوِهَا
 تَسْمَى بِهَا هَيْفَاءُ مِنْ ثَغْرِهَا
 فَتَانَةُ الْأَعْطَافِ نَقَّاتُهُ
 فِي رَوْضَةٍ قَدْ كَلَلْتُ بِالنَّدَى
 بِرُودِهَا بِالنُّورِ قَدْ نُمِنِمْتُ
 وَالْمَاءُ يَجْرِي تَحْتَ جَنَاتِهَا
 وَالظَّلُّ ضَافٍ وَالتَّسْنِيمُ انْبَرَى
 وَالطَّيْرُ لِلْعِشَاقِ بِالْعُودِ قَدْ
 أَبْهَى وَلَا أَبْهَجَ فِي مَنْظَرِ
 مُفْتِي دِمَشْقِ الشَّامِ صَدْرُ الْوَرَى
 عَلَامَةُ الدَّهْرِ وَلَا مَرِيَّةُ
 مَا لِلنُّهَى عَنْ حُسْنِهَا مَذْهَبُ
 وَتَنْهَلُ الْأَفْرَاحُ أَوْ تَنْهَبُ
 أَوْ شَعْرُهَا النُّورُ أَوْ الْغَيْهَبُ
 سِحْرًا بِالنَّبَابِ الْوَرَى يَلْعَبُ
 وَالزَّهْرُ رَأْسُ الْغُصْنِ إِذْ يُعْصَبُ
 كَالْوَشْيِ مِنْ صَنْعَاءٍ بَلَّ أَعْجَبُ
 وَالنَّارُ مِنْ نَارِنِجْهَا تُلْهَبُ
 وَالْجَوْ ذَاكِي الْعَرْفِ مُسْتَعَذَبُ
 غَتَتْ فَهَاجَتْ شَوْقَ مَنْ يَطْرُبُ
 مِنْ نَظْمٍ مَنْ تَقْدِيمُهُ الْأَصُوبُ
 مَنْ فِي الْعُلَا تَمَّ بِهِ الْمَطْلَبُ
 وَمَلَجَأُ الْفَضْلِ وَلَا مَنْهَرَبُ

أ ج : تَشْرِيفُهُ .

لله ما امتاز به مِنْ حُلَى بغيرٍ منُ الله لا تُكسَبُ
 أبدى بها الرحمنُ في عبده مظاهرَ المنعِ التي تُحسَبُ
 جودٌ بلا منٍّ وعلمٌ بلا دعوى به التحقيقُ يستجلبُ
 وبيتٌ مجدٌ مُسنَدٌ ركنه إلى عمادِ الدينِ إذ يُنسَبُ
 فبرقه الشاميُّ من شامه نالَ مراماً والسوى خلبُ
 وما عسى أبديةً في مدحه أو وصفِ أبناءِ له أنجبوا
 تسابقوا للمجدِ حتى حووا سبقاً لما في مثله يُرغبُ
 أعيدهمُ بالله من شرِّ ما يُخشى من الأغيارِ أو يُرهبُ
 وأسألُ الله لهم عزةً باديةً الأضواء لا تُحجبُ

ولما حلت دمشق المحروسة ، وطلبت موضعاً للسكنى يكون قريباً من
 الجامع الأموي الذي يُعجز البليغ وصفه وإن ملأ طُروسه ، أرسل إليّ أديب الشام
 فرد الموالي المدرسين صاحب أذيان الفخار^١ المولى أحمد الشاهيني^٢ حفظه الله
 تعالى بفتحاح المدرسة الحَقْمَقِيَّة ، وكتب لي معه ما نصّه^٣ :

كَنَفُ الْمُقَرِّي شَيْخِي مُقَرِّي وإليه من الزمان مُقَرِّي
 كَنَفٌ مِثْلُ صَدْرِهِ فِي اتِّسَاعِ وعلومِ كَالدَّرِّ فِي ضِمْنِ بَحْرِ
 أَيُّ بَدْرِ قَدْ أَطْلَعَ الْغَرْبُ مِنْهُ ملأ الشرقَ نورُهُ أَيُّ بَدْرِ ؟
 أَحْمَدُ سَيْدِي وَشَيْخِي وَذُخْرِي وَسَمِيٌّ وَفَوْقَ ذَاكَ وَفَخْرِي^٤

١ ج : الفخر .

٢ قد مر التمريف بأحمد الشاهيني ، انظر ١ : ٦٤ .

٣ الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٤ .

٤ ج ق : شيخ مقري .

٥ خلاصة الأثر : كالبحر .

٦ خلاصة الأثر : وسمي وذاك أشرف فخري .

لو بغير الأقدام يسعى مَشُوقٌ جِئْتُهُ زائراً على وجه شكري
العبد الحقير المستعين ، المخلص أحمد بن شاهين ، انتهى .

فأجبتُه بقولي ^١ :

وَتَحَلَّى بِدُرَّةِ صَدْرُ ذَكْرِي	أَيُّ نَظْمٍ فِي حُسْنِهِ حَارَ فِكْرِي
مَنْ بَرَوْضِ النَّدَى لَهُ خَيْرٌ وَكَرِ	طَائِرُ الصَّبْتِ لَابِنِ شَاهِينَ يُنْمِي
لِعَوَانٍ مِّنَ الْمَعَالِي وَبِكْرِ	أَحْمَدُ الْمُتَطِينِ ذُرَّةَ مَجْدِ
مِنْ مَعَانِي تَعْرِيفِهِ دُونَ نُكْرِ	حَلَّ مِفْتَاحُ فَضْلِهِ بَابَ وَصْلِ
بِالْعُلَا وَازْدِيَادِ تَجْنِيسِ شَكْرِ	يَا بَدِيعَ الزَّمَانِ دُمُ فِي اَزْدِيَانِ

وكتب إليَّ لما وقف على كتابي « فتح المتعال في مدح النعال » بما نصّه :
لكاتبه الحقير أحمد بن شاهين الشامي في تقرّظ تأليف سيدي ومولاي وقبلتي
ومعتقدي شيخ الدنيا والدين ، وبركة الإسلام والمسلمين ، حفظ الله تعالى
وجوده آمين :

بِأَحْمَدَ ذَاكَ الْمُقَرِّيَ الْمُسَدَّدِ	أَحْمَدُ ، فَخْرًا يَا ابْنَ شَاهِينَ سَامِيًا
وَنَاهِيكَ فِي الْعُلَا بِأَرْفَعِ سَوْدَدِ	بِمَنْ رَاحَ خَدَامًا لِنَعْلِ مُحَمَّدِ
غَدَا خَادِمًا نَعْلَ النَّبِيِّ الْمَجْدِ	فَإِن أَنَا أَخْدَمُ نَعْلَهُ فَلَطَلَمَا
كِتَابًا حَوَى إِجْلَالَ كُلِّ مُوَحَّدِ	بِتَأْلِيْفِهِ فِي وَصْفِ نَعْلِ تَكْرَمَتِ
خَدُومًا لَخْدَامِ لِنَعْلِ مُحَمَّدِ	وَيَكْفِيكَ فَخْرًا يَا ابْنَ شَاهِينَ أَنْ تُرَى
فَقَالَ كَذَا طُوبَى بِخِدْمَةِ أَحْمَدِ	فَقُلْتُ لَهُ طُوبَى بِخِدْمَةِ أَحْمَدِ
وَيَتَعَمَلُ الْعَبَّاقُ فِي رَغَمِ فِرْقَدِ	فَلَا زَالَ يَرْقَى لِلْمَعَالِي مُكْرَمًا

فأجبتُه بقولي :

١ انظر الأبيات في خلاصة الأثر ١ : ٣٠٥ .

أحمد وصف بالعوارف يرتدي
نجومك إذ أنت الخليل توقدت
أناني نظام منك حير فكري
فأنت ابن شاهين الذي طار صيته
فبرك موصول وشانك منكر
وعند حديث الفضل أسند عالياً
فوجهك عن بشر ويمناك عن عطاء
فلا زلت ترقى أوج سعد ورفعة

ولما خاطبته بقولي :

يصيد ابن شاهين بجو بلاغة
وما كان ديك الجن مدرك نيلها
ولو جاد فكر البحري بمثلها
ولو أن نظم ابن الحسين أتيحها
فلا زال ملحوظاً بعين عناية

أجابني بما نصه :

أنفاس عيسى ما بروعي ينفخ
وهذي قواف أم هي الشمس ؟ إنتي
بلى هي نص من ودادك محكم
أنتي بمدح مخجل فكانتها
وهل أنا إلا خادم نعل سيدي

أم الطرس أضحي بالعبير يضمن
أراها على الجوزاء بالأنف تشمخ
تزل الرواسي وهي لم تك تنسخ
لفرط حيائي قد أنتقي توبخ
وبيتي وبين المدح في الحق برزخ

وما هي إلا غُرَّةٌ حُزْتُ فخرها
فلا درَّ درِّي وانحرفتُ عن العلا
وحُبُّكَ مهما طالَ شرقاً ومغرباً
ولمَّني وإنْ أَرَحْتُ مجدّاً لماجد
سميَّ ومولاي الذي راحَ مَدْحُهُ
ودمٌ يا نظيرَ البدرِ ترقى بأوجِه
ولمَّني بها بادي المحاسن أشدخُ
إذا كان ودِّي عن معاليك يُفَسِّخُ
بوكرِ ابن شاهين الوفي يُفَرِّخُ
فلمَّني باسمِ المقرِّي أَوْرَخُ
لرأسِ الأعادي بالمعاريضِ يرضخُ
ولا زلتَ في طرقي وقلبي ترسخُ

وكنْتُ يوماً أروم الصعود لموضع عالٍ فوقعت ، وانفكتُ رجلي ،
وَأَلتْ ، فكبتُ إلي :

لا أَلتُ رجلُكَ يا سيدي وصانها الله من الشينِ
ما هي إلا قَدَمٌ للعلا لا احتاجُ ذاك النَّصْلُ للقينِ
زانتُ دمشقَ الشامَ في حلِّها فلا رأتُ فيها سوى الزَّينِ
بانتُ عن الأهلِ لتُشْرِيفنا لا جَمَعَتُ أبناءً إلى بَيْنِ
عجبتُ من راسخةٍ في العلا والعلمِ إذ زاغَتْ من العينِ
لنَّيْ أعافُ المين بين الوري ولستُ والله أنا مَيِّنِ
للمقرِّي المُجْتَبَى أحمدٍ دينُ الهوى والمدحِ كالدينِ
وأحمدُ الله على أنِّي رأيتهُ حازَ الفريقينِ
فلا أراهُ اللهُ في عمره بيناً يُؤدِّيهِ إلى -أينِ

تمويذاً لمحِبِّ العبدِ الحقيرِ الداعي أحمد بن شاهين ، انتهى .
وأهديتُ إليه حفظه الله تعالى سبحةً وخاتماً ، وكُتبتُ إليه ٢ :

يا نجلَ شاهينَ الذي أحيا المعاليَ والمَعالمَ

١ ج : أشرخ ؛ ق : أسرخ ؛ والأشدخ : السائل الفرة .

٢ انظر خلاصة الأثر ١ : ٣٠٦ .

يا مَنْ به رِيشتَ من الـ
يا مَنْ دمشقُ بطيبِ ما
فالنهرُ منها ذو صفاء
والغصنُ يثني عطفه
يا أحمدَ الأوصافِ يا
أنتَ الذي طوّفتني
فمسي أودّي شكرها
والعذرُ بادٍ إن بعد
بنتيجة^١ الذكرِ التي
وبحائمِ صادٍ^٢ إلى
فامددْ على جهدِ الملة
واقبلْ عقيلةَ فكرٍ مَنْ
لا زلتَ سابقٍ غاية

مجدِ الخوافي والقوادمِ
يُبديهِ عاطرةُ النواسيمِ
والزهرُ مُفتَرٌّ المباسمِ^٣
طرباً لتغريدِ الحماشمِ
مَنْ حازَ أنواعَ المكارمِ
ميناً لها تعنو الأعظمِ
والعجزُ لي وصفٌ مُلازمِ
تُ إليك من جنسِ الرثائمِ
جاءتْ بتصحيحِ ملائمِ
فيضِ الندى من كف حاتمِ
لِ رِواقِ صفحِ ذا دعائمِ
هو في بحارِ العيِ عائمِ
بينَ الأعاربِ والأعاجمِ

فأجابني بما صورته^٤ :

يا سيداً شعري له
كلاً ، ولا قدري له
يا مَنْ رأيتُ عطارداً
يا مَنْ بنفحةِ خلقه
أضحى يريني مُعجزةً
ما إن يقاوي أو يقاوم
يوماً يساوي أو يساوم
منه بدا في شخصِ عالم
وينظمه السامي الملائم
نِ من النواسيمِ والمباسمِ

١ ج : البواسم ؛ ق : المناسم .

٢ خلاصة الأثر : تسيحة .

٣ خلاصة الأثر : وبخاتم داع .

٤ انظر خلاصة الأثر ١ : ٣٠٧ .

ما زلتُ أبصرُ مِنْهُمَا
 بهما زماني حاسداً
 قلّمي وقلّبي بينَها
 حبّي لأحمدَ سيّدي
 المقريّ المعتلي
 ما لي إليه وسيلةٌ
 قد جاء ما شرفني
 من خاتمٍ كفتي به
 وجعلني لا أحسبُ إلا
 وبسبحةٍ شبهتها
 فلتحسد الجوزاء ما
 هي آلةٌ للذكرِ
 فهوأك في قلّبي وما
 ما ذي رثائمٍ سيّدي
 لو أنّها من جنسٍ ما
 لكنّها قد زينتُ
 يا من يريشُ إذا رمى
 إنّ ابنَ شاهينٍ حوى
 هذي نوافلُ يا إما
 العذرُ عنها مخجلٌ
 بل أنت فوقَ العذرِ قد
 لا زالَ دهرُك سيّدي
 يهندي إليك من المرا
 ما لا يساومُ مثلهُ

حُسْنُ النعَامِ والنّعائمِ
 أضحي وبالتغصيرِ حاسمِ
 م في الثناء له وهائمِ
 شيخ الوري فرض ملازمِ
 شرف المعالي والمعالمِ
 إلا هوى في القلب دائمِ
 بخصوصه دون الأعظمِ
 ورثت سليمان العرائمِ
 ميق لي في قصّة خاتمِ
 بالشهب في أسلاكِ ناظمِ
 أحرزت من تلك المكارمِ
 كن ليس ذكراً في الحيازِمِ
 في القلب جلّ عن الرثائمِ
 بل إنّها عندي تائمِ
 يطوى غدت فوق العمامِ
 كفتي وأزرت بالخواتمِ
 نسر السماء بلحظِ حازمِ
 منك الخوافي والقوادمِ
 م الدهر ليست بالتوازمِ
 عبداً لنعلك جدّ خادمِ
 أصبحت للشعري تئادمِ
 يلقالك منه فغرُ باسمِ
 حم والمكارم والغنائمِ
 ذو الحظّ في أسنى المواسمِ

العبد الحقير الداعي لأستاذه مولاي الأجل بالتمكين، أحمد بن شاهين ،
حامداً مصلياً مسلماً ، انتهى .

وقال مستجيزاً :

الشيخُ يشربُ ماءً ونحنُ نشربُ قَهْوَه

فقلت :

لأنه ذو قُصُورٍ ففطُ بالعُذرِ سَهْوَه

ولما أزمعتُ على العودِ إلى مصر أوائل شهر^١ شوال سنة ١٠٣٧ خاطبني
بقوله - حفظه الله - :

أبدأ إليك تَشَوُّقِي وحنيني	وإلى جنابك ، ما علمت ، مكوفي
ولديك قلبي لا يزال رهينة	غَلِقَتْ وتعلمُ ذمّة المرهون
وعليك قد حبستُ شواردُ مدحتي	لما رأيتُكَ فوقَ كلِّ قرين
قلبي كقلبك في المحبة والهوى	إذ كان في الأشواق دينك ديني
ولتنبه بهواك أرفع رتبة	وغدوت تعزلُ عنه كلَّ خدين
وأطاع أمرك في الوداد فلو أشأ	منه - وحاشا - سلوة يعصيني
ما كنتُ أحسبُ قبل طبعك أن أرى	يوماً عطارداً ناطقاً بفنون
حتى رأيتُكَ فاستبنتُ بأنه	يروى أحاديث العلاء بشجون
وفيدُ سمي معجزاً بهرَ النهي	ويُري عيوني آية التكوين
يا من غدا يحيي القلوب بلفظه	ويردّدُ الأنفاسَ عن جبرين
أحييتُ بالوحي المين قلوبنا	وحي ^٢ ، لعمرُ الله ، جِدُّ مُبين

١ شهر : سقطت من ج .

٢ ج : وحل ، ق : وجل .

هذي دمشق، لعمرُ خُلقك، روضةٌ
قد زارها غيثُ الندى فبهارها
لو لم تكن بدرًا لما أحرزت ما
حققت ما قد قيل حين حلتها
هي عادةٌ حلّيتها فتزيتُ
مولاي أحمدُ يا سليل بني العلا
أغنى وجودك وهو عين الدين عن
انظُرهُ تستغني به عن غيره
تلقى علوم الناس في أوراقهم
فبعلمه اعبُر كل بحرٍ زاخرٍ
وبعلمه ارغب عن تحلُمٍ أحنفٍ
لما رأيتك فاستقمْتُ لقبلتي
ألفيت قطرك يَمَنِّي فأفادني
فسقى الحيا للمقري أخي العلا
بلداً تبيّت الهلال بأفقه
لولا هلالُ الغرب نورٌ شرقنا
يا راحلاً رحل الفؤاد بعزمه
أستودع الله العظيم ، ولاتي
إتي أودع يوم بينك مُهجتي
وأعود من توديع وجهك عودةً
حتى كأنّي قد فقدتُ تماماً
وتودُ نفسي أنّها لو حرّمتُ
أوشكتُ أقتل بين معترك الهوى
ولقد وددتُ بأنّي متحملٌ

قد جادَ طبعك دوحها بمعين
أضحى يلوح بحلّة التّسرين
قد خُصّ في الأنوار بالتلوين
إنّ المكان مُشرفٌ بمكّين
ما كان أحوجها إلى التّزين
يا فوق مدحي فيك أو تحسّني
علامة الدنيا لسان الدين
وإلى العيان ارغب عن المظنون
وعلمه في صدره المشحون
وبفهمه اسبر غامض المخزون
وبعزمه اصحب بأس ليث عرين
أدعو وأشكرُ وارداتِ شؤني
فضل اليمين على اليسار يقيني
بلداً بأقصى الغرب جدّ هتون
ورأيت منه قرةً لعيوني
بتنا بليل الحدس والتّخمين
رفقاً بقلبٍ للوفاء ضمّين
مستودعٌ منه أجلّ أمين
وشيبيني وتصبري وسكوني
خلطت يميني في الهوى بظنون
تقضي عليّ بحالة المجنون
أبدأ سكوني للهوى وركوني
نفسي ومعترك الهوى بيمين
تلك الخطا بمحاجري وجفوني

كيف السبيلُ إلى الحياةِ ومهجتي
 ما أنتَ إلا البدرُ لاحَ بأفئتنا
 وإليكمها يا شيخَ دهري غادةٌ
 جاءتكَ تعرّضُ في الودادِ كمالها
 هي بنتُ لحظتكِ التي تؤوي النهى
 ما الفخرُ في دعوى البديهةِ عندها
 حسبي أبا العباسِ منك إصاحبةٌ
 يا لهفَ نفسي كيف أبلغُ مدحةً
 فلسانُ حبي بالغُ أقصى المدى
 ما الشعرُ يستوفي حقوقك لي ولو
 حلقَتُ أصطادُ النجومَ ، وإنها
 فرأيتُ في العيوق طبعك سيدي
 قد خفَ شعري من قصورِ طبعي
 يكفيك أحمدُ يا ابنَ شاهين بأن
 وإذا عجزتَ عن الفرائضِ جاهداً
 هو قبلي فلاغتدي متمسكاً
 واسلمَ فديتكَ زائراً ومشرفاً
 وكذلك عمري في هواك مُقسَّمٌ

وقال حفظه الله تعالى في ذلك :

حنانيك إنَّ الدمعَ بالودِ مُعربُ
 ورُحماك بي إني قتلُ صبايةٍ
 وإنِّي في شرقٍ وأنتَ مُغربُ
 بمن هو أوفى في الفؤادِ وأنجبُ
 به مهجةٌ قد أوشكتَ تتصوّبُ
 ووعدك لي بالعودِ إني مُعلِّلُ

وهبتك قلبي ما حيت ولم أقل
فلو كنت شيخاً واحداً هدّ صدّه
وإنّا بحمد الله لما خصصتنا
فرشنا له منّا الحدودَ مواطئاً
وقلنا دمشق أنت فيها مُحَكَّمٌ
وأنت لها روحٌ ومولى ومفخرٌ
وفخرٌ عظيمٌ يا ابن شاهين إنه
ففتحٌ ، ونحنُ الناس ، خدامُ نعله
وما نقموا منه سوى أنه امرؤ
هو الشيخُ شيخُ الدهرِ أحمدٌ من غدثٍ
هو المقرّي العالمُ العَلَمُ الذي
وما هو إلا الشمسُ أزمعَ رحلةً
أو الغيثُ قد وافى فأمرعتِ النّهي
أو الطائرُ العنقاء جاء مشرقاً
وإنك لِلخَلِّ الوفي وإنه
وإنك بالتحقيق في كلّ حالةٍ
رعى الله وجهاً رُحّتَ ترغِبُ نحوه
وحياً الحيا أرضاً وطئتَ ترابها
ولا فارقتَ يوماً علاكَ كلاءةً
مدى الدهرِ ما حنتَ جوانحُ والهـ

« ولكن من الأشياء ما ليس يوهبُ »^١
فكيفَ بشيخٍ لم يكن مثله أبُ
بزورةٍ ذي ودٍّ دعاهُ التجبّبُ
وعدنا به شوقاً نجياً ونذهبُ
وأشرفها ودّوا وجدّوا ورحبوا
وقد زنتَ شرقاً مثل ما ازدان مغربُ
غدا وكُرتنا نسرُ السما فيه يرغبُ
فلا غرو أن يقلي الغصنُ فَرَ أكلبُ
ليأكلُ فيما قدّروه ويشربُ
دمشقُ ومن فيها بعلياه تخطبُ
إليه تناهى الفضلُ والمجدُ يُنسبُ
وإنّا لفي ليلٍ إذا هي تغربُ
به واثني والصدرُ بالودِّ معشِبُ
فأغربَ والعنقاء في الطير مغربُ
هو الواحد المطلوبُ إن عزَّ مطلبُ^٢
لأسنى وأنلدى ثم أوفى وأغربُ
وأَيُّ أخي جيدٌ له أنتَ ترغِبُ
فأصبحَ مسكاً وهي بالمجدِ نخصبُ
من الله أنى كنتَ والله أغلبُ
مشوقٍ فأمسى للحقيقة يطربُ

ولمّا قرأ عليّ - أدام الله تعالى عزته ، وحرس حرّوزته - عقيدتي المسماة

١ للمتنبّي ، وصدره : « ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها » .

٢ سقط البيت من ق .

بـ «إضاءة الدجّة في عقائد أهل السنة» سألني أن أجيزه فيها وفي غيرها ،
فكُتِبَ لَهُ بما نصّه :

أحمدُ من أطار في جوِّ العُلا
وراش منه للمعالي أجنحه
وأسكن البيان من أوكار
فاصطاد كلَّ شاردٍ بمخلَبِ
والصقر لا يُقاس بالبُغاثِ
نشكرُ مَنْ بَلَغَهُ مُناهُ
وننتحي نهجَ صلاةٍ باديا
مبيناً دلائلَ التوحيدِ
محمدٍ خيرِ البرايا المنتقى
صلّى عليه الله مع أصحابه
ما اعترف العبدُ الفقيرُ ذو العدمِ
وبعدُ ، فالعلومُ والعوارفُ
وروضةٍ أزهارها تَضَوَّعتْ
وليس يحاطُ بها نبيلُ
فليصرفِ القولَ إلى ما ينفعهُ
وإنَّ في علمِ أصولِ الدينِ
لأنَّهُ أصلُ يعمُّ النفعُ
وكيف يعبُدُ الإلهَ مَنْ لا
فهو الذي لا تُقبَلُ الأعمالُ
وإنَّني كنتُ نظمتُ فيه
سميتها «إضاءة الدُّجَّة»

صيتَ ابنِ شاهينَ الذي زان الحلّى
نالَ بها فضلاً غداً مستمنحه
أفهامه بقنّةِ الأفكارِ
أبحاثُهُ ومن يُعارضُ يُغلبِ
والحقُّ ممتازٌ عن الأضغاثِ
على نواله الذي سنّاهُ
لخيرِ مَنْ جاء الأنامَ هاديا
ومُوضِحاً طرائقَ التسديدِ
أجلُّ من خافَ الإلهَ واتقى
وآلهِ الراوينَ عن صحابهِ
للربِّ باستغنائِهِ وبالقيدِمْ
مَنْ أُمّها يأوي لظلِّ وارِفِ
لأنّها أفنانُها تنوّعتْ
إذ ذاكَ أمرٌ ما له سبيلُ
دنيا وفي أوجِ الأجورِ يرفعه
هدى وخيرا جلَّ عن تبيينِ
بهِ وكلُّ ما سواهُ فرعُ
يعرفهُ وعن رشادٍ ضلّا
إلا بهِ وتُنَجِّحُ الآمالُ
لطالبِ عقيدةٍ تكفيه
وقد رجوتُ أن تكونَ جُنةً

وبعدَ أن أقرأتُها بمصرِ
درستُها لما دخلتُ الشامَ
وكان في المجلسِ جمعٌ وافرٌ
منهم فريدُ الدهرِ ذو المعالي
أحمدُ مَنْ راحَ لعلمٍ واغتدى
العالمُ الصدرُ الأجلُ المولى
وهو ابنُ شاهينَ وما أدراكا
ورام من مثلي بحسنِ الظنِّ
فحرتُ في أمرينِ قد تناقضا
تركُ الإجابةَ لوصفي بالخطُّ
وكَمْ فرائضٍ بعجزٍ تسقطُ
أو فعلُها بحسبِ الإمكانِ
منهُ وما له منِ الحقوقِ
وبعدَ ما مرَّ منَ التردادِ
وسرتُ في طُرُقٍ من التساهلِ
مع أَنَّهُ أَهْلٌ لأنَّ يجيزا
ومن رأى عيبي بعينٍ للرِّضا
فليرو عني كلَّ ما أسمعتهُ
مع القصورِ راجياً للأجرِ
كهذهِ القصيدةِ السديدهِ
كذلك ما ألفتُ في عِمامةِ
والفقهِ والحديثِ والنحوِ وفي

ومكةَ بعضاً منَ أهلِ العصرِ
بجامعٍ في الحُسْنِ لا يُسامى
من جِلَّةٍ بدورهم سوافرُ
فخرُ دمشقِ الطيّبُ الفعالِ
وشامَ أنواراً لفهمٍ فاهتدى
مَنْ وصفهُ الممدوحُ يُعيبُ القولا
من بدِّ جنسِ العُربِ والأتراكا
إجازةً فيما رواهُ عني
بالنفي والإثباتِ إذ تعارضا
وبالخطا، والجيدُ مني ذوا عطلِ
فكيفَ غيرُها وهذا أحوطُ
رعيّاً لودِّ محكمِ الأركانِ
ولا يُجازي البرَّ بالعقوقِ
أسعفتُهُ بمقتضى الودادِ
معترفاً بالجهلِ لا التجاهلِ
لا أن يُجازَ إذ حوى التبريزا
لم يَقِفْ نَهْجَ من غدا معترضا
إياهُ بالشرطِ وما جمعتُهُ
مِنَ الفنونِ نَظْمِها والنثرِ
والنعلِ ذاتِ المدحِ العديدهِ
من خُصٍّ بالإسراءِ والإمامهِ
أسرارِ وفَّقِي وهو بالقصدِ وفي

وغيرها ممّا به الوهّابُ مَنْ
 وما أخذتُ في بلادِ المغربِ
 ولي أسانيدُ إذا سردتها
 وقد أخذتُ الجامعَ الصحيحَ
 عمّي سعيدٌ عن سفينٍ وهو عن
 العسقلاني الشهابِ ابنِ حَجَرٍ
 وقد أَجزئُهُ بكلِّ مالي
 على شروطٍ قرّروها كافيه
 وقال هذا المقرّي الخطّا
 عامَ ثلاثين وألفٍ بعدها
 وكانَ ذا في رمضانَ السامي
 واللهَ نرجو أن يتيحَ الختما
 بجاهِ خيرِ العالمينَ أحمدًا
 وآلهِ وصحبهِ ومنْ زكا
 على فقيرٍ عاجزٍ في غيرِ فنٍ
 عن كلِّ قَدٍّ في العلومِ مُغْرِبٍ
 طالتْ وفي كُتُبِي قد أوردتها
 وغيرُهُ عَمَّنْ حوى الترجيحَا
 القَلَقَشَندي عن الواعي السنن
 بما لَهُ من الرواياتِ اشتهرُ
 يصحُّ من ذلك بلا احتمالٍ
 ليست على أفكاره بخافية
 والعِيُّ عَمَّ لفظُهُ والخطّا
 سبعٌ أتمَّتْ في السنينَ عدّها
 بحضرةِ السَّعدِ دمشق الشام
 بالخيرِ كي نُعطى القبولَ حتما
 صلّى عليه الله ما طال المدى
 فقالَ مِن حُسْنِ الختامِ مَدْرُكا

وتذكرت بهذه الإجازة نظيرتها التي سألتني فيها مولانا عبيد الأعيان ، مفتي
 الأناام في مذهب النعمان ، مولانا الشيخ عبد الرحمن العمادي مفتي الشام
 — حفظه الله تعالى — لأولاده الثلاثة ، وكتب لي أصغرهم سنّاً استدعاءً لذلك :

أحمدٌ من شَيْدَ بالإسنادِ
 وعمٌ من خَصَّصَ بالروايةِ
 وزانَ صَدَرَ النُّبْها كلَّ زمنٍ
 نحمدهُ سُبْحانَهُ أن عَرَفَا
 ونسألُ المزيدَ من صلّاته
 ملجؤنا المعصومُ أعلى سندِ
 بيتَ العلومِ السامي العمادِ
 بنورها النافي دُجى الغوايةِ
 بجوهرِ الإجازةِ الغالي الشَّمن
 من الحديثِ ما بِهِ قد شَرَفَا
 لمن أتيحَ القصدُ من صلّاته
 لنا برغمِ جاحدٍ مُفَسِّدِ

كَهْفُ الضَّعِيفِ وَالْقَوِيَّ الْمُرْتَجَى
مَنْ جَاءَنَا بِالْجَامِعِ الصَّحِيحِ مَنْ
مَنْ فَضَّلَهُ مَا شَكَ فِيهِ مُسْلِمٌ
نَبِيُّنَا الْمُرْسَلُ ذُو الْخُلُقِ الْحَسَنِ
مُحَمَّدُ الْمَرْفُوعُ قَدَّرَهُ عَلَى
صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا وَسَلَّمَا
مَعَ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ رَوَى
وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ عَظِيمُ الْقَدَرِ
وَلَمْ تَزَلْ هِمَّةُ أَهْلِ الْمَجْدِ
وَمَنْهُ عِلْمُ السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ
فَمَنْ دَرَى الْأَخْبَارَ وَالشَّمَائِلَ
وَكَمْ سَمَيْدَعٍ لِأَجْلِهِ رَفَضَ
وَكَيْفَ لَا وَهُوَ أَجَلٌ مَا طَلَبَ
لأنَّه وَسِيلَةُ السَّعَادَةِ
وَلِإِنِّي لَمَّا انْتَحَيْتُ الْمَشْرِقَا
أَلْقَيْتُ فِي مِصْرَ عَصَا التَّسْيَارِ
وَبَعْدَ ذَا جِئْتُ دِمَشْقَ الشَّامِ
فَشَاهَدْتُ عَيْنَايَ فِيهَا مَا مَلَا
مَدِينَةَ فَيَاضَةَ الْأَنْهَارِ
أَرْجَاؤَهَا زَاكِيَةَ الْعَبِيرِ
وَجُلُّ أَهْلِهَا بِحَبِي دَانُوا
فَلَا حَظُّوا بِالْأَعْيُنِ الْكَلِيلَةِ
وَقَابَلُوا عَيْنِي بِمَا اقْتَضَاهُ
خُصُوصاً الْمَوْلَى الْكَبِيرَ الْمُعْتَبَرَ

بَابُ الْهُدَايَاتِ وَلَيْسَ مُرْتَجَا
كَلَامُهُ الْهَادِي إِلَى نَهْجِ أَمْنٍ
مَنْ حَبَّ بِكُلِّ خَيْرٍ مُعَلِّمٌ
وَالْمُعْجِزُ الْمُفْحَمُ أَرْبَابُ اللَّسَنِ
سَائِرِ خَلْقِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا
أَزْكَى صَلَاةٍ نَتَحَيُّهَا مُعَلِّمًا
آثَارُهُ عَنْ صِحَّةٍ وَمَا غَوَى
وَلَيْسَ مَنْ يَدْرِي كَمَنْ لَا يَدْرِي
مَنْوُطَةٌ بِنَبِيلِ عِلْمٍ مُجْنَدِي
لأنَّه ظَلَالُهُ وَرَيْفَهُ
لَمْ يَكْ عَنْ صَوْبِ الْهُدَى بِمَائِلٍ
أَوْطَانُهُ وَثُوبُ تَرْحَالِ نَفْضٍ
مَوْفَقٌ يَرُومُ حُسْنَ الْمُتَقَلِّبِ
وَالْعِزِّ فِي الْإِبْدَاءِ وَالْإِعَادَةِ
مِيمًا بَدَّرَ اهْتِدَاءِ مَشْرِقَا
بَعْدَ بُلُوغِي أَشْرَفِ الدِّيَارِ
مَسْكَنَ مَنْ يَزْدَانُ بِاحْتِشَامِ
قَلْبِي سُرُوراً إِذْ بَلَغْتُ الْمَأْمَلَا
فَضْفَاضَةُ الْأَنْوَابِ بِالْأَزْهَارِ
وَمَدْحُهَا يَجُلُّ عَنْ تَعْبِيرِ
مَعَ أَنْ مِثْلِي مِنْهُمْ يَزْدَانُ
عَبْدٌ غَدَا تَقْصِيرُهُ دَلِيلُهُ
فَضْلٌ لَمْ رَبُّ الْوَرَى ارْتَضَاهُ
قُرَّةُ عَيْنٍ مَنْ رَأَاهُ وَاخْتَبَرَ

مفتي الوري في مذهب النعمان
 ابن عماد الدين من تعبي القلم
 حاوي طراف المجد والتلاد
 وكنت في مكة قد أبصرت
 جلالته ومحتداً وعلماً
 مع التواضع الذي قد زانه
 فحث من في الشام من أختار
 أن يأخذوا بعض الفنون عني
 مع أنني والله لست أهلاً
 وكان من جملتهم أبناؤه
 وصنوه الشهاب من توقداً
 وهو الذي قد ابتغى الإجازة
 وكتب القصيدة الطنانه
 وإنهم كحلقة قد أفرغت
 فلم أجد بداً من الإجابة
 فقد أجزتهم بما رويته
 وكل ما صنعت في الفنون
 وما أخذت عن شيوخ المغرب
 ولي أسانيد يطول شرحها
 ولو سردت كل مروياتي
 وكل طول غالباً مملول
 فلتقتصر إذن على القليل
 وقد أخذت جامع البخاري
 المقرئ سعيد الإمام عن

بها الوجيه عابد الرحمن
 أوصافه اللاتي كنور في علم
 نال المني في النفس والأولاد
 منه علاً عن مدحه قصرته
 ورفعته وسودداً وحلماً
 حسن اعتقاد مثقل ميزانه
 لم يسلكوا مناهج الأغيار
 بما اقتضاه منه حسن الظن
 لذلك ، والتصدير ليس سهلاً
 عماد دين قد علا بناؤه
 فهما وإبراهيم سباق المدى
 لهم بوعده طالباً إنجازة
 في ذاك لي مهتصراً أفنانه
 دامت لهم آلاء فيض سوغت
 مع كون جهلي سادلاً حجابيه
 طراً ، وما ارتجلت أو رويته
 مؤمل التحقيق للظنون
 وغيرهم من كل حبر مغرب
 شيد على تقوى الإله صرحها
 هنا لطلال القول في الأبيات
 وحد من يعنى به مفلول
 تبركاً بالمطلب الجليل
 عن عمي الحائر للفخار
 محمد يدعى خروفاً حين عن

التونسي الطيب الأنفاس
 عن الكمال القادري المرتضى
 نجل أبي المجد عن الحجاري
 عن مُسْنِدِ الإسلام عبد الأول
 عن السرخسي عن الفيربري
 وفضله أظهر من أن يُذكر
 ومسلم به إلى الكمال
 منسوب بلقين عن التنوخي
 كابن المقير عن ابن ناصر
 عن جوزقي قد روى عن مكّي
 فليخبروا عني بهذا والباقي
 كذا موطأ الإمام مالك
 ومسند الفذ الرضي ابن حنبل
 والطبراني وما أرويه
 وكلها تشملُهُ الإجازة
 فلتقبلوه فهي من جهد المُقل
 ومن أسانيدي عن القصّار
 عن شيخه خروف الراقي الدرج
 قال : سمعت المصطفى في النوم
 يقول : مَنْ أصبح ، يعني آمنا
 ولنمسك العنان في هذا الأرب
 نزيل حضرة الملوك فاس
 عن الحجازي عن الحبر الرضي
 عن الزبيدي بنقل جاري
 عن الشهير الداودي المعتلي
 عن البخاري الإمام الحبر
 وعلمه المعروف غير المنكر
 عن علّم الدين أخي الجلال
 عن ابن حمزة عن الشيوخ
 عن ابن مندة وهو القاصر
 عن مُسلم نافي دياجي الشك
 من ستّة حائزة السباق
 إمامنا مُنير كلّ حال
 والدارمي ذي الشناء الأجل
 من المعاجيم بما تحويه
 بشرطها عند الذي أجاده
 إذ لست بالمطلوب مني أستقل
 مفتي الأنام بهجة الأعصار
 عن الشريف الطحطحائي فرج
 صلى عليه الله كل يوم
 في مرّبه ، الحديث فاعرف كما
 مصلياً على الذي زان العرب

١ ماض في ج ودوزي .

٢ ج ق : المعاجم .

وآله وصحبه الأعلام
 وخطاً هذا المقرئ العاصي
 سنة سبع وثلاثين تلت
 عليه أزكى صلوات تستم
 ومن تلا من أنجم الإسلام
 أجبر يوم الأخذ بالنواصي
 ألفاً لهجرة بياسين علت
 نرجو بها الزلفى وحسن المختم

ونص الاستدعاء المشار إليه هو :

فازت دمشق الشام بالمقرئ
 علامة العصر بلا مفترئ
 كم سبعت أخبار أوصافه
 جامع علم بث إملأه
 يقري فتقري السمع أنفاسه
 مولاي يا من در أفاظه
 إجازة نرقل من فضلها
 مسيلة الذيل على أكبر
 أطل لنا إنشاء بل أطب
 لا زلت في نفع الوري دائماً
 الأملعي اللوذعي البقري
 واحد الدهر بلا مُمترئ
 فقصر المخبر عن منظر
 بالشام ملء الجامع الأكبر
 أنفس ما يقري وما قد قري
 صحاحها تزري على الجوهرى
 في ثوب عز وردا مقنخر
 وأوسط الإخوة والأصغر
 وانظم لنا من درها وانثر
 تجود جود العارض المطر

العبد الداعي إبراهيم العمادي ، انتهى .

ومن الإجازات التي قلتها بدمشق الشام ما كتبه للأديب الحبيب سيدي
 يحيى المحاسني^١ حفظه الله تعالى :

أحمد من زين بالمحاسن دمشق ذات الماء غير الآسن

١ هو يحيى بن أبي الصفا ابن أحمد المعروف بابن محاسن الدمشقي الحنفي ، درس على العمادي وغيره من شيوخ دمشق ، ولما وردها المقرئ لزمه لزوم الظل للشج وجمع من أماليه مجموعاً ودرس العلم في الغزالية وتوفي سنة ١٠٥٣ (خلاصة الأثر ٤ : ٤٦٣) .

وأطلع النجوم من أعيان
فكُلُّ أَيْامِهِمْ مَوَاسِمُ
وَذَكَرُهُمْ قَدْ شَاعَ بَيْنَ الْأَخْيَا
وَيَشْرُهُمْ حَدِيثُهُ لَا يَنْكُرُ
وقد حكى جوارحُ الذي ارتحل
فسمعه عن جابرٍ ، والعينُ عن
فحلٍّ من أتاحهم آلاءُ
نحمدُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ أَسْدَى
وننتحي صوبَ صلاةٍ باهرة
أجلٌ مَنْ خَافَ الْإِلَهَ وَاتَّقَى
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ طَوْلَ الْأَبَدِ
وبعدُ ، فالعلمُ أساسُ الخيرِ
وهو مَوْصِلٌ إِلَى مِنْهَاجِ
وما بغيرِ العلمِ يبلو العَلَمُ
خصوصاً الحديثُ عن خيرِ البشرِ
ولم يَزَلْ يُعْنَى بِهِ كُلَّ زَمَنٍ
ولَنتي عِنْدَ دُخُولِ الشَّامِ
وشاهدتُ عَيْنَايَ مِنْ إِنْصَافِهِمْ
وإنَّ مِنْ جَمَلَتِهِمْ أَوْجَ الذِّكَا
ابنُ المحاسِنِ الَّذِي قَدْ طَابَقَا
اللُّوْذِعِيُّ الْأَلْعَيْيُ بِحَبِي
وهو الَّذِي أَغْرَاهُ حُسْنُ الظَّنِّ
وكانَ قَارِئَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ
بِمَحْضَرِ الْجَمْعِ الْغَزِيرِ الْوَافِرِ

بأفقهَا السَّامِي مَدَى الْأَحْيَانِ
مِنْ الصِّفَا تُغَوِّرُهَا بَوَاسِمُ
إِذْ قَطَرُهُمْ بِهِ الْكَمَالُ يَحْيَا
وَمُسْنَدُ الْجَامِعِ عَنْهُمْ يُذَكِّرُ
إِلَيْهِمْ صَحِيحٌ مَا لَهُ انْتَحِلَ
قُرَّةٌ تُرَوَّى ، وَاللَّسَانُ عَنْ حَسَنِ
حَتَّى أَبَانَ نُورُهُمْ لِأَلَاءِهِ
مِنْ الْأَمَانِ مَا أَنَالَ الْقَصْدَا
إِلَى الرَّسُولِ ذِي السَّجَايَا الطَّاهِرَةِ
مُحَمَّدُ الْهَادِي الرَّسُولُ الْمُنْتَقَى
مَعَ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالْمُقْتَدَى
وَكَيْفَ لَا وَهُوَ مُزِيحُ الضُّمِيرِ
هُدًى وَرَشْدٌ مَا لَهُ مِنْ هَاجِي
وَلَيْسَ مِنْ يَدْرِي كَمَنْ لَا يَعْلَمُ
فَإِنَّ فَضْلَهُ عَلَى الْكُلِّ انْتَشَرَ
مِنْ الرِّوَاةِ كُلِّ صَدْرِ مُؤْتَمَنٍ
لَقِيتُ مَنْ بَهَا مِنْ الْأَعْلَامِ
مَا حَقَّقَ الْمُحْكِي عَنْ أَوْصَافِهِمْ
وَالنِّيرَ الْمَزْرِي سَنَاهُ بِذُكَا
مِنْهُ مُسَمَّى الْإِسْمِ إِذْ تَسَابَقَا
لَا زَالَ رَسْمُ الْمُجْدِّ مِنْهُ يُجَا
عَلَى انْتِمَائِهِ لِأَخْذِ عَنِي
لَدَيْ فِي الْجَامِعِ ، أَعْنِي الْأُمُوِي
مَنْ وَجْهُهُ فَضْلُهُمْ سَوَافِرُ

وَبَعْدَ ذَلِكَ اسْتَمَطَرَ الْإِجَازَهُ
 فَلَمْ أَجِدْ بُدْأً مِنَ الْإِجَابَةِ
 وَإِنْ أَكُنْ أَجَبْتُ أَمْرًا يُمَثِّلُ
 فِيمَنْ دَرَى شَيْئًا وَغَابَتْ أَشْيَا
 فَلْيُرِ عَنِّي كُلَّ مَا يَصِحُّ لِي
 وَقَدْ أَخَذْتُ جَامِعَ الْبُخَارِيِّ
 سَعِيدَ الَّذِي نَأَى عَنْ دَتَسٍ
 أَعْنِي أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ وَهُوَ عَنْ
 عَنْ ابْنِ مَرْزُوقٍ مُحَمَّدٍ الرِّضَا
 الْفَارْقِيُّ عَنْ إِمَامٍ يُدْعَى
 بِمَا لَهُ مِنْ الرِّوَايَاتِ الَّتِي
 وَلِيرو عَنِّي مَا انْتَمَى لِلنَّوَوِيِّ
 أَعْنِي ابْنَ مَرْزُوقٍ الْخَطِيبَ الرَّائِي
 وَهُوَ رَوَى عَنْ صَاحِبِ التَّمَكِينِ
 وَخَطَّ هَذَا أَحْمَدُ الْبَادِي الْوَجَلُ
 فِي عَامِ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ خَلَّتْ
 أَلْبَسَهُ اللَّهُ الْبُرُودَ الصَّافِيَةَ
 بِجَاهِ سَيِّدِ الْبَرَايَا طَرًّا
 عَلَيْهِ أَسْنَى صَلَوَاتٍ تُسَنِّدِي

وَسَأَلَ مِنِّي بَعْضُ سَاكِنِي دِمَشْقَ ١ الْمَحْرُوسَةِ أَنْ أَقَرِّطَ لَهُ عَلَى شَرْحِهِ

١ الذي ارتجل : سقطت من ج .

٢ هو محمد بن سعد الكلثمي كما سيصرح المقرئ بذلك في أرجوزته، وكان من أدباء الصوفية، وكان فضلاء دمشق يعاشرهم منه رجلا سهلا خلوقا متوددا صاحب نوادر وآداب ؛ توفي سنة ١٠٣٧ (خلاصة الأثر ٣ : ٤٦٨) .

لرسالة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ أرسلان ، فكتبت ما صورته :

أحمدُ من خصَّصَ بالأسرارِ
أتاحهمْ عوارفَ المعارفِ
فهمْ بهمْ تُستَمطرُ الأنواءُ
ومِنْ أجلَّهمْ سناءً وسى
شيخُ الشيوخِ العارفُ الكبيرُ
فكمْ إشاراتٍ لهُ أبانا
وكم عباراتٍ تلا آياتها
ومن رأى رسالةَ التوحيدِ
فهي تنادي مَنْ أبى أنْ يسْلُكا
ومن أضلَّ القصدَ في مَهامِهِ
وكم بها من بابٍ معنًى مغلقُ
فما بغيرِ الفتحِ يَدْرِى الباطنُ
وقد رأيتُ في دمشقِ الشَّامِ
للكلشنى ذى الوفا بالوعدِ
لا زال في أوجِ التجلّي صاعدا
ومذُ أجلتُ ناظري في حُسْنِهِ
ودلَّ ما أبداهُ من معاني
لأنَّه أجادَ في تقريرِ
وأبرزَ الأبتكارَ من خدورِ
فالله يجزيه الجزاءَ الأوفى
وخطَّ هذا المقرِّى مِنْ وَجَلْ
كشفَ كروبٍ عقدَ صبرٍ حلَّتْ

قُدُماً من الصوفيَّةِ الأبرارِ
والحكَمِ السابغةِ المطارفِ
وتظهرُ الأنوارُ والأضواءُ
مَنْ ذادَ عن عينِ المعالي الوسنا
الشيخُ أرسلانُ الشهيرُ
بها علوماً من حلَّها ازدانا
تعي الفحولُ عن مدى غاياتها
لهُ انتحى مناهجَ التسديدِ
يا مُعرضاً شيركُ خفي كلُّكا
هدَّتهُ للخروجِ عن أوهامِهِ
عمَّن يقيدُ الوجودَ المطلقُ
وواردُ الفيضِ لهُ مَواطنُ
شرحاً لها أنبا عن إلهامِ
شمسِ العلّا محمدَ بنِ سعدِ
وعونُ ربِّنا لهُ مساعدا
ألفيتهُ مستبدعاً في فتهُ
على شهودٍ بالهدى مُعاني
ما اعتاصَ بالإنقانِ والتحريرِ
أفكارِهِ حاليةَ الصدورِ
في يومِ تبدي الأنبياءِ الخوفا
مرتجياً من ربِّه عزَّ وجلَّ
مِنْهُ وغُفرانَ ذنوبٍ جَلَّتْ

بجاه طه الهاشمي أحمدًا عَليَّه أَرْكَى صلواتِ سرمدًا
عاطرةَ النشرِ بلا اكتتام تأرجتْ بالمسكِ في الختامِ

وخطبني السريُّ الحسيبُ الماجدُ فخرُ المدرسين الأعيان مولانا الشمس
محمد بن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقي حفظه الله تعالى
بقوله :

شمس المحاسن شرقي أو غربي
شمس لنا منها شمس فضائل
المقريِّ العالم النَّدْبُ الذي
بدرٌ ولم تبدُ البدورُ بمشرق
لسوى اكتسابِ سنائه لم تغربْ ذُكا
علامةٌ ملاءِ البلادِ بفضله
عمري هو البحرُ المحيطُ فضائلًا
مولى له سَنَدٌ قويٌّ في العلا
نسبٌ له المجدُ المؤثَّلُ في الوري
هو في جبينِ الفضلِ أضْحَى غرةً
آمالنا قَطَعَتْ بيشرِ جبينه
بلدٌ به زُهَيْتْ دمشقُ وأهلها
طَوَّدُ الفضائلِ باكرتْ أرجاءهُ
بحرُ الهدى والعلمِ إلَّا أنه
هو قطبُ دائرةِ الفضائلِ في الوري

سعدتْ منازلنا بشمسِ المغربِ
وسنا هدىً قد راح غيرَ مُحَجَّبِ
لسوى اسمه دَرَجُ الحجى لم يُكْتَبِ
إلا بدتْ من قبلِ ذاكِ بمغربِ
فلَوَ أنها شعرتْ به لم تَغْرُبِ
وأفاده لمشرقٍ ومغربِ
إن قيسَ بالعذبِ الذي لم يَعْدُبِ
فعن الجلودِ روى العلا وعن الأبِ
والمجدُ لم يكسبْ إذا لم يوهبِ
يُجلى بها للجهلِ ظلمةٌ غَيْهَبِ
أن لا ترى للدهرِ وجهَ مُقْطَبِ
أحبِّبْ بيدٍ حيثُ حلَّ مُحَبِّبِ
دِيمُ الحجى ففدا كروضِ مُخْصِبِ
صفو من الأكدارِ عذبُ المشربِ
فيكادُ يُخبرنا بكلِّ مُغَيَّبِ

١ ترجمته في خلاصة الأثر (٤ : ٢٧٣) تتلمذ للنقري والمناوي وغيرهما وكان متقناً للفرسية
والتركية والموسيقى ملحنًا ، تردد إلى الروم ودرس بالمدرسة العزية وله ديوان شعر ؛ توفي
سنة ١٠٦٨ .

كلاً ، ولا قسْتُ البدورَ بكوكبٍ
 قَادَ الزَّمانُ بأدهمٍ وبأشهبٍ
 فَلَهُ العُلا تَقْضِي بفرضٍ أوجبٍ
 فافترَّ فيها كلُّ ثغرٍ أَشْنَبٍ
 أَذْيالها من كلِّ عَرَفٍ طيبٍ
 شُهَبَ المجرَّة حَيْرَةُ المتعجَّبِ
 ورُقُّ الأراكِ بكلِّ صوتٍ مطربٍ
 شكوى المَعْدَبِ في الهوى لمَعْدَبِ
 وجهلن ، وهو الفرقُ ، ما قد حلَّ بي
 إلّا التَّسِيمَ وذا الهوى إن تطلبِ
 حَيّاً رياضَ حِجَاهِ الطَّفِ صَيِّبِ
 مستعْدَبِ ، وكذلك كلُّ مَهْدَبِ
 لنعمتُ منه بكلِّ روضٍ مُعْشِبِ
 عن مطلبي والآلِ مَدْحِكَ مطلبي
 فَعَوَاتِقُ الأيَّامِ عُدْرُ المَذنبِ
 فكلِّذا يطولُ على الزَّمانِ تَعْتَبِي
 إلّا ثَنَّاكَ ، وحبذا من مَهْرَبِ
 فالدهرُ يوجبُ للقَريضِ تَجَنُّبِي
 من كلِّ وادٍ للضَّلالةِ متعبِ
 في عِقْدِ مَدْحِكَ لَوْلَوْ أَلَمْ يَشْقَبِ
 لكن بغيرِ مَسامعٍ لم يَشْرَبِ
 مثلاً لغيرك في العُلا لم يَضْرَبِ
 بكَرٍ لغيرك في الورى لم تُخْطَبِ
 يُغْنِي الجَمالُ عن الوشاحِ المُنْدَهَبِ

في الفضلِ ما جاولتُ يوماً مثله
 أنْتى يُجَارى في الفضائلِ مَنْ له اذ
 سُنَنٌ للمدحِ الغيرِ تسقطُ عِندنا
 ما روضةٌ حَلَّى أزاهرها الحيا
 ومَشَتْ بها خُود الصِّبا فتعطَّرتْ
 للنورِ فيها جدولٌ أخذت به
 باتت تُناشِدني بها ذِكْرَ الهوى
 تشكو إليَّ بمثلٍ ما أشكو لها
 فعلمتُ ما قد حلَّ من وجدٍ بها
 لم تَلقَ فيها مِن عليلٍ يشتكي
 بأغصنٍ حُسناً مِن ربي آدابِ مَنْ
 طبعٌ أرقُّ من التَّسِيمِ ومنطقُ
 لو جاد صوبُ حِجَاهِ قَفَرًا مُجَدِّبًا
 مولاي عُدْرًا فالزَّمانُ يَعُوقني
 عَفْوَاً إذا أَخَرْتُ مَدْحَكَ سَيِّدِي
 وكذلك يفعلُ بالأديبِ زَمَانُهُ
 لم أَلقَ يوماً من يديه مَهْرَبًا
 لولاك ما جال القَريضُ بِخاطري
 لولاك لم يَتَهَضَّ جِوَادُ قَرِيحِي
 فاسمع ، ولستُ بِأَمْرِ ، نظماً غدا
 كالراحِ يَلْعَبُ بالعقولِ للطفه
 من كلِّ قافيةٍ غدتْ مِن حُسْنِها
 خُودٌ تَقْلَدُ من ثَنَّاكَ قَلائِدًا
 غَنِيَتْ بِمَدْحِكَ زِينَةً ولربما

هي بعضُ أوصافٍ لذاتك قد غدتُ
جاءتك تسألك القبولَ وحسبها
وترومُ منك إجازةً فاقت بما
حسبي الإجازةُ منك جائزةٌ ولم
لا بدعَ والإطنابُ إيجازاً غدا
هيهات لا تحصى مآثر فضله

كالبحرِ عذباً ماؤه لم ينضبِ
فخراً قبولك وهو جلُّ المطلبِ
ترويه بالسندِ القويِّ عن النبي
أكُ قبلُ غيرَ الفضلِ بالمتطلبِ
في مدحه إن لم أطلُ أو أسهبِ
بالمدحِ إن أطنبُ وإن لم أطنبِ

خدمة الداعي محمد بن يوسف الكريمي ، انتهى .

فأجزته بما نصّه :

أحمدُ مَنْ أطلعَ شمسَ الدينِ
وخصَّ فضلاً منهُ بالإسنادِ
فلم يكنْ عصرٌ من الأعصارِ
يَنفونَ عن حوزةِ دينِ الله ما
وأنتحي سُبُلَ صلاةٍ كاملته
محمدَ المرسلِ بالشرعِ الحسنِ
مع حزبه من صحبه وعترته
وبعدُ فالعلمُ أجلُّ ما اعتمدُ
خصوصاً الحديثَ عن خيرِ الورى
ولم يزلْ ذوو النهى يَسْعَوْنَ في
وإنْ مولانا الشهيرَ السامي
سالكَ نهجِ السُّنةِ القويمِ
لا زالَ في عزٍّ وفي أمانِ
وجّهَ لي لما حلتُ الشاما
قصيدةً بليغةً مُستعذبه

في أفقِ الروايةِ المبينِ
أمةً طه مذهبِ العنادِ
إلا وفيه أهلُ الاستبصارِ
يرومُ مَنْ عَلَيْهِ رُشدُ أبهما
على الذي لَهُ العطايا الشاملة
ذي المعجزِ المفحمِ أربابَ اللّسنِ
ومنْ تلا مؤملاً لأثرته
موفقٌ من فيضِ مولاة استمدَّ
صلّى عليه الله ما زلّ وَرَى
تحصيله إذ فضله غيرُ خفي
الماجدَ المولى نبيهَ الشامِ
محمدَ بنَ يوسفَ الكريمي
مُبَلِّغاً من قصده الأمانِ
وبرقَ حُسنِ الظنِّ مني شاما
غريبةً في فنّها مهذّبة

يسألُ من مثلي بها الإجازةُ
مُسْتَمْسِكاً بِعُرْوَةِ الصَّوَابِ
فَلْيَرَوْ عَنِّي مَا سَمِعْتُ كُلَّهُ
عَلَى شُرُوطٍ قُرِّرَتْ فِي الْفَنِّ
وَصَنُوهُ الْأَكْمَلُ قَدْ أَبَحْتَهُ
وإنْ أَكُنْ فِيمَا ابْتَغَى مَقْصَراً
وَلِي أَسَانِيدُ أَبِي وَقِيٍّ عَنْ
وَالْعَذْرُ بَادٍ وَالكَرِيمُ يَتَقَبَّلُ
وَخَطَّ هَذَا الْمُقَرِّيُّ الْجَانِي
فِي عَامِ أَلْفٍ وَثَلَاثِينَ قَفَا
عَلَيْهِ أَزْكَى صَلَوَاتٍ تُغْنِيَنَّهُمْ
بشروطها عندَ الذي أجازهُ
وَلَمْ أَجِدْ بُدْءاً مِنَ الْجَوَابِ
وَمَا جُمِعَتْ فِي الْفَنُونِ جُمْلَتُهُ
مَرْتَبِجاً حَصُولَ كُلِّ مَنْ
ذَاكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَحْتَهُ
فَذُو الرِّضَى لَيْسَ لَعِيبٍ مَبْصِراً
تَفْصِيلُهَا لَمَّا مِنَ الرَّحْلَةِ عَنْ
وَالصَّفْحِ نَهْجٌ يَقْتَضِيهِ الْأَنْبِلُ
أَمَّنْهُ اللَّهُ مِنَ الْأَشْجَانِ
سَبْعاً لِهَجْرَةِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
يَرْكُؤُ بِهَا مَبْتَدَأٌ وَمُخْتَمَمٌ

وكتب إلي الفاضل الخطيب ، الفهامة الأديب ، وارث الفضل عن الأعلام
ذوي اللسن ، سيدي الشمس محمد المحاسني^١ سبط شيخ الإسلام مولانا
البوريني حسن ، حفظه الله تعالى ، بقوله :

يَا سَيِّدِي وَمَلَاذِي وَعَالَمَ الثَّقَلَيْنِ
وَمِنْ غَدَا بِمَكَانٍ عَلَا عَلَى النَّيِّرَيْنِ
أَجَزْتَ بِالدَّرْسِ قَوْمًا فَاقُوا بِهِ الْفِرْقَيْنِ
فَزَيْنَ الْعَبْدَ أَيْضًا مِنْ مِثْلِ ذَاكَ بَزَيْنِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ^٢ فِي خَتَامٍ فَذَاكَ قِرَّةٌ عَيْنِي

١ هو محمد بن تاج الدين بن أحمد المحاسني الدمشقي الحنفي ، درس على علماء دمشق ، ومنهم العمادي والمقري
وسافر إلى الروم صحبة والده وأخذ عن علمائها ثم تولى الخطابة بجامع السلطان سليم بصالحية
دمشق ثم الإمامة بجامع بني أمية ، وتولى مناصب أخرى بين إمامة وخطابة وتدريس ، وتوفي
سنة ١٠٧٢ (خلاصة الأثر ٣ : ٤٠٨) .

٢ ق : وإن يكن .

فأجزته بما نصّه :

أحمدُ مَنْ أَطْلَعَ من محاسن
وزانها بالجلّة الأعيانِ
الراغبين في الحديث النبوي
وبعدُ فالعلمُ أَجَلُ زِينَةٍ
وإنَّ علمَ السنّة الشريفة
لذاك كانَ باعْتِناءً أَجْدَرًا
وإنَّ ذا الفضلِ الأديبَ البارِعُ
الماجدُ المسدّدُ السامي الحسبُ
ابنُ الشهرِ الصدرِ تاجِ الدينِ
وجدهُ لأمه الشيخُ الحسنُ
يسألني إجازةً بكلِّ ما
وها أنا أجبته غيرَ بَطَلٍ
فليروني عني كلَّ ما يصحُّ
وهي عن الشروطِ لن تريما
وكلَّ ما أَلَفْتُ أو جمعتُ
ولي أسانيدُ يضيقُ الوقتُ
في غيرِ هذا فليُحَقِّقْ ذلك
وقد أخذتُ جامعَ البخاري
عمّي سعيدٍ وهو عمّنْ يُدْعَى
عن حافظِ الغربِ الرضّى أبيه
الحافظِ المجلِّلِ العراقي
وما لَهُ من الرواياتِ عِلِمُ

دمشقَ ما أُرَبِّي على المحاسنِ
الرافلينَ في حُلَى التبيانِ
السالكينَ في الهدى النهجِ السوي
وَسَبْلُهُ في الرشدِ مستبينه
ظلاله ضافيةٌ وريفه
من كلِّ ما يمليه من تصدّرا
سابقَ ميدانِ الذكا المسارعُ
محمدُ مَنْ للمحاسنِ انتسبُ
لا زالَ في عزٍّ وفي تمكِينِ
وذاك بُورِينِهِمْ مُعْطَى اللّسنِ
أرويه عنواناً بحالي معلما
مستغفراً من خطي ومن خطلِ
على شُرُوطِ غَيْثِهَا يسحُ
وليسَ يخفي علمهُ الكَرِما
نظماً ونثراً مثلَ ما أَسْمَعْتُ
عن سرّ دِها وبعضها قد سقتُ
مقتضياً لأوضحِ المسالكِ
ومسلمٍ عَنْ حائِزِ الفِخارِ
بالتَّنَسِّيِّ قد أفادَ الجمعا
عن ابنِ مرزوقٍ عن النبيهِ
وقدْ سما في سُلَمِ المراقِ
من كتبه التي حوتْ خَيْرَ الكَلِمِ

وخطَّ هذا المقرِّي عن عجلٍ مؤملاً من ربه عزَّ وجلَّ
غفرانَ ما جنى مِنَ الذنوبِ والصفحَ عن معرَّةِ العيوبِ
بجاهِ خيرِ العالمينِ أحمدًا صلى عليه الله دأباً سرمداً
وآله وصحبه الأخيارِ ومن تلاً لآخرِ الأعصارِ

ولما سألتني في الإجازة الفاضل الأديب سيدي محمد بن علي ابن مولانا عالم
الشام الشهير الذكر شيخ الإسلام سيدي ومولاي الشيخ عمر القاري^٢ - حفظه
الله تعالى - وأنا مستوفز للسفر ، كتبت له عن عجل ما صورته :

أحمدُ مَنْ زَيْنَ بالآثارِ	جيداً من الراوي النبيه القاري
وشاد للعليا في أوجِ السَّنَدِ	منازلاً لم يُبْلِها طولُ الأمدِ
ومَيَّزَ الواعين للحديثِ	بالفضلِ في القديم والحديثِ
وزانَ منهمُ سماءَ الدينِ	فأشرقَ بالحفظِ والتبيينِ
فهمُ ^٣ بها للمهتدي نجومُ	ولإنها للمعتدي رُجومُ
فكم أراحوا عن حديثِ المجتبى	صلى عليه الله ما هبَّتْ صبا
تحريفَ ذي غلٍ مضلٍ غالي	شانٍ لمنهاجِ الرشادِ قالي
وبعدُ فالإسنادُ للروايةِ	وسيلةٌ ترحزح الغوايةِ
والله قد خصَّصَ هذي الأمةَ	به امتناناً وأزاح الغُمةَ
هذا ولولا ذاك قال من شا	ما شاء فهو بحقٍ منشأ
فلم يزل أهلُ التَّهْيِ كلَّ زَمَنٍ	يسعون في تحصيله عن مؤتمنٍ

١ إل هنا تنتهي نسخة ج من النسخ وكتب في آخرها : « انتهى ما وجد في الجزء الأول من نفع
الطيب ويتلوه في الجزء الثاني : ولما سألتني في الإجازة الفاضل الأديب الشيخ محمد بن علي . . إلغ » .
٢ ترجمة محمد بن علي بن عمر المشهور بابن القاري في خلاصة الأثر (٤ : ٥٤) درس الحديث
على المقرري وكان مدرساً بالمدرسة الشامية الجوانية ، وسافر إلى الروم ونال جاهاً ، وكان
بينه وبين أحمد الشافعي مودة أكيدة ومراسلات .
٣ ق : منهم .

وَإِنَّ مِنْ جَمَلَةٍ مَنْ تَحَرَّى
 الْفَاضِلُ الْمُسَدَّدُ النَّجِيبُ
 مُحَمَّدٌ سَلِيلُ ذِي الْمَجْدِ عَلِي
 عَمْرُ الشَّيْخِ الشَّهِيرِ الْقَارِي
 شَيْخُ الشُّيُوخِ فِي دِمَشْقِ الشَّامِ
 فَكَانَ مِنْ جَمَلَةٍ مَنْ عَنِّي رَوَى
 وَبَعْدَ ذَلِكَ اقْتَرَحَ الْإِجَازَةَ
 فَانْعَجَمَتْ نَفْسِي عَنْ الْإِجَابَةِ
 مَعَ أَتْنِي مُقَصِّرٌ ذُو عِيٍّ
 وَخَفْتُ أَنْ آتِيَهَا شَنْعَاءَ
 وَبَعْدَ ذَلِكَ أَجَزْتُ قَصْدَ الْأَجْرِ
 وَقَدْ أَجَبْتُهُ وَإِنِّي أَعْلَمُ
 فَلْيُرْوِهَا بِبَالِغِ التَّمَنِّي
 مِنْ ذَلِكَ الْجَامِعِ لِلْبُخَارِيِّ
 سَعِيدٍ الْآخِذِ عَنْ سُفْيَانَ
 عَنْ حَافِظِ الْإِسْلَامِ أَعْنِي ابْنَ حَجَرٍ
 وَبَعْضُهَا فِي صَدْرِ فَتْحِ الْبَارِي
 وَلِي أَسَانِيدُ يَطُولُ شَرْحُهَا
 وَمِنْ رَوَايَاتِي عَنْ الْقَصَّارِ
 حَدَّثَنَا خُرُوفُ الذَّاكِي الْأَرْجُ
 سَمِعْتُ فِي الْمَنَامِ طَهَ يَمْلِي
 أَيَّ آمَنًا فِي سِرِّهِ مَعَايِي

وَمَنْ بَسَبَقَ لِلْعُلُومِ غَرًّا
 الْوَاصِلُ الْمَمَجَّدُ الْأَرِيبُ
 ابْنُ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْحَبِيبِ الْوَلِيِّ
 طَوْدُ السَّكُونِ هَضْبَةُ الْوَقَارِ
 لَا زَالَ مَحْفُوفًا بَعْزٍ سَامِي
 بَعْضُ الصَّحِيحِ ظَافِرًا بِمَا نَوَى
 مِنِّي وَوَعْدَهَا اقْتَضَى إِنْجَازَهُ
 إِذْ لَسْتُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ ذَا نَجَابَةٍ
 فِي مِثْلِ هَذَا الْمَطْلَبِ الْمُرْعِي
 بِحَمَلِي الْوَشْيَ إِلَى صَنْعَاءَ
 مُرْتَجِيًا بِذَلِكَ رِبْحَ التَّجَرُّ
 أَنِّي مِنْ خَوْفِ الْخَطَا لَا أَسْلَمُ
 جَمِيعَ مَا يَصِحُّ لِي وَعَنِي
 عَنْ عَمِّي الشَّهِيرِ ذِي الْقَسَّارِ
 عَنْ قَلْقَشَنْدِيِّ مَزِيحِ الْمِينِ
 بِمَا لَهُ مِنَ الرِّوَايَاتِ اشْتَهَرَ
 مُبَيِّنٌ لَطَالِبِ الْأَخْبَارِ
 وَالرُّوْضَةُ الْغَنَاءُ يَكْفِي نَفْحُهَا
 مُفْتِي الْبَرَايَا بِهَجَةِ الْأَعْصَارِ
 عَنْ الشَّرِيفِ الطَّحْطُحَاثِيِّ فَرَجٍ
 حَدِيثَ مَنْ أَصْبَحَ وَفَقَّ النُّقْلِ
 فِي جَسَمِهِ مَعَ قُوَّةِ يَوْمٍ وَافِي

وكلُّ ما ألفتُ في الفنونِ أرجو بهِ التحقيقَ للظنونِ
فليرِوه عني بشرطٍ معتبرٍ وربّما يصدقُ الخبرُ الخبرُ
ولي تأليفٌ على العشرينا زادت ثمانياً حوتَ تعيننا
فليرِوها إن شا بلا استثناء والله أرجو نيلَ قصدِ نائي
بجاهٍ من شُرفِ بالإدناء صلّى عليه الله في الآناء
أحمدَ خيرِ المرسلينَ الهادي غوثِ البرايا ملجئِ الأشهادِ
عليه أسنى صلواتِ زاكيه مع صحبه ذوي المزايا الزاكيه
ومن تلا ممّن أطابَ عمَلَه فنالَ من رجائه ما أمَلَه
وشمّ من عرّفِ قبولِ أرجا فنال من حُسنِ الختامِ ما رجا

وخاطبني من أهلها أيضاً خادم الشيخ الأكبر ابن عربي محيي الدين ، وهو
الشيخ الأكرمي سيدي إبراهيم^٢ ، سلك الله بي وبه سبل المهتدين ، بقوله :

فكرتُ في فضلِ الإمامِ مِ المقرّي الخبرِ حيناً
فوجدته بكرّ الزما نِ وواحدَ الدنيا يقيناً
ما إن رأيتُ ولا سمع تُ بمثله في العالمينا
وافي دمشقاً زائراً لو أنّهُ أضحى قطيناً
وأنى عجيبُ الاتفا ق بفطرِ شهرِ الصائمينِ
فكأنَّ عُرَّتَه الهلا لُ ونحن كنا ناذرينا
والعلمُ قالَ مؤرخاً أدّى بها فضلاً ميينا

وخاطبني أيضاً منهم الفقيه النبيه سيدي مصطفى بن محب الدين^٣ حفظه الله

١ ق ودوزي : تعيننا .

٢ هو إبراهيم بن محمد الدمشقي الصالح المعروف بالأكرمي ، كان شاعراً مشهوراً في عصره بخمرياتهِ
وغزلياتهِ ، وهو وآباؤه خدام باب الشيخ ابن العربي ، توفي سنة ١٠٤٧ ودفن بسفح قاسيون
(خلاصة الأثر ١ : ٣٩) .

٣ هو مصطفى بن أحمد بن منصور بن إبراهيم بن محمد سلامة أبو الجود ابن محب الدين الدمشقي =

تعالى بقوله :

فضائلُ قطبِ الغربِ في العلمِ والفضلِ
حوى كلِّ علمٍ كلِّ عن بعضه السَّوى
وحازَ فنوناً من ضروبِ معارفِ
توخَّى دمشقَ الشامِ فافتَرَّ ثغرها
وشرفَ مصرأ قبلها فاكْتَسَتْ بهِ
لقدْ أشرقَتْ من أفقِ غربِ شموْسُه
نفاستُه فيها تنافستِ الورى
مليٌّ من التحقيقِ إنْ عَنَّ مشكلٌ
إذا ما أدار الدرَّ مِن كأسِ لفظِه
نظامٌ لهُ يحكي فلاتدَّ عسجدِ
وأُسْجاعُه إنْ حاكَ وشيَ نسيجها
لهُ القلَمُ الأعلى بشرقٍ ومغربِ
فيا سيداً حازَ المفاخرَ والعُلا
إليكَ من العبدِ الحَقيرِ تحيةٌ
مُوالِ يوالي الحبَّ والقربَ منكمُ
فلا زلتَ محبوباً بسابغِ نعمةٍ
ودمتَ لدى الأسفارِ في نُججِ أوبةٍ

هو المقرِّي الأصل حائزةُ الحصلِ
فلا غرو أن أضحى فريداً بيلاً مثلِ
ومن فضلِ تحقيقِ ومن منطقِ فصلِ
سروراً بهِ وازيَّنتُ من حلِ الفضلِ
ملابسَ فخرِ زانها كرمُ الأصلِ
وناهيكَ أفقاً نورُه قَدَرَه مُعلي
بما قد غدا من درِّ ألفاظه يملِ
تكفلُ بالتيانِ والشرحِ والحلِ
سقانا عقارَ الفضلِ علأً على نهْلِ
وثغرُ مليحُ فائقُ الحسنِ والدلِ
حكّت حبراً حيكّتُ نمارقَ من غزلِ
لهُ الموضعُ الأسمى على الكلِّ في الكلِ
وفاقتُ حلِ الآدابِ مِنْهُ على الحلِ
لقد نشأتُ عن خالصِ الودِّ من خلِ
بظاهرِ غيبٍ لا يحيدُ عَنِ الوصلِ
وفضلِ نعيمِ وافرٍ وارِفِ الظلِ
وجمَّعَ لشمليِّ بالمواطنِ والأهلِ

وخطبني أيضاً الشيخُ سيدي محمد بن سعد الكلشني بقوله :

شهرُ شعبانَ جاءنا ليهنَّا بِقُلُومِ الأستاذِ كثرِ الفضائلِ

= الأديب ، سافر مرتين إلى مصر ودرس في الجامع الأزهر ثم تولى التدريس بجامع بني أمية بدمشق ،
توفي سنة ١٠٦١ (خلاصة الأثر ٤ : ٣٦٥) .

بَهْجَةِ الكونِ رَوْضِ عِلْمٍ وَحِلْمٍ
بِمَصَابِيحِ فَضْلِهِ قَدْ أَضَاءَتْ
وَبِمُخْتَارِ لَفْظِهِ صَارَ يَحْوِي
وَمِنَ الْغَرْبِ حِينَ وَافَى لَشَرْقٍ
حَلَّ مَنِي فِي الْقَلْبِ وَالْطَّرْفِ لَمَّا
وَعَدَا بِالْأَمَانِ وَالسَّعْدِ أَرَخَ
وَهُوَ مُخْتَلِي اللَّيْلِ إِنْ جَاءَ سَائِلٌ
سَاحَةُ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ لِأَمَلٍ
لِحَدِيثِ مُسْتَسْلِلٍ عَنْ أَفْضَلِ
فَاقَ بَدْرَ التَّمَامِ وَسَطَ الْمَنَازِلِ
لَا حَ سَعْدُ السَّعُودِ لِي غَيْرَ أَقْلٍ
أَحْمَدُ الْمُقَرِّيُّ بِالشَّامِ قَائِلٌ

وَقَالَ أَيْضاً شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى نِيَّتِهِ ، وَبَلَغَهُ أَمْنِيَّتُهُ :

أَتَاكَ دِمَشْقَ الشَّامِ أَكْرَمُ وَارِدِ
وَهَزَيْ دِلَالًا فِي أَزَاهِرِ رَوْضِهِ
لَكَ الْبِشْرُ يَا عَيْنِي ظَفَرْتُ بِأَمْجَدِ
لَقَدْ شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ وَاسِعُ فَضْلِهِ
مِنَ الْعَالَمِ الْفَرْدِ الْمَفِيدِ الَّذِي لَهُ
وَذَاكَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ مِنْ صَقَّتْ
تَرَاهُ إِذَا وَافَيْتَهُ مَتَهَلَّلًا
لِإِمَامٍ سَمَا قَدْرًا عَلَى النَّجْمِ رَفْعَةً
لَدَيْهِ ارْتِفَاعُ الْمُشْتَرِي وَسَعُودُهُ
شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ أَوْلَاهُ مَنَحَةً
وَمَذْ حَلَّ فِي وَادِي دِمَشْقَ رَكَابُهُ
حَوَى كُلَّ إِفْضَالٍ وَكُلَّ فَضِيلَةٍ
وَمَاذَا عَسَى فِي مَدَنِهِ أَنَا قَائِلٌ
إِذَا رَمَتْ أَنْ تَلْقَى نَظِيرًا لِمِثْلِهِ
فَكَمْ مِنْ مَعَانٍ حَازَهَا بَيَانُهُ
وَمِنْطَقُهُ حَاوِيَ الشَّقَا بِجَوَاهِرِ
فَقَرِّي بِهِ عَيْنًا وَلِلْحَسَنِ شَاهِدِي
مَعَاطِفَ لَيْلٍ كَالْغُصُونِ الْأَمَالِدِ
رَفِيعِ الذَّرَى مِنْ فَوْقِ فَرَقِ الْفِرَاقِ
فَكَمْ قَاصِدٍ يَسْعَى لِنَيْلِ الْفَوَائِدِ
أَيَادٍ سَمَتْ بِالْجُودِ تَوَلَّى لِقَاصِدِ
مَنَاهِلُهُ دَوْمًا إِلَى كُلِّ وَارِدِ
وَيَسِمُ حُبًّا فِي وَجْهِهِ الْأَمَاجِدِ
أَرَى وَصْفَهُ فِي بَيْتِ نَظْمِ مَشَاهِدِ
وَسُطُورَةٍ بِهَرَامٍ وَظَرْفُ عِطَارِدِ
بِنَقْلِ حَدِيثٍ فِي جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ
وَسُودَدُهُ وَافَى بِأَعْدَلِ شَاهِدِ
بِهَا يُهْتَدَى حَقًّا لِنَيْلِ الْمَقَاصِدِ
وَلَوْ جِثْتُ فِيهِ مَطْنَبًا بِالْقَصَائِدِ
عَجَزْتُ وَرَبَّ النَّاسِ عَنْ عَدٍّ وَاحِدِ
وَفَكَرْتُهُ قَدْ قَيَّدَتْ لِلشَّوَارِدِ
صَحَاحَ بِهَا يَزْدَانُ عَقْدُ الْقَلَائِدِ

شموسُ علومٍ أسفرت عن محامد
تواترت الأخبارُ عن غيرِ واحد
فأنتَ لموصولِ الجُدا خيرُ عائد
وأنتَ يميني للحسودِ وساعدي
لبغيته من صادرٍ ثمَّ وارد
بثوبِ الهنا تُكفَى شرورَ الحواسد
إليك أتتُ في زيِّ عذراءِ ناهد
بخيرِ جزيلٍ من لذيذِ الموائد
بحضرتك العلياءِ يا خيرَ ماجد
مدى الدهرِ ما سَحَّ الحيا في القدافد
وما بزغتُ شمسُ الضحى للمشاهد

من الغربِ وافى نحو شرقٍ فأشرقت
فناديتهُ يا سيدي مَنْ بفضله
عسى عطفةٌ منكم عليَّ بنظرةٍ
وأنتَ على ريبِ الزمانِ مُساعدي
فلا زلتَ تولي كلَّ من هو آملُ
وتبقى مدى الأيامِ في المجدِ رافلاً
وهاك عروساً تجتلي في حلبيها
تُهَنِّي بعيدَ الفطرِ من بعدِ صومكم
وترجو جميلَ السرِّ إن هي مثَّلتُ
وعشَّ في أمانِ الله بالعزِّ دائماً
وما دارتِ الأفلاكُ من نحو قطبها

وقال أيضاً زاده الله تعالى من فضله :

أعجز بالوصفِ كلَّ قائلٍ
وسحرها ينتمي لبَّابِلٍ
يرنو فيصنمي القوادِ عاجِلٍ
عليَّ حتى غدوتُ ذاهِلٍ
أو كالفنا السَّمْهريَّ عادِلٍ
في القلبِ والطرفِ عاد نازلٍ
بقيدِ حُسْنٍ وفرعِ سابلٍ
سوى مديحي رضى الأفاضِلِ
سما على البدرِ في المنازلِ
كالغيثِ يغني لكلِّ سائلٍ
سبقاً ومن بالعلومِ عاملٍ

ظبيُّ بوسطِ القوادِ قائلٍ
ظبيُّ بأجفانه سَباني
يرمي بسهمِ اللحاظِ لما
قد فتنَ العقلَ مذ تجنَّي
لَهُ قَوامٌ كخُوطِ بانٍ
بدرٌ بدا كاملَ المعاني
قد أسَرَ القلبَ في هواه
وما بقي منه لي خلاصٌ
أعني به المقرِّي مَنْ قد
أحمدُ مولى لَهُ أيادٍ
علامةٌ حاز كلَّ فضلٍ

من قد نشأ في العلوم طُرّاً
 طويلُ باعٍ بسيطُ فضلٍ
 ووافرُ العقلِ راح يهدي
 وجامعُ العلم في ابتهاجٍ
 وهكذا في الكلامِ مهما
 يروي صحيحَ الحديثِ دأباً
 وكم علومٍ أفاد مَنْ قد
 وحلَّ إلهامَ كلِّ شكلٍ
 وغاص في بلجةِ المعاني
 وفي فنونِ البديعِ أضْحَى
 وكم دليلاً أقام لَمَّا
 إن كانَ وافى لنا أخيراً
 بحرٌ محيطٌ يفيضُ مِنْهُ
 وافى من الغربِ نحو شرقٍ
 في مهمه صحصح مهوولٍ
 وحثَّ فيه المسيرَ حتى
 وجاء باليُمنِ في أمانٍ
 وحلَّ في الشام عند قومٍ
 ذاك ابنُ شاهينَ ذو المعالي
 كأنته الشمسُ جاء يهدي
 بل كان غيثاً لهم وكانوا
 فبَجَلْـوه وعظَّمـوه

وحازَ علمَ البيانِ كاملُ
 مديدُ جودٍ لكلِّ آملٍ
 سريعَ فضلٍ لكلِّ فاضلٍ
 بمنطقٍ في الأصولِ حافلٍ
 أفاده في الدروسِ شاملٍ
 بالسَّنَدِ الواصلِ الدلائلُ
 أناه في مشكلِ المسائلِ
 من فنِّ وفقٍ إلى الوسائلِ^١
 واستخرج الدرَّ في المحافلِ
 جِناسُهُ قد حوى رسائلُ
 برهانهُ أبهتَ المعازلُ
 فهو الذي فاخرَ الأوائلُ
 على رياضٍ بكلِّ ساحلٍ
 يحبُّ من فوقِ متنٍ بازلٍ
 وحزَنُهُ كم به غوائلُ
 خلَّقه من وراءِ كاهلٍ
 وصحَّةِ الجسمِ والشمائلُ
 من أكرم الناس في القبائلُ
 ربُّ الندى للألوفِ باذلٍ
 للبدرِ نوراً وليس آفلٍ
 روضاً أريضاً لشكرِ وابلٍ
 وادخروا عاجلاً لآجلٍ

١ يشير إلى عنوان مؤلف للمقري وهو : في الوقف الخمس الحالي الوسط .

جزاهمُ اللهُ كلَّ خيرٍ وصانهم من جدالٍ جاهلٍ
وأحمدٌ دامَ في أمانٍ المقرِّي الرضى المعاملُ
لربه في دجى الليالي ويرشدُ الناسَ في الأصائلُ
لا زال في نعمةٍ وخيرٍ وفي أمانٍ يعودُ عاجلُ

وخاطبني الأديب الفاضل ، الشيخ أبو بكر العمري^١ شيخ الأدباء بدمشق ،
حفظه الله تعالى ، بقوله :

تاهت تِلْمَسَانُ على مُدُنِ الدني بعالمٍ في العالمينَ يحمَدُ
المقرِّي أحمدُ ربُّ الحجي الكاملُ البحرُ الخضمُ الزبدُ
مالكُ هذا العصر شافعيُّه أحمدُه نِعْمَانُه المسدَدُ
مذ حلَّ مصرَ أذعنت أعلامُها لفضله وبجَلُّوا ومجّدوا
وفي دمشق الشامِ دامَ سعدُها كان له بها المقامُ الأسعدُ
العلماءُ أجمعوا جميعُهم على معاليه التي لا تُجحدُ
أقامَ شهراً أو يزيد وانثنى وفي الحشامِنةُ المقيمُ المقعدُ
سالتُ على فراقه دموعُنا وفي القلوبِ زفرةٌ لا تخمدُ
لو قيل من يُحمدُ في تاريخه ما قلتُ إلا المقرِّي أحمدُ
لا برحتُ أوقاته مفيدةٌ ما صاحَ فوق عودِهِ مُغرَدُ

قلتُ : وذكرني لكلام أعيان دمشق - حفظهم الله تعالى - ومديحهم لي ،
ليس - علم الله - لاعتقادي في نفسي فضلاً ، بل أتيت به دلالة على فضلهم الباهر ،
حيثُ عاملوا مثلي من القاصرين بهذه المعاملة ، وكسوة حلل تلك المجاملة ،

١ هو الأديب أبو بكر ابن منصور بن بركات بن حسن بن علي العمري الدمشقي ، كان ينظم الموشح
والدوبيت وأنواع الزجل وهو سابق في كل فن منها ، وقد كان كثير الرحلة والتنقل ، توفي
آخر جمادى الآخرة سنة ١٠٤٨ (خلاصة الأثر ١ : ٩٩) .

مع كوني لستُ في الحقيقة له بأهل ، لما أنا عليه من الخطأ والخطل والجهل .
ولقد خاطبتُ من مصر مفتي الشام صدر الأكابر ، وارث المجد كابرآ
عن كابر ، صاحب أذبال الكمال ، صاحب الخلال المبلغة الآمال ، مولانا شيخ
الإسلام الشيخ عبد الرحمن العمادي الحنفي ، بكتاب لم يحضرني منه الآن غير
بيتين في أوله ، وهما :

يا حادي الأظعان نحو الشام بلِّغ تحيائي لتلك الخيام^١
وابدأ بمفتيها العمادي الرضى دام به شملُ هنا^٢ في التمام
فأجاني بما نصّه :

إلى أهالي مصر أهدي السلام مُبتدئاً بالمقريّ الهمام
من ضاع نشر العلم من عرفه ولم يضع منه الوفا للذمام
أهدي تحف التحية ، إلى حضرته العلية ، وذاته ذات الفضائل السنية الأحمدية ،
التي من صَحْبِها لم يزل موصولاً بطرائف الصلّات والعوائد ، الأوحديّة
الجامعة التي لها منها عليها شواهد^٣ :

وليسَ لله بمُسْتَنَكِرٍ أن يجمعَ العالم في واحد
فيا من جذب قلوب أهل عصره إلى مصره^٤ ، وأعجز عن وصف فضله
كلّ بليغ ولو وصل إلى النثرة^٥ بنثره ، أو إلى الشعريّ بشعره ، ومن زرع حبّ
حبّه في القلوب فاستوى على سوقه ، وكاد كل قلب يذوب بَعْدَ بَعْدِهِ من

١ ق : التهام .

٢ دوزي : الهوى .

٣ البيت لأبي نواس .

٤ في نسخة : لمصره .

٥ النثرة : اسم لكوكبين .

حر شوقه ، وظهرت شمس فضله من الجانب الغربي فبهرت بالشروق ، وأصبح كل صب وهو إلى بهجتها مَشُوق ، زار الشام ثم ما سلّم حتى ودّع ، بعد أن فرعَ بروضها أفنانَ الفنون فأبدع ، وأسهم لكلٍّ من أهلها نصيباً من وداده ، فكان أوفرهم سهماً هذا المحب الذي رفع بصحبته سمكَ عماده ، وعلق بمحبته شغاف فؤاده ، فإنه دنا من قلبه فتدلّى ، وفاز من حبه بالسهم المُعلّى ، أدام الله تعالى لك البقا ، وأحسن لنا بك الملتقى ، ومَنّ علينا منك بنعمة قرب اللقا ، آمين بمنّه ويمنه . هذا ، وقد وصل من ذلك الخللّ الوفيّ ، كتابٌ كريم هو اللطف الخفيّ ، بل هو من عزيز مصر القميصُ اليوسفي ، جاء به البشير ذو الفضل السني ، الخلل الأعزّ الأجلّ التاج المحاسني ، مشتملاً على عقود الجواهر ، بل النجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، تكاد تقطر البلاغة من حواشيه^١ ، ويشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لمَوْشِيهِ ، فليت شعري بأي لسان ، أُنثي على فصوله الحسان ، العالية الشان ، الغالية الأثمان ، التي هي أنفس من قلائد العُقيان ، وأبدع من مقامات بديع الزمان ، فطففت أرتعُ من معانيها في أمتع رياض ، وأقطع بأنّ في منشئها اعتياضاً لهذا العصر عن عياض^٢ :

لَيْتَ الكواكبَ تدنو لي فأنظِمَها عُقُودَ مدَحٍ فلا أرضى لها كلمي

ولا سيما فصل التعزية والتسلية ، المشتمل على عقد التخلية بل عقود التخلية ، لتلميذكم الولد إبراهيم ، فإنه كان له كَرُفِيّةُ السليم ، بعد أن كاد يهيم ، فجاء ولله درّه في أحسن المحالّ ، ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركته من عِقَال :

وإذا الشيءُ أتى في وقْتِهِ زاد في العينِ جمالاً لجمال

١ تكاد . . . حواشيه : سقطت من ق .

٢ البيت لعمارة اليميني (النكت المصرية : ٣٣) من قصيدة يمدح فيها الفائز الفاطمي ووزيره

الملك الصالح طلائع بن رزيك ومطلعهما :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النعم

فجزاكم الله تعالى عنا أحسن الجزاء ، ثم أحسن لكم جميل العزاء ، فيمن
 ذكرتم من كريمي الأصل والفرع ، وأبقى منكم ما كثر في الأرض من به
 للناس أعمُ النفع . وأما من كان وليي وسمي ومنجدي ، الشهيد السعيد المرحوم
 الشيخ عبد الرحمن المرشدي ، فإنها وإن أصابت منا ومنكم الأخوين ، فقد
 عمّت الحرمين ، بل طمت الثقلين ، ولقد عُدَّ مصابه في الإسلام ثلثة ،
 وفقد به في حرم الله تعالى من كان يدعى للملثة ، ولم يبق بعده إلا من يدعى
 إذا يُحاس الحيس^١ ، واستحق أن ينشد في حقّه وإن لم يُقس به قيس^٢ :

وما كان قيسٌ هُلكهُ هُلكَ واحدٍ ولكنّه بُنيانُ قومٍ تهدّما

فالله تعالى يرفع درجاته في عليّين ، ويبقي وجودكم للإسلام والمسلمين ؛
 وتلامذتكم الأولاد ، يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الأمداد ، ويُهدّون
 أكمل التحيّة ، إلى حضرتكم العليّة ، ونبلغكم دعاء صاحب السعادة ، أدام
 الله تعالى إسعادكم وإسعاده ، ونحن من صحبته الشهية ، في رياض فنون أدبية ،
 أبهاها لمعات محاضرة في ذكر شمائلكم الجميلة ، تنور المجالس ، وأشهاها
 نسّامات محاورة بنشر فضائلكم الجليلة ، تعطر المجالس ، وسلام جملة الأصحاب
 من أهل الشام ، وعامة الخواص والعام ، والدعاء على الدوام — المخلص الداعي
 عبد الرحمن العمادي ، مفتي الحنفية ، بدمشق المحمية .

ووردت عليّ مع المکتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم الله
 تعالى ؛ فمنها من الصديق الحميم ، الراحل في حلال المجد الصميم ، الخطيب ،
 الأديب ، سيدي الشيخ المحاسني يحيى ، أسمى الله تعالى قدره في الدين والدنيا ،
 كتابان نصّ أولهما : باسمه سبحانه :

١ إشارة إلى قول الشاعر (السمط : ٢٨٨ وذيله : ٨٦ ، ٨٤) :

وإذا تكون كربة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

٢ البيت من قصيدة لعبدة بن الطبيب يرثي فيها قيس بن عاصم (حسامة المرزوقي : ٧٩٠) .

لئن حَكَمْتُ أَيْدِي النَّوَى وَتَعَرَّضْتُ عَوَارِضُ بَيْنِ بَيْنَا وَتَفَرَّقُ
فَطَرَفِي إِلَى رُؤْيَاكُمْ مُتَشَوِّفٌ وَقَلْبِي إِلَى لِقْيَاكُمْ مُتَشَوِّقٌ

يقبل الأرض الشريفة لا زالت مركزاً لدائرة التهاني ، وقطباً لفلك تجري
المجرة في حُجْرَتِهِ عَلَى الدَّقَائِقِ وَالثَوَانِي ، وَلَا بَرَحْتَ أَلْسُنُ الْبَلَاغَةِ عَنْ تَمْيِيزِ
بِرَاعَةِ يِرَاعَةِ حَامِي حِمَاهَا مَعْرَبَةٍ ، وَبِلَابِلِ الْآدَابِ عَلَى الْأَغْصَانِ فِي رِيَاضِ فَضْلِهِ
بِمَثَانِي الثَّنَاءِ صَادِحَةٍ ، وَبِأَلْحَانِ سَجْعِهَا مَطْرَبَةٍ :

أَرْضٌ بِهَا فَلَكُ الْمَعَالِي دَائِرٌ وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالبَدُورُ تَحُومُ
وَلَهَا مِنَ الزَّهْرِ الْمُتَضَدِّ أَنْجُمٌ وَلَهَا عَلَى أَفْقِ السَّمَاءِ نَجْمٌ

عَمَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَسَرَّاتِ مَحَلَّهَا ، وَعَمَّ بِالْخَيْرَاتِ مَنْ حَلَّهَا ، وَيَبْتَدِءُ
بِسَلَامٍ يَخْبِرُ عَنْ صَحِيحِ وَدَّةِ السَّلَامِ ، وَمَزِيدِ غَرَامِ يُوَكِّدُ حَبَّةَ الَّذِي هُوَ لِلْوَلَاءِ
حَازِمٌ ، وَيَنْعَتُ شَوْقاً يَجْرُكُ مَا سَكَنَ صَمِيمِ الضَّمِيرِ ، مِنْ صَدَقِ حَبِّ سَلَمِ جَمْعِهِ
مِنَ التَّكْسِيرِ ، وَيُوَكِّدُ السَّلَامَ بِتَوَابِعِ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ ، وَيَعْرِبُ عَنْ مَحَبَّةٍ مَشِيدَةِ الْبِنَاءِ ،
وَيُنْهِيهِ أَنْ السَّبَبُ فِي تَسْطِيرِهَا ، وَالبَاعِثُ عَلَى تَحْوِيرِهَا ، أَشْوَاقُ أَضْرَمَ نَارَهَا فِي
الْفُؤَادِ ، وَمَحَبَّةٌ لَوْ تَجَسَّمَتْ لَمَلَأَتْ الْبِلَادَ ، وَأَقُولُ :

شَوْقِي لِدَانِكَ شَوْقٌ لَا أَزَالُ أَرَى أَجَدَّهُ يَا إِمَامَ الْعَصْرِ أَقْدَمَهُ
وَلِي فَمٌ كَادَ ذِكْرُ الشَّوْقِ يُحْرِقُهُ لَوْ كَانَ مِنْ قَالَ : نَارٌ ، أَحْرَقَتْ فَمَهُ

هذا وإن تفضّل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باقٍ على ما تشهد
الذات العلية ، مِنْ صَدَقِ الْمَحَبَّةِ وَرِقِّ الْعِبُودِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَزِينُ أَفْقَ الْمَجَالِسِ بِذِكْرِكُمْ ،
وَلَا يَقْتَطِفُ عِنْدَ الْمَحَاضِرَةِ إِلَّا مِنْ زَهْرِكُمْ ، وَلَمْ يَنْسَ حِلَاوَةَ الْعَيْشِ فِي تِلْكَ
الْأَوْقَاتِ الَّتِي مَضَتْ فِي خِدْمَتِكُمْ الْمَحْرُوسَةِ بِعَنَاءِ الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ ، وَلِيَالِي الْأَنْسِ
الَّتِي قِيلَ فِيهَا ، « وَكَانَتْ بِالْعِرَاقِ لَنَا لَيَالٍ » :

واهاً لها من ليالٍ هل تعودُ كما كانت ، وأيُّ ليالٍ عاد ماضيها ؟
لم أنسها مذ نأت عني ببهجتها وأيُّ أنسٍ من الأيام يُنسِيها ؟

فنسأل الله تعالى أن يمن بالتلاق ، ويفصل مانعة الجمع بطي شقة الفراق ،
إن ذلك على الله يسير ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير .

وبعدُ ، فالمعروض على مسامع سيدي الكريمة ، لا زالت من كل سوء
سليمة ، أنه وصلنا مكتوبكم الكريم ، صحة العم المحب القديم ، فحصل لهذا
العبد به جبر عظيم ، وأنس جسيم ، كما شهد بذلك السميع العليم ، فعزمت
على ترك الإجابة ، لعدم الإجابة ، ومتى تبلغ الألفاظ المذمومة ما بلغته الألفاظ
المقرية ؟ وأين يصل صاحب الزمر كما قيل إلى الدقات الخليلية ؟ ولكنني خشيت
من ترك الإجابة توهم نقض ما أبنيه من رق العبودية وصحة الوداد ، ومن
انقطاع برق شيعي الذي هو لبيت شرفي العمدة والعماد ، فلزم من ذلك أن
كتبت لجنابه الشريف الجواب ، وإن كان خطؤه أكثر من الصواب ، وأرسلته
قبل ذلك بعشرة أيام ، ومكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان : أحدهما من
محبتكم شيخ الإسلام المفتي العمادي ، والآخر من محبتكم أحمد أفندي الشاهيني ،
وهما وبقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التام ، ولا تؤاخذونا في هذا
المكتوب فإنني كتبت عَجلاً ، ومن جنابكم خَجلاً ، دام خيركم على الدوام ،
إلى قيام الساعة وساعة القيام ، وحرره يوم الاثنين ١١ من جمادى الثانية سنة
١٠٣٨ ، الفقير الداعي بحبي المحاسني ، انتهى .

ونصّ الكتاب الثاني من المذكور أسماء الله باسمه سبحانه : مخلصك الذي
مَحَصَّ لك وداده ، ومحبك الذي أسلم لمحبتك قياده ، بل عبدك الذي لا يروج
الخروج عن رِقِّك ، وتلميذك الذي لم يزل مغترفاً من فيض علومك ، معترفاً
بحقِّك ، مَنْ أسكنك لبه ، وأخلص لك حبه ، واتخذك من بين الأنام ذخراً
نافعاً ، وكهفاً مانعاً ، ومولى رافعاً ، وشهاباً ساطعاً ، وتشبَّت بأسباب علومك

وتمسك ، يهدي إليك سلاماً كأنما تعطر بمسك ثنائك وتمسك ، واكتسب
من لطف طبعك الرقة ، واستعار من سنا وجهك حلة مستحقة ، ونجدة لم يكن
منه إلا أن تكون بالمواجهة ، والمحاضرة والمشافهة ، على أن فؤاده لم يبرح لك
سكناً ، وأحشاه لك موطناً ، ويبيدي دعوات يحقق الفضل أنها من القضايا
المنتجة ، وأن أبواب القبول لها غير مُرتجة ، مقبلاً أياديك التي وكفت
بوابل جودها ، وكفت المهم بنتائج سعودها ، وحاكت الوشي المرقوم ،
وسلكت الدر المنظوم ، فهذا يرفل في حللها ، وهذا يتحلى بعقودها :

فهني التي تغنو الرياض لرقمها ويغار منها الدر في تنضيدها
ويحار أرباب البيان لنظمها فهم يحضرتها كبعض عبيدها

تمسكاً من ولائك بوثق العرى ، متمسكاً من ثنائك الذي لا يزال الكون
منه معبراً ، متشوقاً للقاءك الذي بالمهج يستام وبالنفوس يشتري ، متشوقاً إلى ما
يرد من أنبائك التي تسر خبراً ، وتحمد أثراً ، أعني بذلك المولى الذي أقام بفناء
القساط مخيماً ، وانتجع حماه رائد الفضل ميمماً ، وشدت لفضائله الرجال ،
ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال ، وطلعت شمس علومه في سماء
القاهرة ، فاخترت نجوم فضلائها والأشعة باهرة :

هو الشمس علماً والجميع كواكب إذا ظهرت لم يبدُ منهن كوكب

فهو العالم الذي سرى ذكره في الآفاق ، مسير الصبا جاذب ذيلها النسيم
الخفّاق ، الذي أطلع شمس التحقيق من أفق بيانه ، وأظهر بدر التدقيق من
تبيانه ، فلهذا عقدت عليه الخناصر بين علماء عصره ، وانعظت إليه الأواصر
من فضلاء مصره ، فلا يضاهيه في ذلك أحد في زمانه ، وينسق ما نسقه من دره
ومرجانه ، فهو المعول عليه في مشكلات العلوم ، معقوها ومنقولها والمنطوق
والمفهوم ، الذي لم تسمح بمثله الأزمان والعصور ، ولم يأت بنظيره تتابع الأعصار

والدهور ، مَنْ عجز لسان القلم ، عن التصريح باسمه الشريف في هذا الرقم ، لا زالت المدارس مشرقة بإلقائه فيها الدروس ، ولا برحت البقعة عامرة بوجوده بعد الدروس ، ما سَطَّرت آيات الأشواق في الصحائف والطروس ، وأرسلت من تلميذ إلى أستاذ بسبب نسبته إليه فحصل على المطلوب من شرف النفوس ، هذا ، والذي يُبْدي لحضرتكم ، وينهي لطلعتكم ، أن الراقم لهذه الصحيفة ، المشرقة ببعض أوصافكم اللطيفة ، المرسله لساحة فضائلكم المنيفة ، هو تلميذكم من تشرف بدرسكم ، وافتخر بإجازتكم ، يبدي لكم تلهفه لئيران أشواقه التي التهبت ، وتأسفه على الأيام السالفة مذهباً في خدمتكم^١ لا ذهبت ، وتوجَّعه لهذه الأزمان التي استرجعت بالبعد عنه من ذمته ما وهبت ، وتطلعه إلى ما يَشْنُفُ به الأسماع من فضائله التي سلبت^٢ العقول وانتهبت ، فلم يزل يسأل الرواة عنها ، ليلتقط منها ، وقد تحقَّق أن فرائدها لا يُلْفِي لها نظيراً ولا يدرك لها كُنْها^٣ ، وكيف لا ومنها يتعلَّم الفاضل اللبيب ، وإليها يفتقر السعيد ويتودَّد حبيب ، وعليها يعتمد ابن العميد ، ولم تنفك راقية في درج المريد ، وعبد الحميد عبد الحميد ، وعِلِّمَ شيخه يحيط بصدق محبتي وإخلاصها ، وشدة حرصي على تحصيل فوائد مولانا واقتناصها ، وأنتي لا أزال ذاكراً لمحاسنه التي ليست في غيره مجموعة ، ومتطعلاً على ثمار أفكاره التي هي لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وخاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك ، فلا يحتاج هذا العبد إلى بيّنة لدى مولانا الأستاذ المالك ، وحقيق على من فارق تلك الأخلاق الغرّ ، والشمال الزُّهر ، والعشرة المشوقة ، والسجايا المومقة ، والفضائل الموفورة ، والمآثر المشهورة ، أن يشقَّ جيَّب السبر ، ويجعل النار حشوا الصدر :

١ أشواقه . . . خدمتكم : سقطت من ق .

٢ ق : سلبها .

٣ ق ودوزي : ولا يدرك كنهها .

وإنّي لتعروني لذكراك هزّةٌ كما انتفضَ العصفورُ بقلبه القطرُ^١
ولو ملكتُ مرادي ، لما اخضرّ إلاّ في ذّراه مرادي ، بل لو دار الفلك
على اختياري ، لما نصّوتُ إلاّ عنده ليلى ونهاري :
ولو نعطى الخيارَ لما افترقنا ولكن لا خيارَ مع الزّمانِ

وتحت ضلوعي لوعة لو كتّمثها لحفّت على الأحشاء أن تنصرماً
ولو بحثُ في كتبي بما في جوائحي لأنطقثها ناراً وأبكيثها دماً

وأنا لا أقترح على الدهر إلاّ لقياه ، ولا أقطع حاضرَ الوقت إلاّ بذكراه ،
وما أعد أيامي التي سَعِدْتُ فيها بلقائه إلاّ مفاتيح السرور ، ومطالع السعود
والحبور ، ولست أعيبها إلاّ بقلّة البقاء ، وسرعة الانقضاء ، وكذلك عمر السرور
قصير ، والدهر بتفريق الأحبة بصير ، وربما اهتزّ العود بعد الذبول ، وطلع
النجم بعد الأفول ، وأدبِلَ الوصال من الفراق ، وعاد العيش المرّ حلّوا المذاق :
وما أنا من أن يجتمعَ الله شملنا كأحسن ما كنّا عليه بآيسر

فأمّا الآن فلا أزجي الوقت إلاّ بقلب شديد الاضطراب ، وجوانح لا تفيق
من التوقد والالتهاب ، وكيف لا وحالي حالُ مَنْ ودّعَ صفو الحياة يوم ودّاعه ،
وانقطع عنه الأنس ساعة انقطاعه ، وطوى الشوقُ جوائحه على غليل ، وحلّ
أضلاعه على كمد دخيل ، وأغرى بي فلزمني ولزمته ، وألف بيني وبين الوجد
فألفيتي وألفته ، فلا أسلك للعزاء طريقاً إلاّ وجدته مسدوداً ، ولا أقصد للصبر
باباً إلاّ ألفتته مردوداً ، ولا أعدُّ اليوم بعد فراق سيدي إلاّ شهراً ، والشهر دون
لقائه إلاّ دَهراً ، ولست بناسٍ أيامنا التي هي تاريخ زماني ، وعنوان الأماني ،
إذ ماء الاجتماع عذب ، وغصن الازديار^٢ رطب ، وأعينُ الحواسد راقدة ،

١ البيت لأبي صخر الهذلي (ديوان الهذليين : ٩٣٠) وينسب أحياناً لغيره .

٢ ق : الازدياد .

وأسواق صروف الدهر كاسدة ، فما كانت إلاّ لمحة الطرف ، ووثبة الطّرف ، ولمعة البرق الخاطف ، وزوارة الخيال الطائف ، وما تذكّر تلك الأيّام في أكناف فضائله ونضرتّها ، ورياض علومه في ظلّه وخضرتها ، إلاّ أوجب على عينه أن تدمع ، وأنثى على كبده خشية أن تصدّع^١ ، ثم لما ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم ، صحبة حضرة العم المحبّ القديم ، فكان كالعافية للصبّ السقيم ، كما يشهد بذلك السميع العليم ، فوقف له منتصباً ، وخفّف عنه برؤيته وصّباً ، وذكر أيام الجمع فهام وجداً وبها صّباً ، فاستخفّه الإعجاب طرباً ، وشاهد صدوره فقال : هكذا تكون الرياض ، وعين لطفه فقال : هكذا تكون الصّباً ، وقبل كل حرف منه ووضعه على الراس ، وحصل له بعد ترقّبه غاية المجاورة^٢ والاستئناس ، فعند ذلك أنشد قول بعض الناس :

وَرَدَ الْكِتَابُ فَكَانَ عِنْدَ وَرُودِهِ عِيداً ، وَلَكِنْ هَيَّجَ الْأَشْوَاقُ
أَلْفَاتُهُ قَدْ عَانَقَتْ صَادَاتِهِ كَعِناقِ مُشْتاقٍ يَخَافُ فِرَاقُ
فَكَأَنَّمَا النُّونَاتُ فِيهِ أَهْلَةٌ وَكَأَنَّمَا صَادَاتُهُ أَحْدَاقُ
فَعَسَى الْإِلَهِ كَمَا قَضَى بِفِرَاقِنَا يَقْضِي لَنَا يَوْمًا بِأَنْ نَتَلَقَى

فجعلته نصب عيني أتسلى به عند استيلاء الشوق على قلبي ، وأطفئ به تأمله نيران وجدي إذا التهب في صدري ، وسُررت به سرور من وجد ضالة عمره ، وأدرك جميع أمانيه من دهره ، وأنست بتصفّحه أنس الرياض بانهلال القطر ، والساري بطلوع البدر ، والمسافر بتعريس^٣ الفجر ، وكيف لا وقد أصبح في وجه الأماني خدّاً ، بل في خدّها ورداً ، وصار حسنة من حسنات دهري ،

١ إشارة إلى قول الصمة القشيري :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثى على كبدي من خشية أن تصدعا

٢ ق : المجاورة .

٣ ق : بتعريسة .

لا يمحو مرور الأيام موضعها من صدري ، وطلعت طوالع السرور وكانت
أقلة ، واهترت غصون الفرح وكانت ذابلة ، لا سيّما لما تضمّن من البشارة
السارة بصحة المولى وسلامته ، وحلوله في منازل عزّة وكرامته ، وموعده الكريم
بعوّده إلى دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام^١ ، مرّة ثانية ، ويتم افتخارها
على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهية ، نسأل الله تعالى أن يحقّق ذلك ، وأن يسلك
بسيدي أحسن المسالك ، إنّه سبحانه وتعالى سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات ،
فإن عوّدكم يا سيدي والله مرّة أخرى هو الحياة الشهيّة ، والأمنية التي ترتجي
النفس بلوغها قبل المنيّة ، وما أنا من الله بآيس من أن يتيح سببا ، يعيد المزار
مقربا ، والشمل مجتمعا ، وحبل البين منقطعا .

ثمّ ليعرض على مسامع سيدي الكريمة ، لا زالت من كل سوء سليمة ، أنا
أوصلنا مكاتيبكم كما أمرتم لأربابها ، لا سيّما مكتوب شيخ الإسلام سيدي عبد
الرحمن أفندي المفتي بالشام ، ومكتوب المولى الأعظم ، والهمام الأفخم ، أحمد
أفندي الشاهيني ، أعزّه الله تعالى فإنّه وقع عنده الموقع العظيم ، وحصل له
به السرور المقيم ، كما يدل على ذلك جوابه الكريم ، المحفوف بالتعظيم والتكريم ،
غير أنّه قد ساءنا ما اتصل بمولانا من نفوذ قضاء الله تعالى الذي يعم ، في البنت
والأم ، فجعل الله تعالى في عمر سيدي البركة ، وكان له في السكون والحركة ،
وماذا عسى أن يُذكر لحنابكم في أمر التعزية ويقرّر ، ومنكم يستفاد مثله وعنكم^٢
يُحرّر ، والأستاذ أدرى بصروف الدهر وتفنّنها ، وأحوال الزمان وتلوّتها ،
وأعرف بأن الدنيا دار لها بسكانها مدار ، وأن الحياة ثوب مستعار ، ونعيم
الدنيا وبؤسها ما لواحد منهما فيها قرّار ، وأن لكل طالع أفولا ، ولكل ناضر
ذبولا ، ووراء كل ضياء ظلاماً ، ولكل عروة من عرى الدنيا انفصاماً ، فهو

١ ق : صوب الفحام .

٢ عنكم : سقطت من ق .

محلّ لأن يقوى في العزاء عزائمه ، ويصغر في عينه نواب الدهر وعظائمه ، ويغنيه عن عِظّة نجد له مقالاً ، وتحلّ عن عقله عِقلاً ، وهو يتلقّى المصائب ، بفكر ثاقب ، وفهم صائب ، وصبر يقصر عنه الطّوّد الأشم ، وعزم ينفلق دونه الصخر الأصم ، وحلم يَرَجَحُ إذا طاشت الأحلام ، وقَدَمٍ تثبّت إذا زلت الأقدام ، ومدّ المقال في ضرب الأمثال ، إلى جنابكم الشريف نوعٌ من تجاوز حدّ الإجلال ، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذه المصيبة خاتمة ، ولا يُريه بعدها إلاّ دولة قائمة ونعمة دائمة ، وأن يحرسه من غير الليل والنّهار ، ويجعله وارث الأعمار بجاه نبينا محمد المختار ، صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه الأطهار ، بمنّه وكرمه .

ثمّ أبلغ سيدي - أطال الله عمره ، وشرح صدره ، ونشر بالخير ذكره - السلام التام ، المقرون بألف تحية وإكرام ، من أهل البلدة جميعاً ، لا سيّما من مفتيها العِمادي ، حرس الله ذاته التي هي منهل للصادي والغادي ، وأولاده الكرام ، المستحقين للإعزاز والإكرام ، ومن كبيرها ، ومدبرها ومشيرها ، أحمد أفندي الشاهيني ، أعزه الله تعالى بعزه ، وجعله تحت كنفه وحِرْزه ، ومن خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسي ، ونقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين ، وجميع المحبّين الداعين لذلك الجنب ، والمتمسّكين بثراب تلكم الاعتبار ، ومن الوالد والعم ، والله يا سيدي إنّه ناشرٌ لواء الثناء والمحامد ، وداعٍ لذلك الجنب الكاسب للمفاخر والمحامد ، وحضرة شيخنا شيخ الإسلام وبركة الشام ، مولانا وسيدنا الشيخ عمر القاري ، أبقى الله تعالى وجُوده ، وضاعف علينا إحسانه وجُوده ، وأولاده يسلمون عليكم السلام الوافر ، وينهون لكم الشوق المتكاثر ، وحُرّر في ٢ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، المحبّ الداعي يحيى المحاسني ، انتهى .

وكتب إليّ عمّه الفاضل الأسمى ما صورته : باسمه سبحانه وتعالى :

ولَآتِي لِمَشْتَاقٍ إِلَى وَجْهِكَ الَّذِي تَهَلَّلَهُ أَهْدَى السَّاءِ إِلَى الْبَدْرِ
وَأَخْلَاقِكَ الْغَرَّ الْوَاتِي كَأَنَّهَا تَسَاقُطُ أُنْدَاءُ الْغَمَامِ عَلَى الزَّهْرِ

سَيِّدِي الَّذِي عُبُودِيَّتِي إِلَيْهِ مَصْرُوفَةٌ ، وَدَوَاعِي مَحَبَّتِي لَدَيْهِ مَوْفُورَةٌ وَعَلَيْهِ
مَوْقُوفَةٌ ، عِلْمُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَتَنِي لَا أَزْجِي أَوْقَاتِي إِلَّا بِذِكْرِهِ ، وَلَا أَرْجِي الْيَمْنَ
مِنْ سَاعَاتِي إِلَّا بِاسْتِشْقِ نَسِيمِ رِيَّاهُ ، وَأَتَنِي إِلَى طَلْعَتِهِ أَشَوْقٌ مِنَ الصَّادِي إِلَى
مَاءِ صَدَاءٍ^١ ، وَمِنْ كَثِيرِ عِزَّةٍ إِلَى نَوَى تِيْمَاءٍ :

يُرْتَحَنِي إِلَيْكَ الشَّوْقُ حَتَّى أَمِيلَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّمَالِ
وَيَأْخُذْنِي لَذَكَرَاكَ اهْتِزَازٌ كَمَا نَشَطَ الْأَسِيرُ مِنَ الْعِقَالِ

وَلِي عَلَى صَدَقِ هَذِهِ الدَّعْوَى مِنْ نَبَاهَةِ لَبِّهِ شَاهِدٌ مُعَدَّلٌ ، وَمِنْ نِزَاهَةِ
قَلْبِهِ مُزَكَّ غَيْرُ مَلُومٍ وَلَا مُعَدَّلٌ ، كَيْفَ لَا وَمَطَالَعُ الْبَيَانِ مَشْرِقُهَا مِنْ أَفْلَاكِ
فَهْوَمِهِ ، وَجَوَاهِرِ التَّبْيَانِ مَقْدَفُهَا مِنْ بَحَارِ عُلُومِهِ ، وَهُوَ بَحْرُ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يُقْتَحَمُ
بِسُفْنِ الْأَفْكَارِ ، وَجَبَلُ الْحِلْمِ الَّذِي رَسَخَ بِأَهْلِيَّةٍ وَالْوَقَارِ :

لَوْ اقْتَسَمَتِ أَخْلَاقُهُ الْغَرَّ لَمْ تَجِدْ مَعِيًّا وَلَا خَلْقًا مِنَ النَّاسِ عَائِبًا
وَمَاذَا عَسَى أَصْفَ بِهِ مَوْلَانَا وَقَدْ عَجَزَ عَنْ وَصْفِهِ لِسَانُ كُلِّ وَاصِفٍ ،
وَحَارَ فِي بَثِّ فِضَائِلِهِ أَرْبَابُ الْمَعَارِفِ وَالْعَوَارِفِ :

فَلَوْ نَظَّمْتُ الثَّرِيَّا وَالشَّعْرِيَيْنِ قَرِيضًا
وَكَاھِلَ الْأَرْضِ ضَرْبًا وَشَعْبَ رَضْوَى عَرُوضًا
وَصَفْتُ لِلدَّرِّ ضِدًّا وَلِلْهَوَاءِ نَقِيضًا

وَلَكِنِّي أَقُولُ : الثَّنَاءُ مَنْجَعٌ أَنْتَى سَلَكُ ، وَالسَّخِيُّ جُودُهُ بِمَا مَلَكَ ، وَإِنْ
لَمْ يَكُنْ خَمْرُ فُخْلٍ ، وَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ . هَذَا ، وَقَدْ أَوْصَلْنَا مَكَاتِيكُمْ

١ صداء : اسم ماء جرى فيه المثل : « ماء ولا كصداء » .

الشريفة لأربابها ، فكانت لديهم أكرم قادم ، وأشرف منادم ، وقد تدّاولها الأفاضل وشهدوا أنها من بنات الأفكار ، التي لم يكشف عنها لغير سيدي حُجُب الاستتار ، وقد وجدنا كلاً منهم ملتهباً بجمرات الشوق ، متجاوزاً حدّ الصبابة والتوق ، ليس لهم شغل إلاّ ذكر أوصافكم الحميدة ، وبثّ ما أبدىتموه بدروسكم المفيدة ، وما منهم إلا ويرجو بئلاً الصدى ونقّع الظما برؤية ذلك المحيّا ، والتملّي بتلك الطلعة العليا . وإن سألت سيدي عن أخبار دمشق المحروسة ، دامت ربوعها المأنوسة ، فهي والله الحمد منتظمة الأحوال ، أمنها الله من الشرور والأهوال ، ولم يتجدد من الأخبار ما نُعلّم به ذلكم الجنب ، لا زال ملحوظاً بعين عناية ربّ الأرباب ، وأنا أسألُ الله تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحداث ، وأن يحمي تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران :

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضيفَ إليها ألفَ آمينا

وهذا دعاء للبرية شامل - العبد الداعي ، بجميع البواعث والدواعي ، تاج الدين المحاسني ، عفا الله تعالى عنه ، انتهى .

وبالهامش ما صورته : وكاتب الأحرف العبد الداعي محمد المحاسني يقبّل يدكم الشريفة ، ويخصكم بالسلام الوافر ، ويبثّ لديكم الشوق المتكاثر ، غير أنه قد نازعته نفسه في ترك المعاتبة ، لسيدته الذي لم يُسعد عبده منه بالمكاتبة ، على أنها مكاتبة تُحكّم عقد العبوديّة ، ولا تخرج رقبتّه من طوق الرقيّة ، والمطلوب أن ينخصه سيده وشيخه بدعواته المستطابة ، التي لا شكّ أنها مستجابة ، كما هو في سائر أوقاته ، وحسبان ساعاته ، ودمم ، وحرّر في رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ ، انتهى .

وكتب سيدي التاج المذكور لي ضمن رسالة من بعض الأصحاب ما صورته :

يا فاضلَ العصرِ يا مَنْ للشرق والغرب شرف

يا أَحْمَدَ النَّاسِ طُرّاً في كُلِّ ما يَتَصَرَّفُ
يُهْدِي إِلَيْكَ مَحَبُّ دَمْعُهُ تَتَذَرَّفُ
شَوْقاً وَودّاً قَدِيماً مُنْكَرّاً يَتَعَرَّفُ

ولنختم مخاطبات أهل دمشق لي بما كتبه لي أُوحد الموالى الكبراء ، السري ،
عين الأعيان ، صدر أرباب البلاغة والبيان ، مولانا أحمد الشاهيني السابق الذكر
في هذا التأليف مرات ، ضاعف الله تعالى لديه أنواع المبرات والمسرات ، آمين ،
ليكون مسكاً للختام ، إذ محاسنه ليس بها خفاء ولا لها انكثام ، ونصّ محل
الحاجة منه هو الفياض :

« يا سيّداً أحرز خَصْلَ العُلا	بالباس والرأي السديد الشديد
وَمَنْ على أهل النّهي قد علا	بطبّعه السامي المجيد المجيد
ومن يَزِينُ الدهرَ مِنْهُ حلى	قولٍ نظيمٍ كالفريدِ النَّصِيدِ
ومن صدّا فكري مِنْهُ جلا	نَظْمٌ له القلبُ عميد حميد
وَمَنْ له من يوم قالوا « بلى » ١	في مُهجتي حُبٌّ جديدٌ مزيد
وَمَنْ غدا بينَ جميع المّلا	بالعلم والحلم الوحيد الفريد
أفديك بالنفس مع الأهل لا	بالمال ، والمالُ عَتِيدٌ عديد

أقسم بالله الذي علت كلمته ، وعمّت رحمته ، وسحّرت القلوب والعقول
رأفته ومحبته ، وجعل الأرواح جنوداً مُجَنَّدَةً فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر
منها اختلف ، أنتي أشوق إلى تقبيل أقدام شيخني من الظمآن للماء ، ومن الساري
لطلعة ذُكاء ، وليس تقبيل الأقدام ، ممّا يَدْفَعُ عن المشوق الأوام ، وقد
كانت الحال هذه وليس بيني وبينه حاجز إلا الجدار ، إذ كان حفظه الله تعالى
جارّ الدار ، فكيف الآن بالغرام ، وهو حفظه الله تعالى بمصر وأنا بالشام ،

١ قالوا : بلى ، أي عندما سأل الله الخلق « أَلست بربكم ؟ » .

وليس غيبة مولانا الأستاذ عنا ، إلا غيبة العافية عن الجسم المضنى ، بل غيبة الروح ، عن الجسد البالي المطروح ، ولا العيشة بعد فراقه ، وهجر أحبابه ورفاقه ، إلا - كما قال بديع الزمان - عيشة الخوت في البر ، والثلج في الحر ، وليس الشوق إليه بشوق ، وإنما هو العظم الكسير ، والتزع العسير ، والسم يسري ويسير ، وليس الصبر عنه بصبر ، وإنما هو الصاب والمصاب ، والكبد في يد القصاب ، والنفس رهينة الأوصاب ، والحين الحائن وأين يصاب ، ولا أعرف كيف أصف شرف الوقت الذي ورد فيه كتابُ شيخِي بخطه ، مزيناً بضبطه ، بلى ، قد كان شرف عطارد ، حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندي كل شارد ، وأما خطه فكما قال الصاحب بن عباد : أهذا خط قابوس ، أم جناح الطاووس ؟ أو كما قال أبو الطيب :

من خطه في كل قلب شهوةٌ حتى كأنَّ مداده الأهواءُ

وأنا أقول ما هو أبعد وأبرع ، وفي هذا الباب أنفع وأجمع : بل هو خط الأمان من الزمان ، والبراعة من طوارق الحدثن ، والحرز الحريز ، والكلام الحر الإبريز ، والجوهر النفيس العزيز ، وأما الكتاب نفسه فقد حسدني عليه إخواني ، واستبشر به أهلي وخيلائي ، وكان تقبيلي لأماله ، أكثر من نظري فيه ، شوقاً إلى تقبيل يد وشته وحشته ، واعتياداً للثم أنامل جسته ومسسته ، وأما البراعة ، فلا شك أنها ينبوع البراعة ، حتى جرى من سحر البلاغة منها ما جرى :

فجاء الكتابُ كسحر العيون بما راح يسبي عقولَ الورى
وينادي بإحراز خصل سحر البيان من الثريا إلى الثرى ، ولم أر كتاباً قبلُ تكون محاسنه متداخلة مترادفة ، ولطائفه وبدائعه متضاعفة متراففة ، وذلك لأنه سرد من غرر درره الأحاسن ، وورد على يد رأس أحبابنا تاج بني محاسن :
أولئك قومٌ أحرزوا الحسن كله فما منهم إلا فتى فاق في الحسن

وكما قلت فيهم أيضاً :

فبنو المحاسن بيننا كبنى المنجم في النجابه
فهمُ القرايةُ إن عدمت من الأنام هوى القرايه
فيهم محاسنُ جمّة منها الخطابة والكتابه

ثم لم يكتف سيدي وشيخي بما أنعم به ، وأحسن بكتبه ، من كتابه المزين بخطه ، المبين بضبطه ، المسمى بين أهل الوفاء ، بكتاب الأصفياء ، حتى أضاف إليه كتاب الشفاء ، في بديع الاكتفاء ، كأنه لم يرض طبعه الشريف المفرد المستثنى ، إلا أن تكون حسناته لدى أحبابه مثني مثني ، حتى كأن مراده بتضعيف هذا الإكرام والإحسان ، تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بمحصر البيان وعقد اللسان ، إذ لست ذا لسانين ، حتى أودّي شكر إحسانين ، وغايةُ البليغ في هذا المضمار الخطير ، أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير .

ومن فصول هذا الكتاب ما نصّه : « ومن باب إدخال السرور على سيدي وشيخي وبركتي خبر المدرسة الداخلية التي تصدى لها ذلك المولى العظيم ، والمسيد الحكيم ، صدرُ الموالي ، وروثُ الأيام والليالي ، سيدي وسندي ، وعمادي ومعتمدي ، الفهامة شيخي أفندي ، المعروف بالعلامة ، حفظه الله ، ووقاه وأبقاه ؛ الذي صدق عليه وعليّ قولُ الأول :

ولي صديقٌ ما مسّني عَدَمٌ مذ وَقَعَتْ عينُهُ على عَدَمِي
أَغْنَى وَأَقْنَى فَمَا يُكَلِّفُنِي تَقْصِيلَ كَفٍّ لَهُ وَلَا قَدَمِ
قَامَ بِأَمْرِي لَمَّا قَعَدْتُ بِهِ وَنَمْتُ عَنْ حَاجَتِي وَلَمْ يَنْمِ

وقول الثاني :

صديقٌ لي له أدبٌ صداقةٌ مثليهِ نَسَبُ
رَعَى لي فوق ما يُرْعَى وأَوْجَبَ فوق ما يجبُ

فَلَوْ نُقِدَتْ خَلَاتِقُهُ لِبَهْرَجَ عِنْدَهَا الذَّهَبُ

ولعمري إنه كذلك قد تصدّى لحاجتي فقَضَاها ، ولحجّتي فأَمْضَاها ، ولم يكن لي في الروم سواه وسواها ، وما أصنع بالروم ، إذا تخلّف عني ما أروم ، أبى الله إلاّ أن ينفعني ذلك الحرُّ الكريم بنهيه وأمره ، وأن يكون بياني وبنائي مرتبطين بحمده وشكره ، وهذه حاجة في نفسي قضيتها ، وأمنية رُضيت بها وأَرْضيتها ، والله الحمد .

ولست أحصي ، ولا أستقصي ، يا سيدي ومولاي ، شوقَ أخيكُم سيدي ومولاي المفتي العُمادي ، حفظه الله تعالى وإياكم ، وقد بلغ به شوقه وغرامه ، وتعطّشه وأوامه ، أن أفرد بلحّاب مولانا كتاباً ، يستجلب مفخراً وجواباً ، إذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف والسلام ، وكذلك أولاده الكرام ، تلامذتكم يقبّلون الأقدام . وأما محبكم وصديقكم الشيخ البركة شيخ الإسلام مولانا عمر القاري فقد بلغته سلام سيدي ، فكان جوابه الدعاء والثناء ، مع العزيمة عليّ بأن أبالغ بلحّابكم الكريم في تأدية سلامه ، وتبليغ ما يتضمنه من المحبة الخالصة فصيح كلامه . وأما الكريميّان ولدكم محمد أفندي وأخوه سيدي أكمل الدين ، فهما لتقبيل أقدامكم من المستعدين . وكذلك لا أحصي ما هما عليه من الدعاء والثناء بلحّابكم الكريم العالي ، تلميذاكم بل عبداكم ولدنا الشيخ يحيى ابن سيدي أبي الصفاء ، وولدنا الشيخ محمد ابن سيدي تاج الدين المحاسنيان . وأما عبداكم وتلميذاكم ولداي الشيخان الداعيان الأخوان الشيخ عبد السلام والقاضي نعمان ، فليس لهما وظيفة إلا الدعاء والثناء ، في كل صبح ومساء ، لأن كلاّ منهما خليفتي ، والاشتغال بالدعاء لسيدي وظيفتي ، ولا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين ، ولا بد من تقبيل القدمين المباركتين . وبعد ، فلا ينقضي عجبني من بلاغة كتابكم الشريف الوارد بلحّاب أخيكُم المفتي العُمادي حفظكم الله تعالى وإيّاها ، ولا كان من يَشْنَاك وَيَشْنَاهُ ، وعجبه به أعظم وأكبر ،

إذ هو — حفظه الله — بفهم كلام سيدي أحقُّ وأجدر ، فلا عدمنّا تلك الأنفاس
الملكية الفلكية ، من كل منكما إذ هي والله البغية والأمنية ، كما قلت :

ليس فخري ولا اعتدادي بدهرٍ غير دهر أراكُمَا مِن بَنِيهِ

اللهم اختم هذا الكلام ، للقبول التام ، بالصلاة على سيدنا محمد وآله
الطيبين الطاهرين .

ومن فصول هذا الكتاب ما صورته : « أطال الله يا سيدي بقاءك ، ولا كان
من يكره لقاءك ، ورعاك بعين عنايته ووقاك ، وأدامك وأبقاك ، وضمن لك جزاء
الصبر ، وعوّضك عن مصابك الخير والأجر ، ولقد كنت عزمت على أن أجعل
في مصاب سيدي بأمه ، متّع الله بعمره وعلمه ، ودفع عنه سؤرة همّه وغمّه ،
قصيدة تكون مرثية ، تتضمن تعزية وتسلية ، فنظرت في مرثية أبي الطيب المتنبي
لأمه ، واكتفيت بنظمها ونثرها ، وعقدتها وحلها ، وانتخبت قوله منها :

لك الله من مفجوعة بحبيها قتيلة شوقٍ غير مكسبها وصما

ومنها :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كوثك لي أما
لئن لدّ يومُ الشامتين بيومِها لقد ولدتُ مني لأنفهم رَغما

فقلت : هذه حال مولانا الراغم لأنوف الأعدا ، المجدّد لأسلافه حمداً
ومجداً ، القاتل بشوقه لا خطأ ولا عمداً ، ثم إنّي لما رأيتُ قوله في مرثية أخت
سيف الدولة :

إن يكن صبرُ ذي الرزية فضلاً تكن الأفضّل الأعزّ الأجلاً
أنت يا فوق أن تُعزّي عن الأح باب فوق الذي يُعزّيك عقلاً
وبأنفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذي له قلت قبلاً

قَدْ بَلَّوْتَ الخطوبَ حُلُوءاً وَمُرّاً وَسَلَكْتَ الأيامَ حَزْناً وَسَهْلاً
وَقَتَلْتَ الزَّمانَ علماً فما يغربُ قولاً وما يجددُ فعلاً

قلت : هذه والله حلى مولانا الأستاذ الذي عرف للزمان فعله ، وفهم قوله ،
قد استعارها أبو الطيّب وحلّى بها مخدومه سيف الدولة ، وكيف أستطيع إرشاد
شيخي لطريق الصبر ، وأذكّره بالثواب والأجر ، وكيف وأنا الذي استقيتُ
من ديمِهِ ، واهتديت إلى سبيل المعروف بشيَمِهِ ، وسلكت جادة البراعة
بهداية ألفاظه ، وارتقيت إلى سماء البلاغة برعاية ألاحظه ، وهل يكون التلميذ
معلماً ، وهل يرشد الفرخ قَشْعَماً ، وكيف يعضد الشبل الأسد ، وهو ضعيف
المنّة والمدد ، ومن يعلم الثغر الابتسام ، والصدر الالتزام ، ويختبر الحسام ،
وهو مجرب صَمَصام ، وهل تفتقر الشمس في الهداية إلى مصباح ؟ وهل يحتاج
البدر في سُرّاه إلى دلالة الصباح ؟ ذلك مثل شيخي ومثل من يرشده إلى فلاح
أو نجاح ، وإنّما نأخذ عنه ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة ، ونحذو حذوه
في الطريق الموصلة إلى الجنة ، ثم لما وصلت في هذه القصيدة إلى قول أبي الطيّب :
إنَّ خيرَ الدَّموعِ عيناً لَدَمْعٍ بَعَثَتْهُ رِعايةٌ فَاسْتَهَلَّتْ

رأيتُه قد أبدع فيه كل الإبداع ، ونظم ما يكاد يجري الدمع من طريق
السماع ، فقلت : إنّ الله ، وأكثر الاسترجاع ، وقلت في نفسي : إنّ ذلك
الدمع الذي بعثته رعاية الحقوق ، هو دمع شيخي الذي حمى الله قلبه الشفوق
من العقوق ، للمصيبة في الأم ، التي حزنها يغم ، ومصاها يعم ، وكيف لا يعننا
مصاها ، وقد كمل للمصيبة كفاها الله بموتها نصابها ، هذا مع الفقد للسليلة
الخليلة ، والكريمة الخليفة ، وأي دمع لم تبعثه تلك الرعاية ؟ وأي نفس لا تتمنى أن
تكون لسيدنا من كل ما يكره وقاية ؟ وأي كبد قاسية ، لم تكن لأحبابها مؤاسية ؟
وأنتي يَتَسَنَّى ، للعبد المَعْنَى ، تسلية شيخه وهو الصبور الشكور ، العارف
بالأمور ، العالم بتصاريف الدهور ؟ وما ظننت أن بتاني ، يساعطني على تحرير

بياني ، لتعزية شيخي ، حفظه الله تعالى في أصله وفرعه ، وضُرْعِه وزَرْعِه ، وفرعه ونبتِه ، وأمه وبنته ، أما الوالدة الماجدة فإنّي إن أمسكت عن بيان كرم أصلها ، يسمو بها كرم فرعها ونسلها ، فرحم الله تعالى سَلَفَها ، وأبقى خَلَفَها ، ولا حرم سيدي ثمرة رضاها ، ورضي عنها وأرضاها ؛ وأمّا المخدّرة الصغيرة ، فالمصيبة فيها كبيرة ، إذ العمومة مَقَرّية ، والخوولة وقائية ، فهي ذات النّجّارين ، وحائِزة الفخارين ، كأن سيدي - أعزّه الله تعالى - لم يرض لها كفوّاً ومهرّاً ، فاختار القبر أن يكون له صِهْرّاً ، وخِطْبَةُ الحِمَام لا يمكن ردها ، وسطوة الأيام لا يستطاع صدها ، كما قال أبو الطيّب المتنبي أيضاً :

خِطْبَةُ الحِمَام ليسَ لها رَدٌّ وإن كانت المسمّاة تُكَلِّلا
وإذا لمْ تجد من الناس كفوّاً ذاتُ خِدرٍ أرادت الموتَ بَعَلا

أسأل الله تعالى أن تكون هذه الخِطْبَةُ قافية الخطوب ، وهذا النَّدْبُ المبرِّحُ آخرَ الندوب ، وأن يعوض سيدي عن حبيبه المبرقع المقنّع ، حبيباً معممّاً تتحرى النجابة منه المصنع ، وأن يبدله عن ذات الخمار والخضاب ، بمن يَصُول بالحِرَاب ، ويسطو باليراع ويشغل بالكتاب :

وما التأنيثُ لاسمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

اللهم يا أرحم الراحمين ، إنّي أتوسّل إليك بنبيّك محمد صلى الله عليه وسلّم وآله الطيّبين الطاهرين ، أن تأخذ بيد عبدك شيخي المقريّ في كل وقت وحين ، آمين .

ومن فصول هذا الكتاب ما صورته : « ولما وصلني سيدي بهديته التي أحسن بها من كتاب الاكتفاء ، داخلَ طبعي الصفاء ، ونشطت إلى نظم بيتين فيهما التزام عجيب لم أر مثله ، وهو أن يكون اللفظُ المكفَى به بمعنى اللفظ المكفَى منه ، فإن الاحتفاء والاحتفال بمعنى الاعتناء ، كما أفاده شيخي ، فيكون على

هذا الاكتفاء وعدمه على حدّ سواء ، إذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لأغنى عنه لفظ الاحتفاء ، مع تسمية النوع فيهما ، وهما :

إِنَّ احْتِفَالَ المرءِ بالمرءِ لَا أَحِبَّهُ إِلَّا مَعَ الْاِكْتِفَاءِ
مِبَالِغَاتُ النَّاسِ مَذْمُومَةٌ فَاسْلُكْ سَبِيلَ الْقَصْدِ فِي الْاِحْتِفَاءِ

ولقد انقطع الثلج أيام الحريف ، وكانت الحاجة إليه شديدة بعد غيبة سيدي حفظه الله تعالى عن دمشق ، فتذكرت شغف شيخي به ، فزاد على فقد غرامي ، وفاض عليه تعطشي وأوامي ، فجعلت في ذلك عدة مقاطيع ، وأحببت عرضها على سيدي : أولها :

ثَلْجُ يَا ثَلْجُ يَا عَظِيمَ الصِّفَاتِ أَنْتَ عِنْدِي مِنْ أَعْظَمِ الْحَسَنَاتِ
مَا بَيَاضٌ بَدَا بِوَجْهِكَ إِلَّا كَبَيَاضٍ بَدَا بِوَجْهِ الْحَيَاةِ

ثانيها :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا ضَلَّ عَنِّي رَشْدِي وَمَا رَأَيْتُ الثَّلْجَ يَوْمًا عِنْدِي
لَا تَقْطَعِ اللَّهُمَّ عَنِ ذَا الْعَبْدِ أَعْظَمَ أَسْبَابِ الثَّنَا وَالْحَمْدِ

ثالثها :

ثَلْجُ يَا ثَلْجُ أَنْتَ مَاءُ الْحَيَاةِ ضَلَّ مِنْ قَالَ ضَرَّ ذَاكَ لَهَا تِي
مَا بَيَاضٌ بَدَا بِوَجْهِكَ إِلَّا كَبَيَاضٍ قَدْ لَاحَ فِي الْمِرْآةِ
قَدْ رَأَى النَّاسُ وَجْهَهُمْ فِي الْمَرَايَا وَأَنَا فِيكَ شِمْتُ وَجْهَ حَيَاتِي

وما عللت سيدي هذا التعليل ، إلا لأشوقه إلى نسيم دمشق الذي خلفه سيدي حفظه الله عليلًا وهو على الصحة غير عليل ، ولم يشف أعزّه الله تعالى منه الغليل ، ولسيدي الدعاء بطول البقاء والارتقاء ، وهذه أبيات أهدتها العبد في وصف القهوة ، طالباً من سيده أن يغفر خطأه فيها وسهوه :

وقَهْوَةٌ كَالْعَنْبَرِ السَّحِيقِ سَوْدَاءٌ مِثْلَ مَقْلَةٍ الْمَعشُوقِ
أَتَتْ كَسْكَ فَانْحَ فَتَبِقِ شَبَّهَتْهُا فِي الطَّعْمِ بِالرَّحِيقِ
تُدْنِي الصَّدِيقَ مِنْ هَوَى الصَّدِيقِ وَتَرْبِطُ الْوَدَّ مَعَ الرِّفِيقِ
فَلَا عَدَمْتُ مَرْجَهَا بِرِيقِي

وما زلتُ ألهجُ بما أفادَنِيه شَيْخِي مِنْ أَمَالِيهِ ، وَأَنْصَفُحِ الدَّهْرَ الَّذِي جَمَعْتَهُ
عَنْهُ مِنْ أَسَافِلِهِ إِلَى أَعَالِيهِ ، وَأَسْتَشْكِلُ عَلَى الْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ فِي أَثْنَاءِ الْمَسَامِرَةِ ،
مَا أَفَادَنِيهِ سَيِّدِي مِنْ تَسْمِيَةِ الْمَرْحُومِ الْقَاضِي التَّنُوخِيِّ كِتَابَهُ « نَشْوَارِ الْمَحَاضِرَةِ »
حَتَّى ظَفَرْتُ بِأَصْلِهَا فِي الْقَامُوسِ فِي مَادَّةِ « نَشْر » ، فَلِذَا هِيَ عَرَبِيَّةٌ مُحَضَّةٌ ، فَإِنَّهُ
قَالَ : « وَنَشَوَّرَتِ الدَّابَّةُ نِشْوَارًا : أَبْقَتْ مِنْ عِلْفِهَا » ، وَلَقَدْ تَعَجَّبْتُ مِنْ بِلَاغَةِ
هَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَعُدُوْبَتِهَا ، وَحَسَنِ الْمَجَازِ فِيهَا مَعَ سِلَاسَتِهَا وَسَهُولَتِهَا ، وَأُحِبِّيتُ
عَرَضُهَا عَلَى شَيْخِي حَفْظَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيَفْرَحَ لِي بَيْنَ تِلَامِذَتِهِ كَمَا فَرَحَ طَبْعِي بِهِ
حَفْظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسَاتِذَتِهِ ، وَلِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَنْسَ مَا أَفَادَنِيهِ فِي خِلَالِ الْمَحَاوِرَةِ ،
أَيَّامَ الْمُؤَانَسَةِ وَالْمَجَاوِرَةِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيرِي ، فِي ضَمِيرِي ، وَكَلِيمِي ، مَا بَيْنَ
عَظَمِي وَأَدِيمِي :

يُدِيرُوتَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأَدِيرُهُمْ وَجِلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ

• • •

الطَّرْسُ طَمَا وَمَا مَضَّتْ قِصَّتُنَا لَا ذَنْبَ لَنَا حَدِيثُنَا لَذًا فَطَالُ

وَحَرَّرَ يَوْمَ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ غُرَّةَ جَمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ شَهْوَرِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ
بَعْدَ الْأَلْفِ ، أَحْسَنَ اللَّهُ خَتَامَهَا بِحَرْمَةِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، وَحَسْبُنَا
اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ ، نَعْمَ الْمَوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، عَبْدُهُ الْفَقِيرُ
الْحَقِيرُ الْمُشْتَاقُ ، الْمَذْنُوبُ الْمُقْصِرُ لِسَيِّدِهِ عَنِ الْحَقِّ ، الَّذِي لَمْ يَبْرَحْ عَنِ الْعَهْدِ الْمُتَيْنِ ،
أَحْمَدُ الشَّامِيُّ بْنُ شَاهِينَ » أَنْتَهَى .

وَلَوْ تَبَعْتُ مَا لَهُ حَفْظَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النِّظْمِ وَالنَّثْرِ ، لَلَّذِينَ غَلَبَ فِيهِمَا بُلْغَاءُ

أهل العصر ، بالشام ومصر ، وغيرهما من الأقطار ، لا زال مقامه مقضيّ
الأوطار ، لاستوعبت الأسفار ، وفي الإشارات ما يُغني عن الكلم ، وقد تقدم
في خطبة هذا التصنيف ، ذكر شيء من نظمه ونثره وأتته هو السبب الداعي إلى
جمع هذا التأليف ، والله سبحانه يديم جنبه السريّ الشريف ، ويُبَوِّثه من العزّ الظلّ
الوريف ، فلقد أولى من الحقوق ما لا نُؤدّي بعضه فضلاً عن كله ، وناهيك بما
جلبناه من كلامه دليلاً على شرفه وفضله .

ورسالته هذه إلي كانت جواباً عن مكتوب كتبته إليه من جملته :

يا مَنْ لَهُ طائرُ صيتٍ عَلا	في الجوّ فاصطاد الشريدَ الشديد
يا نجلَ شاهينَ البديعِ الحلي	تَمَلَّ بالعزّ الطويلِ المديد
وفزّ بِخِصْلِ السَّبَقِ بينَ الملا	وسرّ بِنَهْجِ للمَعالي سديد
ورِدَ معَ الأَحابِ عذبا حَلا	مُنْتَظَماً من الأمانِ البديد
وارفلَ على طولِ المدى في مُلا	مسرّة راقِةً وعزّ جَدِيد
والوالدُ المحروسُ بالله ، لا	بعُدّة الخلق ولا بالعديد

ومن نثرها : « سيدي الذي في الأجياد من عَوَارِفِه أطواق ، وفي البلاد
من مَعَارِفِه ما تشهد به الفِطْرَةُ السليمة والأذواق ، وتشتدُّ إلى مجده المطنب
الذي لا يحيطُ لَهُ رواقُ الأشواق ، وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الأسواق ،
وتنقطع دون نَداه السحب السواكب ، وتَقْصُرُ عن مَداه في السَّمو الكواكب ،
والله سبحانه له واق ، المولى الذي أَلقت إليه البلاغة أفلاذها ، واتخذت البراعة
طاعته عصمتها وملاذها ، إذ بذّ أفرادها وأفذاذها ، وأمطرت سماء أفكاره ،
على كل محبّ أو كاره ، طائر في جو أو مستقر في أوكاره ، صبيها ورذاذها ،
وفاخرت دمشقُ بعُلاه وحلاه أقطارَ البسيطة وبغذاذها » .

ومنها : « أبقاه الله تعالى وحقيقة وعوده ينمقها النجاز ، وحقيقة سعوده
لا يطرُقها المجاز » .

ومنها : « فانت الذي نَفَسْتَ عني مُخَنَّقًا ، وأصفيت مشربي وكان مُرَتَّقًا ، وكأثرت بما به أثرت ، وما استأثرت - رَمَلَ النقا ، فلو رآك المأمون ابن الرشيد ، لعلم أنك الممتنى ببيتِي الغناء الذي غني به والنشيد :

ولأنِّي لمشتاق إلى قرب صاحب يَرُوق ويصفو إن كدرتُ لَدَيْهِ
عذيري من الإنسان لا إن جَفَوْتُهُ صفا لي ، ولا إن كنت طوع يديه

ولم يقل : أعطني هذا الصديق وخُذْ مني الخلافة ، وأنا أقول : قد ظفرنا به بحمد الله ولم أجد أحداً في دهره وافقَ الغرضَ فلم نر خلافة .

ومنها : « فهذه يا ابن شاهين أياديك البيض ، تُفْرِخُ لك الشكر وتبيض ، فلا دليل على ولائي ، كإملائي ، ولا شاهد لما في أحنائي ، كثنائي ، ولا حجة على ودادي ، كتكراري ذكرك وتردادي .

وهي طويلة ، لا يحضرني الآن منها سوى ما ذكرته .
ولنقتصر من مكاتبات أعيان العصر من أهل دمشق المحروسة على هذا المقدار ، ونسأل الله تعالى أن يحفظهم جميعاً في الإيراد والإصدار .

* * *

[رسائل من المغرب ترد للمؤلف]

وفي تاريخ ورود هذه المكاتيب الشامية السابقة عليّ ، اتفق ورودُ كتب من المغرب ، وجهها جماعة من أعيانه إليّ .

فمن ذلك كتاب كتبه لي الأستاذ المجدّد الأديب الفهامة مُعَلِّم الملوك سيدي الشيخ محمد بن يوسف المراكشي التامليّ^١ نصّه : « الحمد لله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى ، من المحب المخلص المشتاق ، إلى السيد الذي

١ ترجمته في خلاصة الأثر ٤ : ٢٧١ (وفيه التاولي) وقال إنه لم يقف على تاريخ وفاته ؛ وانظر

روضة الآس : ٢٥ .

وَقَعَ على محبته الاتفاق ، وطلعت شمس معارفه في غاية الإشراف ، وصار له في مَبْدَانِ الكمال حُسْنُ الاستباق ، الصدر الكامل ، والعالم العامل ، الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعمّله ، البليغ الذي تقتدي البلغاء ببراعة قلمه ، ناشر ألوية المعارف ، ومُسْنِدِي أنواع العوارف ، العلامة لإمام العصر ، بجميع أدوات الحصر ، سيدي أحمد بن محمد المقرّي قدّس الله السلف ، كما بارك في الخلف . سلامٌ من النسيم أرقُّ ، وألطف من الزهر إذا عَبِقَ .
وبعد ، فإن أخباركم دائماً تردُّ علينا ، وتصل إلينا ، بما يسر الخاطر ، ويقرّ الناظر ، مع كل وارد وصادر ، والعبد يحمد الله تعالى على ذلك ، ويدعو الله بالاجتماع معكم هنالك :

ويرحم الله عبداً قال آمينا

كتبته إليكم أيّها السيد من الحضرة المراكشية مع كثرة أشواق ، لا تسعها أوراق ، كتبكم الله سبحانه فيمن عنده ، كما جعلكم ممّن أخلص في مَوَالاة الحق قَصْدَه ، وودّي إليكم غَضُّ الحقائق ، مستَجِلٌّ في مطلع الوفاء بمنظر رائق ، لا يحيله عن مركز الثبوت عائق ، وتحقيق بمودة ارتبطت في الحق وللحق معاهدها^١ ، وأسست على المحبة في الله قواعدها ، أن يزيد عقْدُها على مر الأيام شدة ، وعهدها وإن شط المزار جِدَّة ، وأن تدّخر للأخرى عُدَّة ، وإنّي ويعلم الله تعالى لممّن يعتقد محبتكم وموالاتكم عملاً صالحاً يقرب من الله تعالى ويُرْلَفُ إليه ، ويعتمدهما^٢ وزراً يعول في الآخرة يوم لا ظل إلا ظله عليه ، فإنّكم واليتم فأخلصتم في الولا ، وعرفتم الله تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولا ، معرضين في تلكم الأخوّة عن غرض الدنيا وعرضها ، موفين

١ كذا في ق ودوزي ، وقد تقرأ : « معاهدها » .

٢ هذه رواية إحدى النسخ ؛ وفي ق ودوزي : ويعلم .

بشروط^١ نفلها ومفترضها ، إلى أن قضى الله تعالى بافراقنا ، وحقوقكم المتأكدة دين علينا ، والأيام تطلُّ بقضائها عنا ، وتوجه الملام إلينا ، فأونةٌ أقف فأقرع السنّ على التقصير ندماً ، وآونة أستنيم إلى فضلكم فأتقدم قُدماً ، وفي أثناء هذا لا يخطر بالبال حق لكم سابق ، إلا وقد كر عليه منكم آخر له لاحق ، حتى وقفت موقف العجز ، وضافت عليّ العبارة عن حقيقة مقامكم في النفس فكذت لا أتكلّم إلا بالرمز ، إجلالاً لحقكم الرفيع ، وإشفافاً من التقصير المضيع ، وقد كنت كتبت - أعزّكم الله تعالى - إليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عُدّالة قصائد كالعصائد ، كالتريد من الكلام ككلامكم^٢ السلس الكثير الفوائد ، فعذراً ممّن كان أخرس من سمكة ، وأشدّ تخبّطاً من طائر في شبكة ، فما عرفت أوصل شيء من ذلك ، أم حصل في أيدي المعاطب والمهالك ؟ وما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوماً بالحضرة المراكشية فقال لي : الشيخ الإمام المقرئ يسأل عنك ، وقد أرسل معي كتاباً إليك ، فوقع في البحر مع جملة ما وقع ، فقلت له : لا غرابة في ذلك فقد رجع إلى أصله ، ومن ظلمة البحار تُستخرج الدرر ، وقد جاءني كتاب من بعض الأخلاء الصديقين وهو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، وذكر لي فيه أنّه متعه الله تعالى بلقائكم ، وأخبرني بسؤالكم عني كثيراً ، وإلى الآن يا نعم السيد إنما عرّفته بما كتبت لسيادتكم تعريف تذكّر لا تعريف منّة ، فأنصفونا في الحكم عليكم في عدم الجواب بما ألفته الأدباء شريعة وسنة ، وبالجملة ففوادي لمجدكم صحيح لا سقيم ، واعتدادي بودكم مُستج غير عقيم ، والله تعالى يجعل الحب في ذاته الكريمة ، ويقضي عن الأحبة دين المحبة فيوفي كل غريم غريمه ، ويصلكم إن شاء الله تعالى هذا المرقوم ،

١ ق : بشروطها .

٢ كذا في ق ، والأصح هنا حذف كاف التشبيه .

وبه سؤال منظوم ، لتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد الله ، والصلاة والسلام
على مولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

إلى المقرري الحبر صدر الأئمة
فذلك يا صدر الصدر عَجالة
فتى قد رأى عند العذارى فتية
وعادت حراماً عند عصر فعندما
وفي صُبح ثاني اليوم عادت محرماً
وفي ظُهره حلت فطابت قريرة
وعند العشاء بالضرورة حلت
وفي صُبحه عادت حراماً ترى به
وكان يضيق حَسرة وتأسفاً
وعن أمة أيضاً يموت سريها
وعادت لمملوك السري حليلة
فجاءت ببنت ، هل لها من تزوج
فإن السيوري مانع من تزوج
وما الفرق بينها وبين التي أتى
وعن مشر مملوكة غير محرم
وليس بمملوك له وطؤها يرى
وما طالق من عِدّة خرجت ولا
نكاح لها من واحد ومُطَلّق
وتمت بحمد الله مُبَدِيّة لكم

من المخلص الوداد أزكى نحية
لتسمح بالجواب عما أكنّت
مُحرمة عند الزوال فحلت
عشاء أتى عادت حلالاً تجلت
وزالت زوالاً منه في غير مربة
وفي عصره محرماً قد تبدت
وذلك بعد غم مال كفدية
بروق سيوف لامعات بسنة
وحلت له وقت العشاء وتمت
قد أولدها في ملكه بعد وطأة
بعقد نكاح بعد من غير شبهة
بنجل السري ؟ بينوا لي قصتي
له بابتة منها بتلك القضية
بها ابن أبي زيد بأوضح حجة
ومسلمة شراً صحيحاً بشرعة
جوازاً على التأيد تأخير جلة
يجوز على التأيد في خير ملّة
لها غير معصوم ترى في الشريعة
سلاماً كما أبدته في صدر طلعة

١ كذا في ق ؛ وجاء في دوزي : يا خير ، وفي التجارية : من حين حلت .

وتقرير السؤال الثاني : أمة أولدها سيدها فصارت حرة ، فمات عنها السيد ، ثم تزوجها عبدُ سيدها ، فأنت ببنت ، أما لولد سيدها أن يتزوج هذه البنت ؟ فإن الرجل له أن يتزوج بنت زوجة أبيه من رجل غيره ، وهذه سرية أبيه ، فإن الإمام السيوري يمنع هذه المسألة ، وما الفرق بينهما ؟ وتصلكم أيضاً إن شاء الله تعالى عَجالة رجزية ، في مآثركم السنية ، ضمنتها أشرطة من الألفية ، فتنفصلوا بالإغضاء ، وحسن الدعاء ، أن يجمع الله شملنا بكم في تلك الأماكن المشرقة ، ثم المأمول من سيدنا ومولانا أن يتفضل علينا بكتاب « طبقات القراء » للإمام الحافظ الداني ، إذ ليس عندنا منه نسخة ، وأما تأليفكم الكثير الفوائد المسمى بـ « أزهار الرياض في أخبار عياض » ، وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض » فقد انتشر بهذه الأقطار المراكشية ، وانتسخت منه نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدي أحمد بن عبد العزيز بن الولي سيدي أبي عمر ، وكسا الله سبحانه تأليفكم المذكور جلاباب القبول ، فما رآه أحد إلا نسخة ، وعندني النسخة التي كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن ، وعلى هامشها في بعض الأماكن خطكم الرائق ، وبعض التنبيهات من كلامكم الفائق ، وأعلمونا بتأليفكم الذي سميتموه « قطف المهتصر من أفنان المختصر » هل خرج من المبيضة أم لا ؟ ووددنا لو اتصلنا منه بنسخة ، وقد اشتاق فقهاء هذا الإقليم إليه غاية كالفقيه قاضي القضاة محبكم سيدي عيسى وغيره من أخلاء خليل ، في كل محفل جليل ، إلى أن قال : وأنا أتمثل بكلام مولانا علي كرم الله وجهه حيث يقول ، تبرّكاً به :

رضيتُ بما قسم الله لي وفوّضتُ أمري إلى خالقي
كما أحسنَ الله فيما مضى كذلك يحسنُ فيما بقي

١ ذكره المحبي في خلاصة الأثر باسم « قطف المهتصر في شرح المختصر » وهو حاشية على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي .

ولي حفظكم الله تعالى تخميس على البيتين ، وذلك أنه نزلت بي شدة لا يمكن
الخلاص منها عادة ، فما فرغت من تخميسهما إلا وجاء الفرج في الحين ، ونصّه :

إذا أزيمة نَزَلَتْ قِبَلِي
وضيقتُ وضَاقَتْ بها حِيَلِي
تذكرتُ بيْتِ الإمامِ علي

« رضيتُ بما قسم اللهُ لي وفوّضْتُ أمري إلى خالقي »

لأنَّ الإلهَ اللطيفَ قَضَى
على خَلْقِهِ حكمه المُرتضى
فسلمَ وقُلَّ قولَ من فوّضا

« كما أحسنَ اللهُ فيما مَضَى كذلكَ يُحسِنُ فيما بقي »

فعذراً — أغزّكم الله سبحانه ونفع بإخائكم — عن إغباب المراسلة بالمكاتبة
عذراً ، وصبراً على بُعد اللقاء صبراً ، فإن يُقدّر في هذه الدار نلنا فيها ما نتمنى ،
ولّا فلن نعدم بفضل الله جزاء الحسنى ، ولقاء لا يبيدُ ولا يفتنى ، مع الذين
أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رفيقاً ، إيقاناً بالوعد وتحقيقاً ، فمن أوجب له محبته ، أدخله جنته ، وأحضره
مأدبته ، وكَمَّلَ له أمنيته ، جعلنا الله من المتحابين في جلاله ، بكرمه وإفضاله ،
وكتبه محبكم ومعظمكم ، الواصل حبل ودة بودكم ، المشرف لعهدكم ،
المنوّه بفخركم ومجدكم ، العبد الفقير الحقير ، المشفق على نفسه من التقصير
والذنب الكبير ، محمد بن يوسف التاملي ، غفر الله ذنبه ، وستر عيبه ، وجبر
قلبه ، وجمعه بمن أحبه ، بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، في عاشوراء المحرم
فاتح سنة ثمانٍ وثلاثين وألف ، انتهى .

وصحبة هذا المکتوب ورقة نصّها : بسم الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ ، وصلى الله

على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم^١.

لله در العالم الحيّاني كأتما ينظُرُ بالعيانِ
للمقرّي العالم المفضال منظرأ بأحسنِ المِثالِ
وعالمٌ بأنّي من بعده أُشيرُ في نظامنا لقصدِه
وما أنا بالله أستعينُ مُصمّناً وربّنا المعينُ
بالشطر من ألفية ابن مالك أيدنا الله لنسجِ ذلك
قال محمد عبيد المالك وسالكُ الأحسنِ من مسالكِ
نُشيرُ بالتضمنين للنحريرِ المقرّي الفاضلِ الشهيرِ
ذاك الإمام ذو العلاء والهمم «كعلم الأشخاص لفظاً وهوعم»
فلن تَرى في علمه مثيلاً «مستوجباً ثنائِي الحميلا»
ومدحه عِندي لازمٌ أتى «في النظم والنثر الصحيحِ مثبتا»
أوصاف سيدي بهذا الرجز «تقرّب الأقصى بلفظٍ موجز»
فهو الذي له المعاني تعترِي «وتبسطُ البذل بوعده مُنجز»
رتبته فوق العُلا يا من فهم «كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقم»
وكم أفادَ دهره من تحف «مبدي تأوّل بلا تكلف»
لقَدْ رَقَى على المقامِ الطاهر^٢ «كطاهر القلب جميل الظاهر»
وفضله للطالين وجداً «على الذي في رفعه قد عهدا»
قد حصّل العلم وحرّر السير «وما يلاّ أو بإنما انحصر»
في كل فنّ ماهرٍ صفه ولا «يكون إلا غاية الذي تلا»
سيرته جرّت^٣ على نهج الهدى «ولا يلي إلا اختياراً أبدا»

١ ورد بعض هذه الأرجوزة في خلاصة الأثر ٤ : ٢٧١ .

٢ خلاصة الأثر : إلى المقام الباهر .

٣ خلاصة الأثر : سارت .

وعلمُهُ وَفَضْلُهُ لَا يُنْكَرُ
 يَقُولُ دَائِمًا بِصَدْرِ الْإِشْرَاحِ
 يَقُولُ مَرْحَبًا لِقَاصِدِيهِ مَنْ
 صَدَقَ مَقَالَتِي وَكُنْ مُتَّبِعًا
 وَأَنْهَضْ إِلَيْهِ فَهُوَ بِالْمَشَاهِدِ
 وَالزَّمَنِ جَنَابُهُ وَإِيَّاكَ الْمَلَلِ
 وَأَقْصِدْ جَنَابَهُ تَرَى مَآثِرَهُ
 وَانْسِبْ لَهُ فَإِنَّهُ ابْنُ مُعْطِي
 وَاجْعَلْهُ نُصَبَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ وَلَا
 قَدْ طَالَمَا أَفَادَ عِلْمَ مَالِكٍ
 وَحَاسِدَ لَهُ وَمُبْغِضَ زَمَنِ
 وَلَيْسَ يَشْفِي مُبْغِضٌ لَهُ أَعْلَى
 يَقُولُ عَبْدُ رَبِّهِ مُحَمَّدٌ
 وَهُوَ بِدَهْرِهِ عَظِيمُ الْأَمَلِ
 فَادْعُ لَهُ وَسَادَةَ قَدْ حَضَرُوا
 وَاجْبِرْهُ بِالْأَعْيَانِ عَسَاهُ يَغْتَمُ
 أَنْشُدْتُ فَيْكُمْ ذَا وَقَالَ قَائِلٌ
 أَدْعُوا لَكُمْ بِالْإِسْرَافِ فِي كُلِّ زَمَنِ
 مَآثِرُ لَكُمْ كَثِيرَةٌ سِوَى
 قَدْ أَنْتَهَى تَعْرِيفُ ذَا الْعَرَفِ
 لِأَنْتُمْ تَاجُ الْأُمَمِ الْأَوَّلِ
 فَاللَّهُ يَبْقِيكُمْ لِدِينِنَا وَكَفَى

«مِمَّا بِهِ عَنْهُ مُبِينًا يُخْبِرُ»
 «اعْرِفْ بَيْنَا فَإِنَّا نَلْنَا الْمَنْحَ»
 «يَصِلُ إِلَيْنَا يَسْتَعْنُ بِنَا يُعْنُ»
 «وَلَمْ يَكُنْ تَصْرِيفُهُ مُمْتَنَعًا»
 «الْخَبَرُ الْجُزْءُ الْمَمَّ الْفَائِدَةُ»
 «إِنْ يَسْتَطِلُّ وَصَلْ وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِلْ»
 «وَاللَّهُ يَقْضِي بَهَائِ وَأَفْرِه»
 «وَيَقْضِي رَضَى بِغَيْرِ سَخَطِ»
 «تَعْدِلْ بِهِ فَهُوَ يُضَاهِي الْمَثَلَا»
 «أَحْمَدُ رَبِّي اللَّهُ خَيْرَ مَالِكِ»
 «وَهَالِكِ وَمَيِّتَ بِهِ قَمَنِ»
 «عَيْنًا وَفِي مِثْلِ هَرَاوَةِ جَعَلَ»
 «فِي نَحْوِ خَيْرِ الْقَوْلِ إِنِّي أَحْمَدُ»
 «مُرُوعُ الْقَلْبِ قَلِيلُ الْحِيلِ»
 «وَافْعَلْ أَوْافِقُ نَغْتَبِطُ إِذْ تَشْكُرُ»
 «فَجَرَهُ وَفَتَحَ عَيْنَهُ التَّرَمِ»
 «فِي نَحْوِ نِعَمٍ مَا يَقُولُ الْفَاضِلِ»
 «لَكُونَهُ بِمُضْمَرِ الرَّفْعِ اقْتَرَنِ»
 «مَا مَرَّ فَاقْبَلْ مِنْهُ مَا عَدَلَ رَوَى»
 «وَذُو تَمَامٍ مَا بَرَفَعَ يَكْتَفِي»
 «وَمَا يَجْمَعُهُ عُنَيْتُ قَدْ كَمَلَ»
 «مُصَلِّيًّا عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى»

١ خلاصة الأثر : لقاصد ومن .

تَشْرَى عَلَيْهِ دَائِماً منعظاً «وآلهِ المستكملين الشُّرفاً»

ومن ذلك ما كتبه لي بعض الأصحاب ممّن كان يقرأ عليّ بالمغرب^١ ،
وصورته : سيدنا وسيد أهل الإسلام ، حامل راية علوم الأُمّة الأحمدية ،
على صاحبها الصلاة والسلام ، آية الله في المعاني والمعالي ، وحسنة الأيام والليالي ،
وواسطة عقود الجواهر والآلي ، إمام مذهب مالك والأشعري والبخاري ، والواقدي
والخليل ، العلامة القدوة السيد الكبير الشهير الخليل ، ذو الأخلاق العذبة
المدّاق ، والشمال المُفصّحة عن طيب الأصول والأعراق ، كبير زمانه دون
منازع ، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع ، شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب
قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقرّي المغربي التلمساني
نزير فاس ثم الديار المصرية ، حفظه الله تعالى في موطن استقراره ، ورفع درجته
بإشادة فخاره على مناره ، عن شوق يودُّ له الكاتب أن لو كان في طي كتابه ،
وتوقُّ إلى مشاهدتكم هو الغاية في بابه ، بعد إهداء السلام المحفوف بأنواع
التحيّات والكرامات والبركات ، الدائم ما دامت في الوجود السكنات والحركات ،
لمقامكم الأكبر ، ومَحفلكم الأشهر ، ومن تعلّق بأذيالكم أو كان مستمطراً
لنوالكم ، أو صبّت عليه شآبيب أفضالكم ، من أهل ومحّب وصاحب وخديم ،
هذا وإنّه ينهي إلى الوداد القديم ، أن أهل المغرب الأدنى والأقصى حاضرة
وبادية ، كلّهم يتفكّهون بل يتقوتون بذكركم ، ويشتاقون لرؤية وجهكم ،
ويتلذذون بطيب أخباركم ، وإن كان المغرب الآن في تفاقم أحوال ، وتراكم
أهوال ، في الغاية مدائن وبوادي ، لا سيما مدينة فاس فإنّها في شرّ عظيم ،
وأمرها مولاي عبد الملك مات في السنة السابعة والثلاثين بل في ذي الحجة

١ اسم هذا الكاتب كما يتبين من خاتمة الرسالة «علي بن عبد الواحد الأنصاري» (ت : ١٠٥٤ هـ)
وكان فقيهاً محدثاً وله مؤلفات كثيرة ، استوطن الجزائر آخر عمره وفيها توفي (انظر ترجمته
في صفوة من انتشر للأفرائي ص : ١٣٥ ط . فاس وكتاب الزاوية الدلائية : ١٢٦) .

قبلها ؛ وفي المحرم من سنة سبع وثلاثين ، توفي ملك المغرب السلطان أبو المعالي زيدان^١ وبويع من بعده ابنه مولاي عبد الملك ، وتقاتل مع أخويه الأميرين الوليد وأحمد وهزمهما ، وإلى الله عاقبة الأمور . وأهل داركم بفاس بخير وعافية ، ونعم ضافية ، سوى ما أدركهم من طول الغيبة ، نسأل الله تعالى أن يملأ بقدمكم العيبة ، ومحبتكم الأكبر ، ووليكم الأصغر ، سيد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة ، والمربي في سلوك أهل الحقيقة ، العارف بالله الشيخ الرباني ، ذو المقامات والكرامات سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي^٢ ، يُحْيِيكُمْ^٣ ويعظم قدركم ، ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر ، وهو على خير ، وقد اجتمعت عليّ من بركتكم في مدينة سلا جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى علي بتأليف عديدة منها « كفاية الطالب النبيل في حل ألفاظ مختصر خليل » ومنها « شرح على المنهج المنتخب » للزقاق في قواعد مالك ، ومنظومة في أكثر من ألف بيت في السير والشمال ، ومنها في رجال البخاري ولا كنسخ^٤ الكلاباذي ، ومنها خطب ، وغير ذلك ، والكل من بركتكم ، ونسبته إليكم في صحيفتكم ،

١ بويع أبو المعالي زيدان بن أحمد المنصور بعد وفاة والده سنة ١٠١٢ ، وفي عهده جلا بقية من كان من العرب بالأندلس (سنة ١٠١٦) ؛ وقد خاض أبو المعالي حروباً كثيرة ضد الطامعين المحليين في كل من مراکش وفاس وضد الإسبان (راجع الاستقصا ٦ : ٣ - ٧٢) ؛ وقد بويع ابنه عبد الملك بعد وفاته سنة ١٠٣٧ في شهر المحرم ، فثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب إلى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والذخيرة ، وقد كان عبد الملك فاسد السيرة ، قتله العلوج بمراكش سنة ١٠٤٠ (المصدر نفسه ٧٢ - ٧٨) .

٢ نسبة إلى زاوية الدلاء ، وهي زاوية أسسها أبو بكر ابن محمد المجاطي ، وكان لها دور كبير في تاريخ المغرب سياسياً ودينياً وعلمياً ، وقد وضع هذا الدور الأستاذ محمد حجي في كتابه : « الزاوية الدلائية » - الرباط : ١٩٦٤ ؛ ومحمد بن أبي بكر المذكور هنا هو من أعظم شيوخها ، وكان عالماً في التفسير والحديث والكلام (انظر الاستقصا ٦ : ٩٦ والزاوية الدلائية : ٧٦) وقد كان للمفري علاقة وثيقة بالزاوية الدلائية إذ أنه أقام مدة فيها ودرس الحديث على محمد بن أبي بكر .

٣ ق : يحبكم .

٤ كذا في ق ؛ وفي نسخ أخرى « كنسخ » .

والسلام من ولدكم المقر بفضلكم تراب نعالكم علي بن عبد الواحد الأنصاري ،
لطف الله تعالى به ، وحامله كبير كبراء قومه ممن يحبكم ويعرفكم ، وما تفعلوا
معه من خير فلن تُكفروهُ ، والسلام ، انتهى .

ومنها كتاب وافاني من علم قسمطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء
الأكابر ، ووارث المجد كابرأ عن كابر ، المؤلف العلامة سيدي الشيخ عبد
الكريم الفكون^١ حفظه الله ، نصّه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن ﴿ وَإِنَّكَ
لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٥) وآله وصحبه وسلّم أفضل التسليم ، من
مُدُنَس الإزار ، المتسربل بسر ايل الخطايا والأوزار ، الراجي للتصل منه
رحمة العزيز الغفار ، عبد الله - سبحانه - ، عبد الكريم بن محمد الفكون ،
أصلح الله بالتقوى حاله ، وبلغه من متابعة السنّة النبوية^٢ آماله ، إلى الشيخ الشهير ،
الصدر النحرير ، ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير ، الأحبّ في الله المؤاخي من
أجله سيدي أبي العباس أحمد المقرّي ، أحمد الله عاقبتني وعاقبته ، وأسبل على
الجميع عافيته ، أمّا بعد فلنّني أحمد الله إليك ، وأصليّ على نبيه سيدنا محمد ،
صلى الله عليه وسلّم ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فلنّني أحوجُ
الناس إليه ، وأشدّهم في ظنّي إلحاحاً عليه ، لما تحققت من أحوال نفسي الأمّارة ،
واستبظنت من دخيلاتها المثابرة على حبّ الدنيا الغرّارة ، كأنّها عميت عن
الأهوال ، التي أشابت رؤوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمل الرجال ، فراها في
لحج هواها خائضة ، وفي ميدان شهواتها راکضة ، طغت في غيها وما لانت ،
وجمّحت فما انقادت ولا استقامت ، فويلي ثمّ ويلي من يومٍ تبرز فيه

١ هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القسطيني (- ١٠٧٣) له مؤلفات كثيرة منها
« محمد السنان في نحرور إخوان الدخان » (راجع ترجمته في صفوة من انتشر ورحلة العياشي ،
واليواقيت الثمينة ١ : ٢٣٢) .

٢ ق : المصطفية .

القبائح ، وتنشر الفضائح ، ومُنَادِي العدل قائم بين العالمين ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : ٤٧) فالله أسأل حسن الإلطاف ، والستر عما ارتكبناه من التعدي والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم ، وممن يُحْشَرُ تحت لواء خلاصته الكريم ، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم ، ولنكف من القلم عنانه ، لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه ، وقد اتصل بيدي جوابكم ، أطال الله في العلم^١ بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم ، وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجثو لسماعه سؤلها ومأمولها ، بيد ما فيه من أوصاف من أمره قاصر ، وعن الطاعة والاجتهاد فاتر ، وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه « أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه »^٢ لكن يجازيكم المولى بحسن النية ، البلوغ في بمجوحة الحنان غاية الأمانة ، وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على أنني غير قائم بقرضها ونقلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته في حضرته ، ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيد منادمته ، وقد ساعد البنان الحنان ، في إجابتكم بوزنها وقافيتها ، والعذر لي أنني لست من أهل هذا الشأن ، والاعتراف بأنني جبان وأي جبان ، والكمال لكم في الرضي والقبول ، والكريم يَغْضِي عن عَوْرَات الأحمق الجهول ، وظننا حققه الله تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعني « إضاءة الدجنة »^٣ تقييداً ، أرجو من الله توفيقاً وتسديداً ، بحسب قدرتي لا على قدركم ، وعلى مثل فكري القاصر لا على عظيم فكركم ، وإن ساعد الأوان ، وقضى بتيسيره رب الزمان ، فآتي به إن شاء

١ ق : في التعلم .

٢ من الأمثال ؛ وكان الكسائي يدخل فيه « أن » والعامية لا تذكرها فيه ، وقال البكري حذف « أن » من المثل أشهر عند العلماء ؛ يضرب في الرجل تكون له نباهة ولا منظر عنده (فصل المقال :

١٢١ وأمثال الضبي ٨ - ٩ والميداني ١ : ٨٦ والسكري ١ : ١٨٦ والفاخر : ٥٣) .

٣ هي « إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة » وهي منظومة للمقري ألفها ودرسها في الحجاز والشام وانتسخت منها في حياته نسخ كثيرة ؛ طبعت بمصر سنة ١٣٠٤ بهامش شرح عليش على العقيدة السنية .

الله ، الآجل^١ معي ، لأنني بالأشواق ، إلى حضرة راكب البراق ، ومخترق
السبع الطباق . وكنت غازماً على أن أبعث لكم من الأبيات أكثر من الواقع ،
إلا أن الرفقة أعجلت ، وصادفتني أيام موت قعيدة البيت ، فلم يتيسر عاجلاً
إلا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل :

يا نُخْبَةَ الدَّهْرِ فِي الدَّرَايَةِ	عِلْماً تُعَاضِدُهُ الرُّوَايَةُ ^٢
لَا زَلْتَ بَحْراً بِكُلِّ فَنٍ	يُرْوِي بِهِ الطَّالِبُونَ غَايَةَ
لَقَدْ تَصَدَّرْتَ فِي الْمَعَالِي	كَمَا تَعَالَيْتَ فِي الْعَنَائَةِ
مَنْ فِيكَ تَسْتَنْظِمُ الْمَعَانِي	بُلُغْتَ فِي حُسْنِهَا النِّهَايَةَ
رَقَاكَ مَوْلَاكَ كُلَّ مَرَقَى	تَحْوِي بِهِ الْقُرْبَ وَالْوَلَايَةَ
أَعْجُوبَةُ مَا لَهَا نَظِيرٌ	فِي الْحِفْظِ وَالْفَهْمِ وَالْهُدَايَةِ
يَا أَحْمَدُ الْمُقَرَّرِيُّ دَامَتْ	بُشْرَاكَ تَصْحَبُهَا الرِّعَايَةُ ^٣
بِحَاثِ خَيْرِ الْعِبَادِ طُوراً	وَالْآلِ وَالصَّحْبِ وَالنُّقَايَةِ
صَلَّى عَلَيْهِ الْإِلَهُ تُتَرَى	نُكُفَى بِهَا الشَّرُّ وَالْغَوَايَةِ

وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
وكتب بغاية عجلة ، يوم السبت سابع أو ثامن رجب ، من عام ثمانية وثلاثين
وألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام ؛ انتهى ..
والمذكور عالم المغرب الأوسط غير مدافع ، وله سلف علماء ذوو شهرة ،
ولهم في الأدب الباع المديد ، غير أن المذكور مائل إلى التصوف ، ونعم ما فعل ،
تقبل الله تعالى عملي وعمله ، وبلغ كلاً منا أمله ؛ ولأشهر أسلافه العلامة الشيخ

١ يريد : العام الآجل .

٢ لا يتفق الشطران في الوزن .

٣ خرج في الشطر الثاني عن وزن سائر الأبيات .

حسن بن علي بن عمر الفكون القسطنطيني أحد أشياخ العبدري^١ صاحب الرحلة قصيدة مشهورة عند العلماء بالمغرب ، وهي من درّ النظام ، وحرّ الكلام ، وقد ضمّتها ذكر البلاد التي رآها في ارتحاله من قسطنطينة إلى مراكش ، وأولها :

ألا قُلْ لِلسَّريِّ ابنِ السَّريِّ أبي البدرِ الجوادِ الأريحي^٢

ومنها :

وكنْتُ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ طُرّاً	سوى زَيْدٍ وعَمْرٍو غَيْرَ شَيْءٍ
فَلَمَّا جِئْتُ مَيْلَةً خَيْرَ دَارٍ	أَمَّا لَتَنِي بِكُلِّ رِشَا أَبِي
وَكَمْ أَوْرَتْ ظَبَاءَ بَنِي وَرَارٍ	أَوَّارَ الشَّوْقِ بِالرِّيقِ الشَّهِي
وَجِئْتُ بِجَايَةٍ فَجَلَّتْ بِدَوْرًا	يَضِيقُ بِوصفِهَا حَرْفُ الرَّوِي
وَفِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ هَامَ قَلْبِي	بِمَعْسُولِ المَرَاشِفِ كَوَثَرِي
وَفِي مِلْيَانَةٍ قَدْ ذَبْتُ شَوْقًا	بِلَيْنِ العِطْفِ وَالْقَلْبِ الْقَسِي
وَفِي تَنْسَسٍ نَسِيتُ جَمِيلَ صَبْرِي	وَهَمِمْتُ بِكُلِّ ذِي وَجْهِ وَضِي
وَفِي مَازُونَةٍ مَا زِلْتُ صَبًّا	بُوسْنَانَ المَحَاجِرِ لَوْذَعِي
وَفِي وَهْرَانٍ قَدْ أَمْسَيْتُ رَهْنًا	بِظَامِي الخَصْرِ ذِي رَدْفٍ رَوِي
وَأَبَدْتُ لِي تِلْمِيسَانَ بِدَوْرًا	جَلَبْنَ الشَّوْقَ لِلْقَلْبِ الخَلِي

١ وهم المقرئ هنا إذ إن العبدري لما حل بمدينة قسطنطينة سأل من لقيه (وهو الحسن بن بلقاسم ابن باديس) عن الأديب أبي علي حسن بن علي بن عمر القسطنطيني المعروف بابن الفكون فذكر ابن بلقاسم أنه أدرك الفكون وهو طفل صغير ولكنه لا يحفظ عام ولادته أو وفاته . قال العبدري : ومرت أن أجد من يروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسطنطينة إلى مراكش فلم أجده ، فقيدتها هناك غير مروية وكان القسطنطيني كتب بها إلى أبي البدر ابن مردنيش (رحلة العبدري : ٣٠ وأثبت القصيدة هناك ص ٣٠ - ٣١) وقد غارض العبدري هذه القصيدة بقصيدة أثبتها في آخر رحلته .

٢ هو أبو البدر ابن مردنيش ، كما في التعليق السابق .

٣ في ق يودوزي : بيلة ، والتصويب عن الرحلة .

ولما جئتُ وجدة هِمتُ وجداً
وحلَّ رثا الرباطِ رثا رباطي
وأطلعَ قطرُ فاسٍ لي شمساً
وما مكناسة إلا كناسٌ
وإن تسألَ عنَ أرضٍ سلا ففيتها
وفي مراکشٍ يا وبع قلبي
بلورٌ بلُ شمسٌ بلُ صباحٌ
أبحنَ مصارعُ العشاقِ لما
بقامة كلِّ أسمرٍ سَمَهريّ
إذا أنسني حسناً فلاني
فها أنا قد تخذتُ الغربَ داراً
على أنْ اشتياقي نحوَ زيدٍ
تسحني الهوى شرقاً وغرباً
فلي قلبٌ بأرضِ الشرقِ عانٍ
فهذا بالغدوِّ يهيمُ غرباً
فلولا اللهُ متُّ هوى وشوقاً
بمنخنتِ المعاطفِ معنوي^١
وتبختي بطرفِ بابلي
مغارِبهنَّ في قلبِ الشجي
لأحوى الطرفِ ذي حُسنٍ سبي
ظباءَ كاسراتٍ للكمي
أنى الوادي قطعَ على القرّي
بهبي في بهبي في بهبي
سعينَ به فكم مبيتٌ وحبي
ومقلة كلِّ أبيضٍ مشرفٍ
أنسيهم هوى غيلانٍ مَيّ
وأدعى اليومَ بالمرآكشي
كشويقٍ نحوَ عمرو بالسوي
فيا للمشرقِ المغربي
وجسمٌ حلَّ بالغربِ القصي
وذاك يهيمُ شرقاً بالعشي
وكم لله من لطفٍ خفي

وقد خرجنا بالاستطراد إلى الطول ، وذلك منّا استرسال مع جاذب
الأدب ، فلمسك العنان ، والله المستعان .

وما عددناه من القصائد والمقطوعات في مدح دمشق الشام فهو غيبض من
فيض ، وفي نيّتي أن أجمع في ذلك كتاباً حافلاً أسميه « نشق عرّف دمشق »

١ قال المهدي في تعليقه على هذا البيت : « قوله معنوي بعد منخنتِ المعاطف . . . لقد استربت به
حتى ظننت أنه مصحف ، ولا أنبرأ فيه من تصحيف » .

أو « منشق قلم المدح لدمشق »^١ ولسان حالي الآن ينشد قول بعض الأكابر :

نحن في مصرَ رَهْنٌ شوقٍ إليكم هل لديكم بالشام شوقٌ إلينا
فمجزنا عن أن ترونا لديكم وأبيتم عن أن نراكم لدينا
حفظ الله عهدَ مَنْ حفظَ العهد لمَ ووفى به كما قد وفينا

وقول ابن الصائغ :

وددتُ لو أنَّ عيني مكانَ كتبي إليكم
حتى أراكم وأُملي أخبارَ شوقي عليكم

رجع إلى ابن جبير رحمه الله تعالى :

ومن شعره قوله :

إيَّاكَ والشَّهْرَةَ في مَلْبَسٍ والبسَ منَ الأثوابِ أسماها
تَوَاضَعُ الإنسانُ في نَفْسِهِ أَشْرَفُ للنَفْسِ وأسمى لها

وقال :

تَنَزَّرَ عَنْ العُوراءِ مَهْمَا سَمِعَتْهَا صِيَانَةَ نَفْسٍ فَهَوَ بِالْحُرِّ أَشْبَهُ
إِذَا أَنْتَ جَاوَبْتَ السَّفِيهَ مُشَاتِمًا فَمَنْ يَتَلَقَّى الشَّمَّ بِالشَّمِّ أَسْفَهُ

وقال :

أقولُ وَقَدْ حَانَ الوداعُ وَأَسْلَمْتُ قُلُوبٌ إلى حَكَمِ الأَسَى ومَدَامعُ :
أَيَا رَبَّ أَهْلِي في يَدَيْكَ وَدِيعَةً وما عَدِمْتُ صَوْنًا لَدَيْكَ الودائعُ

١ ذكره المحبي بين مؤلفاته وسماه « عرف النشق في أخبار دمشق » مما قد يدل على أنه حقق نيته وقام بتأليفه .

وقال أبو عبد الله ابن الحاج المعروف بمُدْغَلَيْس^١ صاحب الموشحات
يمدح ابن جبير المذكور :

لأبي الحسين مكارم^٢ لو أنها عُدَّتْ لما فرغَتْ ليوم المحشرِ
ولهُ عليّ فضائل^٣ قد قصّرت عن بعضِ نِعَمِها عظامُ الأبحرِ

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها^٤ :

يا وفودَ الله فزّتم بالمني فهَيِّئَا لَكُمْ أَهْلَ مَنِي
قد عَرَفْنَا عِرْفَاتٍ بَعْدَكُمْ^٥ فلهذا بِرَحِّ الشَّوْقِ بِنَا
نحنُ في الغربِ ويجري ذكركم بِغُرُوبِ الدَّمْعِ يجري هَتْنَا^٦

ومنها :

فَيَنَادِيهِ عَلَى شَحْطِ النَّوَى سِرْ بِنَا يَا حَادِي الرِّكَبِ^٧ عَسَى
مَنْ لَنَا يَوْمًا بِقَلْبٍ مَلَّنَا مَا دَعَا^٨ دَاعِي النَّوَى لَمَّا دَعَا
أَنْ نُلَاقِي يَوْمَ جَمْعِ سِرْبِنَا شِمٌ لَنَا الْبَرْقُ إِذَا لَاحَ^٩ وَقُلْ
غَيْرَ صَبٍّ شَفَهُ بَرْحُ الْعَنَا جَمَعَ اللَّهُ بِجَمْعٍ شَمَلْنَا

١ هو أبو عبد الله أحمد بن الحاج الزجاجي عاش في دولة الموحدين ويعد خليفة ابن قزمان في الزجل
(انظر المغرب ٢ : ٢١٤ ، ٢٢٠ والعاقل الحالي : ١٨ - ٢٦ وسيأتي ذكره في النفع) .

٢ انظر هذه القصيدة في الذيل والتكملة ٥ : ٦١٤ وبعضها في المغرب ٢ : ٣٨٥ . ومقدمة
الرحلة : ١٨ .

٣ الذيل : معكم .

٤ الذيل :

نحن بالمغرب نجري ذكركم فغروب الدمع يجري هتنا

٥ في النفع المطبوع : فقلت ، والتصويب عن الذيل والتكملة .

٦ الذيل : حادي العيس .

٧ الذيل : ما عني .

٨ الذيل : إذا هب .

عَلَّنَا نَلْقَى خِيَالًا مِنْكُمْ بِلَذِيذِ الذِّكْرِ وَهَنَا عَلَّنَا
 لَوْ حَنَا الدَّهْرُ عَلَيْنَا لَقَضَى بِاجْتِمَاعِ بِكُمْ بِالْمُنْحَى
 لَاحَ بَرْقٌ مَوْهِنًا مِنْ نَحْوِكُمْ فَلَعَمْرِي مَا هَنَا الْعَيْشُ هُنَا
 أَنْتُمْ الْأَحْيَابُ نَشْكُو بُعْدَكُمْ هَلْ شَكُوتُمْ بُعْدَنَا مِنْ بُعْدِنَا

وله رحمه الله تعالى من قصيدة مطوّلة أولها :

لَعَلَّ بَشِيرَ الرِّضَى وَالْقَبُولِ يُعَلِّلُ بِالْوَصْلِ قَلْبَ الْخَلِيلِ

وله أخرى أنشدّها عند استقباله المدينة المشرفة ، على صاحبها الصلاة وأتم السلام ، وهي ثلاثة وثلاثون بيتاً من الغر ، أولها ٢ :

أَقُولُ وَأَتَسْتُ بِاللَّيْلِ نَارًا لَعَلَّ سِرَاجَ الْهُدَى قَدْ أَنَارَا
 وَإِلَّا فَمَا بَالُ أَفْقِ الدُّجَى كَأَنَّ سَنَا الْبَرْقِ فِيهِ اسْتَطَارَا
 وَنَحْنُ مِنَ اللَّيْلِ فِي حِنْدِسٍ فَمَا بَالُهُ قَدْ تَجَلَّى نَهَارَا

وكان أبو الحسين ابن جبّير المترجم به قد نال بالأدب دنیا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها .

وقال صاحب « الملتبس » في حقّه : الفقيه الكاتب أبو الحسين ابن جبّير ، ممّن لقينته وجالسته كثيراً ورويت عنه ، وأصله من شاطبة ، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ، ذكره ابنُ اليَسَع في تاريخه ، ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه ، وتولّع بغير ناطة ، فسكن بها ، قال : وممّا أنشدنيّه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بإشبيلية :

أَبَا عِمْرَانَ قَدْ خَلَفْتُ قَلْبِي لَدَيْكَ وَأَنْتَ أَهْلٌ لِلْوَدِيعَةِ

١ هذا البيت وما يليه من أبيات لم ترد في الذيل والتكملة .

٢ وردت هذه القصيدة في الذيل والتكملة ٥ : ٦٠٢ والإحاطة ٢ : ١٧١ .

صَحَبْتُ بِكَ الزَّمانَ أَخا وَفاءَ فَها هُوَ قَدْ تَنَمَّرَ لِلْقَطيعِ

قال : وكان من أهل المروءات ، عاشقاً في قضاء الحوائج ، والسعي في حقوق الإخوان ، والمبادرة لإيناس الغرباء ، وفي ذلك يقول :

يَحسِبُ الناسُ بَأَنِّي مُتَعَبٌ في الشَّفاعاتِ وتكليف الورى
والذي يُتَعَبُهُمْ مِن ذاكَ لي راحةٌ في غيرها لَن أَفَكِرا
وهُودَي لو أَقْضَي العَمَرَ في خِدمةِ الطُّلابِ حَتى في الكُرى

قال : ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته :

طالَ شوقِي إلى بِقاعِ ثلاثٍ لا تُشَدُّ الرِّحالُ إِلَّا إِلَيها
إِنَّ لِلنَّفْسِ في سماءِ الأمانِ طائراً لا يَحومُ إِلَّا عَلَيها
فُصٌّ مِنْهُ الجِناحُ فَهُوَ مَهَيَّضٌ كُلَّ يَوْمٍ يَرجو الوقوعَ لَدَيها

وقال :

إذا بَلَغَ العَبْدُ أرضَ الحِجازِ فَقَدْ نالَ أَفْضَلَ ما أُمَّ لَهُ
فإنَّ زارَ قَبْرَ نبيِّ الهُدَى فَقَدْ أَكَلَ اللهُ ما أَمَلَهُ

وعاد رحمه الله تعالى إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد ، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج ، فعطب في خليج صقلية الضيق ، وقامى شذائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١ ، ثم أعاد السير إلى المشرق بعد مدة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدم .

ومن شعره أيضاً :

لي صديقٌ خَسِرْتُ فيه ودادي حينَ صارتَ سلامتي مِنْه رِجاء

حَسَنُ الْقَوْلِ سَيِّئُ الْفَعْلِ كَالْجَزَّارِ سَمَى وَأَتْبَعَ الْقَوْلَ ذَبْحًا

وحدث رحمه الله تعالى بكتاب « الشفاء » عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض ، ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي .

وتوفي ابن جبير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ ، والدعاء عند قبره مستجاب ، قاله ابن الرقيق رحمه الله تعالى وقال ابن الرقيق : في السنة بعدها .

وقال أبو الربيع ابن سالم : أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي ، ويعرف بابن الخطيب ، لأبي الحسين ابن جبير ، وقال : وهو مما كتب به لي من الديار المصرية في رحلته الأخيرة لما بلغه ولايتي قضاء بسطة ، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك ، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقيشي فدفنها بها :

بسطة لي سكن في الثرى وخيل كريم إليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا فزرت بها الحي والميتا

وأنشد ابن جبير رحمه الله تعالى لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غرناطة ، أو في طريقها ، قوله ٢ :

لي نحو أرض المنى من شرق أندلس شوق يؤلف بين الماء والقبس
إلى آخرها .

١ هي عاتكة المدعوة بأم المجد ووالدها هو الوزير الحبيب أحمد بن عبد الرحمن الوقيشي ، وكانت وفاتها يوم السبت لعشر خلون من شعبان سنة ٦٠١ بعد زمانة طاولتها مدة ؛ وقد قام ابن جبير برحلته الثالثة بعد وفاتها ، فوصل مكة سنة ٦٠٢ وجاور هناك طويلا .

٢ قال هذه القصيدة لما قفل من رحلته الأولى ولاحت له وهو على ظهر البحر جبال دانية ، انظر الذيل والتكملة : ٦٠٤ .

ومن شعره قوله :

يا خَيْرَ مولى دعاه عَبْدُ
هَبْ لِي ما قد علمت مِنِّي
أَعْمَلُ في الباطلِ اجتهادَهُ
يا عالمَ الغيبِ والشهادةِ

وقال رحمه الله تعالى :

ولمَّا لَأوْثَرَ مِنْ أَصْطَفِي
وأهوى الزَّيْارَةَ مِمَّنْ أَحَبُّ
وأَغْضِي عَلَى زَلَّةِ العائِرِ
لأَعْتَقَدَ الفُضْلَ لِلزَّائِرِ

وقال رحمه الله تعالى :

عجبتُ للمرءِ في دنياه تُطْمِعُهُ
يُمْنِي وَيُصْبِحُ في عَشْواءِ يَجْطِئُهَا
يَغْتَرُّ بالدَّهْرِ مَسْرُوراً بِصَحْبَتِهِ
ويَجْمَعُ المَالَ حِرْصاً لا يَفارِقُهُ
تراهُ يُشْفِقُ من تَضْيِيعِ درهمه
وأَسْوأُ النَّاسِ تَدْبِيراً لِعاقِبِهِ
في العيشِ والأجلِ المحتومِ يَقْطَعُهُ
أَعْمَى البَصِيرَةِ والآمالِ تُخْذَعُهُ
وقَدْ تيقَّنَ أَنَّ الدَّهْرَ يَصْرَعُهُ
وقد درى أَنَّهُ لِلْغَيْرِ يَجْمَعُهُ
وليس يُشْفِقُ من دينِ يَضِيعُهُ
مَنْ أنْفَقَ العَمَرَ فيما ليس يَنْفَعُهُ

وقال :

صبرتُ عَلَى غَدْرِ الزَّمانِ وحقدِهِ
وجَرَّبْتُ إِخْوانَ الزَّمانِ فلم أَجدُ
وَكَمْ صاحِبِ عاشِرَتِهِ وَالْفِتْنَةِ
وَكَمْ غَرَّني تَحْسِينُ ظَنِّي بِهِ فلم
وأَغْرَبُ من عَتَقاءِ في الدَّهْرِ مُغْرِبِ
بِنَفْسِكَ صادمِ كُلِّ أمرٍ تَريدُهُ
وعَزَمَكَ جَرَدُ عِندِ كُلِّ مَهْمَةٍ
وشاب لي السَّمَّ الزُّعافَ بِشَهْدِهِ
صديقاً جَميلَ الغيبِ في حالِ بُعْدِهِ
فما دام لي يوماً على حُسْنِ عَهْدِهِ
يَضِيءُ لي على طُولِ اقْتِداحي لَزْنَهُ
أخو ثِقَةٍ يَسْقِيكَ صافي وَدَّهِ
فليس مِضاءُ السَّيْفِ إِلا بِحَدِّهِ
فما نافعُ مَكْثِ الحِسامِ بِغَمْدِهِ

وشاهدتُ في الأسفارِ كلَّ عجيبةٍ فلم أرَ مَنْ قد نالَ جدّاً بجِدِّه
فكن ذا اقتصادٍ في أموركَ كلِّها فأحسنُ أحوالِ الفتي حُسْنَ قَصْدِه
وما يُحرِّمُ الإنسانُ رزقاً لعجزه كما لا ينالُ الرزقَ يوماً بكدِّه
حُظوظُ الفتي مِن شقوةٍ وسعادةٍ جرَّتْ بقضاءٍ لا سبيلَ لردِّه

وقال :

الناسُ مثلُ ظروفٍ حَشَوْها صَبْرٌ وفوقَ أفواها شيءٌ من العَسَلِ
تَغُورُ ذائقُها حتى إذا كُشِفَتْ لَهُ تَبَيَّنَ ما تَحْوِيهِ من دَخَلِ

وقال :

تَغَيَّرَ إِخْوانُ هذا الزمانِ وكلُّ صديقٍ عَرَّاهُ الخللُ
وكانوا قديماً على صحَّةٍ فقد داخَلَتْهُمْ حروفُ العَلَلِ
قضيتُ التعجَّبَ من أمرهم فَصَرْتُ أَطالِعُ بابَ البَدَلِ

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور^١ ،
ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر ، وهو قوله :

تَكَلَّتُ أَخْلَاءَ هذا الزمانِ فعِنْدِي ممّا جَسَّوهُ خَلَلُ
قضيتُ التعجَّبَ من شأنهم فَصَرْتُ أَطالِعُ بابَ البَدَلِ

ولابن جبير رحمه الله تعالى^٢ :

مِنَ اللهِ فَاسْأَلْ كلَّ أمرٍ تَريدُهُ فما يَمْلِكُ الإنسانُ نَفْعاً ولا ضَرّاً
ولا تتواضعُ للولاءِ فَإِنَّهُمْ من الكِبَرِ في حالٍ تَمُوجُ بِهِمُ سُكُرا

١ انظر ص : ٣٨٤ من هذا الجزء .

٢ الأبيات في الذيل والتكملة ه : ٦١٣ .

ولياك أن ترضى بتقبيل راحة

وهو نحو قول القائل^١ :

أيتها المستطيلُ بالبغي أقصرُ ربّما طأطأ الزّمانُ الرّؤوسا
وتدكرُ قولَ الإلهِ تعالى ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

وقال ، وقد شهد العيد بطنندة من قرى مصر :

شهدنا صلاة العيد في أرض غربية بأحواز مصر والأحبة قد بانوا
فقلْتُ خلّني في النوى جدّ بمدمع فلبس لنا إلا المدامع قربانُ

وقال :

قد أحدث الناسُ أموراً فلا تعملُ بها إنّي امرؤ ناصعُ
فما جماعُ الخيرِ إلا الذي كانَ عليه السلفُ الصالحُ

وقال :

ربّ إن لم تؤثني سعة فاطنو عني فضلة العمرِ
لا أحبُّ اللبثَ في زمنٍ حاجتي فيه إلى البشرِ
فهمُ كسرُ المنجبرِ ما همُ جبرٌ لمنكسرِ

ولما وصل ابن جبير ، رحمه الله تعالى ، إلى مكة في ١٢ ربيع الآخر
سنة ٥٧٩هـ أنشد قصيدته التي أولها :

بلغتُ المنى وحللتُ الحرامُ فعاد شبابك بعدَ الهرمِ

١ انفردت إحدى النسخ بإيراد ما يلي بعد كلمة « القائل » :

قل لنصر والمرء في دولة إل سلطان أعمى ما دام يدعى أميراً

فاذا زالت الولاية عنه واستوى بالرجال غاد بصيراً

وقال ابن جبير رحمه الله تعالى : أيها المستطيل . . . إلخ البيتين .

فأهلاً بمكة أهلاً بها وشكراً لمن شكره يلتزم
وهي طويلة ، وسيأتي بعضها :

وقال رحمه الله تعالى عند تحرّكه للرحلة الحجازية :

أقولُ وقد دعا للخيرِ داعٍ حننُ له حنينُ المستهامِ
حرامٌ أن يلدنَّ لي اغتماضٌ ولم أرحلْ إلى البيتِ الحرامِ
ولا طافَتْ بي الآمالُ إن لم أطفُ ما بينَ زمزمَ والمقامِ
ولا طابتْ حياةٌ لي إذا لم أزرُ في طيّبةٍ خيرَ الأنامِ
وأهديهِ السلامَ وأقتضيه رضى يُدني إلى دارِ السلامِ

وقال :

هنيئاً لمن حجَّ بيتَ الهدى وحطَّ عن النفسِ أوزارَها
وإنَّ السعادةَ مضمونةٌ لمن حجَّ طيّبةً أو زارَها

ولنختم ترجمته بقوله :

أحبُّ النبيِّ المصطفى وابنَ عمِّه علياً وسيطيه وفاطمةَ الزهراء
همُ أهلُ بيتٍ أذهبَ الرجسُ عنهمُ وأطلعهمُ أفقُ الهدى أنجماً زهراً
مُوالاتهمُ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ وحبُّهمُ أسنى الذخائرِ للأخري
وما أنا للصَّحْبِ الكرامِ بمبغضٍ فلانِّي أرى البغضاءَ في حقِّهمُ كفرًا
همُ جاهلوا في اللهِ حقَّ جهاده وهمُ نصرُوا دينَ الهدى بالطَّيِّبِ نصراً
عليهمُ سلامُ الله ما دامَ ذكرهمُ لدى الملا الأعلى وأكرمُ به ذكرًا

وقوله في آخر الميمية :

نبيُّ شفاعتهُ عصمةٌ فيومَ التنادي به يُعتَصَمُ

١ البيتان في الذيل والتكملة ٥ : ٦٠٤ والإحاطة ٢ : ١٧٢ .

عسى أن تُجَابَ لنا دعوةٌ لديه فَنُكْفَى بها ما أهُمَّ
وَيَرَعَى لزواره في غدٍ ذماماً فما زال يَرعى الذَّمَّ
عليه السلامُ ، وطوبى لمن أَلَمَّ بِتَرْبَتِهِ فاستلم
أخي كم نَتَابِعُ أهواءنا ونُخْبِطُ عشواءها في الظُّلَمِ
رُؤْيَدَكَ جَرَّتْ فَعُجْ واقْتصدُ أمامك نهجُ الطريقِ الأعمّ
وتُبْ قبل عضِّ بنانِ الأسي ومن قَبْلِ قَرَعِكَ سِنَّ النَّدَمِ

ومنها :

وقُلْ رَبِّ هَبْ رَحْمَةً في غدٍ لعبدٍ بسِما العُصَاةِ اتَّسَمَ
جرى في ميادينِ عصيانهِ مَسِيئاً ودانَ بكفرِ النِّعَمِ
فيا ربَّ صَفِّحْكَ عما جَنَى وياربَّ عَفِّوْكَ عما اجْتَرَمَ

١٨٠ - ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر ابن عيشون . قال الفتح ^١ : رجل حلَّ المشيَّدات والبلاقع ، وحكى النسرین الطائر والواقع ، واستدرَّ خِلْفَي البؤس والنعيم ، وقعد مَقْعَدَ البائس والزعيم ، فأَوَّنة في سماط ، وأخرى بين درانك وأنماط ، ويوماً في ناووس ^٢ ، وأخرى في مجلس مأنوس ، رحل إلى المشرق فلم يحمِد رحلته ، ولم يعلق بأمل نخلته ، فارتد على عقبه ، ورُدَّ من حباله القوت إلى منتظره ومرتقبه ، ومع هذا فله تحقُّق بالأدب ، وتدفُّق طبع إذا مدح أو نسب ، وقد أثبت له ما تعلَّم حقيقة نفاذه ، وترى سرعة وخده في طريق الإحسان وإغذاذه .

ثم قال : وأخبرني أنه دخل مصر وهو سارٍ في ظُلُم البوس ، عارٍ من كل لبوس ، قد خلا من النقد كيسه ، وتخلَّى عنه إلا تعذيره ^٣ وتنكيسه ، فنزل بأحد

١ انظر قلائد المقيان : ٢٨٨ .

٢ القلائد : الناموس .

٣ القلائد : تعذيره .

شوارعها لا يفترش^١ إلا نكده ، ولا يتوسد^٢ إلا عضده ، وبات بليلة ابن عبدل^١ ،
تهب عليه صرصر لا ينفخ منها عنبر ولا مندل ، فلما كان من السحر دخل عليه
ابن طوفان فأشفق لحاله ، وفرط إجماله ، وأعلمه أن الأفضل ابن أمير الجيوش
استدعاه ، ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيها له لأخصب^٣ مرعاه ، فصنع له في حينه :

قل للملوك وإن كانت لهم هيم^٤ تأوي إليها الأماني غير متئد
إذا وصلت بشاهنشاه^٥ لي سبباً فلن أبالي بمن منهم نقضت يدي
من واجه الشمس لم يعدل بها قمرأ^٦ يعشو إلى ضوئه لو كان ذا رمد

فلما كان من الغد وافاه فدفع إليه خمسين مثقالاً مصرية وكسوة
وأعلمه أنه غناه ، وجوّد الإظهار للفظه ومعناه ، وكرره ، حتى أثبتته في سمعه
وقرره ، فسأله عن قائله فأعلمه بقائلته ، وكلمته في رفع خلاته ، فأمر له بذلك .
وله أيضاً رحمه الله تعالى :

قصدت على أن الزيارة سنة^٧ يؤكد لها فرض^٨ من الود واجب
فألفيت باباً سهلاً الله إذنه^٩ ولكن عليه من عبوسك حاجب
مرضت ومرضت الكلام تناقلاً^{١٠} إلي إلى أن خلت أنك عاتب
فلا تتكلف للعبوس مشقة^{١١} سأرضيك بالهجران إذ أنت غاضب
فلا الأرض تدمير^{١٢} ولا أنت أهلها ولا الرزق إن أعرضت عني جانب
وله يستعيني^{١٣} :

كبت^{١٤} ولو وفيت برك^{١٥} حقه^{١٦} لما اقتصرت كفتي على رقم قرطاس
ونابت^{١٧} عن الخط الخطا وتبادرت^{١٨} فطوراً على عيني وطوراً على راسي

١ إشارة إلى الحكم بن عبدل أحد شعراء العصر الأموي وأوصافه لما يقاسيه من هموم بالليل .

٢ القلائد : فتحه .

٣ الضمير عائذ إلى الفتح بن خاقان صاحب القلائد .

سل الكأس عني هل أدبرت فلم أصغ مديحك أحياناً يسوغ بها كاسي
وهل نافح الآس الندامي فلم أذع ثنائي^١ أذكى من منافحة الآس

١٨١ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطَّبَّي ، وهو
عبد الملك بن زيادة الله^٢ . قال في الذخيرة : كان أبو مروان هذا أحدَ حُماة
سَرَحِ الكلام ، وحملة ألوية الأعلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر ، اشتهار
المنزل بالبدر ، أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار^٣
شمئل الطاعة ، وأناخوا في ظلها ، ولحقوا بسراوات أهلها ، وأبو مُضَرَّ أبوه
زيادة الله بن علي التميمي الطَّبَّي هو أول من بني بيت شرفهم ، ورفع في
الأندلس صوته بنباهة سلفهم .

قال ابن حيان : وكان أبو مُضَرَّ نديم محمد بن أبي عامر أمتع الناس حديثاً
ومشاهدةً ، وأنصعهم^٤ ظرفاً ، وأحذقهم بأبواب الشحد والملاطفة ، وآخذهم
بقلوب الملوك والخلّة ، وأنظمهم لشمئل إفادة ونجعة ، انتهى المقصود منه .
ثم قال في الذخيرة : فأما ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث
والرواية ، ورحل إلى المشرق ، وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز ،
وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، انتهى .
وقد ذكر قصة قتله المستبشرة وأتهم باغتياله ابنه .

ومن نظم أبي مروان الطَّبَّي المذكور ما وجده صاحب الذخيرة في بعض
التعليق بخط بعض أدباء قرطبة ، قال : لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبي

١ القلائد : ثنائك .

٢ ترجمة عبد الملك بن زيادة الله ابن الطبي في الذخيرة ١/٢ : ٥٢ - ٥٧ والمغرب ١ : ٩٢ والصلة :

٣٤٣ .

٣ في بعض نسخ الذخيرة والتجارية : وانتشار .

٤ في ق : وأنصفهم ، والتصويب عن الذخيرة .

عامر على الحدّلي^١ في مجلسه وضربه ضرباً موجعاً ، وأقرّ بذلك أعين مطالبيه ،
قال أبو مروان الطُّبِّي فيه :

شكرتُ للعامريِّ ما صنعا ولم أقلْ للحدّليِّ لعا
ليثُ عَرَيْنَ عَدَا بعزته مفترساً في وجاره ضبعا
لا برحتُ كفه ممكنةً مِن الأمانِي فنعم ما صنعا
وددتُ لو كنتُ شاهداً لهما حتّى ترى العينُ ذُلَّ ما خضعا
إن طالَ منه سجوده فلقد طالَ لغير السجود ما ركعا

* * *

[موقف ابن بسام في الذخيرة من الهجاء]

قال ابن بسام^٢ : وابن رشيق القائل قبله :

كم ركعة ركع الصَّفْعان تحت يدي ولم يقل سمعَ الله لمن حمده
ثمَّ قال ابن بسام في الذخيرة ما نصّه : والعَرَبُ تقول « فلان يركع لغير
صلاة^٣ » إذا كنوا عن عهْرِ الخلوة ، ومن مליح الكناية لبعض المتقدمين
يخاطب امرأته :

قلت : التشيعُ حُبُّ أصْلَعِ هاشم فترفضي إن شئت أو فتشيغي
قالت : أصْلَعُ هاشم ، وتنفستِ بأبي وأمي كل شيء أصْلَعِ
ولما صنت كتابي^٤ هذا من شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء ،

١ الذخيرة : الحدلي .

٢ الذخيرة ١ / ٢ : ٦١ .

٣ الذخيرة : فلان يحبُّ المصا وفلان يركع . . . الخ .

٤ هذا من قول ابن بسام أيضاً إلى آخر القول في أقسام الهجاء .

أجريت ههنا طَلَقاً^١ من مليح التعريض ، في إيجاز القريض ، ممّا لا أدب على
 قائله ، ولا وَصْمَة عظمى^٢ على من قيل فيه ، والهجاء ينقسم قسمين : فقسم
 يسمونه هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مُقَدِّعاً ، ولا هجواً^٣
 مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثُلَّ عرش القبائل ، إنّما هو توبيخ
 وتعيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشي في بني العَجْلان ، وشهرة شعره
 منعني عن ذكره ، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ،
 وأنشدوه قول النجاشي فيهم ، فدرأ الحد بالشبهات ، وفعل ذلك بالزبرقان
 حين شكّا الخطيئة ، وسأله أن ينشد ما قاله فيه ، فأنشده قوله :

دعِ المكارمَ لا تَرَحَّلْ لبغيتها واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

فسأل عن ذلك كعب بن زهير ، فقال : والله ما أودُّ بما قال له حُمُر النعم ،
 وقال حسان : لم يَهْجُهُ ، ولكن سَلَحَ عليه بعد أن أكل الشُبْرُمَ ، فهم
 عمر ، رضي الله تعالى عنه ، بعقابه ، ثم استعطفه بشعره المشهور .
 وقال عبد الملك بن مروان يوماً : أحسابكم^٤ يا بني أمية ، فما أود أن يكون
 لي ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال في :

تبيتون في المشتى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وجاراتُكم غَرثِي يَبِيتُن خِمَائِصَا

ولما سمعَ علقمة بن علاثة هذا البيت بكى ، وقال : أنحن نفعل هذا
 بجاراتنا ؟ ! ودعا عليه ، فما ظنك بشيء يهكي علاثة ، وقد كان عندهم لو
 ضُرب بالسيف ما قال حسن .

١ الذخيرة : طرفاً .

٢ الذخيرة : أعظم .

٣ الذخيرة : هجراً .

٤ الذخيرة : احفظوا أحسابكم .

وقد كان الراعي يقول : هجوت جماعة من الشعراء ، وما قلت فيهم ما تستحي العذراء أن تشده في خدرها .

ولما قال جرير :

فغُضَّ الطَّرْفُ إنك من نُمير فلا كَعْباً بلغت ولا كلاباً

أطفأ مصباحه ونام ، وقد كان بات ليلته يتململ ، لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه .

قال الراعي : فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا إليه ، حتى أتينا حاضر بني نمير فخرج إلينا النساء والصبيان يقولون : قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به .

والقسم الثاني : هو السباب الذي أحدثه جرير أيضاً وطبقته ، وكان يقول :
إذا هجوتم فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً ، ولا عُيرت به قبيلة ، وهو الذي صنّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه ، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمة ما شأنه اسمه ، وبقي عليه إثمه .

ومن مליح التعريض لأهل أفتنا قول بعضهم في غلام كان يصحب رجلاً يسمى بالبعوضة :

أقولُ لشادنكمُ قولةٌ ولكنها رمزةٌ غامضةٌ
لزومُ البعوضِ لهُ دائماً يدلُّ على أنها حامضةٌ

وأنشدت في مثله قول بعض أهل الوقت :

بيتي وبينك سرٌّ لا أبوحُ بهِ الكلُّ يعلمه والله غافره

وحكى أبو عامر ابن شهيد عن نفسه قال : عاتبت بعض الإخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبي ، وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت :

وإني على ما هاج صدرِي وغازِطِي ليأمنُنِي من كانَ عُنْدِي لهُ سُرٌّ

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ، ولم يزل يقلق به حتى بكى
إلى منه بالدموع ، وهذا الباب ممتدّ الأطناب ، ويكفي ما مرّ ويمرّ منه في أضعاف
هذا الكتاب ، انتهى كلام ابن بسام في الذخيرة بلفظه .

* * *

[من محطبة الذخيرة]

ولا خفاء أنّه عارض بالذخيرة يتيمةً الثعاليّ ، ولذا قال في خطبة
الذخيرة^١ : أمّا بعد حمد الله وليّ الحمد وأهله ، والصلاة على سيّدنا محمد
خاتم رُسُلِهِ ، فإن ثمرة هذا الأدب ، العالي الرتب ، رسالة تنثر وترسل ،
وأبيات تُنظّم وتُفصّل ، تتثال تلك انثيال القِطار ، على صفحات الأزهار ،
وتتصل هذه اتصال القلائد ، على نُجُور الخرائد ، وما زال في أفقنا هذا الأندلسي
القصيّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّين ، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم طيب
مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة مَوَارِد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام
المشقق ، لعب الدُّجى بِمُحْفُوفِ المورّق ، وحدّوا بفنون السحر المنمّق ، حداء
الأعشى بنبات المُحَلَّق ، فصبّوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ،
وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بمعجائب الأشعار والرسائل ، نثر لو رآه البديع
لنسي اسمه ، أو اجتلاه ابنُ هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كثير ما نسب
ولا مدح ، أو تتبعه جرّول ما عوى ولا نبج ، إلا أن أهل هذا الأفق أبَوْا إلا
متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة^٢ ، رجوع الحديث إلى قِتادة ،
حتى لو نَعَقَ بتلك الآفاق غُرّاب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لحسّوا

١ انظر مقدمة الذخيرة ج ١ / ص ١ .

٢ الذخيرة : المعتادة .

على هذا صَنَمًا ، وتلوا ذلك كتاباً مُحْكَمًا ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصبة ، ومناخ الرذيلة ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاطني منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحوره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديماً ضيعوا العلم وأهله ، وربّ محسن مات إحسانه قبله ، وليت شعري مَنْ قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان ، وقد كتبت لأرباب هذا الشأن ، من أهل الوقت والزمان ، محاسن تبهر الأبواب ، وتسحر الشعراء والكتّاب ، ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية ، ولا المدائح العامرية ، إذ كان ابن فرج الجيّاني قد رأى رأيي في النصّف ، وذهب مذهبي من الأنفة ، فأمل في محاسن أهل زمانه كتاب « الحقائق » معارضاً لكتاب « الزهرة » للأصبهاني ، فأضربت أنا عمّا ألف ، ولم أعرض لشيء مما صنف ، ولا تعدّيت أهل عصري ، ممّا شاهدته بعمرى أو لحقه أهل دهري ، إذ كلُّ مُردّدٍ ثَقِيلٍ ، وكلُّ متكرّرٍ مملول ، وقد مَجَّتْ الأسماع :

يا دار مية بالعلياء فالسند

إلى أن قال بعد ذكره أنّه يسوق جملة من المشاركة مثل الشريف المرتضى والقاضي عبد الوهاب والوزير ابن المغربي وغيرهم ممّن يطول ، ما صورته : وإنّما ذكرت هؤلاء اثشاءً بأبي منصور ، في تأليفه المشهور ، المترجم بـ « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » . انتهى المقصود منه .

* * *

١ الذخيرة : ويا رب .

[الجراوي يهجو قومه]

قلت : وتذكرت بما أنشده في الهجاء قول الباقعة الشاعر المشهور أبي العباس أحمد الغفجومي^١ الشهير بالجوّاري ، وعامة الغرب يقولون الجراوي ، يهجو قومه بني غفجوم وهم بربر بيتادلا ، متوصلاً بذلك إلى هجو أصلاء فاس بني الملجوم ، ومستطرداً في ذلك ما هو في اطراذه كالماء السجوم ، وهو قوله :

يا ابن السبيل إذا مررت بيتادلا لا تنزلنّ على بني غفجوم
أرضٌ أغار بها العدو فلن ترى إلاّ مجاورة الصدى لليوم
قومٌ طووا ذكر الساحة بينهم لكنّهم نشروا لواء اللّوم
لا حظّ في أموالهم ونوالهم للسائل العافي ولا المحروم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصّراخ بدعوة المظلوم
يا ليّثني من غيرهم ولو أنّني من أرض فاس من بني الملجوم

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحد بني الملجوم قضاة فاس وأصلانها بيعت أوراق كتبه التي هي غير مجلّدة بل متفرقة بستة آلاف دينار ، ويكفيك ذلك في معرفة قدر القوم ، ومع ذلك هجاهم بهذا ، والله سبحانه يغفر الزلات .

رجع إلى ما كنا فيه من ذكر من ارتحل من علماء
الأندلس إلى البلاد المشرقية المحروسة ، فنقول :

١٨٢ — ومنهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد

١ هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي (- ٦٠٩) دخل الأندلس متردداً عليها وكان عالماً بالآداب ، وقف ابن الأبار على ديوان شعره وألف كتاباً سماه « صفوة الأدب ونخبة كلام العرب » ، وكانت وفاته بإشبيلية . ولم أجد أحداً سواه بنير « الجراوي » ولعله أن يكتب « الكواري » أو « القواري » ، لأنه يلفظ بجم مصرية . انظر التكملة : ١٢٨ وصفحات مختلفة =

الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان^١ ، من أهل قرطبة ، ويُعرف بدحّون ، رحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وحج ، ولقي أهل الحديث فكتب عنهم ، وقفل بعلم كثير ، وكانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها ، وهو يلبس الوشي الشامي ، إلى أن أوصى إليه الأمير عبد الرحمن بترك ذلك ، فتركه ، وتوفي بعد المائتين .

ومن شعره قوله :

قالَ العَدُولُ : وأين قلبك ؟ كلَّما رُمْتُ اهتدائك لم يزل متحيراً
قُلْتُ : اتَّشِدَّ فالقَلْبُ أَوَّلُ خائنٍ لَمَّا تَغَيَّرَ مَنْ هَوَيْتُ تَغَيَّرَا
وَنَأَى فَبَانَ الصَّبْرُ عَنِّي جُمْلَةً وَبَقِيَ مَسْلُوبَ العَزَاءِ كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام ، وكان أديباً عالماً فقيهاً ، رحم الله تعالى الجميع . ودخل دمشق وطنهم الأقدم وعاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرج الرُّخْجِي ، فوافق دخوله إياها غلاء شديداً ومجاعة أشكت أهلها ، فضجوا إلى الرُّخْجِي أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد ، فأمر بالنداء في المدينة على كل مَنْ بها من طارئ وابن سبيل ليخرجوا عنها ، وضرب لهم أجلاً ثلاثة أيام أوعد من تخلف منهم بعدها بالعقاب ، فابتدر الغرباء الخروج عنها ، وأقام دَحُون لم يتحرك ، فجاء به إلى الرُّخْجِي بعد الأجل ، فقال له : ما بالك عصيت أمري ؟ أو ما سمعت ندائي ؟ فقال له دَحُون : ذلك النداء الذي وقَّفتني ، فقال له : وكيف ؟ فأنتمي له ، فقال

= من البيان المغرب (طبع تطوان ١٩٦٠) . ويجب التمييز بينه وبين أبي العباس الجراوي المسمى أحمد بن حسن بن سيد فهذا الثاني مالقي أصيل (انظر تحفة القادم : ٤٤ ومخطوطة الوافي ٨ : ٦٤ من مسودة المؤلف) وقد خلط بينهما عبد القادر محمّد في حواشيه على زاد المسافر لصفوان ص : ٧ .
١ ترجمة دحون في التكملة : ٢٧٧ والمقتبس : ٩٤ (تحقيق الدكتور محمود مكّي) وانظر نسب الحبيبيين في جمهرة ابن حزم : ٨٩ - ٩٠ .

له الرُّحْجِي : صدقت والله إنك لأحقُّ بالإقامة فيها منّا ، فأقم ما أحييت ، وانصرف إذا شئت .

وكان لدَحَوْن هذا ابن يقال له بشر بن حبيب ، ويُعرف بالحبيبي ، وهو من المشهورين بقرطبة ، وأمه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه ، وبنته عبدة بنت بشر مشهورة ، ولها رواية عنه ، رحم الله تعالى الجميع .

١٨٣ - ومنهم بهلول بن فتح من أهل أقليم^١ ، له رحلة حج فيها ، وكان رجلاً صالحاً خيراً ، حكى عن نفسه أنه رأى في منامه بعد قدومه من الحج كأنه بمكة وقائل يقول : انطلق بنا نصل مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : فكنت أقول لرجل من جيراني بأقليم : يا أبا فلان انطلق بنا نصل مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيقول لي : لست أجد إلى ذلك سبيلاً ، فكنت أتوجه وأصلي مع الناس والنبي ، صلى الله عليه وسلم ، إمامنا ، فلما سلّم من الصلاة رجع إليّ وقال لي : من أين أنت ؟ قلتُ له : من الأندلس ، فكان يقول : من أي موضع ؟ فكنت أقول : من مدينة أقليم ، فيقول لي : أتعرف أبا إسحاق البوّافي ؟ فكنت أقول : هو جاري ، وكيف لا أعرفه ؟ فيقول لي : أقرئه منّي السلام .

١٨٤ - ومنهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولي ، الشاطبي^٢ . روى عن أبي زيد عبد الرحمن بن يعيش المهري^٣ ، ورحل حاجاً ، فسمع منه بالإسكندرية أبو الحسن ابن الفضل المقدسي ، وحدث عنه بالحديث المسلسل في الأخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبي محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد ابن خلف الأنصاري عن أبي الحسن طاهر بن مُفَوِّز ، وعليه مداره بالأندلس ،

١ ترجمة بهلول الأقليميّ في التكملة : ٢٢٧ .

٢ انظر ترجمته في التكملة : ٢٣٦ .

٣ التكملة : المروي .

عن نصر السمرقندي بإسناده ، وفيه بعد ، قال الحافظ ابن الأثير : وقد رويته
مسلسلاً من طرق بعضها عن ابن المفضل ، وأنبأني به ابن أبي جَمْرَةَ عن أبي
بحر الأسدي ، عن نصر السمرقندي ، فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه ممن
سمعه مني ، والحمد لله تعالى ، انتهى .

١٨٥ - ومنهم أبو أحمد جعفر بن لُبِّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس
ابن ميمون ، اليحصبي^١ ، سكن شاطبة ، وأصله من أنشيان عملها ، ويكنى أبا
الفضل أيضاً ، حج وسمع أبا طاهر ابن عوف والحافظ السلفي وأبا عبد الله ابن
الحضرمي وأبا الثناء الحراني وبدر بن عبد الله الحبشي وأبا الحسن ابن المفضل
وغيرهم ، وكان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح والعدالة ، حسن الخط
جيد الضبط سماه التَّجِيبي في معجم مشيخته وهو في عداد أصحابه لاشتراكهما
في السماع بإسكندرية وتركه هنالك ، ثم قدم عليه تلمسان من شاطبة في أضحى
سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وحكى مما أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد الله
الکيزاني^٢ - وكان شاعراً مجيداً - أته امرأة مات ولدها ، فسألته أن يرثيه ،
فقال :

تبكي عليه بشجٍ فقلت لا تندبيه
هذا زمان عجيب قد عاش من مات فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع ابن سالم وقال : إنّه توفي بعد التسعين
 وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمة ابن لب الشاطبي في التكملة : ٢٤٢ .

٢ هو الفقيه الواعظ المصري أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن
الکيزاني (٥٦٠ -) تنتمي إليه الطائفة الكيزانية وله شعر رقيق يذهب فيه مذهب المتصوفة
(انظر الخريدة ٢ : ١٨ قم مصر ووفيات الأعيان رقم : ٦٥٠ والوافي ٢ : ٣٤٧ والمغرب
(قم مصر) ١ : ٢٦١ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٦٨ .

١٨٦ - ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه ، الخزاعي ، العابد^١ ، من أهل قسطنطينية عمل دانية ، أخذ القراءات عن ابن هذيل ، وسمع منه ومن ابن النعمة بيلنسية ، ورحل حاجاً فأدى الفريضة ، ودخل الإسكندرية مرافقاً لمن سمع من السلفي ، ولم يسمع منه هو شيئاً ، قال ابن الأبار : فيما علمت ، وقفل إلى بلده مائلاً إلى الزهد والإعراض عن الدنيا ، وكان شيخ المتصوفة في وقته ، وعلا ذكره ، وبعد صيته في العبادة ، إلا أنه كانت فيه غفلة ، قال ابن الأبار : ورأيتُهُ إذ قدم بلنسية لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة ، وتوفي عن سن عالية تقارب المائة ، منتصف ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة ، وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتى ، وانتاب الناس قبره دهرًا طويلاً يتبركون بزيارته إلى حين إجلاء الروم من كان يشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الأندلس التي تغلبوا عليها ، وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة .

١٨٧ - ومنهم أبو جعفر النحوي^٢ ، أندلسي نزل مصر ، وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو ، وممن له حال جليلة ، ذكره الطُّبُّنِي فيما حكاه ابن الأبار .

١٨٨ - ومنهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله ، الخزرجي القرطبي ، وكناه بعضهم أبا الفضل^٣ ، سمع ببلده من أبي محمد ابن عتاب وغيره ، ورحل حاجاً فأدى الفريضة ، وكان أديباً ناظماً ، كتب عنه أبو محمد العثماني بالإسكندرية بعض شعره .

١٨٩ - ومنهم أبو الحسن جَهْوَز بن خلف بن أبي عمر ابن قاسم بن ثابت

١ ترجمته في التكملة : ٢٤٤ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٤٤ .

٣ ترجمته في التكملة : ٢٤٦ .

المعافري^١ . رحل حاجاً إلى المشرق فأدى الفريضة ، وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وسمع أيضاً من غيره ، وطال مكثه هنالك ، وهو - فيما رجحه بعضهم^٢ - من أهل غرب الأندلس .

١٩٠ - ومنهم أبو علي الحسن بن حَقَص بن الحسن ، البَهْراني الأندلسي^٣ ، رحل وتحوّل ببلاد المشرق ، فسمع أبا محمد عبد الله بن حَمَوِيَه وأبا حامد أحمد ابن محمد بن رجاء بَسْرَخَسَ ، وأبا محمد ابن أبي شُرَيْح بِهَرَاة ، وأبا عبد الله الحسين بن عبد الله المفلحي بالأهواز ، وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمد بن الخليل وأبا حاتم حامد بن العباس وأبا محمد الحسن بن رشيق بمصر ، وقدم دمشق فروى عنه من أهلها تمام بن محمد ، وبنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره .

ذكره ابن عساكر وقال : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا : أنا أبو بكر أحمد بن منصور ، أنا أبو علي الحسن بن جعفر القضاعي ، وأنا الحسن بن رشيق بمصر ، أنا المفضل بن محمد الجندي ، أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري ، قال : سمعت مالك بن أنس يقول : لا يُحْمَلُ العلم عن أهل البِدَاعِ كلهم ، ولا يحمل العلم عمن لم يُعْرَف بالطلب ومجالسة أهل العلم ، ولا يحمل عمن يكذب في حديث الناس ، وإن كان في حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صادقاً ؛ لأن الحديث والعلم إذا سُمِع من العالم فقد جُعِلَ حجة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى ، وإنما قال فيه « القضاعي » لأن بهراء من قضاة .

١٩١ - ومنهم أبو علي الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد ،

١ ترجمته في التكملة : ٢٥٤ .

٢ قال ابن الأبار : أحسبه من أهل غرب الأندلس .

٣ ترجمته في التكملة : ٢٥٥ وتهذيب ابن عساكر ٤ : ١٧٢ .

الأموي^١ . من أهل دانيّة ، ويُعرف بابن برّنجال ، سمع من أبي بكر ابن صاحب الأحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما ، وله رحلة حج فيها وسمع من أبي إسحاق إبراهيم بن صالح القروي ، وبيت المقدس من أبي الفتح نصر بن إبراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة ، وبعسقلان من أبي عبد الله محمد ابن الحسن بن سعيد التّجّبي ، وأخذ عنه « كتاب الوقف والابتداء » لابن الأنباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه ، وكان فقيهاً على مذهب مالك ، وولي الأحكام ببلده ، وحدث ، وأخذ عنه ، وسمع الناس منه بالإسكندرية سنة تسع وستين ، ثم بدانيّة سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وتوفي في نحو الخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

١٩٢ - ومنهم أبو علي الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقي ، الجذامي ، المالقي^٢ ، روى بقرطبة عن أبي محمد ابن عتّاب ، وعن أبي سكرة الصّدّقي بمُرْسِيّة سنة ثمان وخمسمائة ، وصحب أبا مروان ابن مَسْرّة ، وكان من أهل الرواية والتقييد ، وكانت له رحلة سمع فيها من أبي طاهر السلفي مجالسه التي أملاها بسَلّماس برجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفي بخط السلفي ، وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكّة ، وحدث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتّنّوخي من أهل الإسكندرية بكتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، وأجاز له إجازة عامّة في السنة السابقة ، وقال ابن عساكر في تاريخه ، وذكر أبا ذر الهروي : سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ الأندلسي بنيسابور يقول : سمعت أبا علي الحسن بن علي الأنصاري البطليوسي ، قال ابن عساكر : وقد لقيته ، ولم أسمعها منه ، قال : سمعت أبا علي الحسن بن إبراهيم بن تقي الجذامي المالقي يقول : سمعت بعض

١ ترجمته في التكملة : ٢٥٧ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٥٨ ومعجم أصحاب الصّدّقي : ٧٢ .

الشيوخ يقول : قيل لأبي ذر الهروي : أنت من هَرَاة ، فمن أين تمذهبت لمالك والأشعري ؟ فقال : إنني قدمت بغداد أطلب الحديث ، فلزمت الدارقطني ، فلما كان في بعض الأيام كنت معه ، فاجتاز به القاضي أبو بكر ابن الطيب ، فأظهر الدارقطني من إكرامه ما تعجبت منه ، فلما فارقه قلتُ : أيها الشيخ الإمام مَنْ هذا الذي أظهرت من إكرامه ما رأيت ؟ فقال : أوَمَا تعرفه ؟ قلت : لا ، فقال : هذا سيف السنة أبو بكر الأشعري ، فلزمت القاضي منذ ذلك ، واقتديت به في مذهبه ، انتهى .

١٩٣ - ومنهم أبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمر ، الأنصاري ، البَطْلَيْوْسِي^١ ، رحل إلى المشرق ، فأدى الفريضة ، ونجول هناك ، ولقي أبا الحسن ابن المُفَرَّج الصقلي وأبا عبد الله الفراوي ، فسمع منهما الصحيحين بعلو ، وسمع من أبي الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود ، وحدث بالموطأ عن أبي بكر الطرطوشي ، وله أيضاً رواية عن زاهر بن طاهر الشَّحَامِي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري سمع منه مقاماته الخمسين ببُستَّانه من بغداد ، ونزل بمكة ، وجاور بها ، وحدث فيها وفي غيرها ، وأسنَّ ، وكان ثقة مسنداً يروي عنه أبو عبد الله ابن أبي الصيف اليمني وأبو جعفر ابن شراحيل الأندلسي وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الإربلي ، وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسائة ، وقد لقيه أبو القاسم ابن عساكر الحافظ وروى عنه .

١٩٤ - ومنهم أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري^٢ : من أهل لرية عمل بِلَنْسِيَّة ، ويُعرف بابن الرَّهْبِيل^٣ ، سمع من أبي الحسن ابن النعمة

١ ترجمته في التكملة : ٢٦٠ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٦١ .

٣ التكملة وإحدى النسخ : الرهيبيل .

كثيراً ، واختص به ، وعنه أخذ القراءات ، وسمع من ابن هذيل أيضاً ، ثم رحل حاججاً ، فلقي بالإسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السلفي وأبا عبد الله ابن الحضرمي ، وسمع منهما ، وجاور بمكة ، وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري ، وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي عن أبيه ، وسمع أيضاً من أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي ، وأجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وأبو محمد عبد الحق ابن عبد الرحمن الإشبيلي بيجاية عند صدوره في ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وقفل إلى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والإقبال على ما يعنيه ، وكان قد خطب به قبل رحلته ، وحكى التَّجِيبِي أن طلبة الإسكندرية تراحموا عليه لسماع « التيسير » لأبي عمرو المقرء منه بروايته عن ابن هذيل سماعاً في سنة ثلاث وخمسين ، وصارت له بذلك عندهم وجاهة ، وبعد قُفُوله أصابه خَبَرٌ منعه من التصرف ، وكان الصلاح غالباً عليه ، وتوفي غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وكانت جنازته مشهودة ، رحمه الله تعالى .

١٩٥ — ومنهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حي ، التَّجِيبِي ، القرطبي^١ ، أخذ علم العدد والهندسة عن أبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن بُرْغُوث^٢ ، وكان كلفاً بصناعة التعديل ، وله زُججٌ مختصر ذكره القاضي صاعد ونسبه ، وحكى أنه خرج من الأندلس في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة بعد أن نالته بها وبالبحر مَحَنٌ شَدَاد ، ولحق بمصر ، ثم رحل عنها إلى اليمن ، واتصل بأميرها ، فحظي عنده ، وبعثه رسولاً إلى القائم بأمر الله الخليفة ببغداد ، ونال هناك دنيا عريضة ،

١. ترجمته في طبقات صاعد : ٧٣ والتكملة : ٢٧٣ .

٢. انظر ترجمة ابن برغوث في طبقات صاعد : ٧١ . وكان هذا متحققاً بالعلوم الرياضية وخاصة الفلك (توفي سنة ٤٤٠) .

وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست وخمسين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

١٩٦ - ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد ، الكلاعي^١ ، أخذ بقرطبة عن أبي المطرف القنازعي وغيره ، ورحل إلى المشرق ، وحدث بالإسكندرية فسمع منه بها يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن شبل « شرح الاعتقاد » من تأليفه ، ورسالة « قمع الحيرص وقصّر الأمل والحث على العمل » ، وذلك في سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولقيه هنالك أبو مروان الطَّبَّتي ، فسمع منه بعض فوائده .

١٩٧ - ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جبَّير^٢ ، من أهل طَرطُوشة ، يُعرف بالجبَّيري ، وهو والد أبي عبيد القاسم بن خلف الجبيري الفقيه ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، ومعه رَحَل ابنه وهو صغير ، وكان من أهل العلم والزهادة ، وعليه نزل القاضي مُنذِر بن سعيد بطَرطُوشة في ولايته قضاء الثغور الشرقية ، قال أبو عبيد : نزل القاضي مُنذِر بن سعيد على أبي بطَرطُوشة ، وهو يومئذ يتولى القضاء في الثغور الشرقية قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة ، فأنزله في بيته الذي كان يسكنه ، فكان إذا تفرغ نظر في كتب أبي ، فمر على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربّه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم ، ولم يذكر عليّاً فيهم ، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مَرَّوان إلى عبد الرحمن بن محمد ، فلمّا رأى ذلك منذر غضب وسبّ ابن عبد ربّه ، وكتب في حاشية الكتاب :

أوما عليّ - لا برحت ملعناً يا ابن الخيثة - عندكم بإمام ؟

١ ترجمته في التكملة : ٢٨٥ .

٢ ترجمته في التكملة : ٢٩٢ .

ربُّ الكساء وخير آلِ محمدٍ داني الولاء مُقدِّمُ الإسلامِ .
قال أبو عبيد : والأبيات بخطه في حاشية كتاب أبي إلى الساعة ، وكانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ثلاثين وثلاثمائة .

١٩٨ - ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف ، الغرناطي^١ ، له رحلة روى فيها بالإسكندرية عن مهدي بن يوسف الوراق ، وحدث عنه أبو العباس ابن عيسى الداني « بالتلقين » للقاضي عبد الوهاب .

١٩٩ - ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون ، القنطري^٢ ، من قنطرة السيف ، وسكن بطليوس^٣ ويعرف بابن الروية ، رحل حاجاً فأدى الفريضة ، ولقي بمكة رزيق بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في « تجريد الصحاح » سنة خمس وخمسمائة ، وفيها حج وقفل إلى بلده بعد ذلك ، وكان فقيهاً مشاوراً ، حدث عنه ابن خير في كتابه إليه من بطليوس في نحو الثلاثين وخمسمائة .

٢٠٠ - ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسي^٤ ، رحل حاجاً إلى المشرق ، وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلاثمائة وأبا بكر مسرة بن مسلم الصدي ، حدث ، وأخذ عنه .

٢٠١ - ومنهم طاهر الأندلسي ، من أهل مالقة ، يكنى أبا الحسين^٥ ، رحل إلى قرطبة ، وخرج منها لما دخلها البرابر عتوة سنة ثلاث وأربعمائة ،

١ ترجمته في التكملة : ٢٩٩ .

٢ ترجمته في التكملة : ٣٠٢ .

٣ ترجمته في التكملة : ٣٣٤ .

٤ ترجمته في التكملة : ٣٤٠ .

فلم يزل بمكة إلى حدود الخمسين وأربعمائة ، وكان من أصحاب أبي عمر الطلمنكي وملازميه لقراءة القرآن ، وطلب العلم مع أبي محمد الشننجلي وأبي أيوب الزاهد إمام مسجد الكوايين بقرطبة ، وجاور بمكة طويلاً ، وأقرأ على مقربة من باب الصفا ، وكان الشيبون يكرمونه ويفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام ، ذكره الطُّبِّي ، قال ابن الأبار : وأحسبه المذكور في برنامج الحولاني ، والذي قرأ لهم أكثر المدونة على أبي عمر أحمد ابن محمد الزيات ، انتهى .

٢٠٢ - ومنهم أبو الطاهر الأندلسي ، من أهل لبلة^١ ، نزل مصر ، وكانت له حلقة بجوامع عمرو بن العاص ، وكان - رحمه الله تعالى - نحوياً ، له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتأديب بالنحو ، ثم ترك ذلك .

٢٠٣ - ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش ، المنصفي ، المخزومي^٢ ، والمنصفي نسبة إلى قرية بغربي بلنسية ، ويكنى أيضاً أبا الحسن ، رحل قبل العشرين وخمسائة ، فآدى الفريضة ، وجاور بمكة ، وسمع بها من أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري ، ومن الشريف أبي محمد عبد الباقي الزهري المعروف بشُقْران أخذ عنه كتاب « الإحياء » للغزالي عن مؤلفه ، وسمع بالإسكندرية من أبي بكر الطرطوشي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي عبد الله الرازي وأبي طاهر السلفي وغيرهم ثم قفل إلى بلده فحدث ، وأخذ الناس عنه ، وسمعوا منه ، وكان شيخاً صالحاً عالي الرواية ثقة ، قال ابن عياد : لم ألق أفضل منه ، وكان مُجَاب الدعوة ، وحدث عنه بالسماع والإجازة جِلَّةٌ منهم أبو الحسن ابن هذيل وأبو محمد القلني وأبو مروان ابن الصيقل وأبو العباس الإقليشي

١ ترجمته في التكملة : ٣٤٢ .

٢ ترجمته في التكملة : ٣٤٣ .

وأبو بكر ابن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي وأبو بكر ابن جُزَيّ وغيرهم ، ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبي العباس الإقليشي وأبي الوليد ابن خيرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وقد نيّف على السبعين ، فأقام بمكة مجاوراً إلى أن توفي بها عن سن عالية - رحمه الله تعالى - سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

٢٠٤ - ومنهم محمد بن إبراهيم بن مُزَيْنِ الأودي^١ من أهل أکشونية غربي الأندلس ، يكنى أبا مُضَر ، ولاء عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة ، وذلك في المحرم سنة سبعين ومائة ، وأقام أشهراً ، ثم استغنى فأغفاه ، ورحل حاجتاً فأدى الفريضة ، وسمع في رحلته إمامنا مالك بن أنس وانصرف ومات عن سن عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة ، وذكره ابن شعبان في الرواة عن مالك وحكى أنّه روى عنه : من قطع لسانه استئوى به عاماً . وأن مالكا قال له : قد بلغني أن بالأندلس من نبت لسانه فإن لم ينبت أقيده ، انتهى .

٢٠٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد حيتّاز ، الشاطبي ، الأوسي ، قدم مصر ، وكان قد أخذ عن ابن بُرْطُلَه وابن البراء وغيرهما ، وعمل فهرست شيوخه على حروف المعجم ، وحج وعاد إلى بلده ، ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثمانين عشرة وسبعمائة ، رحمه الله تعالى وغفر له .

٢٠٦ - ومنهم القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة ابن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الإشبيلي^٢ . قال أبو شامة^٣ : هو من

١ ترجمته في التكملة : ٣٥٥ والذيل والتكملة ٦ الورقة : ٣٩ (نسخة باريس) .

٢ ترجمة أبي مروان الباجي هذه مكررة ، انظر رقم : ١٧٢ .

٣ انظر ذيل الروضتين : ١٦٤ .

بيت كبير بالأندلس يُعرف ببني الباجي مشهور كثير العلماء والفضلاء ، وأصلهم من باجة القيروان ، وليس منهم القاضي أبو الوليد الباجي الفقيه ، فإنه من بيت آخر من باجة الأندلس ، وقدم أبو مروان حاجاً من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ونزل عندنا بالمدرسة العادية ، وجدّه الأعلى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن علي قدم إلى الديار المصرية ، وحجّ منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويُعرف بصاحب الوثائق ، وسمعا بها من جماعة من العلماء ، وذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في « جذوة المقتبس »^١ ، وكتّاه أبا عمر ، وذكر أنه سكن إشبيلية وأُتِيَ عليه كثيراً ، وقال : مات في حلود الأربعمئة ، وروى عنه ابن عبد البر وغيره .

وأبوه عبد الله بن محمد بن علي يُعرف بالرواية ، ذكره الحميدي^٢ أيضاً . وذكر ابن بَشْكُوَال في « الصلة »^٣ عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأُتِيَ عليه ، وقال : توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الأخلاق فاضلاً متواضعاً محسناً ، وسمعته يقول ، وقد سئل إعارة شيء ، فبادر إليه ، ثم قال : عندي في قوله تعالى ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ هو كل شيء .

واستفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة ، وهي معاينة قدر مدّ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو عندهم متّوارثٌ ، وقد أخبر عن ذلك أبو محمد ابن حزم في كتابه « المحلى » وعابرت بذلك المدّ الذي لنا بدمشق حينئذ ، وهو الكيل الكبير ، فوجدت مدّنا يسع صاعين إلا يسيراً ، ووجدته ممسوحاً يسع صاعاً ونصفاً وشيئاً فيكون مدان ممسوحان ثلاثة أصع زائدة ، وقرأت في كتاب

١ الجذوة : ١٢٠ .

٢ الجذوة : ٢٣٣ .

٣ الصلة : ٣٤٧ .

« المحلى » لابن حزم ، قال أبو محمد ^١ : وخُرِطَ لي مُدٌّ على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، وهو عند أكثرهم ^٢ لا يفارق داره ، أخرجه إليّ ثقتي الذي كلفته ذلك علي بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي المذكور ، وذكر أنه مُدٌّ أبيه ، وأن جده أخذه وخرطه ^٣ على مُدٍّ أحمد بن خالد ، وأخبره أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى بن يحيى ، على مد مالك ، قال أبو محمد : ولا أشكُّ أن أحمد بن خالد صحَّحه أيضاً على مد محمد بن وضاح الذي صحَّحه ابن وضاح بالمدينة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . قال أبو محمد : ثم كَلَنَهُ بالقمح الطيب ، ثم وزنته فوجدته رطلاً ونصف رطل بالفلفلي لا يزيد حبةً ، وكلته بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب فوجدته رطلاً واحداً ونصف أوقية ، وسألت عن الرطل الفلفلي ، ف قيل لي : هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم ، وفي تقدير ابن حزم نظر .

وتوفي هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج ، رحمه الله تعالى . انتهى كلام أبي شامة ، وبعضه بالمعنى .

٢٠٧ - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد ، الواعظ ، الإشبيلي ، ثم المصري ^٤ ، فاضل شَرَحَ الصدور بلفظه ، ومتكلم أحيا القلوب بوعظه ، أحواله مشهورة ، ومجالسه بالذكر معمورة ، وله معرفة بالأدب ، وخبرة بالشعر والخطب ، وكلام وجهه حسن ، ونظم يمتاز به على كثير من أرباب

١ انظر المحلى ٥ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

٢ المحلى وأبو شامة : أكبرهم .

٣ المحلى : وذكر أنه مد أبيه وجده وأبي جده خرطه . . . إلخ . وما في النسخ موافق لما في ذيل الروضتين .

٤ هذا هو الشاعر المشهور باسم « الزين كشاكت » المصري (زين الدين كشاكت) أصل أهله من إشبيلية ، أما هو فقد ولد بتونس عام ٦٠٥ وعلى ذلك فلا يصح أن يدرج في سياق الراحلين من الأندلس (انظر ترجمته في الوافي ٧ الورقة : ١٦٠ ، والفوات ١ : ١٠٨ ، والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٤) .

اللَّسَن ، قاله ابن حبيب الحلبي ، قال : وهو القائل ^١ :

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَنْ ذَا يُعَيِّرُهُ وَمَنْ صَفَوْتَ لَهُ مَنْ ذَا يَكْدُرُهُ
هيهات عنك ملاحُ الكون تشغلكني والكلُّ أعراضُ حسن أنت جوهره

وقال ^٢ :

اكشِفِ البرقع عن بكرِ العقارِ واخْلُ في ليلك مع شمس النهارِ
وانهَبِ العيشَ ودَعِه غلظاً ينقضي ما بَيْنَ هتِكِ واستتارِ
إن تكن شَيْخَ خلاعاتِ الصَّبَا فالبسِ الصبوة في خَلَعِ العذارِ
وارضَ بالعارِ وقل : قد آن لي في هوى خمّار كاسي لبس عاري

وقال :

حُثُّوا إِلَى نَجْدٍ نِيَاقَ الهوى فَتَمَّ وادٍ جَوَّهُ مُعْشَبُ
وَانْتَظِرُوا حَتَّى يَلُوحَ الحمى فَالْعِيشُ فِيهِ طَيِّبٌ طَيِّبُ

وتوفي سنة أربع وثمانين وستمائة ، هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب ، ثم بعد كتبها حصل لي شك : هل هو ممّن ارتحل بنفسه من الأندلس أو ولد بمصر وإنّما ارتحل إليها بعض سلفه ؟ والله تعالى أعلم .

٢٠٨ — وكذا ذكر آخرَ بقوله في سنة سبع وثمانين وستمائة : وفيها توفي الإمام زكي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن علي الإشبيلي المالكي ^٣ ، محدث ، عالم ، زاهد فيما ليس بدائم ، كثير الخير ،

١ البيتان في النجوم الزاهرة ٧ : ٣٦٥ .

٢ الأبيات في الوافي : ١٦٠ .

٣ نسبه في المصادر « اللوري » لا الإشبيلي ، وقيل إن لورة قلعة من أعمال إشبيلية ، ولد سنة ٦١٤ هـ وحج - ومعنى هذا القول أنه هاجر من الأندلس وأقام في المشرق ، وتوفي بالينبع (انظر شذرات =

جزيل المير ، كان حسن المناهج ، قاضياً للحوائج ، محسناً إلى الصامت والمغرب .
مَقْصِداً لمن يَرِدُ من الحجاز والمغرب ، سمع بمصر ودمشق وحلب ، وأقنى
ودرس ، مفيداً لذوي الطلب ، ولم يبرح يعين بأيديهِ ويغيث ، وهو أول من
بأشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث ، وكانت وفاته بدمشق عن نيّف وسبعين
سنة ، انتهى .

٢٠٩ - ومنهم الأحق بالسبق والتقدم ، بَقِيَّ بن مَخْلَد بن يزيد ،
أبو عبد الرحمن ، القرطبي ، الأندلسي ، الحافظ ، أحد الأعلام ، وصاحب
التفسير والمسند^١ . أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الأعشى ،
وارتحل إلى المشرق ، ولقي الكبار ، وسمع بالحجاز مُصَنَّباً^٢ الزهري وإبراهيم
ابن المنذر وطبقتهما ، وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عَبَّاد وطائفة ، وبدمشق
إبراهيم بن هشام الغساني^٣ وصَفْوَان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة ،
وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته ، وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحماني ومحمد
ابن عبد الله بن نعيم وأبا بكر ابن أبي شيبة وطائفة ، وبالبصرة أصحاب حماد بن
زيد ، وعُني بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها ، وعدد شيوخه مائتان وأربعة
وثلاثون رجلاً ، وكان إماماً ، زاهداً ، صَوَّاماً ، صادقاً ، كثير التهجد ،
مجاب الدعوة ، قليل المثل ، مجتهداً ، لا يقلد ، بل يفتي بالأثر .
ولد في رمضان سنة إحدى ومائتين ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ست
وسبعين ومائتين .

= الذهب ٥ : ٤٠٠ والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ ؛ وهذه الترجمة منقولة أيضاً عن درة الأسلاك
حسبما ورد في حاشية طبعة ليدن .

١ ترجمة بقي بن مخلد في الخزانة : ١٦٧ (وبغية الملتصق رقم : ٥٨٤) وابن الفرضي ١ :
١٠٧ ، والمروقة العليا : ١٨ ، وتذكرة الحفاظ : ٦٢٩ ، وطبقات المفسرين : ٩ .

٢ ابن الفرضي : أبا المصعب .

٣ دوزي : إبراهيم بن إبراهيم الغساني ؛ وما هنا يوافق إحدى النسخ .

قال ابن حزم : أقطع أنه لم يؤلّف في الإسلام مثل تفسيره . لا تفسير محمد ابن جرير ولا غيره ، وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس محباً للعلوم عارفاً بها . فلما دخل بقيُّ بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه ، وقام جماعة من العامة عليه ، ومنعوه من قراءته ، فاستحضره الأمير محمد وإياهم ، وتصفح الكتاب جزءاً جزءاً حتى أتى على آخره ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب لا تستغي خزانة عنه ، فانظر في نسخته لنا ، وقال لبقِي : انشُرْ علمك ، وارو ما عندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له .

قال ابن حزم : مسند بقيّ روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيّف . ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مُسَنَّدٌ ومُصَنَّفٌ^١ ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث ، وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممّن ذكرهم أرّبى فيه على مُصَنَّف أبي بكر ابن أبي شيبة وعلى مصنف عبد الرزّاق وعلى مصنف سعيد بن منصور . ثم ذكر تفسيره فقال : فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام ، لا نظير لها . وكان متخيراً لا يقلّد أحداً . وكان جارياً في مِصْنَم البخاري ومسلم والنسائي .

وذكر القشيري^٢ أن امرأة جاءت فقالت له : إن ابني قد أسرته الفرنج ، ولأني لا أنام الليل من شوقي إليه ، ولي دُويّرة أريد أن أبيعها لأفتكّه بها . فلما رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى في فكأكه ، فليس لي ليل ولا نهار . ولا صبر ولا قرّار ، فقال : نعم ، انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء الله تعالى .

١ الفرق بين المسند والمصنف أن الأول رتب فيه الحديث بحسب رواته من الصحابة والثاني رتب فيه الحديث بحسب أبواب الفقه .

٢ وردت القصة في الجذوة : ١٦٨ سنّة إلى أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، إجازة عنه ؛ وفي النص اختلاف عما أورده المقرئ .

وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله ، عزّ وجلّ ، لولدها بالخلاص ، فذهبت ، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت : اسمع خبره يرحمك الله تعالى . فقال : كيف كان أمرك ؟ فقال : إنّي كنت فيمن يخدم الملك ، ونحن في القيود ، فبينما أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي ، فأقبل عليّ الموكل بي فشتمني ، وقال : فككّ القيد من رجلك ، فقلت : لا والله ولكن سقط ولم أشعر ، فجاءوا بالحدّاد فأعاده ، وسَمّر مسماره وأينّه ، ثم قمت ، فسقط أيضاً ، فسألوا رُهبانهم ، فقالوا : ألك والدّة ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : إنّه قد استجيب دعاؤها له ، فأطلقوه ، فأطلقوني ، وخفروني إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام ، فسأله [بقيّ] عن الساعة التي سقط القيد من رجله فيها ، فإذا هي الساعة التي دعا له فيها ، رحمه الله تعالى .

٢١٠ — ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي ، المعروف بالمغمّامي^١ . من أهل قُرطبة ، وأصله من طُلَيْطَلَة ، وهو من ذرية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته ، وارتحل إلى مصر ، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي ، وعاد إلى الأندلس ، وكان فقيهاً ، نبيلاً ، فصيحاً [بصيراً]^٢ بالعربية ، ثم بعد عَوْدِهِ من مصر أقام بقُرطبة أعواماً ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بها ، وسمع الناس منه ، وعظم أمره بالبلاد المشرقية ، ثم إنّه عاد إلى المغرب فتوفّي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وبين بمصر « الواضحة » لابن حبيب ، وصنف شيئاً في الرد على الشافعية في عشرة أجزاء ، وألف كتاب « فضائل مالك » رضي الله تعالى عنه . والذي يرتضى أن من قلد إماماً من المجتهدين لا ينبغي له أن يتغصّ من

١ ترجمته في جذوة المقتبس : ٣٥٠ (وبغية الملتبس رقم : ١٤٥٢) وابن الفرضي ٢ : ٢٠٠ .

٢ زيادة من ابن الفرضي وإحدى النسخ .

قدر غيره ، وإن كان ولا بد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة ، رضي الله تعالى عنهم ، فإنهم على هدى من ربهم ، وقد ضلَّ بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد حكى أبو عبد الله الوادي آشي - حسبما رأيته بخطه - أن القاضي عبد الوهاب ابن نصر البغدادي المالكي ألَّف كتاباً لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء ، وسمّاه « النصرة لمذهب إمام دار الهجرة » ، فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر ، فغرقه في النيل ، ففضى الله تعالى أن السلطان قرَج بن برقوق سافر إلى الشام ومعه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد ، فلم يستطع شيئاً ، وهُزِم إلى مصر ، وتفرقت العساكر ، وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضي ، فبقي في أسر تيمورلنك إلى أن ارتحل عن الشام ، فأخذه معه أسيراً إلى أن وصل إلى الفرات ، فغرق فيه ، أعني القاضي ، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور ، والجزاء من جنس العمل ، والله تعالى أعلم .

* * *

[بين ابن خلدون وتيمورلنك]

وقد نجى الله تعالى من هذه الورطة قاضي القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي صاحب كتاب « العبر » ، وديوان المبتدأ والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » فإنه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة ، فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون ^١ : قدّموني للكلام تنجوا إن شاء الله تعالى ، وإلا فأنتم أنخير ،

١ أخبار ابن خلدون مع تيمورلنك وردت في التعريف : ٣٦٦ وما بعدها وعجائب المقدور =

فقدّموه وعليه زي المغاربة ، فلما رآه تيمورلنك قال : ما أنت من هذه البلاد ؟
ونكلّم معه فخلبه ابن خلدون بلسانه ، وكان آية الله الباهرة ، ثم قال لتيمورلنك :
إنّي ألّفت كتاباً في تاريخ العالم ، وحليته بذكرك ، أو كما قال ، ويقال : إن
تيمورلنك هو الذي قال له : بلغني أنّك ألّفت كتاباً في تاريخ العالم ، ثم قال
له تيمورلنك : كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بختنصر مع أنّنا خربنا
العالم ؟ فقال له ابن خلدون : أفعالكما العظيمة ألحقكما بالذكر مع ذوي المراتب
الجسيمة ، أو نحو هذا من العبارات ، فأعجبه ذلك ، وقيل : إنّه لما أنس بـ
خلدون قال له : يا خُونْدُ ، ما أسفي إلا على كتاب ألّفته في التاريخ ، وأنفقت
فيه أيام عمري ، وقد تركته بمصر ، وإن عمري الماضي ذهب ضياعاً حيث لم
يكن في خدمتك وتحت ظل دولتك ، والآن أذهب فأتي بهذا الكتاب وأرجع
سريعاً حتّى أموت في خدمتك ، ونحو هذا من الكلام ، فأذن له ، فذهب ولم
يغد إليه ، وقال بعض العلماء : إنّه لم ينبج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء
غير ابن خلدون ورجل آخر ، وقد ذكر ذلك ابنُ عرب شاه في «عجائب
المقدور» وقد طال عهدي به فليراجع ، وحكى غير واحد أن تيمورلنك
لما أخذ حلب على الوجه المشهور في كتب التاريخ جمّع العلماء فقال لهم على عادته
في التعنت : قَتِّلْ مِنَّا ومنكم جماعة ، فمن الذي في الجنة قتلانا أو قتلاكم ؟
وكان مراده إبراز سبب لقتلهم ، لأنّهم إن قالوا أحد الأمرين هلكوا ، فقال
بعض العلماء ، وأظنه ابن الشحنة : دعوني أجبه وإلا هلكم ، فركوه ،
فقال له : يا خُونْدُ ، هذا السؤال أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين سئل عنه ، فغضب تيمورلنك وقال : كيف يمكن أن يجيب عن هذا السؤال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن لم نكن في زمانه ؟ أو كلاماً هذا معناه ،

= والسلوك للمقريزي وتاريخ ابن قاضي شعبة وقد قام والتر فشل بدراستها في كتابه « ابن خلدون
وتيمورلنك : ١٩٥٢ » .

فقال العالم المذكور : رويانا في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميئة ويقاتل ليُدْكَرَ ويُرَى مكانه ، فمن الذي في الجنة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفهم المسكت ، وحق له أن يتعجب منه ، فإن هذا من الأجوبة التي يقل نظيرها ، وفيها المخلص على كل حال بالإنصاف ، وقد وفق الله تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئك الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذي جعل الله تعالى فتنته في الإسلام وفننه جينكيزخان وأولاده من أعظم الفتن التي وهى بها المسلمون .

وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمورلنك قال له : دعني أقبل يدك ، فقال : ولم ؟ فقال له : لأنها مفتاح الأقاليم ، يشير إلى أنه فتح خمسة أقاليم ، وأصابع يده خمس : فلكل إصبع إقليم ، وهذا أيضاً من دهاء ابن خلدون .

وقد كدنا نخرج عن المقصود في هذه الترجمة فلنصرف العنان ، والله سبحانه المستعان .

٢١١ - ومن الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر ابن عطية ، رحمه الله تعالى^١ ، قال الفتح : شيخ العلم ، وحامل لوائه ، وحافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه ، شرح الله تعالى لحفظه^٢ صدره ، وطاول به عمره ، مع كونه في كل علم وافر النصيب ، مياسراً بالمُعَلَّتَى والرقيب ، رحل إلى المشرق لأداء الفرض ، لابس بُرْدٍ من العمر الغض ، فروى وقيد ،

١ ترجمة أبي بكر ابن عطية في قلائد العقيان : ٢٠٧ ، وأزهار الرياض ٣ : ٩٩ ، وتذكرة

الحفاظ : ١٣٦٩ ، والصلة : ٤٣٢ ، واسمه غالب بن عبد الرحمن بن عطية .

٢ القلائد : لتحفظه .

ولقي العلماء وأسند ، وأبقى تلك المآثر وخلّد ، نشأ في بيئة^١ كريمة ، وأرومة
من الشرف غير مروّمة ، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلامُ عِلم ، وأرباب
مجد ضخّم ، قد قيدت مآثرهم الكتب ، وأطلعتهم التواريخ كالشهب ، وما
برح الفقيه أبو بكر يتسّم كواهل المعارف وغوّارها ، ويقيد شوارد المعاني
وغرائبها ، لاستضلاعه بالأدب الذي أحكم أصوله وفروعه ، وعمر برهةً من
شبيبته ربّوعه ، وبرز فيه تبريز الجواد المستولي على الأمد ، وجلّى عن نفسه
به كما جلّى الصقال عن النصل الفرد ، وشاهد ذلك ما أثبتته من نظمه الذي يروق
جملة وتفصيلاً ، ويقوم على قوّة العارضة دليلاً ، فمن ذلك قوله يحذر من
خلطاء الزّمان ، وينبه على التحفظ من الإنسان :

كُنْ بِذَنْبِ صَائِدٍ مُسْتَأْنَسٍ وَإِذَا أَبْصَرْتَ إِنْسَانًا فَفَصِّرْ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ بِحَرٍّ مَا لَهُ سَاحِلٌ فَاحْذَرُهُ إِيَّاكَ الْغَرَرُ
وَاجْعَلِ النَّاسَ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ ثُمَّ كُنْ مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصِ حَذِرٌ

وله في الزهد :

أَيُّهَا الْمَطْرُودُ مِنْ بَابِ الرِّضَى كَمْ يَرَاكَ اللَّهُ تَلْهُو مُعْرِضًا
كَمْ إِلَى كَمْ أَنْتَ فِي جَهْلِ الصَّبَا قَدْ مَضَى عُمْرُ الصَّبَا وَانْقَرَضَا
قَمْ إِذَا اللَّيْلُ دَجَّتْ ظُلُمَتُهُ وَاسْتَلَذَّ الْجَفْنُ أَنْ يَغْتَمِضَا
فَضْعِ الْخَدَّ عَلَى الْأَرْضِ وَنُحْ وَاقْرَعِ السَّنَّ عَلَى مَا قَدْ مَضَى

وله في هذا المعنى :

قَلْبِي يَا قَلْبِي الْمَعْنَى كَمْ أَنَا أَدْعَى فَلَا أُجِيبُ
كَمْ أَتَمَادَى عَلَى ضَلَالٍ لَا أُرْعَوِي لَا وَلَا أُنِيبُ

١ دوزي : بيتة ، القلائد : بيتة .

ويلاه من سوء ما دهاني يتوبُ غيري ولا أتوبُ
وا أسفي كيف بُرئ دائي دائي كما شاءه الطيبُ
لو كنتُ أدنو لكنتُ أشكو ما أنا من بابه قريبُ
أبعدي منه سوء فعلي وهكذا يُبعدُ المريبُ
ما لي قدرٌ وأيُّ قدرٍ لمن أحلت به الذنوبُ

وله في هذا المعنى أيضاً :

لا تَجْعَلَنَّ رمضانَ شهرَ فكاهاة تلهيك فيه من القبيح فنونهُ
واعلم بأنك لا تنالُ قبُولَه حتى تكونَ تصومُه وتصونهُ

وله في مثل ذلك ^١ :

إذا لم يكن في السمع مني تصاؤنٌ وفي بصري غَضٌ وفي مقولي صمتُ
فحظي إذاً من صومي الجوع والظما وإن قلتُ إنني صمتُ يوماً فما صمتُ

وله في المعنى الأول :

جفوتُ أناساً كنتُ آلفُ وصلهم وما في الجفا عند الضرورة من باسٍ
بلوتُ فلم أحمد ، وأصبحتُ آيساً ولا شيء أسفى للنفوس من لباسٍ
فلا تعذلوني في انقباضي فلننتي رأيتُ جميع الشر في خِلطة الناسِ

وله يعاتب بعض إخوانه :

وكنْتُ أظنُّ أن جبالَ رَضَوَى تزولُ وأنَّ وُدَّكَ لا يزولُ
ولكنَّ الأمورَ لها اضطرابٌ وأحوالُ ابنِ آدمَ تستحيلُ
فإن يكُ بيتنا وصلٌ جميلٌ وإلا فليكن هجرٌ طويلٌ

١ ورد هذان البيتان أيضاً في أخبار وتراجم أندلسية ص : ٣١ .

وأما شعره الذي اقتدحه من مَرَّخ الشباب وعَفَّاره ، وكلامه الذي وشحه
بمآرب الغَزَل وأوطاره ، فإنه نسي إلى ما تناساه ، وتركه حين كساه العلم
والورع من ملابسه ما كساه ، فمما وقع من ذلك قوله :

كيفَ السَّلْوُ ولي حَبِيبٌ هاجرٌ قاسي الفؤادِ يَسُومُنِي تعذِيبا
لما درى أَنَّ الخيالَ مُواصِلِي جعلَ السَّهادَ على الجفونِ رَقِيبا
وله أيضاً :

يا مَنْ عُهُودِي لَدَيْكَ تُرْعَى أنا على عَهْدِكَ الوثِيقِ
إن شئتَ أن تسمعي غرامي مِنْ خَبِيرِ عَالِمِ صَدُوقِ
فاستخبري قلبَكَ المعنَى يُخْبِرُكَ عن قَلْبِي المَشُوقِ
انتهى كلام الفتح .

وأبو بكر ابن عطية المذكور هو والد الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق
ابن عطية صاحب التفسير الشهير ، رحم الله تعالى الجميع .

* * *

[ترجمة عبد الحق بن عطية]

قال في الإحاطة في حقّه ما ملخصه^١ : [هو] الشيخ الإمام المفسر عبد
الحق بن غالب بن عطية المحاربي ، فقيه عالم بالتفسير والأحكام والحديث والفقه
والنحو واللغة والأدب ، حسن التقييد ، له نظم ونثر ، ولي قضاء المرية سنة
تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم ، وكان غاية في الذكاء والدهاء والتهتم
بالعلم ، سريّ الهمة في اقتناء الكتب ، توخّى الحق ، وعدل في الحكم ، وأعز
الخطّة ، روى عن أبيه وأبوي علي الغساني والصدفي وطبقتهما ، وألف كتابه

١ انظر الإحاطة : ٣٠٨ (نسخة الكتاني) .

«الوجيز» في التفسير فأحسن فيه وأبدع ، وطار بحسن نيته كل مَطار ،
وبرناجماً ضمته مروياته وأسماء شيوخه فحرر وأجاد .

ومن نظمه يندب عهد شبابه^١ :

سَقِيًّا لِعَهْدِ شَبَابٍ ظَلْتُ أَمْرَحُ فِي	ربعانه وليالي العيش أسحارُ
أَيَّامِ رَوْضِ الصَّبَا لَمْ تَذَوِ أَغْصَنُهُ	ورَوْنَقُ العَمْرِ غَضٌّ وَالْهَوَى جَارُ
وَالنَّفْسُ تُرَكِّضُ فِي تَضْمِيرِ شَرَّتْهَا	طِرْفًا لَهُ فِي زَمَانِ اللَّهْوِ إِحْضَارُ
عَهْدًا كَرِيمًا لَبَسْنَا فِيهِ أُرْدِيَّةَ	كَانَتْ عَيَانًا وَمَحَتْ فِيهِ آثَارُ
مَضَى وَأَبْقَى بِقَلْبِي مِنْهُ نَارَ أَسَى	كُوْنِي سَلَامًا وَبَرْدًا فِيهِ يَا نَارُ
أَبْعَدَ أَنْ نَعِمْتَ نَفْسِي وَأَصْبَحَ فِي	لَيْلِ الشَّبَابِ لَصُبْحِ الشَّيْبِ إِسْفَارُ
وَقَارَعْتَنِي اللَّيَالِي فَانْتَنَتْ كَسْرًا	عَنْ ضَيْغَمٍ مَا لَهُ نَابٌ وَأُظْفَارُ
إِلَّا سِلَاحَ خِيَالٍ أُخْلِصَتْ فَلَهَا	فِي مِنْهَلِ الْمَجْدِ إِبْرَادٌ وَإِصْدَارُ
أَصْبُو إِلَى رَوْضِ عَيْشٍ رَوْضُهُ خَضِيلُ	أَوْ يَنْثَنِي بِي عَنْ الْعَلْيَاءِ إِقْصَارُ
إِذَا فَعَطَلْتُ كَفِّي مِنْ شَبَابِ قَلَمٍ	آثَارُهُ فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ أَزْهَارُ

مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وتوفي في الخامس والعشرين من
شهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة ببلورة^٢ ، قصد ميورة^٣ يتولى
قضاءها فصدَّ عن دخولها وصُرف منها إلى لُورقة^٤ اعتداء عليه ، رحمه الله
تعالى ، انتهى .

وقال الفتح في حقّه ما نصّه^٥ : فتى العَمْرُ كَهْلُ الْعِلَاءِ ، حديث السن قديم
السَّاءِ ، لبس الجلالة بُردًا ضافيًا ، وورد ماء الأصالة صافيًا ، وأوضح للفضل
رسمًا عافيًا . وثنى من ذهنه للأغراض فننّا قصدا ، وجعل فهمه شهابًا

١ لم ترد القصيدة في نسخة الإحاطة ، والمقري يشعر أنه ما يزال ينقل عنها .

٢ الإحاطة : قصد مرسية .

٣ لم يرد هذا النص في القلائد والمطبع المطبوعين .

رَصَدًا ، سما إلى رُتَب الكهول صغيراً ، وشنَّ كتيبةً ذهنه على العلوم مُغيراً ،
فسبّاها معنى وفَصْلاً ، وحوّأها فرعاً وأصلاً ، وله أدبٌ يسيل رَضْرَاضاً ،
ويستحيل ألفاظاً مبتدعةً وأغراضاً .

وقال أيضاً فيه ^١ : نَبْعَةُ دَوْحِ العَلَاء ، ومحرزٌ ملابسِ الثناء ، قَدْ أُلْجَلَلَةُ ،
وواحد العصر والأصالة ، وقار كما رسا الهضب ، وأدب كما اطرَد السِّلْسَلُ
العذب ، وشيم تتضاءلُ لها قطع الرياض ، وتبادر الظن به ^٢ إلى شريف الأغراض ،
سابقَ الأجماد فاستولى على الأمد بعبابه ^٣ ، ولم ينض ثوب شبابه ، أدْمَنَ التعب
في السؤدد جاهداً ، فتي تناول الكواكب قاعداً ، وما اتكل على أوائله ، ولا
سكن إلى راحت بُكْرِهِ وأصائله ، أثره في كل معرفةٍ علَّم في رأسه نار ،
وطوالعه في آفاقها صُبْح أو منار ، وقد أثبت من نظمه المستبدع ما ينفع عييراً ،
ويتضح منيراً ، فمن ذلك قوله من قصيدة :

وليلةٌ جُبْتُ فيها الجزع مرتدياً بالسيف أسحبُ أذيالاً من الظلِّمِ
والنجمُ حيرانٌ في بحر الدجى غرقٌ والبرقُ في طيلسان الليل كالعلمِ
كأنما الليلُ زنجيٌ بكاهلهِ جرحٌ فيثعبُ أحياناً له بدمِ
انتهى المقصود منه .

وهو - أعني أبا بكر - أحدُ مشايخ عياض ، حسبما أُلْعِت به في «أزهار
الرياض» .

٢١٢ - ومنهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرّح - بالخاء المهملة -

١ انظر القلائد : ٢٠٨ .

٢ القلائد : ويبادر به الظن .

٣ القلائد : بغلابه .

٤ القلائد : نهار .

ابن أحمد بن محمد ، الإمام ، الحافظ ، الزاهد ، بقية السلف ، اللّخمي ،
الإشيلي^١ ، الشافعي^٢ ، أسره الإفرنج سنة ست وأربعين وستمائة ، وخلص ،
وقدم مصر سنة بضع وخمسين ، وقيل : إنه تمذهب للشافعي ، وتفقه على الشيخ
عز الدين بن عبد السلام قليلاً ، وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري
الحموي ، والمعين أحمد بن زين الدين وإسماعيل بن عزوز والنجيب بن
الصيقل وابن علاّاق ، وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق ، وعني بالحديث ،
وأثّقن ألفاظه ، وعرف رُؤاياه وحفاظه ، وفهم معانيه ، وانتقى لبابه ومبانيه .
قال الصفدي^٣ : وكان من كبار أئمة هذا الشأن ، وممن يجري فيه وهو
طَلَقُ اللسان^٤ ، هذا إلى ما فيه من ديانة ، وورع وصيانة ، وكانت له حلقة
اشتغال بكرة بالجامع الأموي يلازمها ، ويَحُومُ عليه من الطلب حوائمها ،
سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبي ، واستفاد منه ، وروى في تصانيفه عنه ،
وعرضت عليه مشيخة دار الحديث التورية فأبأها ، ولم يقبل حباها ، وكان
بزيّ الصوفية ، ومعه فقاها بالشافعية^٥ ، ولم يزل على حاله حتى أجزن الناس
ابن فرح ، وتقدّم إلى الله وسرح ، وشيع الخلق جنازته ، وتولّوا وضعه في
القبر وحيازته ، وتوفي رحمه الله تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين
وستمائة ، ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة .

وله قصيدة غزلية في ألقاب الحديث سمعها منه الدُّمياطِي واليُونِنِي ،
وسمع منه البرزالي والمقاتلي والناقلي وأبو محمد ابن الوليد ، ومات بترية أم

١ ترجمته في أعيان العصر (الورقة ١٠٥ أ من المخطوطة رقم ٢٩٦٢ آياصوفيا) والوافي ٧ :
الورقة ١٣٨ وتذكرة الحفاظ : ١٤٨٦ وطبقات السبكي ٥ : ١٢ وشذرات الذهب

٥ : ٤٤٣ .

٢ النقل عن أعيان العصر .

٣ أعيان العصر : العنان .

٤ أعيان العصر : بالشامية .

الصالح بالإسهال .

والقصيدة المذكورة هي هذه :

غرامي صحيح والرجا فيك مُعْضَلُ
وصبري عَنْكُمْ يشهد العقلُ أَنَّهُ
ولا حَسَنٌ إلا سماع حديثكم
وأمرِي موقوفٌ عليكم ، وليس لي
ولو كان مرفوعاً إِلَيْكَ لَكُنْتُ لي
وعَدَلُ عَدُولِي مُنْكَرٌ لا أَسِغُهُ
أَفْضَى زَمَانِي فِيكَ متصل الأَمَى
وما أنا في أَكْفَانِ هَجْرِكَ مُدْرَجُ
وأَجْرَيْتُ دَمْعِي بالدماء مَدْبِجاً
فَمَتَّقُ سُهْدِي وَجَفِي¹ وعَبْرَتِي
ومؤْتَلَفِ شَجْوِي ووجدِي² ولَوْعِي
خَذَ الْوَجْدَ عَنِي مُسْنِداً وَمَعْنَعاً
وذي نُبْدٍ من مَبْهَمِ الْحُبِّ فَاعْتَبِرْ
عَزِيزٌ بِكُمْ صَبٌ ذَلِيلٌ لغيركم
غَرِيبٌ يُقَاسِي الْبُعْدَ عَنْكَ ، وما له
فَرْقاً بِمَقْطُوعِ الْوَسَائِلِ ، ما له
فلا زَلَتْ في عَزٍّ مَنِيعٍ وَرَفْعَةٍ
أَوْرِي بِسُعْدِي وَالرَّيَابِ وَزَيْنَبُ
فَخَذَ أَوَّلًا من آخِرِ ثُمَّ أَوَّلًا

وحزني ودَمْعِي مُطْلَقٌ وَمُسْلَسٌ
ضعيفٌ ومُتْرُوكٌ ، وذُلِّي أَجْمَلُ
مُشَافَهَةٌ يُمْنِي عَلَيَّ فَأَنْقُلُ
على أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ الْمُعْوَلُ
على رَغْمِ عُدْأَلِي تَرَقُّ وتَعْدُلُ
وزورٌ وتَدْلِيسٌ يُرْدُ وَيُهْمَلُ
ومُقْطَعٌ عَمَّا بِهِ اتَّوَصَّلُ
تُكَلِّفُنِي ما لا أَطِيقُ فَأَحْمِلُ
وما هو إلا مُهْجَتِي تَتَحَلَّلُ
ومُفْتَرِقٌ صَبْرِي وَقَلْبِي الْمُبْتَلُ
ومُخْتَلَفٌ حَظِّي وما مِنْكَ آمَلُ
فغَيْرِي مَوْضُوعُ الْهَوَى يَنْحِيلُ
وِغَامُضُهُ إِنْ رَمَتْ شَرْحاً أَحْوَلُ
ومَشْهُورٌ أَوْصَافُ الْمَحَبِّ التَّذَلُّلُ
وَحَقُّ الْهَوَى عَنْ دَارِهِ مُتَحَوِّلُ
إِلَيْكَ سَبِيلٌ لا ولا عَنْكَ مَعْدِلُ
وما زَلَتْ تَعْلُو بِالْتَّجَنِّي فَأَنْزِلُ
وأَنْتَ الَّذِي تُعْنَى وَأَنْتَ الْمُؤْمَلُ
من التَّصَفِّ مِنْهُ فَهَوَ فِيهِ مَكْمَلُ

١ أعيان المصّر : جفني وسهدي .

٢ أعيان المصّر : وجدني وشجوي .

أَبْرُ إِذَا أَقْسَمْتُ أَنْتَ بِجَهَنَّمَ أَهِيْمُ وَقَلْبِي بِالصَّبَابَةِ يُشْعَلُ

وقد ذكرت شرحها في الجزء الثلاثين من تذكركي ، انتهى كلام الصفدي .
وظاهر كلامه أنه ابن فرح - بفتح الراء - والذي تلقيناه عن شيوخنا أنه
بسكون الراء ، وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول
تعدادهم ، وهي وحدها دالة على تمكن الرجل ، رحمه الله تعالى .

٢١٣ - ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر ، أبو الأصمغ ، الأموي ،
الأندلسي ^١ ، سمع بمكة وبدمشق ومصر وغيرها ، وحدث عن سليمان بن
أحمد بن يحيى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إن لكل بني أب عَصْبَة يتنمون إليها ، إلا ولد فاطمة فأنا وليّهم وأنا عَصْبَتهم ،
وهم عِثْرَتِي ، خُلِقُوا مِن طِينَتِي ، ويل للمُكذِّبِينَ بفضلهم ، مَنْ أَحْبَبَهُمْ أَحْبَبَهُ
الله ، ومن أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ » . وحدث عن أبي العباس أحمد بن محمد البردعي
بسنده إلى عبد الله بن المبارك قال : كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا ،
فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة ، ومالك يتغير لونه ويتصبر ، ولا يقطع
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس
عنه قلت له : يا أبا عبد الله ، قد رأيت منك عجباً ، قال : نعم ، أنا صبرت
لإجلال الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولد أبو الأصمغ المذكور بقرطبة وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥ .

قال الحاكم أبو عبد الله : رأيت أبا الأصمغ في المنام في بستان فيه خضرة
ومياه جارية وفُرُش كثيرة ، وكأني أقول : إنها له ، فقلت : يا أبا الأصمغ ، بماذا
وصلت إليه ؟ أبالحديث ؟ فقال : إي والله ، وهل نجوت إلا بالحديث ؟ قال :
ورأيت أيضاً وهو يمشي بزي أحسن ما يكون ، فقلت : أنت أبو الأصمغ ؟ فقال :

١ ترجمت في ابن القرضي ١ : ٣٢١ .

نعم ، قلت : ادعُ الله تعالى أن يجمعني وإيّاك في الجنة ، فقال : إن أمام الجنة أهوالاً ، ثم رفع يديه وقال : اللهم اجعله معي في الجنة بعد عمر طويل ، انتهى .

٢١٤ - ومنهم القاضي أبو البقاء خالده ، البلّوي ، الأندلسي ، رحمه الله تعالى ^١ ، وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد ، البلوي ، ووصفه الشاطبي بأنّه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل ، انتهى .
وهو صاحب الرحلة المسماة : « تاج المشرق في تحلية أهل المشرق » ^٢ ، ومما أنشده رحمه الله تعالى فيها لنفسه :

ولقد جرى يومَ التوى دمعي دماً حتى أشاعَ الناسَ أنك فاني
والله إنَّ عادَ الزَّمانُ بقُرْبنا لكففتُ عن ذكرِ النّوى وكفاني

وهذه الرحلة المسماة بتاج المشرق مشحونة بالفوائد والفرائد ، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزُه الرائد ، وقد قال رحمه الله تعالى فيها في ترجمة الولي نجم الدين الحجازي ، رضي الله تعالى عنه ، ما نصّه ^٣ : وذكر لي رضي الله تعالى عنه قال : ممّا وصّى به الجدل الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور - يعني سيدي أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الأقصري القطب الغوث رضي الله تعالى عنه ، وأعاد علينا من بركاته - خواصّه وأصدقائه ، قال : إذا أدركتكم الضرورة والفاقة فقولوا : حسبي الله ، ربي الله يعلم أنتي في ضيق ، قال : وذكر لي أيضاً رضي الله تعالى عنه قال : رأى هذا الجد يوسف المذكور النبيّ صلى الله

١ ترجمة خالد البلوي في الإحاطة ١ : ٣٢٤ والكتيبة الكامنة : ١٣٤ ونيل الابتهاج : ٩٩

نقلا عن فهرسة الحضرمي .

٢ من هذه الرحلة نسخ كثيرة خطية ، وسنعت منها النسخة رقم ١٠٥٣ جغرافياً بدار الكتب المصرية ، وإن لم تكن من خير النسخ .

٣ تاج المشرق ، الورقة : ١٤٠ .

عليه وسلّم في النوم ، بعد أن سأل الله تعالى ذلك ، وقد كان أصابته فاقة ، فشكا إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « قل يا بَرٌّ^١ يا رحيم ، يا بَرٌّ يا رحيم ، الطُّفُّ بي في قضائك ، ولا تولّ أمري أحداً سواك ، حتى ألقاك » ، فلما قالها أذهب الله تعالى عنه فاقته . قال : وكان رحمه الله تعالى يوصي بها أصحابه وأحبابه ، انتهى .

ونسب بعضهم القاضي خالداً المذكور إلى انتحال كمال العماد في « البرق الشامي » ، لأن خالداً أكثر في رحلته من الأسجاع التي للعماد ، فلذا قال لسان الدين ابن الخطيب فيه :

خليليَّ إن يُقْضَ اجتماعٌ بخالد فقولاً له قولاً ولن تعدُّوا الحقّاً
سرقَتَ العمادَ الأصهبانيَّ برقهُ وكيف تَرَى في شاعر سرقَ البرقا

وأظن أن لسان الدين كان منحرفاً عنه ، ولذلك قال في كتابه « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف »^٢ عندما جرى ذكر قننورية^٣ وقاضيتها خالد المذكور ما صورته : لم يتخلف ولد عن والد ، وركب قاضيتها ابن أبي خالد ، وقد شهرته النزعة الحجازية ، ولبس من خشن الحِجَا زِيَةً ، وأرخی من البياض طيلساناً ، وتشبّه بالمشاركة شكلاً ولساناً ، والبدَاوة تَسِمُهُ على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قودَ الحمل المخطوم ، انتهى .

ومن نظم أبي البقاء خالد البلّوي المذكور قوله :

أتى العيدُ واعتاد الأحبّةُ بعضهم بيبعض وأحبابُ المتيمِّمِ قد بانوا

١ تاج المفرق : يا رب .

٢ نشرها الدكتور أحمد مختار العبادي في كتابه « مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب » ص ٢٥ -

٥٣ ، وانظر النص ص : ٣٦ - ٣٧ .

٣ قننورية : (Cantoria) تقع إلى جنوب برشانة (Purchena) ، في ولاية المرية ، وتكتب أيضاً « قنورية » .

وأضحى وقد ضحَّوا بقرَّبانهم وما لديه سوى حُمُرِ المَدَامعِ قربانُ

وقال في رحلته : إنَّه قال هذين البيتين بديهةً بمصلَّى تونس في عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

ومن نظمه أيضاً قوله رحمه الله تعالى :

ومستنكر شَيْبِي وما ذهبَ الصِّبَا ولا جَفَّ إيناعُ الشَّيبَةِ مِن غصني
فَقَلْتُ فراقِي للأحِبَّةِ مؤذن بشيبي وإن كنتُ ابنَ عشرين من سني

ومحاسنه - رحمه الله تعالى - كثيرة ، وفي الرحلة منها جملة .

٢١٥ - ومنهم برهان الدين أبو إسحاق ابن الحاج إبراهيم ، النميري ،
القرنَاطي^١ ، وهو أيضاً مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرير ذكره هنا ، وقال رحمه الله تعالى في رحلته : أخبرني شيخنا - يعني الشيخ الإمام الصالح أبا عبد الله محمد المعروف بخليل التوزري إمام المالكية بالحرم الشريف رضي الله تعالى عنه - قال : اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كَفًّا لشرَّتي عن الناس ، خصوصاً أذى الغيبة ، نحو خمسين ليلة ، أردت أن أدعو لطائفة من أصحابي بمطالب مختلفة ، كلٌّ بحسب ظنِّي فيه يومئذ ، فأدركني حيرة في التمييز والتخصيص ، فألهمت أن قلت بديهة :

شَهِدْنَا بتقصير ألبابنا فحُسِّنُ اختيارك أولى بنا
وأنتَ البصيرُ بأعدائنا وأنتَ البصيرُ بأحبابنا

قال : ثم أردفتها بدعاء ، وهو : اللهم يا من لا يعلم خيره إلاَّ هو ، أنت أعلم بأعدائنا وأودَّائنا ، فافعل بكل منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا ، حسبما علمته منا ، وكفى بك عليماً ، وكفى بك قديراً ، وكفى بك بصيراً ،

١ ستأتي له ترجمة ضافية في النفع ، حيث نذكر أهم المصادر التي أوردت ترجمته .

وكفى بك لطيفاً ، وكفى بك خبيراً ، وكفى بك نصيراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً كثيراً .

وقال ابن الحاج المذكور في الرحلة المذكورة : إذا التقى الرجل بعدوة وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف (كهيعص ، حمعسق) وليعقد بكل حرف منها إصبعاً ، يبدأ بإبهام يده اليمنى ويختم بإبهام يده اليسرى ، فإذا قرب من عدوة فليقرأ في نفسه سورة الفيل ، فإذا وصل إلى قوله (ترميهم) فليكررها ، وكلما كررها فتح إصبعاً من أصابعه المعقودة تجاه العدو ، فيكررها عشر مرات ، ويفتح جميع أصابعه ، فإذا فعل ذلك أمن من شره إن شاء الله تعالى ، وهو مجرب ، انتهى .

ومن بديع نظم أبي إسحاق ابن الحاج النميري المذكور قوله :

ياربّ كاس لم يُشجَّ شمولها فاعجب لها جسماً بغير مزاج
لما رأينا السحر من أشكالها جملاً نسبناه إلى الزجاج

وله فيما أظن :

له شقة أضاعوا النثر فيها بلثم حين سدت ثغر بدر
فما أشهى قلبي ما أضاعوا « ليوم كريمة وسداد ثغر »

وهو تضمين حسن .

٢١٦ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق إمام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ، التفري ، الأثري ، الغرناطي^١ . قال ابن مرزوق الخطيب في حقه : هو شيخ النحاة بالديار

١ ترجم له الصفدي في الوافي وأعيان العصر ونكت الحميان : ٢٨٠ وانظر أيضاً الكتيبة الكامنة : ٨١ والدرر : ٣٠٢ وبغية الوعاة : ١٢١ وطبقات الشافعية ٦ : ٣١ وغاية النهاية ٢ : ٢٨٥ .

المصرية ، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية ، انتهت إليه رئاسه التبريز في علم العربية واللغة والحديث ، سمعت عليه وقرأت ، وأنشدني الكثير ، وإذا أنشدني شيئاً ولم أقيده استعاده مني فلم أحفظه ، فأنشدني وكنت أظنه لنفسه ارتجالاً إلى أن أخبرني أحد أصحابنا عنه أنه أخبره أنهما لأبي الحسن التجاني أنشدهما له بيته بالمدرسة الصالحية رحمه الله تعالى :

إِنَّ الذي يَرَوِي وَلَكِنَّهُ يَحْفَظُ ما يروِي ولا يَكْتُبُ
كصخرةٍ تنعُ أمواجُها تسقي الأراضِي وهي لا تشربُ

قال : ورويت عنه تواليف ابن أبي الأحوص : منها « التبيان في أحكام القرآن » و « العرب المفهم في شرح مسلم » ولم أقف عليه ، و « الوسامة في أحكام القسامة » و « المشرع السلسل في الحديث المسلسل » وغير ذلك . وحدثني بسنن أبي داود عن ابن خطيب الميزة عن أبي حفص ابن طبرزد عن أبي البدر الكروخي ومفلح الرومي عن أبي بكر ابن ثابت الخطيب عن أبي عمر الهاشمي عن اللؤلؤي عن أبي داود ، وبسنن النسائي عن جماعة عن ابن باقا عن أبي زرعة عن ابن حميد الدؤسي عن أبي نصر الكمار عن ابن السني عن النسائي ، وبالموطأ عن أبي جعفر ابن الطباع بسننه .

وشكوت إليه يوماً ما يلقاه الغريب من أذاة العداة ، فأنشدني لنفسه :

عُدَّائِي لَهم فَضْلٌ عَليَّ وَمَنَّةٌ فلا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَني الأَعادِيا
هُمُ يَحْثُوا عَن رَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُها وَهمُ نَافَسُونِي فَكَسَبْتُ المَعاليِا

وأنشدني أيضاً من مُداعباته ، وله في ذلك النظم الكثير مع طهارته وفضله :

عَلَّقَتْهُ سَبَجِيَّ اللَّوْنِ قَادِحَهُ ما ابيض منه سوى ثغرِ حَكِي الدُّرِّا
قد صاعَهُ من سوادِ العين خالِقَهُ فكلُّ عَيْنٍ إِلَيْهِ تُدْمِنُ النِّظَرِا

وأشذلني في جاهل لبس صَوْفاً وزها فيه :

أيا كاسياً من جَيْدِ الصوف نَفْسَهُ ويا عارياً من كل فَضْلٍ ومن كَيْسٍ
أترهى بصوفٍ وهو بالأمس مصبَحٌ على نَعْجَةٍ واليوم أَمْسَى على تَبَنٍ
انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب ابن مرزوق .

وأشد الرحالة ابن جابر الوادي أشي لأبي حَيَّان قوله :

وقَصَّرَ آمالي مآلي إلى الردى وأنّي وإن طال المدى سوف أهْلِكُ
فصُنْتُ بماء الوجه نفساً أبْيَةً وجادت يميني بالذي كنت أملكُ

ووقفت على «أعيان العصر وأعوان النصر» للصفدي ، فوجدت فيه ترجمة
أبي حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد ، وهي :
الشيخ ، الإمام ، العالم ، العلامة ، الفريد ، الكامل ، حجة العرب ، مالك
أزمة الأدب ، أثير الدين ، أبو حَيَّان الأندلسي الجياني - بالجييم ، والياء آخر
الحروف مشددة ، وبعد الألف نون - وكان أمير المؤمنين في النحو ، والشمس
السافرة شتاء في يوم الصَّحْو ، والمتصرف في هذا العلم فإليه الإنبات والمحو ،
لو عاصر أئمة البصرة لبصّرهم ، أو أهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد
وحذرهم ، نزل منه كتاب سيبويه في وطنه بعد أن كان طريداً ، وأصبح به
التسهيل بعد تعقيده مفيداً ، وجعل سَرْحَةَ شرحه وَجَنَةً راقَت النواظر توريداً ،
ملأ الزمان تصانيف ، وأمال عُنُقَ الأيَّام بالتواليف ، تخرَّج به أئمة في هذا
الفن ، وروَّق لهم في عصره منه سُلَافَةُ الدَّعْن ، فلو رآه يونس بن حبيب لكان
بغيضاً غير مُجِيب ، أو عيسى بن عمر لأصبح من تقصيره وهو محذَر ، أو
الخليل لكان بعينه قَدْأه ، أو سيبويه لما تردى من مسألته الزنبورية بِرَدَاه ،
أو الكسائي لأعراه حلة جاهه عند الرشيد وأُنَاسِه ، أو الفَرَّاء لفرَّ منه ولم يقتسم
ولدا المأمون تقديم مَدَاسِه ، أو اليزيدي لما ظهر نقصه من مكانه ، أو الأخفش

لأخفى جملةً من محاسنه ، أو أبو عُبَيْدَةَ لما تركه ينصب لشعب الشعوبية ، أو أبو عَمْرٍو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلّق بعربية ، أو السكريّ لما راق كلامه في المعاني ولا حلا ، أو المازني لما زانه قوله « إن مُصَابِكُم رجلا » ، أو قطرب لما دبّ في العربية ولا درَج ، أو ثعلب لاستكن بمكره في وكره ولما خرج ، أو المبرّد لأصبحت قواه مقترّة ، أو الزّجاج لأمت قواريره مكسرة ، أو ابن الوزان لعدم نقده ، أو الثمانيّ لما تجاوز حدّه ، أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطّرد ، أو ابن دُرَيْد لما بلغ ريقه ولا ازدرد ، أو ابن قتيبة لأضاع رحله ، أو ابن السراج لمشاه إذا رأى وحله ، أو ابن الخشاب لأضرم فيه ناراً ، ولم يجد معه نوراً ، أو ابن الحُبّاز لما سجّر له تنوراً ، أو ابن القوّاس لما أغرق في نزعته ، أو ابن يعيش لأوقعه في نزعته ، أو ابن خروف لما وجد له مرعى ، أو ابن إياز لما وجد لأوزاره وقعاً ، أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طريّاً ، أو ابن الدباج لكان من حلّته الرائقة عريّاً ، وعلى الحملة فكان إمام النحلة في عصره شرقاً وغرباً ، وفريد هذا الفن الفذّ بعداً وقرباً ، وفيه قلت :

سلطانُ علم النحوِ أستاذُنا الـ شيخُ أثيرُ الدين حَبْرُ الأَنامِ
فلا تقلُ زيدٌ وعمرٌو ، فما في النحو معهُ لسواهُ كلامُ

خدم هذا العلم مدّة تقارب الثمانين ، وسلك من غرّائبه وغوامضه طرقاً متشعبةً الأفانين ، ولم يزل على حاله إلى أن دخل في خبر كان ، وتبدّلت حركاته بالإسكان ، وتوفّي رحمه الله تعالى بمتزله خارج باب البحر بالقاهرة في يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ، وصلي عليه في الجامع الأموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر ، ومولده بمدينة مطّخُشارش في أخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة .

وقلت أنا أرثيه رحمه الله تعالى :

ماتَ أثيرُ الدينِ شيخُ الوري
 ورقٌ من حزنٍ نسيمُ الصَّبَا
 وصاحاتُ الأيِّكِ في نوحها
 يا عينُ جودي بالدموعِ التي
 واجري دماً فالخطبُ في شأنه
 ماتَ إمامٌ كانَ في فنِّه
 أمسى منادىً للبلَى مفرداً
 يا أسفا كان هُدًى ظاهراً
 وكان جمعُ الفضلِ في عصرِه
 وعُرفَ الفضلُ به برهه
 وكان ممنوعاً من الصرفِ لا
 لا أفعلُ التفضيلِ ما بينه
 لا بدَّلُ عن نعتِه بالتثني
 لم يدغمَ في التَّحدِّ إلا وقد
 بكى له زيدٌ وعمرٌ وفمن
 ما أعقدَ التسهيلَ من بعده
 وجسَّرتَ الناسَ على خوِّضِه
 من بعده قد حال تمييزُه
 شاركَ مَنْ قد سادَ في فنِّه
 دأبُ بني الآدابِ أن يغسلوا
 والنحوُ قد سار الردى نحوه
 واللغةُ الفصحى غدت بعده
 تفسيره البحرُ المحيطُ الذي
 فوائده من فضله جمة

فاستعر البارقُ واستعبرا
 واعتلَّ في الأسحارِ لما سرى
 رثته في السجعِ على حرفِ را
 يروى بها ما ضمَّه من ثرى
 قد اقتضى أكثرَ ممَّا جرى
 يرى إماماً والورى من ورا
 فضمه القبرُ على ما ترى
 فعادَ في تربته مُضمَّرا
 صحَّ فلما أن قضى كسراً
 والآلَ لما أن مضى نُكِّرا
 يطرقُ من وافاهُ خطبُ عرَّا
 وبينَ من أعرفه في الورى
 ففعله كانَ له مصدرا
 فكَّ من الصبرِ وثيقَ العرى
 أمثلة النحوِ وممن قرا
 فكم له من عسرةٍ يسَّرا
 إذ كان في النحوِ قد استبحرا
 وحظُّه قد رجَّعَ القهقري
 وكم له فنٌّ به استأثرا
 بدمعهم فيه بقايا الكرى
 والصرفُ للتصريفِ قد غيرا
 يلغى الذي في ضبطها قررا
 يهدي إلى ورَّاده الجوهرِ
 عليه فيها نعقدُ الخِصراً

وكان ثَبَتًا نَقْلُهُ حُجَّةً مثل ضياء الصبح إن أسفرا
 ورحله في سُنَّةِ المصطفى أصدق من يسمع إن أخبرا
 له الأسانيدُ التي قد علتْ فاستفلت عنها سوامي الذرى
 ساوى بها الأحفادُ أجدادهم فاعجب لماضٍ فاته من طَرا
 وشاعراً في نظمه مقلعاً كم حرَّरَ اللفظَ وكم حَبَّرا
 لها معانٍ كلما خطتها تسرُّ ما يرقمُ في تُسترا
 أفديه من ماضٍ لأمر الردى مستقبلاً من ربِّه بالقيرى
 ما بات في أبيض أكفانه إلا وأضحى مُنْذُ سَأَ أخضرا
 تُصافحُ الحورُ له راحةً كم تعبت في كلِّ ما سطرَا
 إن مات فالذكرُ له خالدٌ يحيا به من قبل أن يُنْشرا
 جاد ثرى وافاه غيثٌ إذا مَسَّاهُ بالسَّقْيِ له بِكَرا
 وَخَصَّهُ من ربِّه رحمةً توردُهُ في حشره الكوْثرا

وكان قد قرأ القراءات على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله
 نحواً من عشرين ختمة إفراداً وجمعاً ، ثم على الخطيب الحافظ أبي جعفر أحمد
 القرناطي المعروف بالطباع بغرناطة ، ثم قرأ السبعة إلى آخر سورة الحجر على
 الخطيب الحافظ أبي علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص بمالقة ،
 ثم إنه قدم الإسكندرية ، وقرأ القراءات على عبد النصير بن علي بن يحيى
 المربوطي ، ثم قدم مصر فقرأ بها القراءات على أبي الطاهر إسماعيل بن هبة الله
 المليحي ، وسمع الكثير على اللحم الغفير بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية والإسكندرية
 وديار مصر والحجاز ، وحصل الإجازات من الشام والعراق وغير ذلك ،
 واجتهد في طلب التحصيل والتقييد والكتابة ، ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالا
 منه ، لأنني لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب ، ولم أره على غير ذلك ،
 وله إقبال على الطلبة الأذكاء ، وعنده تعظيم لهم ، ونظم ونثر ، وله الموشحات

البديعة ، وهو ثبت فيما ينقله ، محرّر لما يقوله ، عارف باللّغة ، ضابط
لألفاظها ، وأما النحو والتصريف فهو إمام الناس كلّهم فيهما ، لم يُذكر معه
في أقطار الأرض غيره في حياته ، وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط
والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم ، خصوصاً المغاربة ، وتقيد
أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة وترقيق وتضخيم ، لأنّهم يجاورون بلاد
الإفرنج وأسماءهم قريبة من لغاتهم ، وألقابهم كذلك ، وقيد وحرّره ، وسأله
شيخنا الذهبي أسئلة فيما يتعلّق بذلك ، وأجابه عنها .

وله التصانيف التي سارت وطارت ، وانتشرت وما انتشرت ، وقرئت
ودريت ونسخت وما فسخت ، أحملت كتب الأقدمين ، وألّفت المقيمين بمصر
والقادمين ، وقرأ الناس عليه ، وصاروا أئمة وأشياخاً في حياته ، وهو الذي
جسّر الناس على مصنّفات ابن مالك رحمه الله تعالى ، ورغّبهم فيها وفي
قراءتها ، وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لحججها ، وفتح لهم مقفلها ، وكان
يقول عن مقدمة ابن الحاجب : هذه نحو الفقهاء ، وكان التزم أن لا يُقرىء
أحداً إلّا إن كان في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في تصانيفه ،
ولما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى كثيراً ، وأخذ عنه
كتب الأدب . وكان شيخاً حسن العمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مُشرباً
حمرة ، منور الشيبة ، كبير اللّحية ، مسترسل الشعر فيها لم تكن كشّة ، عبارته
فصيحة بلغة الأندلس يعقد حرف القاف قريباً من الكاف ، على أنّه لا ينطق
بها في القرآن إلّا فصيحة ، وسمعته يقول : ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف .
وكانت له خصوصية بالأمر سيف الدين أرغون كافل الممالك ، ينسبط
معه ، ويبيت عنده في قلعة الجبل ، ولما توفيت ابنته نُصار طلع إلى السلطان الملك
الناصر محمد ، وسأل منه أن يدفنها في بيته داخل القاهرة في البرقية ، فأذن له في
ذلك ، وكان أولاً يرى رأي الظاهرية ، ثمّ إنّّه تمذهب للشافعي رضي الله تعالى
عنه ؛ بحث على الشيخ علم الدين العراقي « المحرّر » للرافعي ، و« مختصر المنهاج »

لننوي ، وحفظ « المنهاج » إلا سيراً ، وقرأ أصول الفقه على أستاذه أبي جعفر ابن الزبير ، بحث عليه من « الإشارة » للباجي ، ومن « المستصفى » للغزالي ، وعلى الخطيب أبي الحسن ابن فضيلة ، وعلى الشيخ علم الدين العراقي ، وعلى الشيخ شمس الدين الأصبهاني ، وعلى الشيخ علاء الدين الباجي ، وقرأ أشياء من أصول الدين على شيخه ابن الزبير ، وقرأ عليه شيئاً من المنطق ، وقرأ أشياء من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادي ، وقرأ عليه شيئاً من « الإرشاد » للعميدي في الخلاف ، ولكنه برع في النحو ، وانتهت إليه الرئاسة والشيخية فيه ، وكان خالياً من الفلسفة والاعتزال والتجسيم ، وكان أولاً يعتقد في الشيخ تقي الدين ابن تيمية وامتدحه بقصيدة ، ثم إنه انحرف عنه لما وقف على كتاب « العرش » له ، قال الفاضل كمال الدين الأدفوي : وجرى على مذهب كثير من النحويين في تعصبه للإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه التعصب المتن ، قال : حكى لي أنه قال لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة : إن علياً رضي الله تعالى عنه عهد إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ، أترأه ما صدق في هذا ؟ فقال : صدق ، قال فقلت له : فالذين سلكوا السيوف في وجهه يبغضونه أو يحبونه أو غير ذلك ؟ قال : وكان سيء الظن بالناس كافة ، فإذا نُقل له عن أحد خبر لا يتكيف به ويثني عنه حتى عمّن هو عنده مجروح ، فيقع في ذم من هو بالسنة العالم ممدوح ، وبسبب ذلك وقع في نفس جمع كبير منه ألم كثير ؛ انتهى .

قلت : أنا لم أسمع منه في حق أحد من الأحياء والأموات إلا خيراً ، وما كنت أنقم عليه شيئاً إلا ما كان يبلغني عنه من الخط على الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، على أنني أنا ما سمعت في حقه شيئاً ، نعم كان لا يثق بهؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوماً : يا سيدي ، فكيف تعمل في الشيخ أبي مدّين ؟ فقال : هو رجل مسلم دين ، وإلا ما كان يطير في الهواء ، ولا يصلي الصلوات الخمس في مكة كما يدعي فيه هؤلاء الأعمار .

وكان فيه - رحمه الله تعالى - خشوع ، يبكي إذا سمع القرآن ، ويجري دمه
عند سماع الأشعار الغزلية . وقال كمال الدين المذكور : قال لي : إذا قرأتُ
أشعار العشق أميل إليها ، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلني ، وغيرهما ، إلا
أشعار الكرم ما تؤثر فيّ ، انتهى .

قلت : كان يفتخر بالبخل ، كما يفتخر غيره بالكرم ، وكان يقول لي :
أوصيك احفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ، ولا تحتج إلى السفل .
وأنشدني من لفظه لنفسه :

رجاؤك فلساً قد غدا في حباثلي قنيصاً رجاءً للنَّجاس من العقم
أأتعبُ في تحصيله وأضيعه إذن كنتُ معتاضاً من البرء بالسُّقم

قلت : والذي أراه فيه أنه طال عمره ، وتغرب ، وورد البلاد ولا شيء
معه ، وتعب حتى حصل المناصب تعباً كثيراً ، وكان قد جرب الناس ، وحلب
أشطرَ الدهر ومرت به حوادث ، فاستعمل الحزم ، وسمعتة غير مرة يقول :
يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس : يشتري له بائنة بفلسين ، وبفلس زبيباً ، وبفلس
كوز ماء ، ويشترى ثاني يوم ليموناً بفلس يأكل به الخبز . وكان يعيب على
مشتري الكتب ويقول : الله يرزقك عقلاً تعيش به . أنا أي كتاب أردته استعرتة
من خزائن الأوقاف ، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجده ذلك ،
وأنشدني له إجازة :

إنَّ الدراهمَ والنساءَ كلاهما لا تأمننَّ عليهما إنسانا
يترعن ذا اللبِّ المتينِ عن التَّقَى فترى إساءةَ فعلِهِ إحسانا

وأنشدني له من أبيات :

أتى بشفيح ليس يمكن ردهُ دراهمُ بيضٌ للجروح مَراهمُ
تُصَبَّر صعبَ الأمرِ أهون ما يُرى وتقضي لباناتِ الفتى وهو نائمُ

ومن حزمه قوله :

عُدَّاتي لهم فضل - البيتين

وقد مدحه كثير من الشعراء ، والكبار الفضلاء ، فمنهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله :

قد قلتُ لما أنُسمعتُ مباحثاً في الذاتِ قرَّرها أجلُّ مفيدٍ
هذا أبو حيَّان قلتُ صدقتمُ وبررتُمُ هذا هو التوحيدي

وكان قد جاء يوماً إلى بيت الشيخ صدر الدين ابن الوكيل فلم يجده ، فكتب بالحص على مصراع الباب ، فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال :

قالوا أبو حيَّانَ غيرَ مُدافعٍ ملكُ النحاةِ فقلتُ بالإجماعِ
اسم الملوكةِ على النقودِ وإنَّني شاهدتُ كنيته على المصراعِ

ومدحه شرف الدين ابن الوحيد بقصيدة مطولة أولها :

إليكَ أبا حيَّانَ أعَمَلْتُ أُنقِي وملتُ إلى حيثُ الركائبُ تلتقي
دعاني إليك الفضلُ فأنقَدْتُ طائعاً ولبيتُ أحدها بلفظي المصدقِ

ومدحه نجم الدين إسحق بن ألمي التركي ، وسأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة ، وأرسلها إليه من دمشق ، وأولها :

تبدى فقلنا وجهه فلتقُ الصُّبحَ وكمَّله باليمنِ فيه وبالشُّججِ
وسهَّلتُ تسهيلَ الفوائدِ مُحسِّناً فكنْ شارحاً صدرِي بتكملةِ الشرحِ

ومدحه مجير الدين عمر بن الملطي بقصيدة أولها :

يا شيخَ أهلِ الأدبِ الباهرِ من ناظمٍ يُلْفَى ومن ناثرِ

ومدحه نجم الدين يحيى الإسكندري بقصيدة أولها :

ضَيْفُ أَلَمٍ بَنَّا مِنْ أُبْرَعِ النَّاسِ لَا نَاقِضُ عَهْدَ أَيْامِي وَلَا نَاسِي
عَارٍ مِنَ الْكِبَرِ وَالْأَدْنَسِ ذُو شَرَفٍ لَكِنَّهُ مِنْ سَرَايِلِ الْعُلَا كَاسِي

ومدحه نجم الدين الطوفي بقصيدتين أول الأولى :

أُتْرَاهُ بَعْدَ هِجْرَانٍ يَصِلُ وَيُرَى فِي ثَوْبٍ وَصَلٍ مُبْتَذِلُ
قَمَرٌ جَارٍ عَلَى أَحْلَامِنَا إِذْ تَوَلَّاهَا بِقَدٍّ مُعْتَدِلُ

وأول الثانية :

اعْذَرُوهُ فَكَرِيمٌ مِنْ عَدَرَ قَمَرَتُهُ ذَاتُ وَجْهِ كَالْقَمَرِ

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمي بقصيدة أولها :

فَضَضْتُ عَنِ الْعَذْبِ النَّمِيرِ خَتَامَهَا وَفَتَحْتُ عَنْ زَهْرِ الرِّيَاضِ كِمَامَهَا

ومدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم ، وكتبت أنا إليه من الرحبة سنة ٧٢٩ :

لَوْ كُنْتُ أَمْلَكُ مِنْ دَهْرِي جَنَاحَيْنِ لَطَرْتُ لَكِنَّهُ فَيْكُمُ جَنَى حَيْثِي
يَا سَادَةً نَلْتُ فِي مَصْرِ بِهِمْ شَرَفًا أَرْقَى بِهِ شَرَفًا يَنَازِلُ عَنِ الْعَيْنِ
وَلِنْ جَرَى لَسَمًا كَيَوَانَ ذَكَرُ عُلَا أَحَلَّتْهُمْ فَضْلُهُمْ فَوْقَ السَّمَائِينَ
وَلَيْسَ غَيْرُ أَثِيرِ الدِّينِ أَثْلُهُ فَشَادَ مَا شَادَ لِي حَقًّا بِلَا مَيْنِ
حَبْرٌ وَلَوْ قُلْتُ إِنَّ الْبَاءَ رَتَّبْتُهَا مِنْ قَبْلِ صَدَقِكَ الْأَقْوَامِ فِي ذِينِ

١ وقع بعد هذا قوله في المطبوعة التجارية :

إن الأثير أبا حيان أحيانا بنشره طي علم مات أحيانا

ومدحه القاضي ناصر الدين شافع بقصيدة أولها :

فَضَضْتُ عَنِ الْعَذْبِ (البيت)

ولم يرد هذا في ق أو دوزي .

أحيا علوماً أُماتَ الدهرُ أَكْثَرُها مذ جُلُدتْ خُلُدتْ ما بينَ دَقَينِ
يا واحدَ العصرِ ما قولي بِمُتَّهَمِ ولا أَحاشي امرءاً بينَ الفريقينِ
هذي العلومُ بَدَتْ من سيبويه كما قالوا وفيكَ انتهتْ يا ثانيَ اثنينِ
قَدُمُ لها وبودَيَّ لو أَكونُ فِدَيَّ لما يَتَأَلَّكَ في الأَيَّامِ من شَينِ
يا سيبويه الوري في الدهرِ لا عَجَبُ إذا الخليلُ غدا يفديكَ بِالعينِ

يقبَلُ الأرضَ وينهي ما هو عليه من الأشواق التي بَرَّحَتْ بِألمها ، وأجرت
الدموعَ دماً ، وهذا الطرس الأحمر يشهد بدمها . وأريت بسَحَّها على السحابِ
وَأين دوام هذه من دِيَمَها . وفرقت الأوصال على السقم لوجود عدمها :

فيا شوقُ ما أَبقى ، ويا لي من النوى ويا دمعُ ما أَجْرى ، ويا قلبُ ما أَصْبى
ويذكر ولاءه الذي تسجع به في الأرض الحماثم ، ويسير تحت لوائه مسيرَ
الرياح بين الغمام ، وثنائه الذي يتضوع كالزهر بين الكمام ، ويتنسم تنسمَ
هامات الرُّبى إذا لبست من الربيع ملونات العمام ، ويشهد الله على ما قد قلته والله
سبحانه نعم الشهيد .

فكتب هو الجواب عن ذلك ولكنه عدم مني .

وأنشدته يوماً لنفسِي :

قلتُ للكاتبِ الذي ما أراه قَطُّ إِلَّا وَنَقَطَ الدَّمْعُ شَكْلَه
إن نَحَطَّ الدَّمْعُ في الخلدِ شيئاً ما يسمي ؟ فقال خطُّ ابنِ مُقله
وأنشدني هو من لفظه لنفسه :

سَبَقَ الدَّمْعُ بالمسيرِ المَطَايا إذ نوى من أَحَبُّ عني نُقْلَه
وأجاد الخطوطَ في صفحة الخ دَوْلِمَ لَا يُجِيدُ وهو ابنُ مُقله

وأنشدني في مליح نوتي :

كلفْتُ بنوتيَّ كأنَّ قوامه إذا ينثي خُوطٌ من البانِ ناعمُ

مَجَافُفُهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ مَجَازِبٌ وَهَزَّاتُهُ لِلْعَاشِقِينَ هَزَائِمٌ
وَأُنْشَدْتُهُ أَنَا لِنَفْسِي :

إِنَّ نَوْتِيَّ مَرْكَبٍ نَحْنُ فِيهِ هَامٌ فِيهِ صَبُّ الْفَوَادِ جَرِيحُهُ
أَقْلَعَ الْقَلْبُ عَنْ سُلُوبِي لَمَّا أَنْ بَدَأَ ثَغْرُهُ وَقَدْ طَابَ رِيحُهُ
وَأُنْشَدْتُهُ لِنَفْسِي أَيْضاً :

نَوْتِيْنَا حُسْنُهُ بَدِيعٌ وَفِيهِ بَدْرُ السَّمَاءِ مُغْرَى
مَا حَكَ بَرًّا إِلَّا وَقَلْنَا يَا لَيْتَ أَنَّا نَحْكُ بَرًّا
فَأَعْجَبَاهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَزَهَرَ لَهَا .
وَأُنْشَدْنِي هُوَ لِنَفْسِهِ فِي مَلِيحِ أَحَدَب :

تَعَشَّقْتُهُ أَحَدَبًا كَيْسًا يَحَاكِي نَحِيًّا حَنِينَ النَّعَامِ
إِذَا كَدْتُ أَسْقَطُ مِنْ فَوْقِهِ تَعَلَّقْتُ مِنْ ظَهَرِهِ بِالسَّنَامِ
فَأُنْشَدْتُهُ لِنَفْسِي :

وَأَحَدَبٌ رَحْتُ بِهِ مَغْرَمًا إِذْ لَمْ تُشَاهِدْ مِثْلَهُ عَيْنِي
لَا غَرَوْ أَنْ هَامَ فَوَادِي بِهِ وَخَصَّرُهُ مَا بَيْنَ دَفَيْنِ
وَأُنْشَدْنِي مِنْ لَفْظِهِ لِنَفْسِهِ فِي أَعْمَى :

مَا ضَرَّ حُسْنَ الَّذِي أَهْوَاهُ أَنْ سَنَا كَرِيمَتِيهِ بِلَا شَيْنٍ قَدْ احْتَجَبَا
قَدْ كَانَتَا زَهْرَتِي رَوْضٍ وَقَدْ ذَوَّتَا لَكِنَّ حُسْنَهُمَا الْفَتَانِ مَا ذَهَبَا
كَالسَيْفِ قَدْ زَالَ عَنْهُ صَقْلُهُ فَعَدَا أَنْكَى وَالْمَ فِي قَلْبِ الَّذِي ضَرَبَا
وَأُنْشَدْتُهُ لِنَفْسِي فِي ذَلِكَ :

وَرَبُّ أَعْمَى وَجْهَهُ رَوْضَةٌ تَنْزَهُ فِيهَا كَثِيرُ الدِّيُونِ
وَحَدُّهُ وَرْدٌ غَنِينَا بِهِ عَنْ نَرْجَسٍ مَا فَتَحَتْهُ الْعِيُونِ

وَأُنْشِدْتَهُ أَيْضاً لِنَفْسِي فِي ذَلِكَ :

فِيَا حُسْنَ أَعْمَى لَمْ يَخْفُ حَدَّ طَرَفِهِ حُبُّ غَدَا سَكْرَانٍ فِيهِ وَمَا صَحَا
إِذَا صَادَ خِلٌّ بَاتَ يَرْغَى حُدُودَهُ غَدَا آمِنًا مِنْ مَقْلَتِهِ الْجَوَارِحَا

وكتبت إليه استدعاءً ، وهو : المسؤول من إحسان سيدنا الإمام العالم العلامة ،
لسان العرب ، ترجمان الأدب ، جامع الفضائل ، عمدة وسائل السائل ، حجة
المقلدين ، زين المقلدين ، قطب المؤمنين ، أفضل الآخرين ، وارث علوم
الأولين ، صاحب اليد الطولى في كل مكان ضيق ، والتصانيف التي تأخذ بمجامع
القلب فكل ذي لب إليها شيق ، والمباحث التي أثارت الأدلة الراجحة من
مكامن أماكنها ، وقنصت أوابدها الجاحمة من مواطىء مواطنها ، كشاف معضلات
الأوائل ، سباق غايات قصر عن شأوها سبحانه وائل ، فارع هضبات البلاغة
في اجتلاء اجتلابها وهي في مرقى مرقدها ، سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء
اقتضائها من فوق فرقدها ، حتى أبرز كلامه جنان فكل جنان من بعده
عن الدخول إليها جبان ، وأتى ببراكين وجوه حورها لم يطمئنهن إنس قبله
ولا جان ، وأبدع خمائل نظم ونثر لا تصل إلى أفنان فنونها يد جان ، أثير الدين
أبي حيان ، لا زال ميت العلم يحثيه ، وهل عجيب ذلك من أبي حيان :

حَتَّى يَنَالِ بَنُو الْعُلُومِ مَرَامَهُمْ وَيَحْلُثَهُمْ دَارَ الْمَنَى بِأَمَانٍ

إجازة كاتب هذه الأحرف ما رواه — فسح الله تعالى في مدته — من المسانيد
والمصنفات والسنن والمجاميع الحديثية ، والتصانيف الأدبية ، نظماً ونثراً ، إلى
غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها ، وتباين أجناسها وأنواعها ،
مما تلقاه ببلاد الأندلس وإفريقية والإسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية

وغيرها من البلدان ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة ، كيفما تأدى ذلك إليه ، وإجازة ما له — أدام الله إفادته — من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثة والأدبية وغيرها ، وما له من نظم ونثر إجازة خاصة ، وأن يثبت بخطه تصانيفه إلى حين هذا التاريخ ، وأن يجيزه إجازة عامة لما يتجدد له من بعد ذلك على رأي من يراه ويجوزّه ، منعماً متفضلاً إن شاء الله تعالى .

فكتب الجواب رحمه الله تعالى : أعزك الله ، ظننت بإنسان جميلاً فغاليت ، وأبديت من الإحسان جزيلاً وما باليت ، وصفت من هو القتام يظنه الناس سماء ، والسراب يحسبه الظمان ماء ، يا ابن الكرام وأنت أبصر من يشيم ، أمع الروض النضير يرعى الهشيم ، أما أغنتك فضائلك ، وفواضلك ، ومعارفك ، وعوارفك ، عن نغمة من دأماء ، وتربة من يهماء ، لقد تبلجت المهارق من نور صفحاتك ، وتأرجت الأكوان من أريج نفحاتك ، ولأنت أعرف من يقصد للدراية ، وأنقد من يعتمد عليه في الرواية ، لكنك أردت أن تكسو من مطارفك ، وتتفضل من تالدك وطارفك ، وتجلو الخامل في منصة النباهة ، وتنقذه من لكن الفهامة ، فتشيد له ذكراً ، وتعلي له قدراً ، ولم يمكنه إلا إسعافك فيما طلبت ، وإجابتك فيما إليه نذبت ، فإن المالك لا يعصى ، والمتفضل المحسن لا يقصى ، وقد أجزت لك — أيدك الله تعالى — جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك ، بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة بمشافهة وكتابة ووجازة ، وجميع ما أجز لي أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك ، وجميع ما صنفته واختصرته وجمعتهم وأنشأته نظماً ونثراً ، وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء : فمن مروياتي الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة من أعلام الشيخ المسند المعتبر فخر الدين أبو الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله المصري ابن المديحي ، آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبي الجود ، والكتب الستة والموطأ ومسنند عبّيد بن حُمَيْد ومسنند الدارمي ومسنند الشافعي ومسنند الطيالسي والمعجم الكبير للطبراني والمعجم الصغير

له وسنن الدارقطني وغير ذلك .

وأما الأجزاء فكثيرة جداً ، ومن كتب النحو والآداب فأروي بالقراءة كتاب سيبويه ، والإيضاح ، والتكملة . والمفصل . وجمل الزجاجي ، وغير ذلك ، والأشعار الستة والحماسة وديوان حبيب والمتنبي والمعري ، وأما شيوخي الذين رويت عنهم بالسمع أو القراءة فهم كثير ، وأذكر الآن منهم جماعة : فمنهم القاضي أبو علي الحسن بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي ، والمقرئ أبو جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الأنصاري ، وإسحاق بن عبد الرحيم ابن محمد بن عبد الملك بن درباس ، وأبو بكر ابن عباس بن يحيى بن غريب القنّوأس البغدادي ، وصفي الدين الحسين بن أبي منصور بن ظافر الخزرجي ، وأبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري ، ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأزدي بن الدهّان ، وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني ، ورضي الدين محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي اللغوي ، ونجيب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الحمداني ، ومكي بن محمد بن أبي القاسم ابن حامد الأصبهاني الصفّار ، ومحمد ابن عمر بن محمد بن علي السعدي الضرير ابن الفارض ، وزين الدين أبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن الأنماطي ، ومحمد بن إبراهيم بن ترجم بن حازم المازني ، ومحمد بن الحسين بن الحسن بن إبراهيم الداريّ ابن الخليلي ، ومحمد ابن عبد المنعم بن محمد بن يوسف الأنصاري ابن الخيمي ، ومحمد بن عبد الله ابن محمد بن عمر العنسي عُرِفَ بابن النُّنَّ ، وعبد الله بن محمد بن هارون بن عبد العزيز الطائي القرطبي ، وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان بن فتيان ابن كامل الخزمي ، وعبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن فارس التميمي ، وعبد الرحمن بن يوسف بن يحيى بن يوسف ابن خطيب المزة ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي المصري السكري ، وعبد العزيز بن عبد المنعم بن علي ابن نصر بن الصيقل الحراي ، وعبد العزيز بن عبد القادر بن إسماعيل الفيالي

الصالحى الكتّاني ، وعبد المعطي بن عبد الكريم بن أبي المكارم ابن مَسْجَى
الخرجي ، وعلي بن صالح بن أبي علي ابن يحيى بن إسماعيل الحسني البهنسي
المجاور ، وغازي بن أبي الفضل ابن عبد الوهاب الحلّوي ، والفضل بن علي بن
نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخرجي ، ويوسف بن إسحاق بن أبي
بكر الطبري المكي ، واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القُشَيْرِي .
ومؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر ابن أيوب بن شادي . وشامية بنت الحافظ
أبي علي الحسن بن محمد بن محمد التيمية ، وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف
ابن محمد بن علي البغدادي .

وممّن كتبت عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن
علي بن الفرج المالقي ابن المرحل ، وأبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري
القرطاجي ، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن يحيى بن عبد الله الهذلي التطلي ،
وأبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن ذنون المالقي . وأبو عبد الله محمد بن
عمر بن جبير الجلياني العمكي المالقي . وأبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى
الأنصاري البزار ، وأبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تُولُو القرشي ،
وأبو حفص عمر بن محمد بن أبي علي الحسن المصري الوراق . وأبو الربيع سليمان
ابن علي بن عبد الله بن ياسين الكومي التلمساني . وأبو العباس أحمد بن أبي الفتح
نصر الله بن باتكين القاهري ، وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن حمّاد بن محسن
الصنهاجي البوصيري . وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم الغزالي .
وممّن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن
الحشني الأُبْدِي ، وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي ابن الضائع .
وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفي . وأبو جعفر
أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي ، وأبو عبد الله محمد بن
إبراهيم بن محمد بن نصر الحلبي ابن النحاس .

وممّن لقيته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الأنصاري

الإشيلي الزاهد ، وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعلون الفهري الشننمري .
وجملة الذين سمعت منهم نحو من أربعمائة شخص وخمسين . وأما الذين
أجازوني فعالم كثير جداً من أهل غرناطة ومالقة وسبتة وديار إفريقية وديار
مصر والحجاز والعراق والشام ، وأما ما صنفته فمن ذلك « البحر المحيط » في
تفسير القرآن العظيم . « إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب » . كتاب
« الأسفار الملخص من كتاب الصّفات » شرحاً لكتاب سيويه . كتاب « التجريد
لأحكام سيويه » . كتاب « التذيل والتكميل في شرح التسهيل » . كتاب « التنخيل
الملخص من شرح التسهيل » . كتاب « التذكرة » . كتاب « المبدع » في التصريف .
كتاب « الموفور » . كتاب « التقريب » . كتاب « التلريب » . كتاب « غاية الإحسان » .
كتاب « النكت الحسان » . كتاب « الشذا في مسألة كذا » . كتاب « الفضل
في أحكام الفصل » . كتاب « اللوحة » . كتاب « الشذرة » . كتاب « الارتضاء
في الفرق بين الضاد والظاء » . كتاب « عقد اللآلي » . كتاب « نكت الأمالي » .
كتاب « النافع في قراءة نافع » . « الأثير في قراءة ابن كثير » . « المورد
الغمر في قراءة أبي عمرو » . « الروض الباسم في قراءة عاصم » . « المزن
الهامر في قراءة ابن عامر » . « الرزمة في قراءة حمزة » . « تقريب النائي
في قراءة الكسائي » . « غاية المطلوب في قراءة يعقوب » . قصيدة « النير الجلي
في قراءة زيد بن علي » . « الوهاج في اختصار المنهاج » . « الأنور الأجل
في اختصار المحلى » . « الحلال الحالية في أسانيد القرآن العالية » . كتاب
« الإعلام بأركان الإسلام » . « نثر الزهر ونظم الزهر » . « قطر الحبي
في جواب أسئلة الذهبي » . « فهرست مسموعاتي » . « نوافث السحر في
دمائث الشعر » . « تحفة الندس في نخاة الأندلس » . « الأبيات الوافية في
علم القافية » . « جزء في الحديث » . « مشيخة ابن أبي المنصور » . كتاب
« الإدراك لسان الأتراك » . « زهو الملك في نحو الترك » . « نفحة المسك
في سيرة الترك » . كتاب « الأفعال في لسان الترك » . « منطق الخرس في

لسان الفرس . ومما لم يكمل تصنيفه : كتاب « مسلك الرشد في تجريد مسائل نهاية ابن رشد » . كتاب « منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك » . « نهاية الإغراب في علمي التصريف والإعراب » . رجز « مجاني المصرف في آداب وتواريخ لأهل العصر » . « خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان » . رجز « نور الغبش في لسان الحبش » . « المخبور في لسان اليعمور » قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان .

وأنشدني الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه في صفات الحروف :

أنا هاوٍ لمستطيلٍ أغنّـ	كلّما اشتد صارتِ النفسُ رخوه
أهمسُ القولَ وهو يجهرُ سبّـ	وإذا ما انخفضتُ أظهرُ علوه
فتح الوصلَ ثمّ أطبقُ هجرأ	بصفيرٍ والقلبُ قلقلَ شجوه
لان دهرأ ثمّ اغتدى ذا انحرافـ	وفشا السرُّ مذ تكررت نحوه

وأنشدني أيضاً لنفسه :

يقولُ لي العذولُ ولم أطعنه	تسلّ فقد بدا للحبّ لحيه
تخيّل أنها شانت حبيبي	وعندي أنها زينٌ وحليه

وأنشدني لنفسه أيضاً :

شوقي لذاك المحبّ الزاهر الزاهي	شوقٌ شديدٌ وجسمي الواهنُ الواهي
أسهرتُ طرفي وولّتهُ الفؤادَ هوّـ	فالطرفُ والقلبُ مني الساهرُ الساهي
نبتَ قلبي وتنهى أن أبوحَ بما	يلقاهُ واشوقهُ للناهبِ الناهي
بهرتُ كلَّ ملبحٍ بالبهاءِ فما	في النيرين شبيهُ الباهرِ الباهي
لهجنتُ بالحبّ لما أن لهوتَ به	عن كلّ شيءٍ فويح اللاهعِ اللاهي

وأنشدني من لفظه لنفسه :

يا حُسْنَهُ من عارضٍ راضٍ
والأصلُ لا يعتدُّ بالعارضِ

راضٍ حبيبي عارضٌ قد بدا
وظنَّ قَومٌ أنَّ قَلْبِي سلا

وأنشدني من لفظه لنفسه :

على وجنتيه ياسمينٌ على وردٍ
أمنتُ عليه من رقيبٍ ومن صدِّ
لسودِ اللحي ناسٌ وناسٌ إلى المردِّ
صبوتُ إلى هيفاءٍ مائسةٍ القدِّ
فأحببتُ أن أبقى بأبيضهم وحدي

تعشَّقْتُهُ شَيْخاً كأنَّ مشيبهُ
أخا العقلِ يدري ما يُراد من الهوى
وقالوا الورى قسمان في شرعة الهوى
ألا إنني لو كنتُ أصبوا لأمردٍ
وسود اللحي أبصرت فيهم مشاركا

وأنشدني من لفظه لنفسه :

أظنُّ بها هاروتَ أصبحَ نافثا
وكنَّ على دينِ التصابي بواعثا
وأسرعنَ للبلوى بمن كان رائثا
وإن كان ما بين الجوانح لاثنا
وللبدرِ والشمسِ المنيرة ثالثا

ألا إنَّ الحاظا بقلبي عواثا
إذا رام ذو وجدٍ سلواً منعهُ
وقيدن من أضحى عن الحبِّ مطلقاً
بروحي رشاً من آل خاقان راحلٍ
غدا واحداً في الحسنِ للفضلِ ثانياً

وأنشدني لنفسه ، ومن خطه نقلت :

ولينُ لذاك الجسمِ في اللبسِ أم خَزُ
له أبدأً في قلبِ عاشقه هَزُ
فصار عليها من محاسنها طَرَزُ
فماسَ كأنَّ الغصنَ خامره العزُ
ويخضرُ من آثارِ تَرَبَّتِها الجُرُزُ
فيُنهضها قدَّ ويَقْعِدُها عَجَزُ
فلا رقيةٌ تجدي المصابَ ولا حِرْزُ

أسحرُ لتلك العينِ في القلبِ أم وَخَزُ
وأملودُ ذاك القدِّ أم أسمرُ غدا
فتاةٌ كساها الحسنُ أَفْخَرَ حِلَّةِ
وأهدى إليها الغصنُ لينَ قوامِه
يضوعُ أديمُ الأرضِ من نَشْرِ طيِّبِها
وتختالُ في بُردِ الشبابِ إذا مضتْ
أصابَتْ فؤادَ الصبِّ منها بنظرةٍ

وأنشدني إجازةً في ملبح أبرص . ومن خطه نقلت :

وقالوا الذي قد صرّت طَوَّعَ جماليه ونفسك لاقت في هواه نِزاعها
به وَضَحُ تَأْبَاهُ نفسُ أُولي النُّهَى وأفْطَعُ داءِ ما يُناني طباعها
فقلتُ لهم لا عَيْبَ فيه يَشِينُهُ ولا عِلَّةٌ فيه يرومُ دفاعها
ولكنّها شمسُ الضحى حين قابلتُ محاسِنَهُ أَلْقَتُ عليه شعاعها

وأنشدني من لفظه لنفسه في فحّام :

وعَلَّقْتُهُ مُسَوِّدَ عَيْنٍ ووفرةٍ وثوبٍ يعاني صَنَعَةَ الفَحْمِ عن قصدٍ
كَأَنَّ خَطُوطَ الفَحْمِ في وجناتِهِ لطاخةٌ مَسْكٍ في جَنِيٍّ من الوردِ

وأنشدني إجازةً . ومن خطه نقلت :

سألَ البدرُ هل تبدّى أخوهُ قلتُ يا بدرُ لن تطيقَ طلوعا
كيف يبدو وأنت يا بدرُ بادٍ أوبَدْرانِ يَطلُعانِ جميعا

وأنشدني من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمساني :

عاذِلِي في الأَهِيفِ الأَنسِ لو رآهُ الآنَ قد عَذَرَ

رَشًا تَدُّ زانه الحَوَرُ غُصْنٌ من فوقه قمرُ
قَمَرٌ من سُجبه الشَّعَرُ ثَغَرٌ في فيه أم درُ

حالَ بينَ الدَّرِّ واللَّعَسِ خَمَرَةٌ مَنَ ذاقها سَكرَا

رَجَّةٌ بالردفِ أم كَسَلُ رِيقَةٌ بالثَغْرِ أم عَسَلُ
وردةٌ بالحدِّ أم خَجَلُ كَحَلٌ بالعينِ أم كُحُلُ

يا لها من أعينِ نَعْسِ جَلَبَتِ للنَّظِيرِ السَّهْرَا

مذ نأى عن مقلتي سني ما أذيقا لذّة الوسن
 طال ما ألقاه من شجن عجباً ضدّان في بدن
 بفؤادي جَذوةُ القبس وبعيني الماء منفجراً
 قد أتاني الله بالفرج إذ دنا مني أبو الفرج
 قمرٌ قد حلّ في المهج كيف لا يخشى من الوهج
 غيره لو صابه نفسي ظنّه من حرّه شرّاً
 نصّب العينين لي شركا فأنثى والقلب قد ملكا
 قمرٌ أضحى له فلكا قال لي يوماً وقد ضحكا
 أتجي من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمر
 وأما موشحة ابن التلمساني فهي :
 قمرٌ يجلو دُجى الغلس بهرّ الأبصار مذ ظهرا
 آمنٌ من شبهة الكلف ذبت من عينيه بالكلف
 لم يزل يسعى إلى تلقى بركاب الدّلّ والصلف
 آه لولا أعين الحرس نلتُ منه الوصل مقتدرا
 يا أميراً جار مذ وليا كيف لا ترثي لمن بلياً
 فيثغر منك قد جلياً قد حلا طعماً وقد حلياً
 وبما أوتيت من كيس جدّ فما أبقيت مضطرباً

بدرٌ تمَّ في الجمالِ سَيِّ
قدَّ سَباني لذةَ الوسنِ
وهو خِشفي وهو مُفترسي
ولهذا لقبوه سَيِّ
بمُحَيّا باهرٍ حَسَنِ
فارو عن أعجوبي خبرا

لك خدّ يا أبا الفرجِ
وحدث عاطرُ الأرجِ
لو رآكَ الغُصنُ لم يَمِسِ
زَيْنَ بالتوريدِ والفرجِ
كم سبي قلباً بلا حرجِ
أو رآكَ البدرُ لاستترا

يا مذيّباً مهجتي كمدا
يا كحيلاً كُحلهُ اعتمدا
وبسقمِ الناظرينَ كُسي
فُقت في الحسنِ البدورَ مدى
عجياً أن تبرى الرمدا
وأنشطني من لفظه لنفسه أيضاً :

إن كان ليلٌ داجٌ وخائنا الإصباحُ
فنورُها الوهاجُ يُغني عن المصباحُ

سُلافةٌ تَبَلُو
مِزاجُها شَهِدُ
وَحَبَّذا الوردُ
كَالكوكبِ الأزهرِ
وَعَرَفُها عَنبرُ
مِناها وإن أُسْكِرُ

قلبي بها قد هاجُ فما تراني صاحُ
عن ذلك المنهاجُ وعن هوَى يا صاحُ

وبي رَشاً أَهْيَفُ
بدر فلا يُخسِفُ
بَلَحْظِهِ المُرْهَفُ
قد لَجَّ في بُعدي
منه سنا الخدُ
يسطو على الأُسْدِ

كسطوة الحجاجُ في الناس والسفاحُ
فما ترى من ناجُ من لحظة السفاحُ

عَدَلْ بِالْمُسْكِ قَلْبَ رَشًا أَحْوَر
مُنْعَمَ الْمَسْكِ ذِي مَبَسْمٍ أَعْطَرَ
رِيَاهُ كَالْمِسْكِ وَرَيْقُهُ كَوَثَرُ

غَضَنُ عَلَى رَجْرَاجٍ طَاعَتْ لَهُ الْأَرْوَاحُ فَجَبَدَا الْآرَاجُ إِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ

مَهْلًا أَبَا الْقَاسِمِ عَلَى أَبِي حَيَّانٍ
مَا إِنْ لَهُ عَاصِمٌ مِنْ لِحْظِكَ الْفَتَّانِ
وَهَجَرُكَ الدَّائِمُ قَدْ طَالَ بِالْهِيمَانِ

فَدَمَعُهُ أَمْوَاجٌ وَسِرُّهُ قَدْ بَاحٌ لَكِنَّهُ مَا عَاجٌ وَلَا أَطَاعَ اللَّاحُ

يَا رَبَّ ذِي بُهْتَانٍ يَعْذَلُ فِي الرَّاحِ
وَفِي هَوَى غَزْلَانٍ دَافَعْتُ بِالرَّاحِ
وَقَاتُ لَا سُلُوانٍ عَنْ ذَاكَ يَا لَاحِ

سَبْعُ الْوُجُوهِ وَالْتَاخُ هِيَ مَنِيَّةُ الْأَفْرَاحِ فَاخْتَرْتُ لِیَازْجَنَاجَ قَمَصَالِ وَزُوجَ أَقْدَاحِ

وَأُنْشِدُنِي مِنْ لَفْظِهِ لِنَفْسِهِ الْقَصِيدَةَ الدَّالِيَّةَ الَّتِي نَظَمَهَا فِي مَدْحِ النُّحُوِّ وَالْحَلِيلِ
وَسَيِّبِيهِ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى مَدِيحِ صَاحِبِ غَرْنَاطَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَشْيَاخِهِ ، وَأَوَّلَهَا :

هُوَ الْعِلْمُ لَا كَالْعِلْمِ شَيْءٌ تَرَاوَدَهُ لَقَدْ فَازَ بَاغِيهِ وَأَنْجَحَ قَاصِدَهُ

وَهِيَ قَصِيدَةٌ جَيِّدَةٌ تَزِيدُ عَلَى مِائَةِ بَيْتٍ .

وَحَكِي لِي أَنَّ الشَّيْخَ أَثِيرَ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ضَعَفَ فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ
يَعُودُونَهُ ، وَفِيهِمْ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ دَانِيَالٍ ، فَأُنْشِدَهُمُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْقَصِيدَةَ
الْمَذْكُورَةَ ، فَلَمَّا فَرَّغَتْ قَالَ ابْنُ دَانِيَالٍ : يَا جَمَاعَةُ أُخْبِرْكُمْ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ عَوَفِي ،
وَمَا بَقِيَ عَلَيْهِ بَأْسٌ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ ، قَوْمُوا بِاسْمِ اللَّهِ .

وأنشدني من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى قصيدته السينية التي أولها :

أهاجك ربعٌ حائلُ الرسمِ دارسُهُ كوحني كتابٍ أضعفَ الخطَّ دارسُهُ

انتهى نص الصفدي . وما ذكره رحمه الله تعالى في موضع ولادة أبي حيان غير مخالف لما ذكره في الوافي أنه ولد بغرناطة ، إلا أن قوله « بمدينة مطخشارش » فيه نظر ، لأنه يقتضي أنها مدينة ، وليس كذلك ، وإنما هي موضع بغرناطة ، ولذا قال الرعي : إن مولد أبي حيان بمطخشارش من غرناطة ، ونحوه لابن جماعة ، انتهى ، وهو صريح في المراد ، وصاحب البيت أدري على أنه يمكن أن يرد كلام الصفدي لذلك ، والله تعالى أعلم .

وذكر في الوافي أنه تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية ، والإقراء بالجامع الأحمر ، قال الصفدي : وقال لي : لم أرَ بعد ابن دقيق العيد أفصح من قراءتك ، وكان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة ، انتهى .

وما وقع في كلام كثير من أهل المغرب أن أبا حيان توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر ، لأن أهل المشرق أعرف بذلك ، إذ توفي عندهم ، وقد تقدم أنه توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، فعلى كلام أهل المشرق في هذا المعول ، والله أعلم .

وكانت نضار بنت أبي حيان حجت ، وسمعت بقراءة العلكم البرزالي على بعض الشيوخ ، وحدثت بشيء من مروياتها ، وحضرت على الدمياطي ، وسمعت على جماعة ، وهي بضم النون وتخفيف الضاد ، وأجازها من المغرب أبو جعفر ابن الزبير ، وحفظت مقدمة في النحو ، ولما توفيت عمل والدها فيها كتاباً سمّاه « النضار في المسئلة عن نضار » ، وكان والدها يثني عليها كثيراً ، وكانت تكتب وتقرأ ، قال الصفدي : قال لي والدها : إنها خرّجت جزءاً لنفسها وإنها تعرب جيداً ، وأظنه قال لي : إنها تنظم الشعر ، وكان يقول دائماً : ليت أخاها حيان كان مثلها ، وتوفيت رحمه الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ ،

في حياة والدها ، فوجد عليها وجداً عظيماً ولم يثبت وانقطع عند قبرها بالبرقية ،
ولازمه سنة ، ومولدها في جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ ، قال الصفدي : وكنت
بالرحبة لما توفيت ، فكتبت لوالدها بقصيدة أولها :

بكينا باللّجين على نُضارٍ فسيلُ الدمع في الخدين جاري
فيسا لله جاريةٌ تَوَلَّتْ فنيكيها بأدمعنا الجواري

وقال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي في برناجه ،
عند ذكره شيخه أبا حيان زيادةً على ما قدمناه ، ما ملخصه : إن أبا حيان قال :
سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والإسكندرية ومصر والقاهرة
ودمياط والمحلة وطهرمس والحيزة ومنية بني خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس
وبعيزاب من بلاد السودان وبينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة ، ثم فصل
من لقيه في كل بلد إلى أن قال : وبمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن
الحسن بن عبد الله بن عساكر ، إلى أن قال : فهذه نبذة من شيوخي ، وجملة من
سمعت منه خمسمائة ، والمجيزون أكثر من ألف ، وعدّ من كتب القراءات
التي أخذ تسعة عشر كتاباً ، وقال في حق ابن المليحي : إنه أعلى شيوخي في
القراءات وإن آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذري اللخمي
ولإجازته منه سنة ٦٠٤ ، قال : وقرأت البخاري على جماعة أقدمهم إسناداً فيه
أبو العز الحرائي قرأته عليه بلفظي إلا بعض كتاب التفسير من قوله تعالى
﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾
في سورة النور ، فسمعته بقراءة غيري ، قال : أنبأنا به أبو المعالي أحمد بن يحيى
ابن عبيد الله الخازن البيه سماعاً عليه سنة ستمائة ببغداد ، أنبأنا أبو الوقت بسنده ،
وكمل له رحمه الله تعالى جامع الترمذي بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغرناطة ،
وسمعه على محمد بن ترجم ، أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكروخي بسنده ، وقرأ السنن
لأبي داود بغرناطة على أبي زيد عبد الرحمن الربيعي ، عُرِفَ بالتونسي ، أنبأنا

به سهل بن مالك ، وقرأه بالقاهرة على أبي الفضل عبد الرحيم ابن خطيب المزة
عن أبي حفص ابن طبرزد عن أبي بدر الكروخي ومفلح الرومي عن أبي بكر ابن
ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمي أنبأنا اللؤلؤي أنبأنا أبو داود ، وقرأ الموطأ
على أبي حفص ابن الطباع عن أبي القاسم ابن بقي عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع
بسنده ، وهذا أعلى سند يوجد عن يونس بن مغيث في عصره . وسمع أبو حيان
الأجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحاملات والثقفيات
وسداسيات الرازي بعلو ، قرأها على صفي الدين عبد الوهاب بن الفرات عن
أبي الطاهر إسماعيل بن ياسين الجيلي ، وهو آخر من حدث عنه ، عن أبي عبد الله
الرازي سماعاً ، وقرأ جزء الأنصاري على أبي بكر ابن الأنماطي بسماعه حضوراً في
الرابعة على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي
اليزار سنة ٥٣٢ ، أنبأنا إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي قراءة عليه في رجب
سنة ٤٤٥ ، أنبأنا عبد الله بن إبراهيم بن ماس ، أنبأنا أبو مسلم الكشي البصري ،
أنبأنا محمد بن عبد الله الأنصاري ؛ وقرأ جميع كتاب سيويه على البهاء ابن النحاس
المشهور بالنحو في مصر والشام ، بقراءته على علم الدين أبي محمد القاسم بن أحمد
ابن الموفق ، بقراءته على التاج أبي اليمن الكندي ، أنبأنا أبو محمد عبد الله بن علي
ابن أحمد البغدادي مؤلف كتاب « المبهج » ، أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن
محمد بن يعقوب عُرِف بابن الدباس ، أنبأنا أبو القاسم عيد الواحد بن علي بن
عمر بن برهان الأسدي ، أنبأنا [أبو] القاسم علي بن عبيد الله الرقيق ، أنبأنا علي بن
عيسى بن عبد الله الرماني ، أنبأنا أبو بكر ابن السراج ، أنبأنا أبو العباس المبرد ،
أنبأنا أبو عمر الحرمي وأبو عثمان المازني ، قالا : أنبأنا أبو الحسن الأخفش ،
أنبأنا سيويه ، قال الشيخ أبو حيان : ولا أعلم راوياً له بمصر والشام والعراق
واليمن والمشرق غيري ، ورويته عن الأساتيد أبي علي ابن الضائع وابن أبي
الأحوص وأبي جعفر الليلي عن أبي علي الشلوين ، وسنده مشهور بالمغرب .
ووقع لأبي حيان تساميات كثيرة ، وأغرب ما وقع له ثلاثة أحاديث بينه وبين

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيها ثمانية ، أخبره المحدث نجيب محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الحمداني بقراءته عليه والجليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر ابن أيوب بن شادي قراءةً عليها وهو يسمع ، قال : أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح في كتابه ، أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله بن أحمد الجوزدانية ، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن ريدة الضبي الأصبهاني ، أنبأنا الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الطبراني ، أنبأنا عبيد الله بن رماحس القيسي برمادة الرملة سنة ٢٧٤ ، أنبأنا أبو عمر زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة ، قال : سمعت أبا جبرؤل زهير بن صرد الجشمي يقول : لما أسرتنا رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوم هوازن آتيته فقلت :

أمنٌ علينا رسولَ الله في كرم	فإنك المرءُ نرجوهُ وننتظرُ
أمنٌ على بيضةٍ قد عاقها قدرٌ	مشتت شملها في دهرها غيرُ
أبقت لنا الدهرَ هتّاناً على حزنٍ	علا قلوبهمُ الغمَاءُ والغمرُ
إن لم تداركهمُ نعماءُ تنشرها	يا أرجح الناس حلاً حين يُختبرُ
أمنٌ على نسوةٍ قد كنتَ ترضعها	إذ فوك تملؤه من محضها الدررُ
إذ أنت طفلٌ صغيرٌ كنتَ ترضعها	وإذ يربيكَ ما تأتي وما تذرُ
لا تجعلنَا كمن شالتْ نعمامتهُ	واستبقِ منّا فإنّا معشرٌ زهرُ
إنّا لنشكرُ للنعماءِ إذ كُفِرتْ	وعندنا بعد هذا اليوم مُدْخَرُ
فألبس العفو من قد كنتَ ترضعه	من أمهاتك إن العفو مشتهرُ
ياخير من مَرَحَتِ كُمتُ الجيادِ به	عند الهياج إذا ما استوقد الشررُ
إنّا نؤملُ عَفْواً منك تلبسه	هذي البريةُ إذ تعفو وتنتصرُ
فاعفُ عفا الله عما أنت راهبُه	يومَ القيامةِ إذ يُهدى لك الظفرُ

فلما سمع ، صلى الله عليه وسلم ، هذا الشعر قال : « ما كان لي ولبي

عبد المطلب فهو لكم» ، فقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، قال أبو القاسم الطبراني : لا يُروى عن زهير إلاّ بهذا الإسناد ، وتفرد به عبيد الله بن رماحس ، وبالإسناد إلى الطبراني : أنبأنا جعفر بن حميد بن عبد الكريم بن فروخ بن ديزج بن بلال بن سعد بن بلال بن سعد الأنصاري الدمشقي ، قال : حدثني جدي لأمي عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدني ، قال : أراني أنس بن مالك الوضوء : أخذ ركوة فوضعها عن يساره ، وصبّ على يده اليمنى فغسلها ثلاثاً ، ثمّ أدار الركوة عن يده اليمنى وصبّ على يساره فغسلها ثلاثاً وثلاثاً ، ومسح برأسه ثلاثاً وأخذ ماء جديداً لصمّاحيته فمسح صمّاحيته ، فقلت له : قد مسحت أذنك ، فقال : يا غلام ، هل رأيت وفهمت أو أعيد عليك ؟ فقلت : قد كفاني ، وقد فهمت ، قال : فكذا رأيت رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، يتوضأ ، قال الطبراني : لم يروِ عمر بن أبان عن أنس حديثاً غير هذا ، وبالإسناد إلى الطبراني : حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصري ، أنبأنا دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك ، حدثني أنس بن مالك قال : قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، « طوبى لمن رآني وآمن بي ، ومن رأى من رآني وآمن بي ، ومن رأى من رأى من رآني » .

ثمّ قال الرعيني : وتصانيف أبي حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير ، ثمّ قال الرعيني : وخرج أبو حيان من الأندلس مفتح سنة ٦٧٩ ، واستوطن القاهرة بعد حجه ، وأنشد لشيخه أبي الحسن الزّجاج :

رضيتُ كفاني رتبةً ومعيشةً فلستُ أسامي موسيراً ووجيهاً
ومن جرّ أثواب الزمانِ طويلاً فلا بدّ يوماً أن سيَعترُ فيها

وأنشد بإسناده لموسى بن أبي تليد :

حالي مع الدهر في تَقَلُّبِهِ كطائرٍ ضمَّ رِجله شِرْكَهُ
فَهَمُّهُ في خلاصٍ مهجته يرومُ تَخْلِيصَهَا فتشبتكُ

ثم أورد الرعيي جملة من نظم الإمام أبي حيان ، منها قوله :

أريدُ من الدنيا ثلاثاً وإنها لَعَايَةُ مطلوبٍ لمن هو طالبُ
تلاوةُ قرآنٍ ، ونفسٌ غفيفةٌ ، وإكثارُ أعمالٍ عليها أواظبُ

وقوله :

أَرَحْتُ رُوحِي من الإيناسِ بالناسِ لَمَّا غَنَيْتُ عن الأكياسِ بالباسِ
وصرتُ في البيتِ وحدي لا أرى أحداً بناتُ فكري وكتبي هُنَّ جُلَّاسِي

وقوله :

وَزَهَّدَنِي في جمعي المالِ أَنَّهُ إذا ما انتهى عند الفتي فارقَ العُمرا
فلا روحَهُ يوماً أراحَ من العنا ولم يَكْتَسِبْ حَمداً ولم يدخر أجرا

وقوله :

يظنُّ العَمْرُ أَنَّ الكُتُبَ تُجدي أخا ذِهْنٍ لإدراكِ العلومِ
وما يدري الجهولُ بأنَّ فيها غوامضَ حيرتْ عَقْلَ الفهيمِ
إذا رَمَتْ العلومُ بغيرِ شيخٍ ضللتْ عن الصراطِ المستقيمِ
وتَلَتَسَسُ الأمورُ عليكَ حتَّى تصيرَ أضلَّ من توما الحكيمِ

وله لغز في قيراط زاعماً أنه لا يُفك :

وما اسمٌ خماسيٌّ إذا ما فكَّكتهُ يصيرُ لنا فعلينِ امرأةً وماضياً

بعكسٍ وهو كلٌّ وجزءٌ وجمعهُ بإبدالِ عينٍ حارٍ فيه التناهي
ومع كونه فرداً وجمعاً فأولٌ وآخره أضحي لشخصٍ معاديا
وفي عكسه صوتٌ فتبينه صيغةٌ وتبني بمعناه وما أنت بانيا
فكم فيه من معنىٍ خفيٍّ وإنما عنيتُ بذكرٍي للذي ليس خافيا

ثمَّ قال الرعيني : وهو شيخ فاضل ، ما رأيت مثله ، كثير الضحك
والانبساط ، بعيد عن الانقباض ، جيد الكلام ، حسن اللقاء ، جميل المؤانسة ،
فصيح الكلام ، طلق اللسان ، ذولمة وافرة ، وهمّة فاخرة ، له وجه مستدير ،
وقامته معتدلة التقدير ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، انتهى ما لحصته من كلام
الرعيني .

ولما قدم الأستاذ أبو حيان إلى مصر أوصى أهله بقوله : ينبغي للعاقل أن يعامل
كل أحد في الظاهر معاملة الصديق ، وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه
والتحرز ، وليكن في التحرز من صديقه أشد من التحرز من عدوه ، وأن يعتقد
أن إحسان شخص إلى آخر وتودده إنما هو لغرض قام له فيه يتعلق به يبعثه على
ذلك لا لذات ذلك الشخص ، وينبغي أن يترك الإنسان الكلام في ستة أشياء :
في ذات الله تعالى ، وما يتعلق بصفاته ، وما يتعلق بأحوال أنبيائه صلوات الله
وسلامه عليهم أجمعين ، وفي التعرض لما جرى بين الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم
أجمعين ، وفي التعرض لأئمة المذاهب . رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ، وفي
الطعن على صالحى الأمة نفع الله بهم وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه ،
وأن لا يقصد أذى أحد من خلق الله سبحانه وتعالى إلا على حسب الدفع عن
نفسه ، وأن يعذر الناس في مباحثهم وإدراكاتهم . فإن ذلك على حسب عقولهم .
وأن يضبط نفسه عن المراء والاستزراء والاستخفاف بأبناء زمانه ، وأن لا يبحث
إلا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث ، وأن لا يغضب
على من لا يفهم مراده ومن لم يدرك ما يدركه ، وأن يلتبس مخرجاً لمن ظاهر

كلامه الفساد ، وأن لا يقدم^١ على تخطئة أحد ببادي الرأي . وأن يترك الخوض في علوم الأوائل ، وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة ، وأن لا ينكر على الفقهاء ، وليسلم لهم أحوالهم ، وينبغي للعاقل أن يلتزم نفسه التواضع لعبيد الله سبحانه وتعالى ، وأن يجعل نُصْبَ عينيه أنه عاجز مفتقر . وأن لا يتكبر على أحد ، وأن يُقْلَ من الضحك والمزاح والخوض فيما لا يعنيه ، وأن يتظاهر لكلِّ بما يوافقه فيما لا معصية لله تعالى فيه ولا خَرَمَ مروءة ، وأن يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور ، وأن لا يظهر الشكوى لأحد من خلق الله تعالى . وأن لا يعرض بذكر أهله ، ولا يجري ذكر حرمة بحضرة جلسه ، وأن لا يطلع أحداً على عمل خير يعملُه لوجه الله تعالى ، وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التقاضي ، وأن لا يركن إلى أحد إلاّ إلى الله تعالى ، وأن يكثر من مطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلاً جديداً ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهت وصية أبي حيان الجامعة النافعة ، وقد نقلتها من خط الشيخ العلامة أبي الطيب ابن علوان التونسي المالكي الشهير بالمصري ، وهو ممّن أخذ عن تلامذة الشيخ أبي حيان ، رحمه الله تعالى .

قلت : وبما في هذه الوصية من نهيه عن الطعن في صالحِي الأمة نفع الله تعالى بهم وأمره بالتسليم لأحوالهم وعدم الإنكار عليهم ؛ تعلم أن ما نقله الصفدي عنه فيما تقدم من قوله « إن الشيخ أبا مدين إلى آخره » كلام فيه نظر ، لأن أبا حيان رضي الله تعالى عنه لا ينكر كرامات الأولياء ، كيف وقد ذكر رحمه الله تعالى منها كثيراً ، فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعيني بسنده إلى الفقيه المقرئ الصالح أبي تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونه الخزاعي ، حدث أنه زار قبر أبي الحسن ابن جالوت ، ولم يكن زاره قبلُ ، فاشتبه عليه فكرهه ، فسمع النداء من قبر معين : يا غالب أتمشي وما زرتني ؟ فزار ذلك القبر ، وقعد عنده ، ثم جاء

ابن أبي الحسن المذكور ، فسأله عن القبر : فقال : هو الذي قعدت عنده . وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبي أحمد جعفر بن سيد بونه الخزاعي . وهو من أصحاب الشيخ أبي مَدَّين : انتهى . فكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين وهو يوصي على من ينهى عن الطعن فيهم . ويحكي كراماتهم . نعم قول الصفدي قبل ذلك الكلام « إنه كان ينكر على فقراء الوقت » كلامٌ صحيح في الجملة ، لكثرة الدعاوى الباطلة ممّن ليس من أهل الصلاح ، وأما إنكار الكرامات مطلقاً فمقام أبي حيان يجل عن إنكارها ، والله تعالى أعلم . وقد أورد ابن جماعة له من قطعة قوله في أهل عصره :

ومن يكُ يدّعي منهم صلاحاً فزندقٌ تغلغلَ في الضلالِ
وأول هذه القطعة :

حلبتُ الدهرَ أشطُرهُ زماناً	وأغنائي العيانُ عن السؤالِ
فما أبصرتُ من خِلٍ وفيّ	ولا ألفتُ مشكورَ الخلالِ
ذئابٌ في ثيابٍ قد تبسّدتُ	لرائيها بأشكالِ الرجالِ
ومن يكُ يدّعي منهم صلاحاً	فزندقٌ تغلغلَ في الضلالِ
ترى الجهالَ تتبّعه وترضى	مشاركةً بأهلٍ أو بمالِ
فينهبُ ما لهم ويصيبُ منهم	نساءهم بمقبوحِ الفعالِ
وتأخذُ حاله زوراً فيرمي	عمامته ويهربُ في الرمالِ
ويجرون التيوسُ وراء رجسٍ	تقرّمطَ في العقيدةِ والمقالِ

أي اعتقدوا رأي القرامطة ، ومذهبهم مشهور . فلا تطيل به ، فظهر بما ذكر أن أبا حيان إنما أنكر على أهل الدعاوى ، لا على غيرهم . والله تعالى أعلم . وقد أورد قاضي القضاة ابن جماعة للشيخ أبي حيان من النظم غير ما قدمنا ذكره قوله :

أما إنه لولا ثلاثُ أحبَّها تَنَبَّتُ أُنِي لَا أَعَدُّ مِنَ الْأَحْيَا
فمنها رجائي أن أفوزَ بتوبةٍ تُكَفِّرُ لِي ذَنْبًا وَتُنْجِحُ لِي سَعِيَا
ومنهنَّ صَوْنِي النَّفْسِ عَنْ كُلِّ جَاهِلٍ لئِمَّ فَلَا أَمْشِي إِلَى بَابِهِ مَشِيَا
ومنهنَّ أَخْذِي بِالْحَدِيثِ إِذَا الْوَرَى نَسُوا سَنَةَ الْمُخْتَارِ وَاتَّبَعُوا الرَّأْيَا
أَتَرَكَ نَصًّا لِلرَّسُولِ وَتَقْتَدِي بِشَخْصٍ لَقَدْ بُدِّلَتْ بِالرَّشْدِ الْغِيَا

وقوله :

سَالَ فِي الْحَدِّ لِلْحَبِيبِ عِذَارُ وَهُوَ لَا شَكَّ سَائِلُ مَرْحُومُ
وَسَأَلْتُ الثَّمَامَةَ فَتَجَنَّتِي فَأَنَا الْيَوْمَ سَائِلُ مَحْرُومُ

وقوله :

أُمْدَعِيًّا عِلْمًا وَلَسْتَ بِقَارِيٍّ كِتَابًا عَلَى شَيْخٍ بِهِ يَسْهَلُ الْحَزَنُ
أَتَزْعَمُ أَنَّ الذِّهْنَ يَوْضَعُ مُشْكَلًا بَلَا مَوْضِعَ؟ كَلَّا لَقَدْ كَذَبَ الذِّهْنُ
وَأَنَّ الَّذِي تَبْغِيهِ دُونَ مُعَلِّمٍ كَمُوقِدٍ مُصْبَاحٍ وَلَيْسَ لَهُ دُهْنُ

وقوله « عِدَاتِي — الْبَيْتَيْنِ » قَالَ : وَأَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ الطُّغْرَايْنِي :

مَنْ خَصَّ بِالْوَدِّ الصَّحَابَ فَإِنِّي أَحْبَبُ بِخَالِصٍ وَدِّيَ الْأَعْدَاءَ
جَعَلُوا التَّنَافُسَ فِي الْمَعَالِي دَيْدَنِي حَتَّى وَطِئْتُ بِأَخْمَصِي الْجُوزَاءَ
وَنَعَوُوا إِلَيَّ مِثَالِي فَحَذَرْتَهَا وَنَفَيْتُ عَنْ أَخْلَاقِي الْأَقْدَاءَ
وَلَرَبَّمَا انْتَفَعَ الْفَتَى بَعْدَوَهُ كَالسَّمِّ أَحْيَانًا يَكُونُ دَوَاءَ

ومن نظم أبي حيان :

يَا مُنْضِي الطَّرْفِ فِي مِيدَانِ لَذَّتِهِ وَنَاضِي الطَّرْفِ بِسَيْنِ الرَّاحِ وَالرُّودِ

سَشْرَبُ الرُّوحِ رَاحَ الوَقْتِ كَارِهَةً وَيَذْهَبُ الْجَسْمُ بَسِينِ التُّرْبِ فِي الدُّودِ

وله رحمه الله تعالى قصيدة سمّاها بـ «المورد العذب في معارضة قصيدة كعب» وقصيدة في مدح الإمام الشافعي مطلعها :

غَذِيْتُ بِعِلْمِ النُّحُوِّ إِذْ دَرَّ لِي ثَدْيَا

وله رحمه الله تعالى من قصيدة في مدح أم ولده حيّان :

جُنْتُ بِهَا سَوْدَاءَ لَوْنٍ وَنَاطِرٍ وَيَا طَالِمَا كَانَ الْجَنُونُ بِسَوْدَاءِ
وَجَدْتُ بِهَا بَرْدَ النِّعَمِ وَإِنْ يَكُنْ فَوَادِيَّ مِنْهَا فِي جَحِيمٍ وَلَأَوَاءِ
وَشَاهَدْتُ مَعْنَى الْحَسَنِ فِيهَا مَجْسَدًا فَأَعْجَبَ لِمَعْنَى صَارَ جَوْهَرُ أَشْيَاءِ
أَطَاعَنَةً مِنْ قَدَّهَا بِمُتَقَفٍ أَصَبْتُ وَمَا أَغْنَى الْفَقَى لُبْسُ حَصْدَاءِ
لَقَدْ طَعَنْتُ وَالْقَلْبُ سَاهٍ فَمَا دَرَى أَبَالْقَدَّ مِنْهَا أَمْ بِصَعْدَةِ سَمَرَاءِ
ثُمَّ غَيْرَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ ، وَأُنْشِدُ :

جُنْتُ بِهَا سَوْدَاءَ شَعْرٍ وَنَاطِرٍ وَسَمَرَاءَ لَوْنٍ تَزْدِرِي كُلَّ بَيَاضِ

وقال بهنيء ، قال ابن جماعة : خاطبني به ارتجالاً عند ولادة ابني عمر بعد بنتين :

حُيِّتَ بِرِيحَانَتِي رَوْضَةً وَبَعْدَهُمَا جَاءَ نَجْلٌ أَغْرَ
وَسَمِيَتْهُ اسْمَ إِمَامٍ إِذَا رَأَاهُ أَبُو مُرَّةٍ مِنْهُ فَرَّ
وَلَا عَجَبٌ مِنْكَ عَبْدَ الْعَزِيزِ إِذَا كَانَ نَجْلُكَ يُسَمَّى عَمْرُ
تَفَرَّعْتُمَا مِنْ إِمَامٍ الْهُدَى وَبَدَرَ الدَّجَى وَرَيْسَ الْبَشَرِ
فَلَا زَالَ يُوَضِّحُ سُبُلَ الْهُدَى وَلَا زَلْتُمَا تَقْفُؤَانَ الْإِثْرِ

وقال :

لقد زادني بالناس علماً تجاربي ومن جرّب الأيام مثلي تعلّما
وإني وتلامي من الناس راحة لكالمبتغي وسط الحميم تنعّما
سأزهد حتى لا أرى لي صاحباً وأنجِد حتى لا ألقى مُتّهما

قال ابن جماعة : وقال في إملاك علي ابن قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي ، وكان جميل الصورة ، على أُختي شقيقتي فاطمة :

هنيئاً بتأليف غريب نظامه لقد حار في أوصافه نظم عارف
غدّت شمسُ حسن بنت بدر سيادة تُزف لبدر نجل شمس معارف
سميان للزهرا البتول وللرضا علي ونجلا الأكرمين الغطارف
فدام علي عالياً الجدد سيّداً ولا زال في ظل من العيش وارف

وقال يخاطب شيخه ابن النحاس وقد أغب زيارته :

أعين حياتي والذي ببقائه بقائي لقد أصبحت نحوك شيقاً
أقمت بقلبي غير أن لقلتي برؤيتك الحظ الذي يذهب الشقا
وما كان ظني أنك الدهر تاركي ولو أنني أصبحت بين الوري لقا
لطائف معني في العيان ولم تكن لتُدرّك إلا بالتزاور واللقا

وقال يخاطب قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي ، وقد أعيد إلى منصب القضاء ، وكان يتطلّع إليه رجل يدعى نجم الدين :

ذوو العلم في الدنيا نجوم زواهر وإنك فيها الشمس حقاً بلا لبس
إذا لحت أخفى نوركم كل نير ألم تر أن النجم يخفى مع الشمس

١ ق : لكالمبتغي .

وقال :

لم أُوخِّرَ عَمَّنْ أَحِبُّ كِتَابِي لِقَلِّي فِيهِ أَوْ لَتَرَكِ هَوَاهُ
غَيْرَ أَنِّي إِذَا كَتَبْتُ كِتَاباً غَلَبَ الدَّمْعُ مُقَلَّتِي فَمَحَاهُ

وقال :

تَذَكَّرِي لِلْبَلَى فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ أَصَارَنِي زَاهِداً فِي الْمَالِ وَالرُّتَبِ
أَنْتِ أَسْرُ بِحَالٍ سَوْفَ أُسْلِبُهَا عَمَّا قَرِيبٍ وَأَبْقَى رَمَّةَ التُّرْبِ؟

وقال :

أَتَيْتُ وَمَا أَدْعَى وَأَقْبَلْتُ سَامِعاً فَوَائِدَ مَوْلَى سَيِّدِ مَسَاجِدِ نَدَبِ
وَأَحْضَرُ جَمْعاً أَنْتَ فِيهِ جَمَالُهُ أَشْنَفُ سَمْعِي مِنْكَ بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ

وقال :

لَنَا غَرَامٌ شَدِيدٌ فِي هَوَى السُّودِ نَخْتَارُهُنَّ عَلَى بَيْضِ الطُّلَى الْغَيْدِ
لَوْ أَنَّ بِهِ أَشْرَقَتْ أَبْصَارُنَا وَحَكِي فِي اللَّوْنِ وَالْعَرَفِ نَفْحَ الْمَسْكِ وَالْعُودِ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ آسٍ تَرْكَبُهُ فِي آبَنُوسٍ وَلَا أَشْفَى لِمَسْرُودِ
لَا تَهْوَى بِيضَاءَ لَوْنِ الْجَصِّ وَاسْمٌ إِلَى سَوْدَاءَ حَسَنَاءَ لَوْنِ الْأَعْيُنِ السُّودِ
فِي جِيدِهَا غَيْدٌ ، فِي قَدَمِهَا مَيْدٌ فِي خَدِّهَا صَيْدٌ ، مِنْ سَادَةِ صَيْدِ
مِنْ آلِ حَامٍ حَمَتِ قَلْبِي بِنَارِ جَوَى مِنْ هَجَرِهَا وَابْتَلَتْ عَيْنِي بِتَسْهِيدِ

وقال في عكسه :

إِذَا مَالَ الْفَتَى لِلسُّودِ يَوْمَئِذٍ فَلَا رَأْيَ لَدَيْهِ وَلَا رِشَادُ
أَتَهْوَى خُنْفُسَاءَ كَأَنَّ زَفْتاً كَسَا جِلْدَ لَهَا وَهُوَ السَّوَادُ
وَمَا السَّوْدَاءُ إِلَّا قِدَرُ فَرْنٍ وَكَانُونِ وَفَحْمٌ أَوْ مَدَادُ

وما البيضاء إلا الشمس لاحت
سبيكة فضة حشيت بورد
وبين البيض والسودان فرق
وجوه المؤمنين بها ابيضاض
تنير العين منها والفؤاد
يلد السهد معنها والرقاد
لدى عقل به اتضح المراد
ووجه الكافرين به اسوداد

وقال رحمه الله تعالى :

أعاذل ذرني وانفرادي عن الوري
ندامي كتب أستفيد علومها
وأنسها القرآن فهو الذي به
لقد جلست في غرب البلاد وشرقها
فلم أر إلا طالباً لرياسة
قبضت يدي عنهم وآثرت عزلة
فلست أرى فيهم صديقاً مصافياً
أحبائي تغني عن لقائي الأعاديا
نجاني إذا فكرت أو كنت تاليا
أنقب عمن كان لله داعياً
وجمع أموال وشيخاً مرانيا
عن الناس واستغنيت بالله كافياً

قال العز ابن جماعة : وخاطب والذي وقد أبل من ضعف أشيع فيه موته
مهناً له :

أدام الإله لك العافية
إذا لاح من بدركم نوره
تخذت كلام الإله الدوا
تشوف ناس لمنصبكم
فأين العلوم وأين الحلوم
هم عصبة لا تنال العلا
إذا كان خرق تداركته
فإن عن خطب ثبت له
سجايك لين ورفق بنا
وصير دور العدا عافية
فكل النجوم به خافية
فآياته كانت الشافية
وربتهم للعلا نافية
وخلق موارد صافية
ولو أنها قد سعت حافية
وليست لما مزقت رافية
وآراؤهم عنده هافية
وأخلاقهم كلها جافية

تصلي على سبعة منهم^١ وثامنهم^٢ نفسه طافيه^٣
 يقيمون في تربهم همدًا^٤ وتسفي على قبرهم سافيه^٥
 فلا زلت في صحة دائماً^٦ تجر ذبول السني ضافيه^٧
 ويوردك الله عين الحياة^٨ فتحيا بها مائة وافيه^٩
 فإن زاد عشراً فذاك المني^{١٠} وعشرون أيضاً هي الكافيه^{١١}
 وهذي القوافي أتت كملاً^{١٢} فلم تبق لي بعدها قافيه^{١٣}

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

خلق الإنسان في كبَد^١ بوجود الأهل والولد^٢
 كل عضو فيه نافعُه^٣ غير عضو ضرر للأبد^٤
 منتج ذلاً^٥ وفقد غنى^٦ وفراخاً جمّة العدد^٧
 من يمت منهم يذقه أسى^٨ أو يعيش ألقاه في نكد^٩
 عاش في أمن فتى عزب^{١٠} مستريح الفكر والجسد^{١١}

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

جنّ غيري بعارض فترجى^١ أهله أن يفیق عمّا قريب^٢
 وفؤادي بعارضين مصاب^٣ فهو داء أعيا دواء الطيب^٤

وقال :

سعت حية من شعره نحو صدغه^١ وما انفصلت من خده ، إن ذا عجب^٢
 وأعجب من ذا أن سلسال ريقه^٣ برود ولكن شب في قلبي اللهب^٤

وقال :

طالع تواريخ من في الدهر قد وجدوا^١ تجد خطوباً تسلي عنك ما تجد^٢
 تجد أكابرهم قد جرّعوا غصصاً^٣ من الرزايا بها كم فقتت كبد^٤

عزلٌ ونهبٌ وضربٌ بالسياطٍ وحبسٌ ثم قتلٌ وتشريدٌ لمن ولدوا
وإن وقيت بحمد الله شيرتهم فلتحمد الله فالعقبي لمن حمدا

وقال رحمه الله تعالى يمدح البخاري وكتابه الصحيح :

أَسَامِعْ أَخْبَارَ الرَّسُولِ لَكَ الْبُشْرَى
تَشْنَفُ آذَانًا بِعَقْدِ جَوَاهِرِ
جَوَاهِرُ كَمْ حَلَّتْ نَفُوسًا نَفِيسَةً
هَلَّ الدِّينُ إِلَّا مَا رَوَتْهُ أَكَابِرُ
وَأَدَوَّا أَحَادِيثَ الرَّسُولِ مَصُونَةً
وإنَّ الْبُخَارِيَّ الْإِمَامَ الْجَامِعُ
عَلَى مَقَرِّقِ الْإِسْلَامِ تَاجٌ مُرْصَعٌ
وَبَحْرُ عُلُومٍ يَلْفِظُ الدَّرَّ لَا الْحَصَا
تَصَانِيفُهُ نُورٌ وَنُورٌ لِنَظَرِ
نَحَاسَتَةِ الْمُخْتَارِ يَنْظِمُ شَتَاهَا
وَكَمْ بَدَّلَ النَّفْسَ الْمَصُونَةَ جَاهِدًا
فَطَوْرًا عِرَاقِيًّا وَطَوْرًا يَمَانِيًّا
إِلَى أَنْ حَوَى مِنْهَا الصَّحِيحَ صَحِيفَةً
كِتَابٌ لَهُ مِنْ شَرْعِ أَحْمَدَ شَرِيعَةً

قلت : وتتصل روايتي عن الإمام أبي حيان من طُرُق عديدة : منها عن
عمي ولي الله العارف به شيخ الإسلام مفتي الأنام الخطيب الإمام مُلْحِقِ الأَحْفَادِ
بِالأَجْدَادِ سيدي سعيد بن أحمد المقرئ التلمساني ، عن شيخه العالم أبي عبد الله
التنسي ، عن والده حافظ عصره سيدي محمد بن عبد الله بن عبد الحليل التنسي
ثم التلمساني الأموي ، عن عالم الدنيا أبي عبد الله ابن مرزوق ، عن جده الرئيس
الخطيب سيدي أبي عبد الله محمد بن مرزوق ، عن الأثير أبي حيان بكل مروياته :

فمنها أن أبا حيان قال : حدثنا ابن أبي الأحوص عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن ابن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن عمر بن علي وعبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن عمرو أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مر بمجلسين أحدهما يدعون الله ويدعون إليه ، والآخر يتعلمون العلم ويعلمونه ، فقال : « كل المجلسين خير ، وأحدهما أفضل من الآخر ، أما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل ، وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأنا بُعِثْتُ معلماً » ، ثم جلس معهم .

قال أبو حيان : قلت : لا أعرف حديثاً اجتمعت فيه رواية الأبناء عن الآباء بعدد ما اجتمع في هذا إلا ما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن بن مامة بقراءتي عليه ، أنبأنا أبو المعالي الأبرموي أنبأنا أبو بكر ابن عبد الله بن محمد بن سابور القلانسي ، أنبأنا أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي ، أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، قال : سمعت أبي أبا الفرج عبد الوهاب يقول : سمعت أبي أبا الحسن عبد العزيز يقول : سمعت أبي أبا بكر الحارث يقول : سمعت أبي أسداً يقول : سمعت أبي الليث يقول : سمعت أبي سليمان يقول : سمعت أبي الأسود يقول : سمعت أبي سفيان يقول : سمعت أبي يزيد يقول : سمعت أبي أكيمة يقول : سمعت أبي الهشيم يقول : سمعت أبي عبد الله يقول : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « ما اجتمع قوم على ذكر إلا حَفَّتْهُمُ الملائكة وعمتهم الرحمة » ، انتهى .

قلت : قال الحافظ ابن حجر في فوائده : ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا ، انتهى .

ورأيت بخط بعض الحفاظ على قول أبي أكيمة ما صورته : صوابه أكيمة ،

انتهى ، فليحرر .

ومنها أن أبا حيان قال : أنبأنا الأستاذ أبو جعفر الزبير صاحب الصلة ، أنبأنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدي ، أنبأنا عبد الله بن محمد ابن حسن بن عطية ، ح قال أبو حيان : وأنبأنا الأصولي أبو الحسين ابن القاضي أبي عامر ابن ربيع الأشعري ، عن أبي الحسن أحمد بن علي الغافقي ، قال : أنبأنا عياض ، ح وكتب لنا الخطيب أبو الحجاج يوسف بن أبي ركانة ، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمحون عن عبد الله بن عطية قال هو وعياض : أنبأنا القاضي أبو بكر ابن العربي ، أنبأنا أبو محمد هبة الله الأكفاني ، أنبأنا الحافظ عبد العزيز الكتاني الدمشقي ، أنبأنا أبو عصمت نوح ابن الفرغاني قال : سمعت أبا المظفر عبد الله بن محمد بن عبد الله بن قتّ الخرجي وأبا بكر محمد بن عيسى البخاري قالوا : سمعنا أبا ذر عمّار بن محمد بن محمد بن مخلد التميمي يقول : سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري يقول : لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن يزيد الهمداني عن قضاء الري ورّد بخارى سنة ٣١٨ لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي ، فترّل في جوارنا ، فحملني معلمي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الحنّلي إليه فقال له : أسألك أن تحدث هذا الصبي ما سمعته من مشايخك ، فقال : ما لي سماع ، فقال : وكيف وأنت فقيه ؟ فما هذا ؟ قال : لأنني لما بلغت مبلغ الرجال تأقت نفسي إلى طلب الحديث ورواية الأخبار وسماعها ، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى صاحب التاريخ والمنظور إليه في علم الحديث ، وأعلمته مرادي ، وسألته الإقبال على ذلك ، فقال لي : يا بني ، لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره ، فقلت : عرّفني - رحمك الله تعالى - حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لي : اعلم أن الرجل لا يصير محدثاً كاملاً في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعاً مع أربع كأربع مثل أربع في أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع ، فإذا تمت له كلها

هان عليه أربع ، وابتلي بأربع ، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع ، قلت له : ففسّر — رحمك الله تعالى — ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صافٍ بشرح كافٍ وبيان شافٍ طلباً للأجر الواف ، فقال : نعم ، أما الأربع التي تحتاج إلى كتبها فهي أخبار الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وشرائعه ، والصحابة ، رضي الله تعالى عنهم ، ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم ، مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكناتهم وأزمانهم ، كالتحميد مع الخطب ، والدعاء مع التوسّل ، والبسملة مع السورة ، والتكبير مع الصلوات ، مثل المسندات والمرسلات ، والموقوفات والمقطوعات ، في صغره وفي إدراكه ، وفي شبابه وفي كهولته ، عند فراغه وعند شغله ، وعند فقره وعند غناه ، بالجلال والبحار ، والبلدان والبراري ، على الأحجار والأخزاف ، والجلود والأكتاف ، إلى الوقت الذي يمكنه نقلها إلى الأوراق ، عمّن هو فوقه وعمّن هو مثله وعمّن هو دونه . وعن كتاب أبيه يتيقّن أنه بخط أبيه دون غيره . لوجه الله تعالى طلباً لمرضاته ، والعمل بما وافق كتاب الله ، عز وجل ، منها ، ونشرها بين طالبيها ومحبيها ، والتأليف في إحياء ذكره بعده ، ثمّ لا تتم له هذه الأشياء إلاّ بأربع ، هي من كَسَبَ العبد ، أعني معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هي من إعطاء الله تعالى ، أعني القدرة والصحة والحرص والحفظ ، فإذا صحت له هذه الأشياء كلها هان عليه أربع : الأهل ، والولد ، والمال ، والوطن . وابتلي بأربع : بشماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء ، وحسّد العلماء ، فإذا صبر على هذه المحن أكرمه الله جل وعلا في الدنيا بأربع : بعز القناعة ، وبهيبّة النفس ، وبلذّة العلم ، وبجياة الأبد ، وأثابه في الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من إخوانه ، وبظل العرش حيث لا ظل إلاّ ظله ، وبسقي من أراد من حوُص نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، وبجوار النبيين في أعلى عليين في الجنة ، فقد أعلمتك يا بني بمُجمَلات جميع ما سمعت من مشايخي متفرقاً في هذا الباب ، فأقبل الآن إلى ما قصدتني له أو دَع ، فهان عليّ

قوله ، فسكت متفكراً ، وأطرفت متأدباً ، فلما رأى ذلك مني قال : وإن لم تنطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه ، يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قارئ ساكن لا تحتاج إلى بُعد الأسفار ، ووطء الديار ، وركوب البحار ، وهو ذا ثمرة الحديث ، وليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدث في الآخرة ، ولا عزه بأقل من عز المحدث ، فلما سمعت ذلك نُقِصَ عزمي في طلب الحديث ، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت فيه متقدماً ، ووقفت منه على معرفة ما أمكنني من علمه بتوفيق الله تعالى ومنته ، فلذلك لم يكن عندي ما أمليه لهذا الصبي يا أبا إبراهيم ، فقال له أبو إبراهيم : إن هذا الحديث الواحد الذي لا يوجد عند غيرك خير للصبي من ألف حديث يجده عند غيرك ، انتهى .

وجاء أبو حيان إلى ابن تيمية والمجلس غاص فقال يمدحه ارتجالاً :

لَمَّا أَتَيْنَا تَقِيَّ الدِّينِ لَاحَ لَنَا	دَاعٍ إِلَى اللَّهِ فَرَدُّ مَا لَهُ وَزَرُّ
عَلَى حَيَّاهُ مِنْ سَيِّمِ الْأَلَى صَحَبُوا	خَيْرَ الْبَرِيَّةِ نَوْراً دُونَهُ الْقَمَرُ
حَبْرٌ تَسْرِبِلَ مِنْهُ دَهْرُهُ حَبِيراً	بَحْرٌ تَقَاذِفُ مِنْ أَمَاجِهِ الدُّرَرُ
قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي نَصْرِ شَرَعَتِنَا	مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ إِذْ عَصَتْ مُضَرُّ
فَأَظْهَرَ الْحَقَّ إِذْ آثَارُهُ دَرَسَتْ	وَأَخْمَدَ الشَّرَّ إِذْ طَارَتْ لَهُ الشُّرَرُ
كَانَا نَحْدِثُ عَنْ حَبْرٍ يَجِيءُ فَهَـ	أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي قَدْ كَانَ يُسْتَنْظَرُ

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تيمية ، ومات وهو على انحرافه ، ولذلك أسباب : منها أنه قال له يوماً : كذا قال سييويه ، فقال : يكذب سييويه ، فانحرف عنه ، رحم الله تعالى الجميع .

وحضر الشيخ أبو حيان مع ابن بنت الأعز في الروضة فكتب إلى أبي حيان ووجهه مع بعض غلمانة :

حَيِّيتُ أَثِيرَ الدِّينِ شَيْخَ الْأَدْبَا	أَقْضِي لَهُ حَقّاً كَمَا قَدْ وَجَبَا
حَيِّيتُ فَتَى بَطَاقِ آسٍ نَضِيرِ	كَالْقَدِّ بَدَا مَلْتُ مِنْهُ طَرَبَا

قال : فأنشدته :

أهدى لنا غُصْنًا مِن ناضِرِ الآسِ أَقْضَى الْقُضَاةِ حَلِيفُ الْجُودِ وَالْبَاسِ
لَمَّا رَأَى سَقَمِي أَهْدَاهُ مَعَ رَشِي حَلَوِ الثَّانِي فَكَانَ الشَّافِي الْآسِي

ولما أنشد الشيخ أبو حيان قول نور الدين القَصْرِي في روضة مصر :

ذاتُ وجهينَ فيهما قُسِمَ الحسُّ نُ فَأُضْحَتْ بِهَا الْقُلُوبُ تَهِيمُ
ذا يَلِي مصر فهو مصرٌ وهذا يتولَّى وسيمٌ فهو وسيمٌ
قد أعادت عصرَ التصابي صباها وأبادتُ فيها الغيومَ الغيومُ

زاد فيها بيتاً ، وهو :

فَبِلُجِّ الْبَحَارِ يَسِجُ نُونٌ وَبِفَجِّ الْقَفَارِ يَسْفَحُ رِيمُ

قال أبو حيان : وكنت ماشياً بين القصرين مع ابن النحاس ، فعبر علينا صبي يدعى بجمال ، وكان مصارعاً ، فقال البهاء : لينظم كل منا فيه ، ثم قال :

مُصَارَعٌ تَصْرَعُ الْأَسَادَ شِمْرَتُهُ تِيهًا فَكَلُّ مُلِيحٍ دُونَهُ سَمِيحُ
لَمَّا غَدَا رَاجِحًا فِي الْحَسَنِ قَلْتُ لَهُمْ عَنْ حُسْنِهِ حَدَّثُوا عَنْهُ وَلَا حَرْجُ

فنظمت أنا :

سَبَانِي جَمَالٌ مِنْ مُلِيحٍ مُصَارَعٍ عَلَيْهِ دَلِيلٌ لِلْمَلَا حَةِ وَاضِحُ
لَنْ عَزَّ مِنْهُ الْمَثَلُ فَالْكَلُّ دُونَهُ وَإِنْ خَفَّ مِنْهُ الْحَصْرُ فَالرَّدْفُ رَاجِحُ

وسمع العزازي نظمنا فقال ، وأنشدني :

هَلْ حَكَمٌ يَنْصِفُنِي فِي هَوَى مُصَارَعٍ يَصْرَعُ أَسَدَ الشَّرَى
مَذْفَرٌ عَنِّي الصَّبْرُ فِي حَبَّةٍ حَكَى عَلَيْهِ مَدْمَعِي مَا جَرَى

أَبَاحَ قَتْلِي فِي الْهَوَى عَامِداً وَقَالَ كَمْ لِي عَاشِقٌ فِي الْوَرَى
رَمَيْتُهُ فِي أَسْرِ حُبِّي وَمَنْ أَجْفَانُ عَيْنِهِ أَخَذَتْ الْكَرَى

وقال لسان الدين في الإحاطة : كان أثير الدين أبو حيان نسيجاً وَحَدِهَ في ثقبوب الذهن ، وصحة الإدراك ، والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية ، إمام النحاة في زمانه غير مُدافع ، نشأ في بلده غرناطة مشاراً إليه في التبريز بميدان الإدراك ، وتغيير السوابق في مضمار التحصيل ، ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق ، واستقر بمصر ، فنال بها ما شاء من عز وشهرة وتأثّل وافر وحظوة ، وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة ملجأ وعُدّة ، وكان شديد البسط مهيباً جهورياً ، مع الدُعابة والغزل وطرح التسمّيت ، شاعراً ، مكثراً ، مليح الحديث ، لا يمل وإن أطال ، وأسنّ جدّاً فانتفع به ، قال لي بعض أصحابنا : دخلت عليه وهو يتوضأ ، وقد استقر على إحدى رجليه لغسل الأخرى كما تفعل البرك والإوز ، فقال لي : لو كنت اليوم جار شلّير ما تركني لهذا العمل في هذا السن ، ثمّ قال لي بعد كلام حدثنا عنه الحملة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى والمقري الخطيب أبي جعفر الشّقوري والشريف أبي عبد الله ابن راجح وشيخنا الخطيب أبي عبد الله ابن مرزوق قال : حدثنا شيخنا أبو حيان في الحملة سنة ٧٣٥ بالمدسة الصالحية بين القَصُورين بمنزله ، حدثنا الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير سماعاً من لفظه وكتبه من خطه بغرناطة ، عن الكاتب أبي إسحاق ابن عامر الحمداني الطّوسيّ — بفتح الطاء — حدثنا أبو عبد الله ابن محمد العنسي القرطبي ، وهو آخر من حدّث عنه ، أنبأنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجيّاني ، أنبأنا حكم بن محمد ، أنبأنا أبو بكر ابن المهندس ، أنبأنا عبد الله بن محمد ، أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر ، سمعت أبا أمانة الباهلي يقول : سمعت رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، يقول « اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة ، إذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ،

غضبوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم . واحفظوا فروجكم » .
ثم قال ابن الخطيب : إن أبا حيان حملته حدة الشيبة على التعرض للأستاذ
أبي جعفر الطباع ، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة ، فنال منه ،
وتصدى للأليف في الرد عليه وتكذيب روايته ، فرفع أمره للسلطان ، فامتعض
له . ونفذ الأمر بتنكيهه ، فاخفى ، ثم أجاز البحر مخفياً ، ولحق بالمشرق يلتفت
خلفه .

ثم قال : وشعره كثير يتصف بالإجادة وضدها ، فمن مطولاته قوله :

لا تعدلاه فما ذو الحب معذول	العقل مخبل والقلب متبول
هزت له أسمرًا من خيوط قامتها	فما انثى الصب إلا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها	فكسم لها جمل منه وتفصيل
فالنحر مرمر ، والنشر عنبرة .	والنغر جوهرة . والريق معسول
والطرف ذو غنح ، والعرف ذو أرج ،	والخصر مختطف ، والمئن مجدول
هيفاء ينطق في الخصر الوشاح لها	درماء تحرس في الساق الخلاخيل
من اللواتي غداهن النعيم فما	يشقين ، آباؤها الصيد البهاليل

إلى أن قال : وقوله :

نور بخداك أم توقد نار	وضى بجفك أم فتور عفار
وشداً يريقك أم تأرج مسكة	وسناً بثغرك أم شعاع دراري
جمعت معاني الحسن فيك فقد غدت	قيده القلوب وفتنة الأبصار
متصاوين خفراً إذا ناطقته	أغضى حياء في سكون وقار
في وجهه زهراء روض تجلى	من نرجس مع وردة وبهار
خاف اقتطاف الورد من وجناتها	فأدار من آس سيج عذار
وتسلت نمل العذار بخده	ليردن شهدة ريقه المعطار
وبخده نار حمته وردها	فوقن بين الورد والإصدار

كم ذا أداري في هَوَاهِ مَحَبَّتِي ولقد وَشَى بي فيه فرطُ أُواري

وقال ابن رشيد : حدثنا أبو حيان قال : حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجوني بمدينة عَيْذاب من بلاد السودان ، وبرجونة قرية من قرى دار السلام ، قال : كنت بجامع لَوُثَمَ من بلاد الهند ومعنا رجل مغربي اسمه يونس ، فقال لي : اذكر لنا شيئاً ، فقلت له : قال علي ، رضي الله تعالى عنه : « إذا وضع الإحسان في الكريم أثمر خيراً ، وإذا وضع في اللئيم أثمر شراً ، كالغيث يقع في الأصداف فيثمر الدر ، ويقع في فم الأفاعي فيثمر السم » ، فما راعنا إلا ويونس المغربي قد أنشد لنفسه :

صنائعُ المعروفِ إن أودعتْ عند كريمٍ زَكَتِ النِّعْمَا
وإن تكنُ عند لئيمٍ غَدَتْ مكفورةٌ موجِبَةً إثمًا
كالغيثِ في الأصدافِ درٌّ ، وفي فَمِ الأفاعي يُثْمِرُ السِّمًا

قال أبو حيان : فلما سمعت هذه الأبيات نظمت معناها في بيتين ، وهما :

إذا وَضَعَ الإحسانُ في الحبِّ لم يُفِدْ سوى كفره ، والحرُّ يجزي به شكرا
كَغَيْثٍ سَقَى أُنْعَى فجاءتْ بِسَمِّهَا وصاحبَ أصدافاً فأثمرتِ الدرّاً

قال أبو حيان : وأنشدنا الأمير بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدولة أبي المعالي ابن رَمَاح الهمداني لنفسه بالقاهرة :

فلا تَعَجَّبْ لِحُسْنِ المدحِ مِنِّي صفاتُكَ أظهرتْ حُكْمَ البوادي
وقدْ تُبْذِي لك المِرْأَةُ شَخْصاً ويُسْمِعُكَ الصدى ما قد تُنادي

وبعد كتّبي ما نقله ابن رشيد عن أبي حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذي ذكره ابن رشيد ليس هو أبا حيان النحوي الأندلسي ، وإنما هو شخص

آخر ، وفيه عندي نظر لا يخفى ، والذي أعتقده ولا أرتاب فيه أنه أبو حيان النحوي .

وقال ابن رشيد : وأنشدني أبو حيان لنفسه :

إذا غاب عن عيني أقولُ سَدَوْتُهُ وإن لاح حال اللونُ فاضطربَ القلبُ
يُهَيِّجُنِي عيناهُ والمبسمُ الذي به المسكُ منظومٌ به اللؤلؤ الرطبُ

وقال الشريف ابن راجح : رأيت أن ما وضعه الشيخ أبو حيان في تقدّم لسان الأتراك تضييع لعمره . وقلت :

نفائسُ الأعمار أنفقَتْها أنا وأمثالي على غير شيءٍ
شيوخُ سوءٍ ليس يرضى بما ترضى به من المخازي صبي

ومن نظم أبي حيان قوله :

إنَّ علماً تعبتُ فيه زماني باذلاً فيه طارفي وتلاذي
لحْدِيرٌ بأن يكون عزيزاً ومَصُوناً إلّا على الأجوادِ

وقوله :

ومنا لك والإنعابَ نفساً شريفةً وتكليفها في الدهرِ ما ليس يعذُبُ
أرحها فغن قربٍ تلاقي حِمَامَها فتنعمُ في دارِ البقا أو تُعَذَّبُ

واستشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع . وأجيب بأن مراده أمر الرزق ، لا أمر التكليف .

وأفاد غير واحد أن سبب رحلة الشيخ أبي حيان عن الأندلس أنه نشأ شر بينه وبين شيخه أحمد بن علي بن الطباع . فآلف أبو حيان كتاباً سماه « الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع » فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر المدعو بالفقيه ، وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه . فنشأ شر عن

ذلك . وذكر أبو حيان أنه لم يُقَسِّمَ بفاس إلا ثلاثة أيام ، وأدرك فيها أبا القاسم
المزياتي ، وخرج أبو حيان من الأندلس سنة تسع وسبعين وستمائة .

* * *

وكان جماعة من أعلام الأندلس رحلوا منها ، فلما وصلوا إلى العُدوة
أقاموا بها ، ولم يذهبوا إلى البلاد الشرقية :

٢١٧ - منهم الشيخ النحوي الناظم الناصر أبو الحسن حازم بن محمد
القرطاجي^١ ، وهو القائل بمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس^٢ :

أمن بارق أورى بجنح الدجى سقطا	تذكرت من حلّ الأجارع فالسقطا
وبان ولكن لم يبن عنك ذكره	وشطّ ولكن طيفه عنك ما شطّا
حبيب لو أن البدر جراه في مدى	من الحسن لاستدنى مدى البدر واستبطا
إذا انتجعت مرعى خصيياً ركابه	غدا لحظ عيني يشكي الجذب والقحطا
لقد أسرع عني المطي بشادن	تسرّع في قتل النفوس وما أبطا
ظننت الفلا دار ابن ذي يزن بها	وخيلت المحارب الهادج والغبطا
فكم دمية للحسن فيها وصورة	تروق وتمثال من الحسن قد خطّا
حمائل لاحت كالحمايل بهجة	سقيط الحيا فيهن لا يسأم السقطا
توسد غزلان الأوانس والمها	به الوشي والديباج لا السدر والأرطى
ولم يسب قلبي غير أبرها سناً	وأطولها جيداً وأخفها قرطاً
أيا ربّة الأحداج سيري فتعلمي ^٣	وما بك جهل ، أن سهمك ما أخطا

١ ترجمة حازم القرطاجي في اختصار القدح : ٢٠ وبغية الوعاة : ٢١٤ وأزهار الرياض
٣ : ١٧٢ وشذرات الذهب ٥ : ٣٨٧ (انظر بروكلمان ١ : ٣١٧ وتكملته ١ : ٤٧٤) ،
وجمع ديوانه الأستاذ عثمان الكماك (ط. دار الثقافة بيروت ١٩٦٤) .
٢ ديوانه : ٦٨ وبعض أبياتها في أزهار الرياض .
٣ ق ودوزي : سيري فتعلمي ، وفي الديوان : عوجي فتعلمي .

قفي تستبيني ما بعينيك من ضنّى
فلم أر أعدى منك لحظاً وناظراً
سقى الله عيشاً قد سقانا من الهوى
وكم جنةٍ قد رُدْتُ في ظلّ كافرٍ
وكم ليلةٍ قاسيتها نابغيةٍ
وبتُ أظنُّ الشَّهْبَ مثلي لها هوى
على أنها مثلي عزيزةٌ مطْلَبُ
كأنَّ الثَّريا كاعبٌ أزمعتْ نوى
كأنَّ نجومَ الحقعةِ الزُّهرَ هودَجُ
كأنَّ رشاءَ الدلوِ رشوةُ خاطبٍ
كأنَّ السُّها قد دقَّ من فَرَطٍ شوقه
كأنَّ سُهَيْلاً إذ تناءتْ وأنجستْ
كأنَّ خُفوقَ القَلْبِ قَلْبُ متيِّمٍ
كأنَّ كلا النسرَيْنِ قد ريعَ إذ رأى
كأنَّ الذي ضمَّ القَوادِمَ منهما
كأنَّ أخاهُ رامَ فَوْتاً أُمَامَهُ
كأنَّ بياضَ الصَّبحِ معصمٌ غادةٍ
كأنَّ ضياءَ الشَّمْسِ وجهُ إمامنا
محمدُ الهادي الذي أنطق الورى
إمامُ غدا شمسَ المعالي وبدّرها
جميلُ المحيّا مجملٌ طيبُ ذكره
إذا ما الزمانُ الجعْدُ أبدى تجهماً

كجسمي وعنوان الهوى فيه مخطأ
لقلبي ولا أعدى عليه ولا أسطى
كووساً بمعسول اللّمي خلطتُ خطا
فلم أجزِ ما أولاهُ كفرأ ولا غمطاً
إلى أن بدتُ شيباً ذوائبها شُمطاً
وأغبطها في طول ألقتها غبطاً
ومن ذا الذي ما شاء من دهره يُعطى
وأمتُ بأقصى الغرْبِ منزلةً شحطاً
لها عن ذرّ الحرفِ المناخنةِ قد حُطّا
لها جعلَ الأشرافُ في مهرها شرطاً
إليها كما قد دقّق الكاتبُ النّقْطاً
غدا يائساً منها فأتهمَ وانحطّاً
تعدّى عليه الدَّهرُ في البينِ واشتطّاً
هلالَ الدّجى يهوى له مغبلاً سلطاً
هوى واقِعاً للأرضِ أو قص أو قطّاً
فلم يَعدُ أن مدَّ الجناحَ وأن مطّاً
جَنَّتْ يدُها أزهار زهرِ الدّجى لقطاً
إذا ازداد بشرأ في الوغى وإذا أعطى
ثناءً بما أسدى إليهم وما أنطى
وقد أصبحتُ زُهرُ النجومِ له رهطاً
يعاطى سروراً كالحميّا ويُستعطى
أرانا الحياءَ الطلّينَ والخلُقَ السَّبْطاً

كلا أبوي حَقَصْ نَماهُ إلى العلا
 بسِماهُ تَدري أَنَّ كَعْباً جَدودَهُ
 إذا قَبَضَ الرُّوعُ الوجوهَ فوجهُهُ
 به تُتَرَكُ الأبطالُ صَرَعَى لَدَى الوغَى
 تَراه إذا يَعطِي الرِغائبَ بِاسمِ
 وكم عُنُقِي قد قُلِدَّتْ بِنِوالِهِ
 مَنى ما تَقِيسُ جودَ الكَرامِ بِجودِهِ
 يَشْفُ لَهُ عَن كُلِّ غِيبٍ حِجابُهُ
 تَطيعُ اللَّيالي أَمْرَهُ في عُصاتِهِ
 وتَمضي عَلَیْهِم سِيفُهُ وَسِنانُهُ
 فَكِيفَ تَرَجَّتْ غِیرُهُ مِنْهُ فِرْقَةُ
 وكم بِالنَّهْیِ والحِلمِ غَطَى عَلَیْهِمُ
 فَأَمَطاهُم دُهمَ الحَديدِ وطالما
 ورامَ لَهمُ هَدِیاً وَلَكنَهمُ أَبَوا
 وَكانَ لَهمُ یَبيغِ المَثوبَةَ والرَضی
 وَلو قَوبَلْتُ بِالشُّكرِ مِنْهُ ما رَبُّ
 هُوَ النَّاصِرُ المَنصُورُ والمَلِکُ الَّذي
 أَصاخَتُ لَهُ الأَیَّامُ سَمعاً وطِاعةً
 فلا بَدَّ مِنْ أَنَّ يَمْلِكُ الأَرْضَ كُلَّها

فأصبح عن مرقاته النجمُ منحطاً
 وإن هو لم يَذْكَر رِزاحاً ولا قِرطاً
 يَزِيدُ ، لَكُونِ النَصْرِ نِصْلاً ، لَهُ بِسْطاً
 كَأَنَّ قَد سَقُوا مِنْ خَمَرِ بَابِلَ إِسْفَنْطاً
 لَهُ جَذَلٌ يَرِبي عَلَي جَذَلِ المَعطى
 فَرِيداً وَقَد كَانت قِلادَتُها لَطاً^١
 فَبالبحرِ قايَسَتِ الوَقيعةَ والوَقطاً^٢
 فَتَحَسِبُهُ دُونَ المَحجَبِ ما لَطاً^٣
 وَتَردِي أَعادِيهِ أَساودَها نِشْطاً^٤
 فَتَبرِي الكُلَى طَعاً وَتَفرِي الطُلَى قَطاً
 غَدا عَزُّها ذِلاًَّ وَرَفَعَتُها هِبطاً
 إلى أَنَّ جَنَوا ذَنْباً عَلَي العِلْمِ قَد غَطَى
 أَنالَهُم دُهمَ الجِياذِ وما أَمَطَى
 بِغِيَّتِهِمُ إِلَّا الضَّلالةَ والحِبطا
 وَلَكنَّ أَبَوا إِلَّا العُقوبةَ والسَّخَطا
 لَما اِعْتاضَ مِنْها أَهلُها^٥ الأَثَلِ والحِمْطا
 أَعادَ شِبابَ الدَّهْرِ مِنْ بَعْدِ ما اِشْمَطا
 وَأَحكَمَتِ الدُّنيا لَهُ عَهدَها رِبطاً
 وَأَنَّ تَمَلَّأَ الدُّنيا إِيالَتَهُ قِسطاً

١ اللط : القلادة من حب الخنظل .

٢ الوقعة : نقرة يستقر الماء فيها ؛ الوقط : حوض يستنقع فيه الماء .

٣ لط : أسدل وستر .

٤ النشط : اللدغ .

٥ ق ودوزي : أهيل .

ويغزو في آفاق أندلس العدا
وكل جواد خف سنبكه فما
يوم بها الأعداء ملك أمامه
ويرمي جبال الفتح من شط سبتة
بحيث التقى بالحضر موسى ، وطارق
وسعيك ينسي ذكر سعيهما به
ويوقع في الأعداء أعظم وقعة
تجاوب سحيم الطير فيه وشهها
وتنكر فيها الجوّ والأرض أعين
فتخضب منهم من أشابت بخوفها
ويحسم أدواء العدا كل صارم^٢
وكل كمي كلما خط صفحة
شجاع إذا التف الرماحان مثل ما
إذا ما رجّت منه أعاديه غيرة
فيجدع أناف العدا بسيفه
بيد الأعادي سطوة ومكيدة
سرى في طلاب المعلوات فلم يزل
ولو نازعت يمناه جذبا شماله
يصول بخطي لكل مرشة
قناه تبصر الآكام فرعا كواسيا

يحيش تخط الأرض ذبله خطا
يمس الثرى إلا مخالسة فرطا^١
من الرعب جيش يسرع السير إن أبطا
بها فتوافي سبتا ذلك الشطا
وموسى به رحلا لغزو العدا خطا
ويوسع سعي المشركين به حبطا
بها تملأ الأسماع طير الملا لغطا
كما راطن الزنج النيطة أو القبطا
ترى الجوّ نارا والصعيد دما عبطا
نصول ترى منها يفود الدجى وخطا
حسام إذا لاقى الطلي حدة قطا
بسيف غدا بالرمح ينقط ما خطا
تقلقل^٣ في أسنان مشط يد مشطا
رأت دون ما ترجو القتادة والحرطا
وينشقها بالرمح ربح الردى سعط
فيحكي الأسود الغلب والأذوب المعط
يمد يدا مبسوطة وندى بسطا
لبوسا من الماذي لانق وانعط
به أثر يعزوه للحيمة الرقطا
بهن وقد أبصرن عارية مرطا

١ فرطا : سبقا وإسراعا .

٢ الديوان : كل ضارب .

٣ الديوان : تغفل .

٤ في الأصل : قسطا ، بسطا ، والتصويب عن الديوان .

٥ في الأصول : قى ، والتصويب عن الديوان .

إذا نُسِبَتْ لِلخَطِّ أَوْ لِرُدَيْسَةِ
 كَمَاةٌ حِمَاةٌ مَا يَزَالُ إِلَى الْوَغَى
 عَلَيْهِمْ نَسِيحُ السَّابِغَاتِ كَأَنهَا
 إِذَا لُمِعَ لِلشَّمْسِ لَاحَتْ عَلَيْهِمْ
 تَرَجْرَجُ كَالزَّارُوقِ^١ لِينًا وَمِثْلَهُ
 جِيوشُ إِذَا غَطَى الْبِلَادَ عَابُهَا
 فَكَمْ قَدْ حَكَتْ فِي حَصْرِ حِصْنٍ وَمَعْقِلٍ
 وَخَيْلٍ كَأَمْثَالِ النَّعَامِ تَخَالُهَا
 تَخِيلُهَا فَتُخَا إِذَا ارْتَفَعَتْ وَإِنْ
 فِينَعُ مِنْهَا مَرُطُ كُلِّ عَجَاجَةٍ
 وَكَمْ خَالَطَ سَمَرَ الرِّمَاحِ وَأُورِدَتْ
 يَجْمُؤُنَهَا لَيْلَ السُّرَى فَإِذَا دَعَا
 فَكَمْ جَنِبُوهَا خَلْفَ مَعْتَادَةِ السُّرَى
 وَقَدْ وَسَمَتْ أَعْنَاقَهُنَّ أَزْمَةً
 إِذَا أَوْقَدَتْ نَارًا بِقَذْفِ الْحَصَا حَكَتْ
 إِمَامَ الْهَدَى أَعْلَيْتَ لِلدِّينِ مَعْلَمًا
 وَالْقَحْتَهُمْ عَقُمَ الْمَنَى عَنْ حِيَالِهَا
 وَصِيرَهُمْ^٥ فِي عَقْلَةٍ سَارَحَ الْعَدَا
 وَمَنْ كَانَ يَشْكُو سَطْوَةَ الدَّهْرِ قَدْ غَدَا

نَسَبَ إِلَى الْعَلْيَا رَدِينَةَ وَالْخَطَّ
 حَنِينٌ لَهُمْ مَا حَنَ نِصْوٌ وَمَا أَطَا
 جُلُودٌ عَنْ الْحَيَاتِ قَدْ كُشِطَتْ كَشِطَا
 رَأَيْتَ صِلَالًا أَلْبَسَتْ حُلُلًا رُقَطَا
 تَرَى نَقْطَةً مِنْ بَعْدِ مَا طَرَحْتَ خَطَّ
 وَأُمُوجَهَا غَطَّتْ نَفُوسَ الْعَدَا غَطَّ
 وَشَاحًا عَلَى خَصْرِ فَاسْقَنَهُ^٢ ضَغْطَا
 لِإِفْرَاطِ لَوْكِ اللَّجْمِ تَبَغْيَ لَهَا سِرْطَا
 سَبِحْنَ بِمَاءِ خَلْتِهَا خَفَّةً بَطَّ
 مُوَازِعَ لَا يَسْأَمُنَ مَرًّا وَلَا مَرْطَا
 مِيَاهًا غَدَتِ حَمَرُ الدِّمَاءِ لَهَا خِلْطَا
 نَزَالَ امْتَطَوْا مِنْهُمْ أَشْرَفَ مَا يَمْطَى
 عَوَارِفَ لَمْ تَسْمَعْ لَهَا أَذْنَ نَخْطَا
 بِطُولِ السُّرَى حَتَّى تَظُنَّ لَهَا عِلْطَا^٣
 وَبَحْرُ الدَّجَى طَامَ سَفِينًا رَمَتْ نَفْطَا
 وَسُمَّتِ الْعَدَا مِنْ بَعْدِ رَفْعَتِهِمْ حَطَّ
 فَمَا وَلَدَتْ عَقْمًا وَلَا نَجَتْ سَقْطَا
 وَسَرَحْتُمُ الْآمَالَ مِنْ عَقْلِهَا نَشْطَا
 بَعْدَ ذَلِكَ لَا يُعْغَدَى عَلَيْهِ وَلَا يُسْطَى

١ الديوان : تدرج كالزواروق .

٢ الديوان : فأوسعته .

٣ ق ودوزي : حتى تظن بها غلطا .

٤ في الأصول : وأخفهم .

٥ ق : وصيرتهم .

ففي كلّ حال تؤثر القسطَ جارياً
 فبوركت سبطاً جدّه عُمَرُ الرضى
 تلوت الإمام العدل^١ يحيى فلم تزل
 فزدتهم وضوحاً بعده واستقامةً
 وما كان أبقى غايةً غير أنه
 إذا دُررُ الأملاك^٢ في الفخر نُظِّمَت
 على سَنَنِ التَّقْوَى وتجنبُ القسطا
 وبورك من جدٍّ غدوت له سبطا
 تزيدُ أمورَ الخلقِ من بعده ضبطا
 وتوطئةً نهج السبيل الذي وطّا
 حيثَ بما لم يُحِبَّ خلقٌ ولم يعطا
 على نَسَقٍ عِقْدًا فدولتك الوسطى
 وله أيضاً^٣ فيه :

في كلّ أفقٍ من صباحٍ دجاكمُ نورٌ جلا خيطَ الظلامِ بخيطه
 راقت محاسنُ مجدكم فبِهَرْنَ ما كُسيتهُ من حَبَرِ المديحِ وريطه

وله - رحمه الله تعالى - عدة تأليف ، وولد سنة ٦٠٨ ، وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمئة بتونس ، وممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري ، وذكره في رحلته وأثنى عليه ، كما أثنى عليه العبدري في رحلته ، فقال : حازم ، وما أدراك ما حازم ، وقد عَرَفْتُ به في « أزهار الرياض » ممّا يغني عن الإعادة ، وكان هو والحافظ أبو عبد الله ابن الأبار فرسيّ رِهان ، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية .

٢١٨ - وهو الإمام الحافظ الكاتب الناظم المؤلف الراوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن عبد الله بن أبي بكر ، القضاعي ، الأندلسي ، البَلَنْسِي^٤ ، كتب ببليسية عن السيد أبي عبد الله ابن السيد أبي حفص ابن أمير

١ العدل : سقطت من ق .

٢ الديوان : دول الأملاك .

٣ أيضاً : سقطت من ق ؛ والبيتان في الديوان : ٧٣ .

٤ ترجمة ابن الأبار في اختصار القحج : ١٩١ وأزهار الرياض ٣ : ٢٠٤ وعنوان الدراية =

المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، ثم عن ابنه السيد أبي زيد ، ثم كتب عن الأمير ابن مردنيش ، ولما نازل الطاغية بِلَنْسِيَّة بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص وفي ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو ، فأنشده السلطان قصيدته السينية التي مطلعها :

أدرك بَخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّيْلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسَا

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع ، ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته في صدور مكاتباته ، فكتبها مدة ، ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها ، فكتبها مدة بالخط المشرقي ، وكان أثر عند السلطان من المغربي ، فسخط ابن الأبار أنفةً من إثارة غيره عليه ، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه ، لقصور التبرسيل يومئذ في الحضرة عليه ، وأن يبقى موضع العلامة منه لكتابتها ، فجاهر بالرد ، ووضعها استبداداً وأنفة ، وعوتب على ذلك ، فاستشاط غضباً ، ورمى بالقلم ، وأنشده متمثلاً :

اطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَى وَذَرِ الذِّلَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

فنمي ذلك إلى السلطان ، فأمر بلزومه بيته ، ثم استعجب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب ، وأعتبه ، وسماه «إعتاب الكتاب» واستشفع فيه بابنه المستنصر ، فغفر السلطان له ، وأقال عثرته ، وأعادته إلى الكتابة ، ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه ، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه ، وبُعث إلى داره ، فرفعت إليه كتبه أجمع ، وألقى أثناءها ، فيما زعموا ، رقعةً بأبيات أولها :

= ١٨٧ والفوات ٢ : ٤٥٠ وشذرات الذهب ٥ : ٢٧٥ والمغرب ٢ : ٣٠٩ وقد كتب عنه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد دراسة في كتاب (طبع بمعهد مولاي الحسن : ١٩٥١) .

طغى بتونس خلفٌ سمّوه ظلماً خليفه

فاستشاط السلطان لها ، وأمر بامتحانها ، ثم بقتله ، فقتل قَعْصاً بالرماح
وسط محرّم سنة ٦٥٨ ، ثم أحرق شِلْوُه ، وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه
ودواوينه فأحرقت معه ، وكان مولده ببِلَنْسِيّة سنة ٥٩٥ .

وقال في حقه ابن سعيد في « المغرب » ما ملخصه^١ : حامل راية الإحسان ،
المشار إليه في هذا الأوان ، ومن شعره قوله يصف الياسمين^٢ :

حديقة ياسمين لا تهيمُ بغيرها الحدقُ
إذا جَفَنُ الغمامِ بكى تبسمٌ ثغرُها اليَقَقُ
فأطرافُ الأهلةِ سا ل في أثنائها الشَفَقُ

وكتب إلى الوزير أبي عبدالله ابن أبي الحسين ابن سعيد يستدعي منه منشوراً^٣ :

لك الخيرُ أتخفي بخيري روضة لأنفاسه عندَ الهجومِ هُبوبُ
أليسَ أديبُ الروضِ يجعل ليله نهاراً فيذكو تحته ويطيبُ
ويطوى مع الإصباح منشورُ نشره كما بان عن ربعِ المحبِّ حبيبُ
أهيمُ به عن نسبةٍ أديبةٍ ولا غرو أن يهوى الأديبُ أديبُ

وقوله في الخسوف^٤ :

نَظَرْتُ إلى البدرِ عند الخسوفِ وقد شينَ منظره الأزينُ
كما سَفَرْتُ صفحةً للحبيبِ بِ يَحْجُبُها بَرْقَعٌ أدكنُ

١ هذا النقل غير موجود في المغرب المطبوع ، فيما أن المقرئ ينقل عن نسخة أخرى وإما أنه ينقل
عن القدح المثل .

٢ المغرب ٢ : ٣١٠ ، واختصار القدح : ١٩١ .

٣ المغرب : ٣١٠ ، واختصار القدح : ١٩٢ .

٤ المغرب : ٣١٠ .

وقوله في المعنى ^١ :

ألم ترَ للخسوفِ وكيف أبدى ببدْرِ التَّمِّ لَمَاعَ الضياءِ
كمرآةٍ جلاها القَيْنُ حتى أنارت ثمَّ رُدَّتْ في غشاءِ

وقوله :

والثريا بجانبِ البدرِ تحكي راحةً أومأت لتلطمَ خَدًا

وقوله ^٢ :

مَنْ عاذري من بابليَّ طرفه ولعمره ما حلَّ يوماً بابلا
أعتدُّه خوطاً لعيشي ناعماً فيعودُ خطيباً لقتلي ذابلاً

وهو حافظ متقن ، له في الحديث والأدب تصانيف ، وله كتاب في متخير
الأشعار سماه «قطع الرياض» و«تكملة الصلة» لابن بشكُوال ، و«هداية المعترف
في المؤلف والمختلف» ، وكتاب التاريخ ، وبسببه قتله صاحب إفريقية ، وأحرقت
كتبه على ما بلغنا ، رحمه الله تعالى ، وله «تحفة القادم في شعراء الأندلس» ،
و «الحلة السراء في أشعار الأمراء» ^٣ .

ومن شعره قوله :

أمري عجيبٌ في الأمورِ بين التواري والظهورِ
مستعملٌ عندَ المغيرة بومهمَلٍ عند الحضورِ

وسبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز أو

١ اختصار القدح : ٣٤٨ .

٢ اختصار القدح : ١٩٣ ، والمغرب ٢ : ٣١٢ .

٣ طبع من كتبه الحلة السراء وتكملة الصلة والمقتضب من تحفة القادم وإعتاب الكتاب ومعجم
أصحاب الصدي .

مُعَمَّى أو مترجم بعث به إليه ، فيحله ، وإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه ، ووجد في تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس ، فأمر بضربه ، ففُضِرْبَ حتى مات ، وأُحْرِقَت كتبه ، رحمه الله تعالى ، وكان أعداؤه يلقبونه بالفار ، وحصلت بينه وبين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البَلَنْسِي مُهَاجَةً ، فقال فيه ^١ :

لا تَعَجَبُوا لِمُضَرَّةٍ نالتْ جميعَ معَ الناسِ صادرة عن الأبارِ
أوليسَ فاراً خِلْقَةً وَخَلِيقَةً والفارُ مجبولٌ على الإضرارِ
فأجابه ابن الأبار :

قل لابن شلبون مقالَ تَنَزَّهَ غيري يجاريك الهجاءَ فجارِ
[إِنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بيننا فحملتُ بَرَّةً واحتملتُ فجارِ]

وهذا مضمَّن من شعر النابغة الذبياني ، انتهى ما لخصناه من كلام ابن سعيد في حقه .

ومن شعر ابن الأبار أيضاً :

لو عنَّ لي عونٌ من المقدارِ لهجرتُ للدارِ الكريمةِ داري
وحللتُ أطيبَ طيبة من طَيِّبَةٍ جاراً لمن أوصى بحفظِ الجارِ
حيث استبانَ الحقُّ للأبصارِ لمَّا استثارَ حفاظُ الأنصارِ
يا زائرينَ القَبْرِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ بُشِّرِي لَكُمْ بالسَّبْقِ في الزوَّارِ
أَوْضَعْتُمْ لِنَجَاتِكُمْ فَوْضَعْتُمْ ما آدَكم من فادحِ الأوزارِ
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذي حُمِّلْتُمْ شَوْقاً إلى المختارِ

١ هو علي بن لب بن شلبون البَلَنْسِي أبو الحسن وترجمته والأبيات في الذيل والتكملة ٥ : ٢٧٤ ، وله ترجمة في تحفة القادم : ١٥١ .

أدُّوا السَّلامَ سلِّمْتُ وبرِّدْهُ أرجو الإجارةَ من ورودِ النارِ

اللهم أجِرنا منها يا رحيم يا رحمن يا كريم .

ولنختم ترجمته بقوله :

رَجَوْتُ اللهَ في الأواءِ لما بلوتُ الناسَ من ساءِ ولاهي
فمن يكُ سائلاً عني فأني غنيتُ بالافتقارِ إلى إلهي

وقد جودت ترجمته في « أزهار الرياض في أخبار عياض » فليراجع ذلك
فيه من شاء .

رجع إلى ما كتبنا فيه من ذكر المرتحلين من الأندلس إلى المشرق :

٢١٩ - ومنهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مُسَدِّي ، وهو أبو بكر
محمد ، ويقال : أبو المكارم ، ابن أبي أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى
ابن مُسَدِّي^١ ، المهلب ، الأزدي ، الأندلسي .
شيخ السنّة ، وحامل راياتها ، وفريد الفنون ، ومحكم آياتها ، عرف الأحاديث
وميز بين شهرتها وغرابتها ، وكان المتلقي لراية السنّة بيمين عرابتها ، طلع بمغرب
شمساً قبل بزوغه بأفق المشرق ، وملاً جزيرته الخضراء من بحر علومه المتدفق ،
وأفعمها بنوره المشرق ، وطاف البلاد الإسلامية المغربية والمشرقية ، فعقدت على
كمالها الخناصر ، وجعله أربابُ الدراية لمقلة الدين الباصِر ، ولقي أعيان الشيوخ
في القطرَيْن ، وأخذ عنهم ما تقرُّ به العين ، ويدفع به عن القلب الرّين ، مع
فصاحة لسان ، وطلاقة بيان وبنان ، وخلال حسان ، وبلاغة سحبت على سحبان ،
وظهر أزهار بان ، وفوّضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال :

هذا السَّوار لمثل هذا المعصم

١ ترجمة ابن مسدي في تذكرة الحفاظ : ١٤٤٨ ، وشذرات الذهب ٥ : ٢١٣ .

فكم وَتَيَّ بها من مطارف للبلاغة وكم عَنَّم ، حتى يظن الرائي عود منبره من وعظه مائساً ، ولئن مال من سجع الحمام رطباً فقد مال من سجع هذا الإمام يابساً، وترجم على من لقي من الأعيان بسحر البيان، وفَصَّل أحوالهم بأحسن تبيان، وعدَّتْهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل في أرسان ، وأرى تحقيق قول القائل : جمع الله تعالى العالم في إنسان ، وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر ، وله مُسْنَد غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدمين والمتأخرين^١ ، وهو أشهر من نارٍ على عَلم ، وكان يكتب بالقلمين المغربي والمشرقي ، وكلاهما في غاية الجودة ، ومثل هذا يُعدّ نادراً ، توفي شهيداً مطعوماً من أناس كانوا يخلصونه ، فحَمَّ الله تعالى له بالشهادة ، وبُؤِىء بها دار السعادة ، وتوفي سنة ٦٦٣ بمكة ، ومولده سنة ٥٩٨ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بأمثاله .

٢٢٠ - ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القِبْتَوْرِي^٢ - بفتح القاف ، وسكون الباء الموحدة ، وفتح التاء ثالثة الحروف ، وسكون الواو ، وبعدها راء - الإشبيلي المولد والمنشأ ، ولد في شوال سنة ٦١٥ ، وقرأ على الأستاذ الدباج كتاب سيبويه والسبع ، وله باع مديد في الترسل مع التقوى والخير ، وله إجازة من الرضي بن برهان والنجيب بن الصيقل ، وكتب لأمير سِبْثَةَ ، وحدث بتونس عن الغرافي ، وجاور زماناً ، وتوفي بالمدينة سنة ٧٠٤^٣ ، وحج مرتين .

قال أبو حيان : قدم القاهرة مرتين ، وحج في الأولى ، وأنشدني من لفظه لنفسه :

أسيلي الدمع يا عيني ولكن دماً ، وبقلُّ ذلك لي ، أسيلي

١ ق ودوزي : المتقدمين والمتقدمين .

٢ ترجمة خلف بن عبد العزيز القيتوري في بغية الوعاة : ٢٤٢ نقلا عن الصفدي والدرر الكامنة .

٣ ق : ٧٤٠ وهو يخالف لما في المصادر .

فكم في التَّربِّ من طرف كحيل لِتَرْبٍ لي ومن خَدِّ أسيل

وقال :

ماذا جَنَيْتُ على نَفْسِي بما كَتَبْتُ كَفِّي ، فيا وَبَحْ نَفْسِي من أذى كَفِّي
ولو بِشاء الذي أَجْرَى عليَّ بسدا قضاؤه الكَفَّ عنه كنت ذا كَفٍّ

وقال :

واحسَرَتَا لأُمُورٍ لَيْسَ يبلُغُهَا مَسَالِي وهُنَّ مَنَى نَفْسِي وآمالِي
أَصْبَحْتُ كَالآلِ لَا جَدْوَى لَدَيَّ وما أَلَوْتُ جَهْدًا ولكن جَدِّي الْآلِي

وقال العلامة فتح الدين ابن سيد الناس إنه أنشده لنفسه بالحرم الشريف النبوي سنة ثلاث وسبعمائة^١ :

رجوتكَ يا رحمن إنك خير من رجاهُ لِعُفْرَانِ الجرائِمِ مُرْتَجِي
فَرَحْمَتُكَ العُظْمَى التي ليس بابها وحاشاك في وجه الميِّءِ بِمُرْتَجِي

وقد أنشد له أبو حيان كثيراً من نظمه ، رحمه الله تعالى .

٢٢١ - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل ، الأموي
الإشبيلي ، النبائي ، المعروف بابن الرومية^٢ ، كان عارفاً بالعُشْبِ والنبات ، صنف
كتاباً حسناً كثير الفائدة في الحشائش ، ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ،
ورحل إلى البلاد ، ودخل حلب ، وسمع الحديث بالأندلس وغيرها .
وقال البرزالي في حقه : إنه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة ، وسمع

١ البيتان في البغية والدرر الكامنة .

٢ ترجمة ابن الرومية في اختصار الفلح : ١٨١ والإحاطة ١ : ٢٢٠ وتذكرة الحفاظ : ١٤٢٥

والتكملة : ١٢١ وبرنامج الرعي : ١٤٢ والديباج : ٤٢ .

الحديث بدمشق من ابن الحرستاني ، وابن ملاعب ، وابن العطار ، وغيرهم ، وقال بعضهم : اجتمعت به ، وتفاوضت معه في ذكر الحشائش ، فقلت له : قصب الذريرة قد ذكر في كتب الطب ، وذكروا أنه يُستعمل منه شيء كثير ، وهذا يدل على أنه كان موجوداً كثيراً ، وأما الآن فلا يوجد ، ولا يخبر عنه مخبر ، فقال : هو موجود ، وإنما لا يعلمون أين يطلبونه ، فقلت له : وأين هو ؟ فقال : بالأهواز منه شيء كثير ، انتهى ^١ .

وأجاز البحر بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عبيد الله بسببته فلم يتهياً له ذلك ، وحج - رحمه الله تعالى - في رحلته الأولى ، ولقي كثيراً ، وروى عن عدد من رجال ونساء ضمنهم التذكرة له ، وله مختصر كتاب « الكامل » لأحمد بن عدي في رجال الحديث ، وله كتاب « المعلم بما زاده البخاري على كتاب مسلم » . ويُعرف بالنباتي لمعرفته بالنبات ، وموالده في نحو سنة ٥٦١ ، وتوفي رحمه الله تعالى بإشبيلية مُنْسَلَخ ربيع النبوي سنة ٦٣٧ ، وقد رثاه أناس من تلامذته ، وألف بعضهم في التعريف به ، وسمع من ابن زرقون وابن الجلد وابن غفير وغير واحد كأبي ذر الحبشي ، وسمع ببغداد من جماعة ، وحدث بمصر الأحاديث من حفظه ، ويقال له « الحزمي » - بفتح الحاء - نسبة إلى مذهب ابن حزم لأنه كان ظاهري المذهب ، وكان زاهداً صالحاً ، وحكى بعضهم عنه أنه كان جالساً في دكانه بإشبيلية يبيع الحشائش وينسخ ، فاجتاز به الأمير أبو عبد الله ابن هود سلطان الأندلس ، فسلم عليه ، فرد عليه السلام ، واشتغل بنسخه ، ولم يرفع إليه رأسه ، فبقي واقفاً منتظراً أن يرفع إليه رأسه ، ساعة طويلة ، فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى ، وله كتابان حسان في علم الحديث : أحدهما يقال له « الحافل في تكملة الكامل » لابن عدي ، وهو كتاب كبير ؛ قال ابن الأثير : سمعت شيخنا أبا الخطاب ابن واجب يثني عليه ويستحسنه ؛ والثاني اختصر فيه

١ انتهى : سقطت من ق .

الكامل لأبي أحمد ابن عدي كما سبق في مجلدين ، وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي وأبي الفتح ابن البطي وأبي عبد الله الغراوي وغيرهم من الأئمة ، وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق ، وكان متعصباً لابن حزم بعد أن تفقه في المذهب المالكي على ابن زرقون أبي الحسين ، وطالت صحبته له ، وكان بصيراً بالحديث ورجاله ، كثير العناية به ، واختصر كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك ، وغيره أضببط منه ، وفاق أهل زمانه في معرفة النبات ، وقعد في دكان لبيعه ، قال ابن الأبار : وهنالك رأيته ولقيته غير مرة ، ولم آخذ عنه ، ولم أستجزه ، وسمع منه جلُّ أصحابنا ، ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧^١ ، وتوفي بإشبيلية ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر سنة ٦٣٧^٢ ، وقال ابن زرقون : منسلخ شهر ربيع الأول ، وحكى ذلك عن ولده أبي النور محمد بن أحمد ، انتهى .

٢٢٢ - ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، الغافقي ، الإشبيلي ، الشهير بالمسيلي^٣ ، رحل حاجاً ، وقفل إلى بلده ، وحدث عنه أبو بكر ابن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب ، وروى عن أبي محمد ابن أبي السعادات المروروذي الخراساني ، وأنه أنشده بثر الإسكندرية عند وداعه إياه ، قال : أنشدني أبو تراب جندل^٤ عند الوداع لبعضهم :

السَّمُّ من أَلْسُنِ الأفاعي أعذبُ من قبلة الوداعِ
وَدَعَتْهم والدموع تجري لما دعا للوداع داعي

٢٢٣ - ومنهم أبو العباس - ويقال : أبو جعفر - أحمد بن معد بن عيسى

١ التكملة : سنة إحدى وستين وخمسمائة .

٢ ق : ٦٣٨ ، وهو مخالف لما في التكملة .

٣ ترجمة المسيلي في التكملة : ٦٠ .

٤ التكملة : ابن جندل .

ابن وكيل ، التجيبي ، الزاهد ، ويُعرف بابن الإقليشي^١ ، صاحب كتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » ، صلتى الله عليه وسلّم ، عارض به شهاب القضاعي ، وأصل أبيه من اقليش ، وضبطها بعضهم بضم الهضرة ، وسكن دانية وبها ولد ونشأ ، سمع أباه أبا بكر وأبا العباس ابن عيسى ، وتلمذ له ، ورحل إلى بَلَنْتَسِيَّة فأخذ العربية والآداب عن أبي محمد البَطْلَيْوْسِي . وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق بن يعيش والحافظ أبي بكر ابن العربي وأبوي الوليد : ابن خيرة وابن الدباغ ، ولقي بالمرية أبا القاسم ابن ورد وأبا محمد عبد الحق بن عطية ووليّ الله سيدي أبا العباس ابن العريف ، ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وجاور بمكة سنين ، وسمع بها من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، ثم كر راجعاً إلى المغرب فقُبُضَ في طريقه ، وحدث بالأندلس والمشرق ، وكان عالماً ، عاملاً ، متصوفاً ، شاعراً مجوداً ، مع التقدم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها ، والإقبال على العلم والعبادة ، وله تصانيف : منها كتاب « الغُرَر من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » وهو أسفار عدة ، وحمل الناس عنه معشراته في الزهد ، وكتبها الناس ، وكان يضع يده على وجهه إذا قرأ القارئ فيبكي حتى يعجب الناس من بكائه . وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله ، وقد وصف غير واحد إمامته وعلمه وورعه وزهده ، وروى عنه أبو الحسين ابن كوثر وابن بيش وغيرهما .

ومن شعره قوله^٢ :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف

١ ترجمة ابن معد الإقليشي في التكملة : ٦٠ ، وإنباه الرواة ١ : ١٧٦ ، وأخبار و تراجم

أندلسية : ٢٤ ، وياقوت « اقليش » .

٢ الشعر في التكملة : ٦١ .

قديماً عصي عمداً وجهلاً وغيرةً
 تزيدُ سنوهُ وهو يزداد ضلّةً
 تطلّعَ صبحُ الشَّيبِ والقلْبُ مظلم
 ثلاثون عاماً قد تولّتْ كأنها
 وجاء المشيب المنذر المرء أنهُ
 فيا أحمد الخوآن قد أدبر الصبا
 فهل أرق الطرف الزمان الذي مضى
 فجُد بالدموع الحمر حزناً وحسرةً
 ولم ينهه قلبٌ من الله خائف
 فها هو في ليلِ الضلالة عاكف
 فما طاف منه من سنى الحق طائف
 حلومٌ تقصّتْ أو يروق خواطف
 إذا رحلتْ عنه الشبية تالف
 وناداك من سن الكهولة هاتف
 وأبكاهُ ذنبٌ قد تقدّم سالف
 فدمعك يُنبئ أن قلبك آسف

وقد وافق في أول هذه القطعة قول أبي الوليد ابن الفرّاضي ، أو أخذه منه
 نقلاً ، وتوفي في صدره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في عشر
 الحمين وخمسمائة ، ودفن عند الحميزة التي في المقبرة التالية لسوق العرب ،
 وقال ابن عياد: إنه توفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين بعدها — رحمه الله تعالى —
 وقد نيّف على الستين .

٢٢٤ — ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر ، المعافري ، المرُسي^١ ، وأصله
 من طليبة ، ويُعرف بابن إفرند^٢ ، روى عن أبي الحسين الصفدي^٣ وغيره
 كالقاضي الحافظ أبي بكر ابن العربي وأبي محمد الرشاطي وأبي إسحاق ابن حيش
 وغيرهم ، وله رحلة حج فيها ، ولقي أبا الفتح ابن الرندانقاني — بلد بين سرخس
 ومرو — من أصحاب أبي حامد الغزالي ، وأنشد عنه ممّا قاله في وداع إخوانه
 بالبيت المقدس :

لئن كان لي من بعدُ عودٌ إليكمُ قضيتُ لُباناتِ الفؤادِ لديكمُ

١ ترجمة أحمد بن عمر المعافري في التكملة : ٧٢ .

٢ التكملة : بابن إفرندو .

٣ أكبر الظن أن هذا خطأ ، ففي التكملة روى عن أبي علي ابن سكرة وهذا هو الصفدي .

وإن تكن الأخرى ولم تك أوبة^١ وحن حِمَامِي فالسلامُ عَلَيْكُمْ

وقد روى هذين البيتين أبو عمر ابن عياد وابنه محمد عن ابن إفرند هذا ، وكان صالحاً زاهداً متصوفاً ، رحمه الله تعالى .

٢٢٥ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى ، الضبي^١ ، من أهل لورقة^٢ ، رحل حاجاً ، وكان منقبضاً زاهداً صواماً قواماً ، وأقرأ القرآن ، وأسمع الحديث ، وممن حدث عنه الحافظان أبو سليمان وأبو محمد ابن جَوَوط الله ، ولقيه أبو سليمان^٢ بلورقة سنة ٥٧٥ ، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٥٧٧ ، وقد قارب المائة .

٢٢٦ - ومنهم أبو عمر ابن عات ، وهو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي^٣ ، من أهل شاطبة ، سمع أباه وأبا الحسن ابن هذيل وأبا عبد الله ابن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وسمع أبا الطاهر السلفي وأبا الطاهر ابن عوف وغيرهما ممن يطول ذكره ، وأجاز له أبو الفرج ابن الجوزي وغيره ممن أخذ عنه وسمع منه ، وقد ضمن ذكر أشيائه وجملته صالحة من مروياته عنهم برناجيه الذين سمي أحدهما بـ « التزهة في التعريف بشيوخ الوجهة » وهو كتاب حافل جامع ، والآخر بـ « ريحانة التنفس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس » . قال ابن عبد الملك المراكشي في الصلاة^٤ : حدثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن علي بن

١ ترجمة أبي جعفر الضبي في التكملة : ٧٩ ، والمقري ينقل عنها بإيجاز .

٢ يعني ابن حوط الله .

٣ ترجمة أبي عمر ابن عات في التكملة : ١٠١ والنقل عنها باختصار وعن غيرها وخاصة الذيل

والتكملة ؛ وانظر الديباج : ٥٩ .

٤ الصواب : في الذيل والتكملة .

القطان ، وكان من أكابر المحدثين ، وجلة الحفاظ ^١ المسنين للحديث والآداب بلا مدافعة ، يسرد الأسانيد والمتون ظاهراً فلا يخل بحفظ شيء منها ، متوسط الطبقة في حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل ، إذ لم يُعَنَّ بذلك عنايته بغيره ، فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوي عمر ابن عبد البر وابن عات ، وكان على سَنَنِ السلف الصالح في الانتقاض ، ونزارة الكلام ، ومتانة الدين ، وأكل الحشف ، ولزوم التقشف ، والتقلل من الدنيا ، والزهد فيها ، والمثابرة على كثير من أفعال البر كالأذان والإمامة وبذل المعروف والتوسع بالصدقات على الضعفاء والمساكين . وحكي أنه حضر في جماعة من طلبة العلم لسماع السيّر على بعض شيوخهم ، فغاب الكتاب أو القارئ بكتابه ، فقال أبو عمر : أنا أقرأ لكم ، فقرأ لهم من حفظه ، وقال أبو عمر عامر بن نذير : لازمته مدة ستة أشهر ، فلم أرَ أحفظ منه ، وحضرت إسماع الموطأ وصحيح البخاري منه ، فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضاً بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح ، لا يتوقف في شيء من ذلك ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين ^٢ : إنه كان آخر ^٣ الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً لا يخل بحفظ شيء منها ، موصوفاً بالدراية والرواية ، غالباً عليه الورع والزهد ، على منهج السلف ، يلبس الحشيش ، ويأكل الحشف ^٤ ، وربما أذن في المساجد ، وله تأليف دالة على سعة حفظه ، مع حظ من النظم والنثر ، وشهد وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تَحْيِيفِ الروم بلادها حتى استولت عليها ، ففقد حينئذٍ ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة ،

١ دوزي : وجلة الحفاظ .

٢ هو ابن الأبار في التكملة .

٣ التكملة : أحد .

٤ التكملة : الحشب .

ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، قاله ابن الأبار ، وهو ممّن أجاز له المذكور فيما رواه أو ألفه ، رحمه الله تعالى .

٢٢٧ - ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حنّون ، البهراني^١ ، من ساكني إشبيلية ، وأصله من لبّلة ، روى عن أبيه وابن الجلد وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الأندلس ، ثمّ رحل إلى المشرق ، فسمع ببغداد من أبي حفص عمر بن طبرزد ، وبخراسان من المؤيد الطوسي ، وبهراة من أبي روح عبد المعز ، وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني ، ومن جماعة غير هؤلاء ، وسمع أيضاً بدمشق من أبي الفضل الحرّستاني وسواه ، وبها توفي قبل العشرين وستمائة ، فيما نقل ابن الأبار عن ابن نقطة ، وقال غيره : إنه مات سنة خمس وعشرين وستمائة .

٢٢٨ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد ، المخزومي^٢ ، من أهل قُرطبة ، ويُعرف أبوه بكوزان^٣ ، روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده ، ورحل حاجتاً فلقني بالإسكندرية أبا الحسن ابن المقدسي وسمع منه ، وأنشد من لفظه بعض أصحاب ابن الأبار ، قال : أنشدني شرف الدين أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي ، قال : أنشدتني تقيّة^٤ بنت غيث بن علي الأرمنازي لنفسها^٥ :

لا خير في الخمر ، على أنها مذكورة في صفة الجنة
لأنها إن خامرت عاقلاً خامره في عقله جنة
يخاف أن تقذفه من عليّ فلا تقي مهجته جنة^٦

١ ترجمة أحمد بن تميم البهراني في التكملة : ١١٢

٢ ترجمة أحمد بن إبراهيم المخزومي في التكملة : ١١٢ .

٣ التكملة : بكوزاز .

٤ ق : بقية وكذلك في دوزي .

٥ زاد في ق : رحمه الله تعالى .

٦ ق : الجنة .

٢٢٩ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش ، الكناني ،
المُرسي^١ ، سمع من ابن بَشْكُوَال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعني
وابن بكير بقراءة أبي محمد ابن حَوْط الله ، ورحل إلى المشرق سنة تسع وسبعين
 وخمسمائة ، فحج سنة ثمانين بعدها ، وأقام بالحجاز والشام مدة ، ولقي أبا الطاهر
 الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري وأخذها الناس عنه ، وممّا أفاد
 وزاد في قول الحريري :

إذا ما حويت جنى نخلة

الآيات - قوله :

ولا تأسَقَنَّ على خارج إذا ما لمحت منا الداخل
ولا تكثُر الصمت في معشر وإن زدت عيًّا على باقل

وسمع من أبي القاسم ابن عساكر السنن للبيهقي ، ومن أبي حفص المياشي
جامع الترمذي ، وقفل إلى الأندلس في سنة سبع وتسعين ، وحدث بيسير ، وكان
يحسن عبارة الرؤيا ، وكُفَّ بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها ، وتوفي
على إثر ذلك ، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

٢٣٠ - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حصن بن أحمد بن حزم
الغافقي^٢ ، ويقال فيه : إبراهيم بن حصن بن عبد الله بن حصن ، أندلسي ،
سكن دمشق ، وولي الحِسْبَةَ بها ، ويكنى أبا إسحاق ، سمع ببغداد من أبي بكر
ابن مالك القطيعي وطبقته ، وبدمشق من عبد الوهاب الكلّابي ويوسف بن القاسم
المياجي ، وبمصر من أبي طاهر الذُّهلي^٣ وأبي أحمد الغطريفي ، وله أيضاً سماع

١ . ترجمة ابن عياش الكناني في التكملة : ١١٨ .

٢ . ترجمة إبراهيم بن حصن في التكملة : ١٣٣ وتهذيب ابن عساكر ٢ : ٢٢٢ .

٣ . التكملة : الذهبي .

بالرملة وأطرابلس والدينور وغيرها من البلدان ؛ وحدث بيسير ؛ روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الله الجبّان من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكناني ، وكان مالكيّاً ، وقيل : إنه يذهب إلى الاعتزال ، وكان صارماً في الحسبة ، ووليها سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم العبّيدي ، وتوفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وأربعمئة ، قيل : ثاني عيد الأضحى ، وقيل غير ذلك ، ذكره ابن عساكر ، رحمه الله تعالى .

قلت : ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا ، ولعله كان مالكيّاً بالمغرب ، فلمّا دخل في خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته للمذهب الاعتزال ، قاله تعالى أعلم .

٢٣١ - ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد ، الغافقي ^١ ، من أهل المرية ، ونزل مُرسية ، سمع ببلده من ابن ^٢ شفيح ، وأخذ عنه القراءات ، ومن الحفاظ ابن سكرة وابن زغبة ^٣ وعبد القادر بن الحناط ، وبقرطبة من ابن عتاب وابن طريف وأبي بجر الأسدي وابن مغيث وغيرهم ، ورحل حاجّاً ، فسمع بمكة من أبي عليّ ابن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان سنة ست وعشرين ، وسمع أيضاً من أبي الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي ، وقفل إلى بلده ، وانتقل بعد الحادثة عليه إلى مُرسية ، وولي القضاء والخطبة هنالك ، وحدث ، وأخذ عنه ، وكان فقيهاً مشاوراً ، وقيل : إن ابن حبيش سمع منه الأحاديث النسطورية ، وأسمع صحيح البخاري آخر ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وكان يحدث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية ، وحكى رحمه الله تعالى عن أبي ذرّ الهروي أنه قال عند موته : عليكم بكريمة فلمّا تحمل

١ ترجمة إبراهيم بن منبه في التكملة : ١٤٩ .

٢ ابن : سقطت من ق .

٣ كذا في التكملة ؛ ق : ابن زغبة .

كتاب البخاري من طريق أبي الهيثم ، رحم الله تعالى الجميع .

٢٣٢ - ٢٣٣ - ومنهم أبو القاسم ابن فورثش ، وهو إسماعيل بن يحيى ابن عبد الرحمن ، السَّرْقُسطي^١ ، وأخوه القاضي محمد بن يحيى ، وكانا جميعاً زاهدين ، لهما رحلة سمعا فيها من أبي ذر الهروي بمكة ، وعادا إلى بلدهما ، وولي محمد منهما القضاء ، وقد لقيهما القاضي الحافظ أبو علي ابن سَكْرَةَ ولم يسمع منهما ، ويرويان عن أبي عمر الطلمنكي وأبي الحزم ابن أبي درهم ، وتوفي أبو القاسم في نحو الخمسمائة .

٢٣٤ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر ، القُرْشي ، العلوي ، الإشبيلي^٢ ، رحل حاججاً ، ودخل العراق والموصل ، وقيد الكثير ورواه ، وسمع من أبي حفص الميانشي بمكة سنة ٥٧٠ ، وحدث بالموطأ عن أبي الحسن علي بن هابيل الأنصاري عن أبي الوليد الباجي ، وحدث أيضاً عن غيره بما دل على أنه كان يخلط ولا يضبط ، وكذلك قال أبو الصبر : كان له في الموطأ إسناد عال جداً فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد^٣ ، فاستربت في الرواية عنه بعد تحسين الظن به ، ولم يشبه أبو الصبر لأن ابن هابيل وغيره من شيوخه مجهولون ، وأبو الصبر ممن روى عن المذكور ، وهو أبو الصبر السبتي ، والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل .

٢٣٥ - ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد ابن عبد الله بن إبراهيم بن خليل ، النفري ، الحميري ، الناكُرْتِيُّ . قال في تاريخ إربل : كان شاباً متأدباً فاضلاً ، قدم مصر ، وله شعر حسن ، وقال الحافظ عبد العظيم المنذري : أنشدنا المذكور لنفسه :

١ ترجمة ابن فورثش وأخيه محمد بن يحيى في التكملة : ١٨٢ .

٢ ترجمة أبي الطاهر العلوي في التكملة : ١٨٥ وفيها : إسماعيل بن عمر بن أحمد .

٣ التكملة : رجلا واحداً .

يا قلبُ ما لك لا تفيقُ من الهوى أو ما يَقَرُّ بك الزمانَ قرارُ؟
أكلُّ ذي وجه جميل حنة ولكلِّ عهد سالف تذكُّارُ؟

وله :

يا رب أضحية سوداء حالكة لم ترعَ في البیدِ إلا الشمس والقمر
تخالُ باطنها في اللون ظاهرها فهي الغداة كزنجي إذا كفرا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكرتاً من بلاد الأندلس ، وهي من نظر قرطبة ، وتوفي
بأرزن من ديار بكر سنة ٦٢٩ ، عائداً من آمد ، رحمه الله تعالى .
ومن بديع شعره :

إن أودعَ الطرسَ ما وشّاه خاطره أبدى لعينيك أزهاراً وأشجارا
وإن تهدّد فيه أو يعبّد كرمأ بثّ البريةَ آجالاً وأعمارا

وتاكرنا - بضم الكاف والراء وتخفيفها ، وشد النون - وورد المذكور لإربل
سنة سبع وعشرين وستمائة ، وله أبيات أجاز فيها قول شرف الدين عمر بن
الفارض في غلام اسمه بركات ، قال الأسدي الدمشقي ، ومن خطه نقلت :
كنت حاضرَ هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الأزهر ، إذ قال ابن الفارض :

بركاتٌ يحكي البدرَ عند تمامه حاشاه بل شمسُ الضحى تحكيه
فقال أبو الروح ، وأنشدني ذلك :

هذا الكمالُ فقُلْ لمن قد عابه حسداً وآية كل شيء فيه
لم تدوِ إحدى زهرتيه ، وإنما كملت بذاك ملاحه التشبيه
وكأنه قد رام يُغلقُ جفنته ليصيب بالسهم الذي يرميه

وقال ابن المستوفي في تاريخ إربل : أنشدني أبو الروح لنفسه :

أوصيتُ قلبي أن يفرَّ عن الصِّبا ظناً بأنِّي قد دعوتُ سميعاً
فأجابني لا تخشَ مني بعدما أفلئتُ من شركِ الغرامِ وقوعاً
حتى إذا نادى الحبيب رأيتُه آوى إليه ملياً ومطيعاً
كذبالةٍ أخدمتها فإذا دنا منها الضرامُ تعلَّقَتْهُ سريعاً
قال : وأنشدني :

وزائرٍ زارني والليلُ مُعْتَكِرٌ والطَّيْبُ يفضحه والحَلْيُ يشهره
أمسكتُ قلبي عنه وهو مضطربٌ والشوقُ يبعثه والصَّوْنُ يزجره
فبتُّ أصدى إلى من لا يحلِّثني والوردُ صافٍ ولا شيء يكدره
تراه عيني وكفِّي لا تلامسه حتى كأني في المِراةِ أنظره

قال : وأنشدني الإمام أبو عمرو ابن غياث الشريشي لنفسه رحمه الله تعالى :

صبوتُ وهل عارٌ على الحرِّ إن صبا وقيد ثغر الأربعين إلى الصِّبا
وقالوا مشيبٌ قلتُ واعجبا لكم أينكرُ صبحٌ قد تخلل غيَّها
وليس مشيباً ما ترون ، وإنما كُميئتُ الصِّبا لما جرى عاد أشها

وتوفي أبو عمرو^١ سنة ٦٢٠ ، عن تسعين سنة .

قال ابن المستوفي : وأنشدني المذكور قال : أنشدني أبو عمرو أيضاً لنفسه :

أودعُ فؤادي حسرةً^٢ أو دَعِ نفْسَكَ تؤذى أنت في أضلعي
أمسك سهامَ اللحظ أو فارمِها أنت بما ترمي مصابٌ معي
موقعها القلب وأنت الذي مسكنه في ذلك الموضع

قال : وأنشدني قال : أنشدني مطرف الغرناطي :

١ ق : عمران .

٢ دوزي : حرّاً .

أنا صَبَّ كما تشاء وتهوى شاعر ماجد كريم جوادُ
سُنَّة سَنَها قديماً جميل وأنى المحدثون مثلي فزادوا

قال : وأنشدني أيضاً المطرف :

وفي فروع الأيك ورُقُّ إذا بَلَّ الندى أعطافها تَسْجَعُ
أو هَزَّها نَفْحُ نسيم الصِّبَا شاقكَ منها غُرْدٌ شُرْعُ
كأَنَّمَا رِيْطَتُها مَنِبَرٌ وهى خَطيْبُ فوقه مِصْقَعُ
إن شَبَّها في طَرَفٍ لوعة جرى لها في طرفٍ مدمعُ

أخذه من قول عبد الوهاب بن علي المالقي الخطيب :

كَأَنَّ فُؤادِي وطَرَفِي مَعاً هما طَرَفَا غُصْنٍ أَخْضَرِ
إذا اشْتَعَلَ النَّارُ في جانبٍ جرى الماءُ في الجانبِ الآخرِ

٢٣٦ — ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الإمام النحوي اللغوي نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن حمدون ، الحميري ، الأندلسي ، المالقي . قال شرف الدين الصابوني : أنشدنا المذكور لنفسه سنة ٦٦٧ :

فُؤادُ بِأَيْدِي النَّائِبَاتِ مُصَابُ وَجَفَنَ لَفِيضِ الدَّمْعِ فِيهِ مَصَابُ
تَنَاءتْ دِيَارُ قَدْ أَلْفَتْ وَجِيرَةً فَهَلْ لِي إِلَى عَهْدِ الْوَصَالِ إِيَابُ
وَفَارَقْتُ أَوْطَانِي وَلَمْ أَبْلُغِ الْمَنَى وَدُونَ مَرَادِي أَبْحَرُ وَهِيْصَابُ
مَضَى زَمَنِي وَالشَّيْبُ حَلَّ بِمُفْرَقِي وَأَبْعَدُ شَيْءٍ أَنْ يَرْدَ شَبَابُ
إِذَا مَرَّ عَمْرُ الْمَرْءِ لَيْسَ بِرَاجِعٍ وَإِنْ حَلَّ شَيْبٌ لَمْ يَقْدَحْ خُصَابُ
فَحَلَّ حَمَامُ الشَّيْبِ فِي فَرَقٍ لَمَتِي وَقَدْ طَارَ عَنْهَا لِلشَّبَابِ غَرَابُ
وَكَمْ عِظَّةٍ لِي فِي الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ وَبَيْنَ فُؤَادِي وَالْقَبُولِ حِجَابُ

فدع شهوات النفس عنك بمنزل
وسل فؤاداً عن رباب وزينب
وأنوي متاباً ثم أنقض نيّتي
أقرّ بتقصيري وأطمع في الرضى
وبعتبي في العجز خيلٌ وصاحب
أطهر أثوابي وقلبي مدّنس
وفارقت من غرب البلاد موطناً
فبالقلب من نار التشوق حرقة
وما بلغ المملوك قصداً ولا منى
وأخشى سهام الموت تفجأ غفلة
وقلبي معمورٌ بحب محمد
يحنّ إلى أوطانه كل مسلم
فأسعد أيامي إذا قيل هذه
فجسمي في مصر وروحي بطيبة
على مثل هذا العجز والعمر منقض
وأرجو ثواباً بامتداحي محمداً
به أخدمت من قبل نيران فارس
وكم قد سقى من كفه الجيش فارتووا
أجيب لما يختار في حضرة العلا
فلم تلهي دنياه عن خوف ربه
محمد المختار أعلى الورى ندّى
أنحسب أن تحصي بعد صفاته
ثناء رسول الله خير ذخيرة
وقد نصّب الميزان والله حاكم

فعذب الليالي مقتضاه عذاب
فما القصد منها زينب ورباب
فربّع صلاحى بالفساد خراب
وما القصد إلا مرجع ومتاب
وهل نافع في الجامدات عتاب
وأزعم صدقاً والمقال كذاب
فسقى ربي غرب البلاد سحاب
وبالعين من فيض الدموع عباب
ولا حطّ عن وجه المراد نقاب
وما سار بي نحو الرسول ركاب
فما لي في غير الحجاز طلاب
فقدّس منها منزل وجناب
منازل من وادي الحمى وقباب
فللروح عن جسمي هناك متاب
تشتقّ قلوب لا تشتقّ ثياب
وما كل من في الزمان يثاب
وحقق من ظبي القلاة خطاب
وكم قد شفى منه العيون رصاب
وما كل خلقٍ حيث قال يجاب
ولا شغلته عن رضاه كعاب
وأكرم مبعوث أناه كتاب
وهيهات ما يحصي علاه حساب
وقد ذلّ جبار وخيف عقاب
وذلت لأحكام الإله رقاب

فكلُّ ثناءٍ واجبٌ لصفاتهِ فما مدحُ مخلوقٍ سواه صوابُ
إليك رسولَ الله أنهي مدائحي وإنَّ رجائي راحةٌ وثوابُ
إذا قيلَ مَنْ تعني بمدحك كلهُ فأنتَ إذا خبرتَ عنهُ جوابُ
« فليتك تحلو والحياة مريرةٌ » وليتك ترضى والأثم غضابُ
فأنتَ أجلُّ العالمين مكانةً وأكرمُ مدفونٍ حواه ترابُ

وله يرثي العز بن عبد السلام :

أمدُّ الحياة كما علمتَ قصيرُ وعليك نَقَادٌ بها وبصيرُ
عجباً لغترٍ بدارٍ فَنائِه وله إلى دارِ البقاءِ مصيرُ
فسليمها للنائبِ مُعَرَّضُ وعزيزها بيد الردى مقهورُ
أيظنُّ أن العُمُرَ مملودٌ له والعمرُ فيه على الردى مقصورُ

وهي طويالة ، ولم يحضرني سوى ما ذكرته

٢٣٧ - ومنهم عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن ، الغساني ،
الوادي آشي ، أبو محمد^١ ، وله أخبار كثيرة في الحماسة وعلو الهمة . ومن نظمه
لما تعمم مخدومه ابن غانية^٢ بعمامة بيضاء ولبس غفارة حمراء على جبة خضراء :

فَدَيْتُكَ بِالنَّفْسِ الَّتِي قَدْ مَلَكَتْهَا بما أَنْتَ مولِها من الكرمِ الغَضِّ
تَرَدَّيْتُ لِلْحُسْنِ الْحَقِيقِيِّ بِهِجَةً فصار لها الكليُّ في ذاك كالبعضِ
ولما تَلَّلا نَورَ غُرَّتِكَ الَّتِي تُقَسِّمُ في طولِ البلادِ وفي عرضِ

١ ترجمة ابن فرسان الوادي آشي في المغرب ٢ : ١٤٢ ، والمقتضب من تحفة القادم : ١١٥ .
وكانت وفاة ابن فرسان سنة ٦١١ .

٢ هو أبو زكريا يحيى بن إسحاق بن غانية أحد الثائرين على الموحدين أيام منصور بني عبد المؤمن ،
وفي المغرب : أبو الحسن ابن غانية وهو أخو يحيى .

تَلَفَعَتْهَا^١ خَضِرَاءَ أَحْسَنَ نَاطِرٍ
وَأَسْدَلَتْ حَمْرَاءَ الْمَلَابِسِ فَوْقَهَا
فَأَصْبَحَتْ بَدْرًا طَالِعًا فِي غَمَامَةٍ
عَلَى شَفَقٍ دَانٍ إِلَى خَضِرَةِ الْأَرْضِ

وقال رحمه الله تعالى :

أَجْبُنًا وَرَحِي نَاصِرِي وَحَسَامِي
وَلِي مِنْكَ بَطَاشُ الْيَدِينِ غَضَنْفَرُ^٢
وَعِجْزًا وَعِزْمِي قَائِدِي وَإِمَامِي
يَحَارِبُ عَنْ أَشْبَالِهِ وَيَحَامِي

وقال رحمه الله تعالى لما أَسْنَّ يَسْتَأْذِنُ مَخْدُومَهُ فِي الْحَجِّ وَالزِّيَارَةِ^٣ :

أَمِنُنْ بِتَسْرِيحٍ عَلَيَّ فَعَلَّهُ^٤
وَلْتَنْ تَقُولَ كَاشِحٌ أَنَّ الْهَوَى
فَمَقَالَتِي مَا إِنْ مَلَلْتُ وَإِنَّمَا
وَعِجْزْتُ عَنْ أَنْ أُسْتَثِيرَ كَمِينَهَا
سَبَبُ الزِّيَارَةِ لِلْحَاطِمِ وَيَثْرِبُ
دَرَسَتْ مَعَالِمَهُ وَأَنْكَرَ مَذْهَبِي
عَمْرِي أَبَى حَمَلَ النَّجَادِ وَمَنْكَبِي^٥
وَأَشَقَّ بِالصَّمْصَامِ صَدْرَ الْمَوْكَبِ

وقال رحمه الله تعالى ، وَلَا خِفَاءَ بِبِرَاعَتِهِ^٤ :

نَدَى مُخْضَلًا ذَاكَ الْجَنَاحَ الْمُنْمَنَا
أَعِيدَهْنَ أَلْحَانًا عَلَى سَمْعٍ مَعْرَبٍ
وَطَرٌ غَيْرَ مَقْصُوصِ الْجَنَاحِ مَرْفَهَا
مُخَلَّتِي وَأَفْرَاخًا بُوَكْرَكَ نَوْمًا
وَسَقِيًّا وَإِنْ لَمْ تَشْكُ يَا سَاجِعًا ظَمَا
يَطَارِحُ مَرَاتِحًا عَلَى الْقُضْبِ مَعْجَمَا
مَسَوَّغَ أَشْتَاتِ الْحُبُوبِ مِنْعَمَا
أَلَا لَيْتَ أَفْرَاخِي مَعِي كُنَّ نَوْمًا

وقال رحمه الله تعالى^٥ :

١ دوزي : تَلَفَعَتْهَا .

٢ الأبيات في المغرب .

٣ المغرب : بِمَنْكَبِي .

٤ الأبيات في التحفة .

٥ الأبيات في التحفة .

كفى حَزَنًا أَنْ الرماح^١ صقيلةٌ وَأَنَّ الشَّبا رهنٌ الصدى بدمائه
وَأَنَّ بَيَازِيقَ الجَوَانِبِ فَرَزَزَتْ ولم يَعدُ رُخَّ الدَّسْتِ بَيتَ بَنائه

وكان - رحمه الله تعالى - من جلَّة الأدباء ، وفحول الشعراء ، وبرعة
الكتاب ، كتب عن ابن غانية الأمير أبي زكريا يحيى بن إسحاق^٢ بن محمد بن علي
المسوفي الميرقي النائر على منصور بني عبد المؤمن ، ثم على مَنْ بعده من ذريته إلى
أيام الرشيد منهم ، وكان منقطعاً إليه ، وممن صحبه في حركاته ، وكان آيةً في
بُعد الهمة ، والذهاب بنفسه ، والغناء في مواقف الحرب ، والجنسية علة الضم ،
إذ ابنُ غانية كان غايةً في ذلك أيضاً . ووجهه الميرقي المذكور عشية يوم من أيام
حروبه إلى المأزق ، وقد طال العراك ، وكاد الناس ينفصلون عن الحرب [إلى أن
يباكروها من الغد . فلماً بلغ الصدر اشتدَّ على الناس]^٣ وذمَّ أرباب الحفيظة ،
وأنهى إليهم العزم من أميرهم في الحملة ، فانهزم عدوهم شرَّ هزيمة ، ولم يعد
أبو محمد إلّا في آخر الليل بالأسلاب والغنيمة ، فقال له الأمير : وما حملك على
ما صنعت ؟ فقال : الذي عملت هو شأني . وإذا أردت من يصرف الناس عن
الحرب ويذهب ريحه فانظر غيري .

وتشاجر له ولد صغير مع تَرَبٍّ له من أولاد أميره أبي زكريا فنال منه ولد
الأمير ، وقال : وما قدَرُ أبيك ؟ فلماً بلغ ذلك أباه خرج مغضباً لحينه . ولقي
ولد الأمير المخاطب لولده فقال : حفظك الله تعالى ، لستُ أشكُّ في أي خديم
أبيك ، ولكني أحب أن أعرفك بنفسي ومقداري ومقدار أبيك ، اعلم أن أباك
وجهني رسولاً إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب عن نفسه ، فلماً بلغتُ بغداد
أنزلت في دار اكترت لي بسبعة دراهم في الشهر ، وأجري عليَّ سبعة دراهم في

١ التحفة : الزجاج .

٢ إسحاق : سقطت من ق .

٣ ما بين قوسين ساقط من ق ودوزي .

اليوم ، وطُوع بكتابي ، وقبل : مَنْ الميرقي الذي وجهه ؟ فقال بعض الحاضرين : هو رجل مغربي ثائر على أستاذه . فأقمت شهراً ، ثم استدعيت ، فلما دخلت دار الخلافة وتكلمت مع مَنْ بها من الفضلاء وأرباب المعارف والآداب اعتذروا إليّ ، وقالوا للخليفة : هذا رجل جُهل مقداره . فأعِدْتُ إلى محل اكتُري لي بسبعين درهماً ، وأجري عليّ مثلها في اليوم ، ثم استدعيت فودعت الخليفة ، واقتضيت ما تيسر من حوائجه وصدر لي شيء له حظ من صلته ، وانصرفت إلى أبيك ، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند مَنْ يعرف الأقدار ، والثانية كانت على قدري : وترجمته رحمه الله تعالى متسعة .

٢٣٨ — ومنهم عبد المنعم بن عمر الغساني ، الوادي آشي^١ ، المؤلف ، الرحالة ، المتجول ببلاد المشرق سائحاً ، صاحب المؤلفات الكثيرة التي منها « جامع أنماط السائل في العروض^٢ والخطب والرسائل » .

ومن نظمه قوله رحمه الله :

ألا إنما الدنيا بحارٌ تلاطمتُ فما أكثر الغرقى على الجنباتِ
وأكثرُ من لاقيت يُغرقُ إلفهُ وقلَّ فتى يُنجي من الغمراتِ

توفي سنة ٦٠٣ ، رحمه الله تعالى .

٢٣٩ — ومنهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد ، القرطبي ، الخزرجي ، كان إماماً في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطب ، وله تأليف حسان ، وشعر رائق ، فمنه قوله رحمه الله تعالى :

١ ترجمة عبد المنعم بن عمر الغساني في الذيل والتكملة ٥ : ٥٧ والتكملة رقم : ١٨١٥ ، وصلة الصلة : ١٥ ، وتحفة القادم : ٩٠ ، وفوات الوفيات رقم ٢٦٣ ، وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٥٧ وهو الجلياني لأن جليانة من عمل وادي آش .
٢ الذيل والتكملة : في القريض .

وفي الوجنات ما في الروض لكن لرونق زهرها معنى عجب
وأعجب ما التعجب عنه أني أرى البستان يحمل له قضيب

وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٠١ .

٢٤٠ - ومنهم أبو العباس القرطبي^١ ، صاحب « المفهم في شرح مسلم » ،
وهو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري ، المالكي ، الفقيه ، المحدث ،
المدرس ، الشاهد بالإسكندرية .

ولد بقرطبة سنة ٥٧٨ ، وسمع الكثير هناك ، ثم انتقل إلى المشرق ، واشتهر
وطار صيته ، وأخذ الناس عنه ، وانتفعوا بكتبه . وقدم مصر ، وحدث بها ،
واختصر الصحيحين ، وكان بارعاً في الفقه والعربية ، عارفاً بالحديث ، وممن
أخذ عنه القرطبي صاحب التذكرة . ومن تصانيفه رحمه الله تعالى « المفهم
في شرح مسلم » وهو من أجل الكتب ، ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووي ، رحمه
الله تعالى ، عليه في كثير من المواضع ، وفيه أشياء حسنة مفيدة . ومنها اختصاره
للصحيحين كما مر . وله غير ذلك وتوفي رحمه الله تعالى بالإسكندرية رابع
ذي القعدة سنة ٦٥٦^١ . وكان يُعرف في بلاده بابن المزين ، وله كتاب « كشف
القناع عن الوجود والسماع » أجاد فيه وأحسن ، وكان يشغل أولاً بالمعقول ،
وله اقتدار على توجيه المعاني بالاحتمال .

قال الشيخ شرف الدين الدمياطي : أخذت عنه ، وأجاز لي مصنفاته . رحمه
الله تعالى ، وحدث بالإسكندرية وغيرها ، وصنف غير ما ذكرناه ، وكان
إماماً عالماً جامعاً لمعرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها .

١ ترجمة أبي العباس القرطبي في الديباج : ٦٨ ، قال : وتوفي بالإسكندرية في ذي القعدة سنة
ست وعشرين وستمائة ، وفي كتاب الذيل والتكملة لقاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد الملك
المراكشي أنه توفي سنة ست وخمسين فانظره .

٢٤١ - ومنهم العارف الكبير ، الولي الصالح الشهير ، أبو أحمد جعفر ابن عبد الله بن محمد بن سيد بونه ، الخزاعي ، الأندلسي^١ ، أحد الأعلام المنتطعين المقربين أولي الهداية ، كان - رضي الله تعالى عنه ونفعنا به - كثير الأتباع . بعيد الصيت ، فذآ شهيراً .

قال الحافظ ابن الزبير : هو أحد الأعلام المشاهير فضلاً وصلاً . قرأ بـسـنـسـية وتفقه ، وحفظ نصف المـدـوـنة ، وأقرأها . وكان يؤثر التفسير والحديث والفقه على غيرها ، أخذ عن أبوي الحسن ابن النعمة وابن هذيل . وحج . ولقي في رحلته من الأندلس جـلـةً أكبرهم الولي الكبير سيدي أبو مدين شبيب . أفاض الله تعالى علينا من أنواره ، وانتفع به ، ورجع عنه بعجائب ، فـشـهر بالعبادة . وتبرك الناس به ، فظهرت عليه بركته ، توفي رحمه الله تعالى في شوال سنة ٦٢٤ . وعاش نيلاً وثمانين سنة . وله ترجمة في الإحاطة ملخصها ما ذكرناه .

٢٤٢ - ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب ، الخزرجي . الأنصاري ، الشاطبي^٢ ، الفقيه ، القاضي ، الصدر ، المتفنن ، المحصل ، المجيد . له علم محكم ، وعقد صحيح مبهرم ، رحل إلى المشرق وحج ، وكانت رحلته بعد تحصيله فزاد فضلاً إلى فضل ، ونُبلاً إلى نبل ، وكان مثبتاً في فقهه . لا يستحضر من النقل الكثير ، ولكنه يستحضر ما يحتاج إليه ، وكان له علم بالعربية وأصول الفقه ، ومشاركة في أصول الدين ، له شرح على الجزولية ، وكان أبوه قاضياً ، وبيتهم بيت قضاء وعلم وسؤدد متوارث ومجد مكسوب ومنسوب ؛ ثم ولي قضاء بجاية ، فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء العقلاء بالحق مع

١ ترجمة ابن سيد بونه في الإحاطة ١ : ٢٩١ (ط . السلفية) .

٢ ترجمة محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي في عنوان الدراية : ٦٧ ، وقد كانت وفاته عام ٦٩١ .

الصدق ، معارضاً للولاة ، وكان يرى أن لا يقدم الشهود إلاّ عند الحاجة ، وأما إن حصل مَنْ تحصل به الكفاية فلا يقدم غيره ، ويرى أن الكثرة مفسدة ، وقد طلب منه الملك أن يقدم رجلاً من أهل بجاية ، فقال له مشافهة : إن شئتم قدمتموه وأخرتموني ؛ وكان إذا جرى الأمر في مجرى الشهادة وما قاله القاضي ابن العربي أبو بكر وغيره من أنها « قبول قول الغير على الغير بغير دليل » يرى أن هذا من الأمر العظيم الذي لا يليق أن يمكن منه إلاّ الآحاد الذين تبيّن فضلهم في الوجود ؛ وكان يرى أن جنائيات الشاهد إنما هي في صحيفة مَنْ يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة حسنة ، ومن سن سنة سيئة » ، وقد سئل^١ : مَنْ أولياء الله ؟ فقال : شهود القاضي ، لأنهم لا يأتون كبيرة ، ولا يواظبون على صغيرة ، وإن كانت الشهادة على هذه الصفة فلا شيء أجلّ منها ، وإن كانت خلة لا صفة فلا شيء أحسن منها ، ولما كانت واقعة بني مرين^٢ بطنجة عرض عليه أهلها أن يتقدم وأن يبايعوه ، فقال : والله لا أفسد ديني . ولما توفي عجز القاضي الذي تولى بعده عن سلوك منّحاه ، واقتفاء سنّته الذي اقتفاه ، قال هذا كله بمعناه وبعضه بحروفه الغبريني^٣ في « عنوان الدراية في علماء بجاية » .

٢٤٣ — ومنهم محمد بن يحيى الأندلسي ، اللبسي — بلام فموحدة فسين — قاضي القضاة^٣ ، أخذ عن الحافظ ابن حجر ، ونوّه به عند الأشرف ، حتى ولاه قضاء المالكية بحماة ، وسار سيرة السلف الصالح ، ثم حنق على نائبها في بعض الأمور ، وسافر إلى حلب مظهراً لإرادة السماع على حافظها البرهان . ووصفه ابن حجر في بعض مجاميعه بقوله : الشيخ الإمام العالم العلامة في الفنون ، قاضي الجماعة . وقال : إنه إنسان حسن إمام في علوم منها الفقه

١ عنوان الدراية : وقد سئل الجنيّد .

٢ كذا هو في ق وعنوان الدراية ؛ وفي دوزي : مزين .

٣ ترجمة محمد بن يحيى اللبسي في الضوء اللامع .

والنحو وأصول الدين ، يستحضر علوماً كأنها بين عينيه ، ووصفه أيضاً بعلامة
دهره ، وخلاصة عصره ، وعين زمانه ، وإنسان أوانه ، جامع العلوم ، وفريد
كل مشور ومنظوم ، قاضي القضاة ، لا زالت رايات الإسلام به منصوره ،
وأعلام الإيمان به منشورة ، ووجوه الأحكام الشرعية بحسن نظره محبورة ، ولد
سنة ٨٠٦ ، وتوفي ببرُسا من بلاد الروم أواخر شعبان سنة ١٨٨٤ ، قاله السخاوي
« في الضوء اللامع » .

٢٤٤ — ومنهم الوزير الشهير أبو عبد الله ابن الحكيم ، الرندي ، ذو
الوزارتين^٢ ، رحل إلى مصر والحجاز والشام ، وأخذ الحديث عن جماعة ، وقد
ترجمناه في باب مشيخة لسان الدين عند تعرضنا لذكر ابنه الشيخ أبي بكر ابن الحكيم ،
ولا بأس أن نزيد هنا ما ليس هنالك ، فنقول^٣ : إن من مشايخه برُندة الشيخ
الأستاذ النحوي أبا الحسن علي بن يوسف العبدري السفاح ، أخذ عنه العربية ،
وقرأ عليه القرآن بالروايات السبع ، وأخذ عن الخطيب بها أبي القاسم ابن الأيسر ،
وأخذ — رحمه الله تعالى — عن جملة من أعلام الأندلس ، وأخذ في رحلته
عن الجليّة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر ، فمن شيوخه الحافظ أبو اليمن ابن
عساكر ، لقيه بالحرم الشريف ، وانتفع به ، وأكثر من الرواية عنه ، والشيخ
أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحراني المعروف بابن هبة الله ، والشيخ الشرف
أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري — جزائر
المغرب نزيل بغداد والشيخ أبو الصفاء خليل بن أبي بكر الحنبلي ، لقيه بالقاهرة ،
والشيخ رضي الدين أبو بكر القسطيني ، والشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد
عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام الديار المصرية في الحديث وحافظها ومؤرخها ،

١ ق : ٨٤٠ .

٢ ستجيء له ترجمة أخرى في النفع نشير فيها إلى مصادر ترجمته .

٣ انظر الإحاطة ٢ : ٢٨٠ ، فالمقري يلخص ترجمة ابن الحكيم عنها .

والشهاب ابن الخيمي ، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها :

يا مطلباً لئيس لي في غيره أربُّ إليك آلَ التقصّي وانتهى الطلبُ

وفيهما البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه :

يا بارقاً بأعالي الرّقمتين بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنّبُ

والشيخ جمال الدين أبو صادق محمد بن يحيى القرشي ، ومن تخريجه « الأربعون المروية بالأسانيد المصرية » وسمع الحلبيات من ابن العماد الحراني والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة^١ ، ومولده سنة ٥٩٨ ، وزينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، وتكنى أم الفضل ، وسمعت من أبيها . ومن أشياخ ذي الوزارتين بن الحكيم المذكور الملك الأوحّد يعقوب ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ، والشيخ عبد الرحمن بن سليمان بن طرخان وأخوه محمد بن سليمان ، في طائفة كبيرة من مشايخ مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد يطول تعدادهم ، وأخذ ببجاية عن خطيبها أبي عبد الله ابن رحيمة الكناني ، وبتونس عن قاضيها أبي العباس ابن الغماز البكنسي وأخذ العربية عن قدوة النحاة أبي الحسين عبد الله^٢ بن أحمد ابن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي .

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم المذكور قوله^٣ :

هل إلى ردّ عشيّاتِ الوصالِ سببٌ أم ذاك من ضَرَبِ المحالِ
حالة يسْري بها الوهمُ إلى أنها تثبتُ برءاً باعْتلالِ
وليالٍ ما تبقى بعدها غيرُ أشواقٍ إلى تلك الليالي

١ دوزي : الحيزة .

٢ هكذا في ق ودوزي ؛ الإحاطة : عبيد الله .

٣ الشعر في الإحاطة ٢ : ٢٨٩ ، وهي قصيدة رفعها إلى السلطان ببلدة رندة وهو إذ ذاك قى .

إِذْ مَجَالَ الْوَصْلِ^١ فِيهَا مَسْرُحِي
 وَلِحَالَاتِ التَّرَاضِي جَوْلَةٌ^٢
 فَبَوَادِي الْخَيْفِ خَوْفِي مُسْعِدٌ
 لَسْتُ أَنْسَى الْأَنْسَ فِيهَا أَبَدًا
 وَغَزَالَ قَدْ بَدَأَ لِي وَجْهَهُ
 مَا أُمَّالَ الْتِيهِ^٣ مِنْ أَعْطَافِهِ
 خُصَّصَ بِالْحَسَنِ فَمَا أَنْتَ تَرَى
 مَنْ تَسَلَّى عَنْ هَوَاهُ فَأَنَا
 فَلَنْ أَتَعْبِي حُبِّي لَهُ
 إِذْ لَأَلِي جِيدِهِ مِنْ قِبَلِي
 خَالَفَ النَّوْمُ لِي السُّهْدَ بِهِ
 فَتَدَاوَى بِلَمَّاهُ ظَمَائِي
 أَوْ إِشَادَاتِ بِنَاءِ الْمَلِكِ الْأَوَّ
 مَلِكٌ إِنْ قُلْتَ فِيهِ مَلَكًا
 أَيْدَ الْإِسْلَامَ بِالْعَدْلِ فَمَا
 ذُو أَيَادٍ شَمَلَتْ كُلَّ الْوَرَى
 هِمَّةٌ هَامَتْ بِأَحْوَالِ التَّقَى
 وَقَفَ النَّفْسَ عَلَى إِجْهَادِهَا
 وَنَعِيمِي أَمْرٌ فِيهَا وَوَالِ
 مَرَحَتُ بَيْنَ قَبُولٍ وَاقْتِبَالِ
 وَبَأَكْثَافٍ مَنَى أَسْنَى مَوَالِ
 لَا وَلَا بِالْعَذْلِ فِي ذَاكَ أَبَالِي
 فَرَأَيْتُ الْبَدْرَ فِي حَالِ الْكَمَالِ
 لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى خَصْلٍ^٢ اعْتَدَالِ
 بَعْدَهُ لِلنَّاسِ حَظًّا فِي الْجَمَالِ
 بِسَوَاهُ عَنْ هَوَاهُ غَيْرُ سَالِ
 فَلَكُمْ نِلْتُ بِهِ أَنْعَمَ حَالِ
 وَوَشَاحَاهُ يَمِينِي وَشَمْسَالِي
 وَتَرَامَى الشَّخْصَ لَا طَيْفُ الْخِيَالِ
 مَزَجَكَ الصَّهْبَاءُ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
 حَدَّ الْأَسْمَى الْهَمَامِ الْمُتَعَالِي
 لَمْ تَكُنْ إِلَّا مُحَقَّقًا فِي الْمَقَالِ
 إِنْ تَرَى رِسْمًا لِأَصْحَابِ الضَّلَالِ
 وَمَعَالٍ يَا لَهَا خَيْرَ مَعَالِ
 وَصِفَاتٍ بِالْجَلَالَاتِ حَوَالِ
 بَيْنَ صَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَنَوَالِ

وهي طويلة ومنها :

أيها المولى الذي نعمائوه^٣ أعجزت عن شكرها كنه المقال

١ الإحاطة : الليل .

٢ الإحاطة : فضل .

٣ ق ودوزي : نعماكم ؛ وفي الإحاطة : نعمائوه .

ها أنا أنشدكم مهناً
فأنا العبدُ الذي حُبُّكم
أورقتُ روضةً آمالي بكم
[واقنيت الجاه من خدمتكم
من بديع النظم بالسحرِ الحلالِ
لم يزلُ والله في قلبي وبالي
مذ تولاها الربابُ المتوالي^١
فهي ما أذخره من كثرِ مالِ^٢]

ومنها :

يا أميرَ المسلمين هذه
هي بنتُ ساعةٍ أو ليلةٍ
ما عليها إذ أجادت مدحها
فهي في تأديةِ الشكر لكم
خدمتي تنبئ عن صادق حالِ
سهلت بالحبِّ في ذاك الجلالِ
من بعيدِ الفهمِ يلغيها وقالِ
أبدأ بين احتفاء واحتفالِ

وكتب رحمه الله تعالى يخاطب أهله من مدينة تونس^٣ :

حيَّ حيَّ بالله يا ربحَ نجدِ
وإذا ما بثثت حالي فبلغ
ما تناسيتهم وهل في مغربي
بي شوقٍ إليهم ليس يُعزى
يا نسيم الصبا إذا جئت قوماً
فتلطفت عند المرورِ عليهم
قل لهم قد غدوت من وجدهم في
وإن استفسروا حديثي فإنني
وتحمل عظيم شوقي ووجدي
من سلامي لهم على قدرِ ودِّي
قد نسوني على تطاولِ بُعدي
لحميل ولا لسكان نجدِ
مئلت أرضهم بشيح ورنند
وحقوقاً لهم علي فأد
حال شوقٍ لكل رند وزند
باعثناء الإله بلغت قصدي

١ الإحاطة : الكبير المتعالي .

٢ سقط البيت من ق ودوزي ولم يرد في الإحاطة .

٣ الأبيات في الإحاطة ٢ : ٢٩١ .

٤ كذا في ق ودوزي ؛ الإحاطة : هم .

فله الحمد إذ حباني بلطفٍ عنده قل كل شكرٍ وحمدٍ

وافتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبي إسحاق إبراهيم بقصيدة أولها ١ :

ذكر اللوى شوقاً إلى أقماره	ففضى أسى أو كاد من تذكاره
وعلا زفير حريق نارٍ ضلوعه	فرمى على وجناته بشراره
لو كنت تبصر خطه في خده	لقرأت سرّ الوجد من أسطاره
يا عاذليه أقصروا فلشدّ ما ٢	أفضى عتابكم إلى إضراره
إن لم تعينوه على بزحائه	لا تنكروا بالله خلع عذاره
ما كان أكتمه لأسرار الهوى	لو أن جند الصبر من أنصاره
ما ذنبه والبين قطع قلبه	أسفاً وأذكى النار في أعشاره
بخل اللوى بالساكنيه وطيفهم	وحديثه ونسيمه ومزاره
يا برق خذ دمي وعرج باللوى	فاسفحه في باناته وعراره
وإذا لقيت بها الذي بإخائه	ألقي خطوب الدهر أو بجواره
فاقرّ السلام عليه قدر محبتي	فيه وترفعي إلى مقداره
والمم بسائر إخوتي وقرابي	من لم أكن لجوارهم بالكاره
ما منهم إلا أخ أو سيد	أبدأ أرى دأبي على إكباره
فابشّ لذلك الحي أن أخاهم	في حفظ عهدهم على استبصاره

وقال رحمه الله تعالى في غرض كلفه سلطانه القول فيه ٣ :

ألا واصل مواصلة العقار ودع عنك التخلّق بالوقار

١ الإحاطة : ٢٩٢ .

٢ الإحاطة : فلربما .

٣ الأبيات في الإحاطة ٢٩٢ - ٢٩٣ .

وقم واخلع عذارك في غزال
 قضيب مائس من فوق دِعْص
 ولاح بخده ألف ولام
 رماني قاسم والسين صاد
 وقد قُسمت محاسن وجنتيه
 فذاك الماء من دَمْعِي عليه
 عَجَبْتُ لَهُ أَقامَ بربع قلبي
 ألفتُ الحبَّ حتَّى صارَ طبعاً
 فما لي عن مذاهبه ذهاب
 يحقُّ لِمِثْلِهِ خلعُ العذار
 تعمّمَ بالدجى فوق النهار
 فصارَ مُعْرِفاً بين الدراري
 بأشفار تنوب عن الشّفار
 على ضدين من ماء ونار
 وتلك النارُ من فرطِ استعاري
 على ما شَبَّ فيه من الأوار
 فما أحتاجُ فيه إلى ادّكار
 وهذا فيه أشعاري شعاري

وقال العلامة ابن رشيد في « ملء العيبة »^١ : لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤ كان
 معي رفيقي الوزير أبو عبد الله ابن أبي القاسم ابن الحكيم . وكان أرمداً . فلمّا
 دخلنا ذا الحليفة أو نحوها نزلنا عن الأكوار . وقوي الشوق لقرب المزار .
 فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار . وإعظاماً لمن حل تلك
 الديار . فأحسّ بالشفاء ، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله :

ولما رأينا من ربوع حبيينا
 وبالترب منها إذ كحلنا جفوننا
 وحين تبدّى للعيون جمالها
 « نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة
 نسح سجال الدمع في عرصاتنا
 وإن بقائي دونه لخسارة »
 فيا عجباً ممّن يحبُّ بزعمه
 بيثرب أعلاماً أثرن لنا الحبّا
 شقينا فلا بأساً نخاف ولا كربا
 ومن بعدها عنا أدبنا لنا قربا
 لمن حلّ فيها أن نلّم به ركبا
 ونلّم من حبّ لواطئه التربا
 ولو أن كفني تملأ الشرق والغربا
 يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا

١ لا يزال النقل مستمراً عن الإحاطة : ٢٩٣ .

وَزَلَّاتُ مِثْلِي لَا تُعَدَّدُ كَثْرَةً وَبُعْدِي عَنِ الْمُخْتَارِ أَعْظَمُهَا ذَنْبًا
انتهى .

وخط الوزير ابن الحكيم في غاية الحسن ، وقد رأيتـه مراراً ، وملكـت بعض
كتبـه ، ونثره - رحمه الله تعالى - أعلى من شعره كما نبه عليه لسان الدين في
الإحاطة .

ومن نثره في رسالة طويلة كتبها عن سلطانه ، ما صورته^١ : وقد تقرر
عند الخاص والعام ، من أهل الإسلام ، واشتهر في آفاق الأقطار ، اشتـهـار الصباح
في سواد الظلام ، أننا لم نزل نبذل جهدنا في أن تكون كلمة الله هي العليا ،
ونستـمـح في ذلك بالنفوس والأموال رجاء ثواب الله لا لعرض الدنيا . وأننا ما
قصرنا في الاستنفار والاستنصار^٢ ، ولا أقصرنا عن الاعتضاد بكل من أملنا
معاملته والاستظهار^٣ ، ولا اكتفينا بمطوّلات الرسائل وبنات الأفكار ، حتى
اقتحمنا بنفسنا لجحج البحار ، فسمحنا بالطارف من أموالنا والتلاد ، وأعطينا
رجاء نصرة الإسلام موفور الأموال والبلاذ ، واشترينا بما أنعم الله به علينا ما
فرض الله على كافة أهل الإسلام من الجهاد ، فلم يكن بين تلبية المدعو وزهده ،
ولا بين قبوله وردّه ، إلا كما يحسو الطائر ماء الثماد ، ويأبى الله أن يـكـل
نُصرة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه ، ولا يجعل فيها شيئاً ؛ إلا لمن أخلص
لوجهه الكريم علانيته ونجّواه ، ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغربية إلى
مناويه ، وبقي المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لمباديه^٥ ، ألقينا

١ انظر هذه الرسالة في الإحاطة : ٢٩٧ ، وما بعدها .

٢ الإحاطة : في الاستنصار والاستنفار .

٣ ق : من الاستظهار .

٤ الإحاطة : وأن يجعل فيها شيئاً ؛ ق ودوزي : ولا يجعل فيها سبباً .

٥ وبقي ... لمباديه : سقط من ق .

إلى الثقة بالله تعالى يد الاستسلام ، وشمّرنا عن ساعد الجِدِّ^١ في جهاد عبدة الأصنام ، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٥) أخذ الاعتزام ، فأمدّنا الله تعالى في ذلك بتوالي البشائر ، ونصرنا باللطاف أغنى فيها خلوص الضمائر عن قود العساكر ، ونفلنا على أيدي قوادنا ورجالنا من السبابا والغنائم ما غدا ذكره في الآفاق كالمثل السائر ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) وكيف يُحصيها المحصي أو يحصرها الحاصر ، وحين أبدت لنا العناية الربانية وجوه الفتح سافرة المحيّا ، وانتشقتنا نسائم النصر^٢ الممنوح عبقة الريّا ، استخرنا الله تعالى في الغزو بنفسنا^٣ ونعم المستخار ، وكتبنا بما قد علمتم^٤ إلى ما قرب من أعمالنا بالخصّ على الجهاد والاستنفار ، وحين وافى من خفّ للجهاد من الأجناد والمطوعين ، وغدّوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة الله مجتمعين ، خرجنا بهم ونصر الله تعالى أهدي دليل ، وعناية الله تعالى بهذه الفئة المفردة من المسلمين تقضي بتقريب البعيد من آمالنا وتكثير القليل ، ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادة الرضى والقبول ، وأن يرشدنا إلى طريق تُفْضِي إلى بلوغ الأمانة والمأمول .

وهذه رسالة طويلة سقّنا بعضها كالعنوان لسائرها .

ونال ابن الحكيم — رحمه الله تعالى — من الرياسة والتحكّم في الدولة ما صار كالمثل السائر ، وخدمته العلماء الأكابر^٥ ، كابن خميس وغيره ، وأفاض عليهم سجال خيره ، ثم ردت الأيام منه ما وهبت ، وانقضت أيامه كأن لم تكن وذُهِبَ ، وقُتِلَ يوم خُلِعَ سلطانه ، ومُثِّلَ به سنة ٧٠٨ ، رحمه الله تعالى ،

١ الإحاطة : الجد والاجتهاد .

٢ الإحاطة : من النصر ... عقب .

٣ الإحاطة : بأنفسنا .

٤ بما قد علمتم : سقطت من الإحاطة .

٥ زاد في ق : الأخير .

وانتهب من أمواله وكتبه وتحفه ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى ، أثابه الله تعالى بهذه الشهادة بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم .

٢٤٥ - ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد أبي علي الحسن بن عبد العزيز بن هلال ، اللخمي ، الأندلسي ، ولد سنة ٥٧٧ هـ تقريباً ، ورحل فسمع بمكة من زاهر بن رستم ، وبيغداد من أبي بكر أحمد بن سكينه وابن طبرزد وطائفة ، وبواسط من أبي الفتح ابن المنداني ، وبأصبهان من عين الشمس الثقفية وجماعة ، وبخراسان من المؤيد الطوسي وأبي روح وأصحاب الفراوي وهذه الطبقة ، وخطه مليح مغربي في غاية الدقة . وكان كثير الأسفار ، ديناً متصوفاً كبير القدر ، قال الضياء في حقّه : رفيقنا وصديقنا ، توفي بالبصرة عاشر رمضان سنة ٦١٧ ، ودفن إلى جانب قبر سهل التستري رضي الله تعالى عنه ، وما رأينا من أهل المغرب مثله ، وقال ابن نقطة : كان ثقة فاضلاً ، صاحب حديث وسنة ، كريم الأخلاق ، وقال مفضل القرشي : كان كثير المروءة غزير الإنسانية ، وقال ابن الحاجب : كان كيّس الأخلاق ، محبوب الصورة ، لين الكلام ، كريم النفس ، حلو الشمائل ، محسناً إلى أهل العلم بماله وجاهه ، وقيل : إنه أوصى بكتبه لأشرف المرُسي ، رحمه الله تعالى .

٢٤٦ - ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ، أبو بكر ابن العربي الإشبيلي^١ ، حفيد القاضي الحافظ الكبير أبي بكر ابن العربي . قرأ لنافع على قاسم ابن محمد الزقاق صاحب شريح ، وحج فسمع من السلفي وغيره ، ثم رحل بعد نيّف وعشرين سنة إلى الشام والعراق ، وأخذ عن عبد الوهاب بن سكينه وطبقته ، ورجع فأخذوا عنه بقرطبة وإشبيلية ، ثم سافر سنة ٦١٢ ، وتصوّف

١ ترجمة ابن العربي الحفيد في التكملة : ٦٠٣ .

وتعبّد . وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٧ . قاله الذهبي في تاريخه الكبير .

٢٤٧ — ومن المرتحلين من الأندلس يحيى بن عبد العزيز ، المعروف بابن الحرّاز ، أبو زكريا ، القرطبي ^١ . سمع من العتيبي وعبد الله بن خالد ونظرائهما من رجال الأندلس . ورحل فسمع بمصر من المُرزّني والربيع بن سليمان المؤذن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله ابن ميمون وعبد الغني بن أبي عقيل وغيرهم . وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز ، وكانت رحلته ورحلة سعيد بن عثمان الأعنّاتي وسعيد بن حميد وابن أبي تمام واحدة ، وسمع الناس من يحيى المذكور مختصر المزي ورسالة الشافعي وغير ذلك من علم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وكان يميل في فقهه إلى مذهب الشافعي ، وكان مُشاوِراً مع عبيد الله بن يحيى وأضرابه ، وحدث عنه من أهل الأندلس محمد بن قاسم وابن بشر ^٢ وابن عباد وغير واحد . ولم يسمع منه ابنه محمد لصغره ، وتوفي سنة ٢٩٥ . رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٢٤٨ — ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل الكامل الزاهد الورع ، العلامة جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، البكري ، الشريشي ، المالكي ، كان من أكابر الصالحين المتورعين : ومولده سنة ٦٠١ بشريش ، وتوفي برباط الملك الناصر بسفح قاسيون سنة ٦٨٥ في ٢٤ رجب ، ودفن قبالة الرباط . وله المصنفات المفيدة ، تولّى مشيخة الصخرة بحرم القدس الشريف ، وقدم دمشق ، وتولى مشيخة الرباط الناصري ، فلمّا توفي قاضي القضاة جمال الدين المالكي ولوه مشيخة المالكية بدمشق ، وعرضوا عليه القضاء فلم يقبل ، وبقي في المشيخة إلى أن توفي ، رحمه الله تعالى ونفعنا به وبأمثاله ، آمين .

١ ترجمة ابن الحرّاز في ابن الفريسي ٢ : ١٨٢ ؛ وفي دوزي : الحرّاز .

٢ يعني أحمد بن بشر الأغبس .

٢٤٩ - ومن الراجلين من الأندلس الفقيه الصالح أبو بكر ابن محمد بن

علي بن ياسر ، الجياني ، المحدث الشهير .

ذكره ابن السمعاني وغيره ، سافر الكثير ، وورد العراق ، وطاف في بلاد خراسان ، وسكن بلخ ، وأكثر من الحديث ، وحصل الأصول ، ونسخ بخطه ما لا يدخل تحت حصر ، قال ابن السمعاني : وله أنس ومعرفة بالحديث ، لقيته بسمرقند ، وكان قد قدمها سنة ٥٤٩ مع جماعة من أهل الحجاز لدين له عليهم ، وسمعت منه جزءاً أخرجه من حديث يزيد بن هرون ممّا وقع له عالياً ، وجزءاً صغيراً من حديث أبي بكر ابن أبي الدنيا ، وأحاديث أبي بكر الشافعي في أحد عشر جزءاً المعروف بالغيلانيات بروايته عن ابن الحصين عن ابن غيلان ، وكان مولده بيجيان سنة ٤٩٣ [أوفي التي بعدها ، الشك منه ، ثم لقيته بنسّف في أواخر سنة خمسين]^١ ولم أسمع منه شيئاً ، ثم قدم علينا في^٢ بخارى في أوائل سنة إحدى وخمسين وسمعت من لفظه جميع كتاب الزهد لهناد بن السري الكوفي بروايته عن أبي القاسم سهل بن إبراهيم المسجدي عن الحاكم أبي عبد الرحمن محمد بن أحمد الشاذلي عن الحاكم أبي الفضل محمد بن الحسين الحدّادي عن حماد بن أحمد السلمي عن مصنفه ، وأخبرنا الجياني بسمرقند ، أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد بن الحصين الكاتب ببغداد ، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار ، أخبرنا^٣ أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، أخبرنا^٤ محمد بن مسلمة ، أنبأنا يزيد بن هرون ، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ناداهم مناد : يا أهل الجنة ، إن

١ ما بين معقنين ساقط من ق ودوزي ، ومثبت في التجارية .

٢ في : سقطت من ق .

٣ ق : أنبأنا .

٤ ق : حدثنا .

لكم عند الله موعداً لم تروه ، قالوا : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا وبييض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويُنْجِنَا من النار ؟ قال : « فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » ثم تلا هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس : ٢٦) .

وقال ابن السمعاني أيضاً : وأخبرنا الجياني المذكور بسمرقند ، أنبأنا هبة الله بن محمد بن عبد الواحد ببغداد ، أنبأنا أبو طالب ابن غيلان ، أنبأنا أبو بكر الشافعي ، أنبأنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي ، أنبأنا محمد بن حسان ، أنبأنا مبارك بن سعيد ، قال : أردت سفراً ، فقال لي الأعمش : سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَرْزُقَكَ صَحَابَةَ صَالِحِينَ ، فإن مجاهداً حدثني قال : خرجت من واسط فسألت ربي أن يرزقني صحابة ، ولم أشرط في دعائي ، فاستويت أنا وهم في السفينة فإذا هم أصحاب طنابير .

وقال ابن السمعاني أيضاً : أخبرنا أبو بكر الجياني المغربي بسمرقند ، سمعتُ الإمام أبا طالب لإبراهيم بن هبة الله ببلخ يقول : قرأت على أبي يعلى محمد بن أحمد العبدى بالبصرة قال : قرأت على شيخنا أبي الحسين ابن يحيى في كتاب « العين » بإسناده إلى الخليل بن أحمد أنه أنشد قول الشاعر :

إِنَّ فِي بَيْتِنَا ثَلَاثَ حَبَالِي فوددنا أن قد وَضَعْنَ جميعاً
زوجتي ثُمَّ هَرَقِي ثُمَّ شَاتِي فإذا ما وَضَعْنَ كَنَ ربيعاً
زوجتي للخبيص ، والمهر للفا رِ ، وشَاتِي إذا اشتهينا جميعاً

قال أبو يعلى : قال شيخنا ابن يحيى : وذكر عن الخليل بن أحمد في العين أن الجميع أكل التمر بالابن ، انتهى .

٢٥٠ - ومنهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن سعيد بن حزم ، الأندلسي ، المري ، ذكره الحُمَيْدِي في تاريخه وأُفْنِي

عليه ، وقال ^١ : كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمة العالية [في طلب العلم] ^٢ ، وكتب بالأندلس فأكثر ، ورحل إلى المشرق فاحتفل في العلم والرواية والجمع .

وذكره الحافظ الخطيب أبو بكر [أحمد بن علي] ^٣ بن ثابت البغدادي ، وقال : هو من بيت جلالة وعلم ورياسة ، وأخرج عنه في غير موضع من مصنفاته ، وقدم بغداد ودمشق وحدث فيهما ، ثم عاد إلى المغرب فتوفي ببلده المرية سنة ٤٥٤ ، وحدث عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري ، ويعرف بابن الإفيلي ، الأندلسي النحوي وغيره ، وكان صدوقاً ثقة ، رحمه الله تعالى ^٤ .

٢٥١ - ومنهم أبو زكريا يحيى بن قاسم بن هلال ، القرطبي ^٥ ، الفقيه المالكي أحد الأئمة الزهاد ، كان يصوم حتى يخضر ، توفي سنة ٢٧٢ ، وقيل : سنة ٢٧٨ ، ورحل إلى المشرق ، وسمع من عبد الله بن نافع صاحب مالك بن أنس ، ومن سحنون بن سعيد ، وغيرهما ، وكان فاضلاً فقيهاً عابداً عالماً بالمسائل ، وروى عنه أحمد بن خالد ، وكان يفضله ويصفه بالفضل والعلم ، وهو صاحب الشجرة ، قال عباس بن أصبغ : كانت في داره شجرة تسجد لسجوده إذا سجد ، قاله ابن الفرضي رحمه الله تعالى ، ورضي عنه ، ونفعنا به .

٢٥٢ - ومنهم أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانة ، الفزاري ، الإلبيري ،

١ ترجمة العلاء بن عبد الوهاب في جذوة المقتبس : ٢٩٨ (وبنية الملتبس رقم : ١٢٤١) وتاريخ بغداد ، والصلة : ٤٢١ .

٢ ما بين معقفين ساقط من ق .

٣ ما بين معقفين ساقط من ق .

٤ بعد هذه الترجمة وردت في ق ترجمة لأبي حفص عمر بن الحسن الهوزني وهي ترجمة مكررة نصاً وقد وردت رقم : ٥٠ ، ولذلك لم نجد ضرورة لإثباتها ، وكذلك سقطت عند دوزي .

٥ ترجمة يحيى بن قاسم بن هلال في جذوة المقتبس : ٣٥٥ (وبنية الملتبس رقم : ١٤٨٧) وابن الفرضي ٢ : ١٨٠ .

الزاهد^١ ، سكن قرطبة ، قال ابن الفرضي : كان منقطع القرين في العبادة ، بعيد الاسم في الزهد ، حججاً ، وعُني بعلم القرآن والقراءات والتفسير ، وسمع بمصر من الأسيوطي وابن الورد وابن شعبان وغيرهم ، وكان له حظ من الفقه والرواية إلا أن العبادة غلبت عليه ، وكان العمل أملك به ، ولا أعلمه حدث ، توفي رحمه الله تعالى سنة ست وستين وثلاثمائة ، ودفن في مقبرة الربض ، وصلى عليه القاضي محمد بن إسحاق بن السليم ، ثم صلى عليه حيّان مرة ثانية ، رحمه الله تعالى وأفاض علينا من أنوار عنايته آمين .

٢٥٣ — ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم ، الصديقي ، الإشبيلي^٢ ، الأديب البارع ، له نظم حسن ، وموشحات رائقة ، قرأ على الأستاذ الشلوين وغيره ، ومدح الملوك ، ورحل من الأندلس فقدم ديار مصر . ومدح بها بعض من كان يوصف بالكرم ، فوصله بنزّر يسير ، فكرر راجعاً إلى المغرب ، فتوفي ببرقة ، رحمه الله تعالى ، وكان من النجباء في النحو وغيره .

ومن نظمه من قصيدة :

ما بني مَوَارِدُ أَمْسٍ ^٣ بل مَصَادِرُهُ	اللَّحْظُ أَوَّلُهُ وَاللَّحْدُ آخِرُهُ
أرسلتُ طرنيَ مرتاداً فطلَّ دمي	روضٌ من الحسنِ مَطْلُولٌ أَزَاهِرُهُ
رَعَيْتُ فِي خَصْبِهِ لَحْظِي فَأَعْقَبَنِي	جَدْباً بِجَسَمِي مَا يَرُوهُ هَامِرُهُ
وبي وإن لم أكن بالذِّكْرِ أَشْهَرُهُ	فالوصف فيه لفقد المثل شَاهِرُهُ

وهي طويلة ، وأننى عليه أثير الدين أبو حيّان . وأورد جملة من محاسن كلامه وبدائع نظامه ، رحم الله تعالى الجميع .

١ ترجمة يحيى بن مجاهد في ابن الفرضي ٢ : ١٨٨ وجذوة المقتبس : ٣٥٦ (وبغية الملتبس رقم : ١٤٩٠) .

٢ ترجمة أبي بكر الصديقي في الوافي ٢ : ١٣٥ .

٣ الوافي : حبي ، التجارية : أمر .

٢٥٤ - ومنهم أبو يحيى زكريا بن خطاب ، الكلبي ، التُّطَيْلي^١ ، رحل سنة ٢٩٣ ، فسمع بمكة كتاب « النسب » للزبير بن بكار من الجرجاني الذي حدث به عن علي بن عبد العزيز بن الحمحي عن الزبير ، وروى موطأ مالك ابن أنس رواية أبي مصعب أحمد بن عبد الملك الزهري عن إبراهيم بن سعيد الحذاء ، وسمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيباني والقزاز في آخرين ، وقدم الأندلس فكان الناس يرحلون إليه إلى تَطِيلَةَ السماع منه ، واستقدمه المستنصر الحكم وهو ولي عهد فسمع منه أكثر مروياته ، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأموناً ، ولي قضاء بلده تَطِيلَةَ إحدى مدائن الأندلس بعد عمر بن يوسف ابن الإمام .

٢٥٥ - ومنهم سعد الخير بن محمد بن سعد ، أبو الحسن ، الأنصاري ، البَلَسَنِي ، المحدث^٢ ، رحل إلى أن دخل الصين ، ولذا كان يكتب البَلَسَنِي الصيني ، وركب البحار ، وقاسى المشاق ، وتفقه ببغداد على أبي حامد الغزالي ، وسمع بها أبا عبد الله التَّعَالِ وطراداً وغيرهما ، وبأصبهان أبا سعد المطرز ، وسكنها وتزوج بها وولدت له فاطمة بها ، ثم سكن بغداد ، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وأبو موسى المديني وأبو اليمن الكندي وأبو الفرج ابن الجوزي وابنته فاطمة بنت سعد الخير في آخرين ، وتأدب على أبي زكريا التبريزي ، وتوفي في المحرم سنة ٥٤١ ، رحمه الله تعالى ، ببغداد ، وصلى عليه الغزنوي والشيخ الواعظ بجامع القصر ، وكان وصيه ، وحضر جنازته قاضي القضاة الزيني والأعيان ، ودفن إلى جانب عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهم أجمعين بوصية منه .

١ ترجمة زكريا بن خطاب في جذوة المقتبس : ٢٠٢ (وبغية الملتبس رقم : ٤٧٣) وابن الفرضي ١ : ١٧٦ .
٢ ترجمة سعد الخير البلسني في الذيل والتكملة ٤ : ١٦ ، والتكملة رقم : ٢٠١١ .

٢٥٦ - ومنهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون ، الإستجي^١ ،
سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وابن أبي دليم وغيرهما ، ورحل فسمع بمكة من
ابن الأعرابي ، وببغداد من أبي علي الصفار وجماعة ، وبها مات .

٢٥٧ - ومنهم أبو عثمان سعيد الأعناني ، ويقال : العناني ، القرطبي^٢ ،
كان ورعاً زاهداً عالماً بالحديث بصيراً بعلله ، سمع من محمد بن وضاح وصحبه ومن
يحيى بن إبراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الحشني وغيرهم ، ورحل فلقبي
جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق كتب عنه مسند أسد بن موسى
وغير ذلك من كتبه ، ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم
والحارث بن مسكين في آخرين ، وحدث عنه أحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد
ابن قاسم وابن أبي زيد في عدد كثير ، ومولده سنة ٢٣٣ ، وتوفي سنة ٣٠٥
بصفر .

والأعناني : نسبة إلى موضع يقال له أعناق وعناق .

٢٥٨ - ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف ، التجيبي ، الإقليشي^٣ ،
روى عن أبي عثمان سعيد بن سالم المجريطي وأبي ميمونة دراس بن إسماعيل
فقيه فاس ، ورحل حاجاً سنة ٣٤٩ ، فسمع بمكة من أبي بكر الآجري وأبي
حفص الجمحي ، وبمصر من أبي إسحاق ابن شعبان ، وروى عنه كتاب « الزاهي »
جميعه وقد قرئ عليه جميعه ، وحمل عنه ، ومولده سنة ٣٠٣ ، رحمه الله تعالى .

١ ترجمة سعيد بن نصر الإستجي في الصلة : ٢٠٣ وجذوة المقتبس : ٢١٧ (رقم : ٤٨٤) وبغية
الملتبس (رقم : ٨٢٢) وقال ابن بشكوval والحميدي : توفي ببخارى سنة ٣٥٠ .

٢ ترجمة سعيد الأعناني في جذوة المقتبس : ٢١٤ (وبغية الملتبس رقم : ٨٠٣) وابن الفرضي
١ : ١٩٥ ، وهو سعيد بن عثمان بن سعيد بن سليمان التجيبي الأعناني .

٣ ترجمة عبد الرحمن الإقليشي في ابن الفرضي (١ : ٣١٠) .

٤ كذا في ق ودوزي ؛ وفي ابن الفرضي ثلاثمائة ؛ وفي التجارية : ٣١٣ .

٢٥٩ - ومنهم أبو الأصبع عبد العزيز بن علي ، المعروف بابن الطحان ،
الإشبيلي ، المقرئ^١ ، ولد بإشبيلية سنة ٤٩٨ ، ورحل فدخل مصر والشام وحلبا ،
وتوفي بحلب بعد سنة ٥٥٩ ، وله كتاب « نظام الأداء في الوقف والابتداء » ،
ومقدمة في مخارج الحروف ، ومقدمة في أصول القراءات ، وكتاب « الدعاء » ،
وكان من القراء المجوِّدين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات ، وسمع
الحديث على شريح بن محمد بن أحمد بن شريح الرعيني خطيب إشبيلية وأبي
بكر يحيى بن سعادة القرطبي .

وله شعر حسن منه قوله :

دع الدنيا لعاشِقِها سيصبحُ منْ رِشائِقِها
وعادَ النفسَ مصطبراً ونكَّبَ عن خلائِقِها
هلاكَ المرءُ أنْ يُضْحِي مُجِدّاً في علائِقِها
وذو التقوى يُدَلِّلُها فيسلمُ من بوائِقِها

وأخذ القراءات ببلده عن أبي العباس ابن عيَّشُون وشريح بن محمد ، وروى
عنهما وعن أبي عبد الله ابن عبد الرزّاق الكلبي ، وروى مصنّف النسائي عن
أبي مروان ابن مسرّة ، وتصدّى للإقراء ، ثم انتقل إلى فاس ، وحج ودخل
العراق ، وقرأ بواسط القراءات وأقرأها أيضاً ، ودخل الشام واشتهر ذكره ،
وجلّ قدره ، وروى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الحافظ ، وعلي بن يونس ،
قال بعضهم : سمعت غير واحد يقول : ليس بالغرب أعلم بالقراءات من ابن
الطحان ، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبي العلاء وأبو طالب ابن عبد السميع
وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع .

١ ترجمة ابن الطحان في التكملة رقم : ١٧٥٩ (ص : ٦٢٨) قال : ويعرف بالطحان وبابن الحاج
ويكنى أبا محمد وأبا الأصبع ، رحل من إشبيلية بعد سنة ٥٥٤ وله من المؤلفات : « شعار الأخيار
الأبرار في التسبيح والاستغفار » . وانظر غاية النهاية ١ : ٣٩٥

٢٦٠ - ومنهم أبو الأصبع عبد العزيز بن خلف ، المعافري^١ ، قدم مصر سنة ٥٠٢ ، وولد سنة ٤٤٨ ، وحدث بالموطأ عن سليمان بن أبي القاسم ، أنبأنا أبو عمر ابن عبد البر ، أنبأنا سعيد بن نصر . عن قاسم بن أصبغ عن محمد ابن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، رضي الله تعالى عنه .

٢٦١ - ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة ، السعدي ، الشاطبي^٢ ، قدم مصر ودمشق طالب علم ، وسمع أبا الحسن ابن أبي الحديد وأبا منصور العكبري وغيرهما ، وصنف^٣ غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم ، وسمعه عليه أبو محمد الأكفاني ، وتوفي بأرض حوران من أعمال دمشق في رمضان سنة ٤٦٥ ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٢٦٢ - ومنهم الحكيم الطيب أبو الفضل محمد عبد المنعم ، الغساني ، الجلياني^٤ ، وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسان ، ولد بقرية جليانة من أعمال غرناطة سابع المحرم سنة ٥٣١ ، وقدم إلى القاهرة ، وسار إلى دمشق فسكنها مدة ، ثم سافر إلى بغداد فدخلها سنة ٦٠١ ، ونزل بالمدرسة النظامية ، وكتب الناس عنه كثيراً من نظمه ، وكان أديباً فاضلاً ، له شعر مليح المعاني أكثره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات ، وكان طبيباً حاذقاً ، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن ، وله كلام مليح على طريق القوم ، وكان مليح السمّت ، حسن الأخلاق ، لطيفاً ، حاضر الجواب ،

١ ترجمة عبد العزيز بن خلف في التكملة رقم : ١٧٤٢ (ص : ٦٢٤) .

٢ ترجمة عبد العزيز السعدي في التكملة رقم : ١٧٣٩ (ص : ٦٢٣) وذكره ابن عساكر .

٣ الصواب : ورتب ، كما في التكملة .

٤ هذا هو حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني الذي مرت ترجمته رقم : ٢٣٨ ولكن هذه الترجمة هنا أكثر إسهاباً ، وقد ذكرنا في الحاشية هنالك مصادر ترجمته ولا أدري كيف وقع في اسمه « محمد » ولعله محمد [أو] عبد المنعم ، لقول المقرئ من بعد : « وسأه بعضهم عبد المنعم » .

ومات بدمشق سنة ٦٠٢ ، وكان يقال له : حكيم الزمان ، وأراد القاضي الفاضل أن يَغْضَّ منه فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب : كم بين جليانة وغرناطة ؟ فقال : مثل ما بين بيسان وبيت المقدس .

ومن شعره قوله :

خَبَرْتُ بَنِي عَصْرِي عَلَى الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ
فَأَنْتَجَ لِي فِيهِمْ قِيَاسِي تَخْلِيًّا
أَلْأَزَمُ كِسْرَ الْبَيْتِ خِلْوًا ، وَإِنْ يَكُنْ
أَرَى الشَّخْصَ مِنْ بَعْدِ فَأَغْضِي تَغَافُلًا
وَبِحَسْبِي فِي غَفْلَةٍ وَفِرَاسَتِي
أُجَانِبُهُمْ سَلَمًا لَيْسَلِمَ جَانِبِي
تَخَلَّيْتُ عَنْ قَوْمِي وَلَوْ كَانَ مُمْكِنِي
وَكَاشَفْتُهُمْ كَشَفَ الطَّبَائِعِ بِالنَّبْضِ
عَنِ الْكُلِّ إِذْ هُمْ أَقَةُ الْوَقْتِ وَالْعَرِضِ
خُرُوجُ فُقْرَدًا مَلْصَقَ الطَّرْفِ بِالْأَرْضِ
كَمَشْدُوهِ بَالٍ فِي مَهْمَتِهِ يَمْضِي
عَلَى الْفُورِ مِنْ لَحْيٍ بِمَا قَدْ نَوَى تَقْضِي
وَلَيْسَ لِحِقْدٍ فِي النُّفُوسِ وَلَا بَغْضِ
تَخَلَّيْتُ عَنْ بَعْضِي لَيْسَلِمَ لِي بَعْضِي

وقال :

قَالُوا نَرَاكَ عَنِ الْأَكَابِرِ تُعْرِضُ
قُلْتُ الزِّيَارَةُ لِلزَّمَانِ إِضَاعَةٌ
إِنْ كَانَ لِي يَوْمًا إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ
وَسَوَاكَ زَوَّارٌ لَهُمْ مُتَعَرِّضُ
وَإِذَا مَضَى زَمْنٌ فَمَا يَتَعَوَّضُ
فَبِقَدْرِ مَا ضَمِنَ الْقَضَاءُ تَقْيِئُضُ

وقال :

حَاوِلْ مَفَازَكَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَا
إِنَّ الْمَيَّ مِنَ الْمَيَّةِ لَفْظُهُ
فَالْحَالُ آخِرُهَا كَحَالِكَ أَوَّلَا
لَتَدُلَّ فِي أَصْلِ الْبِنَاءِ عَلَى الْبَلَى

وسماه بعضهم عبد المنعم ، وذكره العماد في « الحريدة » وقال : هو صاحب البدیع البعيد ، والتوشیح والترشیح ، والترصیع والتصریع ، والتجنيس والتطبيق ، والتوفيق والتلفيق ، والتقريب والتقريب ، والتعريف والتعريب ، وهو مقيم

بدمشق ، وقد أتى العسكر المنصور الناصري سنة ٥٨٦ بظاهر ثغر عكا ، وكتب إلى السلطان صلاح الدين وقد جرح فرسه :

أيا ملكاً أفنى العُدَّةَ حُسَامُهُ وَمُنْتَجِعاً أَقْنَى العُفَاةَ ابْتِسَامُهُ
لِقَاؤِكَ يوماً فِي الزَّمانِ سَعَادُهُ فكيف بثاؤي فِي حماكَ حِمَامُهُ
وعبدُكَ شاكٍ دَيْنَهُ وهو شاكِرٌ نذاك الذي يُغْنِي الغمامَ غِمَامُهُ
وليَ قَرَسٌ أَصْمَاهُ سَهْمٌ فَرَدَّهُ أثافي ربيعٍ بالثلاث قِيَامُهُ
تعمَّرَ فِيهِ بالجرَاحَةِ سَاحَةُ وعُطِّلَ مِنْهُ سَرَجُهُ وِلْجَامُهُ
أَتَيْنَا لما عَوَدْتَنَا مِنْ مَكَارِمِ يلوذُ بها الرَّاجِي فيشفي غَرَامُهُ
فَرُحْمَاكَ غوثٌ لا يَغِيبُ نَصِيرُهُ ونِعْمَاكَ غِيثٌ لا يَغِيبُ انْجِصَامُهُ

وله رحمه الله تعالى غير هذا ، وترجمته واسعة .

٢٦٣ - ومنهم الأستاذ أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس القرطبي ، مؤلف « المفتاح » في القراءات ، ومقرئ أهل قرطبة^١ ، رحل وقرأ القراءات على أبي علي الأهوازي ، وبحرَّانَ على أبي القاسم الرِّيْدي ، وبمصر على أبي العباس ابن نفيس ، وبمكة على أبي العباس الكازريني ، وسمع بدمشق من أبي الحسن ابن السمسار ، وكان عجباً في تحرير القراءات ومعرفة فنونها ، وكانت الرحلة إليه في وقته ، ولد سنة ٤٠٣ ، ومات في ذي القعدة سنة ٤٦١^٢ ، قرأ عليه أبو القاسم خلف ابن النحاس وجماعة ، رحمه الله تعالى .

٢٦٤ - ومنهم عبيد الله ، وقيل : عبد الله ، بغير تصغير ، ابن المظفر بن عبد الله بن محمد ، أبو الحكم ، الباهلي ، الأندلسي^٣ ، ولد بالمريّة سنة ٤٨٦ ،

١ ترجمة عبد الوهاب بن محمد القرطبي في الصلة : ٣٦٢ وغاية النهاية ١ : ٤٨٢ .

٢ الصلة : ٤٦٢ .

٣ ترجمة الحكيم المغربي في وفيات الأعيان ٢ : ٣٠٧ والخريدة (القسم الرابع ١ : ٣٦٩) وابن أبي أصيبعة ٢ : ٢٤٠ .

وحج سنة ٥١٦ وحج أيضاً سنة ٥١٨ ، ودخل دمشق وقرأ بصعيد مصر وبالإسكندرية ، ثم مضى إلى العراق ، وأقام ببغداد يعلم الصبيان وخدم السلطان محمود بن ملك شاه سنة ٥٢١ ، وأنشأ له في معسكره مارستاناً يُنقل على أربعين جملاً ، فكان طبيبه ، ثم عاد إلى دمشق ومات بها سنة ٥٤٩ ، ودفن بباب الفراديس ، وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة ، وله ديوان شعر سماه « نهج الوضاعة لأولي الخلاعة » ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصوري ونصر الهيتي وغيرهما كعرقلة ، وفيه نزهات أدبية ، ومفاكهات غريبة ، ممزوج جدّها بسخفها ، وهزلها بظرفها ، ورثى فيه أنواعاً من الدواب وأنواعاً من الأثاث وخلقاً من المغنين والأطراف ، وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبي الحكم الملقب بأفضل الدولة ، وكان كثير الهزل والمداعبة ، دائم اللهو والمطايبة ، وكان إذا أتاه الغلام وما به شيء فيجس نبضه ثم يقول له : تصلح لك الهريسة ، وكان أعور فقال فيه عرقلة :

لنا طيّبٌ شاعرٌ أعورٌ أراحنا من طبه اللهُ
ما عاد في صبحه يومٌ فتى إلا وفي باقيه رثاهُ

وله أيضاً يرثيه :

يا عينُ سُحِّيْ بدمعٍ ساكبٍ ودمٍ على الحكيم الذي يكنى أبا الحكمِ
قد كان لا رَحِمَ الرحمنُ شيبته ولا سقى قبره من صيب الدِّيمِ
« شيخاً يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً ويستحلُّ دم الحجاج في الحرمِ »

ومن كنايات أبي الحكم المستحسنة قوله :

ألم ترني أكابدُ فيك وجدي وأحملُ منك ما لا يُستطاعُ

إذا ما أنجمُ الجوّ استقلتُ ومال الدلوُ وارْتَفَعَ الذراعُ

ومن شعره قوله :

محاسنُ العالم قد جُمِعَتْ في حُسْنِهِ المستكمل البارِعِ
وليس لله بمسْتَكْرٍ أن يجمعَ العالم في الجامعِ

٢٦٥ - ومنهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافي ، الغرناطي ، القيساني ، وقيسانة من عمل غرناطة ، الفقيه المالكي ، ولد سنة ٥٦٤ ، وقدم القاهرة وناب في الحسبة ، وله شعر حسن ، توفي بالقاهرة سنة ٦٣٤ ، رحمه الله تعالى .

٢٦٦ - ومنهم طالوت بن عبد الجبار ، المعافري ، الأندلسي ^١ ، دخل مصر ، وحج ولقي إمامنا مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه ، وعاد إلى قرطبة ، وكان ممن خرج على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن من أهل ربض شقندة يريد خلعه وإقامة أخيه المنذر ، وزحفوا إلى قصره بقرطبة ، فحاربهم ، وقتلهم ، وفرّ من بقي منهم ، فاستتر الفقيه طالوت عاماً عند يهودي ، ثم ترامى على صديقه أبي البسام الكاتب ليأخذ له أماناً من الحكم ، فوشى به إلى الحكم ، وأحضره إليه فعنفه ووبّخه ، فقال له : كيف يحل لي أن أخرج إليك وقد سمعت مالك بن أنس يقول : سلطان جائرٌ مدةٌ خيرٌ من فتنة ساعة ؟ فقال : الله تعالى لقد سمعتَ هذا من مالك ؟ فقال طالوت : اللهم إنّي قد سمعته ، فقال : انصرف إلى منزلك وأنت آمن ، ثم سأله : أين استتر ؟ فقال : عند يهودي مدة عام ، ثم إنّي قصدت هذا الوزير فغدر بي ، فغضب الحكم على أبي البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً أن لا يخدمه أبداً ، فروي أبو البسام بعد ذلك في فاقة وذل ، فقيل : استجيب فيه دعوة الفقيه طالوت ، رحمه

١ ترجمة طالوت في الذيل والتكملة ٤ : ١٥٠ والتكملة : ٣٤٥ وابن القوطية : ٧٥ .

الله تعالى .

٢٦٧ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد ، ضياء الدين ونظامه ، ابن خروف الأديب ، القيسي ، القرطبي ، القيداني ، الشاعر^١ ، قدم إلى مصر ، ثم سار إلى حلب ومات بها متردياً في جب حنطة سنة ٦٠٢ ، وقيل : في التي بعدها ، وقيل : سنة خمس وستمئة ، وله شرح كتاب سيويه ، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار^٢ ، وله شرح جمل الزجاجي ، وكتب في الفرائض ورد^٣ على أبي زيد السهيلي ، وغير ذلك^٤ ، ومدح الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ومدح الظاهر ابن الناصر أيضاً .

وشعره جيد ، فمنه قوله في كأس^٥ :

أنا جسمٌ للحُمَيَّا والحُمَيَّا ليَ رُوحُ
بينَ أهلِ الظرفِ أغدو كلَّ يومٍ وأروحُ

١ المسمى علي بن محمد بن علي بن محمد المشهور بابن خروف وبالدريدنة ، له ترجمة في الذيل والتكملة ٥ : ٣١٩ وصلة الصلة : ١٢٢ والتكملة رقم : ١٨٨٤ ووفيات الأعيان ٣ : ٢٢ وبرنامج الرعيي ٨١ وجنوة الاقتباس : ٣٠٧ ومعجم الأدباء ١٥ : ٧٥ وهذا هو ابن خروف النحوي الحضرمي الإشبيلي الذي توفي بإشبيلية سنة ٦٠٩ أما الشاعر فإن اسمه علي بن محمد بن يوسف بن خروف القرطبي وله ترجمة في صلة الصلة : ١١٤ ، والتكملة رقم : ١٨٩٤ والذيل والتكملة ٥ : ٣٩٦ ومسالك الأبصار ١١ : ٤٨٠ وهذا هو المقرئ يخلط بين الاسمين فيترجم للشاعر تحت اسم النحوي وقد وقع في هذا الخلط ابن شاكر في الفوات ٢ : ١٦٠ والسيوطي في بغية الوعاة ٣٥٤ وابن الساعي في الجامع المختصر : ٣٠٦ .

٢ وله . . . دينار سقط من ق .

٣ قلت : صاحب هذه الشروح هو ابن خروف النحوي لا الشاعر ، وشرحه على سيويه يسمى « تنقيح الأبواب في شرح غوامض الكتاب » قال ابن عبد الملك : وكان كثير العناية بالرد على الناس فرد على إمام الحرمين . . . وأبي القاسم السهيلي .

٤ الفوات : ١٦٠ .

وقال^١ في صبي حبس :

أقاضي المسلمين حكمت حكماً غدا وجه الزمان به عبوساً
حبست على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ سلب النفوسا

وقال :

ما أعجب النيل ما أحلى شمائله في صفته من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فيأض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعموا وإنما هي أرزاق وأرباح

والقيضي : بقاف ، ثم ياء آخر الحروف ، بعدها ذال معجمة ، ثم ألف ،
وفاء . وله رسالة كتب بها إلى بهاء الدين بن شداد بحلب يطلب منه فروة ، وهي :

بهاء الدين والدنيا ونور المجد والحسب
طلبت مخافة الأنوا من جدك جلد أبي
وفضلك عالم أني خروف بارع الأدب
حلبت الدهر أشطره وفي حلب صفا حلي

ذو الحسب الباهر ، والنسب الزاهر ، يسحب ذيول سير السراء ، ويحب النجاة
من أجل الفراء^٣ ، ويعن على الحروف النبيه ، بجلد أبيه ، قاني الصباغ ،
قريب عهد^٤ بالدباغ ، ما ضل طالب قرظه ولا ضاع ، بل ذاع ثناء صانعه
وضاع ، إذا طهر إهابه ، يخافه البرد ويهابه ، أثيث خمائل الصوف ، يهزأ

١ ق : وله ؛ والبيتان في الفوات أيضاً وكذلك سائر ما أورد له المقرئ من شعر ولم يورد في الفوات رسالته .

٢ ق ودوزي : من حسناك .

٣ ق ودوزي : ويحب النجاة من أهل (أجل) القراء ، وهو مصحف .

٤ ق : العهد .

بكل هَوَجاء عصفوف ، ما في اللباس له ضريب ، إذا نزل الجليد والضريب ،
ولا في الثياب له نظير ، إذا عري من ورقه الغصنُ النَّضِير ، والمولى يبعثه فرجياً
النوع ، أرجي الضوع ، يكون تارة لحافاً وتارة بُرداً ، وهو في الحالين يحمي
حرّاً ويميت بُرداً ، لا كطَيْلسان ابن حرب ، ولا كجلد عمرو الممزق
بالضرب ، إن عزاه السواد إلى حام فحام ، أو نماء البياض إلى سام فسام ، كأنه
من جلد جمل الحرباء ، الذي يرعى القمر والنجم ، لا من جلد السَّخْلَة
الحرباء ، التي ترعى الشجر والنجم ، لا زال مهديه سعيداً ، ينجز للأخيار
وعداً وللأشرار وعيداً ، بالمنة والطَّوْل ، والقوَّة والحَوْل .

٢٦٨ - ومنهم مالك بن مالك ، من أهل جيان ، رحل حاجتاً فأدى الفريضة ،
وسكن حلب ، ولقي عبد الكريم بن عمران ، وأنشد له قوله :

يَا رَبَّ خُذْ بِيَدِي مِمَّا دُفِعْتُ لَهُ فَلَسْتُ مِنْهُ عَلَى وَرْدٍ وَلَا صَدَرِ
الْأَمْرِ مَا أَنْتَ رَائِيهِ وَعَالِمُهُ وَقَدْ عَتَبْتُ وَلَا عَتَبْتُ عَلَى الْقَدْرِ
مَنْ يَكْشِفُ السُّوءَ إِلَّا أَنْتَ بَارِئْنَا وَمَنْ يَزِيلُ بَصْفِي حَالَةَ الْكَدْرِ

٢٦٩ - ومنهم أبو علي ابن خميس ، وهو منصور بن خميس بن محمد بن
إبراهيم اللخمي من أهل المرية^١ . سمع من أبي عبد الله البوني^٢ وابن صالح ،
وأخذ عنهما القراءات ، وروى أيضاً عن الحافظ القاضي أبي بكر ابن العربي ،
وأبوي القاسم ابن رضا^٣ وابن ورد وأبي محمد الرشايطي وأبي الحجاج القضاعي
وأبي محمد عبد الحق بن عطية وأبي عمرو الخضر بن عبد الرحمن وأبي القاسم
عبد الرحمن^٤ بن محمد الخزرجي وغيرهم ، ورحل حاجتاً فترل الإسكندرية ،

١ ترجمة منصور بن خميس في التكملة : ٧١١ .

٢ التكملة : البوني .

٣ ق : وأبوي القاضي ابن رضي . . . الخ وهو خطأ .

٤ كذا في ق ودوزي ؛ وفي التكملة : وأبي القاسم عبد الرحيم ؛ التجارية : عبد الحق .

وسمع منه أبو عبد الله ابن عطية الداني سنة ٥٩٦ ، وحدث عنه بالإجازة أبو العباس العزفي وغيره .

٢٧٠ - ومنهم منصور بن لبّ بن عيسى ، الأنصاري^١ ، من أهل المريّة ، يكنى أبا علي ، أخذ القراءات ببلده عن ابن خميس المذكور قبله ، ورحل بعده ، فترل الإسكندرية ، وأجازه أبو الطاهر السلفي في صغره^٢ ، وقد أخذ عنه فيما ذكر بعضهم ، ومولده سنة ٥٧١ ، رحمه الله تعالى .

٢٧١ - ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج ، الماعفري^٣ ، من أهل قرطبة ، وهو جد ابن مفرج صاحب كتاب « الاحتفال بعلم الرجال » ، صحب المذكور محمد بن وضاح في رحلته الثانية ، وشاركه في كثير من رجاله ، وصدّر عن المشرق معه ، فاجتهد في العبادة ، وانتبذ عن الناس ، ثم كرّ راجعاً إلى مكّة عند موت ابن وضاح ، فترلها واستوطنها إلى أن مات^٤ ، فقبّره هنالك .

وقال في حقّه أبو عمر عفيف : إنّه كان من الصالحين ، رحل فحجّ وجاور بمكّة نحو عشرين سنة إلى أن مات بها ، رحمه الله تعالى .

٢٧٢ - ومنهم محب بن الحسين^٥ ، من أهل الثغر الشرقي ، كانت له رحلة حج فيها ، وسمع بالقيروان من أبي عبد الله ابن سفيان الكتاب « الهادي في القراءات » من تأليفه ، وكان رجلاً صالحاً ، حدث عنه أبو عبد الله محمد بن عبد

١ ترجمة منصور بن لب في التكملة : ٧١٢ .

٢ كذا في التكملة ؛ ق : في سفره .

٣ ترجمة مفرج بن حماد الماعفري في التكملة : ٧٢٠ ، قال : يعرف بالقبشي ، وحفيده هو الحسن ابن محمد بن مفرج أبو بكر .

٤ زاد في ق : بها .

٥ ترجمة محب بن الحسين في التكملة : ٧٣٤ .

الملك التجيبي من شيوخ أبي مروان ابن الصيقل .

٢٧٣ - ومنهم مساعد بن أحمد بن مساعد ، الأصبحي ^١ ، من أهل أوريولة ، يكنى أبا عبد الرحمن ، ويُعرف بابن زعوقة ، روى عن ابن أبي تليد وابن جَحْدَر ، والحافظين أبي علي الصدي وأبي بكر ابن العربي ، وكتب إليه أبو بكر ابن غالب بن عطية ، ورحل حاجاً في سنة أربع وتسعين وأربعمائة ، فأدى الفريضة سنة خمس بعدها ، ولقي بمكة أبا عبد الله الطبري ، فسمع منه صحيح مسلم ، مشتركاً في السماع مع أبي محمد ابن أبي جعفر الفقيه ، ولقي أبا محمد ابن العرجاء وأبا بكر ابن الوليد الطرطوشي وأصحاب الإمام أبي حامد الغزالي وأبا عبد الله المازري وجماعة سواهم ساوى بلقائهم مشيخته ، وانصرف إلى بلده فسمع منه الناس ، وأخذوا عنه لعلو روايته ، وكان من أهل المعرفة والصلاح والورع ، وممن حدث عنه من الجلة أبو القاسم ابن بَشْكُوَال ، وأبو الحجاج الثغري الغرناطي ، وأبو محمد عبد المنعم بن الفرس وغيرهم ، وأغفله ابن بَشْكُوَال فلم يذكره في الصلة مع كونه روى عنه ، وقال تلميذه أبو الحجاج الثغري الغرناطي : أخبرني أبو سليمان ابن حَوْط الله وغيره عنه ، قال : أخبرني الحاج أبو عبد الرحمن ابن مساعد رضي الله تعالى عنه : أنه لقي بالمشرق امرأة تُعرف بصباح عند باب الصفا ، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير ، فجاء بيت شعر شاهد ، فسألت : هل له صاحب ؟ فسألوا الشيخ أبا محمد ابن العرجاء ، فقال الشيخ : لا أذكر له صاحباً ، فأنشدت :

طلعت شمسٌ منْ أَحَبِّكَ لَيْلاً واستضاءت فما لها من مغيبِ
إنَّ شمسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ لـ شمسُ القلوبِ دون غروبِ

ولد في صفر سنة ٤٦٨ ، وتوفي بأوريولة سنة ٥٤٥ ، قاله ابن سفيان .

١ ترجمة مساعد بن أحمد الأصبحي في التكملة : ٧٣٦ .

٢٧٤ - ومنهم أبو حبيب نصر بن القاسم^١ . قال ابن الأبار : أظنه من أهل غرناطة ، له رحلة حج فيها ، وسمع من أبي الطاهر السلفي ، وحدث عنه عن ابن فتح بمسند الجوهري ، انتهى .

٢٧٥ - ومنهم النعمان بن النعمان ، المعافري^٢ ، من أهل مَيُورْقَة منسوب إلى جده ، رحل حاجاً فأدى الفريضة وجاور بمكة ثم قفل إلى بلده ، واعتزل الناس ، وكان يُشار إليه بإجابة الدعوة ، وتوفي سنة ٦١٦ رحمه الله تعالى ونفعنا به .

٢٧٦ - ومنهم نعم الخلف بن عبد الله بن أبي ثور ، الحضرمي^٣ ، من أهل طرطوشة أو ناحيتها ، رحل إلى المشرق ، وأدى الفريضة ، ولقي بمكة أبا عبد الله الأصبهاني ، فسمع منه سنة ٤٢٢ ، حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف بيسير .

٢٧٧ - ومنهم نابت - بالنون - ابن المفرج بن يوسف ، الخثعمي^٤ ، أصله من بِلَنْسِيَّةَ ، وسكن مصر ، يكنى أبا الزهر ، قال السلفي : قدم مصر بعد خروجي منها ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وتأدب ، وقال الشعر الفائق ، وكتب إليّ بشيء من شعره ، ومات في رجب سنة ٥٤٥ بمصر .

٢٧٨ - ومنهم ضمام بن عبد الله ، الأندلسي^٥ ، رحل إلى المشرق ،

١ ترجمة نصر بن القاسم في التكملة : ٧٤٨ ؛ وفي ق : صخر بن القاسم وهو مخالف لما في التكملة .

٢ ترجمة النعمان بن النعمان المعافري في التكملة : ٧٥٣ .

٣ ترجمة نعم الخلف بن أبي ثور في التكملة : ٧٥٧ .

٤ ترجمة نابت بن المفرج في التكملة : ٧٥٨ .

٥ ترجمة ضمام بن عبد الله في التكملة : ٧٧٠ والذيل والتكملة ٤ : ١٤٥ وجذوة المقتبس :

٢٢٩ (وبغية الملتبس رقم : ٨٥٨) .

ودخل بغداد ، وهو ممّن يروي عن عبد السلام بن مسلمة^١ الأندلسي . وممّن روى عن ضمام أبو الفرج أحمد بن القاسم الحشّاب البغدادي من شيوخ الدارقطني ، قال ابن الأبار : هكذا وقع في نسخة عتيقة من تأليف الدارقطني في الرواة عن مالك في باب مَسْلَمَة منه ضمام — بالضاد المعجمة — وهكذا ثبت في رواية أبي زكريا ابن مالك بن عائذ عن الدارقطني ، وقال فيه غيره : هَمَام بن عبد الله — بالهاء وتشديد الميم — وفي حرف الهاء أثبتته أبو الوليد ابن الفرضي من تاريخه^٢ ، والأول عندي أصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

٢٧٩ — ومنهم ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبي فُرَيْعَة^٣ ، واسمه زيد ، مولى عبد الرحمن بن معاوية والداخل معه إلى الأندلس ، من أهل لبّنة ، له رحلة إلى المشرق ، وكان فقيهاً ، ذكره الرازي .

٢٨٠ — ومنهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، المَعافري^٤ ، من أهل قرطبة ، وأصله من الجزيرة الخضراء ، وهو والد المنصور ابن أبي عامر ويكنى أبا حفص ، سمع الحديث ، وكتبه عن محمد بن عمر ابن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم ، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وكان من أهل الخير والدين والصلاح والزهد والقعود عن السلطان ، أثنى عليه الراوية أبو محمد الباجي وقال : كان لي خير صديق أنتفع به وينتفع بي ، وأقابل معه كتبه وكتبي ، ومات مُنْصَرَفَه من حجّه ، ودفن بمدينة طرابلس المغرب ، وقيل : بموضع يقال له رَقَادَة ، وكان رجلاً عالماً صالحاً ، وقال بعضهم : إنّه توفي في آخر خلافة عبد الرحمن الناصر .

١ في الأصول : مسلم ، والتصويب عن المصادر .

٢ انظر تاريخ ابن الفرضي ٢ : ١٧٣ .

٣ ترجمة ضرغام بن عروة في التكملة : ٧٧٠ والذيل والتكملة ٤ : ١٤٥ .

٤ ترجمة عبد الله بن أبي عامر المَعافري في التكملة : ٧٨١ .

٢٨١ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن حمود ، الزبيدي ، الإشبيلي ، ابن عم أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي اللغوي^١ ، كان من مشاهير أصحاب أبي علي البغدادي ، ورحل إلى المشرق فلم يعد إلى الأندلس ، ولازم السيرافي في بغداد إلى أن توفي ، فلأزم بعده صاحبه أبا علي الفارسي ببغداد والعراق ، وحيثما جال ، واتبعه إلى فارس ، وحكى أبو الفتوح الجرجاني^٢ أن أبا علي البغدادي غلّس لصلاة الصبح في المسجد ، فقام إليه أبو محمد الزبيدي من مِذْوَد كان لدابته خارج الدار قد بات فيه أو أدلج^٣ إليه ليكون أول وارد عليه ، فارتاع منه ، وقال : ويحك ! من تكون ؟ قال : أنا عبد الله الأندلسي ، فقال له : إلى كم تبغني ؟ والله إن على وجهه الأرض أنحى منك . وكان من كبار النحاة وأهل المعرفة التامة والشعر ، وجمع شرحاً لكتاب سيبويه ، ويقال : إنه توفي ببغداد سنة ٣٧٢ .

٢٨٢ - ومنهم عبد الله بن رشيق ، القرطبي^٤ ، رحل من الأندلس ، فأوطن القيروان ، واختص بأبي عمران الفاسي ، وتفقه به ، وكان أديباً شاعراً عفيفاً خبيراً ، وفي شيخه أبي عمران أكثر شعره ، ورحل حاجباً فأدى القريضة ، وتوفي في انصرافه بمصر سنة ٤١٩ ، وأنشد له ابن رشيق في « الأنموذج » قوله رحمه الله تعالى :

خيرُ أعمالك الرضى بالمقادير والقضا

١ ترجمة عبد الله بن حمود الزبيدي في التكملة : ٧٨٣ والذيل والتكملة ٤ : ٢٢٠ وطبقات الزبيدي

٣٩٩ وبغية الوعاة : ٢٨٢ وإنباه الرواة ٢ : ١١٨ والمقري ينقل عن التكملة .

٢ انظر هذه الحكاية في إنباه الرواة ٢ : ١١٩ ومجمع الأدباء ١٤ : ٨١ .

٣ ق ودوزي : أو دلج .

٤ ترجمة عبد الله بن رشيق في التكملة : ٧٩٣ والذيل والتكملة ٤ : ٢٢٥ وممالك الأبصار

بينما المرء ناضراً قيل: قد مات وانقضى

وقوله :

سَأَقْطَعُ حَبْلِي مِنْ حَبَالِكَ جَاهِداً وَأَهْجُرُ هَجْراً لَا يَجُرُّ لَنَا عَرْضاً
وَقَدْ يُعْرِضُ الْإِنْسَانُ عَمَّنْ يُوَدُّهُ وَيَلْقَى بِبِشْرٍ مِنْ يُسِرُّ لَهُ الْبَغْضَا

قال في «الأنموذج» : وأراد الحج فناله وجع فمات بمصر بعد اشتهاؤه فيها بالعلم والجلالة ، وقد بلغ عمره نحو الأربعين سنة ، رحمه الله تعالى ، وهو مخالف لما قدمناه من أنه أدى الفريضة ، وقد ذكر ابن الأبار العبارتين ، والله تعالى أعلم .

٢٨٣ - ومنهم أبو بكر الياقوبي ، ويكنى أيضاً أبا محمد ، وهو عبد الله ابن طلحة بن محمد بن عبد الله^١ ، أصله من يابرة ، ونزل هو لإشبيلية ، وروى عن أبي الوليد الباجي وعن جماعة بغرب الأندلس منهم أبو بكر ابن أيوب وأبو الحزم ابن عليم وأبو عبد الله ابن مزاحم البَطَلَنِيّوسَيِّدُون وغيرهم ، وكان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وحفظ التفسير والقيام عليه ، وخلق به مدّة بإشبيلية وغيرها ، وهو كان الغالب عليه مع القصص فيسرد منه جملاً على العامة ، وكان متكلماً ، وله ردّ على أبي محمد ابن حزم ، وكان أحد الأئمة بجامع العدبّس ، ورحل إلى المشرق ، فروى عن أبي بكر محمد بن زيدون بن علي كتابه المؤلف في الحديث المعروف بالزيدوني ، وألف كتاباً في شرح صدر رسالة ابن أبي زيد ، وبيّن ما فيها من العقائد ، وله مجموعة في الأصول والفقه منها كتاب سمّاه «المدخل» إلى كتاب آخر سمّاه «سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام» ألّفه للأمير علي بن تميم بن المعز الصنهاجي صاحب المهديّة ، وذكر

١ ترجمة أبي بكر الياقوبي في التكملة : ٨١٥ .

في فصل الحج منه أنه رحل إلى المهديّة سنة ٥١٤ ، واستوطن مصر مدة ، ثم رحل إلى مكّة ، وبها توفي رحمه الله تعالى ؛ وروى عنه أبو المظفر الشيباني وأبو محمد العثماني وأبو الحجاج يوسف بن محمد القيرواني وأبو عمرو عثمان ابن فرج العبدري وأبو محمد ابن صدقة المنكي وأبو عبد الله ابن يعيش البكّسي وغيرهم ، وكان سماع أبي الحجاج منه موثقاً مالاك سنة ٥١٦ ، رحم الله تعالى الجميع .

٢٨٤ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق ، اليحصبي ، الأندلسي^١ ، رحل حاجاً فسمع منه بالإسكندرية أبو الطاهر السلفي كتاب «طبقات الأمم» لأبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطي ، وحدث به عنه عن ابن بُرّال عن صاعد .

٢٨٥ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ، الصريحي ، المرسّي ، ويعرف بابن مطحنة^٢ ، روى عن أبي بكر ابن الفرّضي النحوي ، وتأدب به ، ورحل إلى المشرق ، ولقي أبا محمد العثماني وغيره ، وحج ، وقعد لتعليم الآداب ، ومن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد السلام وأبو عبد الله المكناسي وغيرهما ، وأنشد رحمه الله تعالى قال : أنشدني أبو محمد عبد الله بن البيّاسي^٣ بالإسكندرية لنفسه :

يمدّ الدهرُ من أجلي وعُمري كما أني أمدُّ من المدادِ
لنا خطّانِ مختلفانِ جدّاً كما اختلفَ الموالِي والمُعادي
فأكتبُ بالسوادِ على بياضٍ ويكتبُ بالبياضِ على السوادِ

١ ترجمة ابن مرزوق اليحصبي في التكملة : ٨١٨ .

٢ ترجمة ابن مطحنة في التكملة : ٨٣٠ .

٣ التكملة : ابن أبي الياس .

وهذا نظير قول الآخر :

ولي خطٌ وللأيامِ خطٌ وبَيْنهما مخالفةُ المدادِ
فأكتبهُ سواداً في بياضٍ وتكتبهُ بياضاً في سوادِ

وبعضهم ينسب الأبيات الثلاثة السابقة للسلفي الحافظ ، فالله تعالى أعلم .

٢٨٦ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى ، الشُّلبي^١ ، سمع من الصدي وغيره ، وكان من أهل الحفظ للحديث ورجاله والعلم بالأصول والقروع ومسائل الخلاف وعلم العربية والهيئة مع الخير والدين والزهد ، وامتنح بالأمرء في قضاء بلده بعد أن تقلده نحو تسعة أعوام لإقامته الحق وإظهاره العدل حتى أدى ذلك إلى اعتقاله بقصر إشبيلية ، ثم سُرح فرحل حاجتاً إلى المشرق ، ودخل المهديّة فلقي بها المازري ، وأقام في صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم انتقل إلى مصر ، وحج سنة ٥٢٧ ، وأقام بمكة مجاوراً ، وحج ثانية سنة ٥٢٨ ، ولقي بمكة أبا بكر عتيق بن عبد الرحمن الأوربلي في هذه السنة ، فحمل عنه ، ودخل العراق وخُرَاسان ، وأقام بها أعواماً ، وطار ذكره في هذه البلاد ، وعظم شأنه في العلم والدين ، وكان من بيت شرف وجاه في بلده عريض مع سعة الحال والمال ، وتوفي بهرّة سنة ٥٥١ ، وقيل : إن وفاته سنة ٥٤٨ ، وذكره العماد في « الخريدة » والسمعاني في الذيل ، وأنشد له :

تلوّتَ الأيامُ لي بِبِصْرُوفِها فكنتُ على لَوْنٍ من الصبرِ واحدٍ
فإن أقبَلتْ أدبرتْ عنها وإن نأتْ فأهونُ بِمفقودٍ لأكرمٍ فاقدٍ

وولد سنة ٤٨٤ بشِلب ، رحمه الله تعالى .

٢٨٧ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن موسى ، الأزدي ، المُرسِي ، ويُعرف

١ ترجمة عبد الله بن عيسى الشلبي في التكملة : ٨٣٤ وسرد ابن الأبار نسبه أطول مما هنا .

بابن بُرْطُلَه^١ ، سمع من صهره القاضي الشهيد أبي علي الصديقي ، ورحل حاجباً سنة ٥١٠ هـ ، فأدى الفريضة ، وسمع من الطرطوشي والأنماطي والسلفي وغيرهم ، وانصرف إلى مَرْسِيَةِ بلدِه ، وكان حسن السَّمْت خاشعاً مُخْبِتاً خيراً متواضعاً نبيهاً نزهاً سالم الباطن ، وحكى عن شيخه أبي عبد الله الرازي عن أبيه أنه أخبره أن قاضي البرلس ، وكان رجلاً صالحاً ، خرج ذات ليلة إلى النّيل فتوضأ وأسبغ وضوءه ، ثم قام فقرن قدميه وصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي ، فسمع قائلاً يقول :

لولا أناسٌ لهم سَرْدٌ يصومونا وآخرون لهم وِرْدٌ يقومونا
لزلزلت أَرْضُكُمْ من تحتكم سَحَرًا لأنّكم قومٌ سوء لا تبالونا

قال : فتجوّزت في صلاتي ، وأدرت طرفي فما رأيت شخصاً ولا سمعت حساً ، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى .

وقال ابن بُرْطُلَه رحمه الله تعالى : أنشدني أبو عامر قال : دخلت بعض مَراسي الثغر ، فوجدت في حَجَرٍ منقوش هذه الأبيات :

نزلتُ ولي أملٌ عودةٌ ولكتني لستُ أدري متى
ودافعي قدَرٌ لم أطيّقُ دفاعاً لمكروهه إذ أتى
ومن أمره في يدَيّ غيره سَيُغْلِبُ إنْ لَانْ أو إنْ عَتَا
فيا نازلاً بعدنا ههنا نخيبك إن كنتَ نعم الفتي

فسألت عن منشدها ، فقبل لي : هو أبو بكر ابن أبي درهم الوشقي ، وكان قد حج وأراد العَوْدَةَ ، فقال هذه الأبيات ، ورواها بعضهم « رحلت » مكان نزلت ، وهو أصوب ، وأبدل قوله « يا نازلاً » بيا ساكناً ، والخطب سهل

١ ترجمة عبد الله بن موسى بن برطلة في التكملة : ٨٤١ ومعجم أصحاب الصديقي : ٢٢٦ .

فيه ، وبعض يقول : إن الأبيات وجدت بجامع مصر ، والله تعالى أعلم .

٢٨٨ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة ، الداني ،
الأصبحي^١ ، لازم ابن سعد الخير ، واحتذى أول أمره مثال خطه فقاربه ،
وسمع منه ، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر ابن عوف
والسلفي وغير واحد ، قال التجيبي : كان معنا بالإسكندرية بالعادية منها ،
وبقراءته سمعنا صحيح البخاري على السلفي سنة ٥٧٣ ، قال : أنشدني لشيخه
الأستاذ أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الخير البكسني :

يا لاحظاً تمثال نعل نبيه قبل مثال النعل لا متكبراً
والثم له^٢ فلطالما عكفت به قدّم النبي مروحاً ومبكراً
أولاً ترى أن المحب مقبل طلالاً وإن لم يُلَفِ فيه مُخبراً

وقد سبق ابن سعادة أبو عبد الله وهو غير هذا ، والله تعالى أعلم .

٢٨٩ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف ، القضاعي ، المري^٣ ،
سمع من أبي جعفر ابن غزلون صاحب الباجي وغير واحد ، ورحل إلى المشرق
فسمع بالإسكندرية من السلفي والرازي ، وتجول هنالك ، وأخذ عنه أبو الحسن
ابن الفضل المقدسي وغير واحد ، وقال ابن الفضل : أنشدني المذكور ، قال :
أنشدني أبو محمد بن صارة :

وكوكب أبصر العفريت مُسترقاً لاسمع فانقض يدني خلفه لهبه

١ ترجمة ابن سعادة الأصبحي في التكملة : ٨٥٠ والذيل والتكملة : ٢٢٧ .

٢ ق : به ، وكذلك في التكملة .

٣ ترجمة عبد الله بن يوسف القضاعي في التكملة : ٨٥٦ وقال إن أصله من أندة .

كفارسٍ حَلَّ إعصاراً^١ عمامته فجرها كلها من خلفه عَدَبَه^٢

٢٩٠ - ومنهم شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن مهاجر ، الوادي آشي ،

الحنفي^٣ ، سكن طرابلس الشام ، ثم انتقل إلى حلب ، وأقام بها ، وصار من
العدول المبرزين في العدالة بحلب ، يعرف النحر والعروض ، ويشغل فيهما ،
وله انتماء إلى قاضي القضاة الناصر ابن العديم ، قال الصفدي : رأيت بحلب أيام
مقامي بها سنة ٧٢٣ فرأيت حُسن التودد ، وأنشدني لنفسه من لفظه :

مَلاحَ في دِرْعٍ يَصُولُ بِسَيْفِهِ والوَجْهَ منه يضيء تحت المِغْفَرِ
إِلا حَسِبْتُ البحرَ مدًّا بِجدول والشمس تحت سحابٍ من عَنبرٍ

قال الصفدي : جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد^٤ :

ولمّا اقنَحْتَ الوغى دارعاً وقَنَعْتَ وجهك بالمغفرِ
حسبنا حِمَاكَ شمس الضحى عليها سحابٌ من العنبرِ
وبين قول أبي بكر الرصافي^٥ :

لو كنتَ شاهدةً وقد غشي الوغى يَخْتالُ في دِرْعِ الحديدِ المسبِلِ
لرأيتَ منه والقضيبُ بكفِّه بَحراً يُريقُ دمَ الكُماةِ بِجدولِ

وقال يمدح الشيخ كمال الدين محمد بن الزملكاني وقد توجه إلى حلب قاضي

القضاة :

١ التكملة : إحصار .

٢ ترجمته في الوافي ٧ الورقة : ٦٦ وأعيان مصر (نسخة آياصوفيا رقم : ٢٩٦٢) : ١٧٣
والدرر الكامنة ١ : ١٨٢ والمقري ينقل عن الوافي .

٣ ديوان المعتمد : ١٧ والقلائد : ٨ .

٤ ديوان الرصافي البلسي : ١٢٥ وللملها لغيره إذ كنية الرصافي البلسي أبو عبد الله ، وهذا يكنى
أبا بكر .

يَمِنْ تَرْتَمَ فَوْقَ الْأَيْكِ طَائِرُهُ
وَسُودِدُ أَصْبَحَ الْإِقْبَالُ مِمَثْلًا
وِطَائِرُ عَمَّتِ الدُّنْيَا بِشَائِرُهُ
فِي أَمْرِهِ مَا أَخُوهُ الْعِزُّ أَمْرُهُ

ومنها ١ :

مَنْ مُخْبِرٌ عَنِ الشَّهَاءِ أَنْ كَمَا
وَأَنَّ تَقْلِيدَهُ الزَّاهِي وَخَلْعَتَهُ
بِالنَّفْسِ أَفْدِيكَ مِنْ تَقْلِيدِ مَجْتَهِدٍ
أَنْشَدْتُ حِينَ أَدَارُ الْبَشَرَ كَأْسَ طَلِيٍّ
وَقَدْ بَدَتْ فِي بَيَاضِ الطَّرْسِ أَسْطَرُهُ
سَاقٍ تَكُونُ مِنْ صَبْحٍ وَمِنْ غَسَقٍ
وَخَلْعَةٍ قَلْتُ إِذْ لَاحَتْ لَتَرْيُنَا
وَقَدْ رَأَاهَا عَدُوٌّ كَانَ يُضْمِرُ لِي
وَرَامَ صَبْرًا فَأَعْيَبَتْهُ مَطَالِبُهُ
بَعُودَةُ الدَّوْلَةِ الْغَرَاءُ ثَالِثَةٌ
لِالدِّينِ قَدْ شِيدَتْ فِيهِ مَقَاصِرُهُ
فِي تَطَرُّزٍ عَظِيمٍ مَآثِرُهُ
سِوَاهُ يَوْجِدُ فِي الدُّنْيَا مُنَاطِرُهُ
حَكَتْ أَوَائِلُهُ صَفْوًا وَأَوَاخِرُهُ
سُودًا لَتَبْدِي مَا أَهْدَتْ مَحَابِرُهُ
فَابْيَضَ خَدَاهُ وَاسْوَدَّتْ غَدَائِرُهُ
بِالرَّوْضِ تَطْفُؤُ عَلَى نَهْرِ أَزَاهِرُهُ
مِنْ قَبْلِ سُوءِ أَفْخَانَتِهِ ضَمَائِرُهُ
وَعِيْضُ الدَّمْعِ فَاهَلَّتْ بِوَادِرِهِ
أَمِنْتُ مِنْكَ وَنَامَ اللَّيْلُ سَاهِرُهُ

وقال أيضاً :

تَسَعَّرُ فِي الْوَعْيِ نِيرَانُ حَرْبٍ
وَمِنْ عَجَبٍ لَظَى قَدْ سَعَّرَتْهَا
بِأَيْدِيهِمْ مُهَنَّدَةٌ ذُكُورُ
جِدَاوِلُ قَدْ أَقْلَتْهَا بَدُورُ

وقال ملفزاً في قالب لبن :

مَا أَكَلْتُ فِي فَمَيْنِ يَغُوطُ مِنْ مَخْرَجَيْنِ
مُغْرَى بَقْبُضٍ وَبَسْطٍ وَمَا لَهُ مِنْ يَدَيْنِ
وَيَقْطَعُ الْأَرْضَ سَعِيًّا مِنْ غَيْرِ مَا قَدَمَيْنِ

١ ومنها : سقطت من ق ، وهي ثابتة في الوافي .

وخمّس لامية العجم مدحاً في رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، قال الصفدي :
ولمّا كنت في حلب كتب إليّ أبياتاً ، انتهى .

٢٩١ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن صابر ، القيسي^١ ، قال أبو حيان : كان المذكور
رفيقاً للأستاذ أبي جعفر ابن الزبير شيخنا ، وكان كاتباً مترسلاً شاعراً ، حسن
الخط ، على مذهب أهل الظاهر ، وكان كاتب أبي سعيد فرج ابن السلطان الغالب
بالله بن الأحمر ملك الأندلس ، وسبب خروجه من الأندلس أنّه كان يرفع
يديه في الصلاة على ما صح في الحديث ، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ، فتوعده
بقطع يديه ، فضج من ذلك وقال : إن إقليماً تمّت فيه سنّة رسول الله صلى الله
عليه وسلّم حتى يتوعد بقطع اليد من يقيمها للدير أن يرحل منه ، فخرج وقدم
ديار مصر ، وسمع بها الحديث ، وكان فاضلاً نبيلاً ، ومن شعره :

أتُنكرُ أن يبيّضَ رأسي لحادثٍ من الدهر لا يقوى له الجبلُ الراسي
وكان شعاراً في الهوى قد لبسته فرأسي أمّي وقلبي عباسي

قلت : لو قال « شبي » لكان الغاية .

وأنشد له بعضهم :

فلا تعجبا ممّن عوى خلفَ ذي علّا لكلّ عليّ في الأنام معاوية

قلت : لا يخفى ما فيه من عدم سلوك الأدب مع الصحابة رضي الله تعالى
عنهم أجمعين^٢ ، ويرحم الله بعض الأندلسيين حيث قال في رجز كبير :

ومن يكنّ يقدحُ في معاوية فذاك كلبٌ من كلاب معاوية

١ ترجمة أحمد بن صابر القيسي في المنهل الصافي ١ : ٢٩٩ .

٢ أجمعين : سقطت من ق .

وأنشد أبو حيان للمذكور :

أرى الدهر ساد به الأردلو ن كالسَّيل يطفو عليه الغثا
ومات الكرامُ وفات المديحُ فلم يبقَ للقولِ إلا الرثا

وأنشد له أيضاً :

لولا ثلاثٌ هنَّ والله من أكبر آمالي في الدنيا
حجٌّ لبيت الله أرجو به أن يقبلَ النيةَ والسعيَا
والعلمُ تحصيلاً ونشراً إذا رويتُ أوسعتُ الورى ريباً
وأهلُ ودٍّ أسألُ الله أنْ يُمتنعَ بالبقيا إلى اللقيا
ما كنتُ أخشى الموتَ أتى أتى بل لم أكنُ ألتذُّ بالمحيا

وقال أبو حيان في هذه المادة :

أما إنه لولا ثلاثٌ أحبها تمنيتُ أني لا أعدُّ من الأحيا
فمنها رجائي أن أفوزَ بتوبةٍ تكفِّرَ لي ذنباً وتُنَجِّحَ لي سعيَا
ومنهن صوفي النفسَ عن كلِّ جاهلٍ لئيمٍ فلا أمشي إلى بابهِ مشياً
ومنهن أخذي بالحديث إذا الورى نسوا سُنَّةَ المختارِ واتبعوا الرأيا
أتركُ نصّاً للرسولِ وتقتدي بشخصٍ؟ لقد بدلتَ بالرشد الغيا

٢٩٢ - ومنهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضي أبي الوليد الباجي ،
سكن سرقُسطةَ وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخلقه بعد وفاته
في حلقة وغلب عليه علم الأصول والنظر ، وله تأليف تدل على حذقه :
منها « العقيدة في المذاهب السديدة » ورسالة « الاستعداد للخلاص من المعاد » ،

١ زاد في ق بعد هذا لفظة « انتهى » .

وكان غاية في الورع ، توفي بجدة بعد منصرفه من الحج سنة ٤٩٣ ، رحمه الله تعالى .

٢٩٣ - ومنهم الإمام الفاضل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي ، الغرناطي^١ . قال العز بن جماعة : قدم علينا من المغرب سنة ٧٢٤ ، ثم رجع إلى المغرب في هذه السنة ، وبلغنا أنه توفي بمراكش سنة نيّف وأربعين وسبعمئة^٢ ، وأنشد والدي قصيدةً من نظمه امتدحه بها ، وأنا أسمع ، ومن خطه نقلت ، وهي :

قِفَا مَورِدًا عَيْنًا جَرَتْ بَعْدَكُمْ دَمَا	أَنَاضِي أَسْفَارَ طَوِينٍ عَلَى ظَمَا
غَدُونَ أَهْلَاتٍ تَنَاقِلُ أَنْجَمًا	وَرُحْنٌ حَنِيَّاتٍ تَفُوقُ أَسْهَمَا
يَحْشَمُهَا الْحَادِي الْأَمْرَيْنِ حُسْرًا	وَيُوطِنُهَا الْحَادِي الْأَحْرَيْنِ هَيْمًا
عَلَى مَنَسِمِيَّهَا لِلشَّقَائِقِ مَنَبِتٌ	وَفِي فَمُوبِهَا لِلشَّقَاشِقِ مُرْتَمَى

إلى أن قال :

وَتَعْسًا لَأَمَالٍ جِيْهَامٍ سَحَابُهَا	تُزَجِّي رُكَّامًا مَا اسْتَهْلَ وَلَا هَمِي
تَجَاذِبُهَا نَفْسٌ تَجِيْشُ نَفْسِيَّةً	وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا صَعِيدًا تَيْمَمًا
فَهَلْ ذَمُّ يَرْعَاهُ لَيْلٌ طَوِيْتُهُ	طَوَانِي سَرًّا بَيْنَ جَنْبِيهِ مِنْهُمَا
أَقْبَلُ مِنْهُ لِلْبُرُوقِ مَبَاسِمًا	وَأَرَشَفُ مِنْ بَهْمَاءِ ظِلْمَائِهِ لَمِي
إِلَى أَنْ تَجَلِّيَ مِنْ كُنَانَةٍ بَدْرُهَا	فَعَرَّسَ رَكْبِي فِي حِمَاهُ وَخَيْمًا

١ ترجمة إبراهيم بن محمد الساحلي في الإحاطة ١ : ٣٣٧ والكتيبة الكامنة : ٢٣٥ ومسالك الأبصار ١١ : ٥١٦ وقد ترجم له ابن الخطيب أيضاً في التاج وعائد الصلة وابن الأحرر في نثر الجمان وفي فرائد نثر الجمان الورقة : ٥٢ وما بعدها . وهذا هو الطويحين وترجمته هنا مكررة وقد وردت في التفح برقم : ١١٦ .

٢ قلت : قد مر من قبل أنه توفي بتنبكتر سنة ٧٤٤ .

ثِمَالُ الْيَتَامَى حَيْثُ لَيْسَ مَظْلَلٌ وَكَهْفُ الْأَيَامَى أَيْمًا عَزَّ مَرْنَمِي
ومنها :

فِيَا كَفَّهُ هَلْ أَنْتِ أُمُّ غَيْثٍ دِيمَةٍ أَسَالَتْ عُبَابًا فِي ثَرَى الْجُودِ عَيْلِمَا
وَيَا سَعْيَهُ يَهْنُتُكَ أَجْرٌ نَنِي بِهِ عَلَى مَعْطَفِي عَلَيْهِ بُرْدًا مُسَهَّمَا
قَضَى بِنَمْنَى أَوْطَارَ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ وَرَوَّى صِدَاها حِينَ حَلَّ بَزْمَزَمَا
وَنَادَاهُ دَاعِي الْحَقِّ حَتَّى عَلَى الْهَدَى فَأَسْرَجَ طَوْعًا فِي رِضَاهِ وَالْجَمَا
فَلَلَهُ مَا أَهْدَى وَأَرْشَدَ وَاهْتَدَى وَلِلَّهِ مَا أُعْطِيَ وَأَوْفَى وَأَنْعَمَا
ومنها :

أَمْتُ بَادَابٍ وَعِلْمٍ كَلِيهِمَا أَقَامَا لَدَيْكَ الدَّعَى فَرَضًا وَالزَّمَا
وهي طويلة .

٢٩٤ - ومن الراحلين من الأندلس الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل فيما حكى بعض المؤرخين ^١ ، خرج من الأندلس على طريقة الفقر والتجرد ، ووصل بَرَقَّةَ بَرَكْوَةِ لَا يَمْلِكُ سِوَاهَا فَعُرِفَ بِأَبِي رَكْوَةِ ، وأظهر الزهد والعبادة ، واشتغل بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن ، وتغيير المنكر ، حتى خدع البربر بقوله وفعله ، وزعم أن مَسْلَمَةَ بن عبد الملك بشر بخلافته بما كان عنده من علم الحدثان ، وكان يقال عن مسلمة : إنه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية ، وأخرج لهم أرجوزة أسندها إلى مسلمة ، ومنها في وصفه :

وَإِبْنُ هِشَامٍ قَائِمٌ فِي بَرَقَةٍ بِهِ يَنَالُ عَبْدُ شَمْسٍ حَقَّةً

١ انظر أخبار أبي ركة في الدرة المضية ٦ : ٢٧٥ واتعاظ الحنفا : ٣٠٤ وتاريخ ابن خلدون ٤ : ٥٨ وابن الأثير ٩ : ١٩٧ - ٢٠٣ .

يكونُ في بربرها قيامُهُ وَقَرَّةُ العُربِ لها إكرامُهُ

واتفق أن قرة انحرفوا عن الحاكم فمالوا إليه ، وحصروا معه مدينة برقة حتى فتحوها ، وخطبوا له فيها بالخلافة ، وكان قيامه في رجب سنة ٣٩٧ ، فهزم عسكر باديس الصنهاجي صاحب إفريقية وعسكر الحاكم بمصر ، وأحيا أمره ، وخاطبه بطانة الحاكم لكثرة خوفهم من سفك الحاكم الدماء ، ورغبوه في الوصول إلى أوسيم ، وهو مكان بالجيزة قبالة القاهرة ، فلما وصل إليها قام بمحاربته الفضل بن صالح القيام المشهور إلى أن هزم أبا ركوة ، ثم جاء به إلى القاهرة ، فأمر الحاكم أن يطاف به على جمل ، ثم قُتل صبراً في ١٣ رجب سنة ٣٩٩ ، ولما حصل في يد الحاكم كتب إليه :

فررتُ ولم يُغنِ الفرارُ ، ومن يكن مع الله لم يعجزه في الأرضِ هاربُ
ووالله ما كان الفرارُ حاجةً سوى فزعِي الموتِ الذي أنا شاربُ
وقد قادني جرْمِي إليك برمَّتِي كما اجتَرَّ ميتاً في رحى الحربِ سالبُ
وأجمعُ كلِّ الناسِ أنكَ قاتلي فيا رَبِّ ظَنِّ رَبُّهُ فيه كاذبُ
وما هوَ إلا الانتقامُ وينتهي وأخذُك منه واجباً وهو واجبُ

ولأبي ركوة المذكور أشعار كثيرة ، منها قوله :

بالسيفِ يقربُ كلُّ أمرٍ يترجُ فاطلبُ به إن كنتَ ممّن يُفلحُ

وله :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعُهُ وليس عليه أن يساعدَهُ الدهرُ

وقوله :

إن لم أجلبها في ديار العدا تملأ وعراً الأرضِ والسهلا
فلا سمعتُ الحمدَ من قاصدٍ يوماً ولا قلتُ له أهلاً

وله غير ذلك مما يطول ، وخبره مشهور .

٢٩٥ - ومنهم أبو زكريا الطليطي ، يحيى بن سليمان^١ ، قدم إلى الإسكندرية ، ثم رحل إلى الشام واستوطن حلب ، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء ، قال بعض من طالعه : ما رأيت مدح أحداً إلا وهجاه ، وله مصنفات في الأدب ، ومن نظمه قوله :

أَرْضٌ سَقَتْ غَيْطَانَهَا أَعْطَانَهَا وَزَهَتْ عَلَى كُتُبَانِهَا قُضْبَانُهَا

ومنها :

فَتَكْتُ بِالْبَابِ الْكُفَاةَ فَسَيْفُهَا مِنْ طَرَفِهَا وَسِنَانُهَا وَسِنَانُهَا
لَمْ يَبْقَ شَخْصٌ بِالْبَسِيطَةِ سَالِماً إِلَّا سَبَى إِنْسَانَهُ إِنْسَانُهَا

ومنها :

وَتَصَاحَبَتْ وَتَجَاوَبَتْ أَطْيَارُهَا وَتَدَاوَلَتْ وَتَنَاولَتْ أَلْحَانُهَا
وَتَسَمَّتْ وَتَبَسَّمَتْ أَيَّامُهَا وَتَهَلَّلَتْ وَتَكَلَّلَتْ أَزْمَانُهَا
بِمُدِيرِهَا وَمُنِيرِهَا وَنَمِيرِهَا وَمُعِيرِهَا حُسْنًا جَلَاهُ عِيَانُهَا

٢٩٦ - ومنهم أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد ، القرطبي ، المعروف بالمغيلي^٢ ، سمع من محمد بن عبد الملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهما ، ورحل فسمع من أبي سعيد ابن الأعرابي ، وكان بصيراً بالعربية والشعر ، ومؤلفاً جيد النظر حسن الاستنباط ، حدث ، وتوفي فجأة في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٢ ، قاله ابن الفرضي .

١ ق : سلمان .

٢ ترجمة يحيى بن عبد الله المغيلي في ابن الفرضي ٢ : ١٨٨ .

٢٩٧ - ومنهم الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يحيى ابن سلمة ، الأنصاري ، الغرناطي ، قدم المشرق وتوفي بمصر سنة ٧٠٣ عن نحو خمسين سنة ، بالبيمارستان المنصوري ، قال قاضي القضاة عبد العزيز ابن جماعة الكتاني في كتابه « نزهة الألباب »^١ : أنشدنا المذكور لنفسه بالقاهرة ، بعد قدومه من مكة والمدينة ، وقد رام أن يعود إليهما فلم يتيسر له :

لئن بَعُدَتْ عَنِّي ديارُ الذي أهوى	فقلبي على طولِ التباعدِ لا يَقْوَى
فحدَّثَ رعاكَ اللهُ عن عُربِ رامةٍ	فإنِّي لهم عبدٌ على السرِّ والنجوى
فإن متُّ شوقاً في الهوى وصبايةً	فيا شرقي إن متُّ في حبٍّ من أهوى
فيا أيُّها العُدَّالُ كُفُّوا ملامِكُمْ	فما عندكم بعض الذي بي من الشكوى
ويا جيرةَ الحيِّ الذي وَلَّيَ بهم	أما ترحموا صبّاً يحنُّ إلى حُزْوَى
ويا أهلَ ذِيكَ الحمى وحياتِكُمْ	يمينَ وقيِّ صادقِ القولِ والدَّعْوَى
ملكتم قيادي فارحموا وترفّقوا	فأنتم مرادي لا سعادٌ ولا علوى
فما لي سواكم سادّتي لا عدمتكم	فجودوا بوصلٍ أنتم الغايةُ القصوى

انتهى .

٢٩٨ - ومنهم الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن علي^٢ ، الغرناطي ، قال ابن جماعة في الكتاب المسمى قريباً : أنشدني المذكور لنفسه ، على قبر سيّدنا حمزة رضي الله تعالى عنه :

يا سيّدَ الشّهداء بَعْدَ محمدٍ	ورضيعَ ذي المجدِّ المرفعِ أحمدِ
يا ابنَ الأعزّةِ من خلاصةِ هاشمٍ	سُرُجَ المعالي والكرامِ المجدِّ
يا أيُّها البطلُ الشّجاعُ المحتمي	دينُ الإلهِ ببابِهِ المستأسدِ
يا نَبْعَةَ الشّرفِ الأصيلِ المُعتلي	يا ذروةَ الحسبِ الأئيلِ الأتلدِ

١ ق : الأولياء ؛ وفي كشف الظنون : نزهة الألباب ؛ ودوزي : الألباء .

٢ ترجمته في الدرر الكامنة ٤ : ٩٦ .

يا نَجْدَةَ الملهوفِ في قَحَمِ الوغى
 يا غَيْثَ ذِي الأملِ البعيدِ مرامِهِ
 يا مَنْ لِعُظْمِ مصابه خَصَّ الأسمى
 يا حمزةَ الخَيْرِ المؤمِّلِ نفعُهُ
 وَاذاك يا أَسَدَ الإلهِ وسيفَهُ
 جيشناكَ يا عَمَّ الرِّسُولِ وصِنْوَهُ
 واسألِ إلهَكَ في اغْتِفَارِ ذُنُوبِنَا
 لَدُنَّا بِجَانِبِكَ الكَرِيمِ تَوَسُّلاً
 فاشْفَعْ لضعيفِكَ فَالكَرِيمِ مُشَفِّعٌ
 يا ابنَ الكرامِ المَكْرَمِينَ نَزِيلَهُم
 نزلِ الضيُوفِ جَنَابِ ساحتِكَ الَّتِي
 فَاجْعَلْ أبا يَعْلَى قِرَانًا عَظْفَةً
 فَعسى يَمُنُّ عَلَى الجَمِيعِ بِنُوبَةٍ
 فَقَدْ اعْتَمَدْنَا مِنْكَ خَيْرَ وَسِيلَةٍ
 لِمَنْ لَا تُؤْمُ وَأَنْتَ عَمُّ مُحَمَّدٍ
 وصَحْبَتُهُ وَنَصْرَتُهُ وَعَضَدَتُهُ
 وَبَذَلْتَ نَفْسَكَ فِي رِضَاهِ بِجَنَّةٍ
 فَجَزَاكَ عَنَّا اللهُ خَيْرَ جَزَائِهِ
 وَعَلَى رِسُولِ اللهِ مِنْهُ سَلامُهُ

عندَ التَّهابِ جَهِيمِها المَتوقِدِ
 يا غوثَ موتورِ الزَّمانِ الأُنكَدِ
 قَلبَ الرِّسُولِ وَعَمَّ كُلَّ موَحَّدِ
 يَوْمَ الهِياجِ وَعندَ فَقْدِ المَنجَدِ
 وفَدُّ أَلَمِنا مِنْ حِمَاكَ بِمَعهدِ
 قَصَدَ الزَّيارَةِ فَاحتَقِلْ بِالقُصْدِ
 شَيْمُ المَزورِ قِيامُهُ بِالْعُودِ
 وَكَذا العَبِيدُ مَلأَ ذُهُمَ بالسَّيِّدِ
 عِندَ الكَرِيمِ وَمَنْ يَشْفَعُ بِقُصْدِ
 أَهْلِ المَكارِمِ وَالْعِلا وَالسُّودِ
 مِنْها يُؤمِّلُ كُلُّ عَطفٍ مَسعِدِ
 وارغَبْ لِرَبِّكَ فِي هُدانا واقصِدِ
 يَهْدِي بِها نَهْجَ الطَّرِيقِ الأَرشَدِ
 نَرجو بِها حُسْنَ التَّجاوُزِ فِي غَدِ
 وَلَدِينَهُ قَدْ صُلَّتْ صَوْلَةُ أَيْدِ
 وَذَبَبَتْ عَنْهُ بِاللَّسانِ وَباليدِ
 فَقُبِّلَتْ فِي ذاتِ الإلهِ الأَوحدِ
 وَسقى ثِراكَ حيا الغَمامِ المُرْعِدِ
 وَعَليكِ مُتَّصِلُ الرِّضَى المَتجدِدِ

ولد ببعض أعمال غرناطة قبل التسعين وستمائة ، وتوفي بالمدينة الشريفة
 طابة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧١٥ ، ودفن بالبقيع ، رحمه
 الله تعالى ، انتهى .

٢٩٩ - ومنهم الشيخ نور الدين أبو الحسن المايريقي ، من أقارب بعض

ملوك المغرب ، وكان من الفضلاء العلماء الأدباء ، وله مشاركة جيدة في العلوم ونظم حسن ، ومنه قوله :

القُضْبُ راقصةٌ ، والطيرُ صادحةٌ والنشرُ مرتفعٌ ، والماءُ منحدرُ
وقد تجلّتْ من اللذاتِ أوجهها لكنّها بظلالِ الدوحِ تسترُ
فكلُّ وادٍ به موسى يُفجّرهُ وكلُّ رَوْضٍ على حافاته الخضرُ
وقوله :

وذي هَيْفٍ راقٍ العيونَ انشأوه بقدرِ كريّانٍ من البانِ مُورِقِ
كبتُ إليه : هلْ تجودُ بزررة ؟ فوقَّعَ « لا » خوفَ الرقيبِ المصدقِ
فأيقنت من « لا » بالعناقِ تفاؤلاً كما اعتنقتُ « لا » ثم لم تنفركِ

وهذا أحسن من قول ذي القرنين ابن حمدان^١ :

إنّي لأحسد « لا » في أحرفِ الصحفِ إذا رأيتُ اعتناقَ اللامِ للألفِ
وما أظنهما طال - اجتماعهما - إلّا لما لقيّا من لوعةِ الأسفِ
وأحسن من هذا قول القيسراني :

أستشعرُ اليأسَ في « لا » ثم يُطمعني إشارة في اعتناقِ اللامِ للألفِ

وكانت وفاة أبي الحسن المذكور في ربيع الأول سنة ٦٥٥ ، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى ، والأبيات التي أولها « القُضْبُ راقصة » ... الخ نسبها له اليوناني وغير واحد ، والصواب أنها ليست له ، وإنما هي لنور الدين ابن سعيد صاحب المغرب ، وقد تقدم ذكره ، ولعل السهو سرى من تشارك الاسم واللقب والقطر ، ومثل هذا كثيراً ما يقع ، والله تعالى أعلم .

٣٠٠ - ومن الراحلين من أهل الأندلس إلى المشرق ابن عتبة الإشبيلي ،

١ انظر البيتة ١ : ١٠٦ .

وكان فارق إشيلية حين تولاهما ابن هود ، واضطربت بفتنته الأندلس ناراً ،
ولما قدم مصر هارباً من تلك الأحوال تغيرت عليه البلاد ، وتعدلت به الأحوال ،
فلما سئل عن حاله ، بعد بعده عن أرضه وترحاله ، بادر وأنشد^١ :

أصبحتُ في مصر مُستَضاماً أرقصُ في دولة القروُدِ
واضيعةَ العمرِ في أخيرٍ معَ النصارى أو اليهودِ
بالحدِّ رزقُ الأنامِ فيهم لا بنواتٍ ولا جندودِ
لا تبصر الدهرَ من يُراعي معنى قصيدٍ ولا قصودِ
أودُّ من لؤمهم رجوعاً للغرب في دولة ابن هودِ

وتذكرت بقوله « أرقص في دولة القروُد » ما وقع لأبي القاسم ابن القطان ،
وهو مما يُستظرف ويُستظرف ، وذلك أنه لما ولي الوزارة الزينبي دخل عليه
أبو القاسم المذكور والمجلس حافل بالرؤساء والأعيان ، فوقف بين يديه ودعا
له ، وأظهر الفرح والسرور ، ورقص ، فقال الوزير لبعض من يُفضي إليه
بسرّه : قبح الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى قول الشاعر :

وأرقص للقرَد في دولته

٣٠١ - ومن المرتحلين أبو عبد الله ابن جابر محمد بن جابر الضرير^٢ ، من
أهل المرية ، ويُعرف بشمس الدين بن جابر الضرير ، وله ترجمة في الإحاطة
ذكرناها مع زيادة عليها عند تعرضنا لأولاد لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله
تعالى ، ورحل إلى المشرق ودخل مصر والشام واستوطن حلب ، وهو صاحب
البيديّة المعروفة ببيديّة العميان ، وله أمداح نبوية كثيرة وتوالت : منها « شرح
ألفية ابن مالك » وغير ذلك ، وله ديوان شعر وأمداح نبوية في غاية الإجادة ،
ومن نظمه رحمه الله تعالى مؤروباً بأسماء الكتب :

١ الأبيات في اختصار القلح : ١٦٤ ومعها ترجمته وانظر المغرب ١ : ٢٥٨ .

٢ قد مرت الإشارة إلى ابن جابر الهواري الضرير وترجمته ، ج ١ : ٣٨ .

عرائسُ مدحي كم أتینَ لغيره فلما رأتهُ قلن هذا من الأكفأ
نوادِرُ آدابی ذخيرةٌ ماجدٍ شمائلُ كم فيهن من نُكَّتْ تُلْفَى
مطالعُها هنَّ المشارقُ للعلا قلائدٌ قد راقَت جواهرها رَصفاً
رسالةٌ مدحي فيك واضحةٌ ، ولي مسالكُ تهذيبٍ لتنبيهٍ مَنْ أغفى
فيا منتهى سؤلي ومحصولَ غايبي لأنتَ امرؤٌ من حاصلِ المجد مستصفى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتاباً ، وهي :
العرائس للثعالبي ، والنوادر للقالبي وغيره ، والذخيرة لابن بسام وغيره ،
والشمائل للترمذي ، والنكت لعبد الحق الصقلي وغيره ، والمطالع لابن قرقول
وغيره ، والمشارق للقاضي عياض وغيره ، والقلائد لابن خاقان وغيره ،
و « رصف المباني في حروف المعاني » للأستاذ ابن عبد النور ، وهو كتاب
لم يصنف في فنه مثله ، والرسالة لابن أبي زيد وغيره ، والواضحة لابن حبيب ،
والمسالك للبكري وغيره ، والجواهر لابن شاس وغيره ، و « التهذيب في اختصار
المدونة » وغيره ، و « التنبيه » لأبي إسحاق وغيره ، و « منتهى السؤل » لابن
الحاجب ، و « المحصول » للإمام الرازي ، و « الغاية » للنووي وغيره ^١ ،
و « الحاصل » مختصر المحصول ، و « المستصفى » للغزالي . وما أحسن قول الحكيم
موفق الدين :

لله أيامنا والشَّمْلُ منتظمٌ نظماً به خاطرُ التفريقِ ما شعَرا
والهَـفَ نفسِي على عيشٍ ظفرتُ به قطعْتُ مجموعَهُ المختارَ مختصراً

وهذه ثلاثة كتب مشهورة : المختار ، والمجموع ، والمختصر ، وأحسن
منه قول الآخر :

عن حالتي يا نورَ عيني لا تَسَلْ تَرَكُ الجوابِ جوابُ تلك المسألة

١ وغيره : سقطت من ق .

حالي إذا حدثت لا لمأ ولا جملاً لإيضاحي بها من تكمله
عندي جَوَى يَدْرُ الفصيح مبلداً فاترك مفصّله ودونك مجمله
القلب ليس من الصحاح فيرنجى إصلاحه ، والعين سُحِبْ مثقله

وقد أوردنا في ترجمة أبي عبد الله ابن جرّي الكاتب^١ الأندلسي جملة
مستكثرة في التورية بأسماء الكتب فلتراجع ثمة .

رجع إلى الشمس بن جابر ، فنقول : ومن نظمه رحمه الله تعالى تسمينه
للآيات المشهورة :

لم يبقَ في اضطبار
مذ خلّفوني وساروا
وللحييب أشاروا
جار الكرام فجاروا
لله ذاك الأوار
بانوا فما الدار دار

يا بدرُ أهلك جاروا وعلموك التجري

كانوا من الود أهلي
ما عاملوني بعدل
أصموا فؤادي بنبل
يا بين بيت ثكلي
يا روح قلبي قل لي
أهم دعوك لقتلي

وحرموا لك وصلي وحلّوا لك هجري

١ الكاتب : سقطت من ق .

حسبي وماذا عنادُ
هُمُ المُنَى والمرادُ
وإن عن الحقِّ حادُوا
أو جامَلُوني وجادوا
يا من به الكلُّ سادوا
والكلُّ عندي سدَّادُ

فَلْيَفْعَلُوا ما أرادوا فإِنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ

وتذكرت بهذا قول أبي البركات أيمن^١ بن محمد السعدي رحمه الله تعالى :

للعاشقين انكسارُ وذَلَّةٌ وافتقارُ
وللملاح افتخارُ وعزَّةٌ واقتدارُ
وأهلُ بلري أشاروا وودعوني وساروا

يا بَدْرُ - إلخ .

كُتِبُ والوصلُ يُمَلِّي جَدَّ الهوى بعد هَزَلٍ
وحارَ ذهني وعقلي ما بينَ بدري وأهلي
يا بَدْرُ فاحكمْ بعْدِلِ إذا أتوكْ بعْدِلِ

وحَرَّمُوا - إلخ .

لولا هَوَاكَ المرادُ ما كنتُ ممن يُصادُ
ولا شجاني البعادُ يا بدرُ أَهْلُكَ جادوا
غَلِطْتُ جاروا وزادوا لكنَّهم بكَ سادوا

انتهى

فليفعَلُوا - إلخ .

١ أيمن : سقطت من ق .

رجع إلى ابن جابر ، فنقول :

توفي رحمه الله تعالى في إلبيرة في جمادى الآخرة سنة ٧٨٠ ، ومن نظمه قوله :

يا أهلَ طَيِّبَةٍ في مَغْنَاكُمُ قمر
كالغيث في كرم ، والليث في حرم
يهدي إلى كل محمود من الطُّرُقِ
والبدْرُ في أفق ، والزهرُ في خلقِ
وله :

ولما وقفنا كي نودّعَ من نأى
بكينا وحقَّ للمُحِبِّ إذا بكى
ولم يبقَ إلا أن تُحِثَّ الركائبِ
عشيّة سارت عن حماه الحبابِ
وقال :

أما معاني المعاني فهي قد جُمِعَتْ
كالبدْر في شَيْمٍ ، والبحر في دَيْمٍ
في ذاته فبدت ناراً على عَلمٍ
والزهر في نعمٍ ، والدهر في تقمٍ
وقال :

ضَحِكْتُ فَقُلْتُ كَانَ جِيدُكَ قد غدا
وكانَ وردَ الخدِّ منكِ بمائه
يُهدي لثغركِ من جواهرِ عقدهِ
قد شابَ عَدَبَ لَمَّاكَ حالة وردِه
وقال ١ :

منعتنا قِرى الجمال وقالت :
فأقمنا على الرجالِ وقلنا
ليس في غير زادنا من مَجَالِ
ما لنا حاجةٌ بحطِّ الرجالِ

وقال :

عَذَّبَ قَلْبِي رَشْأُ نَاعِمٌ أَسْهَرَ جَفْنِي طَرْفُهُ النَّاعِسُ
يَحْرُسُ بِاللَّحْظِ جَنَى خَدِّهِ يَا لَيْتَهُ لَوْ غَفَلَ الْحَارِسُ

وله :

وَأَيَّتْ رَبْعَهُمْ وَقَدْ بَعُدَ الْمَدَى وَنَأَى الْفَرِيقُ مِنَ الدِّيَارِ وَسَارَا
مَا كَدْتُ أَعْرِفُ بَعْدَ طَوْلِ تَأْمُلٍ دَاراً بِهَا طَافَ السَّرُورُ وَدَارَا

وله :

وَلَسْتُ أَرَى الرِّجَالَ سِوَى أَنَاسٍ هُمُومُهُمْ مُوَافَاةُ الرِّجَالِ
أَطَالُوا فِي النَّدَى إِهْلَاكَ مَالٍ فَعَاشُوا فِي الْأَنَامِ ذَوِي كَمَالٍ

وقال :

أَيُّهَا الْمُتَّهِمُونَ نَفْسِي فِدَاكُمْ أَنْجِدُونِي عَلَى الْوُصُولِ لِنَجْدٍ
وَقِفُوا بِي عَلَى مَنَازِلٍ لَيْلِي فَوْجُودِي هُنَاكَ يُذْهِبُ وَجْدِي

وما كتبه على كتاب « نسيم الصِّبَا » لابن حبيب ، وصورته : لما وقفت
على الفصول الموسومة بنسيم الصِّبَا ، المرسومة في صفحات الحسن فإذا أبصرها
الليبي صَبَا ، انتعش بها الخاطر انتعاش النبت بالغمام ، وهمتُ سحائب بيانها
فأثمرت حدائق الكلام ، وأخرجت أرضُ القرائح ما فيها من النبات ، وسمعت
الآذان صخبَ الأذهان بهذه الأبيات :

هذي فصولُ الربيعِ في الزمنِ كم حَسَنٍ أَسْنَدْتُ إِلَى حَسَنٍ

رَقَّتْ وراقَتْ فمن شمائلها
 كم مُلِحَ قد حوتْ وكم لمح
 كم فيه من نُفُثٍ ومن نُكُتْ
 جَمَعُ عَدَمنا لَهُ النَظيرَ فلا
 يا خَيرَ أَهلِ العِلا وبَحَرَهُمُ
 بَدَرُكَ في مَطَلعِ الفُضائلِ لا
 هَذي الفُصولُ الِتي أَتيتَ بِها
 كم فنٌ مَعنَى بِها يَذكُرُني
 فَمَن نَسيبٍ مَعَ النَسيمِ جَري
 وَحُسنِ سَجعِ كالزُهرِ في أَفقٍ
 لَهُ مَعانٍ أَعيتَ مَدارِكُها
 لا زال راقٍ للمَجدِ راقِها
 بِمِثلِ صَرَفِ الشَمولِ تُتَحَفُّي
 يُعجِبُني لَقَظُها وَيُعجِزُني
 أَشَهدُني حَسنُها فَأَدَهَشي
 يُصَرِّفُ عَن خَاطِرِي ولا أَذُنِ
 أَيَّ بَديعِ الكَلامِ لَم تُرِني
 يَكونُ مِثلُ لَه وَلَم يَكنُ
 قَد أَفحمتُ كُلَّ ناطِقٍ لَسينِ
 شَجَوِي لَشَدَوِ الحِمامِ في فَنِّ
 لَطفاً فَازَرِي بِالجَواهرِ الثَمَنِ
 وَالزُهرِ في ناعِمٍ مِنَ الغُصَنِ
 كُلَّ مَعانٍ بَنيلَهن عَنِّي
 ذَا سَنِي حازَ أَحسَنَ السَنَنِ

فصول ، هي للحسن أصول ، وشمول ، لها على كل القلوب شمول ، ليس
 لقدمية على التقدم إليها حصول ، ولا لسحبان لأن يسحب ذيلها وحصول ،
 ولا انتهى قس الإيادي لهذه الأيادي ، ولا ظفر بديع الزمان بهذه البدائع
 الحسان ، لقد قصر فيها حبيب عن ابنه ، وحار بين لطافة فضله وفضل ذهنه ،
 نزهت في طرف خمائلها ، ونبهت بلطف شمائلها ، تالله إنها لسحر حلال ،
 وخلال ما مثلها خلال ، كلام كله كمال ، ومجال لا يرى فيه إلا جمال ،
 راقم بردها ، وناظم عقدها ، في كل فصل ، جاء بكمال فضل ، وفي كل
 معنى ، عمّر بالبراعة معنى ، أعرب فأعرب ، وأوجز فأعجز ، وأطال
 فأطاب ، وأجاد حين أجاب ، فما أنفس فرائده ، وأنفع فوائده ، وأفصح
 مقالته ، وأفسح مجاله ، وأطوع للنظم طباعه ، وأطول في النثر باعه ، أزاهر
 نبئت في كتاب ، وجواهر تكوّنت من الفاظ عذاب ، ومواهب لا تُدرك

يبدأ اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب ، فصول أحلى في الأقنواء من الشَّهْد ، وأشهى إلى النواظر من النوم بعد السَّهْد ، سكب أدبها في قالب النكت الحسان ، وذهب بمحمد عبد الحميد ومحاسن حَسَّان ، فما أحقَّها أن تسمى فصول الربيع ، وأصول البديع ، لا زال حُسْنُها يملأ الأوراق بما راق ، ويزين الآفاق بما فاق ، ولا برحت حداثق براعته نزهة للأحداق ، وحقائق بلاغته في جيد الإجازة بمنزلة الأطواق ، بمنَّ الله تعالى وكرمه ، انتهى .

وحيث جرى ذكر كتاب « نسيم الصِّبَا » فلا بأس أن نذكر تقارير العلماء له ، فمن ذلك قول القاضي شرف الدين بن ريان : وقفت على هذا الكتاب الذي أبدع فيه مؤلفه ، ونظم فيه الجواهر النفيسة مُصَنِّفه ، وأينعت حداثق أدبه فدنا ثمرها لمن يَقْطُفه ، وعرفت مقدار ما فيه من الإنشاء وأين مَنْ يَعْرِفه ، فوجدته اللطف من اسمه ، وأحسن من الدرر في نظمه ، وأطيب من الورد عند شمِّه ، هبَّتْ على رياض فصوله نسيمُ صَبَاها ، ففاقت الأزهار في رُبَاها ، وتشوقت قلوب الأدباء إلى انتشاق شَدَاها وطيب رِيَاها ، وفاضت عليه أنوار البدر فأغنى سَنَّاها ، عن الشمس وضُحَاها ، وتحلَّتْ نحور البلغاء من كلامه بالدر اليتيم ، ومن معانيه بالعقد النظيم ، وترنَّحتْ أفنان فنون الفصاحة لما هبَّ عليها ذلك النسيم ، كل فصل له في الفضل أسلوب على بابِه ، وطريق انفراد به مُنْشِئُه محاسن لا توجد إلَّا في كتابه ، صَدَرَ هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب وذهن رائق ونفَسٌ صادق ، وروية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ، وقريحة إذا ذقت جَنَّاها ، وشمَّتْ سَنَّاها ، تذكرت ما بين العُذَيْب وبارق ، فالله تعالى يبقي مصنفه قبلة لأهل الأدب وبديعه ، ويبلغه من سعادة الدنيا والآخرة ما يرومه ، بمنَّه وكرمه ، انتهى .

وقرظ عليه بعضهم بقوله : وقف المملوك سليمان بن داود المصري على فصول الحكم من هذه الفصول ، ووجدَ من نسيم الصِّبَا أمارات القبول ، ونزّه طَرَفه في رياض هذا الكتاب ، وخاطب فكره العقيم في وصفه فعجز عن

رد الجواب :

ماذا أقولُ وكلُّ وصفٍ دونهُ أَيْنَ الحُضيض من السَّمَاءِ الأعزَلِ

يا لها كلمات نقصت قدر الأفاضل ، وفضحت فصحاء الأوائل ، وسحبت ذيل الفصاحة على سَحْبَانِ وائل ، وزادت في البلاغة على فريد ، وغيرت حال القدماء فما عبد الرحيم الفاضل وما عبد الحميد^١ ، وذلت لها تشبيهات ابن المعتز طوعاً ، وملكت زمام البيان فما تركت للبديع منه نوعاً :

قَطَفَ الرجالُ القولَ حينَ نَبَاتِهِ وقطفتَ أنتَ القولَ لما نَوَّرَا

وخطاب أعجز الخطباء وَصَفُهُ ، وجواب ألغى البلغاء رَصْفُهُ ، وغرائب تعرّفت بمبديها ، وشوارد تألفت بمهديها ، وجنان بلاغة لم يَطْمِثْ أبكارها إنسٌ قبلك ولا جانٌ ، ولم يقطف أزهارها عين ناظر ولا يدُ جانٍ ، معان تطرب السمع لها حكم وأحكام ، وألفاظ هي الأرواح للأرواح أجسام ، فلما ألقى فهمه عروة المتماسك ، وضائق عليه في وصفه المسالك ، وعجز عن وصف بلوغ بلاغته ، عطف على حُسْن كتابته ، فرأى خطأ يسبي الطرف ، ويستغرق الظرف ، نَسَجَ^٢ قلمه الكريم من وشي البلاغة ديباجاً ، واتخذ من محاسن الحسان طريقاً ومنهاجاً ، فألقى أَلِفَاتٍ كاعتدال القدود ، ونونات كاهِلَةٍ السعود ، وسينات كالطرر ، ونقطاً كالدرر ، جعل للأفلام حُجَّةَ قاطعة على السيوف ، وحكّى الأسماع بحلية زائدة على الشنوف ، فعطف ساعة يُطْنَبُ^٣ في دعائه وشكره ، وآونة يميل من طَرَبِهِ بألفاظه وسكره ، فليّه در ألفاظك ودر فضلِكَ ، وأحسن بوابلك الهاطل بالبيان وطَلِّكَ :

١ ق ودوزي : ولا عبد الحميد .

٢ ق ودوزي : نسخ .

٣ ق ودوزي : يطيب .

لسانك غَوَّاصٌ ، ولفظك جَوْهَرٌ وصدرك بحرٌ بالفضائل زاهرٌ
والله المسؤول أن يرفع قدر مقالك ومقام قدرك ، ويوضح منهاج الأدب بنور
بدرك بمنه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير .
وكتب قاضي القضاة تاج الدين السبكي ، رحمه الله تعالى ، في تقرير الكتاب
المذكور ما نصّه : الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم ، حدثت نحو الحداث ، وفوقت سهمي تلقاء العراض الشائق ، وطرقت
إلى ما يضيء أخوا الحجى أسهل الطرائق ، فما علل صدأي كنسيم الصبا ،
ولا كملته سهماً صائباً صابه من لا صبا ، ولا نظرت نظيره حديقة تنبت فضة
وذهبا :

وتجيء من ملّح الكلا م بطارفٍ أو تالدة
كلمٌ نوابغٌ نحو آ فاق المطالع صاعده
لو رامها قسٌ لما ألفى أباه ساعده
أبدى نتائج عيّه في ذي المعاني الشارده

فعين الله تعالى عليها كلمات عليها منه رقيب ، ومحاسن تسلي عندها بالحسن
حبيب ، وفوائد حسان يذكرنا بها حسان البعيد حسن القريب^١ ، كتبه
عبد الوهاب السبكي ، انتهى .

وكتب ناصر الدين صاحب دواوين الإنشاء ما صورته : وقفت على هذا الكتاب
الذي أشبه الدرّ في انتظامه ، والثغر في ابتسامه ، وقطر الندى في انسجامه ،
وزهر الروض في البكر إذا غنت على غصونه مطربات حمامه ، فوجدت
بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبع مؤلفه السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال
الصديق الحميم ، فتحققت أن مؤلفه — أبقاه الله تعالى وحرسه — أبدع في

١ وفوائد . . . القريب : سقط من ق .

تأليفه ، وأصاب في تمييزه بهذا الاسم وتعريفه ، فهو في اللطافة كالماء في إروائه ، وكالهواء المعتدل في ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتقي جوهره وأجيد في انتقائه ، قد أينعت ثمرات فضائله فأصبحت دانية القطوف ، وتجلت عرائس بلاغته فظهر بدرها بلا كسوف ، وانجابت ظلمات الهموم بسماع موصول مقاطعه التي هي في الحقيقة لأذن الجوزاء شنوف ، فأكرم به من كتاب ما الروض بأبهى من وسيمه ، ولا الریحان بأعطر من شميمه ، ولا المدامة بأرق من هبوب نسيمه ، ولا الدر بأسنى زهراً بل زهواً من رؤومه ، إذا تدبره الأديب أغنته تلك الأفانين ، عن نعمات القوانين ، وإذا تأمله الأريب نزه طرفه في رياض البساتين ، قد سُوّر على كل نوع من البديع باب ، لا يدخله إلا من خُص من البلاغة باللباب ، والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب ، ويمتّع بفضائله التي شهدها أهل العلم وذوو الألباب ، بمنّه وكرمه ، وكتبه محمد ابن يعقوب الشافعي .

وكتب الصفدي شارح لامية العجم بما نصّه : وقفت على هذا المصنّف الموسوم بنسيم الصبّا ، والتأليف الذي لو مرّ بالمجنون لما ألف ليلاه ولا مال إليها ولا صبّا ، والإنشاء الذي إن شاء قائله جعل الكلام غيره في هبّات الهواء هبّا ، والنثر الذي أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز وسبى ، والكلام الذي نبا عنه الجاحظ جاحداً وما له ذكر ولا نبا ، فسبّحت جواهر حروفه لمن أوجده في هذا العصر ، وعلمت أن ألفاظه ترمي قلوب حساده بيشّر كالقصر ، وتحققت أن قعقة طروسه أصوات أعلامه التي تحفّق له بالنصر ، وتيقنت أن سطور غصون لا تصل إليها كف جناية بجنتى ولا هضر :

وقلت لأهل النظم والنثر قابلوا « تراثبها مصقولة كالسجنجل »
وميلوا بأعطاف التعجب إنها « نسيم الصبّا جاءت برياً القرنفل »

ولما ملت بعدما ثملت ، وغزلت بعدما هزلت ، جردت من نفسي شخصاً

أخاطبه وأجاربه ، في أوصاف محاسنها التي أُنَاهِبُ منها وأُنَاهِيهِ ، فقال لي : هذا الفن القذ ، والنثر الذي قهر أقران هذه الصناعة وبذ ، والأدب الذي سد الطرق على أوابده فما فاتته شيء ولا شذ ، وهذا الإنشاء الذي ماله عديل في هذا العديد ولا ضريب ، وهذا الكلام الذي فاق في الآفاق فما لحبيب بن أوس حُسْنُ حَسَنُ بن حبيب ، فعين الله تعالى على هذه الكلم الساحرة ، والفوائد التي أيقظت جفن الأدب بعدما كان بالساهرة ، ومتع الله تعالى الزمان وأهله بهذا النوع الغض ، والنقد النض ، والبز البض ، والبديع الذي رَمَّ ما تشعث من ربيع هذا الفن ورض ، واقتض المعاني أبكاره واقتض ، وأرسل جراح بلاغته على الجوارح فصاها وانقص وانقض ، وأنبَطَ ماء الفصاحة لما تحدر وارفض ، واستمال القلب الفظ لما فك ختم ذهوله وفض ، إنّه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، بمنّه وكرمه ، وكتبه خليل الصفدي ، انتهى .

٣٠٢ - ومنهم الأديب أبو جعفر الإلبيري^١ ، رفيق ابن جابر السابق الذكر ، وهو البصير وابن جابر الأعمى ، وله نظم بديع منه قوله :

أبدت لي الصّدغَ على خدّها فأطلع الليلُ لنا صُبْحَهُ
فخدّها مع قدّها قائلٌ « هذا شقيقٌ عارضٌ رَمَحَهُ »

وقوله وقد دخل حمص :

حمصٌ لمن أضحى بها جنّةٌ يدنو لديها الأملُ القاصي
حلّ بها العاصي ألا فاعجبوا من جنّةٍ حلّ بها العاصي

وقوله :

إنّ بيّنَ الحبيبِ عندي موتٌ وبه قد حييتُ منذ زمانٍ

١ وردت الإشارة إلى أبي جعفر الإلبيري الرعيني ومصادر ترجمته في النفع ج ١ : ص ٤٤ .

لَيْتَ شعري متى تشاهده العيّ ن وتقضي من اللقاء الأماني

قال : وفيه استخدام ، لأن البين يطلق على البعد والقرب ، انتهى .

ومن نظمه أيضاً رحمه الله تعالى :

وَمُورِدِ الْوَجَنَاتِ دَبَّ عِذارُهُ فكَأَنَّهُ خَطٌّ عَلَى قِرطاسٍ

لَمَّا رَأَيْتُ عِذارَهُ مُستعجلاً قد رام يخفي الورد منه بآسٍ

ناديته قف كي أودّع ورده « ما في وقوفك ساعة من باس »

وهذا المعنى قد تبارى فيه الشعراء وتسبقوا في مضماره ، فمنهم من جلى وبرز ، وحاز خصل السبق وأحرز ، ومنهم من كان مُصلِّياً ، ومنهم من غدا بلحيد الإحسان مُحلياً ، ومنهم من عاد قبل الغاية مولياً .

رجع - ومن تأليفه رحمه الله تعالى شرحه لبديعية رفيقه ابن جابر المذكور .

وقال في خطبته : ولما كانت القصيدة المنظومة في علم البديع المسماة « بالحلة السيرا في مدح خير الورى » التي أنشأها صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله ابن جابر الأندلسي ، نادرة في فنها ، فريدة في حسنها ، يُجنى ثمر البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الإجادة من مُزنيها ، لم يُنسج على منوالها ، ولا سمحت قريحة بمثالها ، رأيت أن أضع لها شرحاً يجلو عرائس معانيها لمعانيها ، ويبيد غرائب ما فيها لموافيها ، لا أُمِلُّ الناظر فيه بالتطويل ، ولا أعوقه بكثرة الاختصار عن مدارك التحصيل ، فخير الأمور أوسطها ، والغرض ما يقرب المقاصد ويضبطها ، فأعرب من ألفاظها كل خفي ، وأسكت من لغاتها عن كل جلي ، والله أسأل أن يبلغنا ما قصدناه ، ويوردنا أحسن الموارد فيما أردناه ، انتهى . وسمى الشرح المذكور « طراز الحلة وشفاء الغلة » ، ومما أورده رحمه الله تعالى في ذلك الشرح من نظم نفسه قوله :

طَيِّبَةُ ما أَطْيَبُهَا مَنَزَلاً سَقَى ثَرَاهَا المَطَرُ الصَّيْبُ
طَابَتْ بَمِنْ حَلٍّ بِأَرْجَائِهَا فَالتَرَبُّ مِنْهَا عَنَبٌ طَيِّبٌ
يَا طَيِّبَ عَيْشِي عِنْدَ ذَكَرِي لَهَا وَالْعَيْشُ فِي ذَاكَ الحَمَى أَطْيَبُ

وقال رحمه الله تعالى في هذا الشرح بعد كلام ما نصّه : وإذا أردت أن تنظر إلى تفاوت درجات الكلام في هذا المقام فانظر إلى إسحاق الموصلي كيف جاء إلى قصر مشيد ، ومحلّ سرور جديد ، فخاطبه بما يخاطب به الطلول البالية ، والمنازل الدارسة الحالية ، فقال :

يَا دَارُ غَيْرِكَ الْبَيْلَى وَمَحَاكَ

فأحزن في موضع السرور ، وأجرى كلامه على عكس الأمور ، وانظر إلى قول القَطامي :

إِنَّا مَحْيُوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلُّ وَإِنْ بَلَيْتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطَّيْلُ

فانظر كيف جاء إلى طَلَلٍ بَالٍ ، ورسم خالٍ ، فأحسن حين حيّاه ، ودعا له بالسلامة كالمبتهج برؤية مُحَيَّاه ، فلم يذكر دروس الطلل وبلاه ، حتى آنس المسامع بأوفى التحية وأزكى السلامة ، والذي فتح هذا الباب ، وأطنب فيه غاية الإطناب ، صاحب اللواء ، ومقدم الشعراء ، حيث قال :

أَلَا عِمٌّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَغِمَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي
وَهَلْ يَغِمَنَّ إِلَّا سَعِيدٌ مَخْلَدٌ قَلِيلُ الْهَمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

قيل : وهذا البيت الأخير يحسن أن يكون من أوصاف الجنة ، لأن السعادة والخلود وقلة الهموم والأوجال لا توجد إلا في الجنة ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى عند رحيله من غرناطة وأعلام نجد تلوح ، وحمائم تشدو على الأيك وتنوح :

ولمّا وقفنا للوداع وقد بدتُ قبابٌ بنجدٍ قد علّت ذلك الوادي
نظرتُ فألفيتُ السبيكةَ فضةً لحسن بياض الزهر في ذلك النادي
فلمّا كستَها الشمسُ عادَ لُجَيْنُها لها ذهباً فاعجب لإكسيرها البادي

والسبيكة : موضع خارج غرناطة .

وقال رحمه الله :

هذه عشرةٌ تقصّتْ وعندي من أليم البعادِ شوقٌ شديدُ
وإذا ما رأيتَ إطفاءَ شوقي بالتلاقي فذاك رأيٌ سديدُ

وقال رحمه الله تعالى وقد أهدى طاقة :

خذها إليك هديةً ممن يعزُّ على أناسِكُ
اخترتها لكَ عندما أضحت هدية كلِّ ناسِكُ
أرسلتها طاقيةً لثوبٍ عن تقبيلِ راسِكُ

وله من رسالة : وافى كتابك فوجدناه أزهى من الأزهار ، وأبهى من
حسن الحباب على الأنهار ، يشرق إشراق نجوم السماء ، ويسمو إلى الأسماع
سمو حباب الماء .

وقال رحمه الله تعالى في العروض على مذهب الخليل :

خلّ الأنامَ ولا تخالطْ منهمُ أحداً ولو أصفى إليك ضمائره
إنّ الموفّقَ من يكونُ كأنه متقاربٌ فهو الوحيدُ بدائره

وقال على مذهب الأخفش :

إنّ الخلاصَ من الأنامِ لراحةٌ لكنّه ما نالَ ذلك سالِكُ
أضحى بدائرةٍ له متقاربٍ يرجو الخلاصَ فعاقه متداركُ

وله :

دائرةُ الحبِّ قد تناهت فما لها في الهوى مزيدُ
فبحرُ شوقي بها طويلُ وبحر دمعِي بها مديد
وإنَّ وجدي بها بسيطُ فليفعل الحسنُ ما يريد

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيراً ، ومنهم الشيخ شهاب الدين بن صارو البعلبي . قال أبو جعفر المترجم به : أنشدنا شهاب الدين المذكور لنفسه بحماسة :

وبي عروضيُّ سريعُ الجفا يغار غصنُ البانِ من عطفِهِ
الوردُ مِن وجنته وافرُ لكنَّهُ يَمْنَعُ من قطفه

قال : وأنشدنا أيضاً لنفسه :

وبي عروضيُّ سريعُ الجفا وجدي به مثلُ جفاه طويلُ
قلتُ له قَطَعْتَ قلبي أسي فقال لي التقطِيعُ دأبُ الخليلِ

انتهى .

وأنشد رحمه الله تعالى لرفيقه ابن جابر الضرير السابق الترجمة في ذلك :

إن صدَّ عني فإنِّي لا أعاتبه فما التنافر في الغزلان تنقيصُ
شوقي مديدٌ وحيي كاملُ أبداً لأجل ذلك قلبي فيه مَوْقُوصُ

وأنشد له أيضاً في ذلك :

عالمٌ بالعروض يَحْبِسُ قلبي في مديدِ الهوى بلحظٍ سريعٍ
عنده وافرٌ من الرَّدْف يبدو وخفيفٌ من خصره المقطوعِ

وله :

صدوده لي مديدٌ وأمرٌ حبيّ طويلٌ
وفيه أسبابٌ حُسنٌ وتلك عندي الأصولُ
فخصره لي خفيفٌ وردفه لي ثقیلُ

وله :

سببٌ خفيفٌ خَصَرُها ، ووراءه من ردفها سببٌ ثقیلٌ ظاهرٌ
لم يُجمعِ النوعانِ في تركيبها إلاّ لأنّ الحسنَ فيها وافرٌ

وقد ذكر أبو جعفر - رحمه الله تعالى - لرفيقه ابن جابر السابق الذكر
مقطوعات كثيرة ، منها قوله :

يا أيها الحادي اسقني كأس السرى نحو الحبيب ومهجتي للساق
حيّ العراقَ على النوى واحملْ إلى أهلِ الحِجازِ رسائلَ العُشاقِ
يا حُسنَ ألحانِ الحُداةِ إذا جرتْ نَعَمَاتُها بِمَسامعِ المُشتاقِ

وأورد له أيضاً^١ :

يا حُسنَ ليلتنا التي قدّ زارني فيها فأنجز ما مضى مِنْ وعْدِهِ
قَوِّمْتُ شَمْسَ جماله فوجدتها في عَقْرَبِ الصُّدُغِ الذي في خَدِّهِ

رجع إلى أبي جعفر - رحمه الله تعالى - ومن فوائده أنّه لما ذكر قدّ لكة
الحساب قال : هي التي يصنعها أهل الحساب آخر جملهم المتقدمة فيقولون :
فذلك كذا وكذا ، انتهى .

١ أيضاً : سقطت من ق .

ولما أنشد رحمه الله تعالى قول بعضهم :

غزالٌ "قَدْ غَزَا قَلْبِي بِالْحَاضِ وَأَحْدَقِ
لَهُ الثَّلَاثَانِ مِنْ قَلْبِي وَثَلَاثَا ثَلَاثَ الْبَاقِي
وَلَا ثَلَاثَ ثَلَاثٍ مَا يَبْقَى وَبَاقِي الثَّلَاثِ لِلْسَاقِي
وَتَبْقَى أَسْهُمٌ سِتُّ تُقَسَّمُ بَيْنَ عَشَّاقٍ

قال ما نصّه : هذا الشاعر قسم قلبه إلى ٨١ سهماً ، فجعل لمحجوبه منها الثلثين ٥٤ ، وبقي الثلث ٢٧ ، فزاده ثلثيه ١٨ ، فصار له ٧٢ ، يبقى ثلث الثلث وهو ٩ ، زاده منها ثلثي ثلثها ، وهو اثنان ، وبقي من الثلث واحد أعطاه للساقى ، فبقي من التسعة ستة ، قسمها بين العشاق ، فاجتمع لمحجوبه ٧٤ ، وللساقى سهم واحد ، وللعشاق ستة ، والجملة ٨١ ، انتهى .

وأنشد رحمه الله تعالى في علم الحساب لرفيقه ابن جابر السابق الذكر :

قَسَمَ الْقَلْبَ فِي الْغَرَامِ بِلَحْظٍ يَضْرِبُ الْقَلْبَ حِينَ يَرْسُلُ سَهْمُهُ
هَذِهِ فِي هَوَاهُ يَا قَوْمُ حَالِي ضَاعَ قَلْبِي مَا بَيْنَ ضَرْبٍ وَقِسْمِهِ

وأنشد له في الهندسة :

مُحِيطٌ بِأَشْكَالِ الْمَلَاخَةِ وَجْهَهُ كَأَنَّ بِهِ إِقْلِيدَسًا يَتَحَدَّثُ
فَعَارِضُهُ خَطٌّ اسْتَوَاءٌ ، وَخَالَهُ بِهِ نَقْطَةٌ ، وَالشَّكْلُ شَكْلٌ مِثْلُثٌ

وأنشد له في خط الرمل :

فَوْقَ خَدَّيْهِ لِلْعِذَارِ طَرِيقٌ قَدْ بَدَأَ تَحْتَهُ بَيَاضٌ وَحُمْرَةٌ
قَبْلَ مَاذَا فَقُلْتُ أَشْكَالٌ حُسْنٌ تَقْتَضِي أَنْ أَبِيعَ قَلْبِي بِنَظَرِهِ

وأنشد له في علم الخط :

قَدْ حَقَّقَ الْحُسْنَ نُونٌ حَاجِبُهُ وَخَطٌّ فِي الصَّدُغِ وَآوَرِيحَانِ

ومدّ من حُسْنِ قَدّه أَلِفاً أوقفَ عيني وقوفَ حيرانِ
وأنشد له أيضاً :

أَلِفُ ابنِ مقلّةٍ في الكتابِ كَقَدّه والنونُ مثلُ الصّدغِ في التحسينِ
والعينُ مثلُ العينِ لكنْ هذه شُكِلَتْ بحسنِ وقاحةٍ ومجونِ
وعلى الجبينِ لشعره سينٌ بدتْ حار ابنِ مقلّةٍ عند تلك السينِ
قلٌ للذي قد خطّ تحت الصّدغِ من خيلانهِ نَقَطاً لجلبِ فنونِ
يا للرجالِ ويا لها من فتنةٍ في وضعِ ذاك النّقط تحت النونِ
وأورد له في ذكر الأقلام السبعة وغيرها :

تعلّق رِدْفِكَ بالخصر الخفيف له ثلثُ الجمالِ وقد وَفّتهُ أجفانُ
خذْ عليه رقاعِ الروضِ قد جُعِلَتْ وفي حواشيه للصدغين ريجانُ
خطّ الشباب بطُومار العذار به سطرأ ففضّأحه للناس فتانُ
محقّق نسخ صبري عن هَوَاهُ ومن توقّع مدمعي المثورِ برهانُ
يا حسن ما قلّمُ الأشعار خطّ على ذاك الجبينِ فلا يسلوه إنسانُ
أقسمتُ بالمصحفِ الشامي وأحرفه ما مرّ بالبالِ يوماً عنك سلوانُ
ولا غبار على حبي فعندك لي حساب شوق له في القلب ديوانُ
وأنشد له :

يا صاحبَ المالِ أَلَمْ تسمعْ لقوله ﴿ ما عندكم ينفد ﴾
فاعملْ به خيراً فوالله ما يبقى ولا أنت به مُخلّدُ

وله :

إن شئتَ أن تجدَ العدوَّ وقد غدا لك صاحباً يُولي الجميلَ ويُحسنُ
فاعملْ كما قال الخبيرُ بخلقه في قوله ﴿ ادفعْ بالتي هي أحسن ﴾

وله :

إذا شئت رزقاً بلا حِسْبَةٍ فلنُدُّ بالتقى واتَّبِعْ سُبُلَهُ
وتصديقُ ذلك في قوله ﴿ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ لَهُ﴾

وأورد له أيضاً^١ :

عملٌ إن لم يوافق نيةً فهو غَرَسٌ لا يرى منه ثَمَرٌ
«إنما الأعمال بالنيات» قد نصَّه عن سيد الخلق عُمَرُ

وقوله :

الخير في أشياء عن خير الورى ورَدَّتْ فأبدتْ كلَّ نهجٍ بيِّنِ
«دع ما يريبك ، واعملنَّ بنيةً ، وازهد ولا تغضب وخلقك حسنٍ»

وقوله :

حياء المرء يزجره فيخشى فخَفَ من لا يكون له حياء
فقد قال الرسولُ بأنَّ ممَّا به نَطَقَ الكرامُ الأنبياء :
«إذا ما أنت لم تستحي فاصنع كما تختارُ وافعل ما تشاء»

وقوله :

قال الرسول «الحياء خير» فاصحَبْ من الناس ذا حياء
وعن قليلِ الحياء فابعدُ فخيرهُ ليس ذا رجاء

وقوله :

« من سلم المسلمون كلهم وآمنوا من لسانه ويدِهِ»

١ ق : قوله .

فذلك المسلم الحقيق « بهذا جاء حديثٌ لا شك في سندهُ

ولابن جابر ممّا كتب به إلى الصلاح الصفّدي ^١ :

إن البراعة لفظ أنت معناه وكلُّ شيء بديع أنت مَغْنَاهُ
إنشاد نظمك أشهى عند سامعه من نظم غيرك لو إسحاقُ غَنَّاهُ

وهي طويلة ، فأجابه الصفّدي بقوله :

يا فاضلاً كرمتُ فينا سَجَاياه وخصّصنا بالآلي في هداياهُ
خصّصتني بقريض شَفَّ جوهره لما تألّق منه نورُ معناه
من كل بيتٍ مَبَانِيهِ مشيدة كم من خبايا معانٍ في زواياهُ
وهي طويلة .

رجع إلى نظم أبي جعفر - فمن ذلك قوله :

تريكَ قدّاً على رِدْفٍ تجاذبه كخُوطَةِ في كَثِيبِ الرملِ قد نبّتْ
ريّاً القرنفل في رِيحٍ ^٢ الصَّبَا سحرّاً يَضُوعُ منها إذا نحوي قد التفتّتْ

عقد بهما ألفاظ قول امرئ القيس :

إذا التفتّتْ نحوي تضوع ريجها نسيم الصَّبَا جاءت برِياً القرنفل

وأورد له قوله :

ولولا نَجَاء العيسِ حولَ ديارها غداةَ مِنيّ لم يبق في الركبِ مُحَرِّم
ففوقَ ذَرَا المتنين بُردٌ مهللٌ وتحت رداء الخز وجهٌ مُعلّم

١ انظر القصيدة وجواب الصفّدي عليها في الوافي ونكت الهميان .

٢ ق : ريا .

عقد في الأول قول قيس بن الخطيم^١ :

ديارُ التي كنّا ونحن على مِنيّ تحوطُ بنا لولا نَجاء الركائبِ

وعقد في الثاني قول ابن أخي ربيعة :

أماطتُ رداءَ الحُرّ عن حُرٍّ وجهها وأرختُ على المتنين بُرداً مهللاً

وأورد له قوله :

إن ادّعى لك مروانُ الجلالَ فقلْ لا يجهلُ المرءُ بينَ الناسِ رتبتهُ
إن الجلالةَ حقّاً للمقول له « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته »

وقوله :

مَنْ مُنْصِفِي يا قومُ من ظبيةٍ تسرف في هجري وتأبى الوصال
وكلّما أسأل عن عذرها تقول لي : « ما كلُّ عذرٍ يقال »

وقوله :

همُ حسدوا الرسولَ فلم يجيئوا وكم حسدوا فصار لهم فرارُ
وهاجَرَ عندما هجروا فأضحى لخيمة أمّ معبدٍ الفخارُ

وقوله :

بحسبيك أن تبيتَ على رجاء ولو حطّتكَ لليأسِ الخطوبُ
ومهما أكربتك صروفُ دهرٍ فقل ما قاله الرجلُ الأريبُ :
« عسى الكرب الذي أمست فيه يكون وراءه فرجٌ قريبُ »

١ ديوان قيس بن الخطيم : ٣٤ وفيه : تحل بنا .

وقوله :

خليليّ هذا قبر أشرف مرسلٍ « قفا نبك من ذكرى حبيب ومترلٍ »
رويد كما نبكي الذنوب التي خلّت « بسقط الأولى بين الدّخول فحوملٍ »
منازل كانت للتصابي فأقفرّت « لما نسجتها من جنوب وشمالٍ »

قال : ثم جرى على هذا النمط ، واستخرج الدرر النفيسة من ذلك السّفط ،
وقال قبله : إنّه أخذ أعجاز هذه القصيدة من أولها إلى آخرها على التوالي ، وصنع
لها صدوراً ، وصرفها إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء في ذلك بما لم
يُسبق إليه ، ولم يقف أحد في تلك المعاني على ما وقف عليه ، انتهى .

وقوله :

كم ليالٍ خلّت بكم كاللّاليّ نظمتها لنا يدُ الأزمانِ
أيّها النّازحون عن رأي عينيّ وهمُ في جوانحي وجنّانيّ
ما ألدّ الوصالَ بعد التّنائيّ وأمرّ الفراقَ بعد التّدانيّ
قدّ وكلناكمُ لربّ كريمٍ غير وانٍ عن عبده في أوّانٍ
ما رحلنا عن اختيارٍ ولكنّ رحلّنا تلوّاتُ الزّمانِ

وقوله :

تشتكي الصّفْرُ من يديه وترضى الـ سمرُ عن راحتيه عند الحروبِ
أحمرُ السيفِ أخضرُ السّيبِ حيثُ الـ أرضُ غبراء من سوادِ الخطوبِ

وقوله ممّا التزم في أوله الدال :

دفاعٌ لمكروهٍ ، أمانٌ لخائفٍ سحبابٌ لمستجدٍ ، هلاكٌ لمستعديّ
دروبٌ على الحسنَى ، عفوٌ لمن جنّى مثيبٌ لمن أثنى ، مجيبٌ لذي قصدٍ

دع الغيث إن أعطى ، دع الليث إن سطا
دع الروض إذ يهدي ، دع البدر إذ يهدي
وقوله :

غزالٌ ما توسدَ ظلَّ بانٍ بهجرةٍ ولا عَرَفَ الظلالا
تبسم لؤلؤاً ، واهتز غصناً وأعرض شادناً ، وبدا هلالا

وقوله :

رُفِعَ الخصرُ فوق منصوبٍ ردْفٍ ولحزمِ القلوبِ قرعَيْنِه جَرًّا
مال غصناً ، رنا رشاً ، فاح مسكاً تاه درآ ، أرخى دُجى ، لاح بدرا

وقوله حين زار قبر قسّ بن ساعدة بجبل سمعان :

هذي منازلُ ذي العُلا قسّ بن ساعدة الإيادي
كم عاشَ في الدنيا وكم أسدى إلينا من أيادي
قد زانها بحلَى البَلا غة مفصّحاً في كل نادي
قد قرّ في بطنِ الثرى متفرّداً بسينِ العبادِ

قال أبو جعفر : زرنا قبره فرأينا موضعاً ترتاح إليه النفس ، ويلوح عليه
الأنس ، وعند قبره عين ماء يقال : إنّه ليس بجبل سمعان عين تجري غيرها
هناك ، وأورد له قوله :

كرامٌ فيخامٌ من ذُؤابةِ هاشمٍ يقولون للأضياف أهلاً ومرحبا
فيفعلُ في فقر المقلّين جودهم كفعل عليّ يومَ حاربَ مَرَحِباً

رجع إلى أبي جعفر ، رحمه الله تعالى ، فنقول : إنّه كان بمدينة النبي صلى
الله عليه وسلم سنة ٧٥٥ ، ولما ذكر الروضة قال : قيل : ولا تكون الروضة
إلا بماء يسقيها أو إلى جنبها ، ولا يقال في موضع الشجر روضة ، انتهى ، وقال :

لقوامه الألفُ التي جاءت بحسنٍ ما ألفُ
عانقتهُ فكأنتي لامٌ معانقةُ الألفُ

وقال رحمه الله تعالى معذراً عمّن لم يسلم :

لا تعبتنّ على تركِ السلامِ فقد جاءتك أحرفهُ كَتَباً بلا قَلَمِ
فالسین من طرقي واللامُ مع ألفٍ من عارضيّ وهذا الميمُ ميمٌ فمي

وقال رحمه الله تعالى :

لا يُقْنِطَنَّكَ ذنبٌ قد كان منك ، عظيمٌ
فالله قد قال قولاً وهو الجوادُ الكريمُ
﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

وقال :

إذا ظلم المرء فاصبر له فبالقرب يُقْطَعُ منه الوَتِينُ
فقد قال ربُّكَ وهو القويُّ ﴿وَأْمُرْهُمْ أَنْ يُكَلِّمُوا الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ﴾

ومن نثره لما ذكر قصيدة كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه ما نصّه : وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ ، والحُكْمُ الذي لم يوجد له ناسخ ، أنشدّها كعبٌ^١ في مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه ، وتوسّل بها فوصل إلى العفو عن عقابه ، فسدّ صلى الله عليه وسلم خلّته ، وخلع عليه خلّته ، وكفّ عنه كفّ من أرادّه ، وأبلغه في نفسه وأهله مُرّادّه ، وذلك بعد إهدار دمه ، وما سبق من هذَرِ كَلِمِهِ ، فمحت حسناتُها تلك الذنوب ، وسرت محاسنُها وجه تلك العيوب ، ولولاها لمنع المدح والغزل ، وقطّع من أخذ الجوائز على الشعر

١ كعب : سقطت من ق .

الأمل ، فهي حجة الشعراء فيما سلكوه ، وملاك أمرهم فيما ملكوه ، حدثني بعضُ شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب ، فقيل له في ذلك ، فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، قصيدة كعب أنشدتها بين يديك ؟ فقال : نعم ، وأنا أحبها وأحب من يحبها ، قال : فعاهدت الله أنني لا أدخل من قراءتها كل يوم . قلت : ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسججون على منوالها ، ويقتلون بأقوالها ، تبرئكم بمن أنشدت بين يديه ، ونُسب مدحها إليه ، ولما صنع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على وزن « بابت سعاد » قال :

لقد قال كعبٌ في النبي قصيدةٌ وقلنا عسى في مدحه نشاركُ
فإن شملتنا بالجوائزِ رحمةً كرحمةِ كعبٍ فهو كعبٌ مباركُ
انتهى .

وقال رحمه الله تعالى :

لقد كَرَّ العذارُ بوجنتيه كما كَرَّ الظلامُ على النهارِ
فغابت شمسُ وجنته وجاءتُ على مهلٍ عَشِيَّاتُ العذارِ
فقلتُ لناظري لما رآها وقد خلط السواد بالاحمرارِ
« تمتع من شميم عَرَّارِ نجد فما بعدَ العشيّة من عَرَّارِ »

وقال :

قالوا عشقت وقد أضربك الهوى فأجبتهم يا ليتني لم أعشَقِ
قالوا سبقت إلى محبة حسنه فأجبتهم ما فاز من لم يسبقِ

ولما أنشد رحمه الله تعالى قول ابن الحشاش في المستضيء بالله :

وَرَدَ الْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَارْتَوَوْا وَوَقَفْتُ دُونَ الْوَرْدِ وَقَفَّةً حَائِمٍ
 ظَمَانٌ أَطْلُبُ خَفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ وَالْوَرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحِمٍ
 قَالَ مَا نَصَّه : فَاظْطَرَّ حَسَنُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرِيَا كَالْمَاءِ فِي سِلَاسَتِهِ ، وَوَقَعَا
 مِنَ الْقُلُوبِ كَالشَّهَدِ فِي حِلَاوَتِهِ ، مَعَ أَنَّ نَازِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ الْمَاءِ
 كَلَامُهُ ، وَلَا تَعْدَى ذَلِكَ الْمَعْنَى نَظَامُهُ ، حَتَّى قِيلَ : إِنْ فِيهِمَا عَشْرَةُ مَوَاضِعَ مِنْ
 مِرَاعَاةِ النَّظِيرِ ، فَهَمَّا فِي الْحَسَنِ مَا لَهْمَا مِنْ نَظِيرٍ ، لَكِنَّهُمَا سَلِمَ مَلِيحٌ مِنْ عَيْبٍ ،
 وَلَا خِلَا مِنْ وَقُوعِ رَيْبٍ ، فَمَعَ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ الْوَاقِفَةِ ، مَا سَلِمَا مِنْ عَيْبِ الْقَافِيَةِ ،
 . اِنْتَهَى .

وَلنَحْنُ تَرْجَمَتُهُ بِقَوْلِهِ عِنْدَ شَرْحِ بَيْتِ رَفِيقِهِ :

خَيْرُ اللَّيَالِي لَيَالِي الْخَيْرِ فِي إِضْمٍ وَالْقَوْمُ قَدْ بَلَغُوا أَقْصَى مُرَادِهِمْ

مَا نَصَّه : يَقُولُ : إِنْ خَيْرُ اللَّيَالِي الَّتِي تَنْشُرُ لَهَا الصَّدُورُ ، وَيَحْمَدُ فِيهَا
 الْوُرُودُ وَالصَّدُورُ ، لَيَالِي الْخَيْرِ فِي إِضْمٍ ، حَيْثُ التَّرِيلُ لَمْ يُضْمَ ، وَالْقَوْمُ قَدْ
 وَرَدُوا مَوَارِدَ الْكِرَمِ ، وَبَلَغُوا أَقْصَى مُرَادِهِمْ فِي ذَلِكَ الْحَرَمِ .

٣٠٣ - وَمِنَ الرَّاحِلِينَ الْوَلِيُّ الصَّالِحُ أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
 ابْنِ بَشَرَ ، الْقَيْسِيُّ . وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ ابْنِ صَاحِبِ الصَّلَاةِ الْبَجَانِسِيِّ ، نَسَبُهُ إِلَى
 بَجَانَسٍ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى وَادِي آشَ ، وَكَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي أَوَاسِطِ الْمِائَةِ
 السَّابِعَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْفَقِيهُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ بِحْيَى الْأَزْدِيُّ
 الْفَسْطَاتِيُّ فِي تَأْلِيْفِهِ الَّذِي سَمَّاهُ « تَحْفَةُ الْمَغْرِبِ بِيْلَادِ الْمَغْرِبِ » ، وَقَالَ فِيهِ : رَاضُوا
 نَفْسَهُمْ لَتَنْقَادَ لِلْمَوْلَى سَرَّاءً وَعِلْنًا ، وَزَهْدُوا فِي الدُّنْيَا فَلَمْ يَقُولُوا مَعْنَا وَلَا لَنَا ،
 وَانْتَدَبُوا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .
 (الْمَنْكِبُوتُ : ٦٩) .

وَقَالَ صَاحِبُ التَّأْلِيفِ الْمَذْكُورِ : سَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا مَرْوَانَ يَوْمًا فِي مَسِيرِي
 مَعَهُ مِنْ وَادِي آشَ إِلَى بَلَدِهِ بَجَانَسٍ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتَّمِائَةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ

يا سيدي لم تكن قرأت ولا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق ، ولا سافرت مع عالم تقتدي ببركته في هذا الطريق ، فقال لي : أقام الله تعالى لي من باطني شيخاً ، قلت له : كيف ؟ قال : كنت إذا عرض لي أمر نظرت في خاطري فيخطر لي خاطران في ذلك ، أحدهما محمود والآخر مذموم ، فكنت أجتنب المذموم وأرتكب محمود ، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمّن فيه من المشايخ والعلماء ، فأسأله عن ذلك ، فكان يذكر لي محمود محموداً والمذموم مذموماً ، فأحمد الله تعالى أن وفقني ، ومع تتابع ذلك واتصاله دون مخالفة لم أعتمد على ما يقع بخاطري من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء ، انتهى .

ومن كلام صاحب التأليف المذكور قوله في حق الصوفية ، نفعتنا الله تعالى بهم : حمّوا طريق الحق فحاجاهم ، ونور بصائرهم فأصمهم عن الباطل وأعماهم ، وأهانوا في رضاه نفوسهم ، ورفضوا نعماهم ، فأعلى قدرهم عنده وعند الناس وأسماهم ، انتهى .

وما أحسن قوله في التأليف المذكور : يا هذا ، من حافظ حفوظ عليه ، ومن طلب الخير بصدق وصل إليه ، ومن أخلص العبودية لربه قام الأحرار خدّمة بين يديه ، انتهى .

٣٠٤ — ومنهم الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار^١ ، المالقي ، نزيل القاهرة . وهو الذي عناه ابن سعيد في كتابه « المغرب » بقوله : وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشّر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها ، وضبطه على حروف المعجم ، وهو النهاية في مقصده .

١ ترجمة ابن البيطار في ابن أبي أصيبعة ٢ : ١٣٣ والفوات ١ : ٤٣٤ .

وقد ذكرت كلام ابن سعيد هذا بجملة في غير هذا الموضع ، فليراجع .
وكان ابن البيطار أوحّد زمانه في معرفة النبات ، سافر إلى بلاد الأغرقة
وأقصى بلاد الروم والمغرب ، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا
الفن ، وعين متابعه وتحققها ، وعاد بعد أسفاره ، وخدم الكامل بن العادل ،
وكان يعتمد عليه في الأدوية والحشائش ، وجعله في الديار المصرية رئيساً على
سائر العشّابين وأصحاب البسطات ، ومن بعده خدم ولده الصالح ، وكان
حظياً عنده ، إلى أن توفي بشعبان سنة ٦٤٦ التي توفي بها ابن الحاجب ، وله
من المصنفات كتاب « الجامع في الأدوية المفردة » وكتاب « المغني » أيضاً في
الأدوية ، وكتاب « الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام » ، وكتاب
« الأفعال العجيبة والخواص الغريبة » ، وشرح كتاب ديسقوريدوس ، قال
الذهبي : انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته ، وأماكنه ومنافعه ، وتوفي
بدمشق ، انتهى .

٣٠٥ - ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي ، القرشي ،
البسطي ، الشهير بالقليصادي - بفتحات - كما قال السخاوي^١ ، الصالح
الرحلة ، المؤلف ، الفرضي ، آخر من له التأليف الكثيرة من أئمة الأندلس ،
وأكثر تصانيفه في الحساب والفرائض ، كشرحه العجيبين على تلخيص ابن
البناء والحوافي ، وكفاه فخراً أن الإمام السنوسي صاحب العقائد أخذ عنه جملة
من الفرائض والحساب ، وأجازه جميع مرويّاته ، وأصله من بسطة ، ثم انتقل
إلى غرناطة ، فاستوطنها ، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرّسطي
وغيرهما ، ثم ارتحل إلى المشرق ومر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا
ابن مرزوق والقاضي أبي الفضل قاسم العقباني وأبي العباس ابن زاغ وغيرهم ،

١ - ترجمة القليصادي في الضوء اللامع ٥ : ١٤ ونيل الابتهاج : ٢٠٩ (هامش الديباج) وانظر فيه
أعلام الزركلي للاطلاع على مصادر أخرى (٥ : ١٦٣) .

ثم ارتحل فلقي بتونس تلامذة ابن عرفة كابن عقاب والقلشاني وحلولو وغيرهم ،
ثم حج ولقي أعلاماً ، وعاد فاستوطن غرناطة إلى أن حل بوطنه ما حل ،
فتحیل في خلاصه من الشرك وارتحل ، ومر بتلمسان فترل بها على الكفيف
ابن مرزوق ابن شيخه ، ثم جدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية
منتصف ذي الحجة سنة ١٨٩١ ، وكان كثير المواظبة على الدرس والكتابة
والتأليف ، ومن تأليفه « أشرف المسالك إلى مذهب مالك » وشرح مختصر
خليل ، وشرح الرسالة ، وشرح التلقين ، و« هداية الأنام في شرح مختصر
قواعد الإسلام » وهو شرح مفيد ، وشرح رجز القرطبي ، و« تنبيه الإنسان
إلى علم الميزان » ، و« المدخل الضروري » ، وشرح لإساعوجي في المنطق ، وله
شرح الأنوار السنية لابن جزّي ، وشرح رجز الشراز في الفرائض الذي أوله :

بمحمد خير الوارثين أبتدي وبالمرّاج النبوي أهتدي

وشرح حِكَم ابن عطاء الله ، ورجز أبي عمرو بن منظور في أسماء النبي
صلى الله عليه وسلم ، وشرح البردة ، ورجز ابن بري ، ورجز شيخه أبي
إسحاق بن فتوح في النجوم الذي أوله :

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى

وشرح رجز أبي مفرعة ، وله « النصيحة في السياسة العامة والخاصة » ،
و« هداية النظائر في تحفة الأحكام والأسرار » ، و« كشف الجلباب عن علم
الحساب » ، و« كشف الأسرار عن علم الغبار » ، و« التبصرة » ، و« قانون
الحساب » في قدر التلخيص ، وشرحه ، وشرحان على التلخيص كبير وصغير ،
وشرح ابن الياسمين في الجبر والمقابلة ، ومختصره ، وكلديات الفرائض ، وشرحها ،

وشرحان للتلمسانية كبير وصغير ، وشرح فرائض صالح بن شريف وابن الشاط وفرائض مختصر خليل والتلقين وابن الحاجب ، وله كتاب « الغنية في الفرائض » ، و « غنية النحاة » وشرحها الكبير والصغير ، و « تقريب المواريث » ، و « منتهى العقول البواحث » ، وشرح مختصر العقباني ، ولم يتم ، و « مدخل الطالبين » ، ومختصر مفيد في النحو ، وشرح رجز ابن مالك ، والجرومية ، وجمل الزجاجي ، ومُلححة الحريري ، والخزرجية ، ومختصر في العروض ، وغير ذلك ، وأخذ بمصر عن الحافظ ابن حجر والزين طاهر النويري وأبي القاسم النويري والعلامة الجلال المحلي والتقي الشمني وأبي الفتح المراغي وغيرهم ، حسبما ذكر ذلك في رحلته الشهيرة ، وهي حاوية لشيوخه بالمغرب والمشرق وجملة من أحوالهم ، رحم الله تعالى الجميع .

٣٠٦ - ومنهم أبو عبد الله الراعي ، وهو شمس الدين محمد بن إسماعيل ، الأندلسي الغرناطي^١ ، ولد بها سنة ٧٨٢ تقريباً ، ونشأ بها ، وأخذ الفقه والأصول والعربية عن جماعة ، منهم أبو جعفر أحمد بن إدريس بن سعيد الأندلسي ، وسمع على أبي بكر عبد الله بن محمد بن محمد المتعافري ابن الدب ، ويعُرف بابن أبي عامر ، والخطيب أبي عبد الله محمد بن علي بن الحفار ، ومحمد بن عبد الملك بن علي القيسي المتتوري صاحب الفهرسة الكبيرة الشهيرة ، ومما أخذ عنه الجرومية بأخذه لها عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن محمد بن سالم الجذامي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي عن مؤلفها أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عُرِف بابن آجروم ، وجميع « خلاصة الباحثين في حصر حال الوارثين » للقاضي أبي بكر عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصاري بأخذه لها عن مؤلفها ، وأجاز له أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي ، والقاضي

١ ترجمة الراعي في الضوء اللامع ٩ : ٢٠٣ وثمرات الذهب ٧ : ٢٧٨ وبغية الوعاة : ١٠٠ واسمه كاملاً محمد بن محمد بن إسماعيل .

أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباتي ، والعلامة أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام ، وعالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني ، وغيرهم من المغاربة ، ومن أشياخه من أهل المشرق الكمال بن خير السكندري ، والزين أبو بكر المراغي ، والزين محمد الطبري ، وأبو إسحاق إبراهيم بن العفيف النابلسي ، في آخرين ، ودخل القاهرة سنة ٨٢٥ هـ فحج واستوطنها ، وسمع بها من الشهاب المتبولي وابن الجزري والحافظ ابن حجر وطائفة ، وأمّ بالمؤيدة وقتاً ، وتصدى للاشتغال ، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى ، لا سيما في العربية ، بل هي كانت فنه الذي اشتهر به وبجودة الإرشاد لها ، وشرح كلاً من الجرومية والألفية والقواعد وغيرها مما حمله عنه الفضلاء ، وله نظم وسط ، قال السخاوي : كتبت عنه منه الكثير ، ومما لم أسمع منه ما أودعه في مقدمة كتاب صنفه في نصرته مذهبه وأثبتته دفعاً لشيء نسب إليه ، فقال :

عليك بتقوى الله ما شئت واتبع	أئمة دين الحق تهتد وتسعد
فمالكم والشافعي وأحمد	ونعمانهم كل إلى الخير يرشد
فتابع لمن أحببت منهم ولا تمل	لذي الجهل والتعصب إن شئت تحمد
فكل سواء في وجية الاقتدا	متابعهم جنات عدن يخلد
وحبهم دين يزين وبغضهم	خروج عن الإسلام والحق يبعد
فلعنة رب العرش والخلق كلهم	على من قلاهم والتعصب يقصد

وكان حاداً اللسان والخلق ، شديد النفرة من الشيخ يحبى العجيسي ، أضر بآخرة ، ومات بسكنه بالصالحية يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجة سنة ٨٥٣ ، بعد أن أنشد قبيل موته بشهر في حال صحته الشيخ جمال الدين ابن الأمانة من نظمه قوله :

أفكر في موتي وبعد فضيحتي	فيحزن قلبي من عظيم خطيئتي
وتبكي دماً عيني وحق لها البكا	على سوء أفعالي وقلة حيلتي

وقد ذابت أكبادي عناء وحسرة
على بُعد أوطاني وفقد أحبي
فما لي إلا الله أرجوه دائماً
ولا سيما عند اقتراب مني
فنسألُ ربي في وفائي مؤمناً
بجاه رسول الله خير البرية
قال السخاوي : ومما كتبه عنه :

الْفَيْتُهُ حَوْلَ الْمُعَلِّمِ بَاكِياً
ودموعه قد صاغها من كَوْنِ
نَشْرَ الدَّمْعِ عَلَى الْخُلُودِ فَخَلَتْهَا
دراً تناثر في عقيقٍ أحمر
وقوله :

عليك بنعمة ربِّ العُلا
وذو العلم فارغ له حقه
فهذا مقالي فلتسمعوا
إذا كنت في نعمة فارغها
وراعِ الملوك لرعي الذمم
وإلا تفارق وتلق الندم
نصيحة خير من أهل الحكم
فإن المعاصي تزيل النعم

وقال ١ :

للغرب فضلٌ شائعٌ لا يُجهلُ
ظهرت به أعلامٌ حقٌ حَقَّقَتْ
مِنْ أَنَّهُمْ حَتَّى الْقِيَامَةِ لَنْ يَزَا
ولأهله شرفٌ ودينٌ يكملُ
ما قاله خيرُ الأنامِ المرسلُ
لوا ظاهرين على الهدى لن يُخذلوا

وممن حدث عن الراعي الحافظ ابن فهد والبرهان البقاعي ، ومن تأليفه
« شرح القواعد » وكتاب « انتصار الفقير السالك لمذهب الإمام الكبير مالك »
في كرايس أربعة حسن في موضوعه ، وله « التوازل النحوية » في عشرة
كراريس أو أكثر وفيها فوائد حسنة وأبحاث راقية ، تكلم معه في بعضها أبو

عبد الله ابن العباس التلمساني .

وذكر بعضهم أنه اختصر شرح شيخه ابن مرزوق على مختصر الشيخ خليل من باب القضاء إلى آخر الكتاب ، انتهى .

وجرت له في صغره حكاية دلت على بُبله ، وهي أنه دخل على الطلبة رجل وهم بجامع غرناطة ، فسألهم عمّن كان وراء إمام ، فحدث للإمام عذر ذهب لأجله ، مثل الرعاف مثلاً ، فصلوا بعض الصلاة لأنفسهم ، ثم اقتدوا بإمام منهم قدموه فيما بقي ، فهل تصح صلاتهم أم لا ؟ فلم يكن عند أحد من الحاضرين فيها علم ، فقال هو : إن الصلاة باطلة ، لأن النحاة يقولون : الإتياع بعد القطع لا يجوز .

وقد حكى ذلك في شرحه للجرومية الذي سمّاه بعنوان الإفادة في باب النعت إذ قال ما نصّه : كنت جالساً بمسجد قيسارية غرناطة أنتظر سيدنا وشيخنا أبا الحسن علي بن سمعة رحمه الله تعالى مع جماعة من كبار طلبته ، وكنت إذ ذاك أصغرهم سنّاً وأقلهم علماً ، فدخل سائل سأل عن مسألة فقهية نصّها : إن إماماً صلى بجماعة جزءاً من صلاة ، ثم غلب عليه الحدث ، فخرج ولم يستخلف عليهم ، فقام كل واحد من الجماعة وصلى وحده جزءاً من الصلاة ، ثم بعد ذلك استخلفوا من أتمّ بهم الصلاة ، فهل تصحّ تلك الصلاة أم لا ؟ فلم يكن فيها عند الحاضرين جواب ، فقلت : أنا أجاب فيها بجواب نحوي ، فقال : هات الجواب ، فقلت : هذا إتياع بعد القطع ، وهو ممتنع عند النحويين ، فصلاة هؤلاء باطلة ، فاستظرفها مني من حضر لصغر سني ، ثم طلبنا النصّ فيها فلم نلقه في ذلك التاريخ ، ولو لقيناه لكان الجواب حسناً ، انتهى .

ومن أغازه قوله .

حاجيتُكم نحاتنا المصريّة أولي الذكا والعلم والطعمية
ما كلمات أربع نحوية جُمِعن في حرفين للأحجية

يعني فعل الأمر للواحد من « وأى يني » إذا أضمر ، فإنك تقول فيه :
« إ » يا زيد على حرف واحد ، وهو الهمزة المقطوعة ، فإذا قلت « قُلْ إ » ونقلته حركته
على لغة النقل إلى الساكن صار هكذا « قُلْ » فذهب فعل الأمر وفاعله ، فهي
كلمات أربع فعلا أمر وفاعلهما جُمعن في حرفين القاف واللام ، فافهم .
وأحسن من هذا قوله ملغزاً في ذلك أيضاً :

في أيّ لفظٍ يا نحاةَ الملةِ حَرَكةٌ قامت مقامَ الجملةِ

وبالجملة فمحاسنه كثيرة ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .
ومن فوائده قوله : حكى لي بعض علماء المالكية قال : كنّا نقرأ المدوّنة على
الشيخ سراج الدين البلقيني الشافعي ، فوقعت مسألة خلافية بين مالك والشافعي ،
فقال الشيخ في مسألة « مذهبنا كذا » في مسألة لم يقل فيها الشافعي بما قال ، وإنّما
نسبها البلقيني لنفسه ، ثم فطن وخاف أن ينتقد عليه المالكية ويقولوا له : أنت
شافعي وهذا ليس مذهب الشافعي ، فقال : فإن قلتم يا مالكية لسنا بمالكية ،
وإنّما أنتم شافعية ، قلنا : كذلك أنتم قاسمية ، وقد اجتمعنا الكل في مالك ،
قال : وهذا الكلام حلّو حسن في غاية الإنصاف من الشيخ .

قال : ولما قرئ عليه كتاب « الشفاء » مدحه وأثنى عليه إلى الغاية ، وكان
يحضره جماعة من المالكية فقال القاضي جمال الدين ابنه : ما لكم يا مالكية
لا تكونون مثل القاضي عياض ؟ فقال له أبوه الشيخ سراج الدين المذكور :
وما لك لا تقول للشافعية ما لكم يا شافعية لا تكونون مثل القاضي عياض ؟

ومن فوائده الراعي في باب العَلَم من شرحه على الألفية : في الكلب عشر
خصال محمودة ينبغي أن تكون في كل فقير ، لا يزال جائعاً ، وهو من دأب
الصالحين ، ولا يكون له موضع يُعرف به ، وذلك من علامة المتوكلين ، ولا
ينام من الليل إلا القليل ، وذلك من صفات المحبين ، وإذا مات لا يكون له
ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين ، ولا يهجر صاحبه وإن جفاه وطرده ،

وذلك من شيم المريدين ، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير ، وذلك من إشارة القانعين ، وإذا غلب عن مكانه تركه وانصرف إلى غيره ، وذلك من علامة المتواضعين ، وإذا ضرب وطُرد ثم دعي أجاب ، وذلك من أخلاق الخاشعين ، وإذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد ، وذلك من أخلاق المساكين ، وإذا رحل لا يرحل معه شيء ، وذلك من علامة المتجردين ، انتهى بمعناه .

وقد نسبه للحسن البصري رحمه الله تعالى ورضي عنه بمنه .

ومن تصانيفه رحمه الله تعالى كتاب « الفتح المنير في بعض ما يحتاج إليه الفقير » في غاية الإفادة ، مَلَكَتْهُ بالمغرب ولم أره بهذه البلاد المشرقية ، وحفظت منه فوائد ممتعة .

٣٠٧ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق بعد أخذ جميع بلاد الأندلس - أعادها الله تعالى - قاضي الجماعة بَغْرَنَاطَة أبو عبد الله محمد بن علي ابن محمد بن الأزرق^١ ، قال السخاوي : إنه لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد ابن فتوح مفتي غَرْنَاطَة في النحو والأصلين والمنطق ، بحيث كان جلُّ انتفاعه به ، وحضر مجالس أبي عبد الله محمد بن محمد السَّرْقُسْطِي العالم الزاهد مفتيها أيضاً في الفقه ، ومجالس الخطيب أبي الفرج عبد الله بن أحمد البقني ، والشهاب قاضي الجماعة بَغْرَنَاطَة أبي العباس أحمد بن أبي يحيى بن شرف التلمساني ، انتهى .

وله رحمه الله تعالى تأليف : منها « بَدَائِعُ السَّلَك فِي طِبَائِعِ الْمَلِك »^٢ كتاب حسن مفيد في موضوعه ، تلخص فيه كلام ابن خلدون في مقدمة تاريخه وغيره مع زوائد كثيرة ، ومنها « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام »

١ ترجمة ابن الأزرق في أزهار الرياض ٣ : ٣١٧ والانس الجليل ٢ : ٥٩١ ، وكانت وفاته في ذي الحجة من سنة ٨٩٦ .

٢ منه نسختان بخزانة الرباط رقم : D 1340 , D 582 .

مجلد ضخيم فيه فوائد وحكايات لم يؤلف في فنه مثله ، وقفت عليه بتلسمان وحفظت منه ما أنشده لبعض أهل عصره مما يكتب في سيف :

إن عمت الأفق من نفع الوغى سحُبُ فشم بها بارقاً من لمع إيماضي
وإن نوت حركات النصر أرض عدى فليس للفتح إلا فعلي الماضي

ومن إنشائه في التأليف المذكور ما صورته : قلت : ولقد كان شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فتوح قدس الله تعالى روحه يفسح لصاحب البحث مجالاً رحباً ، ويوسع المراجع له قبولاً ورحباً ، بل يطالب بذلك ويقتضيه ، ويختار طريق التعليم به ويرتضيه ، توقيفاً على ما خلص له تحقيقه ، ووضح له في معيار الاختيار تدقيقه ، وإلا فقد كان ما يلقيه غاية ما يتحصل ، ويتمهد به مختار ما يحفظ ويتأصل ، انتهى .

وهو يدل على ملكته في الإنشاء ، ويحقق ما يحصله ، إلا أن ذلك إذا طال حتى وقع الملل والضجر أو كاد فينبغي الإمساك عن البحث ، لئلا يفضي الحال إلى ما ينهى عنه .

قال : ومخالفة التلميذ الشيخ في بعض المسائل إذا كان لها وجه وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ ، ولكن مع ملازمة التوقير الدائم ، والإجلال الملائم ، فقد خالف ابن عباس عمر وعلياً وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم ، وكان قد أخذ عنهم ، وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة ، وإنما أخذوا العلم عنهم ، وخالف مالك كثيراً من أشياخه ، وخالف الشافعي وابن القاسم وأشهب مالكا في كثير من المسائل ، وكان مالك أكبر أساتيد الشافعي ، وقال : لا أحد أمن علي من مالك ، وكاد كل من أخذ العلم أن يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل ، ولم يزل ذلك دأب التلاميذ مع الأساتيد إلى زماننا هذا ، وقال : وشاهدنا ذلك في أشياخنا مع أشياخهم رحمهم الله تعالى ، قال : ولا ينبغي للشيخ أن يتبرم من هذه المخالفة

إذا كانت على الوجه الذي وصفناه ، والله تعالى أعلم ، انتهى .
ولما أشد ابن الأزرق المذكور في كتابه « روضة الأعلام » قول القائل
في مدح ابن عصفور :

نَقَلَ النَحْوَ إِلَيْنَا الدُّوْلِي عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَظَلِ
بَدَأَ النَحْوَ عَلِيٌّ وَكَذَا خَتَمَ النَحْوَ ابْنُ عَصْفُورٍ عَلِيٌّ

قال بعده ما نصّه : على أن صاحبنا الكاتب الأديب الأبرع أبا عبد الله محمد
ابن الأزرق الوادي آشي رحمه الله تعالى قد قال فيما يدافع ابن عصفور عما
اقتضاه هذا المدح له بتفضيل الأستاذ المحقق أبي الحسن ابن الضائع عليه ، ولقد
أبدع في ذلك ما شاء لما تضمن من التورية :

بِضَائِعِكَ ابْنَ الضَائِعِ النَّدْبَ قَدَأْتُ بِحِظِّهِ مِنَ التَّحْقِيقِ وَالْعِلْمِ مَوْفُورِ
فَطَرْتُ عُقَاباً كَاسِراً أَوْ مَا تَرَى مَطَارَكَ قَدْ أَعْيَا جَنَاحَ ابْنِ عَصْفُورِ
انتهى .

وقد نقل عن ابن الأزرق صاحب المعيار في جامعته ، وأثنى عليه غير واحد ،
ومن أعظم تأليفه شرحه الحافل على مختصر خليل المسمى بـ « شفاء الغليل في
شرح مختصر خليل » وقد توارد معه الشيخ ابن غازي على هذه التسمية ، وكان
مولانا العم الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقرري رضي الله تعالى
عنه قال لي حين سألت عن هذا التوارد : لعل تسمية ابن الأزرق « شفاء الغليل »
بالعين ، قلت : يُبعد ذلك أن جماعة من تلامذته الأكابر كالوادي آشي وغيره
كتبوه بخطوطهم بالعين المعجمة ، فبان أنه من توارد الخواطر ، وأن كلاهما
لم يقف على تسمية الآخر ، والله تعالى أعلم ، وقد رأيت جملة من هذا الشرح
بتلمسان وذلك نحو ثلاثة مجلدات ، ولا أدري هل أكمله أم لا ، لأن تقديره
بحسب ما رأيت يكون عشرين مجلداً ، إذ المجلد الأول ما أتم مسائل الصلاة ،

ورأيت الخطبة وحدها في أكثر من كراسة أبان فيها عن علوم ، ولم أر في شروح خليل مع كثرتها مثله . ودخل تلمسان لما استولى العدو على بلاد الأندلس ، ثم ارتحل إلى المشرق ، فدخل مصر ، واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس ، فكان كمن يطلب بَيْضَ الأُنُوق ، أو الأبيض العقُوق . ثم حج ورجع إلى مصر فجدّد الكلام في غرضه ، فدافعه عن مصر بقضاء القضية في بيت المقدس ، فتولاه بتزاهة وصيانة وطهارة ، ولم تطل مدته هناك حتى توفيّ به بعد سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، حسبما ذكره صاحب « الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل » فليراجع فإنّه طال عهدي به .

ومن بارع نظمه رحمه الله تعالى قوله في المجبّسات :

وربّ محبوبية تبدّت كأنّها الشمسُ في حلّاهَا
فاعجبْ لحالِ الأثامِ مَنْ قد أحبّها منهم قلاها

ومنه قوله رحمه الله تعالى :

عذريّ في هذا الدخانِ الذي جاور داري واضحٌ في البيانِ
قدّ قلتُ إنّ بها زخرفاً ولا يلي الزخرفَ إلا الدخانُ

وقوله :

تأمّلتُ من حُسْنِ الربيعِ نضارةً وقد غرّدتْ فوق الغصونِ البلابلُ
حكّتْ في غصونِ الدّوّحِ قسّاً فصاحةً لتعلم أن النبتَ في الروضِ باقلُ

وقوله :

وقائلة صفّ للربيع محاسناً فقلتُ وعندي للكلامِ بدارُ
همى ببطّاحِ الأرضِ صوبُ من الحيا فللنّبتِ في وجه الزمانِ عِذارُ

وقوله :

تَعَجَّبْتُ مِنْ يَانِعِ الْوَرْدِ فِي سَنَا وَجَنَةِ نَبْتِهَا بَارِضُ
وَلَيْمٌ لَا يُرَى وَرَدَهَا يَانِعاً وَقَدْ سَالَ مِنْ فَوْقِهَا الْعَارِضُ

وقوله رحمه الله تعالى عند وفاة والدته :

تَقُولُ لِي وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَاكْفَةُ مَا أَفْطَحَ الْبَيْنَ وَالتَّرْحَالَ يَا وَلَدِي
فَقُلْتُ أَيْنَ السَّرَى قَالَتْ لِرَحْمَةِ مَنْ قَدْ عَزَّ فِي الْمَلِكِ لَمْ يُؤْلَدْ وَلَمْ يَلِدْ

قال تلميذه الحافظ ابن داود : ممّا ألفيته بخط قاضي الجماعة أبي عبد الله
ابن الأزرق عن علي رضي الله تعالى عنه : من أراد أن يطول الله عمره ، ويظفر
بعُدوّه ، ويُصان من فتن الدنيا ، ويوسّع عليه بابُ رزقه ، فليقل هذا التسبيح
إذا أصبح ثلاثاً ، وإذا أمسى ثلاثاً : سبحان الله ملء الميزان ، ومنتهى العلم ،
ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، والحمد لله ملء الميزان ، ومنتهى
العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، ولا إله إلا الله ملء الميزان ،
ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، والله أكبر ملء الميزان ،
ومنتهى العلم ، ومبلغ الرضى ، وعدد النعم ، وزنة العرش ، ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم مثل ذلك ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله مثل ذلك .

قال : وبخطه أيضاً لنيل الرزق وما يراد : يا باسط ، يا جواد ، يا علي في
عرشك ، بحق حقك على جميع خلقتك ، ابسط [لي] رزقك ، وسخر لي
خلقتك .

وبخطه أيضاً : بسم الله الرحمن الرحيم الدافع المانع الحافظ الحي القيوم
القوي القادر الولي الناصر الغالب الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في
السماء وهو السميع العليم .

وبخطه أيضاً : يا فتاح ، يا علیم ، يا نور ، يا هادي ، يا حق ، يا مبين ،

افتح لي فتحاً تنور به قلبي ، وتشرح به صدري ، واهدني إلى طريق ترضاه ،
وبيّن لي أمري ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .
انتهى .

وقال رحمه الله تعالى مورياً :

من تكن صنعته الإنشاء لا ينكر الرزق لأقصى العُمر
ولو استعلى على السبع الدرا ري بما في فمه من دُرر
فأنا الكاتب لكن لو يبأ ع لي العتق لكنت المشتري

هكذا رأيت نسبتها إليه .

ولنختم ترجمته ، بل والباب جميعاً ، بقوله ، رحمه الله تعالى ، عند نزول
ظاغية النصارى بمَرَج غَرَنَاطَة أعادها الله تعالى للإسلام بجاه النبي عليه أفضل
الصلاة وأزكى السلام :

مَشُوقٌ بِحَيَمَاتِ الْأَحْبَةِ مُوَلَّعٌ تذكّره نَجْدٌ وتُغْرِيه لَعَلْعُ
مَوَاضِعُكُمْ يَا لَأَثْمِينَ عَلَى الْهَوَى فلم يَبْقَ لِلْسُّلُوفِ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعُ
وَمَنْ لِي بِقَلْبٍ تَلْتَلِظِي فِيهِ زَفْرَةٌ وَمَنْ لِي بِجَفْنٍ تَنْهَمِي مِنْهُ أَدْمُعُ
رُؤْيُكَ فَارْقُبْ لِلطَّائِفِ مَوْضِعاً وَخَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يَتَوَقَّعُ
وَصَبِراً فَإِنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةٍ وَيَا فَوْزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجِعُ
وَبِتْ وَائْتَقِ بِاللَّطْفِ مِنْ خَيْرِ رَاحِمٍ فَالطَّافَةُ مِنْ لَمَحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ
وَأِنْ جَاءَ خَطْبٌ فَانْتَظِرْ فَرَجاً لَهُ فَسَوْفَ تَرَاهُ فِي غَدٍ عَنْكَ يُرْفَعُ
وَكُن رَاجِعاً لِّلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ فليس لنا ، إلا إلى الله ، مَرَجُ

محتويات المجلد الثاني من نفح الطيب

الباب الخامس

في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق . . .

٧٠٤ - ٥

ومخاطبة أعيان دمشق للمؤلف

- | | | | | | | | |
|----|---|---|---|---|---|---|-----|
| ٥ | . | . | . | . | . | عبد الملك بن حبيب السلمي | ١ |
| ٩ | . | . | . | . | . | يحيى بن يحيى الليثي | ٢ |
| ١٢ | . | . | . | . | . | محمد بن أبي عيسى ، أبو عبد الله | ٣ |
| ١٥ | . | . | . | . | . | عتيق بن أحمد الأندلسي | ٤ |
| ١٥ | . | . | . | . | . | إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري ، أبو إبراهيم | ٥ |
| ١٦ | . | . | . | . | . | منذر بن سعيد البلوطي | ٦ |
| ٢٢ | . | . | . | . | . | أبو القاسم ابن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي | ٧ |
| ٢٥ | . | . | . | . | . | محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري ، أبو بكر | ٨ |
| ٤٣ | . | . | . | . | . | محمد بن أبي عامر ابن حجاج الغافقي ، أبو بكر | ٩ |
| ٤٤ | . | . | . | . | . | محمد بن محمد بن محمد بن عيسى بن ذي النون ، أبو عبد الله | ١٠ |
| ٤٥ | . | . | . | . | . | زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون | ١١ |
| ٤٦ | . | . | . | . | . | سوار بن طارق | ١٢ |
| ٤٧ | . | . | . | . | . | بقي بن مخلد (انظر رقم : ٢٠٩) | ١٣٠ |
| ٤٧ | . | . | . | . | . | قاسم بن أصبغ البياني | ١٤ |
| ٤٩ | . | . | . | . | . | قاسم بن ثابت السرقسطي | ١٥ |
| ٥٠ | . | . | . | . | . | قاسم بن أحمد اللورقي المرسي ، أبو محمد | ١٦ |

هذه العلامة • تدل على أن الترجمة مكررة .

- ١٧ - قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار ٥٠
- ١٨ - محمد بن إبراهيم بن أسود الفساني ، أبو بكر ٥١
- ١٩ - محمد بن إبراهيم بن حيون الحجاري ، أبو عبد الله ٥٢
- ٢٠ - محمد بن إبراهيم بن غالب المالقي ، أبو عبد الله ٥٢
- ٢١ - محمد بن إبراهيم البقوري ٥٣
- ٢٢ - محمد بن إبراهيم بن شق الليل الطليطي ، أبو عبد الله ٥٣
- ٢٣ - محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي ، أبو عبد الله ٥٤
- ٢٤ - محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي ، أبو عبد الله ٥٧
- ٢٥ - محمد بن علي بن خلف التجيبي ، أبو بكر ٥٧
- ٢٦ - محمد بن علي بن ياسر الجياني ، أبو بكر ٥٨
- ٢٧ - محمد بن علي التجيبي الدهان الغرناطي ، أبو عبد الله ٥٨
- ٢٨ - محمد بن علي بن أبي الربيع العثماني ، أبو عمر ٥٨
- ٢٩ - محمد بن علي بن محمد بن هذيل البلنسي ، أبو بكر وأبو عبد الله ٥٩
- ٣٠ - محمد بن علي الياسمي الغرناطي ، أبو عبد الله (أو أبو سلمة) ٥٩
- ٣١ - محمد بن علي بن يحيى الشامي الغرناطي ، أبو عبد الله ٥٩
- ٣٢ - محمد بن عمار الكلاعي الميورقي ، أبو عبد الله ٦٠
- ٣٣ - محمد بن عمر بن الفخار القرطبي الحافظ ، أبو عبد الله ٦٠
- ٣٤ - محمد بن عمرو بن القرطبي ، أبو عبد الله ٦١
- ٣٥ - محمد بن عيسى بن نجيم المعافري ، أبو عبد الله ٦٢
- ٣٦ - محمد بن فطيس الغافقي ، أبو عبد الله ٦٢
- ٣٧ - محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار القرطبي ، أبو عبد الله ٦٢
- ٣٨ - محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي الفهري ، أبو عبد الله ٦٣
- ٣٩ - محمد بن لب الشاطبي ، أبو عبد الله ٦٣
- ٤٠ - محمد بن سراقه الشاطبي ، أبو عبد الله ٦٣
- ٤١ - محمد بن محمد بن أحمد الفريشي ، أبو عبد الله ٦٥
- ٤٢ - محمد بن محمد بن خير بن ، أبو عبد الله ٦٥
- ٤٣ - محمد بن محمد بن بندار ، ضياء الدين أبو جعفر ٦٦
- ٤٤ - محمد بن حمز البلنسي الزهري ، أبو بكر ٦٦
- ٤٥ - سليمان بن خلف الباجي ، أبو الوليد ٦٧
- [ترجمة أبي ذر الهروي] ٧٠

- ٧١ رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي .
- ٧٢ رجع إلى الباجي
- ٧٧ [ترجمة ابن حزم الفقيه]
- ٨٤ رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي .
- ٨٥ ٤٦ - محمد بن الوليد الطرطوشي ، أبو بكر
- ٩٠ ٤٧ - محمد بن عبد الجبار الطرطوشي
- ٩٠ ٤٨ - حسين بن محمد بن فيره الصدي ، أبو علي المعروف بابن سكرة .
- ٩٣ ٤٩ - ابن أبي روح الجزيري .
- ٩٣ ٥٠ - عمر بن حسن الهوزني ، أبو حفص
- ٩٤ ٥١ - عثمان بن الحسين ، أبو عمرو أخو ابن دحية
- ٩٥ ٥٢ - محمد بن القاسم المعروف باشكندادة ، أبو بكر
- ٩٧ ٥٣ - محمد بن عبد ربه المالقي ، أبو عبد الله (انظر رقم : ٦٦)
- ٩٩ ٥٤ - عبد المنعم بن عمر بن حسان الجلياني ، أبو محمد (انظر رقم : ٢٣٨ ، ٢٦٢)
- ٩٩ ٥٥ - أبو الخطاب ابن دحية
- ١٠٥ ٥٦ - خلف بن القاسم الدباغ
- ١٠٥ ٥٧ - خلف بن سعيد بن المراتب الكلبي
- ١٠٥ ٥٨ - أمية بن عبد العزيز الإشبيلي ، أبو الصلت
- ١١٠ ٥٩ - عبد الله بن يحيى بن بهلول السرقسطي ، أبو محمد
- ١١٠ ٦٠ - أبو عامر التياري
- ١١١ ٦١ - يوسف بن عتبة الإشبيلي ، أبو الحجاج (انظر رقم : ٣٠٠)
- ١١٢ ٦٢ - ابن مسدي ، محمد بن يوسف بن موسى
- ١١٢ ٦٣ - الحميدي ، محمد بن فتوح بن عبد الله
- ١١٥ ٦٤ - الشريشي ، أحمد بن عبد المؤمن ، أبو العباس شارح المقامات
- ١١٦ ٦٥ - يحيى بن سعدون الأزدي ، أبو بكر
- ١١٨ ٦٦ - محمد بن عبد ربه (انظر رقم : ٥٣)
- ١١٩ ٦٧ - محمد بن الصفار القرطبي ، أبو عبد الله
- ١٢٠ ٦٨ - أبو الوليد ابن الجنان ، محمد بن أبي بكر الشاطبي
- ١٢٣ ٦٩ - أبو محمد القرطبي
- ١٢٤ ٧٠ - علي بن أحمد القادسي الكناني
- ١٢٤ ٧١ - أبو عبد الله ابن العطار القرطبي

- [رسالة للسان الدين في الشفاعة لابن مرزوق الخطيب]
 رجع إلى ذكر الرّاحلين من أعلام الأندلسيين .
- ١٢٥
 ١٢٩
 ١٢٩ . ابن القرضي ، عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ، أبو الوليد
 ١٣١ . محمد بن أحمد بن محمد البكري الشريشي ، أبو بكر .
 ١٣٢ . ابن المغلس ، عبد العزيز بن أحمد بن السيد ، أبو محمد
 ١٣٣ . الحكيم المغربي ، أبو الحكم عبيد الله بن المظفر
 ١٣٥ . أبو عمرو الداني ، عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي
 ١٣٦ . عبد الله بن عيسى بن أبي حبيب ، أبو محمد
 ١٣٧ . أحمد بن علي بن شكر ، أبو العباس
 ١٣٧ . القاسم بن أحمد المريني ، علم الدين
 ١٣٧ . أبو عبد الله ابن أبي الربيع القيسي الغرناطي
 ١٣٨ . محمد بن سعدون بن مرجى العبدري ، أبو عامر
 ١٣٩ . محمد بن سعدون الباجي ، أبو عبد الله
 ١٣٩ . محمد بن سعدون الجزيري ، أبو بكر
 ١٤٠ . محمد بن سعد الأعرج الطليطي ، أبو عبد الله
 ١٤٠ . محمد بن سعيد بن إسحاق الأموي ، أبو عبد الله
 ١٤٠ . محمد بن سعيد بن حسان القرطبي ، أبو عبد الله
 ١٤٠ . محمد بن سليمان المعافري الشاطبي ، أبو عبد الله
 ١٤١ . محمد بن شريح الرعيبي الإشبيلي ، أبو عبد الله
 ١٤٢ . محمد بن صالح الأنصاري المالقي ، أبو عبد الله
 ١٤٢ . محمد بن صالح القحطاني المعافري ، أبو عبد الله (انظر رقم : ١٠١)
 ١٤٢ . محمد بن طاهر بن علي الخزرجي الداني ، أبو عبد الله
 ١٤٣ . محمد بن بشير بن شراحيل المعافري
 ١٤٩ . محمد بن عيسى بن دينار الغافقي
 ١٤٩ . محمد بن يحيى بن يحيى اللثمي
 ١٤٩ . محمد بن مروان بن خطاب ، ابن أبي جمرة
 ١٥٠ . محمد بن أبي علاقة البواب
 ١٥٠ . محمد بن حزم بن بكر التنوخي
 ١٥١ . محمد بن يحيى بن مالك بن عائذ
 ١٥١ . محمد بن عبلون الجيلي العددي

- ١٥٢ . . . محمد بن عبد الرحمن الأزدي ، أبو عبد الله .
- ١٥٢ . . . محمد بن صالح المعافري (انظر رقم : ٩٠) .
- ١٥٣ . . . محمد بن أحمد الأنصاري السرقسطي ، أبو عبد الله .
- ١٥٣ . . . محمد بن عيسى بن بقاء الأنصاري ، أبو عبد الله .
- ١٥٤ . . . محمد بن طاهر بن علي الأنصاري ، أبو عبد الله .
- ١٥٤ . . . محمد بن أبي سعيد القرج بن عبد الله البراز .
- ١٥٥ . . . محمد بن الحسين الميورقي ، أبو بكر .
- ١٥٥ . . . محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدي ، أبو الحسن ابن عزيمة .
- ١٥٦ . . . محمد بن أحمد بن إبراهيم الخزرجي ، أبو عبد الله .
- ١٥٧ . . . محمد بن علي بن ياسر الأنصاري ، أبو عبد الله .
- ١٥٨ . . . ابن سعادة ، محمد بن يوسف ، أبو عبد الله .
- ١٦٠ . . . محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي .
- ١٦٠ . . . محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، أبو عبد الله .
- ١٦١ . . . محيي الدين ابن عربي الحانمي .
- ١٧٠ . . . [سعد الدين ابن الشيخ محيي الدين]
- ١٧٠ . . . [حكاية عن ابن جزي] .
- ١٧١ . . . رجع إلى سعد الدين .
- ١٧٣ . . . رجع إلى الشيخ محيي الدين .
- ١٨٥ . . . أبو الحسن الششتري ، علي بن عبد الله النميري .
- ١٨٧ . . . الحرالي ، علي بن أحمد ، أبو الحسن .
- ١٩٠ . . . أبو العباس المرسي .
- ١٩٤ . . . أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطريحي (انظر رقم : ٢٩٣) .
- ١٩٥ . . . ابن عفيف الخزرجي ، علي بن محمد بن يوسف ، أبو الحسن .
- ١٩٦ . . . ابن سبعين ، أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم .
- ٢٠٥ . . . [رجع إلى الششتري] .
- ٢٠٧ . . . ابن غصن الإشيلي ، محمد بن إبراهيم ، أبو عبد الله .
- ٢٠٨ . . . أحمد بن يوسف الفهري اللبلي ، أبو جعفر .
- ٢١٠ . . . محمد بن أحمد ، أبو عبد الله ابن فرح القرطبي .
- ٢١٢ . . . محمد بن أحمد بن حاضر الجزيري .
- ٢١٢ . . . محمد بن أحمد التجيبي ، أبو القاسم .

- ٢١٢ . . . محمد بن أحمد وقيل محمد بن عيسى الخزرجي ، أبو بكر . ١٢٥
- ٢١٣ . . . محمد بن أحمد بن فرج الهاشمي ، أبو بكر . ١٢٦
- ٢١٤ . . . محمد بن أحمد الزهري ، أبو عبد الله . ١٢٧
- ٢١٤ . . . محمد بن أحمد بن عبد الأعلى القرطبي ، أبو عبد الله . ١٢٨
- ٢١٥ . . . محمد بن أحمد الباجي ، أبو عبد الله . ١٢٩
- ٢١٥ . . . محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتيبي ، أبو عبد الله . ١٣٠
- ٢١٦ . . . محمد بن أحمد بن محمد المعافري ، أبو عبد الله . ١٣١
- ٢١٧ . . . محمد بن أحمد بن محمد الطليطلي النقاش . ١٣٢
- ٢١٧ . . . محمد بن أحمد القيسي القبري ، أبو عبد الله . ١٣٣
- ٢١٧ . . . محمد بن أحمد بن محمد بن سجمان ، أبو بكر الوائلي . ١٣٤
- ٢١٨ . . . محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القرطبي ، أبو عبد الله . ١٣٥
- ٢١٩ . . . محمد بن أحمد بن موسى الواضحي ، أبو عبد الله . ١٣٦
- ٢١٩ . . . محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري ، أبو عبد الله . ١٣٧
- ٢٢٠ . . . محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلي ، أبو عبد الله . ١٣٨
- ٢٢٠ . . . محمد بن أسباط المخزومي . ١٣٩
- ٢٢٠ . . . محمد بن إسحاق ، ابن السليم . ١٤٠
- ٢٢٠ . . . موسى بن بهيج المغربي . ١٤١
- ٢٢١ . . . موسى بن سعادة ، أبو عمران المرسي . ١٤٢
- ٢٢٢ . . . عبد الله بن طاهر ، أبو محمد . ١٤٣
- ٢٢٢ . . . محمد بن عبد الله بن مالك ، أبو عبد الله ، النحوي . ١٤٤
- ٢٢٣ . . . [تعريف بابنه بدر الدين] . ١٤٥
- ٢٣٤ . . . محمد بن طاهر القيسي التدميري ، أبو عبد الله . ١٤٦
- ٢٣٥ . . . محمد بن عبد الجليل القيجاطي ، أبو عبد الله . ١٤٧
- ٢٣٥ . . . أبو حامد الغرناطي الرحالة . ١٤٨
- ٢٣٦ . . . محمد بن عبد السلام القرطبي الحشفي ، أبو عبد الله . ١٤٩
- ٢٣٧ . . . محمد بن عبد الملك بن أيمن القرطبي ، أبو عبد الله . ١٥٠
- ٢٣٧ . . . محمد بن عبد الملك بن ضيفون القرطبي ، أبو عبد الله . ١٥١
- ٢٣٨ . . . محمد بن عبد الملك الخزرجي القرطبي ، أبو عبد الله . ١٥٢
- ٢٣٨ . . . محمد بن عبد الملك ابن السراج ، أبو بكر . ١٥٣
- ٢٣٨ . . . محمد بن عبد الله بن أحمد العنسي ، أبو عبد الله . ١٥٤

- ٢٣٩ ١٥٤ - محمد بن عبد الله بن الدفاع ، أبو عبد الله .
- ٢٣٩ ١٥٥ - محمد بن عبد الله بن عابد المعافري ، أبو عبد الله .
- ٢٣٩ ١٥٦ - محمد بن عبد الله بن هاجد الأنصاري ، أبو عبد الله .
- ٢٤٠ ١٥٧ - محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبي ، أبو الوليد .
- ٢٤١ ١٥٨ - محمد بن عبد الله بن أبي الفضل المرسي ، أبو عبد الله .
- ٢٤٣ ١٥٩ - محمد بن عبد الله التنبّي ، أبو بكر .
- ٢٤٣ ١٦٠ - محمد بن عبد الله الخولاني ، أبو عبد الله .
- ٢٤٣ ١٦١ - محمد بن عبد الله اللوشي ، أبو عبد الله .
- ٢٤٤ ١٦٢ - محمد بن عبدون العذري ، أبو عبد الله .
- ٢٤٤ ١٦٣ - عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر ، أبو مروان .
- ٢٤٦ [رسالة للفتح في غريق]
- ٢٤٧ رجع إلى بيت بني زهر .
- ٢٥٣ ١٦٤ - يوسف بن إبراهيم الساحلي ، أبو الحجاج .
- ٢٥٤ ١٦٥ - يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال .
- ٢٦٢ ١٦٦ - علي بن موسى بن سعيد العنسي ، أبو الحسن .
- ٢٩٠ [نقول عن ابن سعيد ١ : - بناء الهودج بروضة مصر]
- ٢٩٢ ٢ - مكين الدولة ابن حديد
- ٢٩٤ ٣ - الشهاب التلعفري
- ٢٩٦ ٤ - العادل بن أيوب
- ٢٩٩ ٥ - المرذغاني
- ٣٠٠ ٦ - دفرخوان الدمشقي
- ٣٠١ ٧ - الزناطي وابن الريب
- ٣٠٢ رجع إلى نظم ابن سعيد .
- ٣١٨ [أبو عبد الله ابن سعيد]
- ٣٢٠ رجع إلى أخبار أبي عبد الله ابن سعيد
- ٣٢٢ [ذكر المستنصر الجففي]
- ٣٢٨ [مقتبسات من خطبة المغرب]
- ٣٣٠ [قلعة بني سعيد]
- ٣٣٠ [أولية بني سعيد]
- ٣٣١ [شعر لأبي بكر ابن سعيد]
- ٣٣١ [ترجمة النساني من المغرب]
- ٣٣٢ [إجازته للتيغاشي رواية المغرب]

٣٣٢	[شعر لابن سعيد]
٣٣٣	[ترجمة والد ابن سعيد من المغرب]
٣٣٥	[محمد بن عبد الملك بن سعيد]
٣٣٦	[عبد الملك بن سعيد]
٣٣٧	[وصف ابن سعيد للقسطاط]
٣٤٤	[وصف القاهرة]
٣٥٠	بعض أخبار والد ابن سعيد
٣٥٢	[وصية ابن سعيد الأب لابنه علي]
٣٦٢	[رسالة ابن سعيد الأب لعبد الواحد الموحد]
٣٦٤	[من شعر والد ابن سعيد]
٣٦٦	رجع إلى أبي الحسن ابن سعيد
٣٧٠	١٦٧ - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد
٣٧٤	١٦٨ - علي بن عبد الله بن حمزة القرطبي ، أبو الحسن
٣٧٤	١٦٩ - محمد بن علي بن يوسف الأنصاري ، أبو عبد الله
٣٧٨	١٧٠ - حميد بن عبد الله بن الحسن القرطبي ، أبو بكر
٣٧٩	١٧١ - اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي
٣٧٩	١٧٢ - محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي ، أبو عبد الله
٣٧٩	١٧٣ - محمد بن أحمد بن عبد الملك الباجي ، أبو مروان
٣٨٠	١٧٤ - وليد بن بكر بن محمد العمري
٣٨٠	١٧٥ - عيسى بن سليمان بن عبد الملك الرعيني ، أبو محمد
٣٨١	١٧٦ - سليمان بن أحمد البيني ، أبو الربيع
٣٨١	١٧٧ - أحمد بن يحيى الضبي ، أبو جعفر
٣٨١	١٧٨ - ابن جبير الرحالة ، محمد بن أحمد ، أبو الحسين
٣٨٣	١٧٩ - رفيق ابن جبير ، أحمد بن الحسن القضاعي ، أبو جعفر
٣٨٣	رجع إلى ابن جبير
٣٨٧	[كلام للوادي آثي في التعليق على وصف ابن جبير لدمشق]
٣٨٧	رجع إلى كلام ابن جبير
٣٨٩	[أشعار في وصف دمشق]
٤٠١	[تعريف بابن عنين]
٤٠٤	رجع إلى دمشق
٤٠٦	[شعر في ذم دمشق]
٤٠٧	رجع إلى مدح دمشق

٤١٢	.	.	نبذة مما خطوب به المؤلف من علماء الشام وأدبائه .
٤٧٠	.	.	[رسائل من المغرب ترد للمؤلف] .
٤٨٥	.	.	رجع إلى ابن جبير .
٤٩٤	.	.	١٨٠ - أبو عامر ابن عيشون .
٤٩٦	.	.	١٨١ - عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي ، أبو مروان
٤٩٧	.	.	[ابن بسام والهجاء] .
٥٠٠	.	.	[من خطبة الذخيرة] .
٥٠٢	.	.	[الجراوي يهجو قومه]
٥٠٢	.	.	رجع إلى ذكر من ارتحل من علماء الأندلس إلى المشرق .
٥٠٣	.	.	١٨٢ - حبيب بن الوليد بن حبيب المعروف بدحون
٥٠٤	.	.	١٨٣ - بهلول بن فتح
٥٠٤	.	.	١٨٤ - ثابت بن أحمد بن عبد الولي الشاطبي ، أبو الحسن .
٥٠٥	.	.	١٨٥ - جعفر بن لب بن ميمون اليحصبي ، أبو أحمد .
٥٠٦	.	.	١٨٦ - جعفر بن عبد الله بن سيد بونه الخزاعي ، أبو أحمد .
٥٠٦	.	.	١٨٧ - أبو جعفر النحوي
٥٠٦	.	.	١٨٨ - جابر بن أحمد الخزرجي ، أبو الحسن .
٥٠٦	.	.	١٨٩ - جهور بن خلف المعافري ، أبو الحسن .
٥٠٧	.	.	١٩٠ - الحسن بن حفص بن الحسن البهراني ، أبو علي .
٥٠٧	.	.	١٩١ - الحسن بن خلف بن يحيى ، ابن برنجال ، أبو علي .
٥٠٨	.	.	١٩٢ - الحسن بن إبراهيم بن تقي الجذامي ، أبو علي .
٥٠٩	.	.	١٩٣ - الحسن بن علي بن الحسن الأنصاري ، أبو علي .
٥٠٩	.	.	١٩٤ - الحسن بن محمد بن الحسن ، ابن الرهيبيل ، أبو علي
٥١٠	.	.	١٩٥ - الحسين بن أحمد بن حي التجيبي
٥١١	.	.	١٩٦ - حماد بن الوليد ، أبو يوسف .
٥١١	.	.	١٩٧ - خلف بن فتح الجبيري ، أبو القاسم .
٥١٢	.	.	١٩٨ - خلف بن محمد بن خلف الفرناطي ، أبو القاسم .
٥١٢	.	.	١٩٩ - خلف بن فرج بن خلف بن فحلون القنطري ، أبو القاسم
٥١٢	.	.	٢٠٠ - زرارة بن محمد بن زرارة .
٥١٢	.	.	٢٠١ - طاهر الأندلسي ، أبو الحسين المالقي .
٥١٣	.	.	٢٠٢ - أبو الطاهر الأندلسي ، الليلي .
٥١٣	.	.	٢٠٣ - طارق بن موسى بن يعيش المنصفي ، أبو محمد .

- ٢٠٤ - محمد بن إبراهيم بن مزيد الأودي ٥١٤
- ٢٠٥ - محمد بن أحمد حياز الشاطبي ، أبو عبد الله ٥١٤
- ٢٠٦ - محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سماعة اللخمي ، أبو مروان ٥١٤
- ٢٠٧ - أحمد بن محمد الواعظ المصري (الشهير بالزير كذاكت)^١ ٥١٦
- ٢٠٨ - إبراهيم بن عبد العزيز الإشبيلي ، زكي الدين أبو إسحاق ٥١٧
- ٢٠٩ - بقي بن مخلد بن يزيد ، أبو عبد الرحمن (انظر رقم : ١٣) ٥١٨
- ٢١٠ - يوسف بن يحيى الأزدي المغامي ٥٢٠
- [بين ابن خلدون وتيمورلنك] ٥٢١
- ٢١١ - أبو بكر ابن عطية ٥٢٣
- [ترجمة عبد الحق بن عطية] ٥٢٦
- ٢١٢ - أحمد بن فرح ، شهاب الدين أبو العباس ٥٢٨
- ٢١٣ - عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر ، أبو الأصم ٥٣١
- ٢١٤ - الشيخ خالد البلوي ، أبو البقاء ، الرحالة ٥٣٢
- ٢١٥ - ابن الحاج النميري ، برهان الدين أبو إسحاق ٥٣٤
- ٢١٦ - أبو حيان أثير الدين الجبائي النحوي ٥٣٥
- ٢١٧ - حازم بن محمد القرطاجي ، أبو الحسن ٥٨٤
- ٢١٨ - ابن الأبار ، محمد عبد الله بن أبي بكر ، أبو عبد الله ٥٨٩
- ٢١٩ - ابن مسدي ، جمال الدين محمد بن يوسف ، أبو المكارم ٥٩٤
- ٢٢٠ - خلف بن عبد العزيز القبتوري ، أبو القاسم ٥٩٥
- ٢٢١ - ابن الرومية ، أحمد بن محمد بن مفرج ، أبو خليل ٥٩٦
- ٢٢٢ - أحمد بن عبد السلام الغافقي ، أبو العباس ٥٩٨
- ٢٢٣ - ابن وكييل الإقليشي ، أحمد بن معد ، أبو العباس ٥٩٨
- ٢٢٤ - ابن افرند ، أحمد بن عمر المعافري ، أبو العباس ٦٠٠
- ٢٢٥ - أحمد بن عبد الملك الضبي ، أبو جعفر ٦٠١
- ٢٢٦ - أبو عمر ابن عات ٦٠١
- ٢٢٧ - أحمد بن تميم بن حنون ، أبو العباس ٦٠٣
- ٢٢٨ - ابن كوزان ، أحمد بن إبراهيم المخزومي ، أبو جعفر ٦٠٣

١ لا يعد من الراحلين وإنما أهله رحلوا من الأندلس وولد هو بتونس .

- ٢٢٩ — أحمد بن محمد بن عياش ، أبو جعفر ٦٠٤
- ٢٣٠ — إبراهيم بن عبد الله بن حزم الغافقي ، أبو إسحاق ٦٠٤
- ٢٣١ — إبراهيم بن منبه بن عمر الغافقي ، أبو أمية ٦٠٥
- ٢٣٢ — أبو القاسم بن فورتش ، إسماعيل بن يحيى السرقسطي ٦٠٦
- ٢٣٣ — محمد بن يحيى السرقسطي (أخوه) ٦٠٦
- ٢٣٤ — إسماعيل بن أحمد القرشي ، أبو الطاهر ٦٠٦
- ٢٣٥ — عيسى بن عبد الله التاكرفي ، أبو الروح ٦٠٦
- ٢٣٦ — علي بن أحمد بن حمدون ، أبو الحسن ٦٠٩
- ٢٣٧ — عبد البر بن فرسان الوادي آشي ٦١١
- ٢٣٨ — عبد المنعم بن عمر الفسافي الجلياني (انظر رقم : ٥٤ ، ٢٦٢) ٦١٤
- ٢٣٩ — أحمد بن مسعود القرطبي ، أبو العباس ٦١٤
- ٢٤٠ — أبو العباس القرطبي (صاحب المفهم) ٦١٥
- ٢٤١ — ابن سيد بونه ، جعفر بن عبد الله ، أبو أحمد ٦١٦
- ٢٤٢ — محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب الخزرجي الشاطبي ٦١٦
- ٢٤٣ — محمد بن يحيى الأندلسي اللبسي ٦١٧
- ٢٤٤ — أبو عبد الله ابن الحكيم الرندي ٦١٨
- ٢٤٥ — عبد العزيز بن هلال اللخمي ، أبو محمد ٦٢٦
- ٢٤٦ — أبو بكر ابن العربي الحفيد ٦٢٦
- ٢٤٧ — ابن الخراز ، يحيى بن عبد العزيز القرطبي ٦٢٧
- ٢٤٨ — جمال الدين الشريشي ، أبو بكر ٦٢٧
- ٢٤٩ — أبو بكر ابن محمد بن علي بن ياسر الجياني ٦٢٨
- ٢٥٠ — العلاء بن عبد الوهاب بن حزم ، أبو الخطاب ٦٢٩
- ٢٥١ — يحيى بن قاسم بن أبي هلال ، أبو زكريا ٦٣٠
- ٢٥٢ — يحيى بن مجاهد بن عوافة ، أبو بكر ٦٣٠
- ٢٥٣ — محمد بن أحمد بن إبراهيم الصديقي ، أبو بكر ٦٣١
- ٢٥٤ — زكريا بن خطاب ، أبو يحيى ٦٣٢
- ٢٥٥ — سعد الخير بن محمد البلنسي ، أبو الحسن ٦٣٢
- ٢٥٦ — سعيد بن نصر بن خلفون ، أبو عثمان ٦٣٣
- ٢٥٧ — سعيد الأعناني ، أبو عثمان ٦٣٣
- ٢٥٨ — عبد الرحمن بن خلف الإقلبيشي ، أبو المطرف ٦٣٣

- ٢٥٩ - ابن الطحان ، عبد العزيز بن علي ، أبو الأصغ . ٦٣٤ .
- ٢٦٠ - عبد العزيز بن خلف المعافري ، أبو الأصغ . ٦٣٥ .
- ٢٦١ - عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة ، أبو محمد . ٦٣٥ .
- ٢٦٢ - عبد المنعم بن عمر الغساني الحلبي (انظر رقم : ٥٤ ، ٢٣٨) . ٦٣٥ .
- ٢٦٣ - عبد الوهاب بن محمد القرطبي ، أبو القاسم . ٦٣٧ .
- ٢٦٤ - عبيد الله (أو عبد الله) بن المظفر الباهلي ، أبو الحكم . ٦٣٧ .
- ٢٦٥ - سليمان بن إبراهيم بن صافي ، أبو الربيع . ٦٣٩ .
- ٢٦٦ - طالوت بن عبد الجبار المعافري . ٦٣٩ .
- ٢٦٧ - ابن خروف الأديب القيسي ، علي بن محمد . ٦٤٠ .
- ٢٦٨ - مالك بن مالك الحلبي . ٦٤٢ .
- ٢٦٩ - منصور بن خميس اللخمي ، أبو علي . ٦٤٢ .
- ٢٧٠ - منصور بن لب بن عيسى الأنصاري . ٦٤٣ .
- ٢٧١ - مفرج بن حماد المعافري . ٦٤٣ .
- ٢٧٢ - محب بن الحسين . ٦٤٣ .
- ٢٧٣ - مساعد بن أحمد بن مساعد الأصبحي . ٦٤٤ .
- ٢٧٤ - نصر بن القاسم ، أبو حبيب . ٦٤٥ .
- ٢٧٥ - النعمان بن النعمان المعافري . ٦٤٥ .
- ٢٧٦ - نعم الخلف بن عبد الله الحضرمي . ٦٤٥ .
- ٢٧٧ - ثابت بن المقرج الخثعمي . ٦٤٥ .
- ٢٧٨ - ضمام بن عبد الله . ٦٤٥ .
- ٢٧٩ - ضرغام بن عروة بن أبي فريعة . ٦٤٦ .
- ٢٨٠ - عبد الله بن أبي عامر (والد المنصور) . ٦٤٦ .
- ٢٨١ - عبد الله بن حمود الزبيدي أبو محمد . ٦٤٧ .
- ٢٨٢ - عبد الله بن رشيق القرطبي . ٦٤٧ .
- ٢٨٣ - عبد الله بن طلحة ، أبو بكر البابري . ٦٤٨ .
- ٢٨٤ - عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبي ، أبو محمد . ٦٤٩ .
- ٢٨٥ - عبد الله بن محمد الصريح ، أبو محمد . ٦٤٩ .
- ٢٨٦ - عبد الله بن عيسى الشلبي ، أبو محمد . ٦٥٠ .
- ٢٨٧ - عبد الله بن موسى الأردني ، أبو محمد . ٦٥٠ .
- ٢٨٨ - عبد الله بن محمد بن سعادة ، أبو محمد . ٦٥٢ .

- ٢٨٩ - عبد الله بن يوسف القضاعي ، أبو محمد . ٦٥٢ .
- ٢٩٠ - أحمد بن عبد الله بن مهاجر الوادي آشي ، شهاب الدين . ٦٥٣ .
- ٢٩١ - أحمد بن صابر القيسي ، أبو جعفر . ٦٥٥ .
- ٢٩٢ - أبو القاسم الباجي (ابن القاضي أبي الوليد) . ٦٥٦ .
- ٢٩٣ - إبراهيم بن محمد الساحلي ، أبو إسحاق (انظر رقم : ١١٧) . ٦٥٧ .
- ٢٩٤ - أبو ركوة ، الوليد بن هشام الأموي . ٦٥٨ .
- ٢٩٥ - يحيى بن سليمان الطليطلي ، أبو زكريا . ٦٦٠ .
- ٢٩٦ - يحيى بن عبد الله بن محمد القرطبي ، أبو بكر . ٦٦٠ .
- ٢٩٧ - محمد بن علي بن سلمة الأنصاري ، أبو عبد الله . ٦٦١ .
- ٢٩٨ - محمد بن علي بن يحيى الغرناطي ، أبو عبد الله . ٦٦١ .
- ٢٩٩ - نور الدين أبو الحسن المائري . ٦٦٢ .
- ٣٠٠ - ابن عتبة الإشبيلي (انظر رقم : ٦١) . ٦٦٣ .
- ٣٠١ - أبو عبد الله ابن جابر الضرير . ٦٦٤ .
- تقاريط على كتاب « نسيم الصبا » . ٦٧١ .
- ٣٠٢ - أبو جعفر الإلبيري (رفيق ابن جابر) . ٦٧٥ .
- أشعار لابن جابر . ٦٧٩ .
- رجع إلى أبي جعفر . ٦٨٠ .
- رجع إلى مقطعات ابن جابر . ٦٨١ .
- رجع إلى نظم أبي جعفر . ٦٨٤ .
- مقطعات لابن جابر . ٦٨٤ .
- رجع إلى أبي جعفر . ٦٨٧ .
- ٣٠٣ - عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي ، أبو مروان . ٦٩٠ .
- ٣٠٤ - ابن البيطار المالقي . ٦٩١ .
- ٣٠٥ - القلصادي ، علي بن محمد ، أبو الحسن . ٦٩٢ .
- ٣٠٦ - أبو عبد الله الراعي ، شمس الدين الغرناطي . ٦٩٤ .
- ٣٠٧ - ابن الأزرق صاحب بدائع السلك . ٦٩٩ .

Abu 'l- 'Abbās A. al- Maqqarī

NAFH AT-TĪB

II

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon